

مَجَلَّةُ  
كَلِيَّةِ الْآدَابِ  
بِطَبْوَاقِ

بِسْمِ  
اللَّهِ  
الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ

مطبعة النور الجديدة  
الشارع الرئيسي

الأيدياع القانوني رقم 1/1987



جامعة سيدي محمد بن عبد الله

مجلة

كلية الآداب

بتطوان

عدد خاص بندوة  
سنة التاريخ والتراث

1410 - 1989

السنة الثالثة - العدد 3

المملكة المغربية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

° ° °

مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية

بتطوان

° ° °

تصدر مرة كل سنة

° ° °

المدير المسؤول : عميد الكلية د. محمد الكتاني

أعضاء هيئة التحرير الأساتذة

|                 |                   |
|-----------------|-------------------|
| حسن السوراكلي   | محمد بوكبوط       |
| عبد الله اجبيلو | بوليفة عبد العزيز |
| بوبكر الكوش     | محمد العميري      |
| عبد السلام شقور |                   |

العنوان

كلية الآداب والعلوم الانسانية

صندوق البريد 26 — مرتيل — تطوان

المغرب

تعبر المقالات والأبحاث الواردة  
على المجلة لنشرها عن آراء  
أصحابها. وعليهم وحدهم  
مسئوليتها ولا ترد إليهم هذه  
المقالات نشرت أو لم تنشر

## الفهرس

- 9 ..... برنامج الندوة الثانية.
- 17 ..... كلمة السيد العميد.
- 21 ..... نظرة إجمالية عن الملتقى الثاني حول سبتة.

### سبتة من خلال التاريخ والتراث

- إمارة بني العزفي وأوضاع سبتة أيام حكمهم
- 25 ..... إبراهيم حركات.
- وثائق مغربية جديدة حول القبائل المجاورة لسبتة (1892-1911) مثال قبيلة أنجرة
- 43 ..... عبد العزيز التسماني خلوق.
- التخطيط المادي لمدينة سبتة الإسلامية محاولة في إعادة بناء التركيبة الحضرية
- 59 ..... زليخة بن رمضان ميمون.
- احتلال البرتغاليين مدينة سبتة المغربية (818هـ/1415م) مقدماته ودوافعه ونتائجه
- 77 ..... أمين توفيق الطيبي.
- قضية استنجداء ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين وعبور الجيوش المرابطية إلى الأندلس
- من سبتة إلى الزلافة
- 101 ..... أحمد بن عبود.
- شواهد من ازدهار الوراقة في سبتة الإسلامية
- 117 ..... محمد المنوني.

|     |                                            |
|-----|--------------------------------------------|
| 121 | صورة سبتة في المعاجم الجغرافية             |
|     | عبد المالك الشامي.....                     |
| 135 | سبتة من خلال كتاب أعلام مالقة              |
|     | عبد الله المرباط الترغي.....               |
| 163 | أصداء احتلال سبتة وتحريرها في الشعر العربي |
|     | عبد الله بنصر العلوي.....                  |
| 181 | سبتة في السياسة البريطانية                 |
|     | محمد أبو طالب.....                         |

## في الحياة العلمية والأدبية بسبتة

|     |                                                                                                  |
|-----|--------------------------------------------------------------------------------------------------|
| 191 | مدخل إلى الحركة النقدية في سبتة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة                               |
|     | علي لغزيوي.....                                                                                  |
| 217 | دور المدرسة الشارية في الحياة العلمية بسبتة                                                      |
|     | اسماعيل الخطيب.....                                                                              |
| 227 | جوانب من الحياة الفكرية بسبتة في عهد البرغواطيين والمرابطين من خلال «مختصر المدارك» — لابن حمادة |
|     | سعيد أعراب.....                                                                                  |
| 247 | الحركة الشعرية في سبتة في عصر الموحدين                                                           |
|     | محمد مجيد السعيد.....                                                                            |

## أعلام من سبتة

|     |                                              |
|-----|----------------------------------------------|
| 297 | عالم من سبتة ابن رشيد، ورحلته                |
|     | نجاح صلاح الدين القابسي.....                 |
| 311 | عياض الحفيد السبتي مصادر دراسته وملاح شخصيته |
|     | عبد الحميد عبد الله المهرامة.....            |

- «ابن هشام النخعي وبشاطنه المعوي في سبته في القرن السادس الهجري»  
 327 ..... José Pérez Lázaro نخوسيه بيريث لاثارو  
 التجيبي انحدث السبتي بين الرواية والدراية  
 343 ..... محمد المنتصر الريسوني

## من التراث الأدبي لسبته

- إشكال المنهج والمصطلح في النقد التطبيقي في «رفع الحجب المستورة...»  
 397 ..... علاء الغازي  
 مراسلات أدبية بين سبته وجزيرة منرقة  
 439 ..... سعيد بن الأحرش  
 الخلفية السياسية الفكرية للتراث النقدي السبتي في مرحلته الأولى  
 451 ..... جعفر بن الحاج السلمي  
 شرح الشريف السبتي لمقصورة حازم وتأصيل الأسس النقدية لفن المقصورات  
 463 ..... محمد الدناي  
 تحفة القاصد في أسنى المقاصد لأحمد بن منديل العزفي  
 479 ..... حسن الوراكلي  
 نظرات في شاعرية مالك ابن المرحل  
 485 ..... محمد مسعود جبران  
 كلمة اختتام أعمال الندوة.....  
 531 .....  
 الملتقى العلمي الثاني لكلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان  
 534 ..... عبد القادر الخراز



## برنامج الندوة الثانية

الخميس 26 شعبان — 14 أبريل

15,30 جلسة الافتتاح

— تلاوة قرآنية.

— كلمة السيد العميد

— كلمة السيد رئيس اللجنة العلمية للملتقى

— حفل الاستقبال.

— افتتاح معرض الكتب والصور السبئية.

الجلسة الأولى : برئاسة الدكتور عبد الكريم كريم

رئيس جمعية المؤرخين المغاربة

د. أمين توفيق الطيبي (كلية التربية — جامعة الفاتح — 17,00

ليبيا).

احتلال البرتغاليين مدينة سبتة المغربية : مقدماته، ودوافعه،

ونتائجه.

د. علال الغازي (كلية الآداب — الرباط) 17,20

إشكالية المنهج والمصطلح عند الشريف السبتي الغرناطي

(قراءة في النص الشعري وشرحه)

ذ. زليخة بنرمضان ميمون (الرباط). 17,40

التخطيط المادي لمدينة سبتة الإسلامية.

ذ. عبد الملك الشامي (كلية الآداب — فاس) صورة سبتة 18,00

من خلال المعاجم القديمة.

|                                                                                                                                                                                    |       |
|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-------|
| ذ.عبد السلام شقور (كلية الآداب — تطوان)<br>من بيوتات سبتة                                                                                                                          | 18,20 |
| ذ.إسماعيل الخطيب (كلية أصول الدين — تطوان)<br>دور المدرسة في الحياة العلمية بسبتة                                                                                                  | 18,40 |
| د. كونسيبيون كستيو (كلية الآداب — جامعة<br>غرناطة إسبانيا)                                                                                                                         | 19,00 |
| Algunos puntualizaciones en tsrno dal K. al Sifa el Qadi lyad.                                                                                                                     |       |
| ذ.محمد المنتصر الريسوفي (أستاذ متفرغ للبحث —<br>تطوان) التجيبي المحدث السبتي بين الرواية والدراسة                                                                                  | 19,20 |
| الجمعة 27 شعبان — 15 أبريل <sup>(٥)</sup><br>صباحا :                                                                                                                               |       |
| الجلسة الثانية :                                                                                                                                                                   |       |
| برئاسة الدكتور مصطفى عبد القادر النجار<br>الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب                                                                                                       | 9,00  |
| د.إبراهيم حركات (كلية الآداب — الرباط)<br>إمارة بني العزفي وأوضاع سبتة أيام حكمهم                                                                                                  | 9.20  |
| د.خيسوس ثانون (المعهد الفيلولوجي — مدريد)<br>Algunos aspectos de la vida intelectual en Ceuta a<br>través de el (al - Dayl wa - l - Takmila) de Ibn Abad<br>al-Malik al-Marrakusi. | 9.40  |
| ذ.أحمد العلمي حمدان (كلية الآداب — فاس) البناء<br>الحجاجي في كتاب «الشفاء» للقاضي عياض                                                                                             |       |
| * * *                                                                                                                                                                              |       |
| استراحة                                                                                                                                                                            | 10.00 |
| د.محمد رزوق (كلية الآداب — الدار البيضاء)<br>ملاحظات حول بعض المحاولات المغربية لاسترجاع مدينة<br>سبتة.                                                                            | 10.20 |

(٥) تم عقد جلستين متزامنتين بالنسبة ليومي الجمعة والسبت لكثرة المداخلات.



|                                                                                                                            |       |
|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-------|
| د. عبد العزيز حقوق التسماني (كلية أصول الدين —<br>تصوّات)                                                                  | 10.40 |
| وثائق مغربية جديدة حول القبائل المخاورة لسبتة<br>د. أحمد حدادي (كلية الآداب — وجدة)                                        | 11.00 |
| مظاهر الإبداع في فكر السبتيين                                                                                              |       |
| الجلسة الثالثة :                                                                                                           |       |
| برئاسة الدكتورة مارية خيسوس فيغيرا<br>رئيسة قسم الدراسات العربية والإسلامية كلية فقه اللغة<br>— جامعة الكومبوتينسي — مدريد |       |
| د. محمد مفتاح الصغير (كلية الآداب — فاس)                                                                                   | 9,00  |
| ابن دحية السبتي من خلال مؤلفه (وهج الجمر في<br>أسماء الخمر)                                                                |       |
| د. نجاح القابسي (كلية التربية — جامعة الفاتح —<br>ليبيا) عالم من سبتة : ابن رشيد ورحلته                                    | 9,20  |
| د. عبد الحميد عبد الله الزرامة (كلية التربية — جامعة<br>الفاتح — ليبيا)                                                    | 9,40  |
| أعلام أسرة بني عياض السبتيين                                                                                               |       |
| استراحة                                                                                                                    | 10,00 |
| د. حليلة فرحات                                                                                                             | 10,20 |
| (المعهد الجامعي للبحث العلمي — الرباط)<br>دور الخاصة في تدبير المدينة خلال اضطرابات (                                      |       |
| (629 هـ — 635 هـ)                                                                                                          |       |
| د. عبد الكريم كريم (كلية الآداب — الرباط)                                                                                  | 10,40 |
| السعديون ومحاولات تحرير مدينة سبتة خلال القرن<br>العاشر الهجري — ال 16 م.                                                  |       |

مساء

الجلسة الرابعة :

برئاسة الدكتورة نجاح القابسي

- أمينة قسم التاريخ — كلية التربية جامعة الفاتح — ليبيا  
ذ. محمد إبراهيم الكتاني (أكاديمية المملكة المغربية) 16,00
- منهاج الرسوخ في علم الناسخ والمنسوخ — لأبي العباس  
العزفي.
- ذ. سعيد أعراب (أستاذ متفرغ للبحث — تطوان) 16,20
- صور من تاريخ سبته الفكري والاجتماعي من خلال  
«مختصر المدارك» لابن حمادة
- د. محمد مجيد السعيد (اتحاد الجامعات العربية -الأردن) 16,40
- الحركة الشعرية في سبته في عصر الموحدين.
- ذ. أبو القاسم محمد كرو (اللجنة القومية للثقافة —  
تونس) إسهام التونسيين في تحقيق ونشر تراث علماء  
سبته. 17,00
- د. روضولفو خيل كريماو 17,20
- (المركز الثقافي الإسباني — تطوان)
- Ceuta en las relaciones Hispano Marroquies siglos XVI  
y XVII.
- ذ. محمد الدناي (كلية الآداب — فاس) 17,40
- شرح الشريف السبتي لمقصورة حازم (تأصيل الأسس  
النقدية لفن المقصورة)
- \*\*\*
- استراحة 18,00
- د. محمد بن عبود (المعهد الجامعي للبحث العلمي —  
الرباط) من سبته إلى الزلافة (قضية العبور الأول ليوسف  
بن تاشفين إلى الأندلس). 18,20

- 18.40 د. التهامي الرجحي (كلية الآداب — الرباط)  
القراءات في تراث القاضي عياض  
ملاح عن الورقة في سبته
- 19.20 د. خورخي أونرويا (كلية الجغرافية والتاريخ —  
مدريد — إسبانيا)
- La Prehistoria del área del Estrecho de Gibraltar
- 19.40 مناقشة جنستي الصباح والنساء.
- الجلسة الخامسة : برئاسة الدكتور حسن الوراكلي  
رئيس شعبة اللغة العربية وآدابها (كلية الآداب — تطوان)
- 16.00 د. الطاهر أحمد مكي (كلية دار العلوم —  
جامعة القاهرة) مصر  
سبتيون في صعيد مصر
- 16.20 د. عبد الله بنصر العلوي (كلية الآداب — فاس)  
أصداء احتلال سبته في الأدب المغربي.
- 16.40 د. إدريس خليفة (كلية أصول الدين — تطوان)  
الجانب الاقتصادي في تاريخ مدينة سبته
- 17.00 د. محمد مسعود جبران  
(كلية التربية، جامعة الفاتح — ليبيا)  
شخصية مالك بن المرحل باعتباره أحد الأعلام الكبار  
الذين ساهمت سبته في تكوينهم الفكري والأدبي
- 17.20 دة. ماريا خيسوس فيغيرا (كلية فقه اللغة — جامعة  
الكومبلوتنسي — مدريد — إسبانيا)
- Algunos datos sobre la historia de Ceuta en el Siglo V.  
de la H. XI d. J.C
- 17.40 د. عبد الله المرابط الترغي (كلية الآداب — تطوان)  
سبته من خلال كتاب (أعلام مالقة) لابن خميس

|                                                                                                   |       |
|---------------------------------------------------------------------------------------------------|-------|
| استراحة                                                                                           | 18.00 |
| د. رافائلا كستريو (كلية فقه اللغة — جامعة<br>الكومبلوتينسي مدريد — إسبانيا)                       | 18.00 |
| L'histoire de Sebta du XVIIe siècle élaborée sur<br>documentation originale et manuscrite         |       |
| ذ. محمد بنعزوز حكيم (الرباط).                                                                     | 18,40 |
| مغربية سبتة من خلال النصوص التشريعية والتطبيقية<br>الصادرة في عهد الحماية.                        |       |
| مناقشة جلستي الصباح والمساء                                                                       | 19.00 |
| السبت 28 شعبان — 16 أبريل<br>صباحاً :                                                             |       |
| الجلسة السادسة : برئاسة الدكتور محمد مجيد السعيد.                                                 |       |
| (الأمين العام المساعد لاتحاد الجامعات العربية — الأردن)                                           |       |
| د. عياد الثبتي (كلية الآداب —<br>جامعة أم القرى — مكة)                                            | 9.00  |
| ابن هشام السبتي من خلال كتابه (الفصول والجمال)                                                    |       |
| د. خوسي بيريث لاثرو<br>(المعهد الإسباني العربي للثقافة مدريد)                                     | 9,20  |
| ابن هشام اللخمي ونشاطه اللغوي في سبتة في القرن<br>الخامس الهجري.                                  |       |
| ذ. محمد بوطالب (كلية الآداب — الرباط)                                                             | 9,40  |
| اهتمام الإنجليز بالشعر عبر العلاقات المغربية الأوربية وخاصة<br>خلال القرن التاسع عشر الميلادي.    |       |
| ذ. جعفر بلحاج (كلية الآداب — تطوان)                                                               | 10,00 |
| الخلفية السياسية والفكرية للتراث النقدي السبتي في<br>مرحلته الأولى : (كتاب «شفاء الصدور» نموذجاً) |       |
| د. توفيق البشروش (كلية الآداب —<br>جامعة تونس — تونس)                                             | 10,20 |

مبته من حلال مذكرات وخواطر «شارل لوكلار»

|                                                                    |       |
|--------------------------------------------------------------------|-------|
| مترحة                                                              | 10,40 |
| د. عبد العلي الودغيري (كلية الآداب — الرباط)                       | 11,00 |
| الحركة المعجمية في مبته                                            |       |
| د. سعيد ابن الأحرش (كلية الآداب — تطوان)                           | 11,20 |
| مراسلات أدبية من ثغر مبته إلى ثغر منرفة في شأن                     |       |
| افتكالك أسرى دار الحرب                                             |       |
| د. خوسي مارتينيث كاريرا                                            | 11,40 |
| (جامعة الكومبلوتنسي — مدريد)                                       |       |
| Ceuta en La problemática internacional del Estrecho en el siglo XX |       |
| مناقشة                                                             | 12,00 |
| الجلسة السابعة : برئاسة الدكتور توفيق البشروش                      |       |
| (رئيس الجمعية التونسية للمؤرخين الجامعيين — تونس)                  |       |
| د. محمد الكتاني (كلية الآداب — تطوان)                              | 9,00  |
| الظاهرة النبوية في فكر القاضي عياض                                 |       |
| د. محمد الراوندي (دار الحديث الحسنية — الرباط)                     | 9,20  |
| تراجم رواة سبتيين من كتاب «ذيل التقييد لمعرفة رواة                 |       |
| السنن والمسانيد» للتقي الفاسي                                      |       |
| د. أحمد الطريق اليدري (كلية الآداب — تطوان)                        | 9,40  |
| حائية ابن أبي محلي (مقاربة صوفية مقارنة)                           |       |
| د. علي لغزيوي (كلية الآداب — فاس)                                  | 10,00 |
| مدخل إلى الحركة النقدية في مدينة سبتة خلال القرنين                 |       |
| السابع والثامن للهجرة                                              |       |
| د. حسن الفككي (كلية الآداب — القنيطرة)                             | 10,20 |

دور مدينة سبتة في تاريخ المغرب والأندلس قبل  
الاحتلال البرتغالي

|                                                                                   |       |
|-----------------------------------------------------------------------------------|-------|
| استراحة                                                                           | 10,40 |
| ذ.علي بن سلطان الحكمي (كلية اللغة العربية الجامعة<br>الإسلامية — المدينة المنورة) | 11,00 |
| ابن أبي الربيع الإشبيلي السبتي وجهوده في الدرس<br>النحوي                          |       |
| د.إبراهيم بن الصديق (كلية أصول الدين — تطوان)                                     | 11,20 |
| القاضي عياض السبتي ودوره في تأصيل الدرس الحديثي                                   |       |
| ذ.محمد أحموت (كلية الآداب — تطوان)                                                | 11,40 |
| الدور السياسي والاقتصادي لسبتة في القرن الخامس<br>الهجري                          |       |
| د.حسن الوراكلي (كلية الآداب — تطوان)                                              | 12,00 |
| من تراث المكتبة العزفية (تحفة القاصد في أسنى المقاصد)                             |       |
| مناقشة                                                                            | 12,00 |
| اختتام الندوة                                                                     | 12,40 |



## كلمة السيد العميد

الحمد لله وحده والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه

سعادة عامل صاحب الجلالة  
السادة رؤساء المجالس المنتخبة  
والنواب والمستشارين  
السادة العمداء والاساتذة الاجلاء  
أيها السادة، أيها السيدات

يشرفني أن أفتتح باسم الله ورجاء توفيقه أعمال هذه الندوة عن (سبته تاريخا وتراثا)، هذه الندوة التي تأتي في إطار ملتقى الدراسات المغربية الاندلسية.

لقد قلت في الكلمة التي افتتحت بها الندوة الاولى لهذا الملتقى عن (لسان الدين ابن الخطيب) منذ سنتين بالضبط إن إنشاء ملتقى الدراسات المغربية الاندلسية لم يأت اعتباطا في هذه الكلية، وفي هذا الاقليم بالذات. لانه في هذه المنطقة بالذات قام جسر الالتقاء بين المغرب والاندلس. وكان الالتحام التاريخي والسياسي والحضاري على مدى ثمانية قرون. ويصعب على المرء أن يحدد انتماء العلماء خلال هذا التاريخ إلى المغرب أو إلى الاندلس، ذلك أن الوحدة الاسلامية والعربية لم تكن لها حدود إقليمية في المجال العلمي والحضاري، وهكذا نشأ تاريخ مشترك خلال عدة قرون بين المغرب والاندلس، يستعصي اليوم تمييز لحمته من سده، إلا بالنسبة لبعض ظواهره السياسية والاجتماعية. فإذا كان الشأن كذلك فإن مسؤولية البحث العلمي في نطاق التراث الحضاري الاسلامي المغاربي

والاندلسي يفرض علينا اليوم الرجوع إلى ذلك التاريخ المشترك لتحليله في ضوء مناهج جديدة، ومن منظور جديد، لتبين وشائج القرى أو مقومات الوحدة بين هذه الاقطار.

في ضوء هذا التوجه ندرك أهمية اختيار موضوع هذه الندوة وهو (سبته التاريخ والتراث). فلقد كانت سبته المدينة المغربية العريقة بوابة المغرب نحو الاندلس، ونحو أوروبا، ونحو البحر الابيض المتوسط. وكان موقعها معبرا من معايير التاريخ الكبرى بين القارتين. ولذلك احتضنت من تراث هذا التاريخ ومن أعلامه الذين أبدعوا ما تحتوته من ذخائر، مما نعلمه اليوم ومما غمره النسيان أو دمرته الايدي الآثمة، التي تريد أن تطمس حقائق التاريخ. وفي مرحلة الاسترجاع الاسباني للمدن الاندلسية وحتى نزوح المسلمين عن الاندلس مرت سبته بظروف اضطراب كانت طبيعية بالنسبة لتلك المرحلة من التاريخ. إذ كانت بحكم موقعها الاستراتيجي محط أطماع الصليبيين والمستعمرين. وذلك لجعلها منفذا نحو إفريقيا بعد المغرب، وجعلها مركزا لمراقبة البوغاز. ولذلك جاء احتلالها خطوة أساسية في استراتيجية احتلال المدن الشاطئية الأخرى، سواء على الشاطئ المتوسطي أو الشاطيء الاطلسي. وجدد تأسيس مدينة تطوان بعد نزوح المسلمين عن الاندلس، أسسها المهاجرون لتكون قلعة أمامية لتحرير سبته، وكان أسارى البرتغاليين الذين يقعون في قبضة المسلمين المجاهدين يشاركون في بناء أسوار المدينة وأبراجها. وهكذا أصبحت تطوان مسؤولة إلى حد ما عن حماية الجناح الشرقي للمضيق، ومسؤولة عن تحرير سبته منذ ذلك التاريخ كما أصبح تاريخ سبته مرتبطا بتاريخ تطوان.

لقد ظل الملوك المتعاقبون على المغرب من الدولة العلوية الشريفة كما ظل المجاهدون المغاربة منذ احتلال سبته لا يهدأ لهم بال تجاه ذلك الاحتلال، فكانت حركات تحريرها كأمواج المد والجزر، وهذا إن كان يعني شيئا فإنما يعني أن سبته ظلت في قلب المغاربة جميعا كأختها مليية بمثابة جرح لا يندمل إلا برجوعهما واندماجهما في الوطن الأم. وإن المغاربة اليوم لمجنودون وراء القيادة الحكيمة لجلالة الملك رائد الوحدة الوطنية والمسيرة الخضراء المظفرة لتحقيق تلك الوحدة المنشودة في أكمل صورها ومعانيها.

إن ندوتنا اليوم تتجه إلى كشف تاريخ سبته وتناول تراث أعلامها تعميقا لمعنى مغربيتها وإسلامياتها وعروبته، وأن هذا الطابع الاصيل، وتلك الهوية الحقيقية لن ينال منها ما عرفته المدينة من احتلال طمس معالمها المادية.



أيها السادة، إن من شأن المساهمات القيمة للأساتذة المشاركين في هذه الندوة أن تجلو عن مرآة التاريخ بعض التعظيم والصدأ، وأن تذكي في نفوسنا الاحساس بأعلام ضلوا منائر للفكر بالغرب والمشرق على حد سواء.

وأخيرا لا يسعني إلا أن أود بتعطف والتضامن وسخي الاستجابة للمشاركة في أعمال الندوة الذي منسته لكمة في الأساتذة الأجلاء الذين حملوا ثمار عقولهم وقلوبهم إلى هذا الجمع الكريم. وعقد بشر أعمال هذه الندوة في عدد خاص من مجلة لكمة، كما لا يسعني إلا أن أشكر وأنوه بخصال الأريحية والتعاون التي حفرت جميع الذين ساعدوا على تحقيق هذا الملتقى، وفي مقدمتهم معالي وزير التربية الوطنية، ووزير الشؤون الثقافية، وسعادة عامل صاحب الجلالة، والسيد رئيس المجلس البلدي لمدينة تضاوان، والسيد رئيس المجلس الحضري مريتيل، وكل الجهات التي أمدتنا بما طلبناه، وأبدت لنا التشجيع الذي رجواناه.

ولا يفوتني أن أشكر بصفة خاصة سعادة عامل صاحب الجلالة على تفضله بحضور افتتاح أعمال هذه الندوة وكذا الشخصيات المرافقة له.

فلهؤلاء جميعا أزجي عبارات الشكر والامتنان، مجددا ترحيبي بالأساتذة الأجلاء، وعلى الأخص الأساتذة الذين وفدوا علينا من البلاد العربية الشقيقة من مصر والسعودية وليبيا والعراق وتونس والاردن، والذين وفدوا علينا من إسبانيا الصديقة، والذين نعتبرهم خير ممثل لجامعاتهم بعراقها وإشعاعها.

كما لا يفوتني أيضا التنويه بمجهودات شعبة اللغة العربية وآدابها التي سهرت على تنظيم هذه الندوة، داعيا المولى جلت قدرته أن ينجح أعمالنا ويسدد خطانا تحت القيادة الحسنية الحكيمة إنه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله.

د. محمد الكتاني



## نظرة إجمالية عن الملتقى الثاني حول سبتة

جاء الملتقى الثاني للدراسات المغربية الأندلسية حول سبتة استمرارا للملتقى الذي قررت الكلية عقده كل سنتين حول موضوع أو محور من محاور الدراسات المغربية الأندلسية.

فكان الملتقى الأول في شهر أبريل 1986 حول شخصية لسان الدين ابن الخطيب. وقد صدر العدد الثاني من مجلة الكلية خاصا بهذا الملتقى الأول، وجاء الملتقى الثاني في موضوع سبتة «التاريخ والتراث» بمثابة استمرار كما قلنا لهذا الملتقى الذي تأمل الكلية أن ترسخه وتجعل منه ملتقى علميا ودوليا لخدمة الثقافة والحضارة المغاربية الأندلسية.

وهكذا انعقد ملتقى (سبتة التاريخ والتراث) أيام 26 — 27 — 28 شعبان 1408 هـ الموافق : 14 — 15 — 16 أبريل 1988 م.

وقد دعي لحضور هذا الملتقى عدد من العلماء والباحثين الجامعيين من داخل المغرب وخارجه كما يتضح ذلك من برنامج الندوة التالي :

وقد افتتح الأستاذ العميد هذه الندوة بكلمة ترحيب، وختم جلساتها بكلمة لخص فيها أهداف الملتقى ونتائجه.

وقد استمرت أعمال الندوة ثلاثة أيام، تواصلت فيها العروض والمناقشات صباح مساء واختتمت بزيارة قرية بليونش المخادبة لمدينة سبتة السليبية والتي تحتضن في ذاكرتها تاريخ أول عبور من الغرب إلى الأندلس في بداية الفتح الاسلامي، حيث أقام عامل صاحب الجلالة على إقليم تطوان مأدبة غداء على شرف الأساتذة المدعوين والمشاركين في الندوة والمنظمين لها في المكان الذي يحتضن بيت القاضي عياض وأول مسجد بناه موسى بن نصير الفاتح الكبير حيث استعاد المشاركون في الندوة صفحات من تاريخ المغرب المجيد.



سبته  
من خلال التاريخ والتراث



## إمارة بني العزفي وأوضاع سبّة أيام حكمهم

### د. إبراهيم حركات<sup>(١)</sup>

الكتابة عن إمارة بني العزفي تعني معالجة إحدى أخصب فترات تاريخ سبّة، والتي تمتد زهاء 80 سنة منذ الأربعينات من القرن السابع الهجري. وتعد هذه الإمارة واجهة متقدمة تجاه الخطر المسيحي والتهديد الغرناطي دون أن تسقط تبعيتها للسلطة المركزية بالمغرب إلا لفترة قصيرة جدا.

وتمثل سبّة لسانا برّيا متوغلا في البحر الذي يحيط بها من جهات ثلاث فلا تبقى لها صلة بالبر إلا من جهة واحدة تسهل حمايتها. وهكذا تجد سبّة مناعتها النادرة :

- 1 — في الحماية البحرية مع استخدام الأسطول عند الحاجة.
- 2 — في جوارها لغمار العتيدة والتي تؤصل هويتها المغربية.
- 3 — في كونها أقرب نقطة إلى التراب الإيبيري، وهذا يسهل إمدادها بالجند والعتاد من العدو الأخرى عندما تفرض عليها التبعية لها، وهذا يكون غالبا من طريق الخيانة، ونادرا من طريق العمل العسكري وحده.

إن كل هذه المعطيات تفسر معنى وضع الدولة البيزنطية يدها على سبّة وضواحيها لتنتقل السلطة منها إلى القوطيين في ظروف غامضة. ثم ما لبثت سبّة أن انضمت إلى الحركة الخارجية في أوائل العصر الإسلامي، وأخضعها الأمويون حكام الاندلس، وتداولها الأدارسة والمرابطون. ثم ثارت سبّة ضد الموحيدين في

(١) كلية الآداب الرباط.



بدايتهم، بزعامة القاضي عياض. وهكذا فابتداء من القرن 6 12 هـ تنصب سبتة كمركز حضاري وريادي بالشمال المغربي يسهر على تطبيق المذهب المالكي ويقف فقهاؤه بالمرصاد ضد التوجهات الخارجة عن هذا المذهب، وضد الانحرافات التي عرفتها منطقة الشمال بما في ذلك حركات التنبؤ. واستطاع الموحدون أن يكتبوا ثورة سبتة التي نكبوا شخصياتها المثقفة نفيا وتشريعا ووزعهم عبد المؤمن بين عدة اقاليم من المغرب<sup>(1)</sup>. ولم يكد ادريس المامون الموحي يتخذ قراراته الخطيرة بما فيها استقدام قوات نظامية من القشتاليين، ويتولى الأندلسيون طرد الموحيين من بلاد الأندلس، حتى اعلنت سبتة انضمامها إلى ابن هود الذي تزعم حركة الطرد هاته. والواقع أن انضمام سبتة إلى ابن هود كان عن طريق التهديد بالقوة في وقت كان واليها الموحي مستعدا لطلعن قريبه المامون من خلف، وكان هذا الحدث سنة 1230/629<sup>(2)</sup>.

وقد ادرك الموحدون أهمية سبتة وطنجة منذ نشأة دولتهم. وهكذا يقول ابن خلدون<sup>(3)</sup>: «كانت هاتان المدينتان — سبتة وطنجة — منذ أول دولة الموحيين، من أعظم عمالاتهم وأكبر ممالكهم، بما كانت تغر العدو، ومرق الأساطيل، ودار إنشاء الآلة البحرية، وفرضه الجواز إلى الجهاد، فكانت ولايتها مختصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن.»

وعبثا حاول العاهل الموحي ادريس المامون استنقاذ سبتة بعد ثلاثة أشهر من الحصار لم تنفع المنجنيقات في اسوارها شيئا، حتى إنه أحرق المنجنيقات واشعل النار في محلة السوق كما ذكر ابن عذاري<sup>(4)</sup> الذي يتحدث عن تجديد بيعة سبتة بعد تولي الرشيد، وذلك سنة 630 هـ حيث عين عليها واليا من الاندلس هو ابن خلاص المنسي. فلما كانت سنة 640 عمل الوالي باتفاق مع انصاره من

(1) Leon l'Africain, Description de l'Afrique, Amutations de E paulard, p. 267. Paris, 1956.

(2) ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله : أعمال الأعلام، تحقيق بروفصال، ص 280. ويقارن بابن عذاري الذي يجعل خلع الدعوة الموحدية سنة 630 هـ ويذكر أن السكان قدموا على أنفسهم الحاج أبا العباس المانشي.

(3) ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ، 7، 382 دار الكتاب، بيروت، 1956 م.

(4) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب (قسم الموحيين)، تحقيق لجنة من الأساتذة، ص 298 و344. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985/1406 م.

السكان، وذلك فور مهند الرشيد، على تحويل البيعة إلى أبي زكرياء الحفصي، وعين واليا على طنجة ابن الأمين يوسف الحمداني، واستقرت الإدارة الحفصية بسببته وعلى رأسها أمير حفصي بين انسحاب ابن خلاص إلى بجاية. وفي 647 ثارت سببته ضد الإدارة الحفصية. وتولى قيادة الثورة أبو القاسم العزفي وقائد الأسطول حجبون الرنداحي.

### أبو القاسم العزفي، 647 — 677 (1249 — 1279)

هو محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين، نسب إلى أبي عزفة من اجداده. وهم من بني لحم، وينتهي نسب أسرته إلى قابوس بن النعمان بن المنذر. (6) وهناك من أهل سببته من شكوا في نسبة العزفي هذا إلى لحم، وقالوا إنه من مجسكة البربرية، أو على الأقل انتمى إليها جدودده. (7) وكيفما كان الأمر فإن أغلبية العرب الذين استقروا خلال الفتوح الأولى بالأندلس والشمال المغربي هم من أصول قحطانية، وبالتالي من المجموعة اليمنية التي كان لها الدور الأكبر في المجالات الحضارية والسياسية بالمناطق المفتوحة.

رُئي أبو القاسم في كنف والده القاضي اخذت أبي العباس أحمد، الذي كان يحظى بتقدير سكان سببته. ويظهر أن أبا القاسم كان طموحا إلى السلطة منذ يفاعته، فانتظر وفاة والده ليدير ثورة تطيح بالسلطة الحفصية التي ينسبها ابن عذارى إلى الجور والتهاون. وفي الواقع لم يكن الطموح إلى الزعامة وحده زائدا للعزفي في حركته، فقد كانت الأوضاع سيئة بالعدوتين معا، حيث أن الموحدين كانوا في مواجهة بني عبد الواد شرقا، والمدن الأندلسية تتساقط بسهولة في يد المسيحيين، خاصة إشبيلية التي سقطت سنة 1248/646 وهذا يعني أن السواحل المغربية نفسها أصبحت مهددة. بل إن الأسطول الجنوبي قبل ثلاث عشر سنة من هذا التاريخ حاصر سببته عدة أشهر حتى أرغم سكانها على أداء مبلغ أربعمئة ألف دينار (8) ثم أُلقي بعد أن تسلم المبلغ. وقد عملت الخيانات عملها في تسليم

(5) ابن خلدون، 7، 383.

(6) المقرئ أحمد التلمساني، أزهار الرياض، تحقيق لجنة من الأساتذة، ج 6، 374. وزارة الأوقاف المغربية، 1398 — 1399 هـ.

(7) م.س. ص 376.

(8) روض القرطاس، ص 276. دار المنصور الرياض 1979 م. ابن عذارى، البيان المذكور أعلاه، ص 350.

معظم ما سلم إلى المسيحيين الأيبيريين، حتى أن تسليم إشبيلية كان بتدبير من القائد شقاف الذي تولى بعد ذلك قيادة فحص سبتة واستقر بهذه المدينة. فلما بدأ أبو القاسم العزفي يخطط للثورة، رأى أن تنفيذها يحتاج إلى مساعدة عسكرية، فأسر إلى حجبون الرنداحي قائد أسطول سبتة بمراده حسب ابن خلدون. أما عند ابن عذاري فقد كان الإغراء من الرنداحي<sup>(9)</sup>. وكان في رأس لائحة الذين تقرر تصفيتهم كل من شقاف المذكور ووالي البلد ابن أبي خالد. ونفذت العملية. أما الأمير الحفصي ابن الشهيد فنقل في زورق إلى الأندلس قبل أن يرحل إلى تونس. وقتل في الثورة عدد كبير من قواد الإدارة السابقة وجندها. ومن الأندلسيين أيضا والذين كانوا على ولاء للحفصيين.

غير أن أبا القاسم العزفي لم يتخل عن الولاء للسلطة المغربية، بل استعادها بتبعيته للحكم الموحيدي في ظل المرتضى ودون أن يكون تابعا لاشراف مباشر. وهو بذلك يستمد الشرعية من الخلافة الموحدية على ضعفها. وكوفيء الرنداحي بتعيينه قائدا على أسطول المغرب ومركزه سبتة. وتوارث عنه بعض أبنائه هذه القيادة إلى أن نكحهم العزفي فارتحلوا إلى كل من مالقة وبجاية.<sup>(10)</sup>

وحيث إن استكمال المراقبة العسكرية والاقتصادية للبوغاز من جهة المغرب لآتم إلا بوضع اليد على طنجة فإن العزفي قرر تنحية واليها ابن الأمين الهمداني الذي كان واليا لحساب الحفصيين منذ سنة 1242/640. غير أن بني مرين سبقوه إلى الاستيلاء عليها وفتكوا بوالها فثار السكان ضدهم واستلحموا أمراءهم وأقاموا عليهم نجل ابن الأمين. وفي 661 حاصرها أبو القاسم العزفي برا وبحرا ثم استولى عليها ولجأ إليها السابق إلى المستنصر الحفصي بتونس. وفي 672 استردها المربنيون في عهد يعقوب بن عبد الحق، ثم هاجموا سبتة أو حاصروها بالأصح، فأذعن العزفي للولاء والتزم بدفع خراج سنوي محتفظا بسلطته على سبتة.<sup>(11)</sup> على أن هناك سلسلة مثالية من الأحداث البارزة وقعت فيما بين قيام أبي القاسم بسبتة وبيعته للعاهل المربني. فبمجرد استقرار الحكم لأبي القاسم، عمد

(9) ابن عذاري، ص 398. ابن خلدون، 7، 383. مؤلف مجهول، الذخيرة السنية. تحقيق ابن أبي شنب، ص 85. الجزائر، 1920/1339 م.

(10) ابن خلدون، 7، 383.

(11) م.س. ص 384 — 385. ابن عذاري، البيان الموحيدي، ص 433.



إلى تحصين المدينة وإعادة بناء موارها وشاد عددا من المنشآت لحمايتها.<sup>(12)</sup> وواصل تزويد السلطة المركزية بكل ما يجد من معلومات عسكرية واستراتيجية، سواء مع المرتضى الموحدي<sup>(13)</sup> أو مع يعقوب المريني بعد استقراره بمراكش. بل إنه يُوفد القائد الرنداحي على رأس أسطولٍ مُهاجمة السفن المسيحية. ففي السنة التي تمت فيها ثورة أبي القاسم واستلاؤه على سبّعة تمكن الرنداحي من القيام بغارة قوية بقادس حيث قتل ثمانين من رعماء الروم كما يقول صاحب الذخيرة السنّية. وفي 1255/653 قتل الرنداحي بوادي إشبيلية حيث كانت بضع قطع من أسطوله<sup>(14)</sup> تغير على ساحل المدينة.

ولما كانت قطع الأسطول السبّتي والأرصاء التي يقيمها أبو القاسم العزفي تراقب عن كثب تحركات القشتاليين، فإن استعداداتهم للتحرك إلى سلا انطلاقاً من وادي إشبيلية، كان يخبر بها المرتضى الموحدي بتدقيق ويحذره من مغبة تحركاتها. وفعلاً، حطت قطعهم البالغ عددها سبعا وثلاثين بساحل سلا واقتحمت البلد الذي لم يكن مسوراً من جهة البحر، واكتفى المرتضى بأن بعث برسالة شكر إلى أبي القاسم<sup>(15)</sup> الذي لم يكن قادراً على مواجهة عدو قوي دون مساعدة الخليفة الموحدي وهو المعنى بالأمر قبل غيره يخص حماية سواحل البلاد. والواقع أن السواحل كان معظمها قد خرج من يده، حيث تولى مهمة طرد القشتاليين فوراً، يعقوب المريني بعد أن كان استقدامهم على يد أحد الأمراء من أسرته. وكانت هذه الأحداث سنة 658هـ.

وفي عهد محمد الأول مؤسس مملكة غرناطة، وإثر أحداث سلا المشار إليها هاجمت وحدات غرناطة سواحل سبّعة وبذات تحول دون وصول المواد الغذائية إلى سبّعة بحراً، فتصدت لها قطع الأسطول السبّتي بقيادة أبي العباس الرنداحي وتمكنت من أسرها وتحويلها إلى ميناء سبّعة.<sup>(16)</sup>

(12) مؤلف مجهول، الذخيرة السنّية. ص 87، 89.

(13) ابن عذاري، ص 409.

(14) الذخيرة السنّية ص 85 و 89.

(15) ابن عذاري، ص 418 — 424.

(16) ن.م. ص 425.

وفي سنة 1262/662 وقبل أن تدخل سبتة في بيعة المرينيين بسنوات كثيرة، طلب السلطان المريني يعقوب من أبي القاسم العزفي أن يسهل حواز بضعة آلاف من متطوعة بني مرين وقبائل المغرب إلى الأندلس للجهاد. واستجاب العزفي للنداء، لأن طنجة كانت قد أصبحت تابعة له، فكان على العاهل المريني أن يستأذن الأطلسية لم يعد في جملته صالحا بعد أن توقف ترميمه وتجديده منذ زمان، وقد دلت حادثة اقتحام القشتاليين لسلا على مدى ما وصلت إليه موانئ ووحدات الأسطول المغربي من تدهور.

وشهدت سنة 1263/663 تخريب أصيلا وقصبتها على يد أبي القاسم العزفي بعد أن هجرها سكانها حسب رواية مؤلف الذخيرة السنية. ويظهر أن هجوم جماعات من فرنسا بني مرين على طنجة وما حصل من الفتك بوالها ثم تهديد المنطقة من جانب الوحدات المرينية رغم رجوع طنجة إلى حكم بني العزفي هو الذي حدا برئيس سبتة إلى هذا الإجراء، وذلك حتى لا تطمع فيها وحدات النصارى التي بدأت تتردد على السواحل الشمالية<sup>(17)</sup>. وفي أوائل هذه السنة بالذات. وجه أبو القاسم نداء إلى قبائل المغرب وصلحائها يستنفرهم للجهاد بعد أن قرر القشتاليون القيام بتوزيع عدد كبير من الجند للقيام بفتح ما بقي من مراكز إسلامية بالأندلس، ومن المهم أن يتساءل القارىء عما يعنيه هذا النداء مع وجود دولة مغربية ناشئة ذات سيادة على معظم التراب المغربي. فالواقع أن بني مرين كانوا لا يزالون بعيدين عن الاستيلاء على مراكز العاصمة الموحدية. وهم منشغلون بالجبهة الشرقية وعدد من الجيوب التي لم تستقر بها سلطتهم. وسبتة تتوفر على وحدات بحرية وخبرات عسكرية وتقنية. أما الوحدات الصغيرة التي وجهها يعقوب المريني سنة 662 فلا يمكن أن تقوم بعمل حاسم مهما كان من نضالها وجلدها. وبالرغم من النداء العزفي والذي من شأنه أن يثير حماس النفوس للجهاد، وهو يعدد جملة من المآسي التي يشهدها المسلمون بالأندلس<sup>(18)</sup> فإنه لا يظهر أنه كان له تأثير مباشر في عمليات الجهاد. ومحمد الأول ابن الأحمر لم يعد

(17) الذخيرة السنية، ص 108.

(18) ن.م. ص 112.

(19) ن.م. ص 113 — 123.

ينتظر من المغرب تحقيق عمل قوتي يوقف اكتساح نصارى للمراكز الإسلامية. وحتى متطوعة المغرب كانوا يحاربون تموارته لا بأشرفه. وكان في الواقع بين نارين، خطر التوغل المسيحي و مستحاة خصوص على تدخل رادع من بني مرين وهم مازالوا في حرب داحية. وهكذا حول ابن الأحمر بيعته سنة 1265/664 للمستنصر الحفصي الذي أمده بمعونة مدية بين كانت أرباض غرناطة تشهد غارات القشتاليين والتي ما هي إلا جزء من حرب استنزافية لا تكلف النصارى خسائر بشرية تذكر في صفوفهم. وحيث إن معونة الحفصية ابعد ما تكون عن الكفاية وعن سد الفراغ البشري في جند الأندلس فإن ابن الأحمر. بادر سنة 1266/665 إلى عقد صلح جديد مع القشتاليين. وهو صلح مقهور مع جبار. وبموجبه تنازل محمد الأول عن عدد كبير من المعاقل والمراكز قدرها ابن عذارى بأربعين، وبينها شريش. بل إن ابن عذارى ينسب إلى أبي القاسم العزفي أنه قدر عدد المدن والمعاقل بمائة وخمسة. وقد أثار هذا التنازل الترابي مزيدا من الانهيار في معونة سكان الأندلس، وأنشأ أبو البقاء صالح الرندي قصيدته المشهورة في رثاء المدن والمراكز المفقودة. وما حل بالسكان من السبي والإذلال. (20) على أن الصلح لم يكن له مفعول طويل الأمد حيث نرى ابن الأحمر ينازل انتفيره (21) سنة 1272/671. ومن جهة أخرى هاجمت الوحدات البحرية القشتالية قبل ثلاث سنوات من هذا التاريخ، كلا من العرائش وتشمس وقتلوا رجال حصنهما ثم انسحبوا. ومنذ ذلك التاريخ قرر أبو يوسف يعقوب أن يجعل من العرائش مدينة حقيقية وميناء حربيا. وجرت مفاوضات رسمية بين محمد الأول ابن الأحمر وأبي يوسف المريني لتزويد الأندلس بجيش نظامي. ورفض يغمراسن وقف الحرب مع بني مرين. واستمرت المفاوضات مع ذلك بين الطرفين المغربي والأندلسي. وحيث إن الوجود الموحد قد تمت تصفيته، وأن المغرب لا يمكن أن يقوم بعمليات عسكرية جادة من غير إخضاع سبتة وطنجة للحكم المركزي. فقد شرع أبو يوسف المريني في حصار طنجة منذ مطلع ذي الحجة 1273/671 لأن الاستيلاء عليها يسهل إمداد الجيش عند حصاره لسبتة. واستمر حصار طنجة ثلاثة أشهر قبل أن تسقط في يد القوات المرينية عنوة، لكن أبا يوسف أمن سكانها. ثم وجه

(20) ابن عذارى، ص 462 — 463.

(21) مؤلف مجهول، الدخيرة السبية، ص 155.



جيشاً بقيادة نجله يوسف لحصار سبتة، فقطع عنها الميرة من البر، وتنازل أبو القاسم عند ذلك لعرض الصلح على المرينيين مقابل مبلغ مالي سنوي حسب روض القرطاس. وهدية عينية سنوية من الأخبية والسلاح والثياب حسب الذخيرة السنوية<sup>(22)</sup>، ودخلت سبتة في بيعة أبي يوسف، واحتفظ أبو القاسم باستقلاله الذاتي. وليس هناك تفسير لهذا التساهل من الجانب المريني إلا العجز عن تطويق سبتة بحرا من جهة، والاطمئنان إلى حسن الإدارة العزفية وقيامها بمراقبة ناجعة للسواحل البوغازية من جهة أخرى. بل إن أسطول سبتة أصبح تحت تصرف السلطة الوطنية. وابتداء من 673 بدأ التدخل المغربي في ظل الحكم المريني يتسع نطاقه، فقد كان استقلال سبتة وطنجة قبل ذلك عن السلطة الوطنية يمثل عائقاً أمام قيامها بعمل ذي أثر في الأندلس، وهذا بالإضافة إلى انشغال المغرب بأحداث الجبهة الشرقية.

وكيفما كان الأمر، فإن موقف الرئيس العزفي كان في منتهى الحكمة وعمق الروح الإسلامية، لأنه لم يفكر في التعامل مع الجانب المسيحي ولم يركب رأسه فيستنجد بقوة عسكرية أجنبية كما فعل المامون الموحد فيما سبق. ويعقوب المريني أيضاً كان في مستوى الأحداث لأنه لم يواصل ضغطه على سبتة لإخضاعها مباشرة لأن ذلك حتى ولو كان باستطاعته فسيحرمه من تعاطف معظم الشمال الذي رحب منذ البداية بالتعاون مع السلطة المرينية الناشئة.

وبدأ التعاون بين العزفي والعاهل المريني يؤتي أكله، حيث زود العزفي هذا العاهل بعشرين قاطعة بحرية لاجتياز خمسة آلاف مقاتل من زناتة سنة 673. وانطلق هذا الجيش من طنجة بقيادة الأمير منديل نجل أبي يوسف. وقام الجيش بغارات في منطقة شريس. قبل أن يقرر المغرب تدخلاً أوسع نطاقاً في السنة التالية<sup>(23)</sup>، وخلال هذه السنة كان أبو طالب عبد الله العزفي نجل أبي القاسم صلة وصل بين والده والسلطان المريني الذي استقبله بفاس<sup>(24)</sup>.

ويظهر أبو القاسم العزفي في أحداث الأندلس مرة أخرى سنة 1275/674

(22) روض القرطاس، ص 311 — 312. الذخيرة السنوية، ص 155 — 157.

(23) ابن خلدون، 7، 394 — 395. روض القرطاس، ص 313.

(24) الذخيرة السنوية، ص 159.

وهو يبعث بتقرير من تحريره إلى فقهاء المغرب وصلحائه عن نشاط أبي يوسف والجيوش المغربي في أول جواز هذا الجيش بقيادة العاهل المريني. ويسجل هذا التقرير ما تكبدته جيوش الفونسو العاشر من خسائر مادية وبشرية. (25) وتتقارب معلوماته بهذا الصدد مع ما أورده روض القرطاس وتاريخ ابن خلدون. ويبدو من تفصيلات التقرير أن العزفي قد ساهم في الحروب التي نتجت عن هذا الجواز. وقد توفي أبو القاسم محمد العزفي (26) سنة 1278/677 فخلفه نجله أبو حاتم الذي لم يكن يميل إلى ممارسة السلطة.

### أبو حاتم العزفي 677 — 678 (1278 — 1279)

أبو حاتم أحمد بن محمد تعاون معه أخوه أبو طالب الذي كان أكثر منه طموحا للسلطة واقدر على تدبير شؤون سبته. على أن الاثنين واصلوا إدارة المنطقة باسم السلطة المركزية فترة قصيرة قبل أن يسلموا مقاليد الحكم إلى عبد الله بن مخلص الذي ينتمي إلى إحدى الأسر الكبرى بسبته، وتنازل الرئيسان العزفيان حتى عن مظاهر الأبهة محتفظين بالرقابة غير المباشرة، مع الاتصال بالعاهل المريني كلما لزم الأمر. (27) وأثناء ذلك كانت الأندلس تشهد أحداثا دامية حيث إن ابن الأحمر وضع يده في يد الفونسو العاشر القشتالي واستولى على مالقة التي كانت تابعة للسلطة المرينية، ثم إن القشتاليين حاصروا الجزيرة الخضراء، وكانوا في اسطول ضخم قدره ابن خلدون بأربعمئة قطعة. وقرر أبو يوسف القيام بتحرك قوي لرفع الحصار عن الجزيرة وإنقاذها. فاستقر بطنجة، وتلقى أبو حاتم الأمر بتجميع وحدات اسطوله وإرسالها إلى ميناء سبته، وكان عددها خمسا وأربعين. وهذا يمثل تقدما في مجهود التجهيز العسكري البحري بالنسبة لسبته، وكانت هذه القطع أكثر من نصف ما تجمع من الموانئ الأخرى : باديس وسلا وأنفا وطنجة. وعندما أحس ابن الأحمر بعواقب تهوره، تخلى عن خليفه القشتالي وساهم بوحدات أندلسية في حصار الجزيرة ومهاجمة القطع المسيحية. وكان الجيش القشتالي قد استولى على الجزيرة فعلا فسحق أسطوله واسترجع الجيش المغربي المدينة. (28) وحسب روض

(25) م.س. ص 175 — 181.

(26) عند ابن خلدون، 7، 473. أبو القاسم إبراهيم.

(27) ن.م. ص 473 — 474.

(28) راجع روض القرطاس، ص 323 — 327. ابن الخطيب، أعمال 2، 287 — 289. س.

خلدون، 7، 403 — 423.



القرطاس كان إقلاع الاسطول المغربي كله من سبتة كما أن عدة شخصيات من سبتة ساهمت في معارك الجزيرة، بل إن مؤلف روض القرطاس يذكر بالنص أنه «لم يبق بسبتة إلا النساء والزمنى والشيوخ الذين لا قوة لهم والصبيان الذين لم يبلغوا الحكم» (29).

ولم يظل أبو حاتم في منصب الرئاسة بسبتة، فقد نجاه أخوه أبو طالب الذي استعاد زمام السلطة بتحريض من نجله يحيى، وذلك خلال سنة 1279/678.

### أبو طالب العزفي 678 — 705 (1279 — 1305)

أبو طالب عبد الله بن محمد العزفي. أخذ بزمام أمور سبتة تاركاً ابن مخلص بالقصبة شأن العمال الإداريين بالأقاليم المغربية، وسلك سياسة سلفيه في إمداد العاهل المريني بما يحتاج إليه من تجهيزات عسكرية، وهكذا ساهم اسطول سبتة مرة أخرى في مواجهة وحدات القطع القشتالية ببحر الزقاق (المضيق) سنة 684 وكانت هذه القطع تعمل على منح تحرك السفن المغربية إلى الأندلس. وقد انتهت المواجهة بصلح مع سانشو ومعاودة عدم اعتداء. وكانت مساهمة سبتة من الرماة تناهز خمسمائة رام. (30) ويكتنف تاريخ سبتة خلال عهد أبي طالب فجوات لا تمدنا المصادر بمعلومات بشأنها من حيث الأحداث السياسية. ويظهر أن أبا طالب قد استقامت لصلاحه شؤون ولاية سبتة شأن والده فيما سبق، أما أخوه أبو حاتم فقد تفرغ على الأرجح للشؤون العلمية والثقافية بعد تنحيته. وقد وصلت العلاقات بين بني الأحمر وأبي يوسف إلى درجة بالغة من السوء في نهاية حياة هذا العاهل الذي توفي سنة 1286/684. كما اندلعت ثورة الأمراء المرينيين ضد نجله أبي يعقوب الذي قرر أن ينهج سياسة التسامح تجاه بني الأحمر لينشغل بالأوضاع الداخلية، فتنازل لهم عن معظم المراكز التي كانت تحت رقابة السلطة المغربية بالأندلس. ماعدا الجزيرة وطريف ووادي آش التي ما لبثت أن تنازل عنها بعد قليل ثم ثناها بالجزيرة سنة 1293/692.

ولما تولى محمد الثالث النصرى سنة 1302/701م كان من النتائج السلبية لسياسة التخلي عن المراكز الاستراتيجية جنوب الأندلس لبني الأحمر أن امتدت

(29) روض القرطاس، ص 331.

(30) ابن خلدون، 7، 428.

أضمار هؤلاء إلى سبته نفسها. فقد اتخذ محمد الثالث استعداداته تدريجياً للقضية مع العاهل المغربي، وعقد صلحا مع قشتالة سنة 1303/703 من غير موافقته. ومن جهة أخرى توقفت سبته عن أداء الجباية لبيت المال المغربي وهذه كانت بدون شك عملية مدبرة من العاهل ابن مخلص الذي كان يشرف على الإدارة المباشرة لسبته، وعلى جبايتها وحاميتها. وكان من أسوأ ردود فعل أبي يعقوب أن فاولس خاتمي الثاني ملك أراغون بالتعاون وإياه على فتح سبته مقابل مشاطرته نصف الجباية الخاصة بسبته وضرد بني العزفي.<sup>(31)</sup> ومن الواضح أن هؤلاء لم تكن لهم يد في التفتقر المالي الذي حل بخزينة سبته ولا حتى بوقف الجباية عن السلطة المغربية بعد أن استمرت سبته على ذلك عدة أجيال. وهكذا تم تدبير المؤامرة ضد بني العزفي لكن ليس من السلطة المغربية، بل من بني الأحمر، حيث تكفل أبو سعيد فرج والي مالقة بالتخطيط مع عبد الله بن مخلص لتنحية أسرة بني العزفي ونفيها إلى الأندلس. وتم ذلك بشكل مفاجيء سنة 1305/705 ونقل بنو العزفي إلى غرناطة حيث قدموا ولاءهم ل محمد الثالث، ودخلت سبته كارهة في طاعة بني الأحمر.

وحاول أبو يعقوب أن يسترد سبته، لكن الجيش بقيادة نجله أبي سالم إبراهيم انهزم أمام الأمير المريني المعارض عثمان بن أبي العلاء والذي كان يتولى مشيخة الغزاة المتطوعين بالأندلس. وهكذا قام عثمان بحركة واسعة النطاق شمال المغرب بتأييد من بني الأحمر، وطال أمد هذه الحركة حتى ضعفت أمام انصار أبي يعقوب. بينما عاد عثمان إلى الأندلس سنة 1308/708. وكانت تلك أول مرة تعتمد فيها سلطات غرناطة إلى تسليح ودعم معارض من الأسرة المرينية لتنحية العاهل القائم وتحويل المغرب إلى قطر تحميه سلطة أندلسية هي نفسها ضعيفة ومقهورة. وما لبثت سبته أن عادت إلى السلطة المغربية بالقوة، وبمساعدة من سكانها وأشيائها<sup>(32)</sup> سنة 709 هـ وكان ذلك أيام سليمان أبي الربيع المريني. وقوي أمر المغرب بعد هذا لفترة تناهز نصف قرن كانت الأندلس خلالها تدين بولاء رمزي للسلطة المرينية المركزية.

أما المنفيون من بني العزفي إلى الأندلس فقد عادوا إلى المغرب عند وفاة أبي

(31) مديرية الوثائق الملكية، مجموعة الوثائق 1 رقم 98. المطبعة الملكية الرباط، 1976 م.

(32) روض القرطاس، ص 387، 392 — 393. ابن خلدون، 7، 474. 491 — 493.

الربيع وتنصيب خلفه أبي سعيد عثمان بن يعقوب سنة 710 هـ أو في السنة التي قبلها<sup>(33)</sup>، وتعرف يحيى بن أبي طالب بفاس على أبي سعيد في بعض مجالس التدريس بالقرويين قبل تولية أبي سعيد، فكان ذلك مما ساعد يحيى على أن يتولى أمور سبته بعد استعادتها من بني الأحمر.

### يحيى العزفي 710 - 711 و 714 - 720 هـ

ولاه أبو سعيد عثمان المريني، لكن نجاه نجل العاهل بعد نحو عام ونصف، وكان أبو علي قد خوله والده سلطات واسعة في حياته قبل أن يتمرد أبو علي. فانتقلت أسرة العزفي مرة أخرى إلى فاس حيث هلك أبو طالب سنة 713 ثم توفي أبو حاتم بعده، لكن يحيى أعاده السلطان أبو سعيد إلى إدارة سبته سنة 714. وبعد عامين نبذ طاعته واستقدم الأمير المعارض عبد الحق بن عثمان ليشغب على أبي سعيد، وبعد أن عسكرت جيوش أبي سعيد حول سبته عاد يحيى إلى طاعته محتفظاً برئاسة سبته وموفياً بالتزاماته الجبائية حتى هلك<sup>(34)</sup> سنة 1320/720 أو السنة التي قبلها. ثم عين بعده نجله محمد الذي لم يطل في الحكم أكثر من ستة أشهر حيث خلعه ابن عمه قائد الأسطول محمد بن علي واضطربت الأمور بسبته سنوات حتى 1328/728 وكان محمد بن يحيى يحاول عبثاً استعادة سلطته، فقرر أبو سعيد وضع حد لاستبداد أسرة العزفي وعين على سبته شخصيات من كبار المسؤولين بالدولة. ويظهر أن كبار أسرة العزفي تم نقلهم نهائياً إلى فاس حيث اشتغل محمد بن يحيى كاتباً بالبلاط حتى وفاته<sup>(35)</sup> سنة 768 هـ.

### مؤسسات الحكم والادارة

كان الحكم بسبته العزفية شورياً<sup>(36)</sup>، وفي أعلى الهرم رئيس. وهذا اللقب يؤكد الصبغة الشورية لإدارة سبته. إننا لا نعرف كل دقائق هذه الإدارة، ولكن أهم أجهزتها يتكون من عامل وقاض وقائد اسطول. وإذا فصلت الجباية عن العامل

(33) يقابل الاستقصا للنصاري، 3، 113، دار الكتاب الدار البيضاء، 1955، بابن خلدون، 7، 513.

(34) ابن خلدون، 7، 513 - 515، 768. ويقابل بالمقري، أزهار، 2، 378.

(35) ابن خلدون، 7، 514 - 515. المقري، أزهار، 2، 378.

(36) ابن خلدون، 7، 514.



يكلف بها عامل خاص. وكان يعرف لدى الموحدين وبنى مرين بصاحب الأشغال. ويتكون مجلس الشورى من رؤساء الأسر الكبرى والفقهاء البارزين بالإضافة إلى كبار المسؤولين المذكورين وبعض قادة الجند. إن هذا المجلس يكونه حكماء البلد، وهو الذي يضمن استمرار الإدارة واتخاذ القرارات برزانة وبعد تقليب وجهات النظر. وباعتبار طول فترة الاستقرار التي رافقت هذا النظام فيبدو أنه كان فريدا في شكله باعتباره نظاما لإدارة مدينة مهمة ومنطقة برية وبحرية تحيط بها. وحتى مدينة طنجة اختير لها نظام شورى مشابه. وهو بالتأكيد ليس صورة طبق الأصل تماما من نظام إدارة المدن الأندلسية التي لا تعرف الاستقرار. ومعنى هذا أن نظام حكم سبتة على عهد العزفي تميز في معظم أيامه بالروح الديمقراطية. وعندما تغيب هذه الروح بشكل ما فإن الوهن ينتاب الأوضاع العامة في مجملها. ومن أهم الأمثلة بهذا الصدد أن يحيى بن أبي طالب قيل عنه إنه أول من ركب بالرمح والسيف وأنه جند الجنود.<sup>(37)</sup> وذلك يعني أن النظام أعطى لرئيس المنطقة حجما أكبر فاستبدل بالشورى نظام الأمر والاستبداد. وذلك ما يفسر ثورته ضد ولي نعمته أبي سعيد عثمان المريني الذي أعاده مع ذلك إلى الحكم اعتبارا لظروف المرحلة.

وقد كان أهل سبتة حريصين على ذاتيتهم الإقليمية يدافعون عنها بقوة السلاح عند الحاجة حتى ولو دانوا بالتبعية السياسية للسلطة الوطنية. وبرهنت الأيام والأحداث على نجاح التجربة العزفية حتى نهايتها بالرغم من بعض السلبات العابرة. واتسع نشاط سبتة في المجالات الاقتصادية ولو أن سبتة كانت وسيطا تجاريا ولا تنتج منطقتها ما يسد حاجاتها الخاصة، غير أن انفتاحها على الخارج ووجود طبقة من التجار الأوروبيين بها لاسيما من الجمهوريات الإيطالية، فضلا عن حركة اسطولها التجاري الذي ينقل بضائع المغرب وإفريقيا الغربية إلى الخارج، ويستورد بضائع الأندلس والأقطار المتوسطية، كل ذلك ساعد على ازدهار المنطقة وزادها تشبثا بذاتيتها من حيث حرصها على إدارة أمورها بنفسها ومن طريق ممثلي سكانها الذين يحظون بثقتهم.

ويصف ابن الخطيب سكان سبتة بالاقتصاد في النفقة والتقتير وحبهم الشديد لبلدهم الذي لا يفضلون عليه غيره. وبنوه باستقامتهم في التعامل بالأسواق، كما

(37) انقري، أزهار، 2، 378.

يشير إلى كثرة أسماك سواحل سبتة ودور المنطقة في استقبال قوافل الحرير والكتك والخنمر الذي كناه بالعصير. (38)

### المميزات الثقافية

إذا كانت سبتة ذات أهمية استراتيجية وسياسية واقتصادية كبيرة منذ عصور سحيقة فإنها لم تكتسب مكانة ثقافية تذكر إلا في ظل الإسلام. ويبرز نشاط سبتة في المجال الثقافي والعلمي أكثر فأكثر منذ العصر المرابطي الذي كان شيوخه هم أساتذة الشطر الأول من العهد الموحدى والذين كونتهم مدرسة عياض ومعاصريه. ولكن العهد الموحدى أعطى لمدرسة الحديث مجالا أوسع. فلم يكن غريبا أن يتسع نشاط المدرسة الظاهرية حتى بين طلبة سبتة حيث يبرز فيه على سبيل المثال الأخوان عمر بن الحسن وعثمان بن الحسن بن دحية، والأول اشتهر بأبي الخطاب بن دحية. وعرف بكونه من الحفاظ الثقات بينما نسب إلى الثاني أنه كان متساهلا يحدث من غير أصل. (39) وهناك أيضا أبو الحسن الشاوي وأبو العباس أحمد العزفي وآخرون.

وفي ظل بني العزفي نجد ثلاثة اتجاهات تسود أكثر من غيرها :

1 — مدرسة الحديث كاستمرار لمؤثرات العهد الموحدى ولكن تسير في الخط المالكى، بمعنى أن دارسى الحديث هم أيضا طلاب الفقه المالكى حتى ولو كان ميلهم أقوى إلى الحديث. ويوجد في أعلى هذه الطبقة ابن رشيد الفهري وعبد المهيمن الحضرمي.

2 — مدرسة علوم اللسان التي تضاف إليها علوم القراءات. وقد وصف ابن الخطيب سبتة بأنها علوم اللسان (40) وقد أدرك مرافقا عصر بني العزفي. وهي مدرسة حتى ولو استقلت برجالها فإن طلاب الاتجاهات الأخرى لابد أن يملأوا من طريقها بما فيهم أمثال المحدث ابن رشيد والجغرافى محمد بن عبد المنعم الحميرى.

---

(38) ابن الخطيب، معيار الاختيار، تحقيق د. كمال شبانه، ص 146. المحمدية، المغرب. 1977/1396م.

(39) السيوطى جلال الدين عبد الرحمان، بغية الوعاة، ص 322. القاهرة. 1908/1326م. المقرئ، نفح الطيب، تحقيق محمد محيى الدين، 2، 301، القاهرة. 1949/1369م.

(40) ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 146.

ومن أبرز أعلام مدرسة علوم اللسان محمد القلوسي وله عدة مؤلفات في العروض واللغة (41)، محمد الشريف الحسني (42) مؤلف رفع الحجب المستورة الذي يشرح مقصورة حازم القرطاجني الأندلسي.

3 — مدرسة الأدب، وهي أيضا تأخذ بالدراسات اللسانية وحفظ النصوص قبل انتجاع مربع الإبداع. وأهم ماتقدمه، أدب المقاومة وأدب المولدات. وهناك أدب الترسل بمختلف أنواعه. ويعد مالك ابن المرحل (43) رأس طبقة أدباء الحقبة. أما أدب المولدات فالفضل في إشعاعه لأسرة بني العزفي بالذات.

وكل هذه الاتجاهات تحتاج إلى دراسات موسعة تبرز المؤثرات الداخلية والخارجية، بالإضافة إلى السمات الخاصة والإشعاعات في مختلف المجالات الفكرية. ويتطلب ذلك دراسة عشرات النصوص والمصادر لا سيما التي لم تكتشف حتى الآن ويمكن الوصول إليها. وهذا لا تتسع له سطور تبرز الخطوط الرئيسية أو بعضها.

وسببة العزفية لم تختص بهذه الاتجاهات وحدها، فهناك أنماط أخرى من الثقافة المكتوبة والمدرسة والمعبر عنها بشتى الوسائل. فهناك دارسو الطب ومؤلفو التاريخ والجغرافيا وغيرهم، وهناك الثقافة الشعبية الفطرية والتي تحتاج بدورها إلى دراسات متخصصة.

إن الذي مكن سببة العزفية من أن تتحول إلى مراكز استقطاب حضاري وعلمي كبير الأهمية بالنسبة للأندلس بالذات فضلا عن المغرب، هو ضياع قرطبة وإشبيلية، مع وجود تهديد مستمر للمراكز الباقية كإلقة والمرية. ولذلك رأينا توافد أعداد كبيرة من طلبة الأندلس على سببة لمواصلة دراستهم على كبار الاساتذة. وهناك أيضا عدد كبير من شيوخ تلمسان والأندلس استقروا بسببة التي كانت مواردها المالية تسمح لها بتشجيع الحركة الثقافية ورعاية القائمين عليها فلم تكن حالة فريدة أن يأتي طالب من الأندلس إلى سببة فيجد أساتذة بلاده المرموقين إلى جانب إخوانهم المغاربة وأهل تلمسان. فابراهيم التنوخي يدرس على ابن زرقون

(41) انظر : الحركة العلمية بسببة في القرن السابع الهجري، ص 202، لإسماعيل الخطيب ( من رسائل دار الحديث الحسنية بالرباط).

(42) ابن الخطيب، الإحاطة، 2، 181، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1393/1973م.

(43) الإحاطة، 3، 304 — 324.



القيسي وأبي اسحاق الغافقي الإشبيلي وابن الخضار التلمساني. أما محمد الثميري من وادي آش فيدرس على أبي بكر بن عبدة وابن حريث وابن الخضار وآخرين. وكذلك يتلقى محمد بن يحيى الأشعري المالقي على بعض هؤلاء وأمثاهم كطاهر بن ربيع وعبد العزيز الهواري، وقد تخرج الأشعري محدثاً فقيهاً وضليعاً في اللسانيات التي يتخصص فيها بسببته أيضاً معاصره محمد الغساني من ضواحي المرية. وهذه اللائحة لا تمثل إلا أحاداً من عشرات يصعب استقصاؤهم. (44) وبين خريجي سبته من تولوا القضاء ببلادهم خاصة من طلبة الأندلس. بل إن بين الخريجين المغاربة من مارسوا بالأندلس مهمات قضائية سامية كالك بن المرحل وأبي القاسم الشريف الحسني الذي تولى قضاء الجماعة بغرناطة وكان ابن الخطيب من تلاميذه.

وقد عرفت سبته أول مدرسة لاستقبال الطلبة وإيوائهم مع ما اشتملت عليه من خزانة وما خصت به من شكل هندسي لا نعرفه بالتدقيق. وهي مدرسة أبي الحسن الشاري التي تحدث عنها غير واحد من المؤرخين، فأنشأ أبو الحسن المريني في القرن الثامن مدرسة أخرى. (45)

وزاد النشاط الثقافي تألقاً وتوسعاً، اهتمام أسرة العزفي برعايته وتعزيزه. بل إن كل حكام الأسرة ورؤسائها كانوا هم أنفسهم على قدر عال من التكوين الثقافي أو العلمي المعاصر. وكل أفرادها تقريباً يجمعهم ذوق أدبي رفيع، عدا ميولهم الأخرى. ويميز جد الأسرة أبو العباس أحمد بالفقه والحديث، وأنجز قسماً من «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» فأكمّله نجله أبو القاسم الذي شرع إحياء ذكرى المولد النبوي بسبته ثم أشار على المرتضى بإحيائه بمراكش. (46) وهذا قبل أن يبدأ تعميمه بالمغرب على يد المرينيين. وجمع أبو القاسم بين الفقه واللغويات، وأنشأ قصائد في المديح النبوي. ومن أبرز مثقفي الأسرة عبد الرحمان بن أبي طالب الملقب هو أيضاً بأبي القاسم. وهو بدوره فقيه محدث إلى جانب تكوينه الأدبي.

(44) الاحاطة، 1، 374، 3، 78، 88، 96، 199. النباهي أبو الحسن علي. المرقبة العليا، ص 141. بيروت. 1980/1400 م.

(45) ابن مرزوق محمد التلمساني، المسند، تحقيق ماريانيسوس بيغيرا، ص 406، الجزائر. 1981/1401 م.

(46) المقرئ، أزهار، 2، 375.

ألف كتاب الإشادة بترجم فيه لمشهورين من معاصريه والقريبين من عصره وينقل جملة من إنتاجهم الأدبي ويعدد مؤلفاتهم. ومن ترجم هم، القاضي أبو حفص عمر السلسي من مواليد اغمات، والشاعر ميمون بن خبازة من أسرة ابن خبازة الذي هو حال ميمون هذا. أما محمد بن يحيى العزفي فقد كتب في الطب وبرع في الأدب لاسيما التوشيح. ونقل ابن الخطيب بعض إنتاجه. (47)

تلك نظرة موجزة عن أوضاع سبته في عصر بني العزفي. وفي أبرز المجالات التي جعلت سبته في قلب اهتمامات المغرب وجيرانه. ونجد المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية تستقطب أهم المكونات الحضارية لهذه المدينة زهاء ثمانين سنة.

---

(47) ابن الخطيب، الإحاطة، 3، 11. المقرئ: أزهار، 2، 356 — 361، 371، 377 — 378.



# وثائق مغربية جديدة حول القبائل المجاورة لسبتة (1892 — 1911) مثال قبيلة أنجرة

د. عبد العزيز التمساني خلوق<sup>(١)</sup>

## تقديم

سبق لي أن نشرت بحثاً<sup>(١)</sup> تناولت فيه علاقة قبيلة أنجرة بالسلطة المركزية المغربية من خلال وثائق مخزنية تغطي الحقبة الواقعة بين عامي 1837 و1892، وتظهر بجلاء أن بطون هذه القبيلة — المتكونة من البرقوقيين والغابويين والبحراويين — كانت مرتبطة بشكل منتظم بالجهاز المخزني، وخاضعة له. وهكذا، كانت السلطة المركزية تتدخل لتصحيح الأوضاع ووضع حد لتعسفات القواد المستبدين حرصاً منها على إقرار الأمن وسط القبيلة، واضطلعت بوظيفة اجتماعية هامة هي وظيفة التحكيم وإصلاح ذات البين بين الأطراف المتنازعة أيام الفتن والاضطرابات التي كانت تندلع لأسباب اقتصادية. وكانت هذه السلطة ممثلة في أنجرة في شخص قائد يمارس وظائفه كاملة، كجباية الضرائب وزجر المخالفات المعقدة التي تعجز المجالس المحلية عن تسويتها.

وأقدم فيما يلي مجموعة جديدة من الرسائل غير المنشورة تتعلق بالوضع المضطرب في أنجرة، وتعود إلى الفترة الممتدة من 1892 إلى 1911، عثرت عليها

(١) كلية أصول الدين تطوان

(1) عبد العزيز التمساني خلوق، «وثائق مغربية عن قبيلة أنجرة وعلاقتها بالسلطة المركزية المغربية (1837، 1892)» مجلة دار النيابة العدد 5

ضمن المجموعات الوثائقية الضخمة المحفوظة بمديرية الوثائق الملكية بالرباط. و  
ترصد هذه المراسلات علاقات القبيلة المذكورة بالسلطة المغربية وتأثير التسرب  
السلمي الاسباني على تطورها في بداية القرن العشرين.

أما القضايا التي تنطرق إليها هذه الوثائق الجديدة فيمكن إجمالها في المواضيع  
التالية :

— الاضطرابات التي عاشتها القبائل المجاورة لسبتة لما شقت قبيلة أنجرة عصا  
الطاعة. فآثار العصاة الفتن داخل بلاد جباله وساهموا في نشر الفوضى عشية  
الحماية.

— تدخل حكام سبتة في شؤون قبيلة أنجرة.

— الاحتلال العسكري الاسباني للأراضي المغربية المجاورة لسبتة، ووردود  
الفعل المخزنية العنيفة.

— مواقف المخزن الحفيظي الدبلوماسية من السياسة التوسعية الاسبانية في  
نواحي سبتة.

— إشارات إلى المحادثات التي أجرتها السفارة الحفيظية في شأن اتفاقية 16  
نوفمبر 1910 بين المغرب واسبانيا.

إن استنطاق هذه الوثائق الجديدة المتعلقة بأنجرة في فترة عصيبة أصبح ضرورة  
ملحة بعد أن خرجت بلادنا من الكابوس الاستعماري، وبدأت تشعر بالحاجة  
إلى الرجوع إلى أرشيفها الوطني لتمشيط الأرضية التي تركها باحثو الفترة  
الاستعمارية مزروعة بالألغام.

## الوثيقة 1

رسالة من المولى الحسن إلى أهل أنجرة بتاريخ 10 محرم 1310  
(4 — 8 — 1892) ينهاهم فيها السلطان عما هم عليه من فساد ويدعوهم  
إلى الاستقامة.

خدامنا الأرضين، كافة أعيان قبيلة أنجرة، محمد احسين ومحمد ولد بن عبد  
الصادق الحساني والشيخ عبد الرحمان الخمال، وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة  
الله.



وبعد، فقد أصدرنا شريف أمرنا لكافة قبيلة أنجرة خاصتهم وعامتهم بالتقدم على حضرتنا العالية بالله بقصد الكلام معهم فيما فيه صلاحهم وتمهيد مصالحهم وإخراج صالحهم من عموم زمرة صالحهم وعصمة رقابهم وأعراضهم وأموالهم من ثبوت سطوة الله الباهرة أوجر ذل مواخذته القاهرة، فإن البلاء إذا نزل عم واستأصل وطهر. وعليه، فإن كنتم في رتبة الضاعة والامثال و اتقاء سخط الله وعقوبته النافذة النصال، فعجبوا بالتقدم صحبتهم على حضرتنا العالية بالله، حائزين مزية الامثال والضاعة، مغتنمين من رضا الله والرسول و رضانا أوفر بضاعة، والسلام، في 10 محرم عام 1310.

## الوثيقة 2.

رسالة من المولى الحسن إلى الحاج محمد بن العربي الطريس حول قائد حدادة سبتة بتاريخ 13 محرم 1310 (7 - 8 - 1892) (الطابع الحسني).  
خدمنا الأراضى الحاج محمد بن العربي الطريس، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد، وصل كتابك بأن قائد حدادة سبتة كتب لك بما في كتابه الذي وجهته وطلب منك مطالعة علمنا الشريف بمضمونه، وذكرت أن تأخير أمر قبيلة أنجرة نشأ عنه تشوفهم وتعلقهم بذلك وغيره وإن كان ذلك لا ينفعهم ولا يحصلون به على طائل حتى إن قبائل إيالة طنجة صرحوا بأن عملهم من عمل أنجرة وشاع هذا عند الخاص والعام وصار بالبال، فاعلم أن ذلك الأمر الآن هو أهم الأمور عندنا، وما نحن ننظر كل يوم ما يكون في حسم مادة دائه، وعلى الله الكمال، والسلام، في 13 من المحرم فاتح عام 1310.

## الوثيقة 3.

رسالة من عبد الرحمان بن عبد الصادق إلى المولى الحسن حول وقائع الثورة الانجرية وتصدي المحلة المخزنية لقمعها، بتاريخ 16 محرم 1310 (10 - 8 - 1892).

آدام الله العز والتمكين والنصر والظفر والفتح المبين لمولانا أمير المؤمنين.  
وبعد أداء ما يجب للمقام المنيف من تقبيل حاشية البساط الشريف ينهى لشريف علم سيدنا أسماء الله أن يوم تاريخه الذي هو يوم الأربعاء ورد الفاسد

الحمام الانجري بعد الفجر مع قبيلته والبعض من بني مصور والبعض من ودراس وغيرهم حتى كان معه عددا لا يحصى كثرة بقصد الضرب على الخلة السعيدة بعد أن حرق ثلاثة مداشر السانية والخرارش وطنجة البالية، فأقمنا على ساق الجد ووجهنا الجيش الريفي فنشبو البارود معهم أولا والحقنا بهم نحن مع القائد أحمد الشراذي وبني حسن وبعض القواد من العسكر السعيد والمدفع، وطالت المصادمة معهم إلى قرب المغرب، وكانت معركة عظيمة لا توصف، وأبلى الجيش الريفي بلاءا حسنا وكذلك العسكر وقتلوا وقوتلوا ومات من الجانبين عددا وكانت الهزيمة على الفساد والحمد لله ببركة مولانا أيده الله وبلغت الجيوش إلى أعلا جبلهم. وما نحن لا زلنا محاصرين لهم حتى يقضى الغرض بحول الله طالبا من مولانا صالح الأدعية وعلى الخدمة الشريفة والسلام في 16 محرم عام 1310. حديمك عبد الرحمان بن عبد الصادق.

#### الوثيقة 4.

رسالة من أحد أعيان أنجرة إلى المولى الحسن، بتاريخ 19 محرم 1310  
(13 - 8 - 1892)

بعد تقبيل حاشية البساط الشريف وأداء ما يجب من التعظيم والتشريف فقد ورد على الخديم الظهير الشريف بما صدر به أمر مولانا بشرفاء قبيلة أنجرة وقضائهم وأعيانهم من القدوم على الأعتاب الشريفة بقصد الكلام معهم على ما يعود عليه صلاحهم واعلم مولانا أدام الله لنا عمره ليكون على بال فالخديم عند السمع والطاعة طالبا الرضى وعلى الخدمة، والسلام في 19 محرم الحرام عام 1310.

#### الوثيقة 5.

من محمد بن محمد السلاوي إلى سيدي العباس، بتاريخ 23 محرم 1310  
(17 - 8 - 1892).

أدام الله مجادة حبيينا الأود العلامة الأجد سيدي العباس وسلام على سيادتكم ورحمة الله عن خير مولانا المنصور بالله.

وبعد، فبعدهما أعلمنا سيادتكم بأن أنجرة ذبحوا على أعيان أهل البلد وأنا شرعنا في امتثال ما أمرتمونا به في شأن أهل الغابة قدم علينا أربعة منهم ضحوة يوم تاريخه محتمين بجناح الشريف الأجل البركة سيدي الحاج عبد السلام ابن عجيبة خلطنا

وذبخوا عارا طالبين على لسان كافة القبيلة الشفاعة فيهم عند سيادتكم أن تبذل لهم الأمان حتى يتمكنوا من التقى بكم فإنه قد ضاق عليهم الخناق و تابوا و رجعوا ولم يجدوا سبيلا للوصول للقاء بعلي جنابكم فأمرناهم إن كانوا كما ذكروا فليأت إلينا في أمان الشريف المذكور وعدد من عرفائهم أهل الكلام فنرجو من سيادتكم أن تأمرنا إذا أتونا هل نوصلهم لخضرتكم في الأمان أو بما يقتضيه نظركم دام مجدكم وعلاكم ويصلكم مع الخامل جواب الشريف المذكور وجواب قائد المحلة لازال لم يأت ومهما نتوصل به نوجه لسيادتكم وعلى المحبة، والسلام في 23 محرم عام 1310. محمد بن محمد السلاوي.

#### الوثيقة 6.

رسالة من المولى الحسن إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 28 محرم 1310 (22 - 8 - 1892).

خدمنا الأراضى الحاج محمد بن العربي الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد، وصل كتابك بما شا فهك به نائب البروس من استحسانه ما رأى من فعل العسكر السعيد والجيش الريفي في محاربة الفساد يوم الاربعاء الماضي وإشارته بتحول المحلة السعيدة لمدرش المنار حيث أخلى من الفساد لكونه مركزا مليحا و مجالا جيدا زيادة على ما في ذلك من المصالح التي تبين الجارية على قواعد السياسة الحربية وصار بالبال. فقد استحسنا إشارته بذلك وعددناها له اهتماما بهذا الأمر ودليلا على صدق المحبة والتّصح، فلتجازه على لساننا الشريف بأحسن جزاء و مزيد ثناء، وعرفه بأننا أعملنا عامل إشارته، وأصدرنا أمرنا الشريف لكبراء المحلة السعيدة بالتحول للمحل المشار إليه، والسلام في 28 محرم الحرام فاتح عام 1310.

#### الوثيقة 7

رسالة من المولى الحسن إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 28 محرم 1310 (22 - 8 - 1892)

خدمنا الأراضى الحاج محمد الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله. وبعد، وصل كتابك معلما بحزم قواد الرحي وظهور مزيتهم في محاربة فساد



الأنجرة وصار بالبال، فقد أحسنت في الإعلام بذلك والتنبيه عليهما وقد أمرنا لكل واحد من قائد الرحي البوزراري وقائد الرحي الدمناي بفرس مسرج بسرج تلمساني اعتناء ومجازاة، والسلام 28 محرم عام 1310.

## الوثيقة 8

رسالة من المولى الحسن إلى الحاج محمد الطريس، بتاريخ مرم محرم 1310  
(24 - 8 - 1892)

خدينا الأرضى الحاج محمد الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله.  
وبعد، وصل كتابك بأن المحلة السعيدة الرابطة على فساد الأنجرة بارزتهم بالقتال أولا وثانيا وحيث انقضى ما بين الفحصية والعسكر من القرطوس نبت على تمكينهم منه وكتبت لأمناء العرائش بإبقاء الوارد عليهم من القرطوس تحت يدهم احتياطاً. وفي يوم الأربعاء سادس عشر شهر تاريخه تجدد القتال وأبلى العسكر والفحصية بلاء حسناً، فانهزم الفساد، وتشتتوا بداخل أعماق البلاد وخلفوا من القتلى ما ضاعف قتلى المحلة أو كاد، وحرقت لهم مداشر، وطهر من كان معهم من بني مصور ووادرأس، ثم عادت المحلة إليهم يوم السبت وتمشت في أرضهم نحو ساعتين، فلم تقف على أثر لتوغلهم في القبيلة، وشاع ما داخلهم من المنافرة وشتات الرأي وركون القبائل إلى الطاعة. وإن الظاهر هو اقتحام المحلة الدخول عليهم وإمدادها بزيادة الرماة لكون الخيل الذي معها فيهم الكفاية، وصار بالبال. أما تنبيهك على تفريق القرطوس وكتابك لأمناء العرائش حرسها الله على إبقاء القرطوس تحت يدهم احتياطاً فأصبت في ذلك أصاب الله بك. وأما ما قررت من تكرار القتال وظفر المحلة ونصرتها وتقفها لآثارهم وفتكها بمن مرت عليه من فسادهم ومداشرهم، فقد أتيت فيه بالخير على وجهه وشرحته شرحاً تاماً جامعاً لشتات أخبار غيرك. سددك الله، ونسأله سبحانه أن يصلح أمر المسلمين و ينتقم بعدله من القوم المفسدين. وأما ما استظهرته من الاقتصار في إمداد المحلة السعيدة على الرماة واقتحامها الدخول على الفساد انتهازا لتمام الفرصة فعم وقد أمرنا تدارك المحلة بالرماة وليكن إقدامها على الدخول على الفساد بعد الزيادة في المدد وما لا بد منه بعد الاعتماد على الله والتوكل عليه في جميع الحالات من النظر والسياسة واليقض في الحذر والحراسة والتبصر في فرصة الاقتحام وتخمين الرأي في مواقع المبارزة ووجهة الاقدام حتى يتم الغرض في استئصال الفساد و يكمل الظفر بهم

بحول الله على وفق ما يراد وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصيح والسلام ممة  
محرم الحرام عام 1310.

## الوثيقة 9

رسالة من القائد ابراهيم بن محمد الامراني إلى المولى الحسن، بتاريخ فاتح صفر  
1310 (25 - 8 - 1892)

ينهي لعلم مولانا أيده الله أن بعض إيالة خديم مولانا أعزه الله السيد عبد  
الرحمان وهما اجبل لحبيب ثم وادراس قدموا طلبوا منا الملاقاة سدد وارتداد عن  
ما كانوا مشتغلين به وتلاقينا معهم بقرب اخلة السعيدة نحن والقائد المذكور وثبت  
إصلاحهم واستنصفوا التوبة لله ولمولانا أيده الله الطاعة وكلفناهم بما أمر به مولانا  
أعزه الله بأن يضربوا أنجرة ويقاتلوا الفساد أشد القتال فأجابوا بالسمع والطاعة،  
وصدر بعد انصرافهم القتال بينهم وبين الفساد وحرقوا لهم بعض المداشر وهما  
جادين في قدوم أعيانهم لمولانا أيده الله وقد حصلت منهم النتيجة. ومما ينهي  
لشريف علم مولانا أعزه الله أن الخديم السي حمان السعيدى لما قدم بشريف  
كتب مولانا لأنجرة اجتمع أهلها عليه وكبيرهم الفاسد الحمام حتى كان معه بقبته  
وبينهم ماعون الأتاني بعد تفرقهم وتشتيت شملهم اجتمعوا ينصتوا أمر مولانا أعزه  
الله وقد فرض عقيهم اثني عشر مائة ريال في سخرته وغيرها، وقبل هذا عزمنا  
على الصوكة وتعذر لنا الأمر ولكبير اخلة السيد العباس وللمحلة السعيدة وللجيش  
الريفي بقدوم الخادم لأنجرة وبعد الواقع لم نخبرنا بقدومه إلا بعد حين وقد أعلمنا  
شريف علم مولانا أعزه الله والعبد يطلب من سيده رضاه والسلام في 1 صفر  
الخير عام 1310. عبدك إبراهيم بن محمد الأمراني.

## الوثيقة 10

رسالة من المولى الحسن إلى أهل الغابة الانجريين، بتاريخ 5 صفر 1310  
(29 - 8 - 1892)

خدامنا الأنجاد أهل الغابة من الانجرة المجاورين للحدادة وفقكم الله وسلام عليكم  
ورحمة الله.

وبعد فقد بلغ لشريف علمنا ركونكم لجانب الطاعة والصلاح وتفصيحكم من  
عهدة فساد الانجرة وخروجكم من زمرتهم واتفاقكم على الإعانة عليهم ومحاربتهم



حتى يظهر صلاحهم واستقامتهم وأنكم طلبتم الأمان من شريف جنابنا لتميزكم به عنهم. فقد أمانا عليكم بأمان الله وأمان رسوله وأماننا وأماننا عليكم بذلك رداء الأمتنان وبوأناكم به مقاعد الرعاية والاطمئنان وأثبتنا لكم ذلك مادمتهم متعاضدين على الطاعة والصلاح خارجين عن زمرة أهل الفساد والجناح والله يوفقكم لما فيه رضاه ويسلك بالجميع مسالك الرشد والهداية والسلام 5 صفر الخير عام 1310.

### الوثيقة 11

رسالة من المولى الحسن إلى الحاج محمد الطريس، بتاريخ 5 صفر 1310 (29 - 8 - 1892)

خدمنا الأرضي الحاج محمد الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله. وبعد، وصل كتابك طالبا تثبيت الأمان لأهل الغاية جوار الحدادة لاختيارهم لجانب المخزن وظهور مصداق الطاعة فيهم والتزامهم الإعانة على الفساد وضربهم حسبا بكتاب المكلف بالحدادة الواصل طي كتابك ونهت على عدم وصول المحلة السعيدة للحدادة لما أشرت إليه حسبا بكتاب من ذكر أيضا وصار بالبال. أما أهل الغاية المتظاهرون بالصلاح فقد أمانا عليهم بأمان الله وأمان رسوله وأماننا إن لم يدخلوا في شيء من زمرة أهل الفساد. وكتابنا الشريف بالتأمين عليهم هاهو يملك بطيه ليمكنوا منه ويقروا عليهم وأعلمنا به كبير المحلة. وأما مكاتيب المكلف بالحدادة فوصلت وطولع بها علمنا الشريف وأمرنا كبير المحلة بعدم الوصول إلى الحدادة وفق ما أشرت إليه والسلام 5 صفر الخير عام 1310.

### الوثيقة 12

رسالة من المولى الحسن إلى محمد الطريس، بتاريخ 6 صفر 1310 (30 - 8 - 1892).

خدمنا الأرضي الحاج محمد الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله. وبعد، وصل كتابك بما تشكى به أهل الفحص من أضرار المحلة بهم ونهب أمتعتهم مع ظهور نصيحتهم وإعانتهم على فساد الأنجرة وصار النواب يسترعون من أجل ذلك وأشرت لما وقع من العسكريين وبين باشدور الفرنضيص ولما صدر من كبراء المحلة من القبض على بعض الصالحين من الانجرة كانوا فارين بأمتعتهم

بقبيلة الفحص ولاستيلاء على ما عندهم. ومن جملتهم رجل مخالط للمركان وقع به مثل ذلك...

أما ما تشكى به أهل الفحص فلا غرابة في ذلك وكثيرا ما يقع ذلك من المحلة للصالح ولكن يتدارك ذلك وقد كتبنا لكبراء المحلة بأن يفاصلوهم ويردوا إليهم متاعهم. وأما استرعاء الثواب فهو كذلك. وأما الأنجرة فليس فيهم رجل رشيد. وأما المركان فكان من حقه أن لا يخالط أهل الفساد أو يجوز أمتعته من عندهم حيث فسدوا وإنما يسترون بالصلاح بعد السطوة ولا حق له وقد وصلت مكانته المشار إليها مع جواب ابن عبد الصادق وطولع بها علمنا الشريف. وأما ما خشيت من مكث المحلة بقرب ضجة فقد أمرنا بنقلها من هناك وتخيمها ببرج المنار إن كان صالحا للتزول وإلا ففي غيره من الأماكن البعيدة عن المدينة التي لا يلحق منها ضرر. وأما قضية الباشدور مع العسكرين فالذي بلغنا فيها أن كبير المحلة رباهما وسجنهما وسامح الباشدور والخسست مادة القضية والسلام، 6 صفر الخير عام 1310.

### الوثيقة 13

رسالة من المولى الحسن إلى محمد الطريس، بتاريخ 25 صفر 1310  
(1892 — 9 — 18)

خدمنا الأرضي الحاج محمد بن العربي الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد، وصل جوابك بنفي ما كان بلغ علمنا الشريف من إمداد باشدور النجليز قبيلة أنجرة بالعدة والقرطوس مستدلا على بطلانه بما قررت من القضايا التي منها توجههم بتطوان في صورة التطارح على أهلها بالعار ليشفَعوا فيهم والقصد الحقيقي هو التزود من البارود والقرطوس وكتب لخليفة عاملها بالشبه لذلك وصار بالبال. فما كتبنا لك هو ما بلغنا والمراد بالكتابة إليك فيه هو البحث عن حقيقته حتى تقف عليها وحيث أجبت بأن ذلك لا أصل له فهو المراد والحمد لله. وتنبهك خليفة عامل تطوان على رد البال لأنجرة في اشتراء البارود ونحوه أحسنت فيه أصلحك الله والسلام في 25 صفر الخير عام 1310.

## الوثيقة 14

رسالة من إبراهيم بن محمد الامراتي إلى المولى الحسن، في 9 ربيع الأول 1310  
(1 - 10 - 1892)

بعد تقبيل حاشية بساط سيدنا وأداء ما يجب لمولانا أعزه الله ينهي لعلم مولانا أيده الله أن يوم تاريخه الذي هو يوم الأربعاء قدم الخليفة محمد قنجع وصحبته أعيان أنجرة وتلاقينا معهم بالحلة المولاوية وصالحناهم مع عاملهم امقشد ولم يبق بينه وبين القبيلة اللنجرية إلا الخير واستشهدنا على أربعة وعشرين من أعيانهم مما لهم الحل والعقد عندهم بعدول أربعة وأنهم رضوا الصلح مع عاملهم المذكور وذكروا أن ولد الحمام فر من قبيلتهم وإن عاد إليهم بالرجوع يقبضوه ويقتلوه كما أمرهم مولانا أيده الله في كتابه الشريف وقد طالعنا مولانا أيده الله والعبد يطلب من سيده رضاه والسلام في 9 ربيع النبوي عام 1310 عبدك إبراهيم بن محمد الأمراتي.

## الوثيقة 15

رسالة من السلوي إلى المولى الحسن، بتاريخ 8 ربيع الثاني 1310  
(30 - 10 - 1892)

العبد المملوك يقبل الأرض بين يدي سيده ومولاه ويشني عليه بما هو أهله. وبعد فقد ورد على الوصيف الظهير الشريف أسماء الله مع وصيف سيدنا الحاج مبارك بوجلود الموجه للنزول معي على فساد أنجرة تعزiza في المحل الذي عينه لي سيدنا دامت سعادته الأخذ بمخانقهم والتضييق بهم أمرا مولانا دامت جلالته بالكون في ذلك يدا واحدة مع خدام سيدنا المامورين بالنزول عليهم في الاماكن المعينة لهم بقصد ذلك أيضا فأنتهى لكريم العلم أني قد بذلت الجهود في الامثال وحشدت ما تيسر من الإيالة للغرض الشريف وبقيت منتظرا نفور الجوار المامورين بمثله حتى تحصل العصية وتكون الضربة واحدة وفق الأمر الشريف فلم يظهر منهم أحد كما في علم مولانا إلى أن انتهى الغرض الشريف فرجعت للمقر على الخدمة الشريفة طالبا من مولانا رضاه والسلام في 8 ربيع الثاني عام 1310 خليفة وصيف مولانا محمد بن الحضرمي السلوي.



## الوثيقة 16

رسالة من المولى الحسن إلى محمد الطريس، في 28 شعبان 1310  
(17 - 3 - 1893)

وبعد، وافانا كتابك بوقوع القبض على ظالم نفسه الحمام الانجري وحلوله بسجن طنجة المخروسة وصار بالبال فقد حاق به سيء مكره وعاد عليه شؤم فعله وبغية فقد ضاعت بسببه رقاب وأموال والحمد لله الذي كفى أمره وكل شيء منه وإليه الحق الله به أمثاله والسلام في 28 شعبان عام 1310.

## الوثيقة 17

رسالة من عبد الرحمان بن عبد الصادق إلى المخزن، بتاريخ 6 ذي الحجة عام  
1313 (19 - 5 - 1896)

...فقد ورد الأمر المولوي أستماء الله وأعزه بأن خديم سيدنا امقشد أخبر مولانا أيده الله أن البعض من إيالته أهل أنجرة فروا ونزلوا بالفحص وعليهم دعاوي وأمرني سيدي أيده الله بمساعدته في ذلك وشد عضده فيه، فليعلم سيدي أعزه الله أن أهل أنجرة لم يكن عندنا علم بأحد فيهم بالفحص وأهل الفحص يانفون من أهل أنجرة لما يلحقهم من الإداية والضرر فيهم ولما وجهنا لخديم سيدنا المذكور أن بين لنا من هو عنده فيهم بالفحص وذلك مع صاحب سيدنا الوارد على ذلك أجابنا بغير مفيد فكتبنا له بالسؤال كتابة فأجاب كذلك بغير مفيد....

## الوثيقة 18

رسالة من المولى عبد العزيز إلى محمد الطريس، بتاريخ 27 ربيع الثاني 1315  
(25 - 9 - 1897)

خدمنا الأرضي النائب الحاج محمد الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد، وصل كتابك شارحا ما ظهر من قبيلة الانجرة من الطيش حتى طردوا قائد الحدادة إلى أن رددته وكلمت عامل طنجة بتعزيده بالخليل وكلمت عاملهم بسلوك الجادة معهم وأشرت لمعالجة دائهم وصار بالبال، فنامرك أن تبين لنا من يصلح للولاية عليهم ليضبط أمرهم بحول الله والسلام، 27 ربيع الثاني عام 1315.

## الوثيقة 19

رسالة من المولى عبد العزيز إلى الطريس، بتاريخ 14 ذي الحجة 1322  
(9 - 2 - 1905)

وبعد، وصل كتابك بأن أهل عسة حدادة سبّته وأنجرة طالما ترددوا طالبين أجرتهم المتوفرة لهم عن عدة أشهر وكلمت أمناء (المرسى في ذلك، فأجابوا بما لا طائل تحته، وحيث كانت أنجرة....) المذكورين من أهم المهمات وعزم المذكورين على التخلي عنها إن لم يقبضوا أجرتهم ادت أمناء السكة في أن يسلفوا لأمناء المرسى دراهم بقصد ما ذكر ريثما يصدر أمرنا الشريف بما يكون عليه العمل وصار بالبال، وقد أخبر الأمين الكبير بأن أمناء السكة قد دفعوا لأمناء المرسى عشرة آلاف ريال بقصد ما ذكر وغيره من المهمات ثم صدر لهم الإذن بدفع عشرة آلاف أخرى لهم بقبل ذلك أيضا ولا يكون المذكورون إلا توصلوا بمتوفر أجرتهم والسلام في 14 حجة عام 1322.

## الوثيقة 20

رسالة من النائب محمد الجباص إلى الوزير الحاج محمد المقرئ، بتاريخ 28 رمضان 1328 (3 - 10 - 1910)

مجادة الأخ الأعز الأَرْضى الوزير الأجل الأحظى السيد الحاج محمد المقرئ،  
رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا أيده الله.

وبعد، وصل عزيز جوابك عن قضية أنجرة وصار بالبال، فقد ورد علينا أمس أعيان ثلثى قبيلة أنجرة البحراويين والبرقوقيين وذكروا أن ثلث الغابة فوضوا لهم فيما يفعلونه فجمعناهم مع القائد محمد المجبود وأخبرناهم أنه مولى عليهم موقتا وحضضناهم على السمع والطاعة له وحذرناهم عاقبة مخالفته ففرحوا وقبلوا رأيته وقرأنا الفاتحة وذهبوا بسلام وها نحن نراقب ما يبدو منهم بعد هذا التعيين ليظهر ما يكون من أمرهم هذا وقد وصلنا من سفارة الفرنسيين كتاب مفتوح في اسم اخوتك ها هو يوافيك طيه كما ورد وعلى الأخوة والسلام في 28 رمضان عام 1328.



## الوثيقة 21

رسالة من الطبيب المقرئ إلى الوزير الحاج محمد المقرئ، بتاريخ 8 شوال 1328  
(13 - 10 - 1910)

وبعد، فقد وصت مكاتيب سيادتكم مضوية على مكاتيب للحضرة الشريفة فيما يتعلق بتأخير الريسوني عن العمالة على الأنجرة بحسن مساعيك وبوصولك لمدريد وما راح بينك وبين وزيرى الداخلية والخارجية، وما دار مع الباشدور مري دلفال في شأن انجود و صار بالبال، وقد أحلنا الكل محله من اليد الكريمة وحصل مولانا مزيد السرور بحسن سلوكك مع القوم وآماله أعزه متوجهة إلى الله أن يمد سيادتك بالإعانة والتوفيق والاهام إلى أقوم طريق، وها أجوبة الجنا ب العالي بالله تصل مجادتك بظيه مع كتاب شريف في شأن مراجعة قنصل الانجليز للجنا ب المعتز بالله عن وصول الباشدور لجبل درن ومرافقة المنهبي له، كما يصل سيادتك أيضا بعض مكاتيب من عند الوزير الكبير رعاه الله، والله يديم لنا عنايتكم ويمتعنا برضاكم والسلام في 8 شوال الأبرك عام 1328.

## الوثيقة 22

تقييد حول تدخل حاكم سبتة في شؤون أنجرة (أكتوبر 1910)

ورد عند الخديم مساء أمس باشدور الاصبنيول الذي بطنجة حرسها الله من قبل الوزارة الخارجية مخبرا أن حاكم سبتة كتب لدولتكم بأن البعض من قبيلة الانجرية لم يقبل ولاية القائد محمد انجود، ولا شك أن هذا الخلاف يفضى إلى حدوث تشويش في الحدادة وإذا وقع شيء من ذلك فإن الدولة لا تضمن بقاء السلم هناك (يعني بذلك أن عساكرها تخرج عن الحدادة) وإن المخزن الشريف لايعين أي عامل على هذه القبيلة إلا بعد أن يتفاوض مع الدولة فيه، على أن هذا العامل لما كان متوليا على ثغر العرائش أوقع خصاما مع البوليس وقبل ذلك كان عاملا بفجيج فلهذه الأسباب لا تصلح ولايته ولا توافق الدولة عليه.

فأجابه الخادم بأن القبيلة إلى الآن ما بلغ لمسامع المخزن الشريف أن بعضها رفض ولاية المجبود لا حقيقة ولا مجازا، وقد كان قبله متوليا عليها الريسوني ولم تقل ولايته، ولمراعاة ما ربما يقع من التشويش هناك مع شدة إلحاحكم في تأخيرده أيضا لم يجبرها على قبوله وأصدر أمره الشريف له بالتخلي عنها.

ولا يخفاكم أن القبيلة هذه ما يزيد على السنة وهي بدون عامل فلا يمكن للمخزن الشريف زيادة على هذه المدة أن يهمل أمرها ولا يعين من يدير شؤونها. والمجبود رجل عرف بالنباهة وحسن السياسة في المصارفة وقد تقلب في الوظائف الخزنية وأحسن السيرة في الجميع ولا يمنع من ولايته وهو على هذه الصفات كونه ولي سابقا على فجيج أو تخاصم مع البوليس في العرائش. وأما ما يعنيه الباشدور من خروج عسكر الدولة عن الحدادة فإن كان لجرد هذا السبب وحده فعلى فرض وقوعه لاحق لها في ذلك نعم إن كانت هناك أسباب أخرى لا علم للمخزن الشريف بها فتبديها.

وأما مفاوضة المخزن الشريف مع الدولة في ولاية عامل أنجرة فلا شروط بين الجانبين تقضى بذلك وإليه أعزه الله النظر المطلق في تولية وعزل من شاء في إيالته الشريفة.

ثم أعاد إلحاحه في تأخير المجبود وأبدى من الحجج الواهية على ذلك ما لا عبرة لمجاراته في ميدان العدل والإنصاف.

ولما رأى الخديم لهجته شديدة في ذلك وخشي تعكير المباشرة من أول مذاكرة والحال أن الملك ستقع الملاقاة به في الغد الذي هو يوم السبت جراه في الحديث وختم معه الكلام في الموضوع بقوله على أن ولاية المجبود إنما هي مؤقتة ريثما يظهر للمخزن الشريف من يوليه عليها هو أو غيره وعلى كل حال فسأرفع الإعلام بهذا كله لجلالته والعمل على ما يقتضيه نظره الشريف في ذلك.

### الوثيقة 23

رسالة مخزنية إلى الحاج محمد المقرئ بتاريخ 7 جمادى الثانية 1329  
(15 - 6 - 1911) —

وبعد، وصل جوابك عما كتبنا به لأخوتك رعاها الله في شأن ما تشكى به الانجريون حول سبته وما أجاب به حاكمها وما كتبنا به للقائد المذكور في الموضوع بأن أخوتك سبق لها الكتب لنا في موضوع الاحتلال بأن المخزن الشريف لا يمكنه أبدا الاعتراف به نظرا لاستتباب الأمن والروجان على السير المعتاد فيما بين سبته وتطوان وأشارت بملاحظة هذا المقصد فيما تبادلت المخاطبة مع السفير في الموضوع كتابة أو مشافهة محتجين على ذلك بما هو واقع والحمد لله من السكينة

وكون القبيلة الأجنبية تصرح علانية بأنها تتكفل بكل مسؤولية إذا رجع العسكر من حيث أقي. كما أشرت إلى التأمل في الأجوبة والمكاتب التي تصدر منا لأعيان القبيلة أو لولادة المخزن الشريف حتى لا يكون فيها ما يشعر بأحقية الاحتلال كريثا يتيسر للمخزن تنظيم القوة المنصوص عليها.

فإننا جادون كلما ساحت فرصة الاجتماع مع السفير أو الكتب له في الموضوع إلى ملاحظة عدم اعتراف المخزن بذلك الاحتلال لاستتباب الأمن التام الذي لا يتغير منذ أزمان بتلك النواحي كما أننا لا نألو جهدا في الكتب لأعيان أنجرة وعاملي تطوان وحدادة بكل ما تتحقق فيه المصلحة المخزن والوطن وفي كل كتاب أو جواب تصرح لهم بأن الجناح العالي بالله مهم بالقضية وجاد في إرجاع العسكر لحدوده وحضهم على السكون والطمأنينة وعدم الخوض فيما لاتحمد عقباه ليبقى المخزن يباشر القضية حتى يخرج الأمر بسلام أما ما نهت عليه اخوتك من التأمل فيما يصدر منا من الأجوبة لما ذكرته فنحن على بال منه والكمال لله والمولى يوفق الجميع ويديم عز مولانا وعلاه ويعين الكل على القيام بخدمته الشريفة وعلى الأخوة والسلام في 7 جمادى الأخيرة عام 1329.



## التخطيط المادي لمدينة سبتة الإسلامية : محاولة في إعادة بناء التركيبة الحضرية.

ذة. زليخة بن رمضان ميمون

يكتنف دراسة الجانب الحضري لمدينة سبتة الإسلامية العديد من المشكلات التي من الصعب حلها، لاقتراحها باشكاليات تاريخية خاصة، ففضلا عن عملية اتلاف التراث الحضري للمدينة بشهادة المصادر الأيبيرية التي تخبرنا عن عمليات التخريب المنتظمة التي كانت تستهدف المنشآت الدينية والعمومية من مساجد وبيوتات وأسوار وغيرها. فقد تم اتلاف جزء كبير من تراثها المكتوب الذي يمكن أن يعتبر بحق كمرشد علمي للمهتمين بالمدينة الإسلامية. فاختفاء مدينة سبتة الكلاسيكية التي جرفت بها آلية المستعمر، تضعنا الآن أمام شخصية حضرية مستوردة تمثل في معظمها صورة اتمدن الأروبي. حتى البحوث الأركيولوجية يستحيل اللجوء إليها في هذه الحالة، و بالتالي تصبح عملية اكتشاف الآثار الإسلامية رهينة فقط بالصدفة. كما تصبح محاولة إعادة بناء التركيبة الحضرية للمدينة الإسلامية متوقفة أصلا على ما يقدمه «اختصار الأخبار» من معطيات مهمة عن مورفولوجية المدينة و خلاياها القاعدية من منشآت دينية وثقافية واجتماعية واقتصادية وغيرها. فانطلاقا من هذه المادة الخام، و على ضوء دراسات و نصوص تاريخية أخرى سنحاول أن نركز خلال هذه الدراسة على نقطتين أساسيتين تتعلق الأولى بالتخطيط الحضري العام للمدينة، والثانية بمورفولوجيتها ووظائفها المتعددة.

### المخطط الحضري و العوامل المؤثرة فيه

إن الهدف من تخطيط المدن بصفة عامة، هو اعطاء تعبير مادي للحقيقة الروحانية والمجردة لتجمع بشري نطلق عليه عموما «المدينة»، والتي هي في



جوهرها رمز لنظام سياسي واجتماعي وديني. إن محاولة تكوين صورة مادية لمدينة سبتة الاسلامية والتعرف على مورفولوجيتها الحضرية، لا يتوخى إلا بدراسة التصميم الذي يمثل تنظيم الارض والعوامل الطبوغرافية التي تطبعه، فضلا عن تحديد القانون الحضري الذي كان وراء انشاء المدينة.

إن انشاء مدينة سبتة ونموها الحضري كان رهينا بظروف تاريخية وجيو — اقتصادية خاصة. لقد أثار موقعها الجغرافي الذي جعل منها شبه جزيرة جاثمة فوق شاخ غصن بحاجز جبلي منيع من جهة البر، اهتمام الكثير من الرحالة القدامى و المحدثين، ففضلا عن موقعها الاستراتيجي كقاعدة حراسة على مدخل البحر الابيض المتوسط، تتمتع المنطقة بمميزات طبيعية و بشرية من المفروض أن تثير اهتمام القوى البحرية منذ اقدم العصور. اسماء متعددة لحصن أو حصون بالمنطقة احتفظت بها السجلات التاريخية الاغريقية والرومانية والبيزنطية، نذكر منها (اكسلسيا، داليا، أبيلا، سبتم...)، تمثل في مجملها نواة لتركز حضري والحق أن استمرارية وجود هذا الحصن، عكس حصون كثيرة اندثرت باندثار الحضارات التي انشأتها، تجسد وحدة الغاية من عملية البناء. لقد ظل الحصن محتفظا بأهميته التجارية كمركز ثقل بالنسبة لموريطانيا الطنجية بالرغم من الحروب و الصراعات التي عرفتها المنطقة.

يتبين اذن من خلال مراحل التطور المتعاقبة لهذه النواة الحضرية، إن أول مستقر بشري بالمنطقة، يعود تاريخ بنائه الى الآلاف من القرون، تركز فوق آشو وعلى الجهة الضيقة من شبه الجزيرة على الخصوص. بذلك نصل إلى القول بأن المدينة الاسلامية لم تنشأ من عدم، وإنما اقيمت على بقايا حضرية تشكل ارثا ماديا لحضارات غابرة. فألى حدود القرن 11 الميلادي، والمدينة الاسلامية تحتفظ بحمامات وبقايا كنائس وقنوات لجر الماء ذات الصنع البيزنطي. فمن المفروض أن تكون المدينة الاسلامية قد انشأت على انقاض المدينة البيزنطية. وكان مجيء الاسلام عاملا حاسما في اعادة تخطيط المدينة واعطائها طابعا حضريا جديدا وفق متطلبات الدين الجديد وحاجيات معتنقيه الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

لقد فرضت طبوغرافية المدينة تخطيطا حضريا من نوع خاص، يختلف عن الشكل المستدير او المربع المعروف في باقي مدن المغرب والاندلس. إن انحصار

سطح المدينة بين البحر وامتداده من الشمال الشرقي في اتجاه الجنوب ثم الجنوب الغربي، جعلها تأخذ شكلا عموديا، أو على الأدق أطارا شبه دائري يضيق في المنطقة الوسيطة من شبه الجزيرة ثم يتسع غربا من جهة البر. فإن كانت المدينة قد حادت عن التخطيط العادي العام مدن المغرب لعوامل طبوغرافية، فقد احتفظت بخصائص التمدن الإسلامي على العهد الوسيط. ومن بين هذه الخصائص، نذكر انقسام المدينة المغربية إلى شطرين أساسيين هما : الدور والصور، مصطلحين لازالا محتفظين بهما في العامية المغربية. الدور وهو ما نعني به عموما التجمع السكني ذاته أو المدينة. أما الصور، فتعني به المجال الأخضر من جناة ومراعي وغيرها والتي تحيط أحيانا بالمدينة من داخل الأسوار، وهي المنطقة التي يتزود منها عموما سكان المدينة بالحطب والوقود وغيره أثناء حصار طويل. فقد انتظمت سبتة — وبشكل خاص — وفق هذه القاعدة الحضرية العامة. لقد كان جبل الميناء يعتبر دائما المصدر الأساسي لسكان المدينة من أجل التزود بالحطب أثناء فترات الحروب على حد قول الانصاري. كما أن المجال الأخضر أو ما يعرف بالصور كان يتمثل أيضا في المزارع والمراعي التي كانت تشكل حزاما فاصلا بين المدينة نفسها، والارباض المحيطة بها من جهة الغرب، بشهادة المؤرخ البرتغالي أززارا (Azurara).

احتفظ التخطيط المادي لمدينة سبتة الإسلامية بالسماة العامة للمدينة المغربية باحتوائه للوحدات الحضرية الثلاث : وسط المدينة، الارباض والقصبة. إلا أن وجه الاختلاف عن غيرها من مخططات مدن المغرب على العهد الوسيط يتضح في شكله العام المتميز بتعدد الوحدات الحضرية المغلقة داخل إطار حضري عام وشامل. إن دراسة تخطيط المدينة يضعنا أمام سلسلة من المجالات الحضرية المغلقة باتجاه من الشرق إلى الغرب. تنفصل هذه الوحدات المغلقة عن بعضها البعض بواسطة أسوار وحفائر، وتتصل فيما بينها بواسطة ابواب وقناطر. إن تنظيم مخطط المدينة بهذا الشكل يجد تفسيره في الطبوغرافية الجبلية للمنطقة، ووظيفتها العسكرية وبنيتها الاقتصادية والاجتماعية.

يعتبر المركز أو وسط المدينة أقدم خلية حضرية بالمنطقة. انتظم عموما حول ثلاثة عناصر رئيسية : المسجد الجامع العتيق، الأسواق المتخصصة ودار الامارة. فاصبح بموقعه الجغرافي وبوظائفه الثلاث الدينية والاقتصادية والسياسية قلب المدينة

النابض ومركز ثقلها. هناك دلائل عديدة تمكننا من تحديد موقع وسط المدينة على جهة الطبقة من شبه الجزيرة أو ما يعرف بمنطقة العنق. فالامر هنا لا يتعلق بمركز حضري استحدث بعد الاسلام، وإنما بخليّة سكنية موروثّة، إستجدت وكيفت وفق متطلبات الدين الجديد.

لقد كان المسجد الجامع العتيق يشكل النقطة القاعدية بالنسبة لجميع المنشآت الحضرية داخل هذه النواة الوسطى من المدينة والمنحصرة عموماً بين جون بحر بسول جنوباً وجون بحر الرملة شمالاً. من المحتمل جداً أن يكون قد أقيم على انقاض كنيسة قديمة، ثم الحقت به اصلاحات مهمة جعلته يحافظ على زخرفته المعمارية وعلى دوره الفعال عبر قرون عديدة. والحق أن تعدد المنشآت الدينية والثقافية داخل هذا المركز يجسد في حد ذاته أحد الحوافز الرئيسية على تمركز السكان حول هذه النواة. فقد تم انشاء مسجد جديد على بعد بضعة امتار من المسجد الجامع العتيق، على مقربة من بحر الرملة، وبناء المدرسة الجديدة وسط هذه النواة، يكون قد تأكد الطابع الروحي للمركز. تحيط بهذه المنشآت الدينية والثقافية اسواق متخصصة وطوائف حرفية منتظمة على شكل صفوف متقاربة كسوق العطارين، وسوق سماط العدول الموثقين، وسوق الثوابين والقيصرية وغيرها.

يضاف إلى هذه العوامل التي تحفز عادة على التوسع الحضري، ونقصد بها العوامل الدينية والثقافية والاقتصادية، عامل ثالث وهو العامل السياسي. اذ علاوة على تلك المنشآت، يكون المركز قد احتوى ايضاً قصراً للامارة أخذ مكانه غرب وسط المدينة على مقربة من حفير السهاج. أيتعلق الامر بالقصر الموحدى الوارد ذكره عند المراكشي، ام بدار الامارة التي يتحدث عنها البكري اثناء وصفه للمنطقة؟ من المحتمل أن تكون كل الاشارتين تتعلقان ببنية واحدة. على كل ان هذا التخطيط الحضري للمدينة احتفظ بهذا القصر على الاقل الى حدود القرن 18 الميلادي، كما يدل على ذلك تصميم دو فسكنسلش (De Vasconcellos) البرتغالي المؤرخ في سنة 1774.

يتبين أن كل العوامل تضافرت لتجعل من المركز — بالرغم من ضيق مساحته — خلية حضرية مصغرة تفصل بين شطري المدينة الشرقي والغربي، وتظهر على شكل وحدة سكنية مغلقة، مسيحية بالبحر من الشمال والجنوب وخفائر من جهتي الشرق والغرب، ينفتح للعموم خلال النهار حيث تكون الحركة



دائبة. أما خلال الليل فيسكن فقط بحراس. اذ بعد صلاة المغرب تغلق الابواب خصوصا الباب الاعظم وباب الزلافة. يسعها رفع القناطر (قنطرة باب المشايخ، قنطرة باب الفرج).

أما فيما يتعلق بالارباض. فقد كانت سبعة كغيرها من المدن الاسلامية مقسمة إلى احياء متلاصقة أو متباعدة تعد خلايا حضرية حقيقية للسكنى. إن الحديث عن الربض يقودنا أولا إلى تعريفه. فهو بصفة عامة — كما ورد عند اندري آدم (A.Adam) «وحدة صغيرة تمكن اصحابها من اشباع حاجياتهم اليومية الروحية والمادية. يمكن أن يأخذ الربض شكل مجموع الدروب حيث يتزود السكان من نفس الممر التجاري. فالناس متعارفون فيما بينهم، وهم يتمتعون بسلوك اجتماعي واحد ويتشابهون كثيرا في تصرفاتهم».

إن هذه القاعدة العامة تلمدن المغرب على العهد الوسيط انطبقت ايضا على مدينة سبتة الواقعة تحت تأثيرات الهجرات البشرية التلقائية وانجيزة، فامتد النسيج الحضري بالفعل في اتجاه الشرق والغرب محتلا بذلك كل شبه الجزيرة وجزءا مهما من باديتها مكونا بذلك ستة ارباض علاوة عن المركز. إن تعدد الارباض بهذا الشكل قد يقودنا إلى الكلام عن التخصص الوظيفي للاحياء وهو ليس بشيء غريب. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المراحل التاريخية للنمو الحضري للمدن الاسلامية ذات الأنشطة المتعددة الاشكال.

تنظم الارباض عموما داخل المدينة الاسلامية تبعا لموقع وسط المدينة، مركز الثقل. تختلف ايضا احجامها ومساحاتها حسب طبيعة وظائف كل روض، بنيته الاجتماعية، علاقاته مع محيطه. والحق انه إذا كان من الصعب التمييز بين الارباض الثلاثة المتصلة بالمركز، فإنه من السهل بمكان التفريق بين الارباض الثلاثة الأخرى وهي الميناء من جهة الشرق والربض البراني وافراك من ناحية الغرب.

فيما يخص الاحياء الثلاثة الأولى، فهي تمثل الاحياء السكنية الأشد ارتباطا بالمركز والاكثر اتصالا به، تتخللها اسواقا ومساجد، وحمامات، وافران ... لتلبية الحاجيات الضرورية للسكان. تتميز الممرات بضيقها وتمثل بصفة عامة بناء عادي يتميز بانحدارات خصوصا في اتجاه الشرق.. إن طبوغرافية المنطقة تحكمت في اعطاء هذه الطرق اشكالا رأسية تتجه من الغرب إلى الشرق، بدلا من الخطوط المستعرضة. يعتبر طريق ابن عيسى أو ما يعرف بالطريق الاعظم، الشارع الرئيسي

الرابط بين المركز والاحياء السكنية. تفتح على هذا الشارع طرق عرضية تحمل اسماء مشاهير رجالات سبتة كعياض والغرفي وابن الشاط وغيرهم. وهذا ان دل على شيء، فإنما يدل على الطابع الارستقراطي لهذه الاحياء حيث كان يتمركز اشراف المدينة وكبار تجارها، شأنه في ذلك شأن الحي الاندلسي والحي القبرواني بفاس حيث كان يقطن وجهاء المدينة. تنتهي هذه الشوارع بابواب تفتح نهارا وتغلق ليلا حيث يقوم على حراستها حراس مأجورين. يبدو أن هذا التجمع السكني كان يشكل هيكلا حضريا متلاحما تقريبا على مستوى البنية الاجتماعية، كما أن افراده كانوا أشد اتصالا وارتباطا بحياة الحضر أكثر من أي حي آخر.

إن الحديث عن الارياض الثلاثة الأخرى يقودنا الى استنتاج مهم اختصت به سبتة دون غيرها من المدن المغربية على العهد الوسيط، يتعلق الأمر بانعدام الاحياء الهامشية التي تنتشر عادة خارج اسوار المدن عند اكتظاظ المدينة بالسكان. والسبب في ذلك يعود لا محالة الى مشكل انعدام الامن بالمنطقة، نفس العامل تدخل ايضا لاعطاء هذه الارياض أشكال ومخططات مدن صغيرة مغلقة، محصنة بأسوار وابراج ومستقلة عن بعضها البعض.

يحتل حي الميناء الجهة الشرقية من شبه الجزيرة. ويعتبر من أقدم الاحياء السكنية بالمدينة، بل من أهمها. يقع ضمن المخطط العام للمدينة على المدخل الشرقي لجون بحر الرملة، ثم يتسع نسيجه الحضري جنوبا في اتجاه بحر بسول ثم شرقا في اتجاه جبل الميناء متسلقا منعطفاته الأولى، لقد كان هذا التجمع السكني محاطا بأسوار مدعمة بأبراج وابواب جعلت منه وحدة حضرية شبه مستقلة عن المدينة نفسها، يبلغ محيطها حوالي 6 اميال، اي ما يقرب من 11،112 كلم.

إن أهمية البقايا الخزفية الاسلامية التي عُثر عليها بهذا الربض، تؤكد صحة المعلومات الواردة عند الانصاري من أهمية حجم هذا التجمع السكني ودوره الاقتصادي الفعال. فهو حي الميناء حيث يتم جزء كبير من التبادل التجاري بين المدينة وزبائنها الاجانب، فضلا عن كونه الموقع الملائم لتركز بعض الأنشطة الاقتصادية الهامة كالمقاصر وتربيعات الحارارين واسواق المواد الغذائية والفنادق، كفندق احمد بن ابراهيم الزيات، وربما ايضا فنادق التجار المسيحيين.

في حين يحتل الربض البراني الجهة الغربية من المدينة. إن تحصينه بأسوار مدعمة بخمسة ابواب و بحفائر جعله يأخذ هو الآخر شكل خلية حضرية مغلقة ومستقلة.



والحق انه كان يشكل منطقة من الصعب ولوجها، الى حدود بداية القرن 14 الميلادي حيث هدمت اسواره بامر من السلطان المريني ابي سعيد. من الصعب تكوين صورة عن محض هذا الحي لانعدام الوثائق التاريخية، الا أنه من المحتمل جدا أن تكون بنيته الاجتماعية وليدة الحجرات القروية، لوجوده على مدخل شبه الجزيرة من جهة البادية. وبالتالي يكون اكثر الاحياء اكتظاظا بالسكان وأكثرهم بسلطة عمران. من المرجح جدا أن يكون اندثار هذا الحي قد تم بسرعة كبيرة بعد سنة 1415 بحيث اننا لم نعثر له على ذكر في الوثائق المتأخرة لهذه الفترة.

أما فيما يتعلق بحي افراك، فيرجع تاريخ انشائه الى الفترات الأخيرة من العهد الاسلامي للمدينة. يعرف هذا الحي في النصوص التاريخية تحت اسماء متعددة. عند ابن خلدون والانصاري يحمل اسم «افراك»، وعند ابن مرزوق يعرف باسم «المنصورة». أما المؤرخ البرتغالي أزرار، فيشير إليه باسم «الجزيرة». يحتل هذا الحي مدخل شبه الجزيرة من جهة البر غرب الربض البراني.

دخل افراك تحت حكم المركز الحضري للمدينة منذ سنة 728هـ / 1328م، على اثر بنائه بامر السلطان ابي سعيد المريني. وقد أكمل السلطان ابو الحسن (731 — 750 / 1331 — 1351) بناءه. بحيث ألحق به عددا من المساجد والحمامات والفنادق. لقد كان افراك محصنا بأسوار متينة ومدعمة بآبراج وأبواب. فأخذ كغيره من الاحياء شكل خلية حضرية مغلقة، مخصصة فقط لسكنى السلاطين المرينيين واتباعهم من الجند. تشبه اسوار هذا الحي من حيث فن البناء، اسوار مدينة المرية، كما تتطابق كثيرا مع التحصينات التي اقيمت على العهد المريني في كثير من المدن خصوصا بفاس جديد. تحولت هذه التحصينات في الوقت الحاضر الى اشلاء حوائط مخربة، باستثناء السور الغربي الذي احتفظ بشكله حيث يبدو مدعما بآبراج مربعة الشكل، تتوسطه باب من المحتمل أن تكون باب فاس، أحد الابواب الثلاثة الوارد ذكرها عند الانصاري.

نظرا لحداثة عهد هذا الحي، ثم اندثاره بسرعة عقب الاحتلال الاسباني، من الصعب تكوين فكرة في المخطط الحضري لهذا المقر الاميري. الا أنه من المحتمل جدا أن يكون شكله المعماري قريبا جدا من الخيمات المرينية وليدة نفس الفترة. ونذكر على الخصوص قصر المنصورة بنواحي تلمسان حيث تحتفظ الآثار والنصوص التاريخية بالمعالم المعمارية لهذا الحي المريني.

لم تخرج سبتة عن القاعدة الحضرية العامة بالمغرب والتي تجعل لكل مدينة قصبة خاصة بها حيث تتمركز السلطة العسكرية وحيث يقطن عادة حاكم المدينة. فلقد أخذت قصبة سبتة مكانها فوق جبل الميناء الذي يعود تاريخ بداية تحصينه الى عهد ابن ابي عامر، مع أواخر العهد الاسلامي للمدينة، اكتملت صورة قصبة سبتة بانتهاء تحصيناتها. وأصبحت تكون خلية حضرية منعزلة تحتوي على جميع المرافق الضرورية اقتصاديا ودينيا واجتماعيا كالحمامات والمصليات والمطامير و مراصي فضلا عن احتوائها لأحد كبار بيوت السكة بالمغرب على العهد الوسيط. يبدو إذن من خلال عرضنا للوحدات الحضرية للمدينة الاسلامية، عطلية ومراحل النمو المدني التي تقع عادة تحت تأثير الحجرات المجبرة او التلقائية. وباحتواء سبتة للعناصر الثلاثة بالمركز، الارياض والقصبة، تكون قد احتفظت بالسمات الحضرية العامة التي هي من خصائص كبريات المدن الاسلامية على العهد الوسيط، وإن كانت قد اختلفت عنها من حيث التخطيط العام باتخاذها شكلا عموديا او نصف دائري. تحت تأثير العامل الطبوغرافي. إن تتابع الخلايا الحضرية المغلقة على الشكل الذي اوردناه سابقا، يؤكد الوظيفة الدفاعية للمدينة، بل يمكن أن نتساءل فيما إذا كان مشكل الأمن مطروحا على مستوى المدينة نفسها، وفيما إذا كان كل ربض مضطرا الى اتخاذ جميع الاحتياطات الدفاعية من اسوار وحفائر وغيرها، لحماية نفسه من هجومات سكان الاحياء المجاورة. فضلا عن عامل الأمن، من المحتمل جدا أن يكون المخطط الحضري قد استلهم شكله ايضا من البنية الاجتماعية والاقتصادية للمدينة.

**كيف كانت المدينة تشبع الاحتياجات الجماعية من حيث الدفاع والامداد بالمياه، وانشاء المؤسسات الدينية والثقافية والمدينة والاقتصادية ؟**

لقد كانت المنشآت العسكرية تشكل الشغل الشاغل لحكام سبتة باعتبار وظيفتها العسكرية الدفاعية وظروفها السياسية المتقلبة بين الخضوع والتمرد. يرجع تاريخ اسوار سبتة الى عهد امويي الاندلس وفترة حكم العامرين، في وقت كان يشكل فيه الفاطميون خطرا جاثما على مناطق النفوذ الأموية بافريقيا الشمالية. فحصنت المدينة باسوار ضخمة على النمط البيزنطي ومدعمة بعدة أبراج. وقد شددت تحصينات الجهة الغربية وهي المنطقة الأكثر خطورة بالنسبة للخطر الفاطمي بدعم السور الرئيسي بسور اقل ارتفاعا، محاديا للأول.

ظلت هذه التحصينات تشكل حاجزا طبيعيا لصد جميع العمليات العسكرية التي استهدفت المدينة، إلى غاية عهد عبد المؤمن الموحي الذي أمر بتحطيم أسوار سبتة على أثر ثورة القاضي عياض. مهما كانت أهمية هذا الخبر الذي توردته بعض المصادر في شأن تحصينات سبتة، فمن الصعب بمكان رؤية المدينة معرارة من أسوارها نظرا لأهميتها الاستراتيجية وخطورة موقعها كمنفذ رئيسي للعبور إلى الإمبراطورية الموحدية بل إلى إفريقيا برمتها. فمن المحتمل جدا أن تكون عملية التهديم قد أصابت فقط أسوارها الغربية والتي من المرجح أن يكون قد أعيد بناؤها خلال فترة لاحقة، وإلا كيف نفسر صمود السبتيين لمدة ثلاثة أشهر أمام حصار المأمون الموحي لمدينتهم (629هـ / 1232م).

لقد ظلت هذه التحصينات قائمة إلى غاية الاحتلال البرتغالي ثم الإسباني للمنطقة. لم يبق حاليا من هذه الأسوار إلا بعض الانقاض المتبعثرة، إذ كان يظهر وإلى وقت قريب، على رصيف الميناء الحالي آثار برج انشأ على عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن III، إضافة إلى بقايا أسوار أفراك المرينية بالمنطقة المعروفة حاليا «بسبتة القديمة» (Ceuta la Vieja).

لقد كانت أسوار سبتة مدعومة بآبواب وصل عددها إلى 74 بابا. من أعظم هذه الأبواب نذكر الباب الأعظم أو ما يعرف أيضا بالباب الجديد الذي تنسب عملية بنائه إلى أبي العلي الموحي حاكم المدينة وأمير بحرهما (599 — 618 / 1202 — 1221). إن ضخامة شكل الباب يشبه إلى حد كبير خصائص الفن المعماري للأبواب المغربية والأندلسية المشيدة على العهد الموحي والمريني والتي مازال يحتفظ بنماذج منها في كثير من مدن المغرب. أما من حيث علو هذا الباب، فهو يقترب من أشكال الأبواب النصرانية التي شيدت خلال القرن 14م.

«باب الميناء» (La puerta del Almina) اسم آخر لأحد الأبواب العظام الذي احتفظت به ذاكرة المؤرخ البرتغالي أزورارا (Azurara) أثناء إقامته بسبتة. إن شكل هذا الباب لا يختلف عن نماذج الأبواب المغربية على العهد الوسيط. إن وجه الاختلاف يكمن — حسب النص التاريخي — في توفره على برج واحد، عكس القاعدة المعروفة التي تجعل لكل باب برجين، وإن كان الوصف في حد ذاته لا يساعدنا على تحديد مكان البرج بالنسبة لموقع الباب ككل حتى تتمكن من معرفة هويته. من المحتمل جدا أن يكون الأمر يتعلق بأحد أبواب حي الميناء، كما يدل على ذلك اسمه.



«باب المزرعة» (Puerta del Campo) تعتبر إحدى الأبواب العضاء ومن أهم المخلقات المعمارية الإسلامية بالمدينة على حد وصف المؤرخ الأسباني دوماسكرنهاس (De Mascarenhas). إلا أنه من الصعب تحديد موقعه واسمه الحقيقي. أما باب فاس، إن اختلفت الآراء حولها، فهي لا تبعد أن تكون تشكل إحدى ابواب افراك واحدة منشآت أبي الحسن المريني بالمدينة، على نمط و شاكلة باب السبع بفاس الجديد، على حد قول صاحب «الاختصار».

تشمل تحصينات سبتة أيضا عددا من الخنادق التي قسمت شبه الجزيرة الى مناطق منعزلة عن بعضها البعض، والتي لم يكن الاتصال بينها ممكنا إلا بواسطة القناطر. أهم هذه الخنادق واقدمها، حفير السهاج الذي يعود تاريخ وجوده الى فترة ما قبل القرن 11م. وقد أدرك الاستعمار البرتغالي الأهمية الاستراتيجية لهذا الحفير، فحول من حفير جاف إلى قناة صالحة للملاحة.

يدخل أيضا ضمن هذه التحصينات عددا كبيرا من المحارس التي امتدت على طول الساحل الشمالي المواجه للخطر المسيحي. ونعني عموما بـ«المحرس»، حصنا صغيرا مسيجا بأسوار، ومتسعا شيئا ما لإيواء حامية صغيرة من الجند. بهذا المعنى، يقترب المحرس في مفهومه ووظيفته بمفهوم الرباط. والحق ونحن بصدد ذكر الرباط، يتبين أن المنطقة قد افتقرت الى هذا النوع من المنشآت ذات الطابع العسكري، عكس مدن ساحلية أخرى كأصيلا وآسفي ورباط الفتح وغيرهما. فمن المحتمل جدا أن تكون المحارس نفسها قد لعبت دور الرباط، كما هو الشأن بالنسبة للمحارس التي شيدها البيزنطيون على حدود امبراطوريتهم.

يعتبر الطالع الكبير فوق جبل الميناء من أكبر المنشآت العسكرية الموحدة بالمنطقة، فهو يضم فضلا عن حصن مهم، قلعة كبيرة ومسجد، لقد لعبت منارة ابن الفضل الواقعة فوق احد تلال المنارة دور الرباط. كما يدخل برج الماء الذي يعتبر من أهم منجزات أبي الحسن المريني العسكرية بالمنطقة، وسط مياه بحر بسّول، ضمن هذه القاعدة العامة، كرباط ومركز للمراقبة ذات أهمية بالغة من المنشآت العسكرية نذكر أيضا المرامي التي بلغ عددها 44 مرمى. إن استحواذ المخطط الحضري لمدينة سبتة لهذا العدد الكبير من المرامي، دون غيرها من المدن المغربية على العهد الوسيط، يدخل بدون شك ضمن الاستراتيجية العسكرية للمنطقة و خطورة موقعها، الشيء الذي حبد الرمي كرياضة ترفيهية وتربية

عسكرية من سكان المنطقة. لقد تم توزيع المرامي بشكل منتظم على كل انحاء المدينة. إلا أن عددها قد يختلف من حي إلى آخر، وذلك حسب أهمية التجمع السكني وأهمية المساحة التي ينتظم عليها، إذ نجد مثلاً بالمنارة، أحد الأحياء السكنية المشار إليها سابقاً ستة عشر مرمى، بينما لا تتوفر القصبه إلا على مرمى واحد. إن وظيفة المدينة لا تكمن فقط في الدفاع، وإنما أيضاً في مدى قدرتها على توفير الماء الصالح للشرب. يتبين أن الانتماء الجغرافي للمنطقة إلى بلد يتميز بخصائص مناخية شبه جافة، لا بد وأن يطرح بشكل أو بآخر مشكلة قلة الماء. إن اعتماد سبته على محيطها القروي خلّب الماء. يعود إلى العهود البيزنطية أو الرومانية أو ما قبل، كما تدل على ذلك الحفريات. أثناء الفتوحات الإسلامية، كانت المدينة تتوفر على قنوات مائية تصل إلى المسجد الجامع العتيق، انطلاقاً من نهر أويات الذي يبعد عن المدينة بثلاث كلمترات من جهة الغرب. لم يبق حالياً من هذه القناة إلا بعض الانقاض التي يمكن أن تلاحظ بالمكان المعروف بـ «Arcos Quebrados» بالقرب من شاطئ Tarajal.

إلا أن نهر أوبات لم يعد يكفي لسد حاجيات السكان المائية مع امتداد النسيج الحضري واكتظاظ المدينة بالسكان. فكان على حكام سبته أن يتجهوا نحو قرية بليونش على بعد 6 أميال من المدينة للبحث عن عناصر مائية جديدة فمنذ سنة 580هـ / 1181م مع فترة حكم أبي يعقوب الموحد، شرع في بناء قنوات جوفية على غرار قنوات قرطاجنة، لجر ماء بليونش إلى المدينة.

خلال منتصف القرن 14م، عرفت المدينة شبكة للمياه قام بها الشريف أبو العباس الحسيني خصوصاً بنحي الميناء. فقد جرت قنوات الماء إلى حدائق المدينة، وأوصلت إلى سقاية القبة ذات الأعمدة. مع أواخر العهد الإسلامي، يبدو أن مشكل الماء قد حل بصورة نهائية بكل انحاء المدينة وعلى جميع المستويات، سواء عن طريق امداد القنوات المائية أو عن طريق حفر الآبار.

تعد عملية تنظيم شبكة المياه من أهم العوامل التي ساعدت على انشاء العديد من مراحض الوضوء والحمامات والاحواض، وداعية على انتشار نافورات الشرب العامة، لاسيما وأن سقاية الناس من الأشياء التي تنص عليها الاحاديث الشريفة علاوة على ذلك كانت النافورة تمثل شكلاً معمارياً ذو قيمة فنية وزخرفية، تزين بها الطرق العامة والمؤسسات الدينية والثقافية والقصور الأميرية. فما سقاية المدينة



التي كانت تحتل موقعها بالقرب من سوق العطارين على مدخل سباط العدول الموثقي، إلا نموذجاً حياً لهذا الفن المعماري الذي بلغ دروته على يد بني مرين. والذي مازالت تزخر به كثير من مدن المغرب.

يدخل أيضاً ضمن الشبكة المائية، المخازن والاحواض التي أنشأت لخزن مياه الأمطار أو المياه الجارية عبر القنوات. لقد كان معظم هذه المخازن متركز بربض الميناء الغربي نظراً لبعده عن عناصر المياه الجارية وللأهمية الاجتماعية والاقتصادية لهذا التجمع السكني. من بين هذه الخزائن المائية نذكر الحوضين المتصلين الذين أنشأهما أبو القاسم العزفي، إلا أن أعظمهم هو الخزان الذي ورد ذكره عند فرنندس (Fernandez). ويتعلق الأمر بخزان مائي كبير مقبب وذو اعمدة وصل عددها المائة، يذكرنا إلى حد بعيد بخزان سيدي بوعثمان بنواحي مراكش.. يبدو أن هذا النوع من الخزانات ليس جديداً عن الفن المعماري المغربي القروسطي، إلا أن الغرابة تكمن في كون هذا الخزان قد ورد ذكره فقط عند فرنندس (Fernandez)، ولم يذكر الانصاري شيئاً منه بالرغم من أنه أدرك بعجائب مدينته أكثر من أي إنسان آخر.

انتظمت المدينة أيضاً وفقاً لحاجيات السكان المدنية والاقتصادية. إن دور البيت أو الحمام العمومي، أو السوق، أو الفران (...) لا يقتصر فقط على كونه تركزاً إنشائياً ضمن الإطار العام للمخطط الحضري، وإنما كعضو وظيفي فعال أساس الحياة والحركة داخل المدينة. إن البنية المعمارية لبيوتات سبتة لم تكن تختلف عن بيوتات فاس وقرطبة وغيرها. إذ جميعاً تستمد قوتها وروحها من نفس الثقافة الاجتماعية التي تلتفها. فنموذج البيت المغلق، يتوسطه صحن، يعكس إلى حد بعيد المفهوم الأساسي للسكن في الإسلام والذي يتمحور حول نقطتين الخصوصية والخفر. لقد كانت بيوتات الأشراف وكبار التجار تختلف من حيث فنها المعماري عن بيوتات العامة. فالأولى تقترب كثيراً من شكل المدارس من حيث زخرفتها وتعكس من جهة، الثراء المادي والذوق الجميل لأصحابها، ومن ناحية أخرى تعقد المجموعات البشرية التي تحتضنها من حريم وخدم وغيرها. أما الثانية فهي لا تحدد أن تمثل التجمعات البشرية الحديثة العهد بحياة الحضر.

لقد كان لأثرياء سبتة منازل للترفيه ببادية بليونش، لا تختلف عن النموذج المعماري المعروف إلا من حيث طابعها الدفاعي، بحيث كانت محصنة بأبراج مقببة

وتجمع في بنيتها (ترتيب الحجارة = appareil) بين الفن المعماري لوسط الاندلس وبين طرق البناء المغربية.

تخللت أزقة المدينة وصفوف المنازل عدد من الحمامات العمومية. ويتعلق الأمر هنا بأحدى العادات الموروثة عن حضارات حوض البحر الابيض المتوسط والدخيلة على الاسلام. فلقد استقر الحمام العمومي بين التقاليد الحضرية للمدينة الاسلامية بالرغم من تشدد مواقف بعض الفقهاء، وأخذ مع الوقت طابعا دينيا — اجتماعيا حيث أصبح مؤسسة ملحقة بالمسجد باعتباره المكان الملائم لأداء شعائر الوضوء. كما عرف منه المعماري تطورا ملحوظا على ضوء الحضارة الاسلامية، إذ يقدم حمام القائد، من بين الاثنتين و عشرين حماما الذين احتوت عليهم المدينة، نموذجا معبرا عن مدى روعة وتناسق الفن المعماري، لهذه المنشآت العمومية التي زخرت بها كثير من مدن الاندلس والمغرب خصوصا على عهد بني مرين.

ويمثل العامل الاقتصادي، خاصة نشاط سبته التجاري والحرفي، عامل نمو حضري مهم يتضح ليس فقط من خلال تنوع طوائف الحرفيين، وانما ايضا في تعدد المراكز والاسواق المتخصصة.

إن تخطيط المساحة التجارية تأثر عموما بعوامل ثلاث : البنية الاجتماعية والاقتصادية للمدينة، طبوغرافية المنطقة، ثم التشريع الاسلامي. تتمركز عموما الاسواق المتخصصة في بيع الاصناف الكمالة والمواد ذات العلاقة الوثيقة بتقاليد البدخ الحضرية في وسط المدينة حول المؤسسات الثقافية والدينية، كسوق العطارين وسوق الثوابين والقيسارية وغيرها. بينما تنتشر تربية الحارارين بين مختلف الطرق والممرات داخل المدينة، وتتمركز اعظم تربية بسبته بحى الميناء من الجانب الشرقي. في حين تركزت اسواق المواد القابلة للتساخ او التي تصدر منها روائح كريهة، او لها علاقة مباشرة بالبادية، بالاطراف الهامشية. هكذا نجد أن سوق المواشي قد أخذ مكانه من الربض البراني، واسواق المواد الغذائية والحبوب (الرجة العظمى) قد تركزت بحى الميناء، ربما خارج الاسوار. أما المقاصر فلقد احتلت ايضا المساحات المجاورة للاسوار وللأبراج خصوصا من الجهة الشرقية المواجهة للرياح، حيث كانت تنشر البضائع المصبوغة.

كما أن الصحانة والنجارة والخزافة تكون قد أخذت مواضعها بالقرب من

الأبواب حيث تصل حمولات الحبوب والزيتون والاختشاب والصلصال. إن الهدف من هذا التخطيط يكمن في محاولة تجنب الازدحام الذي يمكن أن ينجم عن عملية نقل هذه المواد الثقيلة عبر أزقة الأرياض الضيقة والمتعرجة. أما فيما يخص الأفران، فقد انتشرت بكل انحاء المدينة، بالرغم من سلبيات الدخان الذي يمكن أن يسبب بعض الضرر للسكان المجاورين له. إلا أنه في بعض الحالات، قد يكون تدخل الفقهاء حاسما في إزالة هذه المؤسسات، خصوصا عندما يكون الضرر عاما وشاملا.

يضاف الى هذه القائمة من المنشآت الاقتصادية، الفنادق التي بلغ عددها 360 فندقا، تجمع غالبا ما بين نزل للمبيت ومخازن لايذاع البضائع. إن هذا الرقم لا يمثل اية تناقض مع واقع سبته ونشاطاتها التجارية، كأهم متربول تجاري بالمغرب على العهد الوسيط. فإذا ما استثنينا الفندق الكبير أحد منشآت ابي القاسم العزفي، والذي كان معدا خصيصا لحزن الحبوب، فإن الفنادق الأخرى خصوصا. فندق الوهراني وفندق غانم المتميزة بتعدد طبقاتها ومصرياتها، وفخامة ابنيتهما، تعكس الى حد بعيد مدى تطور الفن المعماري لفنادق المغرب والاندلس.

وكاستجابة لرغبات المجتمع الحضري العقائدية، تعددت المؤسسات الدينية التي بلغت حوالي الألف مسجد، إلا أن أهميتها المعمارية والمساحية لم تكن بطبيعة الحال متساوية. قد يكون المسجد عبارة عن غرفة صغيرة مخصصة لمجموعة حرفية بسوق معين، أو لجماعة سكنية منعزلة، أو قد يكون بناية كبيرة تحتوي على كل الشروط التي تجعل منها مسجدا كبيرا مدعاة لنشوء خلايا حضرية حقيقية للسكن ولتركز مجمعات تجارية جديدة. فمن أكبر وأقدم هذه المساجد، نذكر المسجد الجامع العتيق الذي يعد من أفخم مساجد المدينة بفنه المعماري المتناسق وبموقعه الاستراتيجي. يبدو أن المسجد قد أقيم على انقاض كنيسة قديمة. فعرف ترميمات واضافات خلال القرون التالية. فقد شيد منبره على العهد الحمودي (408 / 1018). وأنشأ المرابطون جناحه الاوسط على شاكلة الجناح الوسيط لمسجد القرويين بفاس. مع أواخر العهد الاسلامي للمدينة كان المسجد الجامع العتيق يعد من أعظم المساجد، بل كثيرا ما كان ينفرد بخصائص فنية معمارية جعلته يتميز عن معظم مساجد المغرب، فقد كان يحتوي على 22 بلاطا وذلك عكس القاعدة العامة التي تجعل للمساجد عددا فرديا بالنسبة لأجنحة المسجد المتعامدة.



مع القبلة (nerfs). كما يتكون المنبر من 12 درجة، في حين أن باقي مساجد المغرب كانت تتراوح درجاتها ما بين 4 و9. فضلا عن ذلك، يحددنا الانصاري عن غرابة صومعة المسجد وزخرفة المنبر، لكن دون أن يحدد لنا نوع هذه الغرابة. إضافة الى العدد الكبير من المساجد، احتوت سبتة ايضا 6 مصليات عكس مدن المغرب التي تتوفر في معظمها على مصلى واحد. إلا أنه إذا أخذنا بعين الاعتبار التخطيط العام للمدينة والعوامل المؤثرة فيه، نكون قد وصلنا إلى نتيجة مهمة، وهي أن الموقع الاستراتيجي العسكري والأجراءات الأمنية، هي التي كانت وراء تعدد المصليات، كما هو الشأن بالنسبة لتعدد الخلايا الحضرية داخل المخطط العام للمدينة.

لم تكن مدينة سبتة أقل حظ من غيرها من مدن المغرب والاندلس من حيث انشاء المدارس والخزانات العلمية، بل يمكن اعتبارها أول مدينة عرفت هذه المؤسسة العلمية بمنطقة الغرب الاسلامي. بذلك تكون قد سبقت تونس الحفصية، عكس ما يعتقد البعض، إذا كانت أول مدرسة تم انشاؤها على نمط المدرسة النظامية بالشرق هي المدرسة الشاربية، على يد صاحبها علي بن محمد الشاري الغافقي قصد توقيفها لأهل العلم، وذلك مع بداية القرن 13م.

مع منتصف القرن 14م، تم انشاء المدرسة الجديدة بالقرب من المسجد الجامع العتيق، على يد ابي الحسن المريني. لم تكن تختلف المدرسة الجديدة من حيث فنها المعماري عن باقي المدارس المرينية، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الوصف الذي خصه دوماسكرنهامس (De Mascarenhas) لهذه المدرسة وهي مازال على جماها ورونقها. لقد ظلت هذه المدرسة من أكبر بيوتات العلم بالمدينة إلى حدود سنة 1415. بعد الاحتلال البرتغالي تحولت إلى دير فرنسيسكاني. وفي سنة 1568 أصبحت بيد الثالوثيين (Trinitaires) إلى غاية 1891 حيث تم تحطيمها بعد ذلك بقليل، لاشك بقصد محو كل ما يمكن أن يثير الشبهات حول التاريخ الاسلامي للمدينة ومغربيها حضاريا. ومن حسن حظنا أن احتفظ متحف قادس (Cadix) ببعض البقايا الأثرية لهذه المدرسة التي تشيد بعظمة منشئها.

مثلت حركة التصوف حافزا آخر على امتداد النسيج الحضري. لقد ظهرت الاربطة والزوايا منذ القرن 12م او 13م كمؤسستين دينيتين لهما دلالة واحدة



قد تختلف في مضمونها عن مصطلح ثالث وهو الرباط الذي كان يعتبر قبل كل شيء مؤسسة عسكرية، ذات بنية معمارية خاصة.

تقترب الاربطة والزوايا بالفن المعماري للمدرسة إلى حد كبير وإن اختلفت عن هذه الأخيرة من حيث التصميم والمساحة. فإذا كانت رابطة الصيد تمثل أهم نموذج للفن البنائي للاربطة، فإن الزاوية الكبرى التي تم بناؤها خارج اسوار المدينة على يد ابي عنان المريني، تذكرنا بأهمية هذه المؤسسة كحافز مهم على انشاء تجمعات سكنية جديدة خارج اسوار المدن، بتفاعل مع عوامل أخرى.

يعد هذا الوصف لمورفولوجية المدينة الاسلامية ناقصا وغير مكتملا لو أغفلنا ذكر المقابر التي تنتظم ايضا ضمن المخطط الحضري. فمع امتداد النسيج السكني واكتظاظ المدينة بالسكان قفز عدد المقابر من 3 إلى 13 مقبرة في ظرف ما يناهز الثلاثة قرون، فتوسعت على حساب مساحة المدينة نفسها او على حساب الاراضي المجاورة لها. من جهة الشرق تركزت مقابر المنارة، التوتة، زكلو والمقبرة الكبرى داخل الاسوار حيث احاطت بالارياض الشرقية. بالمنطقة المعروفة بمضرب الشبكية الواقعة شمال شبه الجزيرة، تكونت مقبرتين، احدهما داخل الاسوار والثانية خارجها. أما فيما يخص مقبرة الحارة، فكانت خاضعة لحكم الریض البراني. في حين تركزت مقبرة الحافة خارج اسوار افراك بالقرب من المصلى الذي يحمل نفس الاسم. أما مقبرتي احجار السودان، فقد كانتا خارجتان من حكم المدينة لتركزهما خارج الاسوار، من جهة الغرب.

في ختام هذا الوصف المختضب، أود أن أعرب عن أمني في أن تمتد البحوث وتوسع حتى نعرف عن واقع مدينة سبتة خلال العصور الوسطى، ثم ما آلت إليه في العصور الحديثة، بعد ما تحت آلية المستعمر الجارفة آثار الماضي. إن المخطط الحالي لمدينة سبتة يعكس ذاتية مستوردة تختلف كل الاختلاف عن شخصية المدينة الاسلامية وعن تعابير فن العمارة العربي الاصيل. فإن كان لهذا الواقع من تأثير على الجانب العلمي والمنهجي لهذه الدراسة، فإنه لاشك يتضح من خلال رؤيتنا الحالية إلى مدينة سبتة كمتحف للتراث التاريخي وليس كواقع حي، حيث تستلهم القيم الأخلاقية والذاتية الثقافية لمنشئ هذه الحضارة. على كل، مهما كانت طبيعة هذه الدراسة، فهي بتركيزها على المظاهر الاساسية للحضارة الاسلامية بالمدينة وتصورها العام لهذه المظاهر، استطاعت أن تستخلص الطابع الكلي والوحدوي

للحضارة الإسلامية. وإن احتشفت سببة في بعض قسماتها عن غيرها من المدن الإسلامية، لتكون لنفسها شخصية مستقلة ساعدت إلى حد ما على إثراء التراث الإسلامي.

فمن الأمور العاجلة، أن نقوم بدراسة مدققة للنصوص العربية التي تعتبر وحدها الكفيلة بأن تنفخ الحياة في الأضلال الأثرية، دون أن نستغني عن النصوص الأجنبية. كما يجب الزيادة من المؤتوغرافات المتعلقة بمختلف جوانب الحياة الإسلامية داخل المدينة حتى نثير الرأي العام للمنظمات العالمية المهتمة بتاريخ المدن الإسلامية اتجاه الواقع المؤسف لبعض المدن الإسلامية العريقة الواقعة تحت قبضة المستعمر، وما تحتاج إليه من اسعافات ضرورية لصون ما تبقى من ارثها التاريخي وللحفاظ على مكونات شخصيتها الحضارية الأصلية.



## احتلال البرتغاليين مدينة سبتة المغربية

(818 هـ - 1415 م)

### مقدماته ودوافعه ونتائجه

د. أمين توفيق الطيبي<sup>(١)</sup>

نبذة عن مملكة البرتغال إلى مطلع القرن الخامس عشر

كانت مقاطعة برتغال في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي تشغل رقعة صغيرة تقع بين نهري مينه Minho ودويره Douro وإلى عنيهما الفونس السادس ملك قشتالة وليون — وكانت تتبعه — صهره هنري هنريق الفارس البرجندي الذي كان قد قدم إلى شبه جزيرة إيبيرية خاربة المرابطين بعد انتصارهم الكبير في وقعة الزلاقة (479 هـ / 1082 م) وقد استطاع افونسو ابن هنريق — الذي تشير إليه المصادر العربية بابن الريق، أي ابن هنريق — أن يستقل عن مملكة قشتالة وليون وان ينصب نفسه ملكاً على برتغال. ويؤرخ البرتغاليون بداية استقلال بلادهم بسنة 1139 م، وفيها احرز ابن الريق — كما نقول الروايات المسيحية — انتصاراً على قوة مرابطية في اوريق Ourique — بالقرب من شنترين — وبادر على الأثر بالمناداة بنفسه ملكاً متخذاً من مدينة قلمرية Coimbra عاصمة له. وإلى الجنوب من قلمرية كانت شنترين ولشبونة ومعظم أراضي البرتغال الحالية تشكل جزءاً من غرب الأندلس الاسلامي.

وفي عام 542 هـ / 1147 م، وبمساعدة اسطول صليبي قادم من شمال أوروبا

(١) كلية التربية جامعة الفاتح، ليبيا



كان في طريقه إلى فلسطين، استولى ابن الريق على لشبونة من أيدي المسلمين مغتماً فرصة انشغال المرابطين بقيام الموحدين عليهم في المغرب. وبعد أخذ لشبونة هاجم أسطول ابن الريق اشبيلية وسبتة. وكان للشبونة الإسلامية — كما كان لاشبيلية — تجارة نشطة مع مدينة سبتة حيث كانت تقيم جالية من التجار الجنوبيين في القرن الحادي عشر. وبلاستيلاء على مدينة شلب عام 1249 م، بلغت البرتغال حدودها الحالية، وقامت بإجلاء السكان المسلمين عن أراضيها قبل سقوط غرناطة بأكثر من قرنين. ومما يذكر أن النظم الديرية العسكرية — كالاستبارية والداوية ونظم القنطرة وقلعة رباح وشانت ياقب — قامت بدور كبير في محاربة المسلمين وإجلائهم عن غرب الأندلس<sup>(1)</sup>.

وبعد خلافات علي الحدود بين البرتغال وقشتالة، اتفق بموجب معاهدة صلح عُقدت بينهما في بطليوس في مطلع عام 1267 م على أن يتنازل ملك قشتالة للبرتغال عن كافة ما كان يدّعيه من حقوق في إقليم الغرب Algarve. وكان ملك البرتغال قد قدّم العون لقشتالة في قمعها لثورة المسلمين المدجنين باشبيلية عام 1264 م<sup>(2)</sup>.

وقد شارك البرتغاليون بألف فارس في وقعة طريف (741 هـ/1340 م) إلى جانب ملك قشتالة ضد قوات المسلمين من المغرب وغرناطة. وكانت وقعة حاسمة، ويقال إن المدفعية استخدمت فيها لأول مرة في أوروبا<sup>(3)</sup>.

وفي عام 1384 م قامت بين قشتالة والبرتغال حرب بسبب مطالبة ملك قشتالة بعرش البرتغال إثر وفاة ملك البرتغال فرناندو دون عقب، واختير خوان / جون أفيس حامياً لعرش البرتغال، فأصبح بطل استقلال بلاده ومؤسساً لأسرة مالكة جديدة — أسرة أفيس Avis — بعد الانتصار الكبير الذي أحرزه على القشتاليين في معركة الجوباروتا Aljubarrota في منتصف أغسطس عام 1385 م. وقد وطدت معركة الجوباروتا استقلال البرتغال وأعلنت من شأن جون

---

(1) Boxet, C.R., The Portuguese Serborne Empire (1415 - 1875), Penguin Books 1978, p.4  
Atkinson, W.C., A. History of Spain and Portugal, Penguin Boaks 1967, p.91

(2) O'Callaghan, J.F, A History of Medieval Spain, Cornell U.P. 1975, P, 369

(3) Atkinson, p. 89

Lomax, D.W. The Reconquest of Spain, New York 1978, p. 167

أفيس الذي نال شهرة ابن لريق مؤسس المملكة. وقد مثل انتصار البرتغاليين في الجوباروتا انتصار الطبقة البرجوازية لسمية في لشبونة وأبورتو التي قاوم أفرادها تدخل قشتالة في شؤون البرتغال. بخلاف طبقة ملاك الأراضي من النبلاء التي انجاز الكثيرون من أفرادها إلى جانب قشتالة. وعقدت هدنة طويلة بين قشتالة والبرتغال مما مكن جون أفيس من أن يصرف اهتمامه إلى أمور أخرى كانت حملة سبتة في مقدمتها<sup>(4)</sup>. وفي عهد الملك الأول (حكم 1384 — 1433 م) حققت البرتغال وحدة وتركيزاً للموارد لم يسبق من قبل، ومع ذلك فإن مملكة البرتغال ظلت مملكة صغيرة لا يحسب لها حساب في الشؤون الأوروبية، إلا أن المملكة نعمت بالاستقرار وبشيء من الرخاء. وكانت تحتل موقعاً استراتيجياً<sup>(5)</sup>.

إن معظم أراضي البرتغال في أواخر القرون الوسطى كانت بوراً غير مفلوحة بعدد اجلاء سكانها المسلمين عنها. وكان سكان البلاد لا يتجاوزن المليون نسمة معظمهم من الفلاحين الذين يزرعون الحبوب ويبتجون زيت الزيتون والنبذ، بينما كان سكان السواحل يزاولون صيد الأسماك واستخراج الملح. وكان الفقر يسود المناطق الداخلية والجبلية حيث المساكن في معظمها اكواخ، وإليها كان يشير المؤرخ البرتغالي المعاصر ازورارا عند حديثه عن دهشة الغزاة البرتغاليين وانبهارهم لما عاينوه من منازل المسلمين ورفاهيتها عند استيلائهم على سبتة إذ قال «إن مساكننا الوضعية تبدو كزروب الخنازير بالمقارنة بها»

وكان الاقتصاد البرتغالي في الأرياف يقوم على المقايضة، ولم تضرب عملة ذهبية بالبرتغال ما بين عامي 1385 و 1435 م، وكانت العملة المتداولة في معظمها من النحاس<sup>(6)</sup>.

### تردّي العلاقات بين المغرب وغرناطة قبيل سقوط سبتة

بعد وفاة السلطان المريني أبي فارس (774 هـ / 1372 م) أخذ سلطان غرناطة محمد الخامس في تعزيز نفوذه في المغرب الأقصى، فاستولى في سنة 1374 م على جبل طارق من أيدي المرينيين. ولما رفض سلطان المغرب الصغير

(4) O'Callaghan, pp. 532 — 3

(5) Payne, S.G. A History of Spain and Portugal, Vol I, Univ. Of Wisconsin Press 1976, p. 191

(6) Boxer, pp. 4 — 5, 13

السن أبو زيان التنازل عن مدينة سبتة لسلطان غرناطة بعث هذا إلى المغرب بأميرين من بني مرين، كانا لاجئين في غرناطة ويطالبان بعرش المغرب، وأمدّهما بالعون فاستوليا على شمال المغرب، وحاصرا مدينة فاس مما أدى إلى خلع أبي زيان. وأصبح أحد الأميرين — أبو العباس أحمد المستنصر — سلطانا في فاس سنة 1384 هـ — وأصبح الأمير الآخر — عبد الرحمان ابن تفلوسين — واليا على مراكش. وقد اذعن سلطان فاس الجديد أبو العباس لطلب سلطان غرناطة وتنازل له عن مدينة سبتة<sup>(7)</sup>.

وبعد وفاة السلطان أبي العباس (796 هـ/1312 م) مكثت المنازعات على العرش في فاس ملك غرناطة — يعضده في ذلك صاحب قشتالة — من ابقاء المغرب في حالة من الفوضى بمساندته المطالبين بالعرش وذلك لكي يحقق طموحاته التوسعية على حساب المغرب. وردّ السلطان المريني أبو فارس على ذلك بالسماح لغزاة البحر المغاربة بمهاجمة المراكب الاسبانية والأندلسية. وثاراً لذلك، قام صاحب قشتالة هنري الثالث — مغتما فرصة انشغال السلطان المريني بمحاصرة تلمسان — بمهاجمة مدينة تطوان عام 1400 م، فدمرها وفتك بنصف سكانها واسترقّ الباقين، مما أثار في المغرب موجة من الحماس الديني والوطني أدّى إلى دحر القشتاليين. كما أن البرتغاليين افادوا كذلك من متاعب المغرب. ففي سنة 814 هـ قامت في المغرب حرب أهلية وتعرّضت مدينة فاس للحصار ثلاث مرات في سنة واحدة. ولما تمكّن سلطان فاس من السيطرة على أراضيه، وانسحب القائم عليه في مدينة سبتة إلى غرناطة أخذ معه أسطول سبتة العتيد، أصبحت مدينة سبتة — دون أسطول يحميها — عرضة لهجوم البرتغاليين عليها<sup>(8)</sup>.

### مدينة سبتة قُيِّل العدوان البرتغالي عليها

تتحكّم مدينة سبتة بالملاحاة في مضيق جبل طارق، وظلّت — بحكم ضيق المجاز وصلتها الوثيقة بالأندلس — أندلسية الطابع. وقد غصّت مدينة سبتة بالنازحين من الأندلس ابتداءً من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي حينما

(7) Albus - Nast, J.M, A History of The Maghrib, Cambridge U.P 1975, p. 133

(8) شارل — اندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس 1978، ص 249.



أخذت قواعد المسلمين في الأندلس كقرطبة واشبيلية — تهاوى في يد قشتالة وأرجون.

واشتهرت مدينة سبته بالتجارة بر وخرا، وكان يقصدها تجار المدن الإيطالية — وبخاصة تجار جنوة — وكانت لهم فنادق فيها، كما كانت سبته بدايةً لطرق القوافل المؤدية إلى غانا والسودان الغربي.

واشتهر أهل سبته بركوب البحر وإنشاء المراكب، وكانت بالمدينة دار صناعة لإنشاء السفن، كما كانت القاعدة الرئيسية لأسطول الموحدين، وكان لرملة سبته شهرة رملة الأغواز من التركمن في المشرق.

كان من بين النازحين عن مدينة سبته بعد سقوطها في أيدي البرتغاليين عام 1415 م الفقيه محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري السبتي الدار والنشأة والمولد، وقد صنف كتاباً — بعد سبع سنوات من سقوط المدينة — أسماه (اختصار الأخبار عما كان يشغّر سبته من سني الآثار) وفيه يستعرض معالم سبته قبيل سقوطها، فيذكر مقابرها ومساجدها، وخزائنها العلمية ومحارسها وأزقتها وحماماتها، وحوانيثها وفنادقها، وديار الإشراف فيها، ومطاميرها وطواحينها، وأرباضها وأبوابها، ومراميرها ومقاصرها، ومراسيها ومسايدها. كما يتحدث عن أحواز سبته، فيذكر وفرة مياهها وغلاتها وفواكهها على مدار فصول السنة. ويتبين من هذا الثبوت المفصل أن مدينة سبته كانت — إلى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي — مدينة تنعم بالرخاء والازدهار والعمران، وأن سقوطها في أيدي البرتغاليين كان كارثة حلت بالمدينة وأهلها، إذ تعرّضت المدينة وأهلها لأعمال النهب والسلب والثقيل، ونزح عنها معظم سكانها.

يذكر الأنصاري أنه كان بسبته ألف مسجد، وأن عدد الخزائن العلمية (المكتبات) بها اثنان وستون خزانة، وأن عدد الروابط والزوايا سبع وأربعون مابين زاوية ورابطة. أما محارس المدينة فعددها ثمانية عشر محرساً تمتد إلى اثني عشر ميلاً من خارجها من ناحيتي البحرين<sup>(9)</sup>.

(9) Livermore, H. V, A New History of Portugal, Cambridge U.P 1976, p. 108.

الأنصاري، محمد بن القاسم : اختصار الأخبار عما كان يشغّر سبته من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1983، ص 27، 29، 30، 32.



وكان بسبته اثنان وعشرون حمّاماً ومائة وأربعون سوقاً. أما المنجرات المعدّة لعمل القسّي فعددها أربعون منجرة. ولما كانت سبته ميناءً تجارياً يقصده التجار الأغراب فإنها احتوت على نيف وثلاثمائة فندق لخزن الحبوب وإيواء المسافرين<sup>(10)</sup>

أما ديار الإشراف — حيث يقيم المشرفون الماليون — فعددها أربعة : دار الإشراف على عمالة الديوان أمام فنادق النصاري — وفنادقهم سبعة — ودار الإشراف لشد الأمتعة وحلّها، ودار الإشراف على البناء والتجارة، ودار الإشراف على سكة المسلمين<sup>(11)</sup>.

وكان بسبته من المطامير لخزن الحبوب أربعون ألفاً يمكث فيها الزرع « الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغيير لطيب البقعة واعتدال الهواء، ولكونها جبلية، فسبته في ذلك شبيهة بقاعدة طليطلة من بر الأندلس »<sup>(12)</sup>.

ولما غني أهل سبته بالرمي لأغراض الدفاع عن ثغرهم، فقد كان بسبته من المرامي — المعبر عنها بالجلسات — أربعة وأربعون مرمى للرماة « إذ الرمي طبع لأهل سبته طبعوا عليه، فلا تُلفي منهم شريفاً ولا مشروفاً، ولا كبيراً ولا صغيراً، الا وله بصر بالرمي وتقدم فيه، ومعظم رميهم بالقوس العقارة، وهو من جملة الأشياء التي تميّزوا بها »<sup>(13)</sup>.

وكان الشريف الإدريسي — وهو من أبناء سبته — قد نوّه بمصائد الحوت بسبته، فذكر أنه يُصاد بها من السمك نحو من مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمّى التّن الكثير، كما يصاد ببحرها المرجان. وبسبته — كما يقول الإدريسي — سوق لتفصيل المرجان وحكّه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه، ومنها يُتجهّز به إلى سائر البلاد، وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان، لأنه في تلك البلاد يُستعمل كثيراً. وبعد الإدريسي بنحو ثلاثة قرون، يذكر الأنصاري ان بسبته من المصايد مائتين وتسعة وتسعين مصيداً مفترقة<sup>(14)</sup>.

(10) المصدر السابق، ص 34، 36، 27، 18.

(11) المصدر السابق، ص 41 — 42.

(12) المصدر السابق، ص 42.

(13) المصدر السابق، ص 47.

(14) الإدريسي، محمد : وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في

واشتهرت أحوارُ سبتة بوفرة مياهها وغلاتها، وبخاصة في قرية بليونش إلى الجنوب من سبتة. ويذكر الأنصاري بليونش — ويسمىها بنيونش — فيحدث عن كثرة وتعدد فواكهها الصيفية والشتوية والخريفية بحيث توسق منها الأجفان وتسير إلى المغرب وبلاد الأندلس<sup>(14)</sup>. كما تكثُر في منطقة سبتة الغابات وبها ضروب الشجر، كالأرز والبلوط، مما يعود نفعه على ثغر سبتة ويستعان به على انشاء المراكب ومما يرجع إلى الأمور الجهادية<sup>(15)</sup>.

ويختتم الأنصاري كتابه قائلاً: «فانظر ما كان عليه هذا الثغر الشامخ وما أصيب به المسلمون... والله أسأل أن يُمُنَّ بارتجاعه وبعيده كما كان»<sup>(17)</sup>.

### دوافع العدوان البرتغالي على مدينة سبتة دوافع دينية صليبية

يتفق الباحثون على أن العامل الديني الصليبي كان في مقدمة الدوافع للحملة التي جهَّزها البرتغاليون ضد مدينة سبتة. ويتضح ذلك جلياً من الخطاب الذي وجهه البابا إلى رجال الحملة مباركاً إياها ومعلنًا عن «غفران ذنوب من يسقط في محاربة الكفار [المسلمين] في هذه الحملة الصليبية...»<sup>(18)</sup>. إن حملة سبتة كانت استجابةً للروح الصليبية التي عمَّت شبه جزيرة إيبيرية مع تقدم حركة «الاسترداد» ونجاحها<sup>(19)</sup>. ولعلَّ ما أوحى بمهاجمة سبتة في المقام الأول الحماس الصليبي لضرب المسلمين في المغرب ضربةً قاضية<sup>(20)</sup>. وقد عمل ملك البرتغال جون

اختراق الآفاق)، الجزائر 1957، ص 108.

الأنصاري، ص 51.

(15) الأنصاري، ص 56.

(16) المصدر السابق، ص 56 — 57.

(17) المصدر السابق، ص 57.

(18) Gomes Eannes de Azurara, The Chronicles of Azurara (Tr. B. Miall), London 1936, p. 85

(19) جوليان، ص 249.

(20) Boxer, p. 18

ومما يُذكر أن المبتسر الميورقي رامون لُل Lull قدَّم إلى مؤتمر فين Vienne بفرنسا في عام 1310 م — أي قبل أكثر من قرن من غزو البرتغاليين سبتة — اقتراحاً بتشكيل منظمة تضم كافة الفرسان النصارى، للعمل حثيثاً لاحتلال الأراضي المقدسة (فلسطين) ويكون من أول

الأول وزوجته الأنجليزِيَّة فليبا لانكستر وأبناؤهما الخمسة جاهدين على استمرار الحرب الصليبية التي بدا وكأن جذوتها أخذت تخبو بعد أن تمَّ إجلَاء المسلمين عن أراضي البرتغال ذاتها، فشرع في حملة سبتة — أولى حملات البرتغال في الخارج — وهي دليل على أن حرب «الاسترداد» والفتوح التوسعية كانا في أساسهما حربا صليبية مقدسة<sup>(21)</sup>.

وينسب إلى الأمير هنري قوله لوالده وهو يحاول إقناعه للموافقة على حملة سبتة ان لاوجه للمقارنة بين اعداء قشتالة المسيحية للبرتغال، وبين «الكفار [المسلمين] الذين هم اعداء طبيعيون لنا»<sup>(22)</sup>. ولما استشار الملك جون الأول أحد كبار مستشاريه بشأن الحملة المفتوحة ضد سبتة، أجابه قائلا : «يبدو لي أن هذه الخطة ليست من بنات أفكارك، وإنما هي بوحى من الله»<sup>(23)</sup>.

كان الأمير هنري — بوصفه رئيساً لنظام المسيح الديري العسكري Order of Christ — وارثاً لتقليد صليبي طويل. ولما لم يكن قد بقي ما يمكن تحقيقه في هذا المجال في البرتغال ذاتها بعد أن تمَّ إجلَاء المسلمين عن أراضيها في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، فإن هنري أراد مواصلة هذا التقليد الصليبي في ديار الاسلام في المغرب لمحاربتهم، بل والعمل على تنصيرهم. وقبيل اقلاع سفن الأسطول صوب سبتة، ماتت الملكة فليبا، وكان لها دورٌ كبيرٌ في اذكاء الروح الصليبية في نفوس ابنائها، وفي صفوف المحاربين<sup>(24)</sup>.

كان البرتغاليون يحسبون ان ثمة إلى الجنوب من المغرب شعوبا وثنية يمكنهم تنصيرها والتحالف معها ضد المسلمين في المغرب<sup>(25)</sup>. لقد استهوت خيال الأوروبيين منذ القرن الثاني عشر الميلادي فكرة بريستر جون Prester John الملك المسيحي لبلاد مجهولة في آسيا، ثم بدا للبرتغاليين انه ملك اثيوبيا النصراني

= مهامها «أخذ سبتة والقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية لاتخاذهما قاعدتين لشن الهجمات ضد المسلمين». يُنظر Allison Peers, Ramon Lull - A Biography, London 1929, p. 351.

(21) Atkinson, p 98

(22) Asurara, p. 41

(23) Bell, C, Portugal and the Quest For The Indians, London 1974, p.351.

(24) O'Callaghan, pp. 556, 547

(25) Lomax, P. 162



الذي تطلّعون إلى الوصول إليه والتحالف معه تُشن هجوماً على المسلمين من عدة جهات<sup>(26)</sup>.

إن البرتغاليين كانوا صليبيين قبل أن يصبحوا ملأحين يجوبون البحار والمحيطات، واحتفظت البرتغال بالروح الصليبية حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادي بعد أن كانت غيرها من الدول قد تخلّت عن الفكرة الصليبية، واستعاضت عنها بالسعي لتحقيق مآرب مادية صرفة. وعلى ذلك فإن من غير المدهش أن يكون السبب الرئيسي للهجوم على سبتة سبباً صليبيّاً. واستمر التغلغل البرتغالي في المغرب على مدى قرن من الزمن بعد الاستيلاء على سبتة للسبب ذاته وبالفكرة ذاتها<sup>(27)</sup>.

ويرى مؤرخ مغربي حديث أن الدافع الديني كان فيما يبدو الدافع الحاسم في سياسة ممالك شبه جزيرة إيبيرية تجاه شمال إفريقيا، وأنه ينبغي النظر إلى الهجوم الأيبري على المغرب على أنه في أساسه حملة صليبية وردّ فعل على إخفاق الحملات الصليبية في المشرق، وعلى الخطر العثماني الجديد الذي كان يهدد شرق أوروبا<sup>(28)</sup>. إن هذا الخطر العثماني كان يتمثل على الخصوص في الانتصار الكبير الذي أحرزه السلطان بايزيد الأول على تحالف أوروبي صليبي في معركة نيوقوبوليس على نهر الدانوب عام 1396 م قبل عشرين عاماً من العدوان البرتغالي على سبتة.

إن من الخطأ — كما يرى الباحث بين Payne أن يتساءل المرء عما إذا كان الدافع للفتوح البرتغالية والإسبانية والمكسب المادي أو الحماية الدينية. ففي الإيديولوجية التوسعية الصليبية لسكان شبه جزيرة إيبيرية كان العاملان متواكبين ومتلازمين. إن الحرب الصليبية والربح كان ينظر إليهما على أنهما شيان يكمل الواحد منهما الآخر<sup>(29)</sup>.

وبتجديد الحملات الصليبية القديمة ضد المسلمين، كان ملك البرتغال جون الأول يأمل في أن يخوز على رضا البابا وأوروبا وتأييدهما. إن مَجْمَع كونستانس

O'Callaghan, p. 556, Livermore, p. 111 (26)

Prestage, E, Portuguese Expansion overseas...» in Chapters in Anglo-Portuguese Relations, (27) Watford 1935, pp, 173 — 4

Laroui, A. The History of The Maghrib, Princeton U.P 1977, P. 235. (28)

Payne, pp, 188 -9 (29)



الذي دعي إلى الانعقاد في شهر نوفمبر عام 1414 م كان يُنتظر أن يضع حداً للانقسام البابوي ويُنبئه، ورأى البرتغاليون أنهم إذا شنوا حملة صليبية أمكنهم أن يتوقعوا رضا البابا الجديد والتوصل إلى سلمٍ مع مملكة قشتالة. وقد جاء الاقتراح بالقيام بحملة ضد سبتة من جانب رئيس اساقفة لشبونة وممثل جون الأول في المفاوضات مع قشتالة في كونستانس<sup>(30)</sup>. وجدير بالذكر أن البابا اصدر عدة مراسيم يأذن فيها للملك البرتغال بمهاجمة المسلمين وإخضاعهم لحكمه، ويأخذ أموالهم وأراضيهم، وباسترقاقهم، وبأن تؤول أموالهم وأراضيهم للملك البرتغال وذريته من بعده<sup>(31)</sup>.

### ب - دوافع اقتصادية

لاتقل عن الدوافع الصليبية لغزو البرتغال سبتة الدوافع الاقتصادية كالظفر بالأسلاب والغنائم، وتلبية رغبات الطبقة البرجوازية المتنامية في مدن البرتغال، والحصول على ذهب السودان الغربي عن طريق سبتة، فضلاً عن ثروات المغرب ذاته، وتعزيز تجارة البرتغال في منطقة البحر الأبيض المتوسط حيث كانت التجارة وقفاً على تجار المدن الإيطالية وحكراً لهم.

إن بعض المؤرخين المُحدثين لم يعودوا يكتفون بالتفسير التقليدي لأخذ سبتة بأنه أوحى به الحماس الصليبي والرغبة في تحقيق الأجداد والبطولات الحربية. ويرى هؤلاء المؤرخون أن الدوافع الاقتصادية والاستراتيجية لا بد وأنه كان لها دورٌ كبيرٌ في أذهان مخططي الحملة. فسبتة — كما يصفها الأنصاري — كانت مدينةً تجاريةً مزدهرة، وهي منفذ رئيسي لصادرات المغرب وأحد المراكز التي تنتهي إليها تجارة ذهب السودان الغربي عبر الصحراء. إن الدافع للحصول على الذهب كان دافعاً مهماً، إذ كان على الذهب طلبٌ كبيرٌ خلال القرنين الأخيرين من القرون الوسطى في غرب أوروبا. فخلال هذه الفترة ضربت العملة الذهبية في بلد تلو آخر على غرار الفلورين الذهبي لفلورنسة الذي ضرب عام 1252 م، والدوقة الذهبية التي ضربت في البندقية في حدود عام 1280 م. ولم يكن للبرتغال عملة ذهبية خاصة

Levermore, p. 108 (30)

Boxer, pp. 20 - 21 (31)

بها منذ عام 1383 م. فكانت من بين الممالك الأوروبية القليلة في هذا الوضع<sup>(32)</sup>.

إن أسرة أفيس جاءت إلى الحكم سنة 1385 م بفضل مساندة الطبقة البرجوازية من تجار المدن، وهي طبقة احتلت مصالحها التجارية المقام الأول في سياسة المملكة. وكان تجار لشبونة وأبورتو يطمعون في تجارة البحر المتوسط المجرية التي كانت تحتكرها جمهوريتا البندقية وجنوة تجار المسلمين، بما فيهم تجار سبتة<sup>(33)</sup>.

وكان البرتغاليون يطمعون كذلك في ثروات سبتة والمغرب الاقتصادية، كمصائد الأسماك في مياه سبتة وقبالة سواحل المغرب. وكانت تُحاك في فاس اقمشة تُصدّر عن طريق سبتة، وكان عليها إقبال في جنوب أوروبا. وكانت سبتة منفذاً رئيسياً لصادرات المغرب من الحبوب التي كانت البرتغال كثيراً ماتفتقر إليها<sup>(34)</sup>.

إن الداعي الرئيسي لحملة سبتة خوان أفونسو المشرف الملكي على الخزانة والممثل الرئيسي للطبقة البرجوازية في الحكومة. إن الأزمة الطويلة التي كانت تعاني منها البرتغال قبيل حملة سبتة نتيجة لحروبها مع قشتالة أدت إلى نقصان كبير في موارد الدولة، مما حدا بالملك جون الأول إلى العبث بالعملة وتخفيض قيمتها لتسديد ديونه<sup>(35)</sup>.

لم يكن الهدف الرئيسي للتوسع البرتغالي في القرن الخامس عشر الميلادي الرغبة في السيطرة على أراضٍ عبر المحيط بل السيطرة على ساحل المغرب. ففي المغرب ذاته كان يتوفر العديد من السلع المطلوبة كالقمح والماشية في الشمال، والسكر والمنسوجات، وكذلك الأسماك والجلود والشمع والعسل. فحبوب المغرب من شأنها أن تساعد على سد ما كانت تعاني منه البرتغال من نقص في إنتاجها لها، بالإضافة إلى جاذبية تجارة ذهب السودان<sup>(36)</sup>.

Boxer, pp. 18 - 19 (32)

Bell, p. 34. جوليان، ص 249. (33)

Krueger, H, «Genose Trade...», in Speculum, 3 (1933), p. 382. (34)

Payne, p. 191. Livermore, p. 108 (35)

Payne, p. 192 (36)

ويرى نيفيل باربر ان ما دفع إلى القيام بحملة سبتة الصموخ من جهة، والرغبة من جهة أخرى في إيجاد منفذ للمغامرين الذين أصبحوا عاضين عن العمل بعد أن تم إبرام السلم مع مملكة قشتالة<sup>(37)</sup>.

### ج - دوافع سياسية

كانت البرتغال طوال القرن الخامس عشر مملكة متحدة خالية تقريبا من الحروب الأهلية، في الوقت الذي كانت فيه بلدان أوروبا الأخرى تهزها في معظم ذلك القرن الحروب الخارجية والأهلية، كحرب المائة سنة بين إنجلترا وفرنسا، وحروب الوردتين بإنجلترا، أو أنها كانت مشغولة بخطر زحف الأتراك العثمانيين في البلقان وفي الشرق الأدنى. وفي شبه جزيرة إيبيرية، كانت قشتالة وأرجون تمران بفترة من القلاقل أقرب ما يكون إلى الفوضى المدمرة، قبل تولي فرديناند وإيزابيلا الحكم. وقد حالت هذه الأوضاع — إلى حد كبير — دون منافسة قشتالة البرتغاليين منافسة فعالة، وهو ما كان سيحدث لولا تلك القلاقل<sup>(38)</sup>.

وقد حرصت البرتغال على أن لاتقع سبتة في أيدي منافسيها، إذ كانت سبتة قبل ذلك قد اجتذبت انظار قشتالة وحتى جنوة التي حاول تجارها الاستيلاء — عبثا — على سبتة عام 233 هـ<sup>(39)</sup>. إن مبادرة ملك البرتغال ومستشاريه إلى اتخاذ القرار الخاص بتجهيز حملة للاستيلاء على سبتة كان ردا على بوادر اهتمام قشتالة، كغارتها على تطوان سنة 1400 م، وقبولها تبعية جزر الكناري (الخالدات) إليها<sup>(40)</sup>.

وفي سنة 1411 م انتهت الهدنة المعقودة بين البرتغال وقشتالة، وأبرم سلم بين المملكتين. وكان على عرش قشتالة آنذاك الطفل خوان الثاني تحت وصاية عمه فرديناند، وكان يصبو إلى الحصول على عرش أرجون لنفسه، مما صرفه عن الاهتمام

(37) Barbour, N. Morocco, London 1965, p. 98

(38) Boxer, p. 18

(39) Bell, p. 34

ابن عذاري، أبو العباس أحمد : البيان المغرب، القسم الثالث، تطوان، 196 — ص 6 — 347.

(40) O'Callaghan, p. 547



بقضايا غرناطة والبرتغال. فقرر ملك البرتغال جون الأول — وقد أمن خطر قشتالة — الشروع في حملة سبتية<sup>(41)</sup>.

#### د — القرصنة

يصف المؤرخون الأجيبون وقرسيون — دون البرتغاليين — الهجوم البرتغالي على مدينة سبتة سنة 1415 م بأنه كان «ثأراً لأعمال القرصنة المغربية». والواقع انه مع ان الأندلسيين الذين طردوا من بلادهم كانوا يغيرون على سواحل اسبانيا وسفنها، فإنه يبدو بأن السفن والتجارة البرتغالية لم تتعرضاً لأذى يذكر. وقد عارض ملك البرتغال بادئ الأمر فكرة الهجوم على سبتة بحجة ان الهجوم سيؤدي حتماً إلى قيام المغاربة بالثأر من السفن البرتغالية في مضيق جبل طارق، مما سيعرض للخطر تجارة البرتغاليين المجرية بزييت الزيتون والنبذ مع موانئ البحر المتوسط. وكان الملك من جانبه يخبذ القيام بهجوم مشترك مع القشتاليين ضد مملكة غرناطة أملاً في أن تستحوذ البرتغال على أراضٍ جديدة في شبه جزيرة إيبيرية<sup>(42)</sup>.

وقد اخذ المخططون حملة سبتة في حسابهم ان تصبح سبتة بعد استيلاء البرتغاليين عليها مأوى تلجأ إليه السفن المسيحية القارئة من غزاة البحر المسلمين من شمال إفريقيا، كما يمكن اتخاذ سبتة نقطة انطلاق للسفن البرتغالية المهاجمة لسفن المسلمين. وفي الواقع، فإنه بعد أخذ سبتة، أنشأ الولي البرتغالي بسبتة سفناً كانت تكمن لسفن المسلمين التي تتردد على مينائي جبل طارق ومالقة<sup>(43)</sup>.

إن سيطرة الايطاليين والايبريين على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط الحقت ضرراً كبيراً بتجارة المغرب واقتصاده. ولما عجز المغاربة عن حماية تجارتهم لجأوا إلى «القرصنة» وهي شكل من أشكال الحرب، تماماً كما فعل الانجليز بعد ذلك بقرنين في صراعهم مع الاسبان<sup>(44)</sup>.

وبعد استيلاء البرتغاليين على سبتة — التي فتحت أمامهم باب البحر المتوسط على مصراعيه لم تلبث سفنهم ان أصبحت من حيث العدد والنشاط كسفن

(41) Livermore, H. V. Portugal. Edinburgh U.P. 1976 p. 70

(42) Bardour, pp 97 - 98

(43) Bell, p. 34, Livermore, p. 109

(44) Laroui, P. 234



البسكيين في مياهه. فأصبحت مراكب البرتغاليين تقدم خدماتها الملاحية، كما أصبح قرصان البرتغال يفرضون شروطهم، ففي شهر أكتوبر سنة 1501 م أسروا مركبا جنوبا قرب سواحل المغرب، وكانوا إذا أسروا ركابا مغاربة فرضوا عليهم مبالغ كبيرة لأفداء انفسهم<sup>(45)</sup>.

## هـ — أمجاد الفروسية

تعزو الرواية البرتغالية التقليدية قيام حملة سبتة إلى رغبة أبناء ملك البرتغال الثلاثة دوارتي وبدور وهنري — في المشاركة في عمل حربي باسل مما يؤهلهم للحصول على رتبة الفروسية. وقد وجدوا ضالتهم في الاقتراح الخاص بمهاجمة سبتة، كما أن الفكرة كانت استجابة للمعتقدات الدينية التي ورثوها عن والدتهم فليبا الصليبية النزعة. كانت الحرب في خدمة الله والملك ماتزال العمل المشرف لفارس القرون الوسطى، وبخاصة محاربة المسلمين. وكان للفرسان ان يتوقعوا التكريم والانعامات من الملك جزاءً بلانهم في الحرب، فضلا عن المكافآت المالية والاقطاعية<sup>(46)</sup>. ان الفارس من النبلاء الذي كان يحرمه القانون من المبارزة في بلده كان يتوجّه إلى الخارج — إلى غرناطة أو إلى سبتة<sup>(47)</sup>.

## الرواية البرتغالية عن حملة سبتة

إن تواريخ جوميس إيانيش دي أزورارا — وبخاصة تاريخه عن الملك خوان الأول — تروي قصة اخذ البرتغاليين مدينة سبتة، بعد عشر سنوات من سقوط المدينة في أيديهم، بأسلوب حكايات الفروسية فتقول<sup>(48)</sup> : حاول ابنا الملك خوان الأول اقناع والدهما بالمشاركة في حملة باهرة لكي يتسنى لهما أن يُرسّما فارسين، إلا أن الملك عارض فكرة الحملة بحجة بُعد سبتة وتكاليف الحملة والتجهيز لها، وماتحتاج إليه من رجال وسفن وعتاد. كما تردّد في تجريد مملكته من الجند طالما بقي السلم مع قشتالة غير ثابت. كما أشار الملك إلى أن المغاربة سيذكرون دوماً بكل مرارة «هزيمتهم على أيدينا، وسيأخذون في مهاجمة سفننا

Braudel I,F, The Mediterranean and The Mediterranean World in the Age of Philip II (45)  
London 1978. P. 608

O'Callaghan. p 547. Bell, p 32. (46)

Hillgarth, J.N, The Spanish Kinglons (1410 - 1516), Vol II, Oxford U.P 1978, p. 62 (47)

Rézette R. The Spanish Enclaves in Morocco, Paris 1976, pp. 29 — 33 (48)

قرب ساحل إقليم الغرب [جنوب البرتغال] كما قال الملك إن البرتغاليين سوف يفقدون كل أمل في إرسال مراكبهم وبضائعهم إلى مدن حوض البحر المتوسط، وذكر بالمصير الذي سيؤول إليه أسراهم في أيدي المغاربة.

وأخيرا تمكن هنري من إقناع والده بأنه يقتل من قيمة القوات البرتغالية، وبأنه لاوجه للمقارنة بين قشتالة المسيحية وبين «الكفار» [المسلمين] الذين هم أعداء طبيعيون لنا». وأضاف بأن تسهيل استيلاء قشتالة على غرناطة من شأنه أن يعود بالفائدة على البرتغال، إذ سيشتغل القشتاليون بمشاكل غرناطة مما يجعل البرتغال تنعم بالسلام زمنا طويلا.

وكما هو الحال في كافة الحروب «بدأت حملة سبتة بإيفاد رسل للاستطلاع وجمع المعلومات عن المدينة وتحصيناتها. وحالت في خاطر الملك خطة أشار إليها المؤرخون بأنها حيلة بارعة. فقد سلّح سفينة لإرسالها إلى صقلية ليعرض عليها الزواج من ابنه بدور. ولما كانت الملكة قد اعربت عن ميلها للزواج من دوارتي وارث العرش فإن ملك البرتغال كان لايشك في أنها ستفرض عرضه. وبذلك أتاحت لرسله فرصة الجواز بمدينة سبتة ومعينة ما يريدون.

وتبريرا للاستعدادات الحربية الجارية وحشد الأسطول، قرر الملك خوان «أن يتحدّى أمير هولندا وأن يهدده بالحرب ان هو لم يضع حدا للأضرار والسرقات التي كان رعاياه يوقعونها بالتجار البرتغاليين المارين بمضائق بلاده». وبالطبع فإن الأمير — وكان على علم مسبق بذلك — تظاهر بتصديق الوعيد. ثم بعث الملك خوان الأول برسله لاستئجار السفن من جليقية وبسكاي وحتى من إنجلترا وألمانيا. كما أن الفرسان الإنجليز والفرنسيين عرضوا عليه خدماتهم.

لم يكشف للجند عن هدف الحملة إلا بعد انبحار الأسطول، حينما أعلن أحد الرهبان واسمه جاو دي شيفا Joio Le Xiva قصدهم مدينة سبتة وتلا عليهم خطاب البابا، وفيه يغفر ذنوب كل من يسقط في قتال الكفار في هذه الحملة الصليبية»<sup>(49)</sup>.

توقّف الأسطول — وقوامه 200 سفينة وخمسون ألف رجل — في مرسى الجزيرة الخضراء بعد أن قدّم الملك خوان كافة الضمانات لملك قشتالة. وفي البداية

صادفت الحملة بعض التعثر إذ هبت ضبابية كثيفة جعلت الأسطول يتحوّل إلى ناحية مألقة بسبب التيارات، ووقعت بعض الاشتباكات مع مسلمي غرناطة الذين حسبوا ان الهجوم يستهدف أراضيهم.

كما أن الطاعون الوافد من لشبونة تفشّى بين الجند في عدة سفن. ومع ذلك فإن الأسطول توجه آخر الأمر إلى سبتة. ونزل الجنود إلى البر ودارت معارك عنيفة بين الغزاة والمدافعين عن المدينة الذين أبدوا — قبيل نزول الغزاة إلى البر — نشاطا كبيرا في تعزيز دفاعهم، وكان بالامكان مشاهدتهم وهم يجرون فوق أسوار المدينة، مما يدل على حد قول أزورارا — على أن الخوف كان أبعد مايكون عن قلوبهم<sup>(50)</sup>.

وخطب «صاحب سبتة صالح بن صالح» — كما يذكر أزورارا في تاريخه — البرتغاليين بالعبارات التالية : إننا لانخشى هجوم النصارى علينا، فهم ليسوا كثيرين عدداً، وبوسعنا قتلهم، ومن يدري ؟ فلعلهم يُتيحون الفرصة لنا للظفر بنصر كبير. ومن الممكن ان يقع، اسطولهم في أيدينا. وقد نستعمل أوانيهم الذهبية والفضية في اعراس أبنائنا... ان الأسطول كما يقولون قسمان، ونعتقد أنهم سينزلون إلى البر اليوم، وسوف ندخهم على الشواطئ، إن أكثرهم مثقلون بالدروع لايقوون على الحركة إلا ببطء وصعوبة، بينما نحن خفاف ونستطيع التحرك بسرعة ومهاجمتهم. وإذا سقطوا على الأرض تعذر عليهم النهوض. وأتى لهم ذلك وهم كجلاميد الصخر وزنا»<sup>(51)</sup>.

ولم يكن بالأمر المهيّن الهجوم على اسوار سبتة الثلاثة المتتالية والقتال في أزقة المدينة وشوارعها الضيقة التي يسهل الدفاع عنها. وقد دامت المعركة خمس ساعات دون توقف. وقام المغاربة — وهم أكثر عدداً وأقلّ سلاحاً — بالهجوم دون سلاح على الغزاة. ويُشيد أزورارا ببلاء محارب مسلم خارج باب المدينة فيقول : كان رجلاً طويلاً القامة، أسود اللون كالغراب، وكان عاري البدن، يثير منظره الفرع والربع. ولم يستعمل سلاحاً سوى الحجارة. وكان الحجر الذي يقذف به يبدو وكأنه قذف من منجنيق أو مدفع بفضل قوة ذراعه. وقد أصاب بحجر قذف به خوذة ضابط برتغالي فأطارها عن رأسه، ولكن هذا الضابط رماه

(50) المصدر السابق، ص 94.

(51) نفسه، ص 96.



برمحه فأرداه قتيلاً. ويذكر أزورارا أن السبتيين قاتلوا دفاعاً عن منازلهم حتى النهاية، مؤثرين الموت على الفرار، وكانوا — وهم عُزُّلٌ من السلاح — يرمون أنفسهم على الجند المسلَّحين مستميتين في القتال، ولم يستسلموا حتى أمام الكثرة من الجند، وكان من يسقط منهم جريحاً يواصل القتال ويلوح بيده على أعدائه<sup>(52)</sup>.

كان سقوط المدينة في أيدي البرتغاليين في 1415/8/21، وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر أغسطس، قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبته إلى كنيسة كاثوليكية، وأقيم فيها حفل كبير وتليت صلاة شكر وامتنان Te Deum Laudamus، وجرى في الحفل ترسيم أبناء الملك الثلاثة — حسب رغبتهم — فرساناً. ووُلِّي على المدينة الكونت بدرو دي منيزيسي Pedro de Menezes وتركت معه حامية قوامها 2700 رجل وسفینتان لحراسة المضيق. يقول أزورارا إنه ما إن سقطت سبته في أيدي البرتغاليين حتى أخذ المغاربة من المناطق المجاورة يفدون كل يوم قبالة المدينة، ووقعت معارك بينهم وبين الجند الذين هلك بعضهم في القتال<sup>(53)</sup>.

وبعد سقوط المدينة بثلاث سنوات، قام «أهل فاس وأهل غرناطة وملك مراكش وملك تونس وملك نجاية ومعهم الأسلحة والمدافع الكثيرة» بمحاصرة سبته براً وبحراً. وقد قدّرت التواريخ البرتغالية عددهم بمائة ألف رجل، بمبالغة تتفق مع الأسلوب الملحمي الذي دُوِّنت به تلك التواريخ. وهرع الأمير هنري إلى نجدة المدينة بأسطول جديد، وبعد «أن أوقع مذابح بالمسلمين حرّر المدينة وعاد ظافراً إلى البرتغال»، وكان غاضباً لأن «الظروف لم تسمح له بأخذ مدينة جبل طارق كما كان قد خطط»<sup>(54)</sup>.

### رواية صاحب (نشر المثاني) والمُحدثين عن حملة سبته

لاتوفر في المصادر العربية تفاصيل كافية عن حملة سبته، فيما عدا نتفٍ أوردها صاحبُ (كتاب الاستقصا) الذي ذكر بأن استيلاء البرتغاليين على مدينة سبته كان بعد حصار طويل للمدينة، وأنه كان على اثر خديعة لجأوا إليها. فقد نقل

(52) نفسه، ص 99 — 105.

(53) نفسه، ص 99، 105.

(54) نفسه، ص 112.



عن صاحب (نشر المثاني) قوله : «إن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعاً وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدن، وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة 818. وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالاً عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد.. وسمعت من بعضهم ان الذي جرأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو انهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض إليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلتها، ويبدلوا له خراجاً معلوماً في كل سنة، فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين، ولو كان المسلمون هم الذين يلون حكم المرسى ماتركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون مافيها». ويضيف صاحب (نشر المثاني) بأن أهل سبتة جاءوا إلى سلطان فاس مستصرخين «وعليهم المسوخ والشعر والوبر والنعال السود رجالا ونساء وولدانا [إلا أن السلطان] ردّهم إلى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم حتى تفرقوا في البلاد». وما ان تمّ للبرتغاليين الاستيلاء على سبتة حتى قاموا بتحسينها<sup>(55)</sup>. وينقل الناصري عن مؤرخ برتغالي اسمه منويل ما مفاده ان عبد الله بن أحمد.. المعروف بسيدي عبو — اغتصب الملك من أخيه السلطان المريني أبي سعيد عثمان، ولكنه «تكدر عيشه بذهاب سبتة... وتكدر المسلمون غاية لفوات هذه المدينة العظيمة منهم»<sup>(56)</sup>.

ويذكر أن أهل سبتة توجهوا إلى فاس ملتمسين مساعدة السلطان عبد الحق لدحر المغيرين البرتغاليين وأرفقوا التماسهم بهذه الأبيات الضعيفة المؤثرة :

هتاك النصارى علينا حرمة سبتة غدرأ بنقض موثيق وعهود  
غدرونا فجر عروية بصنادق حطت صناديد صرعة كقروود

(55) الناصري، أبو العباس أحمد : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الرابع الدار البيضاء 1955، ص 92 — 93.

(56) المصدر السابق، ص 94.

بعد مائة سنة ذكر الحسن الوزان أن البرتغاليين بعد احتلالهم سبتة مكثوا فيها «ثو ثلاثة أسابيع متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها، لكن أبا سعيد [المريني].. تخادل ولم ينهض لاستردادها، بل بالعكس أتاه الخبر وهو في وليمة الناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال، وقد قضت مشيئة الله أن يُقتل هو بعد ذلك شر قتلة بيد أحد كتابه السابقين... وهلك معه سبعة من أبنائه.. وذلك عام 864 هـ» — الحسن الوزان : وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1980 ص 246.

الفان في الفين من أبطاحهم عظماء أجسام ضور قدود  
 فقصدنا يابث صارعين سوسل خمار من شعر وتعل سود  
 فعساك تجبر صدغ قوم خديم دهر كسا لكل ثوب يهود  
 وقد صرح السلطان بعجزه عن نصرته. كما يتبين من الجواب الذي أمر كاتبه  
 المنجم بتحريره ردا على استنصر حنهم. وفي الجواب أبيات ضعيفة منها البيت  
 التالي :

فلقد عجزت عن الدفاع كس مضى من عز آباء وأسمى جدد  
 إلا أن البرتغاليين لم يهدأ لهم بال ولا طاب لهم مقام منذ أن وطئت أقدامهم  
 أرض سبتة، إذ تعرضوا لهجمات مستمرة من جانب رجال القبائل من المناطق  
 المجاورة لسبتة والمتطوعين المجاهدين من أنحاء المغرب، وبخاصة مدينة فاس<sup>(57)</sup>.  
 وتقول الرواية البرتغالية إن بدرو دي مينيزيس أول ولاة البرتغال على سبتة كان  
 يرتدي درعه باستمرار على مدى ستة عشر عاما لكي يكون على أهبة في حالة  
 وقوع هجوم مرتقب من جانب المسلمين، وكانت هجماتهم لاتنقطع طوال فترة  
 ولايته (1415 — 1437 م)<sup>(58)</sup>.

إن حملة سبتة احتاجت إلى المال والسفن والرجال والأسلحة. أما المال، فقد  
 تم الحصول عليه من أصحاب المصارف وعن طريق العبت بالعملة. وأما السفن  
 فقد جمعت من كافة موانئ كنتبرية ومنطقة خليج بسكاي<sup>(59)</sup>. وفي خطاب  
 لملك إنجلترا هنري الخامس بتاريخ 26 سبتمبر 1414 م، يأذن لممثل البرتغال  
 بشراء 400 رمح، كما يأذن في خطاب آخر بتاريخ 26 يناير 1415 م بشراء 300  
 رمح، وبتجنيد عدد من الرجال المسلحين<sup>(60)</sup>.

لم تُجد تحصينات سبتة كما لم يُجد الرماة والمدافعون عنها في وجه القوات  
 البرتغالية الغازية. فمع أن أعدادهم كانت كبيرة إلا أن أساس نجاح الحملة كان  
 يكمن في عامل المباغتة الذي هيأه تخطيط المغيرين الدقيق لها<sup>(61)</sup>.

(57) ابن تاويت، محمد : تاريخ سبتة، الدار البيضاء 1982، ص 8 — 179.

(58) Rézette, p. 34

(59) O'Callaghan, p. 547

(60) Livermore, p. 108

(61) Latham, J. D. «The strategic Position and Defense of Centra...» in Islamic Quarterly, 15 (1971), p. 204

لما وافق ملك البرتغال على قيام الحملة أصرَّ على أن يشارك فيها بنفسه أملاً  
— على حد قوله — في أن يغفر سفكه دماء «الكفار» ما كان قد سفكه من دماء  
النصارى (62).

ومما يُذكر أن صائغا يهودياً من مدينة يابره Evora طالب في سنة 1439  
بمكافأة أو تسلمها — في مقابل الخدمة التي أمدّاها للاستيلاء على سبتة، وفي  
الحملة الفاشلة ضد طنجة عام 1437 م، إذ ادّعى بأنه ساهم فيها «بخصائه  
وسلاحه وبجنديين من المشاة»

إن الثغر Frontiera الجديد للبرتغال لم يواجه سوى هجوم واحد ذي بال  
شنته المغاربة والغرناطيون معاً عام 1419 م، ولكنه فشل بسبب الخلافات في  
صفوف بني مرين. وفي العام التالي اغتيل السلطان المريني أبو سعيد عثمان —  
كما تقدّم — وتفاقمّت بمقلته الحرب الأهلية بالمغرب (64).

### النتائج المباشرة لسقوط مدينة سبتة

وختاماً للبحث نوجز فيما يلي النتائج المباشرة التي تترتت على استيلاء  
البرتغاليين على مدينة سبتة المغربية، وهي المدينة التي آلت إلى إسبانيا منذ عام  
1580 م حينما ضمَّ ملك إسبانيا فليب الثاني البرتغال إلى مملكته، ومازالت سبتة  
في أيدي الإسبان إلى اليوم.

كانت النتائج المادية لأخذ البرتغاليين سبتة مخيبة للآمال، ولم تُبدُ للعيان فوائد  
مباشرة نتيجة للاستيلاء عليها. إن أخذ سبتة لم يكن له سوى أهمية رمزية، ولم  
تُبدل محاولة لاستغلال احتلالها قبل عام 1437 م بحملة طنجة التي باءت  
بالفشل (65).

إن المدينة — وبخاصة مخازن التجار ومتاجرهم ومنازلهم — تعرّضت لأعمال  
النهب والسلب من قبل الغزاة، وذهبت طعنة للنيران محتويات المتاجر والمخازن

---

(62) Barbour, p. 98

(63) Boxer p. 12

(64) جوليان، ص 249.

(65) Bell, p. 41. Livermore, p 111 Alkinson, P. 98



من التوابل والثياب الرفيعة والسججيد الشرقية (66).

أما سكان المدينة فقد قتل كثيرون منهم، واسترق بعضهم، ونزح عن المدينة المنكوبة من استطاع من ساكنيها. وبعد يومين من سقوط المدينة، بادر ملك البرتغال إلى تحويل مسجدها لجمع إلى كنيسة هي اليوم كاتدرائية سبتة.

إن معظم التجارة التي كانت تمر بسبتة لما كانت في أيدي المسلمين توقفت وتحولت عنها إلى موانئ شمال إفريقيا الأخرى. وفي حين أن بعض أفراد الحامية كانوا يقومون بنهب المزارع والبساتين في أحواز سبتة، أو بممارسة القرصنة في مضيق جبل طارق، فإن الملك لم ينج من انتصاره مكسباً مادياً يذكر، فهو لم يزد من إيراداته، بل أصبح لزاماً عليه الانفاق على حامية المدينة وقوامها نحو ثلاثة آلاف رجل (67). إن سبتة «وقد خلت من سكانها وأصبحت في عزلة عن المنطقة المحيطة بها أصبحت — بعد أن كانت ذات يوم ميناءً مزدهراً — عبئاً ثقيلاً على الخزانة البرتغالية» (68).

وقد مكّن احتلال سبتة البرتغاليين من الحصول على بعض المعلومات عن بلاد السودان في أعالي حوضي نهري السنغال والنيجر، وهي مصدر الذهب بالنسبة للمغرب. وكان البرتغاليون يصبون إلى الاتصال المباشر بمصادر الذهب في السودان الغربي، إذ لم تكن للبرتغال عملة ذهبية خاصة بهامند عام 1383 م، فكانت من بين الممالك الأوروبية القليلة في مثل هذا الوضع (69).

إن الاستيلاء على سبتة قوبل بالترحيب في أوروبا المسيحية، وأثار حماساً كبيراً لأنه كان بمثابة حملة صليبية ناجحة، وكان من شأنه تعزيز هيبة البرتغال وملكها في أوروبا. كان الأتراك العثمانيون يتوغلون آنذاك في شرق أوروبا بعد انتصارهم الكبير في موقعة نيوقبوليس عام 1396 م على تحالف مسيحي باركه البابا، ولذلك فإن العالم المسيحي نظر إلى أخذ البرتغاليين سبتة على أنه أول هجوم مسيحي

(66) Bell, p 41

(67) نفسه، ص 41.

(68) Laroui, p, 234

(69) Boxer, p 19



مضاد ناجح ضد المسلمين<sup>(70)</sup>. أضف إلى ذلك أنه تمّ بسقوط سبتة الاستحواذ على موقع حيوي على ساحل البحر المتوسط، إذ لا ينكر — كما يقول أزورارد بأن سبتة هي مفتاح البحر المتوسط بأسره. وقد حرص ملك البرتغال على التأكيد بأن استيلاءه على سبتة لم يكن باسم البرتغال فحسب، بل باسم العالم المسيحي بأسره<sup>(71)</sup>.

وبعد أخذ سبتة بدأ البرتغاليون في ممارسة أعمال القرصنة في مياه غرب البحر المتوسط. فقد أنشأ والي سبتة البرتغالي سفناً كانت تكمن لمراكب المسلمين التي تردّد على مينائي جبل طارق ومالقة. وأصبح قراصنة البحر البرتغاليين يفرضون شروطهم على المراكب في البحر المتوسط، ويأسرون من فيها من المغاربة ويسترقونهم ما لم يقوموا بفداء أنفسهم<sup>(72)</sup>.

إن احتلال سبتة يمثّل أول استيطان أوروبي ثابت على ساحل المغرب الأقصى. كما إن احتلال سبتة كان بداية لتوسع استعماري أدى خلال القرن الخامس عشر الميلادي إلى احتلال العديد من موانئ المغرب من قبل الإسبان والبرتغاليين، كما كان فاتحة سيطرة أوروبا على قارتي إفريقيا وآسيا واستعمار أراضيها<sup>(73)</sup>. وبأخذ سبتة أصبح للبرتغال أول قاعدة في إفريقيا ومنها أصبح بإمكانها التغلغل في القارة الإفريقية، بل وشنّ هجوم على جبل طارق عبر المضيق<sup>(74)</sup>. ويبدو أن رحلات الكشف البرتغالية في المحيط الأطلسي، والتي يقترن بها اسم الأمير هنري الذي اشتهر — خطأً — باسم هنري الملاح، بدأت في حدود عام 1419 م، أي بعد أربع سنوات من أخذ سبتة من أيدي المغاربة<sup>(75)</sup>.

وفي مجال العلاقات المرينية النصرية، فإن سقوط سبتة كان يعني أن المغرب وغرناطة كليهما أخذا يدركان مدى الخطر الداهم، مما أدى إلى تعاونهما عام 1419 م في شن هجوم مشترك على سبتة بآء بالفشل. وإن وجود النصارى بين

(70) Bell, pp, 41 - 42

(71) Rézette, p. 33

(72) Livermore, p. 109. Brudel, p 608

(73) Rézette, p. 33. Abun-Nasr, p. 133

(74) O'Callaghan, p. 548

(75) Boxer, p. 15

المغرب وغرناطة وضع حدا لما كان لبني مرين وبني نصر من تأثير في المصير السياسي في البلدين<sup>(٦٦)</sup>.

إن سقوط مدينة سبتة في أيدي البرتغاليين أثار موجة من السخط والذعر في المغرب والعالم الإسلامي، وكان أحد العوامل الرئيسية التي عجّلت في نهاية حكم بني مرين، كما أدى إلى نشاط شيوخ الصوفية في اذكاء روح التضحية والجهاد في نفوس المغاربة ذيادة عن الإسلام، ودفعاً لعادية الغزاة النصارى عن سبتة وغيرها من مدن المغرب الساحلية التي سقطت في أيديهم. «ولم تتوقف القبائل المجاورة لسبتة عن شن الهجمات على حامية المدينة، وتعدّر على الحامية البرتغالية إخضاع تلك القبائل، كما تعدّر على البرتغاليين مزاولة التجارة من المدينة، واقتضى الأمر تزويد الحامية بالمؤن عن طريق البحر»<sup>(٦٧)</sup>.

---

Albun-Nasr, p. 134 (76)

Livermore, p.109 (77)



## قضية استنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين وعبور الجيوش المرابطية إلى الأندلس من سبتة إلى الزلاقة

د. محمد بن عبود<sup>(١)</sup>

تكتسي قضية استنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين ضد الفونسو السادس ثم عبور الجيوش المرابطية إلى الأندلس أهمية قصوى في إطار تاريخ العلاقات الأندلسية المرابطية وذلك لأسباب تبدو بسيطة وواضحة في ظاهرها ولكنها معقدة في عمقها. هناك اتفاق مطلق لدى المؤرخين القدماء والمحدثين على السواء بشأن هذه الأهمية نظراً لما نتج عنها من تغيرات حاسمة.

لقد أدى هذا الاختيار إلى تحالف المرابطين وملوك الطوائف وانتصارهم على الفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة 479 هـ / 1086 م مما وضع حداً لسياسة الفونسو التوسعية ضد ملوك الطوائف التي تغيرت بعد احتلاله لطليطلة سنة 478 هـ / 1085 م. من سياسة فرض الجزية المالية على ملوك الطوائف إلى سياسة توسعية تهدف إلى احتلال الدول الطائفية وضمها إلى مملكة ليون وقشتالة. كما كان لهذا الاستنجد نتائج وخيمة بالنسبة للملوك الطوائف نظراً لما كان لهذا القرار السياسي من عواقب في المدى البعيد.

فخلافًا لما كان يظنه ملوك الطوائف، لقد دخلت الجيوش المرابطية الأندلس لمحاربة الجيوش المسيحية، إلا أن الظروف فرضت عليها أن تعود إلى الأندلس مراراً بعد انتصارها في معركة الزلاقة وقد كان عبور الجيوش المرابطية الثالث ليس بهدف

(١) المعهد الجامعي للبحث العلمي الرباط



بحاربة المسيحيين، بل بقصد «الاستيلاء» على الدول الطائفية وضمها إلى الدولة المرابطية.

إن هذه الحقائق التاريخية معروفة فمسألة الاستنجاد بيوسف لا تُشكّل في ظاهرها موضع خلاف. ولكن إن كان هناك اتفاق حول حقيقة الاستنجاد وعبور الجيوش المرابطية إلى الأندلس، فهناك خلاف في المصادر التاريخية بشأن تفاصيل هذه القضية إن هذه المصادر تختلف، بل تتناقض فيما يخص الطريقة التي تم بها هذا الاستنجاد وتتناقض بشأن تحديد التاريخ الذي تم فيه هذا الاستنجاد وتختلف في تفسيرها لأسباب هذا القرار كما تختلف في شرح أسبابه ودلالاته.

## I — استنجاد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين ضد الفونسو السادس وعبور الجيوش المرابطية إلى الأندلس من خلال المصادر المتأخرة عن القرن الخامس الهجري :

تعتبر هذه القضية عند عدد من المؤرخين مثالا للتحالف بين المسلمين الأندلسيين والمغاربة ضد النصارى الأسبان في إطار الجهاد في سبيل الله. إن استنجاد ملوك الطوائف بيوسف تبدو مسألة عادية نظراً للتقارب الجغرافي والوحدة اللغوية والعقائدية التي تجمع بين الطرفين. وعلاوة على ذلك. هناك قضية عادية دُفعت إلى هذا الاستنجاد فالأمر يتعلق بالدفاع عن الأندلس ضد الغزو المسيحي الذي ترعّمه الفونسو السادس والذي شارك فيه عدد من الرهبان الفرنسيين جاءوا من مناطق مختلفة مثل كلوني وبورغون، بل إن هذا الغزو ضد الأندلس كان يحظى بتشجيع البابا نفسه.

تقدّم لنا جل المصادر الأندلسية رواية إيجابية لمسألة استنجاد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين، وتركز هذه المصادر على أن المبادرة جاءت من ملوك الطوائف الذين كانوا يواجهون عدواناً مسيحياً خطيراً يتجلى أساساً في توسع مملكة ليون وقشتالة عسكرياً وسياسياً واقتصادياً على حسب ممالك الأندلس. ونلاحظ في جل الروايات الأندلسية أن هذا الاستنجاد جاء نتيجة رغبة بعض ملوك الطوائف في مواجهة الشر المسيحي اعتماداً على مبررات تبدو منطقية في ظاهرها، إذ يتعلق الأمر باستنجاد دول طائفية إسلامية ضعيفة بالدولة المرابطية الإسلامية ضد ملك

مسيحيّ قرّر احتلال الأندلس الإسلامية باسم المسيحية وبتزكية الرهبان الاسبان والفرنسيين. مسألة الاستنجد إذن منطقية فالأمر يتعلق بتحالف حُكّام مسلمين للدفاع عن قضية عادلة ضدّ الغزاة المسيحيين. وبما أن المسألة مبدئية بالدرجة الأولى، فإن الطّرف المربضي لم تكن له أطماعٌ بتاتاً بل قِبل مساعدة ملوك الطوائف بعد أن أرغمة على ذلك على أسس مبدئية. فهل كان بإمكان الدولة المرابطية أن ترفض هذا التعاون مع الأندلسيين؟ هذه باختصار هي الرواية التي قدّمها المصادر الأندلسية المتأخرة في إطار أسلوب أدبيّ جميل لا يخلو من البُعد العاطفيّ والحماسي. والسؤال الذي يفرض نفسه بشأن الروايات المتأخرة لمسألة استنجد ملوك الطوائف هو، هل هي صحيحة لم لا، إن كان جزء منها صحيحاً فإنّها تحتوي أيضاً على بعض الأخطاء والخلط بل والتزوير، خلافاً للمصادر المعاصرة للحدث. إن المصادر المتأخرة التي تطرقت لمسألة الاستنجد كثيرة منها «الكامل» لابن الأثير و «نفع الطيب» للمقري.

ولكنني اخترت مجموعة من المصادر المتأخرة التي تطرقت لهذه المسألة قصد التحليل وهي الآتية : «المعجب في تلخيص المتأخرة التي تطرقت لهذه المسألة قصد التحليل وهي الآتية : «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي و «الروض المعطار في خبر الأقطار» لمحمد بن عبد المنعم الحميري و «أعمال الأعمال» لابن الخطيب و «كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء» لابن الكردوبوس. قال عبد الواحد المراكشي في سياق حديثه عن استنجد المعتمد بن عباد بيوسف بن تاشفين : «ولما كانت سنة 479 جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين، مستنصراً به على الروم؛ فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء، وأنزله أكرم نزل، وسأله عن حاجته، فذكر أنه يريد غزو الروم، وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيل ورجل ليستعين بهم في حربه؛ فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى مادعاه إليه؛ وقال له : أنا أول مُنتدب لئصرة هذا الدين، ولايتولّى هذا الأمر أحدٌ إلا أنا بنفسى !

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه في طلبته...<sup>(1)</sup>.

(1) عبد الواحد المراكشي، «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي القاهرة، 1949، ص. 130 — 131.

لقد ارتكب عبد الواحد المراكشي عدة أخطاء في النص الذي نقلناه. لم يعبر المعتمد بن عباد مضيق جبل طارق سنة 479 هـ. ولم يقصد مراكش وبالتالي لم يستقبله يوسف بن تاشفين أحسن لقاء ولم يكرمه كما أن الحديث الذي زعم المراكشي أنه دار بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين لم يدر بينهما. يعود سبب الأخطاء التي ارتكبها في كتابه كتحرير تواريخ عدد من الأحداث الهامة كمعركة الزلاقة إذ أخطأ في تحديث اليوم والشهر والسنة،<sup>(2)</sup> إلى كونه ألف كتابه في المشرق سنة 621 هـ. بحيث لم يجد المصادر الضرورية أمامه فاضطر إلى الاعتماد على ذاكرته التي خانت أحيانا. ولقد اعترف بذلك في مقدمة كتابه قائلا : «... والوجه الثاني أنه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شيء أعتمد عليه وأجعله مستندا كما جرت عادة المصنفين...»

والوجه الثالث أن محفوظاتي في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت؛ أوجبت ذلك همومٌ تزدحم على الخاطر، وغموم تستغرق الفكر...»<sup>(3)</sup>

لقد أخطأ المراكشي في غالب الظن عندما ادعى أن المعتمد التحق بيوسف سنة 479 هـ. ليستنجد به مما أدى إلى ارتكابه أخطاء أخرى ذات ارتباط بتفاصيل هذا اللقاء وإن المصادر المعاصرة للحدث تُعطينا رواية أخرى تختلف تماما عن رواية المراكشي كما سنرى فيما بعد وفعلا، لقد استنجد المعتمد بيوسف ولكنه قام بذلك بواسطة وفد. أما التحاقه بيوسف فحصل فعلا ولكن ليس سنة 479 هـ. بل بعد معركة الزلاقة وذلك سنة 481 هـ عندما استنجد المعتمد بيوسف قصد تنظيم الحصار على حصن لبيط (Aledo) في دولة إشبيلية الطائفية بعد استيلاء المسيحيين عليه.<sup>(4)</sup>

ويقدم لنا الجُميرُ روايةً مختلفةً عن استنجاد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين إذ يعتبر المعتمد صاحب المبادرة كما بالغ واطنب فيما ساقه :

(2) نفس المصدر، ص. 135

(3) نفس المصدر، ص. 4

(4) عبد الله بن بلقين الزيري، «كتاب التبيان»، تحقيق إلغي بروفنصال، القاهرة، 1955، ص 108 — 109، مؤلف مجهول، «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية» تحقيق د. سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، الرباط، 1979، ص 66 — 68



«وانفرد ابنُ عباد بتدبير ماعِزَمَ عليه من مداخلِةِ يوسفَ بنِ تاشفين، ورأتُ ملوكَ الطوائف بالأندلس ماعِزَمَ عليه من ذلك فمَنهم من كَتَبَ إليه ومنهم من شافههُ.

فلما عَزَمَ مخاطبُ جاريهِ : المتوكِّل عُمَرُ بن محمدٍ صاحبَ بطليوسَ وعبد الله بن حُبوس بن مالِحسن الصنهاجِيَّ صاحبَ غرناطَةَ يأمُرُهُما أن يبعثَ إليه كُلَّ واحدٍ منهما قاضيَ حضرته، ففعلَا، ثم استحضَرَ قاضيَ الجماعةِ بقرطبةَ أبا بكرٍ عُبيدَ الله بن أَدَهَمَ وكان أعقلَ أهلِ زمانِهِ. فلما اجتمعَ القضاةُ عندهَ باشبيليةَ، أَضَافَ إليهم وزيرُهُ أبا بكرَ بن زيدون وعَرَّفَهُم أربَعَتَهُم أَنهم رُسِلُهُ إلى يوسفَ بن تاشفين، وأسندَ إلى القضاةِ ما يُلِيقُ بهم من وَعْظِ يوسفَ وترغيبِهِ في الجهادِ، وأسندَ إلى ابنِ زيدونَ ما لا بُدَّ منه في تلك السِّفارةِ من إبرامِ العقودِ السلطانيةِ.

وكان يوسفُ بنُ تاشفينَ لا يزالُ يَفْدُ عليه وفودُ ثغورِ الأندلسِ مستعطفين مُجْهِشِينَ بالبُكاءِ ناشِدينَ اللهَ والاسلامَ مستنجدينَ بفقهاءِ حضرته ووزراءِ دولته، فيَسْتَمِعُ إليهم ويصغي لقولهم وترقُّ نفسه لهم، فما عبرت رُسُلُ ابنِ عبادَ البحرَ إلا وَرُسِلَ يوسفُ بالمرصاد، وقد أذن صاحبُ سبْتَةَ بقصده الغزوَ وتشوُّفِهِ إلى نصرةِ أهلِ الأندلسِ وسأله أن يُخْلِى الجيوشَ تجوزَ في الحجازِ، فتَعَذَّرَ عَلَيْهِ، فشكا يوسفُ إلى الفقهاءِ فأَقْتُوا أجمعونَ بما لا يَسِرُّ صاحبُ سبْتَةَ.

ولما انتهت الرُّسُلُ إلى ابنِ تاشفينَ أَقْبَلَ عَلَيْهِم وأكرمَ مَثَواهم وجَدَّدُوا الفَتوى في حَقِّ صاحبِ سبْتَةَ بما يَسُرُّه واتصلَ ذلك بابنِ عبادَ فوجَّهَ من اشبيليةَ أسطولا نحو صاحبِ سبْتَةَ، فانتظمت في سلكِ يوسفَ، ثم جرثُ بينهُ وبينَ الرُّسُلِ مُراوِضاتٌ ثم انصرفَ إلى مرسلها؛ ثم عبرَ يوسفُ البحرَ هَيئًا حتى أتى الجزيرةَ الخضراءَ ففتحوا له، وخرجَ إليه أهلُها بما عندهم من الأقوات والضيافات، وجعلوا سِماطًا أقاموا فيه سوقًا جلبوا إليها ما عندهم من سائرِ المرافق، وأذنوا للغُزاةِ في دخولِ البلدِ والتصرفِ فيها، فامتَلأتِ المساجدُ والرَّحباتُ بضِعفاءِ المطوعين، وتواصوا بهم خيرًا.

فلما عَبَرَ [يوسفُ] وجميعُ الجيوشِ انزعجَ إلى اشبيليةَ على أحسنِ الهيئاتِ جيشًا بعدَ جيشٍ وأميرًا بعدَ أميرٍ وقبيلًا بعدَ قبيلٍ، وبعثَ المعتمدُ ابنَهُ إلى لقاءِ يوسفَ، وأمرَ عمالَ البلادِ بجلبِ الأقوات والضيافات، ورأى يوسفُ من ذلك ما سَرَّهُ ونشِطُهُ، وتواردتِ الجيوشُ معَ أمرائها على اشبيليةَ، وخرجَ المعتمدُ إلى لقاءِ يوسفَ



من اشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه، وأتى محلة يوسف فركض نحو القوم وركضوا نحوه، فبرز إليه يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل واحد منهما المودة والخلوص، فشكرا نعم الله وتواصيا بالصبر والرحمة وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصا لوجهه مقربا إليه، وافترقا فعاد يوسف لمحلته ورجع ابن عباد إلى جهته، ولحق بابن عباد ماكان أعدّه من هدايا وتخف والطاف أوسع بها محلة ابن تاشفين، وبأثوا تلك الليلة، فلما صلوا الصبح ركب الجميع، وأشار يوسف على ابن عباد بالتقدم إلى اشبيلية ففعل، ورأى الناس من عزة سلطانه ماسرهم، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وأخرج، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف، بكل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا»<sup>(5)</sup>

ولقد تطرق ابن الكردبوس لمسألة الاستنجد والعبور في النص التالي :

ولما تيقن كل من ثار ورأس، ولاسيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس، مذهب الفئش فيهم، وأنه لايقنع منهم نجزية ولا هدية، ورأوا أن الرجوع إلى الحق أحق، فاستصرخوا بالمرابطين، واستنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، على أن ينخرطوا في سلكه، ويدخلوا تحت ملكه. وفتحوا له بابا إلى الجهاد كانوا قد سدوه، فأجابهم إلى مارغبوه، ولم يخالفهم فيما طلبوه إذ كان راغبا في جهاد المشركين والذب عن حريم المسلمين، فاستيقظ طلب النصر من منامه، وتطلع بدر التأيد من خلال غمامه.

وأسرع في عبور البحر بنفسه وإخوته المرابطين، سنة ثمانين وأربعمائة، وقد أخلص الله تعالى نيته، وحقق في ذاته طويته، ومأل البحر أساطيلا، وأجاز الاجناد رعيلا رعيلا واحتل بالجزيرة الخضراء، في كتيبته الخضراء المشتملة على اثني عشر ألف راكب من صناديد الأجناد»<sup>(6)</sup>.

نلاحظ في هذا النص أن «رؤساء غرب الأندلس» قد «استنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، على أن ينخرطوا في سلكه»، ويدخلوا تحت ملكه، مع العلم

(5) محمد بن عبد المنعم الحميري، «الروض المعطار في خبر الأقطار»، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1975، ص 288 — 289

(6) ابن الكردبوس، «كتاب الاكتفاء» المنشور بعنوان «تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط»، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، مدريد 1971، ص 89 — 90

أن الاستنجاد لم يكن كما جاء عند ابن الكردبوس «على أن ينخرطوا في سلكه، ويدخلوا تحت ملكه»، بل مخاربة الفونسو السادس فقط، وأخيراً، أخطأ ابن الكردبوس في تحديد تاريخ عبور الجيوش المرابطية إلى الأندلس فالعبور لم يكن سنة 480 هـ. بل سنة 479 هـ.

ولقد تجنّب صاحب «الخلل الموشية» في ذكر الأخبار المراكشية» في عرضه لمسألة الاستنجاد بيوسف ثم عبور الجيوش المرابطية مضيق جبل طارق إلى الأندلس بعض الأخطاء التي وقع فيها عددٌ من المؤرخين المتأخرين<sup>(7)</sup>. ورواية صاحب «الخلل» أقرب إلى رواية عبد الله بن بلقين الذي عاصر الأحداث بل عايشها وشارك في صنعها.

ويمكن تقديم الملاحظات التالية بشأن رواية «الخلل الموشية»

أولاً، خلافاً للمصادر المتأخرة عن القرن الخامس الهجري التي أشرنا إليها كـ «المعجب» و «الروض المعطار» و «أعمال الأعلام»، لم يرتكب صاحب «الخلل» بعض الأخطاء كالحلّط بين الأحداث وتحريف التواريخ. مثلاً، لم يُشِرْ إلى عبور المعتمد إلى يوسف بن تاشفين سنة 478 هـ. أو 479 هـ، بل اعتبر أن هذا الاستنجاد تمّ عن طريق الرسائل التي بعثها المعتمد إلى يوسف بواسطة رُسُلٍ لم يذكر أسماءهم، وذلك بعد استشارته مع ابنه الرّشيد : وينفرد كتاب «الخلل» بنقله نصوص الرسائل المتبادلة بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين (منها رسالتان للمعتمد يشرح فيهما ظروفه الصّعبة مع الفونسو السادس ويستبصر فيها يوسف ويذكر جواب يوسف الذي يقبل فيه مساعدته بشرط أن يُسلم له الجزيرة الخضراء)<sup>(8)</sup>. ويجب وضع نصوص هذه الرّسائل وغيرها من الرسائل الواردة في «الخلل الموشية» في إطار الخلاف الذي دار بين الباحثين بشأن أصالتها أو صيغتها المزوّرة فبينما قبل رامون منندث بيدال أصالتها، اعتبرها هويثي ميرندا مزوّرة. ثم

---

(7) مؤلف مجهول «الخلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية» تحقيق د، سهيل زكار والأستاذ

عبد القادر زمامة، الرباط، 1979، ص. 44 — 53

(8) نقل لنا صاحب «الخلل الموشية» رسالة كتبها المعتمد شخصياً إلى يوسف بن تاشفين مؤرخة في جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمئة («الخلل الموشية»، نفس المصدر، ص 45 — 46) ورسالة ثانية من المعتمد إلى يوسف بن تاشفين ينسب تحررها إلى أبي بكر بن الجد (نفس المصدر، ص 47 — 48) وجواب يوسف إلى المعتمد (نفس المصدر، ص 50).

جاء المرحوم محمد عبد الله عنان ليقبل أصالة جُلَّها. ولقد قمنا بإيجاز مقالتين بالانجليزية بالاشتراك مع الدكتور انكوس ماكاي الأستاذ بجامعة ادنبر البريطانية حول أصالة بعض الرسائل الواردة في «الخلل الموشية» فنشر الدكتور نيرمان روث الأستاذ بجامعة وسكنسين الأمريكية مقالة رفض فيها موقفنا ثم نشرنا رداً على تعقيبه فأجاب بدوره برد على ردنا.

المهم في هذا الصدد هو أن النقاش قائم حول مدى أصالة هذه الرسائل المنسوبة إلى شخصيات عاشت في القرن الخامس الهجري والواردة في مصدر من القرن الثامن وذلك منذ مطلع القرن العشرين وسوف أكتفي بالإشارة إلى هذه الدراسات في الهوامش لمن يريد الاطلاع على الحجج المختلفة المؤيدة والرافضة لأصالة هذه الرسائل.

ثانياً، يختلف صاحب «الخلل الموشية» مع المصادر المتأخرة عن القرن الخامس الهجري المذكورة آنفاً عندما يشير إلى أن عبور المعتمد بن عباد إلى المغرب ليستجد بيوסף بن تاشفين للمرة الثانية لم يكن سنة 478 هـ. أو 479 هـ. كما جاء في المصادر المتأخرة عن القرن الخامس الهجري بل سنة 481 هـ.، يعني ليس قبل حدوث معركة الزلاقة بل بعدها بستين. والهدف من هذا الاستنجد حسب «الخلل الموشية» لم يكن بقصد مواجهة جيوش الفونسو السادس بل التحرير حصن لبيط (Aledo) في دولة إشبيلية الطائفية الذي وقع تحت سيطرة المسيحيين فأصبح يُشكل نقطة الانطلاق للحملة العسكرية التخريبية التي شنها المسيحيون على مرسية وغيرها من المناطق داخل حدود دولة إشبيلية الطائفية.

ثالثاً، رغم مجانبة صاحب «الخلل الموشية» لبعض الأخطاء الواردة في المصادر المتأخرة عن القرن الخامس الهجري فإنه تبعهم في تقديم رواية مفصلة ومُطولة لمسألة الاستنجد والعبور الأول كما أن روايته تتسم بحماس مماثل لها لأن الأمر يتعلق بقضية عادلة تخص توحيد صفوف المسلمين المغاربة والأندلسيين ضد الغزو المسيحي الذي تزعمه الفونسو السادس. فالقضية قضية جهاد في سبيل الله بالدرجة الأولى. إننا نجد بعض التخوفات في جل المصادر المتأخرة للقرن الخامس الهجري بشأن هذا التعاون إلا أن الاجتماع كان على البعد الإيجابي والايديولوجي لهذا التعاون من أجل خوض الجهاد في سبيل نصرته الحق ومحاربة الظلم والكفر.



## II — رواية معاصرة لاستنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين وعبور الجيوش المرابطية إلى الأندلس : «كتاب التبيان» لعبد الله بن بلقين.

لقد نقلنا مختارات من النصوص المتأخرة التي تطرقت لمسألة استنجد ملوك الطوائف بيوسف وعبور الجيوش المرابطية من سبتة إلى الجزيرة الخضراء لتخوض طريقها إلى اشبيلية ثم بطليوس فالزلاقة، ثم قمنا بانتقادها بهدف إبراز الحقائق. إن هذه النصوص تحتوي على بعض المعلومات الصحيحة نقلاً عن المصادر المعاصرة للأحداث، ولكنها لا تخلو من المبالغة والأخطاء في تحديد التواريخ بل وتحريف الحقائق والسير في المغالطة.

وخلافاً لذلك، نلاحظ أن المعلومات الواردة في المصادر المعاصرة للأحداث تقدم لنا رواية ملخصة ودقيقة يمكننا من خلال تحليلها أن نخرج بتصور أقرب إلى الواقع التاريخي للأحداث التي همنا. ومع ذلك يجب أن نضيف ملاحظة، وهي أن المصادر المعاصرة للأحداث لا تكفي للخروج بتصور عميق وإنما يجب على المؤرخ أن يتقن فن التعامل معها كما عليه أن يخصصها ويستخرج منها ما تخفيه من معانٍ. وهذا يتطلب خبرة في مجال التأريخ وإلماماً بالموضوع علاوة على تشويق قوي لمعرفة حقيقة ذلك الموضوع، ومُعَايَشَتِهِ في صورة تقترب إلى واقعه التاريخي إلى أقصى الحدود الانسانية والعلمية.

لقد ترك لنا الأمير عبد الله بن بلقين حاكم دولة غرناطة الطائفية رواية دقيقة لقضية استنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين وعبور الجيوش المرابطية إلى الأندلس. ويمكننا من خلال تحليلها أن نحقق هدفين، أولهما الخروج بتصور واقعي لهذه المسألة وثانيهما اعتمادها مقياساً لتأكيد الروايات الواردة في المصادر التاريخية المتأخرة أو رفضها. لقد قمنا في دراسات أخرى بتقويم «كتاب التبيان» — لعبد الله بن بلقين بصفته مصدراً تاريخياً ميتناً لدراسة عصر الطوائف في الأندلس وهو استنتاج لا يختلف فيه أبرز المؤرخين المتخصصين في عصر الطوائف ابتداءً بالمستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال محقق هذا الكتاب سنة 1955 مروراً بالمستشرق الإسباني غارسيا غومث الذي نقله إلى الإسبانية سنة 1980 إلى الدكتور أمين توفيق الطيبي الذي نشره بالانجليزية سنة 1986 كما نشر عنه دراسة قيمة بالعربية ضمن كتابه «دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأندلسي». ونشير



هنا فقط إلى معاصرة عبد الله بن بلقين للأحداث التي نحن بصدد الحديث عنها بل إسهامه في تطورها علاوة على تأريخه لها تأريخاً فريداً من نواحٍ متعددة.

سوف نحاول أن نجيب عن سؤال رئيسي وهو ماهي مميزات رواية عبد الله بن بلقين لمسألة استنجد ملوك الطوائف بيوסף وعبور الجيوش المرابطية من سبتة إلى الجزيرة الخضراء في طريقها إلى الزلاقة؟ نلاحظ أن هذه الرواية تتميز بالاختصار إذ لم يُخصَّص لها أكثر من صفحة ونصف ولكنها مركزة وكثيرة الدلالة. لقد قدّم لنا عبد الله بن بلقين مقدّمات تدخّل المرابطين في شؤون الأندلس في حوالي صفحة قبل تطرّقه للموضوع الذي نحن بصدد مناقشته، ومن أهمّها قوله «وكنّا رأينا كلب النصرانيّ على الجزيرة وأخذهُ لطليطلة، وقلة رفقه، بعدما كان يقنع منّا بالجزية وصار يروم أخذ القواعد، وأن أخذهُ لطليطلة للضعف المتوالي عليها عاما بعد عام؛ وكذلك كان من شأنه في أخذ البلاد، إذ كان مذهبه ألا يُنزل معقلاً، ولا يُفسد أجناده على مدينة، لبعد مرامها ومن فيها من مُخالفٍ لِمَلته، وإنما كان يأخذ منها الجزيرة عاما بعد عام، ويغنّف عليها بما شاء من أصناف التّعدي، إلى أن تضعف وتلقي بيدها كما فعلت.

فوقع من ذلك في الأندلس رجّة عظيمة، وأشرب أهلها خوفاً وقطّع رجاء من استيطانها. وجرت بين المعتمد والفونسو مخالفات كثيرة، وسأله أن يتخلّى له عن معقل كان الموت عنده أولى من إعطائها، فوجست نفسه منه بالجملة ورام كسره بطوائف المرابطين...»<sup>(9)</sup>

يعود سبب الاستنجد بالمرابطين حسب هذا الاقتباس إلى التطوّر الخطير الذي اتخذته علاقات ملوك الطوائف بالفونسو السادس والخطة التي وضعتها هذا الأخير للاستيلاء على الأندلس بعد احتلاله لطليطلة إن عبد الله بن بلقين لا يحدّد تواريخ الأحداث التي تطرّق إليها، ولكن نظراً للتسلسل الزمني في روايته التاريخية يمكن لنا أن نستنتج أن الاستنجد بيوסף كان بعد احتلال الفونسو لطليطلة سنة 478 هـ / 1085 م وقبل معركة الزلاقة في 12 رجب 479 هـ / 23 أكتوبر 1086 م. أما طريقة الاتصال فقد كانت بواسطة الرسل كما نرى في قوله : «وقد

(9) عبد الله بن بلقين، «كتاب التبيان»؛ تحقيق إليني بروفنصال، القاهرة، 1955، ص. 101.

كان رُسل المعتمد قبل هذا قد وردت عليه، تُعلمه أن يتأهب للجهاد وتعدّه بإخلاء الجزيرة الخضراء، وأنه لا يصل إلى سبته إلا ويضعه في يديه» (10).

يؤكد هذا النص أن المعتمد بن عباد هو صاحب مبادرة الاستنجد بيوسف ضدّ الفونسو السادس وهو الذي اقترح عليه الاستيلاء على سبته وتحريرها من حاكمها البرغواطي كما أنه وعدّه بالجزيرة الخضراء. ويمكننا أن نتساءل هنا، هل كان المعتمد صادقاً في اقتراحه هذا أم أراد فقط أن يهدد الفونسو السادس باحتمال التدخل المرابطي في حالة تعنّده وإصراره على احتلال الأندلس؟

إن رواية عبد الله بن بلقين ترجح الاحتمال الثاني كما تؤكد أن يوسف بن تاشفين اتخذ الإجراءات اللازمة بعد فشل رسله في اقناع المعتمد بتنفيذ وعده بشأن إخلاء الجزيرة الخضراء للمرابطين ليفرض سيطرته على الجزيرة الخضراء كنقطة أولى لعبور جيوشه من سبته إلى الجزيرة مما وضع المعتمد وملوك الطوائف أمام الأمر الواقع إذ أصبح أمر مشاركة يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة ضدّ الفونسو السادس أمراً لا مفرّ منه ذلك أن مبادرة الاستنجد بيوسف كانت مبادرة أندلسية. وهذا ما يؤكد النص التالي :

«.. فلما وصل [يوسف] متأهباً لذلك، بمنّ احتفل به من جيشه، قدّم رسله إلى المعتمد، منهم عبد الملك القاضي، وابن الأحسن، فأمسكهم باشيلية مدة طويلة، وأمير المسلمين في ذلك متقلق لورودهم؛ فأرسل معهم من شيوخ إشبيلية من يقول له : تربّص من سبته مدة من ثلاثين يوماً، إلى أن نخلي لك الجزيرة؟ فأجابهم إلى هذا، وسألوه خطّ يده وبالتربّص. فأشعر الأمير بذلك، وقيل له : لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء إلاّ لأنّه يريد أن يرسل إلى الفونسو يُعلمه بقدمك؛ ولعله يتأتى له منه ما يرغب، ويهدّده بك، ويسأله أن يُعاقده على أن يهبّه الجزية أعواماً.

فإن فعل، استجاش عسكره على الجزيرة، ومنعك الجواز فأسبقه إليها ! وإن كان النصراني لا يتأتى له، أرسل إليك في الجواز !

ولما انفصل الرسل عنه بنية التربّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً، جهّز عسكراً مقدماً من نحو خمسمائة فارس، وأرسلهم في أثرهم، فلم تصل الرسل إلى الجزيرة

آخر النهار إلا والعسكر في أثرهم قد عدّوا ونزلوا بدار الصناعة.

فالتفت القوم إلى خيل قد ضربت محلّتها، لم يُدر متى أقبلت؛ ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها، يزدبون ويترادفون حتى اكتمل العسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة، وأحدقوا حواليتها يخرسونها. (11).

نلاحظ من خلال النص الذي نقلناه أعلاه أن رواية عبد الله بن بلقين لطريقة عبور الجيش المرابطي من سبتة إلى الجزيرة الخضراء يتّصف بالدقة والواقعية. نذكر كمثال لدقة هذا النص أن صاحبه نقل لنا اقتباسات مباشرة لما دار من حديث بين رُسل يوسف بن تاشفين والمعتمد ومادار بين يوسف بن تاشفين ورسول المعتمد من حديث كما نقل لنا ماقدّم ليوسف من نصائح من طرف مستشاريه. ومن دقة عبد الله بن بلقين أنّه نقل لنا أسماء رسل يوسف إلى المعتمد وتقديم أرقام معقولة لعدد الجنود المرابطين الذين حدّدهم في عسكرا مقدما من نحو خمسمائة فارس.. كما ركز على السرعة التي انتقل بها هؤلاء الجنود حتّى لا يعطى المعتمد أو ابنه الراضي وقت منع يوسف من تنفيذ خطّته وذلك عندما قال : « فلم تصل الرسل [رسل المعتمد إلى يوسف] إلى الجزيرة آخر النهار إلا والعسكر في أثرهم قد عدوا ونزلوا بدار الصناعة.. » (12)

ثم نقل لنا صرامة القائد المرابطي ابن عائشة وتصميمه على متابعة المسيرة إلى الزلافة مهما كان موقف المعتمد وابنه الراضي الذي كان في الجزيرة الخضراء كما نهج أسلوبا يُشبه ذلك الذي اعتمده قواد يوسف بن تاشفين بعد ذلك بأربع سنوات قصد «الاستيلاء» على غرناطة ثم اشبيلية في السنة التالية. كما يعكس النص التالي صرامة الجيش المرابطي التي ظهرت بمجرد عبوره إلى الأندلس وذلك عندما أمر القائد المرابطي ابن المعتمد بإخلاء الجزيرة الخضراء فوراً : « ونادى داود بالرّاضي [ابن المعتمد]، وقال له : « وعدّتمونا بالجزيرة ! ونحن لم نأت لأخذ بلدة ولا ضرر بسلطان ! إنما أتينا للجهاد ! فإما أن نُخلّوها من هنا إلى وقت الظّهر من يومنا هذا، وإلاّ، فالذي تقدر عليه، فاصنع ! »

وخاطب أمير المسلمين ابن عبّاد، يعلمه بما صنع ويقول له : « كفيناك مؤونة

(11) نفس المصدر، ص 102 — 103

(12) نفس المصدر، ص 103



القطائع وإرسال الأقوات لأجنادنا كما وعدت !» (13)

وربما كان استسلام المعتمد لتهديد القائد المراتبي عبارة عن إعلان ضعفه أمام جيش دخل بلاده بأسلوب يتناقض مع النية الطيبة والرغبة في الجهاد التي أعلن عنها داود بن عائشة بمجرد وصوله إلى الجزيرة الخضراء. وفيما يلي رواية عبد الله بن بلقين للموقف الإيجابي الذي وقع اختيار المعتمد عليه بعد أن وجد نفسه أمام الأمر الواقع :

«فأرسل المعتمد لابنه الرّاضي في إخلائها لهم، وحصلَ فيها داود وأتى الأمير إليها؛ ودخلها ناظراً إليها؛ ثم انصرف إلى سبتة إلى وقت إقباله، وأمر داود بالتقدم إلى اشبيلية، فاستوفت العساكر على اشبيلية. (14).

ونلاحظ من خلال هذا النص أن يوسف بن تاشفين لم يعبر إلى الأندلس إلا بعد أن مهدت جيوشه الطريق إلى اشبيلية ويلاحظ حذرُه المفرط في جميع تصرفاته قبل خوضه معركة الزلاقة وبعدها، وبعد ترحيب المعتمد بيوسف وقع الاتفاق على خوض معركة الزلاقة بين يوسف وعدد من ملوك الطوائف منهم عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة ثم المتوكل ابن الافطس صاحب بطليوس. ولم يكن المعتمد هو الوحيد الذي بعث رُسُلَهُ إلى يوسف قصد الاستنجاد به ضدّ الفونسو كما يدلّ على ذلك النصّ التالي للأمير عبد الله بن بلقين :

«وقد كان رُسُلنا مضوا مع رُسُل المعتمد إلى أمير المسلمين، على اتّفاق ضمّ بعضنا فيه بعضاً إلى حقيقة، وعاقدا أمير المسلمين على أن تتصل الأيدي على غزو الروم بمعاونته، وألاً يعرض لأحدنا في بلده، ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه» (15)

لقد حدد يوسف إذا موقفه كما حدّد أهداف عبوره من سبتة إلى الجزيرة الخضراء في طريقه إلى الزلاقة إنه لم يأت لإدانة ملوك الطوائف بل لنصرهم ضدّ الفونسو السادس. لذلك انتهت الشكوك في هدف يوسف من العبور واجتمعت كلمة الأندلسيين والمغاربة كما نرى في النصّ التالي الذي مهّد به عبد الله بن بلقين لسرد أحداث معركة الزلاقة :

(13) نفس المصدر.

(14) نفس المصدر.

(15) نفس المصدر.



«... وظننا أن إقباله إلى الأندلس مئة من الله عظمت لدينا، لاسيما خاصة من أجل القرابية، وللذي شاع من خيرهم، وإقبالهم على طلب الآخرة، وحكمهم بالحق؛ فنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه كل عام : فمن عاش منا كان عزيزاً، تحت ستر وحماية، ومن مات كان شهيداً. والعجب في تلك السفارة من حسن النيات، وإخلاص الضمائر، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك.

ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس بجريشة، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة، لو استطعنا أن تمنحه لحومنا، فضلاً على أموالنا ولقينا المتوكل ابن الألفطس محتفلاً بعسكره : كل يرغب في الجهاد، قد أعمل جهده، ووطن على الموت نفسه»<sup>(16)</sup>

يجب أن نتذكر أن عبد الله وضع هذا النص في أغماتٍ بعد تسليمه دولة غرناطة الطائفية للمرابطين سنة 483 هـ. مع افتراض تنويهه بالمرابطين، ومع ذلك فإنه يعبر أيضاً عن شعوره الحقيقي والجيوش المرابطية الأندلسية في طريقها إلى أول انتصارٍ مشترك ضد المسيحيين عرفه ملوك الطوائف والمرابطون على السواء.

وفي الختام، إن تمحيصنا للمصادر المعاصرة لمسألة الاستنجاد بيوسف وعبور الجيش المرابطي من سبتة إلى الزلافة ثم المصادر المتأخرة يدفعنا إلى التأمل في مدى القيمة الوثائقية لهذه المصادر لدراسة عصر الطوائف عموماً وهذه المسألة على وجه الخصوص، وفيما يلي بعض الملاحظات والاستنتاجات التي من شأنها أن تلقى أضواءً على جوانب هامة من التاريخ الأندلسي والمغربي في القرن الخامس الهجري ومصادره كما من شأنها أن تُنير طريقنا نحو تطبيق مناهج تتسم بدقة أكثر في مجال التاريخ الأندلسي والمغربي في القرن الخامس الهجري.

أولاً، إن كنا بحاجة إلى تحقيق المخطوطات المرتبطة بالتاريخ الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري فإن حاجتنا ماسة إلى استغلال المصادر المتنوعة والغنية التي حُققت ونُشرت كما أننا مازلنا نحتاج إلى تقويمها وتحليلها حتى نُحدد قيمتها الوثائقية الحقيقية لدراسة التاريخ الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري وفهمه فهماً عميقاً. وهذا هو ما حاولنا القيام به في إطار هذا البحث بالنسبة للمصادر المرتبطة بمسألة الاستنجاد وعبور الجيوش المرابطية إلى الأندلس.

(16) نفس المصدر، ص 104

ثانياً، بالرغم من أهمية المصادر المتأخرة للأحداث وضرورة الاعتماد عليها بصفقتها مصادر تكميلية، فإن المصادر المعاصرة للأحداث تكتسي أهمية قصوى وتمكّنا في عدد من الحالات من تقويم المعلومات الواردة في المصادر التكميلية المتأخرة عن الأحداث. ولقد حاولنا في دراستنا هذه أن نؤكد أهمية المصادر المعاصرة للقرن الخامس الهجري لدراسة مسألة الاستنجاد بيوسف وعبور جيوشه من سبته إلى الأندلس لخوض معركة الزلاقة، فالمعلومات الواردة في المصادر المعاصرة للأحداث قليلة ولكنها دقيقة وغنية ويمكن اعتمادها في تحاليلنا للأحداث والتطورات التاريخية.

ثالثاً، يجب على المؤرخ أن يتعامل مع المصادر المتأخرة عن الأحداث بنوع من الحذر كما عليه أن ينتقدها بشدة قبل قبوله للمعلومات والأفكار الواردة فيها أو رفضها. ولقد حاولنا أن نقوم بعض المصادر المتأخرة عن القرن الخامس الهجري ونحدد مدى صلاحيتها لدراسة مسألة الاستنجاد بيوسف وعبور الجيوش المرابطية الأول، فخرجنا بالموقف التالي :

أ) تحتوي جلّ المصادر المتأخرة عن القرن الخامس الهجري على بعض المعلومات الصحيحة التي يجب اعتمادها في دراسة مسألة الاستنجاد بيوسف والعبور الأول للجيوش المرابطية من سبته إلى الأندلس. وتجنّب الإشارة إلى أن المصادر المعاصرة للأحداث التي جرت في القرن الخامس الهجري والمصادر المتأخرة عنه بعدد من القرون يُطلق عليها مصطلح المصادر الأولية (Sources primaires) وتكتسي قيمة توثيقية خاصة بالمقارنة مع الدراسات الحديثة حول الأندلس خلال القرن الخامس الهجري التي يطلق عليها مصطلح المراجع الثانوية (Sources secondaires). ولقد نقلت بعض المراجع الثانوية بعض الأخطاء التي ارتكبها أصحاب بعض المصادر المتأخرة عن مسألة الاستنجاد والعبور بسبب غياب روح نقدية عند التعامل مع المصادر الثانوية المذكورة.

ب) تختلف القيمة التوثيقية للمصادر المتأخرة عن القرن الخامس الهجري لدراسة مسألة الاستنجاد بيوسف والعبور الأول للمرابطين إلى الأندلس. مثلاً، رأينا اختلافاً في تحديد التواريخ وضبط الأحداث بين «الحلّ الموسي» وبين بعض المصادر المتأخرة الأخرى كـ «المعجب» و «روض المعطار» و «أعمال الاعلام» فحاولنا تحديد الصحيح منها والمزيف اعتماداً على تقنيات نقدية مختلفة.

رابعاً، نلاحظ أن نفس الاستنتاجات والأحكام التي خرجنا بها في تقويمنا

للمصادر المعاصرة للقرن الخامس الهجري والمتأخرة عنه عند تقويم أهميتها لدراسة مسألة الاستنجد والعبور تنطبق على القيمة التوثيقية لهذه المصادر ومدى صلاحيتها لدراسة أحداث وتطورات أخرى خلال نفس العصر. مثلاً، خرجنا بنتائج مماثلة في دراستنا هذه لتلك التي وصلنا إليها في دراستنا حول العلاقات المرباطية الأندلسية التي قدمناها للندوة التي نظمتهها جمعية المشروع الثقافي والمركز الثقافي الأسباني بتطوان من 17 إلى 20 فبراير 1988 بتطوان. وكانت تلك الدراسة عبارة عن تحليل التصورات المختلفة لمعركة الزلاقة ثم لاستيلاء يوسف بن تاشفين على دول الطوائف وذلك اعتماداً على تحليل النصوص التاريخية المعاصرة للقرن الخامس الهجري والمتأخرة عنه.

خامساً، تؤكد لنا الاستنتاجات التي وصلنا إليها ضرورة الاعتماد على المصادر لفهم التاريخ من جهة والاعتماد على التاريخ لفهم مصادره من جهة ثانية فالتساؤلات التي نطرحها على الواقع التاريخي وتلك التي نطرحها على المصادر التاريخية تساهم في تحسين فهمنا للتاريخ ولمصادره على السواء وهذا هو الاتجاه الذي ذهبت فيه في كتاب دفعته للطبع مؤخراً عنوانه «مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره» والاهتمام بهذه المسألة بالذات هو الذي يميز المؤرخ عن الباحث المتخصص في فلسفة التاريخ.

## شواهد من ازدهار الوراقة في سبته الإسلامية

ذ. محمد المنوني<sup>(١)</sup>

بين الميزات الحضارية لسبته الإسلامية، يأتي ازدهار مهنة الوراقة على امتداد العصر الوسيط الرابع.

وأول مؤشر لهذا : وجود زقاق الوراقين في سبته المرينية، فيأتي في «بلغة الأمنية» عند ترجمة الزكندري : «وداره معروفة بأعلى «زقاق الوراق» من سبته».

ومن المعروف أن صناعة الورق بالمغرب لم تشتهر إلا في فاس وسبته، فيذكر جوليان عن المدينة الأخيرة : أنها كانت في طليعة مراكز إنتاج الورق الذي صار ينسب إليها، واشتهرت في ذلك أكثر من شاطبة.

وإلى هذا : برزت المدينة ذاتها في التائق في صنع أدوات الكتابة، غير أنه لم يبق لدينا سوى وصف بعض هذه التحف، ومنها دواة ابنوس احتفل صانعها في عملها، وتائق في حليها، ومعها قلم نحاس مذهب، فينوه بالطرفتين أبو الطاهر السبتي شعراً على لسان مبدعهما، ويقول عن الدواة خطاباً للمعنى بالهدية :

وافتك من عدد العلا رنجية      في حلة من حلية تبختر  
سوداء صفراء الحلي كأنها      ليل تطرزه نجوم تزهـر  
وعن قلم الدواة يضيف :

حملت بأشرف من نجار حليها      تخفيه أحيانا وحينا يظهر  
خرسان الا حين يرضع ثديها      فتراه ينطق مايشاء ويذكر

( ١ ) كلية الآداب — الرباط.



ومن شعر ابن الفراق السبتي بيتان مهلهلان مما ينقش في دواة للكتابة، وبيتان  
مما رسم على مجمع للأقلام.

وكان لأبي القاسم الشريف السبتي، محبرة من عاج موشح بالذهب، فينشد  
في وصفها :

وناصعة البياض تخيروها من العاج الموشح بالنضار  
أقول — وقد صببت الحبر فيها — كذاك الليل يولج في النهار

وعن وصف خطاطة سبته : تتخير نموذج القاضي عياض، فيقول عنه ابن جابر  
الوادي ءاشي : «وكان عياض — رحمه الله — بارع الخط المغربي، سريع الوضع،  
يدل على ذلك وجود أوضاع كثيرة، وكتب عديدة — يقصر عنها الحصر —  
بخط يده».

وإذا كانت مخطوطات عياض لم تصل إلينا الآن، فقد استمر بقيد الوجود  
خطوط زمرة من السبتيين المجيدين، ونذكر منهم تسعة نماذج :

1 — خط الغافقي : إبراهيم بن أحمد، وبه كتب السفر الرابع والأخير من  
شرح الايضاح لابن أبي الربيع، وفرغ منه في شوال 658 هـ بسبته : خ، ع، ك،  
379.

2 خط ابن هاني : محمد بن علي اللخمي : برنامج ابن أبي الربيع، بتاريخ  
الخميس 6 جمادى الأولى 705 هـ : نسخة المتحف البريطاني، حسب «مجلة معهد  
المخطوطات العربية» بالقاهرة : المجلد الأول 1955.

وبخط ابن هاني أيضا : كتاب «الاشراف على أعلى شرف» لابن الشاط : مخطوط  
الاسكوريال 1732 من فهرس دارنبورغ.

3 — خط العزفي : يحيى بن أبي طالب بن أبي القاسم اللخمي : برنامج شيوخ  
الرعياني : الإثنين 8 رمضان 708 هـ بغرناطة : نسخة خير الدين الزركلي التي  
نشر منها البرنامج.

4 — خط ابن رشيد : محمد بن عمر بن محمد الفهري : في رحلته وغيرها.

5 — خط الحضرمي : عبد المهيم بن محمد بن عبد المهيم : «زهرة الظرف  
وزهرة الظرف» للقللوشي، بتاريخ ليلة الجمعة 17 رمضان 721 هـ بفاس : ثامنة  
مجموع بالاسكوريال 288 من فهرس دارنبورغ.

6 — خط الأيلي : أحمد بن أحمد بن محمد الأنصاري، بقي منه السفر الرابع والأخير من صحيح مسلم. وفرغ منه يوم الإثنين 8 شوال سنة 800 هـ بسبته، منه شريط بالخزائن العامة ضمن مصورات جائزة الحسن الثاني 245 سنة 1974. ومصورة أخرى على الورق في الخزائن الحسنية.

7 — ومن التوقيعات السبئية : توقيع أبي الحسن علي الغافقي الشاري بملكيته للسفر الأول من شرح علي بن إسماعيل الإيباري على البرهان لامام الحرمين : خ، ع، ك 338.

مع توقيع ملكيته لكتاب «المدخل إلى تقويم اللسان، وتعليم البيان» لمحمد بن أحمد بن هشام اللخمي : الاسكوريال 99 من فهرس دارنبورغ.

8 — خط قاسم ابن النشاط بإجازة ابن هانيء بكتابه «الإشراف على أعلى شرف» الاسكوريال 1732 من فهرس دارنبورغ.

9 — خط يحيى بن محمد بن أحمد العزفي بملكية السفر الأول من «التكملة» لابن الأبار : خ، ع، ك 214.

الرباط 1408 / 8 / 25

1988 / 4 / 13



## صورة سبتة في المعاجم الجغرافية

ذ. عبد المالك الشامي<sup>(٥)</sup>

مدخل منهجي : ترتبط مشروعية البحث في هذا الموضوع بمحاولة رصد صورة مدينة سبتة في مجموعة من الآثار التاريخية والأدبية في محاولة لتجميع معلومات إضافية عنها تدخل ضمن إطار تكوين نظرة شمولية عن المدينة تاريخيا وتراثا وإنسانا وعمرانا واقتصادا واجتماعا. ومن تم ارتأيت أن يكون البحث منطلقا من رصد المعلومات المختلفة في مجموعة من الكتب ذات المنحى الواحد وهو المنحى الجغرافي. ومن المعلوم أن الدراسات الجغرافية عند العرب ارتبطت في نشأتها بعلوم الدين، وأنها استقلت بعد ذلك عنها ضمن إطار مختلف المناحي اهتم بعضه بالاطوال والاعراض واهتم بعضه الآخر بتقويم البلدان، واهتم ثالث بالمسالك والممالك واهتم رابع بالعجائب والغرائب.

وحين اخترت المنحى الجغرافي، وجدت نفسي أمام طائفة من المصادر التي يمكن أن يستفاد منها البسط الجغرافي والجزر الجغرافي والوصف الجغرافي، ككتب الأخبار والرحلات، وكتب التاريخ وكتب الاختبارات الأدبية والتاريخية، وكتب التراجم وكتب الجغرافيا المختلفة فاخترت الأخيرة، واخترت منها أيضا نوعا معينا هو النوع الذي يتصف ببعض الأوصاف المعجمية كترتيب المعلومات وتنظيمها على أسلوب الترتيب المعجمي، والعناية بوصف المدن والأقاليم بحسب ترتيبها المعجمي، وهذا هو السبب الذي جعلني أسمى هذه الكتب بالمعاجم نظرا لتوفرها على كثير من الشروط المتوفرة في المعاجم اللغوية.

لقد انصب اهتمام هذه الكتب على عاملين أساسيين هما الانسان وبيئته المختلفة

(٥) كلية الآداب فاس



وفي ظل هذا انصبت المعلومات التي تضمنتها الكتب التي اخترناها مجالا للتحرك في البحث هذا وهذه الكتب هي :

- 1 — صورة الأرض أو المسالك والممالك أو المفاوز والممالك لابن حوقل
- 2 — احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم المقدسي
- 3 — المسالك والممالك (المغرب في بلاد إفريقيا والغرب) لأبي عبيد البكري
- 4 — نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (للشريف الادريسي)
- 5 — الاستبصار في عجائب الامصار (مجهول المؤلف)
- 6 — الروض المعطار في خبر الأقطار (الحميري)
- 7 — معجم البلدان لياقوت الحموي

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن هذه المعاجم قد انقسمت من حيث مواطنها إلى قسمين : مشرقية وأندلسية : وهذا التقسيم فرضته من حيث المضمون صياغة المعلومات وكميتها التي تضمنتها كل من المصادر المشرقية أو المغربية. فبقدر ما كانت المصادر المشرقية مiale إلى الاختصار واقفة عند حدود معينة من المعلومات بحكم ظرفها الزمني والمكاني بقدر ما تميزت المصادر المغربية بالتوسع والاستقصاء، لاسيما بالنسبة لمجموعة من المعارف التي تضمنتها والتي تخص التاريخ القديم والموقع الجغرافي والاسوار كما سنذكر في حينه :

كما أن من المفيد الإشارة إلى أن سبق بعض المصادر المغربية الأندلسية لبعضها زمنيا قد انتهى بها إلى الاستفادة من المعلومات الواردة في سابقتها مما جعل بعضها لا يتجاوز تكرار ماورد في المصادر السابقة له.

وبعد فما هي صورة سبته في هذه المعاجم ؟

إن أول ما نعتز به في هذه المعاجم على ذكر سبته نجده في القرن الرابع من كل من ابن حوقل والمقدسي

فالأول في كتابه صورة الأرض أو المسالك والممالك والمفاوز والممالك ص 79 حيث يعرض للحديث عن المدينة ضمن حديثه عن أهم المدن في الغرب الإسلامي ابتداء من برقة (غرب بلاد مصر) حتى يصل إلى إفريقية، ليصف أشهر مدنها ابتداء من قابس فسفاقس فالمهدية.. حتى يصل إلى تنسى وواسلن ثم سبته (صورة الأرض ص 79)

وأثناء حديثه عنها يتناول موقعها أولا (وهي على غر البحر...) لكنه لا يحدد هذا البحر، ولا يشير إلى أهميته بالنسبة للمدينة وموقعها المتميز. ثم يذكر بعض مميزات الاقتصادية والاجتماعية (... وبها بساتين وأجنة تقوم بأهلها)، وماؤها يستخرج من آبار بها معين ومن خارجها أيضا من الآبار شيء كثير عذب. (صورة الأرض 79)

وإشارته إلى البساتين هنا مثيرة للغربة إذ المعروف عن المدينة أنها على سبعة أجبل كما سيذكر الإدريسي وتحيط بها الجبال والبحر من كل جانب. وليست بها أجنة ولا بساتين إلا ما كان من النواحي البعيدة عنها نسبيا. وقد أشار إلى ذلك غير واحد من الذين ذكروا سبتة وآخرهم ابن الخطيب في (معيار الاختيار: ص 146) وهو يذكر بعض عيوبها (إلا أنها فاعرة أفواه الجيوب للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات المبوب، عديمة الحرث فقيرة من الجبوب..) وفي إطار الخصائص الاقتصادية يذكر المرسى ويذكر معدن المرجان الذي تصنع منه القوارير اللطاف على حد تعبيره.

ثم يعرض في الجانب السياسي تبعيتها للأمويين في وقته. وهو ولاشك بداية القرن الرابع ثم جوارها من البرابر التابعين لوالها الذي يأخذ صدقاتهم ولوازمهم وخراجهم. ويقصد بربر مصمودة طنجة المجاورين لسبتة عند مرسى موسى — الذي يقع غربها — والذي يحمل اسم موسى بن نصير وأخيرا يشير إلى طنجة وظروف نشأتها وتبعيتها لآل إدريس.

ويبدو أن معلوماته حول المدينة منطلقة من زيارة ومشاهدة — كما أشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب، ولكن هذه المعلومات لاتصل إلى حد التدقيق في كثير من الخصائص التي اشتهرت بها المدينة والتي سيذكر أصحاب المعاجم الذين جاءوا بعده الشيء الكثير منها. كما أن معلوماته حول المنطقة (المغرب) تتسم بكثير من التعميم الشيء الذي يجعل توجيهها إلى منطقة بعينها أو مدينة أمرا فيه من المغامرة الشيء الكثير. وعلى العموم فما يستخلص من معلومات ابن حوقل حول المدينة يعتبر بالنسبة للمشاركة كافيا آنذاك. ولكنه غير كاف بالنسبة لمن يريد أن يأخذ تصورا واضحا عن المدينة في القرن الرابع الهجري.

أما المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) فإن منهجه كان مخالف لمنهج سابقه ابن حوقل وخاصة بالنسبة للمعلومات التي أوردها حول المدن عامة

وسبته خاصة لأن كتابه اعتمد التعريف بالأقاليم وخصائصها قبل تعريفه بالمدن ومميزاتها، ومن ثم فإن إشارته إلى سبته كانت جد مختصرة.

وهكذا أشار إلى سبته في موطنين اثنين . أحدهما : وهو يتحدث عن أقاليم المغرب حيث قسمه إلى سوس أدنى وسوس أقصى. وذكر سبته ضمن مناطق السوس الأدنى فقال (ص 220) : (وأما فاس فإن أهلها ولدانهم علوقا.) ومر إسم القصبة أيضا. وتسمى الكورة السوس الأدنى. ومن مدنها البصرة.. وازيلا سبته بلد غمار، وقلعة النسور نكور..) والثاني : وهو يعرض للمدن الكبرى المشهورة بالمغرب عموما حيث ذكر القيروان وما إليها من المناطق، ثم تاهرت وما إليها ثم وهران وسبته التي قال عنها (ص 229)

وسبته على زقاق بحر الأندلس. ترى منها البرين. وهي أحد المعابر المشهورة..) وهذا التعريف بالمدينة غير كاف بالنسبة لأهميتها في القرن الرابع، ولما يعرفه المشاركة عنها آنذاك. إذ لا يتناول من أهميتها إلا موقعها المتميز على بحر الرقاق، وكونها أحد المعابر المشهورة.

وعلى العموم فإن معلومات المقدسي عن المنطقة عامة والمدينة بصفة خاصة، كانت معتمدة على ما ينقل وما يروى، لا على مشاهداته. إضافة إلى أن معلوماته حول الاقليم برمته لا تكتسي طابع التدقيق والتوجيه نحو منطقة أو مدينة بعينها. ويبدو أن المعاجم الأندلسية قد تنبّهت إلى بعض هذا التقصير فانتّهت إلى الخروج عن مناهج المشاركة في الحديث عن المسالك والممالك وفي التعريف بالبلدان والأقاليم وخاصة في ذلك ما تعلق بالغرب الاسلامي. وذلك بحكم عامل القرب من المنطقة واتساع المعرفة بها، وبحكم ما انتهى إليه الأندلسيون في القرن الخامس وما بعده من الشعور بتضخم الأنا والاستغناء عن الغير. وهكذا نقف أمام أربعة معاجم جغرافية أندلسية أو مغربية اهتمت بالحديث عن المنطقة ومدنها وضمت بين دفتها مجموعة من المعلومات والمعارف الجديدة بالنسبة لسابقتها من المعاجم الجغرافية المشرقية في هذا الباب.

فقد عرض أبو عبيد البكري في كتابه «المسالك والممالك» قسم (الغرب في ذكر بلاد إفريقيا والغرب) ص 102 للحديث عن مدينة سبته من زوايا مختلفة. تناول في أولها موقع المدينة (.. على ضفة البحر الرومي وهو بحر الرقاق الداخل في البحر المحيط.. وفي طرف من الأرض داخل من الغرب إلى الشرق ضيق جدا، والبحر محيط بها شرقا وشمالا وقبلة...)



وتحديد الموقع هنا يتناول أكثر من إطار. فهناك الاطار الجغرافي الذي يمس موقعها بالنسبة للبحر، وهناك الاطار الجغرافي الذي يعرض لصورتها على الأرض : وهي عبارة عن لسان بحري يحيط بها الماء من ثلاث جهات. ولو أراد أهلها أن يفصلوها عن اليابسة لفعلوا على حد تعبيره وهناك بعد ذلك تحديد لهذا الاطار المائي الذي يحيط بها شرقا وشمالا وقبلة — والمقصود بالقبلة هنا الجنوب الشرقي — أي أن حدودها الترابية تقع على الغرب والجنوب الغربي. كما تناول في ثانيها صورتها الخارجية (هي مدينة كبيرة مسورة بسور ضخيم محكم البناء، بناه عبد الرحمان الناصر لدين الله..). وصورتها الداخلية (..). وحماماتها تجلب إليها الماء على الظهر من البحر. وبمدينتها حمام قديم يعرف بحمام خالد، ولها ربض من جانب الشرق فيه ثلاثة حمامات. وجامعها على البحر القبلي المعروف ببحر سبول، له خمسة بلاطات وفي صحنه جبان. ولها مقبرة في الجبل، ومقبرة أخرى بجوفها على بحر الرملة..). وهكذا يبدو من خلال المعلومات التي عرضها البكري أن المدينة من الناحية الداخلية مستكملة لكثير من الشروط التي تطلب في المدن الكبرى كالحمامات والمساجد والمقابر والأسواق والأرباض. غير أن في ثانيا كلامه بإحباطات ببعض المشاكل التي كانت تعيشها المدينة وخاصة مشكل الماء. فالمفهوم من قوله (وحماماتها تجلب إليها الماء على الظهر من البحر..). يفيد أن الماء العذب بها قليل لذلك يستعان بماء البحر على أمور النظافة ولايستبعد أن تكون هناك حرفة نقال الماء من البحر الذي يحمل الماء إلى الحمامات وإلى البيوت ليست بها آبار أو مياه صالحة للشرب أو للعادة. وسنشير إلى هذه النقطة من خلال ما سنستخلصه من بقية المصادر، ثم هناك الإشارة إلى الربض الذي يوجد في جانبها الشرقي، وفي وجود الربض إشارة إلى اتساع المدينة أو إلى البحرة إليها. ذلك أن الأرباض توجد في الغالب خارج المدن ويسكنها الوافدون على المدينة ممن لم يتأقلموا بعد بجوها أو بعادتها، ويقاس كبر المدينة بعدد أرباضها. وقد ذكر البكري أن سبتة ربض به ثلاثة حمامات وفي ذلك تحديد لاتساع هذا الربض وكبره. أما المقبرات فأشار إشارة واضحة إلى إثنين هما مقبرة الجبل ومقبرة بحر الرملة. وذكر جبان صحن المسجد الجامع. ولاشك أن هذا الجبان كان خاصا بالأسر الموسرة أو التي لها حيثيات معينة داخل المدينة كما تناول في الزاوية الثالثة سكانها بنوع من الاختصار والتركيز (وأهلها عرب وبربر، مغربها تنسب إلى صدف وبربرها من ناحية أصيلة والبصرة...)، ولاشك أنه لم يشر هنا إلى نوع التعايش الذي كان قائما بين هذين



العنصرين المتساكنين، (كما لم يشر إلى تاريخ الساكنين،) بين الطوائف التي عاشت في سبته خلال الحقب السابقة لعصره لسبب من الأسباب.

وفي الزاوية الرابعة يشير إلى أنها (لم تزل دار علم) لكن دون أن يقدم تصورا عن حياتها العلمية أو رجال العلم بها أو مراكز هذا العلم، مع انه يترجم بها في فترة لم تخل فيها من حركة علمية كان القاضي عياض أحد أعمدتها (انظر شيوخ القاضي عياض مثلا في الغنية، وخاصة منهم شيوخته في سبته ص 100)

وفي الخامسة يعود إلى صورة المدينة فيشير إلى الجبل الذي يقوم في شرقها والذي يطل على الربض الذي ذكره آنفا، كما يشير إلى دار الامارة ومكانها (... في جوفي المدينة..). ثم يشير إلى أطوال المدينة وأسوارها ابتداء من السور الغربي إلى آخر الجزيرة خمسة أميال. والمدينة في الجانب الغربي منها. ولسورها الغربي تسعة ابراج والباب في البرج الأوسط. والسور القبلي على أجناف عالية، والشرقي والجوفي فيه تظامن. ولها باب ثان مما يلي الجوف في برج يعرف ببرج سابق يدخل منه إلى دار الامارة. وذرع المدينة من السور الغربي إلى الشرق ألفان وخمسمائة ذراع وطول الربض الشرقي سبعة آلاف ذراع. وهكذا فمن الممكن أخذ تصور عن المدينة وشكلها فهي على شكل شبه منجرف غير متوازن. لها بابان رئيسيان أحدهما غربي متوسط سبعة ابراج وثانيهما جنوبي عند برج يعرف ببرج سابق. ولم يشر إلى أبواب مراسليها التي تقع على البحر، والذي يحيط بها من ثلاث جهات تقريبا والتي لاشك أنها كانت موجودة.

في الزاوية السادسة هناك الإشارة إلى تاريخها، حيث يعرض للأول الذين سكنوها دون تحديد لجنسهم ويفهم من إشارته إلى الكنائس أن المدينة كانت مسيحية أو بها جالية مسيحية. كما يفهم من إشارته إلى الماء المجلوب إليها أنها كانت تعاني من خصائص مائي تحتاج إلى سده بالاستعانة بماء نهر أويات على ضفة البحر القبلي. ولعله نهر صغير كان ينزل في الجبال التي تقع جنوبها وكان قد أدخل إلى المدينة.

وفي السياق التاريخي يذكر صاحبها أوليان الذي أجاز طارق بن زياد وأصحابه إلى الأندلس وموقفه من عقبة الفهري وفتوحاته حيث آمنه عقبة بعد أن هاداه أوليان التحف والهدايا. ثم يذكر دخول العرب إليها صلحا — وهي إشارة هامة يفهم منها أنها كانت حصينة لم يستطع العرب الدخول إليها عنوة — ثم خرابها

بعد ذلك على يد بربر طنجة المصموديين، فبقيت خربة إلى أن عمرها رجل من غمارة يسمى ماحكن توارثها أبناؤه من بعده وأحفاده. وخلال ذلك دخلها بربر قلसानة الذين كانوا تابعين للحسينيين من آل إدريس إلى أن افتتحها الناصر سنة تسع عشرة وثلاث مائة.

ومن خلال هذا العرض التاريخي المختصر لقرنين كاملين من حياة المدينة في العصور الإسلامية، يفهم السبب في ضمور سمعتها ونشاطها على صعيد الأخبار التي كانت تصل إلى المشرق. كما يمكن أن نضع تاريخا للحياة العمرانية لمدينة سبتة إلى عصر المؤلف. فهناك أولا : مرحلة ما قبل الإسلام وكانت المدينة فيها مسيحية تسكنها قبائل يرأسها رجل من غمارة يسمى أوليان وكانت بالمدينة كنيسة وحمامات

وهناك ثانيا : مرحلة الفتوحات وماتلاها وخلالها عايش سكان المدينة العرب الطارئين عليهم

وهناك ثالثا : مرحلة الخراب : وتتضمن المرحلة التي هاجمت فيها قبائل مصمودة طنجة المدينة فخربتها

وهناك رابعا : مرحلة عودة الحياة والعمران إلى سبتة على يد ماجكن الغماري وأبنائه وبربر قلسانة المتشيعين لآل إدريس إلى أن دخلها الأمويون في بداية القرن الرابع

وهناك خامسا : مرحلة تبعيتها للأمويين والعامرين، حيث دخلها الأمويون على عهد عبد الرحمن الثالث فسوروها وحاول اخلافهم بعد ذلك توسيعها وخاصة المنصور بن أبي عامر الذي أراد أن يستغل جبل المينا (أو المنية) المطل على الرض الشرقي في السكن فسوره وجعل عليه أبراجا. ولكنه لم يتمم العمل لمعالجة الموت له ولكثرة تكلفة ذلك.

أما الإدريسي فقد اهتم في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ص 167 بمدينة سبتة على ثلاث واجهات واجهة تحديد الجغرافي، وواجهة شكلها وواجهة نشاطها الاقتصادي حيث أشار إلى أنها (على الخليج الرومي المعروف بالزقاق يحيط بها الماء من ثلاث جهات. وليس لها على البر غير طريق واحد لو شاء أهلها أن يقطعوه لقطعوه. وفي آخر المدينة بشر فيها جبل كبير يسمى جبل (المنية) فيه شعراء

كثيرة أراد المنصور بن أبي عامر أن يبني فيه مدينة ينتقل إليها أهل سبته فسورها ولكنه لم يتم العمل، يتم له المراد) وهذا الكلام يشتم منه نفس البكري ومعلوماته. فقد عرض أيضا قبله لكل هذا.

وفي الواجهة الثانية أشار إلى صورتها العامة فإذا هي (.. على سبعة أجيل صغار متصل بعضها ببعض.. معمورة طولها نحو الميل من الشرق إلى الغرب..) وهذه الصورة توضح لنا السبب فيما أشار إليه المؤرخون والجغرافيون من الالتحاح على مشكل الماء بها. إذ المدينة تقع على مرتفع من الأرض وهو مكان غير صالح لاستقرار المياه. أما الأطوال فإن البكري كان أكثر دقة منه وهو يحدد المسافات الفاصلة بين أنحائها. إذ اقتصر الإدريسي على طولها من المشرق إلى المغرب.

وفي الواجهة الثالثة أشار إلى النشاط الاقتصادي فقال (.. وبسبته مصايد للحوث ويصاد بها نحو من مائة نوع. كما يصاد بها التن، ويصاد بها شجر المرجان وبها سوق لتفصيله وحكه وثقبه وتنظيفه..) وهذه المعلومات تؤطر ولاشك للحركة التجارية الهامة في المدينة، وتنسجم مع إشارات المؤرخين والرحالة، وقد ذكر ابن الخطيب في معيار الاختيار (146) أنها (.. محشر أنواع الحيتان..) أي أن سوقها أنواعا مختلفة من الحوث المصطاد حتى يحق أن يسمى السوق محشرا لها. وفي كتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار» لمؤلف مجهول من القرن السادس أيضا نعث على أخبار ومعلومات عن سبته تتصل بشقين أحدهما منقول عن سابقه من المؤلفين وثانيهما يتصل بمعلومات معاصرة له، تتضمن زيادات هامة عن المعلومات المنقولة (الاستبصار : ص 137)

فبالنسبة للموقع هناك استفادة واضحة من معلومات البكري حيث يشير إلى أن (.. مدينة سبته.. على ضفة البحر، وهو بحر الزقاق، والبحر قد أحاط بها شرقا وجوفا وقبلة.. وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب... ولها بابان أحدهما محدث ولها من جهة البحر أبواب كثيرة...) وهذه المعلومات هي نفسها التي أشرنا إليها في معرض تعليقنا على الأخبار التي أوردها البكري، إلا ما كان من الحديث عن الأبواب البحرية الكثيرة التي تساءلنا عن وجودها قبل، والتي ذكرها صاحبنا هنا.

وأثناء حديثه عن الموقع هناك الإشارة المتصلة برغبة المنصور بن أبي عامر في تعمير جبل النيا الذي يقع بشرق المدينة، حيث بنى له سورا (فيه شقة مستطيلة



بأبراجها مبنية بالزيت عوضاً من الماء... فإن البناء بالزيت أصلب وأبقى على مرور الدهور والازمان...) وهذه الالتفاتة الخاصة بهذه الثقة لم يشر إليها سابقوه وعددها هو من العجائب والغرائب، لأن السور والشقة ملايزان — إلى عصر المؤلف — قائمين يمكن مشاهدتهما من بر الأندلس.

وبالنسبة لتاريخ المدينة فإن المعلومات التي أوردتها منقولة بالنص عن البكري مع إضافة شيء هام عن عصره وهو القناة المائية التي أمر الخليفة يعقوب المنصور الموحدي ببنائها سنة (580) جلب الماء إلى المدينة من قرية بليونش البعيدة عنها بنحو ستة أميال. وكانت القناة تحت الأرض، على شكل ماهو عليه الأمر بالنسبة لقرطاجنة الأندلسية، خشبية عليها من التلف أو من ضياع الماء، أو من تحكم الظروف الخارجية فيها. وقد ذكر المؤلف أن الأمر لم يتم إلى حدود سنة (587 هـ) سنة تأليف الكتاب. وقد استغل الحديث عن هذه القناة الآتية من بليونش ليتحدث عن بليونش نفسها ومياهها وجباها وسكانها وميناءها (مرسى موسى) ومرسى (باب اليم) الذي تقع عليه قرية تعرف بقصر مصمودة...

أما الحميري في كتابه (الروض المعطار في خبر الاقطار) (ص 303) فلم يزد شيئاً عما ذكر. سابقوه في المصادر السابقة الذكر المسالك والنزهة والاستبصار، وليس له من زيادة إلا ماأضافه من ثلاثة أبيات قالها بعض المتأخرين في حق المدينة وهو أبو الحسن علي بن سهل ابن مالك الغرناطي

لما حططت بسبته قتب النوى والقلب يرجو أن يحول حاله  
ابصرت من بلد الجزيرة مكنسا والبحر يمنع أن يصاد غزاله  
كالشكل في المرأة تبصره وقد قربت مسافته وعز مناله

والملاحظ أن الحميري لم ينظم معلوماته التي نقلها في روضه المعطار، ضمن نسق معين، بل اعتمد فقط على الجمع والتلفيق فتارة يتحدث عن الموقع وأخرى عن التاريخ وثالثة عن شكل المدينة ومواصفاتها ثم يعود إلى موقعها وكان أمامه مجموعة من المصادر يختار سطرين من هذا وثلاثة من ذلك وهكذا دواليك. وقد نبه المحقق إلى أصول البقول التي أخذ عنها (الروض المعطار : 303 (الهامش) وكل ماورد في نقوله عرضت له المصادر السابقة.

أما ياقوت الحموي في معجم البلدان (3/182) فسنجد فيه نمطا آخر من المعلومات. فهناك أولا الإشارة إلى اسم سبته وتأويله من الناحية العربية اللغوية



(... المرة الواحدة من الاسباب أي التزام اليهود بعريضة السبت...) ثم هناك ثانيا الإشارة إلى موقعها وأهميته (... وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على بحر الزقاق، الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة). وهناك الإشارة إلى تحصينها ثالثا وتشبيهها بالمهدية في تونس باعتبار موضعها الذي يمثل لسانا مجريا. وهناك رابعا : الإشارة إلى المسافة التي تفصلها عن فاس (عشرة أيام) ويقصد بذلك بعدها عن عاصمة الحكم آنذاك.

ثم هناك أخيرا الإشارة إلى اعلامها من الرجال أعيان العلم ويذكر منهم ابن مرانة السبتي الحيسوي والفرضي والفقير والهندسي، وتلميذه ابن العربي الفرضي الحاسب الذين يقولون إنه من أهل بلده. ويختم هذه الفقرة بما نقل عن المعتمد بن عباد.. (اشتهت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر : ابن غازي الخطيب، وابن عطاء الكاتب، وابن مرانة الفرضي...)

ويبدو أن الحموي لم يرد أن يستفيد من معلوماته الموسعة التي جمعها في معجم الأدباء والتي من الممكن أن يستخلص من أكثر من اسم وعلم من اعلام المدينة. **استخلاصات :** ومن خلال ماتقدم يمكن أن نقف عند نقط أربعة كبرى هامة يمكن استخلاصها من ماتراكم من معلومات داخل المعاجم الجغرافية القديمة حول المدينة ابتداء بالتاريخ السياسي ومرورا بالتطور العمراني والبشري وختما بالقضايا الحياتية الكبرى.

أ — فبالنسبة لتاريخها السياسي : فقد كانت المدينة في تاريخها لمرحلة ما قبل الاسلام، مدينة مسيحية يحكمها شخص اسمه أوليان، من قبائل غمارة، وهذه المعلومات تتصل بما تواتر من الأخبار التاريخية حول المغرب قبل الفتح وحول تبعية سبتة للملك القوطي والأسباب التي أدت إلى خروجها عن حكمه واستعانتها بالعرب الفاتحين على ولاة أمورها من الإسبان وهو ما ذكره ابن عبد الحكم في فتوح إفريقيا والمغرب وعرض له كتاب (أخبار مجموعة في فتح الأندلس) لمجهول المؤلف ونقله بعد ذلك ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب.

ثم دخلت هذه المدينة تحت الحكم الاسلامي على مراحل، فقد تركها عقبة لصاحبها أوليان بعد أن هداه الرجل وطيب خاطره. ثم فتحت صلحا بعد ذلك على يد أوليان نفسه الذي وقع مع العرب الصلح. وفتح الصلح غير فتح الاقتحام

إذ هو تراض بين الطرفين يضمن لأهل الذمة حقوقهم، ويمنع أن يلحق بالمدينة أذى معين.

— ثم تخرت بعد أن دخلها بربر طنجة على حد تعبير ابن عذارى في البيان المغرب (203/1) وبقيت مدة مسكنا للوحوش.

— ثم دخلها رجل من غمارة يسمى (ماجكن) فعمرها وأسلم ورأس فيها وانصاعت له البرابر المخجورة لها، وتوارث ملكه فيها أنباؤه وأحفاده من بعده، وهم الذين تعززوا بدخول بربر قلشانة المتشيعين لدولة إدريس الحسني.

— ثم دخلها الأندلسيون بعد ذلك تحت راية الدولة الأموية على عهد عبد الرحمان الناصر. واستمرت تبعيتها لهم خلال الدولة العامرية.

— ثم تسكت هذه المعاجم عن مآل المدينة بعد ذلك خلال عهد الفتنة القرطبية وخلال عصر الطوائف والمرابطين ولا تذكرها إلا في عصر الموحدين، وفي دولة المنصور الموحدي الذي أراد أن يكفيها خصاصها من الماء بأن يحمل إليها ماء قرية بليونش.

ب — وبالنسبة لتطورها العمراني المعاجم تشير إلى أنها على شكل شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات الشمال والشرق والقبلة. ولها سور به بابان، أحدهما قديم والآخر محدث، ولها على جهة البحر أكثر من باب، أي أن الاسوار كانت تحيط بها من جميع الجهات. وأنها كانت تملك تحصينات مهمة طبيعية وصناعية فا البحر أولا والابراج والحصون ثانيا. ولو شاء أهلها أن يقطعوا صلتهم باليابسة لفعلوا. وقد حاولوا ذلك كما ذكر البكري بأن حفروا، غلوة أو غلوتين ولكنهم عدلوا عن ذلك. وهي تقع على سبعة أجبل وهذا تحصين آخر إلى بقية التحصينات المذكورة سابقا. ويتوفر للمدينة مايتوفر للمدن الكبرى من المرافق العامة العمرانية فلها جامع كان ككنيسة من قبل يجري إليه الماء من خارج المدينة. وبها حمامات كثيرة ويكفي أن يكون في ربضها ثلاثة حمامات، رغم كونه ربضا لا أكثر ولا أقل. ولها مقبرتان إضافة إلى صحن المسجد الجامع ثم انه لها دار امارة تقع في جوفها. ولها سوق مخصص لانتاجها السمكي والمرجاني وقد أشار إلى ذلك الادريسي، ولم تشر المعاجم إلى دورها ونوع البناء ودرجة الفخامة أو البساطة.

ج — وبالنسبة لتطورها البشري. فقد أشارت المعاجم إلى سكانها الأول من خلال أميرهم أوليان الغماري أي أنهم كانوا من بربر غمارة. ولما فتحت المدينة ودخلها العرب تسكن العرب والبربر فيها. وتذكر المصادر التاريخية بعض هذه الطوائف الأولى من العرب التي سكنت سبتة وهم طالعة بلج بن بشر القشيري وعمه كلثوم بن عياض القشيري وذلك سنة 125 هـ) ولم تشر المعاجم إلى شيء من هذا بل ذكرت أن العرب الصديين هم الذين سكنوها. ويظهر أن هذا جاء في مرحلة متأخرة.

وبعد أن تعرضت سبتة لتخريب مصمودة طنجة عمرها مرة أخرى بربر غمارة على يد (ماجكس) وأبنائه وقبيلته تم بربر قلشانة. ويظهر أن الموجات البشرية التي كانت تسكنها كانت تتحكم في استقرارها فيها عوامل الاقتصاد والسياسة الطارئة. فالمنافسة حول مصادر المياه في المنطقة بين غمارة ومصمودة كان عاملا اقتصاديا يضاف إلى منافسة ميناءي طنجة وسبتة :

والصراع السياسي بين الشيعة والأمويين : كان عاملا سياسيا هاما خلال الثلاثة قرون الموالية لمرحلة الفتح الاسلامي.

(5) قضاياها الاقتصادية والحياتية : وبالنسبة لهذه النقطة فإن الماء عمود مشاكل المدينة بحسب ما يظهر من هذه المعاجم ونوع أخبارها. ذلك أن أول ما يذكر عن الحياة فيها أن الماء جلب لها من الخارج أو من عيون وآبار بها أو يجلب من البحر على الظهور أو جلب إليها من قرية بليونش وهذا اللاحاح ولاشك يحمل وراءه أكثر من معنى وأكثر من أزمة كانت المدينة تعيشها وتحاول أن تتصرف في وجوه التغلب عليها، وكانت نتيجة هذا التصرف تنتهي في الغالب إلى تدخل الجهات التي يعتمد على مائها، فتقوم المصادمات والحروب. وقد بالغت المعاجم في نعت المناطق المحيطة بالمدينة على طريق طنجة بالخصوبة وكثرة العيون والأنهار. وكأن المدينة مدينة سبتة كانت تعيش خصاضا يضاعف حسرته ما يتمتع به جوارها من نعيم. ولعل من نتائج هذا الخصاص أن أهل سبتة لم يقبلوا فكرة سكنى جبل (الميناء) الذي هياه المنصور بن أبي عامر وبنى بعض أسواره بالزيت ولعل البناء بالزيت يرمز في حد ذاته إلى كثرته بالنسبة للماء. !

وأخيرا فإن الاسواق التجارية التي تشتهر بها المدن الساحلية التي تقع على المعابر الاقتصادية والتجارية لا يكاد يكون لها وجود إلا ما كان من سوق السمك

والمرجان. واغفال أصحاب المعاجم هذا الجانب له أكثر من تفسير. فإما أن تجارة  
الأندلس كانت تمر من معايير أخرى غير معبر سبتة، وإما أن مرفأ سبتة لم يكن  
مرفأ آمناً، أو لم تكن طريقة آمنة. وإما أن أصحاب المعجمات لم يكن من شرط  
معلوماتهم التي يضمنونها كتبهم أن يتحدث عن ذلك.





## سبّة من خلال كتاب أعلام مالقة

ذ. عبد الله المرابط الترغي<sup>(١)</sup>

1 — تمثّل كتب التراجم مجمعا لمختلف المواد التي يقبل عليها الباحثون في العلوم الإنسانية، فيجد فيها التاريخي ما يرغب فيه من تواريخ الرجال ووقائع الأحداث وغيرها، ويجد فيها المهتم بالأدب أخبار الأدباء وآثارهم وأحوالهم وتواريخ الولادة والوفاة وغير ذلك، ويجد فيها الجغرافي الحديث عن الأماكن ووصفها والممالك وحدودها والطرق ومسالكها وغير ذلك و...

وتحتل كتب التواريخ البلدانية محلة طلائعية بين كتب التراجم، فهي وإن اقتصرت بتاريخ منطقة معينة وبرجالها، فإنها تتجاوز ذلك إلى الحديث عن مناطق أخرى قريبة (أو بعيدة)، ارنبطت مع المنطقة الأصل برابط معين، أما باشتراك أحداث وأما بانتقال رجال منها وإليها.

وقد نعرف على رجال دفعتهم ظروف الهجرة والتنقل إلى بلد بعيد، وذلك من خلال كتاب بلداني يختص بهذا البلد البعيد. ففي تواريخ البلد الأمين، وبغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة و<sup>(١)</sup> وغيرها يوجد كثير من المغاربة والأندلسيين

---

(١) كلية الآداب تطوان

(1) مثل كتاب العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، لنقي الدين الفاسي، وهو في رجال مكة والطارئين عليها. ومثل تاريخ بغداد للخطيب أبي بكر البغدادي، وذيله لابن النجار، والسمعاني، وابن الديبشي. ومثل تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر، ومثل النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، وحسن المحاضرة للجلال السيوطي، وكلاهما في مصر والقاهرة. ومثل الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب.

الذين استقروا ولو مؤقتاً بهذه الجواضر فاشتهر أمرهم بها وأصبحوا ضمن تواريخها. ونفس الشأن نجده في سلسلة الصلات الأندلسية<sup>(2)</sup> وقد أتت على ترجمة غير قليل من المشاركة الطارئین على الأندلس.

2 — ويهيم في هذا الصدد من الحديث عن التواريخ البلدانية كتاب أعلام مالقة<sup>(3)</sup>. وهو كتاب في أصله يأتي تكميماً واستدراكاً لكتاب أصبغ بن أبي العباس في رجال مالقة<sup>(4)</sup>.

وعملية الاستدراك عملية طبيعية مادام الوجود العلمي يتجاوز أزمنة المؤرخين والمقيدین والمؤلفين ليتوالد ويتناسل في بيئة الأجيال المقبلة، فيتم التعريف بالرجال في طبقات هذه الأجيال.

وقد عرف الاستدراك في المشرق والمغرب على السواء، غير أن الميزة الظاهرة في كتاب أعلام مالقة هو اشتراك مؤلفين في جمع مواده، وتنسيق تراجمه. فيبدأ الأول — وهو محمد بن عسكر —<sup>(5)</sup> العمل فيقطع فيه شوطاً بعيداً، ثم يخول الموت دون اتمامه، فيعمد قريبه ابن أخته محمد بن خميس الأنصاري<sup>(6)</sup> إلى إنهاء العمل بإضافة ما هو بحاجة إليه من الإضافات.

وقد جرت العادة في مثل هذه الأعمال أن تبقى حدود كل مشارك واضحة ومعينة في ذلك. فيظل الأصل قائماً بذاته، والمستدرك أو التتمة وحدة تأليفية

---

(2) هي كتب خاصة برجال الأندلس وغيرهم من الطارئین عليها. وتبتدىء بتاريخ علماء الأندلس لابن القرني. ثم ذيله المسمى بالصلة لابن بشكوال. ثم ذيول الصلة وهي : التكملة لابن الأبار، والذيل لابن عبد الملك، والذيل لابن فرتون، وصلة الصلة لابن الزبير، ثم ذيل هذه الأخيرة، وهو عائد الصلة لابن الخطيب.

(3) حول كتاب أعلام مالقة والتعريف به راجع : محمد الفاسي، ص : 125، مجلة المناهل، عدد : 13 والمرابط الترغي، ص : 52، دعوة الحق، عدد : 265

(4) تنظر ترجمة أصبغ بن أبي العباس في : التكملة 1/ 208 — والذيل 1/ 442 هامش 1. وكتابه في رجال مالقة يسمى : الاعلام بمحاسن الاعلام من أهل مالقة الكرام.

(5) توفي محمد ابن عسكر الغساني سنة 636. تنظر ترجمته في : الذيل 6/ 449 — أعلام مالقة : 182، والذيل 1/ 441 هامش : 3 والمراجع المذكورة

(6) لاتعرف لابن خميس ترجمة مفصلة، ولا تاريخ وفاة. يراجع ذكره في : أعلام مالقة في غير موضع حيث يذكر شيوخة ويعرف ببعض أحواله — محمد الفاسي، 125 مجلة المناهل، عدد : 13 — المرابط الترغي : 52، دعوة الحق، عدد : 265.

مستقلة. وهذا أكثر ما تراءى في السلسلات التي وقع فيها الاستدراك والاكمل كتواريخ بغداد مثلاً، وكتب الوفيات العامة،<sup>(7)</sup> وسلسلة الصلوات الأندلسية.

إلا أن عمل الرحلين في أعلام مالقة حسب ما بين أيدينا من نصوصه قد تداخل، بحيث يصعب في أكثر الأحيان تحديد منشئ الترجمة بكاملها أو فقرة من فقراتها. فهو عمل من صنع رحلين، ويشبه في ذلك عمل بني سعيد — الأسرة — في كتاب المغرب في حلى المغرب<sup>(8)</sup>.

3 — ورغم أن الكتاب يتعلّق بمالقة وأخبار أهلها والتعريف برجالها، فإنّه لم يخل من ذكر بعض البلاد الأخرى وعرض أخبار رجالها، ولاسيما البلاد القرية من مالقة كسبتة في عدوة المغرب. وتبرز سبتة وعلى أكثر من واجهة بين مواد كتاب أعلام مالقة، فهي تبرز ضمن واجهة تراجم الرجال المعروف بهم سواء أكانوا سبتيين أم من بلاد غيرها. وتبرز على واجهة المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في جمع مواد كتابه. وأخيراً تبرز ويشكل لفت للنظر ضمن النصوص الأدبية التي تخص سبتة أو ترتبط بأي صنف من أصناف العلاقة التي تجمع بين الأدباء في كل من سبتة ومالقة.

### واجهة الترجمة :

وهي أول الواجهات التي يتم فيها ذكر سبتة. والمقصود بالترجمة هنا هو ما يتعلّق بأخبار الرجال ممن لهم علاقة ما بسبتة، فيجري ذكرها بسببهم أو ضمن الحديث عن أخبارهم. وإذا كان عدد التراجم في القطعة الموجودة بين أيدينا من أعلام مالقة يقارب خمسا وستين ومائة ترجمة، فإن مجموع التراجم التي يثار معها ذكر سبتة لايتعدى عشرين ترجمة.

ويمكننا أن نصنف هذه التراجم في النسق التالي :

### 1 — تراجم سبتية :

وهي تخص رجال سبتة الأصليين ممن كان لهم نزول بمالقة أو استقرار بها.

(7) من كتب الوفيات العامة : كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وذيله فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي، وما أعقبه من كتاب : الوافي بالوفيات للصقدي، والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي

(8) راجع مقدمة المحقق الدكتور شوقي صيف لكتاب المغرب في حلى المغرب



في مقدمة هؤلاء أبو الفضل عياض الحفيد<sup>(9)</sup>، وقد استقر آخر حياته بمالقة وبها كانت وفاته سنة ثلاثين وستائة<sup>(10)</sup>. وأبو الخطاب ابن دحية الكلبي<sup>(11)</sup> صاحب كتاب المطرب، وقد جعله المؤلف من أعلام مالقة. والرجل من أهل سبتة كما في ذيل ابن عبد الملك<sup>(12)</sup>.

ومن هذه التراجم السبتية ما يتعلق بالشرفاء الحموديين، وقد أتى ذكر علي بن حمود<sup>(13)</sup>، وولده يحيى بن علي بن حمود الخليفة المعتلي<sup>(14)</sup> وهي تراجم كان لسرد الوقائع والأحداث فيها أكثر من الحديث عن الرجلين والتعريف بهما.

ومن هؤلاء الوزير عبد الله السطيعي السبتي مدبر<sup>(15)</sup> خلافة الحموديين، وقد قتل بمالقة. وقد نقل المؤلف ثناء الناس عليه، وحسن تدبيره، زيادة على ما كان يتصف بها من علم. وقد أورد شعرا لابن الخناط الكفيف شاعر الحموديين في مدحه<sup>(16)</sup>.

ومن جملة تراجم هذا القسم ترجمة المقرئ الأديب أبي الحسن الحصري<sup>(17)</sup>

---

(9) أعلام مالقة : 178 — وتنظر ترجمته في الذيل (قسم الغرباء) 8 / 244، والمراجع المذكورة بالهامش

(10) راجع الذيل 8 / 245

(11) توفي بالقاهرة سنة 633. أعلام مالقة : 173 — تنظر ترجمته في : الذيل 8 / 215 — وفيات الأعيان 3 / 448 — فهارس علماء المغرب 3 / 678 والمراجع المذكورة بالهامش.

(12) المعروف أن ابن عبد الملك قد ترجم للرجل بين غرباء الذيل، وكذلك فعل ابن الزبير صاحب صلة الصلة (راجع الذيل 8 / 550). ويعني هذا ترجيح نسبة الرجل إلى عدوة المغرب. وعلى هذا ينظر تناقض ابن عبد الملك وقد ختم ترجمة الرجل بتعيين محل الولادة ببلنسية (راجع الذيل 8 / 220).

(13) أعلام مالقة : 155

(14) أعلام مالقة : 199

(15) أعلام مالقة : 122 وقد كان وزيرا للمستعين حسن بن حمود. وقد فتك به وبالفتي نجا أنصار إدريس ابن حمود، وذلك بعد وفاة الخليفة المستعين.

(16) هو محمد بن سليمان الشاعر الكفيف يعرف بابن الخناط. تنظر ترجمته في : الذيل 6 / 221 — الذخيرة لابن بسام 1 / 437 والمراجع المذكورة بالهامش.

(17) توفي الحصري بطنجة سنة 488. تنظر ترجمته في الذخيرة 7 / 245 والمراجع المذكورة بالهامش.

دفين طنجة، وقد اعتبره المؤلف من أهل سبتة، ولعل ذلك لإقامته بها مدة طويلة. والمعروف عن الرجل أنه كان كثير التنقل بين المغرب والأندلس، وإن كانت إقامته أكثر بطنجة.

## 2 - تراجم أندلسية عامة :

وتخص الأندلسيين الذين كانت لهم إقامة بسبتة ولو بشكل مؤقت. وتتصدر تراجم هؤلاء ترجمة الحافظ ابن عبيد الله الحجري<sup>(18)</sup>، مفخرة سبتة. فقد كان له نزول بمالقة قبل أن يستقر به القرار الأخير بسبتة. وقد ضمن بذلك ترجمة بين أعلام مالقة.

وضمن هذا الصنف نجد ترجمة الرحالة أبي الحسين ابن جبير<sup>(19)</sup>، ورغم أن أكثر إقامة الرجل كان بسبتة قبل رحيله إلى المشرق، فإن المؤلف قد تعرض أساسا لذكر أخبار ابن جبير وأشعاره حينما كان في كتابة السادة الموحدين بالأندلس، وبالأخص مالقة. وبذلك ضمن ابن جبير لنفسه ذكرا بين رجال مالقة. وامتازت ترجمة ابن جبير في كتاب أعلام مالقة لكونها تكشف عن نشاط صاحبها في مرحلة لم تتكلف بعض المصادر الأخرى بالإشارة إليها فأحرى بتفصيلها.

وضمن هؤلاء تبرز طائفة من المالكين كان ارتباطهم بسبتة يقوم على مشيختها والأخذ على علمائها. والمعروف أن سبتة منذ القاضي عياض أصبحت حاضرة العلم التي تتم رحلة المغاربة والأندلسيين إليها للجلوس إلى شيوخها. ويندر أن تجد بين رجال العهد الموحد من لم يذكر بين شيوخه : ابن عبيد الله الحجري، وأبو بكر بن رزق نزيلا سبتة<sup>(20)</sup>.

ويمكن أن نتخذ نماذج لهذا الصنف، ترجمتي الحافظين، أبي علي الرندي<sup>(21)</sup>، وأبي محمد القرطبي<sup>(22)</sup>

(18) أعلام مالقة : 112. ينظر عن نشاطه العلمي : برنامج الرعيني : 44 — إفادة النصيح : 78 — فهارس علماء المغرب 1 / 9

(19) أعلام مالقة : 51

(20) نزلا سبتة بعد سقوط ألمرية في يد النصاري. توفي ابن رزق بسبتة سنة 560. تنظر ترجمته في صلة الصلة رقم 357 — اختصار الأخبار للأنصاري : 16 والهامش رقم : 9 — وفهارس علماء المغرب 1 / 8

(21) أعلام مالقة : 175 — والذيل 5 / 450 والمراجع المذكورة بالهامش

(22) أعلام مالقة : 115 — والذيل 4 / 191 والمراجع المذكورة بالهامش — صلة الصلة رقم

وقد كان لهما اتصال بسبته وأخذ على مشيختها. وكان للأول منهما استقرار طويل بسبته طالبا وشيخا ومدرسا.

وضمن هذه التراجم أيضا يبرز ذكر بعض الأندلسيين ممن تولوا قضاء سبته كما في ترجمة عبد الله ابن سليمان ابن حوط الله المالقي<sup>(23)</sup>.

### 3 — تراجم مالقية خاصة :

وهي مجموعة تراجم ورد أثناءها شعر ونثر يخص أهل سبته، ولا علاقة لأصحابها بالاقامة بسبته أو الأخذ على مشيختها. ولا شيء فيها غير ما صدر عن أصحابها من مدح وثناء على أهل سبته وطلبها. وسيرد الحديث مفصلا عن هذه التراجم والمواد الأدبية المذكورة بها خلال الحديث عن واجهة النص الأدبي.

### واجهة المصادر :

وضمن واجهة المصادر تبرز كمية وافرة من المصادر التي اعتمد عليها صاحبها أعلام مالقة في جمع مواد كتابهما.

\* فمنها المواد التي استقاها المؤلفان من شيوخهما مباشرة، يتقدمها لفظ حدثنا أو أنشدنا أو نقلت من خط فلان،<sup>(24)</sup> وغير ذلك من الأساليب التي تجعل المصدر المأخوذ منه هو الشيخ. وقد أكثر ابن عسكر من النقل عن شيخه أديب مالقة أبي عمر بن سالم، فيما<sup>(25)</sup> يخص الجانب الأدبي في تراجم رجال القرن السادس المالقيين. كما أكثر ابن خميس من النقل عن خاله ابن عسكر في تراجم طبقة هذا الأخير<sup>(26)</sup>، ولاسيما في تلك المراجعات الشعرية والمكاتبات الأدبية التي تبادلها ابن عسكر مع معاصريه من أدباء مالقة أو المستقرين بها<sup>(27)</sup>.

\* منها المصادر الأدبية، وهي التي استقى منها المؤلفان أخبار الأدباء وآثارهم من شعر ونثر، والتي تكشف عن الوجه الأدبي لرجال مالقة. وتعدد هذه المصادر، ويبرز بينها بشكل واضح كتاب أدباء مالقة لأصبع بن أبي العباس، وقد استنفدا

(23) أعلام مالقة : 116 — صلة الصلة رقم 216 — الاحاطة 3 / 416

(24) راجع أعلام مالقة : 36. 62. 63. 66. 73. 102. 117. 118. 175. 179. 191...

(25) توفي سنة 620. تنظر ترجمته في : أعلام مالقة : 183 / برنامج الرعييني 105 / الذيل 4 / 2

(26) راجع أعلام مالقة : 33. 123. 175. 179. 195...

(27) أعلام مالقة : 65 — 78 — 184



النقل منه<sup>(28)</sup>. والكتاب قد صاغه مؤلفه ابن أبي العباس صياغة أدبية عرض فيه بالأسلوب المسجوع تراجم أدباء مالقة وآثارهم على طريقة الفتح في القلائد.

ومن بين المصادر الأدبية يبرز كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان، وطبقات الشعراء لابن الفرضي وزاد المسافر لصفوان<sup>(29)</sup>، وكتاب البنالي المالقي وقد أثبت فيه أشعار الطلبة بمالقة وحلاهم فيه، أسماء : طلائع الزهرة الندية في سقوط زهرة الثنية<sup>(30)</sup>. كما رجع إلى بعض مقامات أهل مالقة ورسائلهم التي تجري على طريقة المقامات وإن اختصت بذكر الرجال كالمقامة المحسنية لأبي عبد الله الجوني، ورسالة أبي علي الرندي في رجال مالقة إلى أهل سبتة، وغيرها<sup>(31)</sup>. من المصادر الأخرى.

• ومنها المصادر التاريخية وتواريخ الرجال والفهارس، وهي أكثر المصادر ذكرا في كتاب أعلام مالقة، ويبرز بينها تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وصلة ابن بشكوال، وتواريخ ابن حيان، وابن أبي الفياض، وابن الصيرفي، والمظفرى، وغيرها<sup>(32)</sup>.

— وتمثل المصادر المتعلقة بسبتة فيما يلي :

أ — غنية القاضي عياض<sup>(33)</sup> : وهي فهرسة شيوخه، وقد أتى فيها القاضي عياض على ترجمة شيوخه من المغاربة والأندلسيين وغيرهم ممن كتبهم من أهل المشرق. وضمن شيوخه الأندلسيين بعض المالقين.

وقد رجع إلى هذه الفهرسة صاحب أعلام مالقة لنقل بعض مواد التراجم بهم

---

(28) أعلام مالقة : 93 / 94 / 107 / 127 / 135 / 145 / ...

(29) أعلام مالقة : 9 للقلائد، و 145 لطبقات الشعراء لأن الفرضي، والنقل منها يخص ترجمة الشاعر عبادة بن ماء السماء / و 168 لزيد المسافر.

(30) أعلام مالقة : 75

(31) أعلام مالقة : 148 للمقامة المحسنية، وسيرد الحديث مفصلا عن رسالة أبي علي الرندي.

(32) راجع النقل من هذه التواريخ بالتتابع في أعلام مالقة : (8 / 98 للصلة) و (189 / 197 / 199 لتاريخ ابن حيان) و (175 / 198 لتاريخ ابن أبي الفياض) و (153 لتاريخ ابن الصيرفي) و (198 لتاريخ المظفر بن الأفضس)

(33) نشرت غنية عياض مرتين : الأولى بتحقيق الدكتور عبد الكريم محمد، وصدرت عن الدار العربية للكتاب سنة 1978 — والثانية بتحقيق : ماهر جرار، وصدرت عن دار الغرب الإسلامي



من المالكين. وفي القطعة المتوفرة بين أيدينا من كتاب أعلام مالقة يتم ذكر غنية القاضي عياض مرة واحدة، وذلك في ترجمة محمد بن سليمان النفزي يعرف بابن أخت غانم<sup>(34)</sup>.

ب — تاريخ ابن حمادة السبتي : والأغلب أنه يقصد كتاب (المقتبس)<sup>(35)</sup>. وهو حسب التسمية المتداول بها يعتبر من كتب التواريخ التي اختصت بالمغرب والأندلس. يزكي ذلك القول التي ترد عنه في مختلف المصادر التاريخية. عاد صاحب كتاب أعلام مالقة إلى تاريخ ابن حمادة السبتي للنقل منه في تراجم الرجال التاريخيين وسرد وقائع أحداثهم. من ذلك :

« في ترجمة عبد الجبار بن المعتمد بن عباد، وذكر قيامه بخصن (مونت مايور)، ثم ذكر خبر مقتله أمام الجيوش المرابطية بقيادة سير بن أبي بكر بأركش<sup>(36)</sup>. وخلال هذه الترجمة يجري ذكر الجارية (رمكة) أم عبد الجبار هذا، وقد نقلت بعد مقتله إلى طليطلة. ولعلها قريبة المعتمد المسماة زائدة التي راجت قصة تنصرها وزواجها بالملك الفونسو حسب التواريخ الأندلسية المسيحية<sup>(37)</sup>.

« في ترجمة المعتضد بن عباد<sup>(38)</sup>

» في ترجمة هشام الدعي، وهو الذي تعمد القاضي أبو القاسم ابن عباد اظهاره في اشبيلية على أساس أنه هو هشام المؤيد الخليفة الأموي. وقد اعتمد المؤرخون

---

(34) أعلام مالقة : 8. و ترجمة ابن أخت غانم واردة في الغنية : 127، ط. الدار العربية للكتاب

(35) المعروف عن ابن حمادة البرنسي السبتي أن له مؤلفات تاريخية، منها : المقتبس في أخبار المغرب والأندلس. وكتاب في تاريخ أهل سبتة (ذكره في مختصرة لكتاب المدارك / راجع المدارك 8 / 189). ومختصر كتاب المدارك لعياض. ومنه نسخة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 672 وقد نشر منها أستاذنا السعيد أعراب قطعة ضمن الجزء الثامن من كتاب المدارك.

راجع عن ابن حمادة : السعيد أعراب، دعوة الحق ص : 28 / عدد 3 / سنة 23 — ونفس المجلة ص : 18 عدد رقم 228.

(36) أعلام مالقة : 134

(37) راجع تاريخ الأندلس لأشباح : 56 / 96، وتعليق المترجم بالهامش — وليفي بروفنسال : مجلة هيسبيريس 1934، مقال : المغربية زائدة زوجة ألفونس

(38) أعلام مالقة : 144

على تصحيح ما قاله ابن حمادة السبتي في شأن هشام هذا بأنه هشام الدعي، وليس هشاما المؤيد<sup>(39)</sup>

• في ترجمة المعتلي يحيى بن علي بن حمود<sup>(40)</sup>

ج — رسالة أبي الطاهر السبتي في موثقي زمانه، وهي رسالة بناها صاحبها على طريقة الفتح في القلائد، والتزم فيها السجع ومختلف عناصر الصنعة البديعية. وقد خصصها للتعريف برجال التوثيق على عهده بمالقة. وقد أكثر من النقل عليها صاحب أعلام مالقة<sup>(41)</sup>

ولا يبدو ارتباط هذا المصدر بسبته الا في تسمية مؤلفه بالسبتي، والا فالكتاب في رجال مالقة من صنف الموثقين بها.

وحتى المؤلف نفسه يعتبر أندلسيا. فهو أحمد بن علي بن عبد الله الهواري، أبو الطاهر السبتي، من أهل مالقة. وقد ترجم له أصحاب الصلات الأندلسية ضمن البلدين<sup>(42)</sup>. غير أن نسبته إلى سبته، واشتباره بهذه النسبة هو الذي أثار ذكره هنا.

د — رسالة أبي علي الرندي<sup>(43)</sup> إلى أهل سبته، وهي رسالة بناها مؤلفها على أسلوب المقامات، فخصص كل فقرة، منها للتعريف بأحد رجال مالقة من العلماء والأدباء. وقد ساهم بها صاحبها في المراسلات التي تبادلها طلبة الحاضرتين سبته ومالقة للتنويه ببعضهما البعض<sup>(44)</sup>. وقد نقل منها صاحب أعلام مالقة، وفي كثير من تراجم لكتاب<sup>(45)</sup>.

(39) أعلام مالقة : 198

(40) أعلام مالقة 199

(41) راجع النقل عنه في أعلام مالقة : 70 / 123 / 130 / 171 / 177 وفي غيرها.

(42) ترجم له في الذيل 1 / 307. وهو من شيوخ مؤلف أعلام مالقة ابن عسكر. توفي وهو يتولى قضاء وادي آش سنة 612. وقد اشتهرت ترجمته في كتاب الذيل بكثرة إحالات المؤلف ابن عبد الملك عليها، إذ انفردت بلائحة شيوخ المشرق الذين ضمت أسماءهم إفاة أبي عبد الله ابن حريرة الملقى.

(43) توفي سنة 616. راجع مظان ترجمته في التعليق أعلاه رقم (22)

(44) سيرد الحديث مفصلا عن هذه الرسالة وصاحبها وطريقة كتابته لها ضمن الحديث عن واجهة النص الأدبي.

(45) راجع أعلام مالقة : 31 / 32 / 35 / 36 / 37 / ...

## واجهته النص الأدبي :

وضمن واجهة النص الأدبي يبرز فيما بقي بين أيدينا من كتاب أعلام مالقة مجموعة نصوص أدبية تتعلق بسبته، منها قصيدتان، وبقيّة من رسالة نثرية. وهي لأدباء أندلسيين. غير أن أوجه الخطاب فيها ينصرف إلى أدباء سبته وعلمائها. والملاحظ أن هذه النصوص الثلاثة ترتبط بخاتمة واحدة جرت وقائعها بسبته، وشارك فيها طلبة سبته وشيوخها. ورغم أن الحادثة في حد ذاتها عادية، وليس فيها ما يمكن أن يستغرب، فإن ما أسفرت عنه وقائع هذه الحادثة، وما خلفته من مواقف وآثار، وما نتج عنها من تواصل بين طلبة مالقة وزملائهم من طلبة سبته، يعتبر شيئا مثيرا. ويمكن أن نصنف وقائع هذه الحادثة ونتائجها على أنها حالة فريدة تحدث بين مدينتين من برين مختلفين، إذ يقوم فيهما ما يشبه اليوم مما نشاهده في المواسم العلمية والندوات الثقافية، أو مما يجري في التوأمة بين المدن، «وسببها أن طالبا من طلبة مالقة يعرف بأبي الحسن النجار<sup>(46)</sup>، كان يقرأ على الأستاذ أبي زيد<sup>(47)</sup> رحمه الله، سافر إلى سبته، فسجن بها على تهمة سرقة، فتوسل للطلبة بها، فسعوا في أمره واستخرجوه من سجنه، فكان بين طلبة مالقة وطلبة سبته على ذلك مراسلات نبية»<sup>(48)</sup>.

بل إن ذلك تجاوز المراسلات الودية، فتقام بالمناسبة الاحتفالات والتجمعات تلقى فيها الخطب، وتنشد بالمناسبة القصائد الشعرية. فكان ممن خطب في تجمعات طلبة مالقة الأديب الشاعر ابن الحناط المروي<sup>(49)</sup>، وإلى ذلك أشار الشاعر ابن نجيب الهاشمي في قصيدته بالمناسبة<sup>(50)</sup>.

وقام ابن حناط خطيبا بذكركم فقم على كل الربا والمناب  
ونأسف لغياب أكثر مواد هذا الملف، ولا سيما ما يتعلق بمراسلات أهل سبته

(46) توفي سنة 621. له ترجمة قصيرة في الدليل 5 / 306

(47) هو أبو زيد السهيلي دفين مراكش. توفي سنة 581. تنظر ترجمته في الاعلام للمراكشي 8 / 60 والمراجع المذكورة بالهامش.

(48) أعلام مالقة : 43

(49) من أدباء مالقة. له رحلة إلى المشرق حيث توفي هناك. ترجمته في أعلام مالقة : 37. وهو غير ابن الحناط الكفيف،

(50) أعلام مالقة : 49. وسيرد الحديث مفصلا عن ابن نجيب الهاشمي وقصيدته بعد قليل



وأجوبتهم وخطبهم وأشعارهم، إذ لاشك أن بعض المصادر الضائعة قد سجلت من كلام أهل سبته وخطبهم ورسائلهم على شاكلة ما احتفظ به أعلام مالقة فيما يخص أهلها.

ويمكن أن نضع هذه الأعمال الثلاثة ضمن أدب نطلق عليه أدب المحابة والمؤاخاة، وهو عنوان لأدب جديد يكون في مقابل ما يعرف من أدب المنافرات والمفاخرات بين الأندلس والمغرب، ذلك الأدب الذي أفرزه ميراث العصبية العربية بالأندلس، وأصله بالاحساس بالتفوق عند متحضرة الأندلس ولا يختلف النهج الذي يركب به هذا الأدب أو ذلك، والمواد التي تستجلب إليه، إلا في الغاية والمهدف، فيكون عنواننا في التباهي والتفاخر هنا، وتكون هي نفسها — أي هذه المواد — أو قريبة منها عنواننا للمحابة والتقارب هناك. هذه الأعمال الثلاثة هي :  
أولاً :

قصيدة طويلة لمحمد بن هاشم بن نجيب الهاشمي، وهو من أهل مالقة، وقد عرف به في أعلام مالقة ونبائها ومن ذوي السبق بين جلة أدبائها... وكان بارع الأدب متقدما في النظم

وقد تأثر هذا الشاعر المالقي كثيرا لموقف طلبة سبته وحسن معاملتهم لصديقه أبي الحسن النجار، فاستفرغ جهده في تجويد قصيدة للإشادة بأهل سبته وطلبتها. وقد لاقت القصيدة المذكورة الاستحسان الزائد حتى أن صاحب أعلام مالقة لم يخف غبطته بها وإعجابه بما أطلق فيها صاحبها من (عنان البلاغة، وقدح زند البراعة، فبلغ فيها مدى الاحسان، وحاز قصب السبق من ذلك الميدان<sup>(51)</sup> ولذلك أثبت نصها على طولها في كتابه، معللا ذلك لما تضمنته من البراعة والأدب)، أولها<sup>(52)</sup> :

لعلك ما بين العذيب ومارب      تمرُّ على غلياء تلك القرائب  
وتسري بذكر من أناس كأنما      نئم به البطحاء من كل جانب  
وتتوزع القصيدة إلى المحاور التالية :

(51) حول أدب المنافرات، راجع الدكتور بشريفة عن : 7 / مجلة كلية الآداب بالرباط عدد :

1 يناير 1977

(52) أعلام مالقة : 43. ويفرد هذا المصدر بترجمته.



## المحور الأول :

الإشادة بأهل سبته عموماً والثناء عليهم وذكر محاسنهم على ما جرت به العادة في المدح، بما في ذلك تمجيد النسب وتحديد أصوله العربية<sup>(53)</sup>

بَعَثْتُ بِهَا، أَهْلَ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى إِلَيْكُمْ، وَوَدَّيْ ثَابِتٌ غَيْرُ ذَاهِبٍ  
بَنِي الْعِزِّ مِنْ قَحْطَانٍ، أَبْنَاءُ عَامِرٍ إِذَا نُسِبُوا عَزَّتْ لُوَيْيُ بْنُ غَالِبٍ

فأصول أهل سبته — إذن — عربية، فيها من أبناء عامر المعافرين، وهم من عرب الجنوب، وفيها لوى بن غالب وهم من عرب الشمال، فهي أصول جمعت من فضل المضرية واليمنية. وأهل سبته زيادة على نسبهم قد جمعوا كل وصف حسن، ففاقوا غيرهم في الفضل والفخر وضم المعالي

إِذَا حُدِّ فَضْلٌ أَفْحَمُوا كُلَّ وَاصِفٍ وَإِنْ عُذِّ فَخِرَ أَعْجَزُوا كُلَّ حَاسِبٍ  
هَمَّ النَّفَرُ الْأَعْلَوْنَ وَالنَّاسُ دُونَهُمْ فَمَنْ مُنْجِبٌ أَضْحَى سَلِيلَ مُنَاجِبٍ  
أُولَئِكَ أَعْلَامُ الْمُعَالِي بِسَبْتِهِ عَلَى أَنْ كَلَّا مِنْهُمْ كَالْكَوَاكِبِ

## المحور الثاني :

ذكر طلبة سبته واحداً واحداً، والإشادة بمواقفهم أثناء حادثة أبي الحسن النجار المذكورة، والثناء عليهم، مع تحديد ما يمتاز به كل واحد منهم. وهو أهم قسم في هذه القصيدة، إذ لم يخل من فائدة تذكر مع بعض الأسماء التي يجريها الشاعر في قصيدته.

والملاحظ أن الشاعر وهو يصوغ حديثه عن هؤلاء الرجال يضيق عليهم النظم فيضطر إلى ذكر الرجل بكنيته أو يختصر في نسبه ولقبه، مما فوت علينا معرفة حقيقة بعض من أجرى ذكرهم في شعره.

وكما جرت العادة في أدب المنافرات حينما يتم انتقاء الأسماء والأعمال التي تمثل الجانب الذي يحصل الفخر بذكره والتباهي به، فإن في أدب المحاباة يتم أيضاً نفس العمل، وذلك بانتقاء الأسماء والأعمال. ولكن من الجانب الآخر ليتم التنويه به والإشادة بأعمال رجاله.

وتعطينا هذه القصيدة لائحة مطولة بالأسماء التي هي عنوان العلم والثقافة في

(53) أعلام مالقة : 44

سبته أواخر القرن السادس. فهي تذكر :

• الاخوين البسطيين أبا عبد الله وأبا العباس، والأول منهما يشهر بالكتابة: (54)

فَمَنْ كَأَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ وَصْنُوهُ      هُمَا قَمَرَاهَا فِي النُّجُومِ التَّوَائِبِ  
وَمِنْ قَبْلُ كَانَا نِيرْتِي أَرْضِ بَسْطِيَّةٍ      وَبَدَرْتِي سَمَاهَا بَيْنَ زُهْرِ الدَّوَائِبِ

ويبدو أنه كان خذين الاخوين البسطيين موقع متمكن في الوسط السبتي، بين شيوخ العلم وكتاب الواي آنذاك، مما يجعل تدخلهما في قضية ما يكتسي أمر الحسم. وقد نوه الشاعر بهما حين قدم ذكرهما في قصيدته، وبسعيهما في العمل على تلافي ما اتهم به الطالب المالقي أبو الحسن النجار

سَمَوْتَ أبا عَبْدِ الْإِلَهِ بِهَمَّةٍ      يَقْصِرُ عَنْهَا كُلُّ سَامٍ وَرَاغِبٍ  
تَعَالَتْ فِيمَا يَسْطِيعُهَا وَصْفُ خَاطِبٍ      وَلِأَنْظُمِ ذِي نَظْمٍ وَلِأَنْثَرِ كَاتِبٍ  
تَلَاقَيْتَ نِضْوًا نَارِجَ الدَّارِ إِذْ غَدَا      تَقَحُّمُهُ — لَوْلَاكَ — أَيْدِي التَّوَائِبِ  
أَخَذْتَ بِضَبْعِيهِ فَأَصْبَحَ حَفِيطَةً      وَتَدْفَعُ عَنْهُ كَيْدَ كُلِّ مُنَاصِبِ  
تَذَارَكُهُ مِنْ بَعْدِ مَا هَيْضَ هَيْضَةً      أَخَوْتُ عَلَى رَغَمِ الْعِدَاةِ الْأَكَاذِبِ (55)

• عياض الحفيد والمعروف (56) عنه أنه أقام بمالقة وتمول بها، غير أن ذكره في سياق هذه الحادثة والإشادة بموقفه يؤكد حضوره أثناء ذلك بسبته.

وكما حظي عياض هذا بترجمة بين أعلام مالقة، كذلك حظي أيضا باهتمام بالغ من طرف أدباء مالقة ولاسيما في سياق حادثة الطالب المالقي المذكور. فتوجه إليه الخطاب معيناً بين علماء سبته كما في النص الذي بين أيدينا (57)

سَوَى أَنْ نَعْمَى مِنْ عِيَاضٍ تَتَابَعَتْ      وَجَلَتْ فَمِ تُقَرَّنُ لَهَا يَدُ وَاهِبٍ  
تَوَارَثَهُ عَنْهُمْ وَأَحْرَزَ سَبْقَهُمْ      وَزَادَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَمِيدِ الْمَكَاسِبِ

(54) أعلام مالقة : 44. ولم أتمكن من معرفة الرجلين أو تحديد مظان ترجمتهما

(55) أعلام مالقة : 44

(56) أعلام مالقة : 45. توفي أبو الفضل عياض الحفيد سنة 630 بمالقة. تنظر مظان ترجمته في هامش رقم (10) المتقدم.

(57) أعلام مالقة : 45

إلى عزة قعساء لو رُميت بها      تُجوم الثريا لاستبيحت بخاصب  
وأفضل نعمي لايطير غرابها      حذارا، ولا فيها الغراب بناعب  
هم الصفوة العلياء والناس دونهم .....  
هداة عباد أو رُقاة منابر      (كُفاة) أعاد أو حُماة مناصب  
وغير كبير من أبي الفضل أن يرى      ملاذا لخروب ومأوى إلهارب

والملاحظ أن أسرة عياض قد أصبحت بأصالتها ومساهمتها العلمية والأدبية أكثر الأسر السبئية ظهورا، فلا يكاد يجري ذكر سبئية في لحظة من اللحظات دون أن يثار اسم هذه الأسرة أو يتم الحديث عن بعض أفرادها، وكأنما أصبحت هذه الأسرة عنوانا لوجود سبئية الثقافي. وقد رأينا في النص الذي نعرضه كيف تمثل

قوم عياض في سبئية، فهم الصفوة العلياء والناس بعدهم، وهم إما :  
هداة عباد أو رُقاة منابر (كُفاة) أعاد أو حُماة مناصب

وإن كان لأبي الفضل عياض الحفيد ذكر واسع بين أسرته، فلأنه كما يقول فيه العباس بن غالب مخاطبا أسرة عياض (58)

أحيا عياضا في ثراه أبوكم فمضى فأحيا الكل منك عظيم

\* العزفي : والمقصود به أبو العباس العزفي (59)، المحدث، وقد كان فتيا أثناء الحادثة المذكورة، ورغم ذلك فهو ذو صفات

ريضة به قبل اتصال الرواجب

ونفس أبث إلا السماحة والعلی      وكف أبث إلا يبذل المواهب

تفرد بالاحسان والحسن والعلی      جمیلا بحیاه کریم الضرائب

ويجری الحديث إلى ذكر والده القاضي أبي عبد الله العزفي اللخمي فيتحدث

عن الصدى الذي خلفه قضاؤه في مجتمع سبئية وغيرها (60)

أبوه الذي قد سدَّ يومَ قضائه      (من الحق) صدعا جلَّ عن كل شاغب

تواضع فازدادات مهابة عدله      على كل خصم مبطل الحق شاغب

(58) أعلام مالقة : 140 وسيرد الحديث عن العباس بن غالب وقصيدته هاته.

(59) توفي 633. تنظر ترجمته في : فهارس علماء المغرب 3 / 679 والمراجع المذكورة

(60) أعلام مالقة : 46

• بني الحداد : وهي أسرة اشتهر أفراد منها بتولي القضاء بسبته، وإلى ذلك أشار الشاعر في مدحه لأبنائها : (61)

وسن بنو الحداد في الحق سنة      بها آب عافهم حميد المشارب  
لقد حمدت فيهم سجايا محمد      وسار بعليا عمه كل راكب  
وحل أبوه في القضاء محل      تناط بحقوقها رقاب المطالب  
لهم هم كالشم تعي ببعضها      شارب كهلان وشم الاهاضب

• المنصفي : وقد أشار إليه في قوله : (62)

وان صفات المنصفي لمنصيف      لأعذب ذكرا من حديث المشايب  
وقار وآداب وحلم وعفة      ورقة طبع ليس عنها بآيب  
فأونة عيناه تدمع خشية      وأونة تبكي فراق الجائب  
وربما جرت ذكري صابرة      فباح بشكوى أو ضراعة ناحب  
ووصل حبيب أو صفات مدامة      وورى عن الشكوى بتأين صاحب

والمنصفي هو الشاعر الزاهد أبو الحجاج يوسف المنصفي، نزل سبته وأقام بها. (63) وخلال الوصف الذي قدمه به صاحب القصيدة يبدو مستوى الزهد الذي يمارسه الشاعر سواء في مستوى السلوك أو على مستوى التعبير الشعري حينما يغلبه الوجد فيبوح بالشكوى، أو بوصل الحبيب أو وصف المدامة. ولابأس أن يورى عن حقيقته المؤلمة بما يبدو ظاهرا في تأين صاحب أو بكاء عليه.

• المتيطي : وهو أحد الشعراء المشاهير ممن استقروا بسبته. ويبدو أن شهرة أشعاره السبئية قد أثارت انتباه المهتمين بالشعر في هذه الفترة، حتى أن صاحب القصيدة قد اتخذ منه مفخرة لسبته، وجعل من أشعاره لآلء على نحر الكواعب (64)

(61) أعلام مالقة : 46 — وأشهر أفراد هذه الأسرة هو القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن الحداد السبتي

(62) أعلام مالقة : 46

(63) تنظر ترجمة المنصفي دفين سبته في المغرب ط / 345 — اختصار الأخبار : 28. وأشعاره واردة في الرايات لابن سعيد 99 — والنفح 3 / 595 — وأزهار الرياض 1 / 35، 36 — والمقتضب من التحفة 117

(64) أعلام مالقة 47



وتأمت بمطيها أرض سبتة وبأمت به مابين بصري ومأرب  
فذاك الذي حاك القريض وصاغه لآلء جلت عن نخور الكواعب  
وقلد جيد المجد سلك مفاخر وحلى المعالي من حلي المناقب  
والمتيطي المذكور هو أبو جعفر أحمد بن محمد، وقد ذكر ابن سعيد عنه أن  
أباه قد التقى به في سبتة وسمع منه قصائد في مدح أمير سبتة يحيى بن  
إبراهيم<sup>(65)</sup>.

• الهوزني : وهو آخر من ذكره ابن نجيب الهاشمي في قصيدته. والهوزني<sup>(66)</sup>  
هذا هو يحيى بن محمد بن خلف، اشبيلي، نزل سبتة مدة قبل أن ينتقل إلى المشرق.  
واشتهر بالعلوم القرآنية، فدرسها وألف فيها. وقد أشار إلى اشتغاله بغريب القرآن  
ابن نجيب الهاشمي في قصيدته :<sup>(67)</sup>

وللهوزني في هوازن سورة تقر له بالفضل أعراض الحساب  
إلى علم برهان وأحكام شارق وهمة آثار وأحكام غارب

زيادة على هذه الأسماء العلمية والأدبية، خصص الشاعر ابن نجيب الهاشمي  
فقرات متعددة لأسماء علمية أخرى عرفتها سبتة في هذه الفترة، وكان لها وجود  
تصدر به واجهة العلم والأدب بها، غير أنني لم أتبين لها ترجمة واضحة، ولم  
أعرف عليها فيما بين يدي من كتب التراجم، وذلك أما لأن الشاعر قد اختصر  
في اسمها ولقبها، وأما لغياب المصدر الذي يمكن أن يكون قد ترجم لها. ويبقى  
نص ابن نجيب الهاشمي هذا مصدرا أساسيا يقدم لنا كثيرا من المعلومات المهمة  
حول هذه الأسماء منها :

• ابنا أبي يداس،<sup>(68)</sup> وقد تحدث عنهما بقوله :  
وفي ابني أبي يداس الرتب التي تفوت أماني كل سام وراغب

(65) المغرب لابن سعيد 2 / 362

(66) توفي 602. له ترجمة في تاريخ الاسلام للذهبي 18 / 118 نقلا عن التكملة — غاية  
النهاية 2 / 377

(67) أعلام مالقة 48

(68) أعلام مالقة 46. وفي الدليل 5 / 9 ترجمة من اسمه عبد الملك بن أبي يداس الصنهاجي  
(ت 560) فلعله قريب المذكورين.

فهذا شهاب في سماء نكاره وهذا حسام قر في كف ضارب  
وهذا امام من ماء مقوره وهذا همام من مشيخ مضارب

الشاعر ابن حميد<sup>(69)</sup>، وقد عناه بقوله :

ولابن حميد في القريض تقدم به بد قيساً وازدري بآبن غالب

ابن خلوف، وقد وصفه بقوله :<sup>(70)</sup>

ولولا ابن خلوف غدا ابن محمد تخيف القوى نهب الأكف النواهب  
هو البحر في علمه، هو النجم في على هو العلم المألوف سلس الجوانب

أبو نصر بن مسعود صاحب الموارث، وقد عناه بقوله :<sup>(71)</sup>

وحل أبو نصر ابن مسعود إذ سما إلى انجد في أعلى سنام وغارب  
لقد قلدت منه الموارث حافظاً إذا حل فيها كل راع وكاسب

ابن ابراهيم، وقد عناه بقوله :<sup>(72)</sup>

وما لابن إبراهيم في الفضل مثبه فله منه خير حل مصاحب  
محمد الدراج، ولعله من أسرة القاضي فيما بعد أبي عبد الله بن الدراج

السبتي، وقد عناه الشاعر في قصيدته بقوله :<sup>(73)</sup>

وان شمت عضبا من خلل محمد فحسبك والدراج غضب المضارب  
نفى النوم عنه واتقاها بعزيمة تريك.... عزم سعد بن ناسب

أبو الحسن علي بن فرجون، وهو الوحيد من بين هذه الجماعة الأخيرة ممن  
تيسرت لنا بعض المعلومات عنه. فقد عرف به في أعلام مالقة، وأورد ابن نجيب  
ذكره في القصيدة بقوله :<sup>(74)</sup>

ولله عليا من أبي الحسن إذ حوى علي فرجون ذي الخلال الأطايب  
وساد ذوي العلياء كهلا وإذ غدا وحيد المعالي يافعا غير شائب

(69) أعلام مالقة 46. ولا أعرفه.

(70) أعلام مالقة : 46 ولا أعرفه. وإن كان في سبته قديما من يعرف بابن خلوف

(71) أعلام مالقة : 47 ولا أعرفه.

(72) أعلام مالقة : 47 ولا أعرفه.

(73) أعلام مالقة : 47 ولا أعرفه.

(74) أعلام مالقة : 47

والمعروف عن هذا الرجل أنه استقر بفاس قبل أن يرحل إلى المشرق حيث كانت وفاته : 601. (75). ولا شك أن القصيدة تضيف جديدا حول هذا الرجل حينما تخاطبه كأحد طلبة سبته ممن شاركوا في القضية المذكورة. وتبقى مجموعة من الأسماء الأخرى مما اختصرنا ذكرها مثل الأزدي، وابن عباس، وابن غالب، وابن سرور وابن جبارة، وغيرهم كثير.

### المحور الثالث :

وينصرف فيه الشاعر إلى ذكر المساهمين من أهل مالقة في الثناء على أهل سبته فيشير أولا إلى من كنيته أبو بكر بقوله : (76)

ومن ذا يوفي في الثناء حقوقهم ويخصي الحصى والقطر أو رمل كائب  
ولكن أبو بكر ينوء بعبئها ويحتل منها في الذرى والكواثب  
ويبعثها عني من العلم والحجى حديقة فكر، صوبها غير ناصب  
ولا أعرف أبا بكر هذا، ولا العمل الذي قدمه في هذه الحادثة، ولعل صاحب  
أعلام مالقة قد عرض لذكر أبي بكر هذا وأورد النص المعني به في القسم الغائب  
عنا من الكتاب.

ويكون المساهم الثاني هو أبو علي عمر بن عبد المجيد الرندي، وقد عناه بقوله : (77)

وفي عمر ذي الفضل خلق سما به ....  
وقار رئيس في اهابة ناسك وظرف أديب في تبتل راهب  
تسامى به عبد المجيد فأحرزت يداه على في صعب تلك المراقب  
به فخرت قَدَمًا أَبَاطِحُ رُندةٍ وسامت به أعلام حزوى وعاقب  
وأبو علي الرندي هو أشهر طلبة مالقة في هذه الفترة، وقد باتت مساهمته عبارة

(75) له ترجمة في أعلام مالقة : 160 — وصلة الصلة : 118 — والذيل 5 / 375 — وتاريخ الإسلام للذهبي. 18 / 68

(76) أعلام مالقة : 48

(77) أعلام مالقة : 48. وتقدمت الاحالة على ترجمته في التعليق رقم 22.

عن مقامة أتى فيها على التعريف برجال مالقة، وبعثها إلى أهل سبتة. ومن حسن الحظ أنه ماتزال بعض نصوص هذه المقامة بين أيدينا مما احتفظ به صاحب أعلام مالقة في بعض تراجم كتبه. وسنتحدث بعد قليل عن هذه المقامة. أما المساهم الثالث فهو العباس بن غالب بحديثه (78)

ويتبعها العباس بعد حديثه بوجود بها من صوب تلك المشاهب والعباس وحديثه سيرد الحديث عنهما، وتعتبر حديثه الاثر الثاني الذي احتفظ به أعلام مالقة في المناسبة. على أن مساهمة العباس بن غالب كانت مضاعفة، فقد سبق له أن صنع شكلاً أدبياً فيه من المنثور والمنظوم جعله جواباً لأهل سبتة وشكراً على مواقفهم: (79)

ومن قبل لبي داعي مجدم بمنثور دُر لا كدُر الحقائق  
ومنظوم عقيان من اللفظ لم يكن جماناً ولم تظفر به يد جالب  
وآخر هؤلاء المساهمين ذكرنا هو الشاعر ابن الحناط، وقد قام خطيباً يثني على أهل سبتة: (80)

وقام ابن حناط خطيباً بذكركم فمن على كل الربا والمناقب  
ويختتم الشاعر ابن نجيب الهاشمي قصيدته بتجديد الثناء على أهل سبتة، وتهوين الخطب على أبي الحسن النجار، بعد إبعاد مألحق به من تهمة، وتركيبته باعتباره من أهل العلم والخير. ويشير أثناء ذلك إلى بعض الأحداث التاريخية الكبرى ليبين من خلالها بعض من تعرض لمثل محنة أبي الحسن النجار المالقي من الرجال المشاهير، حتى تكون له أسوة بهم تخفف عنه ما حدث له: (81)

---

(78) أعلام مالقة : 49. تنظر ترجمته في أعلام مالقة : 139 — الذيل 5 / 111

(79) أعلام مالقة : 49

(80) أعلام مالقة : 49. وقد تقدمت الاحالة على ترجمته في التعليق 50. ويجب أن ننتبه إلى

أن هناك ابن حناط آخر شاعراً، حيث خدم بشعره بلاط الحموديين بمالقة فهو أقدم طبقة من هذا

(81) أعلام مالقة : 49



أولئك خيرُ الناسِ قَدْماً قد ابتلوا بـ (مَكَارٍ) وَغَدَارٍ وَبَاغٍ وَصَالِبٍ  
وفي بعض هذا أسوةٌ وتَصَبُّرٌ وَزَجَرٌ لِمُغْتَابٍ وَرَدُّعٌ لثَالِبٍ  
ثانياً :

قصيدة أبي الفضل العباس بن غالب الحمداني (82) وقد أسماها ابن نجيب  
الهاشمي بالحديقة.

وأبو الفضل هذا ممن اشتهر في بيئته بالمشاركة الأدبية، فكانت له مكاتبات  
ومراجعات شعرية مع أقرانه من أدباء مالقة وغيرهم (83).

وقد أورد له في أعلام مالقة عند ترجمته القصيدة التي تعبها هنا، مقدما لها  
بقوله : «ومن شعره رحمه الله يخاطب أهل سبتة حرسهم الله في شأن القضية  
التي كتب فيها أبو عبد الله بن نجيب المتقدم الذكر فقال أبو الفضل في  
ذلك» : (84)

والملاحظ أن قصيدة أبي الفضل هذا أقل طولا بكثير من قصيدة ابن نجيب،  
وان كانت أكثر تمكنا منها في الشاعرية. ولم يتسع المجال فيها فيخص الشاعر كل  
واحد من طلبة سبتة بخظ من المدح والثناء كما فعل ابن نجيب قبله، وإنما :

أ — أتى على مدح أهل سبتة عامة مع التذكير بما قاموا به من عمل مشكور  
في حادثة الطالب المالقي أبي الحسن النجار، وقد استنقذوه من نوائب الدهر.

ولا يخرج المدح هنا على ماهو مألوف وعادٍ في النصوص المدحية من الاشادة  
بالقيم الخيرة التي يتصف بها أهل سبتة، فهم أصحاب المآثر الذين سلكوا سبيل  
الحجد، وقد كُرِّمت أحسابهم وتهذبت أخلاقهم : (85)

حَيِّ الكرام بني الكرام بسبتة واستصغِرِ التسليم وهو عَمِيمُ  
أولئك القوم الذين أحبهم باح القريضُ بما الفؤادُ كَثُومُ

(82) أعلام مالقة : 139 — له ترجمة وشعر في : أعلام مالقة : 139 — والذيل 5 / 111  
ومختارات شعرية لم تنشر.

(83) راجع بعض هذه المراجعات في أعلام مالقة : 142

(84)، (85) أعلام مالقة : 139

قوم يَبْرُونَ القصي على النوى      فإذا دَنَا فَأُخِّ لَهم وَحَمِيمُ  
 سلكوا سبيلَ انجد واضحةً كِ      وَضَحَ النهارُ، فمجدُهُم مَعْلُومُ  
 طابَتْ فروغُهُم بِضِيبِ محمَّد      ولدٌ كوالِهٍ أَعَزُّ كَرِيمُ  
 قد هذبوا أخلاقهم في مهدهم      ثم استراحوا، والحُلُومُ حُلُومُ

ومن أكبر صفاتهم البرور بخارهم وحمايتهم، وهي من الصفات الخيرة التي مجَّد  
 بصاحبها الشاعر القديم. وقد ركز شاعرنا على هذه الصفة باعتبارها الصفة التي  
 تلائم الحالة التي جرى فيها حدث أبي الحسن النجار: (86)

ان الغريب إذا أقام بأرضهم      فكأنه في الأقربين مقيم  
 حفظوا وصية ربهم في جارهم      فمحلّه التبجيل والتعظيم  
 يقضون حق الجار وهو يغنيهم      جهلاً، فكيف بمن لديه علوم  
 حملوا أبا حسن على.....      لعلومه، ورعى الكريم كريمُ

ب — توجيه المدح إلى شخص سبتي واحد، اختصر فيه الزعامة في المجتمع  
 السبتي، وكان هو عياض الحفيد :

يا أهل سَبْتَةَ أَنْتُمْ (أهل) العلى      سُدُّتُمْ وَسَادَكُم هُنَاكَ زَعِيمُ  
 وإذا عياضٌ كان رأسَ جَمَاعَةٍ      والمجدُ عم، والسَّناء صَمِيمُ  
 مَنْ ذَا يَشْقُ غُبَارَهُ فِي سُودَد      ان الذي يسعى له محروم

ويحاول الشاعر في مدحه أن يعين مصدر زعامة هذا الرجل، فمنه ما ورثه  
 عن جده وأسرته، ومنه ما أقامه بنفسه وابتناه، ولذلك كان له تميّز بين معاصريه،  
 وكان ممن يمكن أن يختزل فيه الحضور السبتي ككل :

ورث المعالي عن أبيه وابتنى      ومن المعالي حادث وقديم  
 حاشي لمجد قدمته جدوده      إلا البقاء، وغيره مهْدوم

ويستمر مدحه بهذا الشكل مؤكداً على احياء سيرة جده بأعماله وعلمه،  
 فأصبح شبيه جده في اسمه وجلاله :

أحيا عياضاً في ثراه أبوكم      فمضى، فأحى الكل منك عظيم  
 أشبهت جدك في اسمه وجلاله      فافخر فغيرك بالفخار...

ومن أطرف عناصر المدح في هذه القصيدة هو ذلك التضمين الذي شمل  
الآبيات الثلاثة الشهيرة في مدح القاضي عياض، وتوجيهها لتكون في خدمة  
المدح عياض الحفيد، وهي: (87)

ما ضر مدحك بما قد قاله في مدح غيرك شاعرٌ وحكيم  
«ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم والظلم بين العالمين قديم  
جعلوا مكان الرء عينا في اسمه كي يكتموه وانه معلوم  
لولاه ما فاحت أباطح سبته والروض حول فنائها معدوم»

والآبيات الثلاثة على شهرتها هي من إنشاء الشاعر أبي الحسن علي بن  
هارون<sup>(88)</sup>، وقد قالها في مدح من سماه: «أبو الحسن عياض بن عياض». وقد  
أوردها صاحب أعلام مالقة في ترجمة ابن هارون المذكور ضمن أشعاره المدحية  
في المدح المذكور. (89)

ولا أتحقق الآن — حسب علمي — كنية أبي الحسن للقاضي أبي الفضل  
عياض، وإن كان الشعر لشهرته في مدح القاضي عياض، وكان الشاعر ابن هارون  
ينتمي إلى طبقة القاضي عياض زمنا وعلمنا. فهو من معاصريه، وقد قامت شهرته  
على العلم والفقه أكثر مما قامت على الأدب كما يذكر أصبغ في كتابه أدباء  
مالقة<sup>(90)</sup>.

ولا عبرة بما ورد في أزهار الرياض من نسبة الآبيات المذكورة إلى أبي عمرو  
بن سالم المالقي، لأنه متأخر طبقة عن القاضي عياض، إذ كانت وفاته عام  
620. (91)

(87) أعلام مالقة : 140

(88) له ترجمة في أعلام مالقة : 162 — صلة الصلة 93 — الذيل 5 / 238 هامش مختارات  
شعرية لم تنشر : 245 — وله أشعار متفرقة في غير موضع من كتاب أعلام مالقة.

(89) أعلام مالقة : 163

(90) راجع أعلام مالقة : 163 وقد نقل من كتاب أصبغ في أدباء مالقة ما ترجم له ابن هارون  
المذكور.

(91) راجع أزهار الرياض : 5 / 81 — وتنتظر ترجمة ابن سالم المالقي في : أعلام مالقة 183  
— الذيل 4 / 2 والمراجع المذكورة بالهامش

### ثالثا :

رسالة أبي علي الرندي<sup>(92)</sup> في التعريف بطلبة مالقة وتحليلتهم. وهي رسالة في شكل مقامة أرسلها الرندي مساهمة منه في تلك المراسلات التي تبادلها طلبة مالقة وزملاؤهم من طلبة سبتة بمناسبة حادثة أبي الحسن النجار المتقدم الذكر.

وأبو علي الرندي هو أشهر أعلام مالقة في هذه الفترة، وقد قضى طويلا في سبتة فتعلم على شيوخها أولا، ثم تصدر للتدريس بها، فأقرأ العربية وغيرها قبل أن يستدعيه أهل مالقة ليقعد في حلقة شيخه أبي القاسم السهيلي خلفا له بعد رحيل هذا الأخير إلى مراكش<sup>(93)</sup>. وتتصادف حادثة أبي الحسن النجار أبا علي الرندي وهو بمالقة يتصدر طلبتها ويدير حلقة درسه بها.

ويتمثل عمل ابن عبد المجيد الرندي هذا في صنع رسالة بناها على التعريف برجال مالقة، فيخصص كل فقرة ليعرف بشيخ من أعلام المدينة المذكورة من فقهاءها ومحدثيها وأدبائها وغيرهم ممن لهم تأثير ما على النشاط الثقافي بالمدينة المالقية، وذلك في أسلوب مسجوع، راعى فيه كاتبه توفير مختلف المحسنات البديعية.

ولم يأت الرندي في رسالته هذه بجديد على المستوى المنهجي، فقد عرفت البيئة الأندلسية هذا الصنف من الكتابة. ويذكر لأبي بكر يحيى الأركشي مقامة أسماها : قسطاس البيان في مراتب الأعيان، خصصها لتراجم الأعيان بأسلوب تأنق فيه كعادة كتاب المقامات<sup>(94)</sup>. وتذكر أيضا لأبي الطاهر الاشرقي بعض مقامات تجري على هذا النسق. ولعل أهم نماذج هذه الكتابة ما نجده عند الفتح ابن خاقان الاشبيلي، وبالأخص في كتابه قلائد العقيان.

ورسالة الرندي هذه لم يصل إلينا نصها كاملا، وكل ما بين أيدينا منها هو

---

(92) توفي عام 616 — ينظر تفصيل ترجمته في : أعلام مالقة : 175 — برنامج الرعيني 86 — الذيل 5 / 450 — صلة الصلة 67 — الاحاطة 4 / 107 — والتعليق المتقدم 22

(93) الذيل 5 / 453

(94) راجع الذيل 5 / 228 وقد نقل منها ترجمة أبي الحسن ابن النعمة وتنظر ترجمة الأركشي في : المغرب 1 / 316 — صلة الصلة 184 — الفح 62/4



فقرات تخص مجموعة من المترجم لهم، اعتمد عليها صاحب أعلام مالقة كمصدر لجمع مادة بعض تراجم رجال كتابه. وباستعراض بعض نصوص هذه الرسالة / المقامة، تبين لنا الكيفية التي كتب بها أبو علي الرندي رسالته، والأسلوب الذي اتبعه في توضيح معالم رجاله.

فقد ورد النقل من رسالة الرندي في سبع تراجم، تم التنقيص عليها، وفي كل ترجمة تُجَلَّبُ فقرة قصيرة تخص أحوال المترجم بهم، فتتحدث عن أحوالهم العامة وتعيين العناصر التي يتميز بها هذا المترجم أو ذاك. فهي تراجم لا تخص صنفا واحدا من العلماء

1 — ففيها المحدث كما في ترجمة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري، الحافظ ابن الفخار،<sup>(95)</sup> «ووصفه شيخنا أبو علي رحمه الله في رسالته إلى أهل سبتة فقال : صقل أيام شببته وكهولته صوارم الاجتهاد، وشحذ مداه، حتى ظهر مفصل الحمل، وأدرك من العلم غايته وبلغ مداه، فقيّد بخطه من العلم شوارده، وثقفها حتى حمد الغادي والرائح مصادره وموارده، فرأس بعد ما درس، وأحيا بمعرفته ماذهب من العلم ودرس، وقد عوّل عليه في مشورته وفتاويه، فليس أحد من نظرائه يجاريه ولايساويه... في حفظ المتون والنصوص، فهو فذ على العموم والخصوص. وأما طرق الحديث ومعرفة رجاله، فليس أحد يتصرف فيها تصرفه ولايجول كمجاله، قد أتقن ذلك الباب أوحكم طرائقه، وتزوّى بمحاسن جمّة وآداب رائقة»<sup>(96)</sup>.

2 — وفيها الفقيه كما في ترجمة محمد بن عيسى بن زنون المالقي :<sup>(97)</sup> «وقد كان الأستاذ أبو علي ذكره إلى أهل سبتة في رسالته فقال فيه : ذكّي يُزري في ذكائه بإيأس، وفقية يُعدّ بما عنده من الفقهاء الأكياس، وهو ممن نال بدهائه ظهورا على أمثاله، ورياسة، واستقر عنده ما يُوصّله إلى مآربه وسياسة، تُنادي بالجد من...

(95) توفي عام 590. ترجمته في : أعلام مالقة : 32 — الذيل 6 / 87 — تذكرة الحفاظ :

1355 — التكملة 2 / 547 — الاعلام للمراكشي 4 / 125

(96) أعلام مالقة : 32

(97) توفي في حدود 580. ترجمته في أعلام مالقة : 30

عليه أمره وتهتف، لأنه يعلم من حيث تؤكل الكتف. رأس في صناعة التوثيق حتى نال من نفعه أو في نصيب، ووُزِدَ فَوَزِدَ العُذْب، ورتع [في] — مرتعها الخصب» (98).

### 3 — وفيها الأديب الشاعر كما في :

أ — ترجمة أبي عبد الله محمد البكري الحجاري، وقد ذكر عنه مانصه : (99) «وذكره الأستاذ رحمه الله في رسالته فقال : أديب كثرت معارفه وآدابه، وانسحبت في البراعة والبلاغة أهدابه، وما يزال يدأب عن طلب العلم ويستمر عليه، ويستند في كل حال إليه، ينظم الشعر نظماً مُتَسَقاً حسناً، ويوفي على مباريه فصاحة ولسناً. وله عناية بعلم العقائد وأصول الدين، فيها ينتجع وبها يدين» (100).

ب — ترجمة أبي بكر بن هاشم ابن أبي العباس المالقي، (101)، وقد ترجم له بقوله : «وذكره الأستاذ أبو علي في رسالته إلى أهل سبته، فقال : أديب بحلى الأدب تحلى، حتى سما قدراً ومحلاً، له أولية في الشرف (تعلم)، وقد ارتقى إلى المجد فما زلتُ به القدم، وشبَّ فتخلق بالاناة والحلم، ومال إلى أهل الصيانة والعلم، سربل ملابس العلوات سربالاً صافياً، وحام على منهل الأدب فورده صافياً» (102).

ج — و ترجمة الشاعر محمد بن الحناط المروي بما نصه (103) : «ووصفه الأستاذ رحمه الله في رسالته فقال : ينظم فلا يقصر عن مدى الاحسان بآع، وينثر فتلوح للعالمين بحرٌ كلامه بلاغته وانطبأه، وهو مع هذا لم يقرأ النحو ولا عَرَفَ الإعراب، لكن يتأتى له في مضممار الفصاحة مالا يتأتى لفصحاء الاعراب» (104).

### 4 — وفيها من العلماء المشاركين في مختلف الفنون والعلوم كما في :

(98) أعلام مالقة : 31

(99) ترجمته في أعلام مالقة : 36 — الذيل 6 / 327

(100) أعلام مالقة : 36

(101) (102) أعلام مالقة : 35

(103) (104) : أعلام مالقة : 37

أ — ترجمة محمد بن عبد السلام بن مطرف المالقي<sup>(105)</sup> حيث ذكر في ترجمته مايلي : «ذكره الأستاذ أيضا في رسالته فقال فيه : له مآثر ألبسته من السؤدد جلابابا، ومدت (به) إلى المرتقى الأعلى أسبابا، وآداب شَفَّ بها على أقرانه ونظرائه، وعظم بها في نفس أعدائه وسجرائه، ومعارف أنجب فيها من أنجب، وأوجب له من التعظيم والتخصيص والتقديم ما أوجب. وأما الفقه فإنه يتقلب في قواليبه، ويتصرف في متصرفاته ويجري على أساليبه<sup>(106)</sup>».

ب — و ترجمة أبي بكر انب الحرار المالقي<sup>(107)</sup> بما نصه : «وذكره الأستاذ أبو علي رحمه الله في رسالته فقال في بعض وأصافه : شاب نشأ في عبادة ربه فلم تعرف له صبوة، واستمر على الخير ولم يَكُفْ وإن كان لا بد للجواد من كبوة، حسنت سيرته، وصفت سريره، واستمرت على أقوم المناهج مريته، وجانب الطرق التي تُغويه وتُضله، وتلبس المرء ثياب الهون وتُذله، فهو أحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله<sup>(108)</sup>».

وفي كل هذه النقول يلاحظ الاهتمام البالغ بالسجع وتوزيع الفقرات بالشكل العادي الذي تتراوح فيه القرائن بصورة منتظمة، ورغم ما ينشأ عن السجع من تقديم وتأخير في أكثر الأحيان لإحداث التناسب بين الفقر، وما يتم الالتزام به من إيراد الألفاظ المناسبة للتقفية واكتمال القرينة — فإن كل هذه الأشياء لم تدفع به إلى الغريب وارتكاب الخوشي من اللغة، ولم تبتعد بالأسلوب عن التعبير الواضح فتحول دون الاستفادة مما تقدمه هذه النقول من معلومات حول المترجم بهم. فأسجاعه بسيطة لم تقيدوها القيود، ولم يتحكم فيها التعقيد، ولم يجبر بها غير الهاجس بالسجع فقط.

ويلاحظ من خلال هذه النقول أيضا ما يمكن أن يوصف به أسلوب الرندي من أدبية. فهو وإن تحكمت فيه الأدوات الاجرائية، واحتشدت عنده عناصر البديع

(105) توفي في حدود 581. ترجمته في أعلام مالقة : 35 الذيل 6 / 378

(106) أعلام مالقة : 35

(107) ترجمته في أعلام مالقة : 40 — الذيل 6

(108) أعلام مالقة : 40

بجمالياته، فإنه لم يتجاوز به وبصاحبه صورة التأديب الذي امتلك الأدوات والمواد من خلال الممارسة الصورية. ضابطاً ومدرساً ومؤلفاً في اللغة والأدب وموادهما. فليست لغته لغة الحياة المتدفقة التي تبنى لتسيطر عليها الرموز والاشارات، وليست التعبير الذي شغل بالطاقات الخفية التي تكفي فيها الاحتلالات لتفجر طاقة الابداع والتخيل واستدعاء البعيد والقريب عند القارىء.

فهني كتابة وإن توفر فيها جانب البديع ببساطته، تغيب عنها تلك الخلفية المعرفية التي توصل ثقل التعبير الأدبي في العملية الثرية، ويغيب عنها خيال الأديب المتمكن ورؤية المبدع الذي يخرق جدار اللغة والتركيب ليقم من الضلال الخلفية للألفاظ عناصر مكملة لرسالته، وليشيد جهازاً تركيبياً تتحكم فيه العلاقات الخفية من مجاز، ومقام، وغيرهما.

ولا تختلف لغة الترجمة ومراحلها عند الرندي رغم تباين اهتمامات المترجم بهم. وتكاد تكون عملية العرض متقاربة، لولا ما يميز هذا المترجم أو ذاك من صفة تستلزم أسلوباً واصطلاحاً خاصاً للتعبير عنه.





## أصداء احتلال سبتة وتحريرها في الشعر العربي.

ذ. عبد الله بنصر العلوي<sup>(١)</sup>

نحمد لكلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان أن اتاحت لكثير من الباحثين فرصة معاودة التاريخ والذات والتراث، واستشراف المستقبل إلى حيث الحضور المستمر لذاكرة «سبتة» في زمن نتطلع فيه إلى تحريرها لتواصل اشعاعها في الفكر الانساني.

كما أن هذه الفرصة طيبة تحمل كثيرا من الود والتقدير لاستاذنا العميد الدكتور محمد الكتاني الذي نحمد له شغفه بالبحث واكباره للباحثين، ولزملاء قاوموا المسافات للإفادة والحرص على الحوار.

ويسعدني أن أساهم في هذه الندوة العلمية المباركة بموضوع عن «أصداء احتلال سبتة وتحريرها في الشعر العربي» وهذا الموضوع مشروع دراسة لاتجاهات هذه الاصداء<sup>(١)</sup> يشمل :

آ — المقاومة في إطار جهادي (من الاحتلال إلى ما قبل الحماية).

ب — المقاومة في إطار وطني (عهد الحماية).

---

(١) كلية الآداب فاس

(1) سبق لنا أن ساهمنا بمداخلة في الموضوع ضمن أعمال الجامعة الصيفية التي انعقدت بالمحمدية خلال 21 — 31 يوليوز 1987 في موضوع : المغرب من العهد العريزي الى 1912. ونشر نص المداخلة بمجلة دعوة الحق العدد 270 ص 267 — 272.

ج — المقاومة في إطار ثوري (عهد الاستقلال).

وهذه الاتجاهات — مع تداخلها — تجعل الدراسة تهدف إلى إبراز طبيعة المرحلة ونسقتها الفكري السائد.

وتقتصر مساهمتي في هذه الندوة على الاتجاه الأول فتدرس اصدااء احتلال سبتة في الشعر العربي : في المغرب والأندلس وتونس والقاهرة. ثم اصدااء محاولات التحرير في الشعر المغربي — خاصة — وتتوسل الدراسة ببعض الحوليات التاريخية وصدى استجابة الشعر لها من خلال أنماط قصيدة المقاومة كالتقصائد المادحة والوصفية والإخوانية وكذا قصائد الشكوى والتوسل وما تضمنته من مضمون جهادي ومقومات فنية.

لقد برز أدب المواقف في الادب المغربي، وأصبح ظاهرة شائعة عبر عصوره، لأنه يمثل واقعا حرص الادباء والعلماء في المغرب على التعبير عن مواقفهم الدينية والوطنية. ومن تم كان الجهاد والنضال والتحرير والمقاومة سبيلا واحدا ينطلق من الاستجابة للواقع ومن الوعي بمتطلباته مما يعبر — حقا — عن كيان الشخصية المغربية التي اختارت الحرية ودافعت عنها بالعقيدة والسلاح. ولعل مساهمة الاديب والعالم في سبيل ابراز مواقف الشخصية المغربية يعمق الرؤية والمعاناة، لذا صدرت — في كل أنماط الابداع والمعرفة — عن مواقف ذات طبيعة حساسة واعية بما تؤول إليه البلاد الإسلامية وهي عرضة لكل أنواع الاخطار المهددة بها. ومثل هذا النزوع كان نابعا من الرؤية العامة للفكر المغربي ؛ إذ توارت الذاتية بكل عوامل تأثرها وتفوقها ليسود ضمير الجماعة واهتماماتها للتعبير عن الآمال التي يصبو المغرب إلى تحقيقها في واقع ؛ من أكبر ملابساته أن الاجنبي — باعتباره صليبيًا ومحتلا — كان يلزم أبواب الثغور يقرع بالتي هي أشد وأقوى فيجد الاستماتة والتحدي في المقاومة بالسلاح وفي النضال بالكلمة تحقيقا للجهاد وحبا في صون الدين وكرامة الانسان، وسعيا لسلامة مواقفه وصدقها أمام شوائب الذات.

وإذا كان الادب المغربي يعبر عن مواقف جسدها تاريخ الغرب الاسلامي — وخاصة منذ بداية سقوط مدن الأندلس على يد الصليبيين وتجرو البرتغال والاسبان على احتلال ثغور المغرب — فإن سبتة نالت حظا وافرا — إن عصور الاستقلال — وإن عصور الاحتلال — في تاريخ الثقافة المغربية، إذ كانت بوتقة انصهار لفروع الثقافة الاسلامية، ومجمعا للتيارات الفكرية، نظرا لمركزها بين الشرق العربي

وأفريقيا والأندلس. وبذلك تبوّأت مكانة علمية سامية بين حواضر العالم الإسلامي. وظلت عبر عصور ازدهارها نبراساً مضيئاً لحواضر المغرب والأندلس والمشرق، كما ظلت مسيرتها العلمية ذات أثر فعال في الفكر الإنساني خلال عصور الاحتلال. واعتباراً لهذه المكانة لا زالت تقام الندوات واللقاءات في سبيل بحث أثر هذه المدينة في تاريخ الثقافة الإسلامية ودورها في إثراء فروع المعرفة والابداع. محاولة لاستيعاب تراثها العلمي والأدبي. وفي ذلك حضور لهذه المدينة الأسيرة في الفكر والوجدان.

إن شعر المقاومة لتحرير سبتة يستجيب لواقع كانت رؤيته تشكل — إلى أوائل هذا القرن — صراعاً حاداً بين الصليبية والإسلام. وكان هذا الصراع جهاداً؛ وإن اتسم بالدفاع عن بيضة الإسلام لا المقاومة لنشره. ونجد إرهاصات أندلسية لهذا الصراع تنبئ عن الأخطار التي كانت تحدق بالامة الإسلامية، وخاصة بعد توالي سقوط كثير من المدن الأندلسية على يد الحملات الصليبية<sup>(2)</sup>. ونلمس من خلال هذه الإرهاصات شعوراً قوياً ساد لدى الشعراء الأندلسيين إذ لم يعودوا يشيرون فقط إلى ما دها جزيرتهم بل إلى ما يصيب العالم الإسلامي من الأضغان والأخطار، وقد انحلت عرى بلدانه واحتلت أراضيه واندست معالم دينه. ونشير في هذا السياق إلى قصيدة أبي العباس أحمد الدقون التي خاطب فيها أهل فاس — وهي عاصمة للمرينيين — يعظهم للحزم والجد أمام ما أصاب أو يصيب الثغور الأندلسية أو المغربية من أخطار محدقة بالإسلام وذلك في قصيدته التي يندب فيها الأندلس:

يا أهل فاس أما في الغير موعظة      إن السعيد لموعوظ بأمثال  
فقل تعالوا إلى نصيح وتذكرة      فالامر جدُّ فلا تصحب لمكسال  
كيف الحياة إذ الحيات قد نفحت      على السواحل أوهمت بإرسال  
ولا سبيل إلى الترياق غير تقى      والحزم في سعة من قبل إعجال  
والأخذ بالجد في جمع القلوب على      بذل النصيحة أو إبراء أذخال<sup>(3)</sup>  
ومثل هذه الدعوة إلى الجد في هذا الإرهاص الأندلسي ما ينبئ عن المرارة

(2) راجع: الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي لأحمد أعراب الطريسي. مقال  
مجلة عالم الفكر، المجلد 12/العدد 1/سنة 1981.

(3) ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض لأحمد المقرئ... ص 107/1.



والنكد أمام ضعف الغرب الاسلامي في مواجهة الحملات الصليبية، خاصة عندما أصبح تعاون بني الاحمر مع القشتاليين لدعم مملكة غرناطة، ولتأمين هذا التعاون الفيودالي(4) سبوا إلى ضم سبتة وتفويض الوجود المريني بها عام 1387/789 وبذلك فتح بنو الاحمر الطريق للصليبيين وجروؤوهم على الثغور المغربية، خاصة سبتة لأنها تشكل أقرب الثغور المغربية للاندرلس. واحتلال سبتة يقطع كل امداد إسلامي لها ؛ مما سهل لقطف الجزيرة بعد سقوط غرناطة. وقد تم احتلال البرتغال لسبتة يوم 14 جمادى الثانية 818هـ/21 غشت 1415م.

وقد كان لهذا الاحتلال اصداء قوية تجاوبت معه بعض البلدان العربية، ولعل الشعر كان شاهدها الوحيد والمعبر عن ضرورة الجهاد لصون كرامة البلاد والإسلام وللتنديد بالاحتلال والتحريض على القتال(5).

ومن أصداء الاحتلال كتاب وجهه أهل سبتة على يد كبيرهم محمد بن سعيد العزفي إلى عبد الحق المريني يستغيثون به. وذيلوه بهذه الابيات :

|                             |                           |
|-----------------------------|---------------------------|
| يا مالكا قد صان بيضة مغرب   | بضوارم وصورم وجنود        |
| هتك النصارى علينا حرمة سبتة | غدرنا بنقض موائق وعهود    |
| غدرونا فجر عروبة بصنادق     | حطت صنادد صرعة كقروود     |
| الفان في الفين من أبطالهم   | عظماء أجسام طوال قدود     |
| فقصدنا بابك ضارعين لبؤسنا   | اخمار من شعر ونعل سود     |
| فعساك تجبر صدع قوم خانهم    | دهر كسا لكل ثوب يهود      |
| إذ ذاك ثغر تختشى من عاره    | بين الولاة مسطرا بشهود(6) |

وتصور هذه الابيات واقع الاحتلال والطريقة التي تم بها: وإن كانت تذكر بحصان طرواد(7) أو بقصة الزباء(8) كما تحمل هذه الابيات قوة الاستصراخ

(4) سبتة ومليلية تاريخ وواقع لابراهيم بوطالب وبوغالب العطار. ص 28.

(5) هب بعض المسلمين لاغاثة سبتة ومن جملتهم جد الشيخ المشارك على ابن هارون وهو من مضغرة تلمسان. راجع : فهرس المنجور ص 40.

(6) اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سني الاخبار لمحمد بن قاسم الانصاري السبتي تحقيق عبد الوهاب بن منصور ط 2 ص 76.

(7) سبتة ومليلية ص 33.

(8) تاريخ سبتة لمحمد بن تاويت ص 178 هامش 2.

والإلحاح في الاستنجد بتعبير في نبراته الواقعية آلام واحزان.  
لكن الملك المريني كان عاجزا عن نجاتهم، فأمر نديمه عبد العزيز البجائي  
بجواب كان منه أبيات شعرية مطلعها :

فلقد عجزت عن الدفاع كمن مضى من غر آباء وأسمى جدود<sup>(9)</sup>  
وهي أبيات من «سقيم الشعر الخائر كصاحبه»<sup>(10)</sup> لما فيها من ادعاء على  
التاريخ واتكال على تدليس أصحاب الجفر.

كما تمثل شعراء غرناطة سياسة بني الأحمر التي القت باللائمة على بني مرين،  
وجعلوا من ملوكهم المؤهلين لفتح سبتة. يقول ابن فركون :

هذا عدو الدين حل بسبتة لينال شأوا في الضلال بعيدا  
القي لديها رحله إذ لم يكن عن مورد الدين الحنيف مذودا  
والآن لما ان دَعْتُكَ لنصرها جعلت مقامك عدة وعديدا  
فاخفت عباد الصليب بها وقد صُلِبَ كل ريب الحوادث عودا  
سعيدها وتنبيل كل موحد أمنا وتوسع قطرهما تمهيذا<sup>(11)</sup>

وقصائد ابن فركون في مثل هذه الدعوة كثيرة في ديوانه،<sup>(12)</sup> إذ كانت  
هاجسا يقلق بني الأحمر وكأنه تكفير عن سياستهم إزاء بني مرين حين أوقدوا  
نار الفتنة بسبتة تارة، أو بالاستيلاء عليها تارة أخرى، مما وقعهم بين فكَّي  
الصليبية،<sup>(13)</sup> وجعلهم يستغيثون بملوك تونس، القاهرة. فوجدوا استفراضهم إلى  
الحفصيين بتونس لخاربة البرتغال ونضمه قصيدة مطلعها :

حماة الهدى سبقا وإن بعد المدى فقد سألتكم نصرها أمة الهدى  
وقد اسمع القطر الغريب نداءه فهل قاصد بالغوث من أسمع النداء<sup>(14)</sup>

(9) ن. م. ص 178.

(10) ن. م.

(11) ديوان ابن فركون تقديم وتعليق محمد بن شريفة ص 365.

(12) ن. م. ص : 340 — 341 — 347 — 372.

(13) راجع عن الموضوع. ن. م. ص 87 — 94.

(14) جني الحنين، ديوان لابن حجة الحموي (مخطوط) نقلا عن عبد القادر زمامة في مقاله :  
«من اصداء اعتداء البرتغال على سبتة» نشره خلال الستينات — كما ذكر لي — وراجع في  
الموضوع : ديوان ابن فركون ص 91.

وأجاب عن هذه القصيدة / الاستصراخ ابو محمد القفصي بقصيدة قال عنها أستاذنا عبد القادر زمامة : « لم تكن في المستوى المطلوب ولعل أبا محمد القفصي لم تسعفه ملكته الشعرية بما يتطلبه المقام من نفس عال وعارضة قوية وصناعة بيانية». (15)

ولعل الحفصيين لم تتح ظروفهم لمساعدة بني الاحمر فوجهوا «القصيدة الغرناطية واختها التونسية» إلى القاهرة وسلطانها المملوكي، فأجاب عنها رئيس ديوان إنشائه تقي الدين ابن حجة الحموي بقصيدة طويلة نجتزئ منها الابيات التالية :

اجابكم عزم سبقنا به الندى      واسيافا — والله — كذبت الصدى  
واخباركم في رفعها اذ تقدمت      اينما فإن العزم صار مبتدا  
إلى أن يقول :

ولا كانت السمر العوالى لدى الوغى      تثنى، ولا البيض المواضي لتغمدنا  
وذا الفرض لا يقضي اذا فات وقته      وها نحن — عند السير — ننوي له الادا  
إذا ما تعبدنا وغنت سيوفنا      عليهم يظنوا ان في القوم معبدا  
فلا هيكل الا وقد صار دارسا      ولا بيعة الا وتصبح مسجدا (16)

لكن يبدو أن هذه المساندة لم تكن الا معانيا مدحية جرّها قلم كاتب، وبذلك لم تحقق تلك الاستغاثة غايتها فلم تتجاوز حدود المراسلة.

وبقي السبتيون والمجاهدون من أهل الجبال المجاورة يقاومون ويغيرون، في حين تمكن الاسبان من ضم البرتغال وممتلكاتها اليه. ومن ثم آلت سبته اليه سنة 1580م. (17)، وخلال هذه المرحلة اشتدت مقاومة المجاهدين لهذا الاحتلال، وكثيرا ما أوقعوا الهزائم بالاسبان دون أن يتمكنوا من تحريرها وكان الانتصار في بعض تلك الغارات بشارة بما فتح الله على المجاهدين في حروبهم مع المشركين — مغتصبي سبته — من الاستماتة وقوة العزيمة وكان عرض الانصاري بفاس عام 1588/997 مناسبة لشعراء أحمد المنصور السعدي أن يعزوا إليه بفتحها . قال

(15) مقال عبد القادر زمامة السابق.

(16) ن. م. دون أن يذكر نص القصيدة أو أبياتا منها.

(17) الاستقصا للناصري 39/7.



محمد بن علي الفشتالي :

هذه سبتة تزف عروسا نخونا ديك في شباب وشيب  
وهي بشرى وأنت كفو النواقي كافأت بعلمها بفتح قريب<sup>(18)</sup>

ولعل المنصور لم يقدم على فتح سبتة — رغم تحريض الشعراء له في كل مناسبة  
في مولدياتهم وقصائدهم المادحة — فلم يكن يسره أن تخترق المضيق الاساطيل  
التركية التي كانت تهدده وتهدد من سبقه<sup>(19)</sup>.

والواقع أن المنصور لم يهتم بالشمال اهتمامه بالجنوب، ربما تخصيصا لمراكز الدولة  
الاستراتيجية، بذلك ترك أضر سبتة بيد أهالي الشمال ضمنهم كانت تنبعث  
الهجمات لمقاومة المحتلين برا وبحرا.

ومهما كانت الأسباب فقد كان شعراء المنصور حريصين على الدعوة إلى الجهاد  
لا لتحرير سبتة فحسب، بل لتحرير الأندلس. وكأنهم يدعون إلى تقويض الأسباب  
والبرتغال لتخلص سبتة من يد الصليبية. كما كان شعراء المنصور يدعون إلى الوحدة  
الاسلامية لمواجهة الصليبية. يقول الحسن بن أحمد المسفيوي :

فملكك أقطار الجنوب وما سمت نال ذلك همة الاسكندر  
وتنال أندلسا بجود ربوعها برد المنية من قتال العثير  
فقد الجياد إلى الضلال تسومها حكم الردى وتدوس معطس قيصر  
أدرك بها الثأر المنيم فطالما ألوى به للدين رهط الاصفر<sup>(20)</sup>

ورغم المعاني المادحة في هذه الابيات، إنها تعبر عن إدراك سليم لواقع اكتسب  
صبغة الصراع والجهاد، فكانت الآمال تصبو إلى الوحدة الاسلامية لتسوم ضلال  
الصليبية الهزيمة والخوان. وهذه النغمة ظاهرة في أدب العصر السعدي لأنه عصر  
قوة وانتصارات — خاصة أيام المنصور — وليست الاشارات التاريخية الواردة  
في هذه الابيات إلا سلوكا معرفيا حاول المسفيوي أن يستغل إطار الفكرة التي  
يدعو إليها.

(18) مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لعبد العزيز الفشتالي تحقيق عبد الله كنون ص  
51/الاستقصا 119/5.

(19) المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور لأحمد بن القاضي دراسة وتحقيق محمد  
رزوق ص 290 هامش 41.

(20) مناهل الصفا ص 20.



إن احتلال سبتة كان هاجسا لدى المرينيين والسعديين. وقد تمثل الشعر — على عهدهم — بعض أصداء هذا الهاجس بما يعبر عن ضرورة المقاومة سواء بالاستصراخ والاستنجد أو بالحض على الجهاد.

وبقيت سبتة ترسف في اغلال الاحتلال إلى عهد المولى إسماعيل الذي أعلن حربا جهادية شعواء على الدول الغربية الثلاث : الأسبان والبرتغال والانجليز، وهي من أقوى الدول في عهده<sup>(21)</sup>، ففتح المعمورة عام 1092 وطنجة عام 1095 والعرائش عام 1101 وأصيلة عام 1102. أما سبتة فقد وجه إليها حملات منذ عام 1106 وحاصرها بعد ذلك حصارا شديدا دام ستة وعشرين عاما<sup>(22)</sup>، بل أكثر من ذلك<sup>(23)</sup>. دون أن يفلح في استرجاعها.

وقد وقف شعراء المولى إسماعيل يشيدون بهذه الفتوح ويتغنون بالانتصارات ونالت سبتة حظا وافرا من هذه الأشعار التي عبرت عن مواقفها بوضوح، إذ كان الجهاد المحور الأساسي والمضمون البارز، استجابة للنسق الفكري السائد في الثقافة المغربية.

لقد كان عهد المولى إسماعيل عهد قوة وجهاد، إذ سعى إلى تحقيق الوحدة الوطنية وطرد الغزاة من الثغور المغربية. ونجد أصداء لهذا الجهاد في أشعار هذا العهد التي عبرت عن مدى الارتياح الذي خلفته حملات الجهاد يقول أبو سالم العياشي :

|                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| مأنال القلوب فرط السرور    | قرع السمع من كلام البشير  |
| قد أباد البغاة سيف الأمير  | حين قال البشير من بعد يأس |
| عيل نجل الشريف حامي الثغور | سيف فخر الملوك مولاي اسما |
| خير ه ووقاه كل الشرور      | خلد الله ملكه وحباه       |
| هي أخت قريظة والنضير       | يا لها من بشارة بغزة      |
| كل حي ومن غدا في القبور    | قطعت دابر الفساد وسرت     |

وإن اتسمت هذه الآيات ببعض سمات الخطاب الاعلامي فقد حملت دلالات

(21) مولى إسماعيل بن الشريف لعبد الله العمراني ص 65 — 100

(22) ن. م. ص 92

(23) يرى محمد داود أن الحصار بقي ما يقرب من ثلاثين سنة تاريخ تطوان 30/2.

مدحية(24) للذي دافع عن الثغور وحمى بيضة الاسلام.

ويقول أحمد بن عبد العزيز العلوي :

هو المظفر اسماعيل يقهرهم      إذا طغى كفرهم والبغي والعار  
افتح قرى للنصارى واسب سبيهم      وأفن طغمتهم فالله قهار  
بادر وزاحم عُدّة الدين في عدد      ثم من الله أنداد وإظهار  
وألّق في جيشك المنصور كل فتى      كأنه في غمار الحرب إعصار  
هذا هو العز والدين القويم فقد      لاحت به من كتاب الله انوار  
انصر حمى الدين واكفف من يكايده      لقد سما قدركم واعتز مقدار(25)

إن الدعوة إلى المقاومة باعتبارها جهادا في سبيل الله يشكل ظاهرة لدى شعراء المولى إسماعيل. وقد اتخذت هذه الظاهرة انماطا من القصيد، فالقصيدة المادحة والواصفة والاخوانية وكذا قصيدة الشكوى والتوسل كونت مجالا خصبا لهذه الظاهرة، خاصة ما يتعلق بتحرير سبتة.

#### القصيدة المادحة

ألح شعراء المولى إسماعيل في مدائحهم على استرجاع سبتة. خاصة بعد استرجاع طنجة والعرائش. يقول عبد الواحد البوعناني بمناسبة فتح العرائش قصيدته :

الا أبشر فهذا الفتح نور      قد انتظمت بعزمكم الامور  
ثم ينحى نفس الاتجاه الجهادي السائد فيركز على أسسه وغاياته :

حميتهم بـبيضة الاسلام لما      بعين الحق قد حرس الثغور (كذا)  
وجاهدتم وقاتلتم فأنتم      لدين الله أقمار تنير  
...الا يا معشر الكفار هذا      يبددكم وليس له فتور

ويخاطب أهل سبتة مطمئنا إياهم بقرب الفتح :

الا يا أهل سبتة قد أتاكم      بسيف الله سلطان وقود  
إذا ما جاء سبتة في عشي      تناديه إذا كان البكور

(24) راجع رسالتنا : ابو سالم العياشي شاعرا. كلية الآداب. فاس. ص 226/2 (مرقونة).

(25) الانوار الحسنية بن عبد العزيز العلوي ص 82 — 83.

ويحض الشاعر المولى إسماعيل على ضرورة تحرير الأندلس — مثلما كان الأمر عند شعراء المنصور السعدي — لتخلص سبتة وليعود الجند الإسلامي إلى حظيرتها يقول :

أيا مولاي قم وانهض وثمر  
وجاهدكم وحاربهم وفرق  
ولا يمنع بفضل الله منها  
لسان الحال ينشد كل يوم  
بقرطبة تنال الجند طرا  
لأندلس فأنت لها الأمير  
جموعهم فربكم النصير  
كما قد قيل بر أو بخور  
ومعني الحال تفهمه الصدور  
ويأتي العز والمملك الكبير<sup>(26)</sup>

ومن القصائد المادحة في نفس السياق قصيدة عبد السلام جسوس التي يتطلع فيها إلى تحرير سبتة وباقي الثغور المغربية المحتلة. يقول مادحا المولى إسماعيل :

رفعت منازل سبتة أصواتها  
مع بادس وبرنجة فتعطفوا  
يا ابن النبي الهاشمي محمد  
فلقد قضيت للعرائش حاجة  
عار عليكم أن تكون أسيرة  
بجواركم وجنودكم تعزا لها  
تشكو إليكم بالذي قد هالها  
وتنبها كي تسمعوا تسألها  
قل يا أمير المؤمنين أنا لها  
مع طنجة فاقضوا لذي آمالها  
بجواركم وجنودكم تعزا لها

وبعد أن يحض المولى إسماعيل على الأقدام وبتعجيل بعث أهل الشجاعة، يحمله على الشريعة الإسلامية، ومن صميمها الجهاد في سبيل الله لنصرة دينه والقضاء على أعدائه. وذلك حفاظا على مكانة المغرب السامية أمام الأمم. يقول :

أرفع لهذا الغرب رأسا إنه  
أبقاك ربي للخلافة عدة  
في الضعف ما دام العدى نزالها  
تقفوا الشريعة مؤثرا أفعالها  
ويختم قصيدته بهذا البيت :

واقبل هدية من اتى بنصيحة  
وفي ذلك إشارة إلى نكران الذات ليصح نيله فضل ثواب النصيحة. ولا يخلو

(26) نزهة الحادي في أخبار القرن الحادي للأفرائي تحقيق هوداس ص 307 / الاستقصا 74/7  
/ الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد ابن تاويت ص 839/3.

(27) تاريخ الضعيف تحقيق أحمد العماري ص 72 / تاريخ سبتة 195 / الوافي 841/3.



هذا البيت من هذيلة حُرمت قائله من ثواب فضل لغة الشعر بما حرمه من حسن المقطع.

والقصائد المادحة على عهد موسى بن عيسى كثيرة، كلها تنشد الجهاد، وتثني على الفتوحات وتحض على استمرارها. وقد استمدت لغتها من ثقافة أصحابها، فاكست قصائدهم وضوح الدعوة شعورا منهم بمسؤوليتهم. لذلك كانت قصائدهم المادحة واقعية في لغتها وشاعريتها وأفكارها دون غلو ولا مبالغة.

#### القصيدة الواصفة

ومن قصائد الوصف نجد قصيدة محمد بن زاكور في وصف عشية برأس الطرف بتطوان حيث تراءت له مدينة سبتة منادية التحرير.. التحرير. يقول فيها:

|                              |                                    |
|------------------------------|------------------------------------|
| راقت عشية رأس الطرف طرف فتى  | لم يش رأس الجوى عن قلبه طرفه       |
| حالفنا الأنس منه والمسرة إذ  | عن لنا الممنى مسرجا طرفه           |
| والبحر مما صفا أبدى ضمائر    | والبرج مما علا يكشف ما خلفه        |
| ولاحت الشم من أطواد أندلس    | تشكو ذراها النصارى وهي في لفه      |
| وقد بدت سبتة منه مناديه      | يا أهل دين الهدى، هل عندكم عطفه؟   |
| هل عزمة تذر الصليب منكسرا    | حتى يظل الرشاد لا يحا عطفه؟        |
| هل غيرة تقتضي طهري من نجس ال | شرك بمطلق دين الملة الصرفة؟        |
| هناك أنشد والآمال دائية      | والكفر عمت ذوي شوكته الرجفه        |
| الحمد لله أهل الحمد ملهمه    | بحرى النصارى وموى من هدى لطفه (28) |

وهذا القصيد نسيج حذق صاحبه في رصف لغته ونظم صورته. لأن شعر ابن زاكور «ينم عن ذوق أدبي سليم ومملكة مبدعة مطبوعة» (29). وهو من شعراء المغرب القلائل المجددين ممن تمكنوا من الشعرية والشاعرية، استطاع أن يمزج ذلك برؤية جهادية فيها إحساس بواقع المدينة وآمال تطهيرها من نجس الشرك وقد عبر الشاعر عن هذه الرؤية بقصيدة وصفية لأنماء الصورة الشعرية، وقد أتاح له ذلك رسم أساليب التعبير عما يختلج فكره من معان وأحداث. ولم تكن هذه المعاني

(28) الروض الأريض.. ديوان لابن زاكور مخطوط خ. ع 357 ك/ تاريخ تطوان 1/421. امدنا بهذه القصيدة زميلا الأستاذ مولاي أحمد العراقي مشكورا.

(29) منتخبات من شعر ابن زاكور عمل عبد الله كيون ص 21.



إلا شعورا بالأنس والمسرة ولم تكن تلك الاحداث إلا تكريرا لصفو العشية حيث  
الاندلس تشكو احتلالها وسبته تنادي الجهاد...

القصيدة الاخوانية :

ومن شعر الاخوانيات أبيات لمحمد بن الطيب العلمي أثناء سفره إلى تطوان  
للقاء صديق له. فكتب له منها — وهو بمحلة سبتة — يستأذنه في الوصول إليه،  
لكن الشاعر راعه أن يحل بسبتة وهي دار سليبة فلمح إلى ذلك دون أن يفصح  
عن مكنونه. يقول :

دخلت تطوان لما ضاق اشتياقي وشتا  
وهأنذا مقيم مشتت العقل شتا  
عندي من الصبر نزر ومن همومي شتى  
أريد سبتة لكن لن ابرح الارض حتى<sup>(30)</sup>

وللشاعر عدة قصائد في مدح تطوان ووصف أهلها بالرباط والاستشهاد في  
سبيل الله لتحرير سبتة، يقول في احداها :

ويكفيك من هذى المحامد أنها على ما حوت من حسنها بلد الثغر  
فشاهدها في نعمة وشهيدها إلى الله يغدو وهو مبتسم الثغر  
ولم لا وقد جاء الحديث مصرحا بما في معاناة الرباط من الاجر  
وفدنا عليها مبتغين ثوابها لننزل أوقار الذنوب عن الظهر  
ثم يرحل الشاعر إلى سبتة واصفا واقعا :

فسرنا إليها باشتياق يسوقنا وما كلت الاقدام من تعب السير  
ولما نزلناها رأينا مشاهدا بها قهر الجبار طائفة الكفر  
كأن رقاب الكافرين بسبتة رقاب الاعادي في حنين وفي بدر  
سكرنا بأكواس الشجاعة بينهم فتبصر كل الناس سكرى بلا خمر  
وقد أحرقت كل القلوب بطالة عجت الاحراق القلب بلا جمر  
عدمتم اضطبارى في معالم سبتة وما للذي يهوى الجهاد وللصبر<sup>(31)</sup>

(30) الانيس المطرب .... لمحمد الطيب العلمي ص 313 / تاريخ تطوان 140/3.

(31) تاريخ تطوان 137/3.

ويضمّر هذا شعورا مستقبليا إزاء سبتة، حاول ابن الطيب العلمي من خلاله أن يعبر عن آماله بقلبي إخوانه وبخيرية المدينة الأسيرة. ومن ثم لم يخل الموقف الذاتي من التعبير عن موقف جماعي بضرورة الجهاد لاستخلاص المدينة. وليست هذه القصيدة وتلك المقطوعة إلا نسجا شعريا «ومثالا» للشاعرية الرقيقة<sup>(32)</sup> مما يكثر في شعر الشاعر ومما يتسم به شعر الإخوانيات.

### قصيدة التوسل

ومن قصائد التوسل قصائد محمد بن علي الرافعي التطواني وهو من أكثر شعراء العهد الاسماعلي نظما في المقاومة لاستخلاص المدينة. يقول :

|                                |                                            |
|--------------------------------|--------------------------------------------|
| يارب سلم ونج كل منتدب          | إلى الجهاد وحث فيه واجتهدا                 |
| وصار بالحزم يبغي نصر ملتته     | وعزمه في الجهاد دائما أبدا                 |
| داروا بسبتة أهل الصدق وابتدروا | شقوا أخاديد لاستئصال من جحدا               |
| يرجون وعد الإله الحق ربهم      | بأنهم في رهان السبق خير هدى                |
| فكم وقائع في الحرب لهم شهدت    | ترمي البلاد فينسى صقعها الرعدا             |
| وكم مدافع في البيداء قد وضعت   | ما أملوا من ديار الشرك دار عدى             |
| فارددهم بسلام بعد فتحهم        | سهل لهم فتحها يا خير من قصيدا              |
| مرادهم سبتة البيضا ومنيتها     | ولا قران بها يتلى كما عهدا <sup>(33)</sup> |
| فلا صلاة تقام في مساجدها       |                                            |

ويسجل لنا الرافعي في إحدى منظوماته الشعرية اجبار أهل تطوان على الرباط بسبتة معتذرا بضعف حاله، بعد أن أرسل ولده واكثرى شخصا آخر ينوب عنه في الرباط. فنظم سبعا وثلاثين بيتا في مدح قائدها، منها :

|                      |                                          |
|----------------------|------------------------------------------|
| ندبت بنّي وجهزته     | شهورا تزيد على عد عام                    |
| وبعد، اكرتيت إلى رجل | بجعل من المال والخطب طام                 |
| وإني رقيق ولي أدب    | وقلبي من الشكوى فيه كلام                 |
| وأفزع للشعر إن نابني | صروف من الدهر أو من هيام <sup>(34)</sup> |

(32) محمد بن الطيب العلمي لعبد الوهاب بن منصور (سلا 1937) ص 15.

(33) تاريخ تطوان ص 399/1 — 400 / تاريخ سبتة ص 197 — 198.

(34) تاريخ تطوان ص 31/2.

وان افتقد نظم الرافعي حرارة التضرع، فإنه استجاب لواقع احتلال سبتة وحصار المجاهدين لها، معبرا في توسلاته عن أمل اقتراب موعد الفتح لخلاص سبتة.

ومن خلال هذه الانماط اسهم شعراء العهد الاسماعيلي<sup>(35)</sup> في التعبير عن فرحهم بتحرير الثغور ونكدهم باحتلال سبتة وآمالهم بتحريرها. وقد كان موضوع المقاومة أحد العوامل القوية في النهضة الادبية التي عرفها العهد الاسماعيلي والتي جسدت اتجاهها جهاديا استمد معالمه من الرؤية الفكرية ذات النسق الديني شأن سائر المعطيات الثقافية والاجتماعية في التراث المغربي.

وفي العهود الاخرى تحمل نفس الرؤية — وخاصة في القصائد المادحة — اشعار حمدون بن الحاج وسليمان الحوات ومحمد غريط ومحمد بن ادريس العمرابي والمفضل افلال ومحمد القيسي ومحمد بن محمد غريط والطاهر بن محمد الإفرائي وغيرهم... حيث تمثل دعوة صريحة إلى الجهاد والحث على الاستشهاد لمقاومة الكفر والاحتلال.

تواجهنا بعد هذا العرض عدة تساؤلات :

— لماذا المقاومة في اطار جهادي ؟

— الى اي حد يشكل هذا الشعر تجربة انسانية ؟

— هل يحقق تماس التاريخ والادب صياغة جمالية في هذا الشعر ؟

ان النصوص المشار إليها تكشف عن دلالة أساسية تستوحي موقفا من الواقع من خلال معاناة الاحداث ومواجهة الوقائع. وتنشق الدلالة/الموقف من النسق الفكري للتراث المغربي.

ومن التكوين والطلب في الثقافة الاسلامية، ومن السلوك الجدي في الحياة اليومية، بل من الرؤية العامة التي تبلور الفكر والابداع والواقع في شتى ملابساتها. لذلك اكتسب التراث المغربي صبغة الجهاد والنضال والمقاومة لاجل الحفاظ على الدين والبلاد والشخصية، وقد تمثل ذلك الشعر المغربي في المرحلة التي ندرسها. ومن ثم كانت الرؤية تشكل صراعا بين الصليبية والاسلام هيمن بكل تناقضاته على الشاعر. سواء اتخذ موقف الاستسلام والرضا بالمكروه ؛ أو نبه للمحذور ؛ أو

(35) انظر : المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف لعبد الرحمان بن زيدان. مخطوط خ. ح. 3982 الباب السابع عشر.



بث الحماس والحمية في النفوس. لذلك، انطلقت هذه الأشعار من بؤرة ذلك الصراع، وإن اتسم بعضها بمصق الرفض أو الاستكانة الى الاستسلام. إن الجهاد في هذه الأشعار لا يقوم على دلالة الشرعية. أي السعي لنشر الاسلام وقد تعذر ذلك منذ أزمان. لأن الداعي الى ذلك إنما يسارع الى الحرب جهلاً بحقيقة الامر، بل يسارع الى ايقاد نار الفتنة وحيث يمكن العدو من سبيل الاغارة عليه<sup>(36)</sup>. وأمام افتقار الدلالة الشرعية للجهاد والخوف من فعاليتها تحول الجهاد الى هذا العدوان. وبذلك اصبح الجهاد في هذه الأشعار تعبيراً عن هاجس أو نزوع يتعلق بالدين باعتباره الملاذ الأول والاخير للخلاص، مما جعل الجهاد اطاراً للمقاومة ؛ استجابة لمعطيات حضارية برزت في شؤون المعرفة والابداع والواقع افرزتها مراحل ما قبل الحماية.

وبالنسبة للتساؤل الثاني نرى أن شعر المقاومة لتحرير سبتة حاول أن يحقق بعض ابعاده الانسانية، وخاصة في القصيدة الواصفة الإخوانية حيث سجلت لحظات مواكبة الواقع بصدق لم يخل من بصمات الرؤى الفنية في حدود الوضع الادبي العام الذي يقوى في فترة ويضوئ في اخرى ؛ وفي حدود القرائح المبدعة المتباينة التي تختلف في محاولاتها لسير اغوار عذاب الذات والواقع معا.

أما القصيدة المادحة فقد تجاوبت مع الواقع، وأناطت آمال لتحرير بالممدوح باعتباره ضمير الجماعة. وليست قيم الشجاعة مجرد عناصر مدحية، بل هي توجيه الجماعة الممدوح الى ما يجب القيام به.

كما أن قصيدة التوسل عبرت عن الآمال التي يطمح اليها الفرد والجماعة. ان التجربة الانسانية في شعر المقاومة بالمغرب استهدفت الابداع باعتباره موقفاً من الواقع ورؤية للمستقبل، حاول الشاعر أن ينفذ الى عمق الحدث من خلال فكرة الجهاد التي تجسد اصول النسق الفكري في الواقع والمعرفة والابداع.

وبالرغم من ذلك، تبدو معاناة حدة المواجهة وسرعة الاستجابة وضيق الافق الفكري ومحدودية تمثل الرؤية وضعف الملكة الابداعية وقصور اللغة الشعرية وسيادة الصنعة والتحبير... عناصر سطحت التجربة الانسانية في بعض شعر المقاومة بالمغرب.

---

(36) الاستقصا ص 191/9.



إن التجربة الانسانية في شعر المقاومة لا تستمد قوتها الا بالحديث عن الحرب والصراع، لما في ذلك من تناول شعري يمتح معطياته الفنية من التراث والمعاناة. ولا نكاد نجد في شعر المقاومة هذا التناول الا قليلا. ولعل غياب بعض انماط هذا المنهل الابداعي — فيما نملك من نصوص — كالقصائد : المؤنثات والمؤنثات والمصنفات والمحرضات والوحشيات<sup>(37)</sup> ما جعل شعر المقاومة يفقد بعض القيم الابداعية في التراث العربي. أما القصائد المندرات فلعلها التخط الاكثر تداولاً في شعر المقاومة بالمغرب.

ولعلنا نجد تبريرا لتلك السطحية وهذا الغياب ؛ مرجعه الى عنف الاحداث هز النفوس واذهل العقول، مما جعل القرائح بمختلف مستوياتها وادراكاتها تبدع ؛ مراعية طبيعة الابداع ومقوماته المغربية. وفي ذلك اسهام في معانقة الواقع ومعاناة أزماته، وتعبير عن مدى الوعي بالاحداث والاستجابة للظروف ومتطلباتها.

أما التساؤل الثالث فيتعلق بمدى جمالية شعر المقاومة. إن دراسة هذا الشعر لا نقف عند حدود تحليل المضمون بل تتجاوز الى التحليل الجمالي الذي يهدف الى ابراز فنية التعبير وقيمها الجمالية من خلال بعض وسائل الاداء الفني كجدلية الوزن والقافية بالموضوع والصورة الشعرية، والمعجم الشعري.

ولم نعد في دراستنا لهذا الجانب من التحليل تركيزا على ما تتطلبه من دراس موضوعاتية *thématique* — نظرا لقلة النصوص — ومحاولة لوحدة الشكل والمضمون ؛ نشير بإيجاز الى التقسيم الجمالي لشعر المقاومة.

لقد تناول شعراء تحرير سببة الاغراض الشائعة في القصيدة العربية — ومن ابرزها القصيدة المادحة والواصفة والاخوانية وقصيدة التوسيل — فابدعوا كثيرا من الكتابة والتجبير بالقدر الذي يلائم نسقهم الفكري وملكتهم الابداعية، إذ حاولوا الجمع بين الموقف والاداة وان تباين الانجاز.. لذلك ؛ نرى في القصائد المادحة (وكذا المولديات)<sup>(38)</sup> مواكبة لأعمال الممدوح ورغبة الجماعة وقد افتقد بعضها الاصول الفنية التي اقرها النقاد رغم تشبثها بالبناء المعماري للقصيدة العربية في غالب الاحيان.

(37) راجع : شعر الحرب عند العرب لنور حمودي القيسي ص 43 — 44 (الموسوعة الصغيرة — بغداد — عدد 87).

(38) راجع مقالنا : القصيدة المولدية بالمغرب. دعوة الحق عدد 262.

ونلمس في القصائد الواصفة بعض الجوانب الفنية ذات الغناء الخصب في الرؤية الشعرية دون أن تعمق الشعور بالمقاومة كتجربة انسانية. ونلاحظ في القصائد الاخوانية بعض التجاوب الانساني بين الرؤية والموقف مع محدودية تماس شعرها بالمقاومة. ونشعر في قصائد التوسل ببعض الوجد الصوفي وان سادت شعرها تقريرية.

ومن تم كانت الاداة بوسائلها الاجرائية تكسب وحدة الشكل والمضمون اثرا يبرز الوزن باعتباره محاكاة للمقاصد<sup>(39)</sup>. لذلك كان الكامل البحر الاكثر تداولاً<sup>(40)</sup> في النماذج الشعرية الآنف الذكر، لأنه أكثر البحور جلبة وحركات، وهو إن اريد به الجذ كان فخماً جليلاً<sup>(41)</sup> ومثله يجسد مضمون المقاومة دون شك.

وفي القافية كان حرف الراء الروي الاكثر تداولاً<sup>(42)</sup> لانه من الحروف الذلل. وقد حاول الشعراء كسبه معاني المقاومة.

ومن عناصر الصياغة الجمالية لقصيدة المقاومة نجد الصورة الشعرية، ونلاحظ قلتها وسطحياتها في بعض النماذج الشعرية السابقة. لان الشاعر لم يكن يلتفت الى تجويد شعره او يراعى دقة صناعته، بل كان يهدف الى نقل الفكرة مباشرة دون تأمل او تعمق، وحين يجرى التشخيص يحاول من خلاله أن يصل الى عمق الصورة او تمثل أبعادها الايحائية كما في القصيدة الواصفة.

أما المعجم الشعري فهو يستمد من الثقافة الاسلامية كثيراً من الدلالات، نظراً للتشبث بالتراث المعرفي. ومن تم كان معجم شعر المقاومة لتحرير سبتة الى القاموسية التقريرية منه الى الشعرية والايحائية.

ولعل مواجهة المقاومة وعنف احداثها ؛ واليأس من الآمال وحدة معاناته ؛ وكذا محدودية الاطار العام لثقافة الشاعر والعصر ؛ مما جعل هذا الشعر يفقد بعض

---

(39) منهاج البلغاء وسراج الادباء لخازم القرطاجني تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ص 266.

(40) للكامل سبع قصائد، وللبسيط خمس، وللطويل اربع، والمتقارب والمجتث قصيدتان. وللخفيف والوافر والسريع قصيدة واحدة.

(41) المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها لعبد الله الطيب ص 246.

(42) للراء سبع قصائد وللدال وللام والميم ثلاث، والباء والتاء والفاء والنون قصيدة واحدة.

الرؤى الفنية التي تحقق تماس التجربة الانسانية والصياغة الجمالية. ومع ذلك ؛ لقد كان دور شعر المقاومة في تحرير سبتة محل تقدير واهتمام، وكان بالمثل للهمم حتى لا تستكين للاستسلام. وفي ذلك — دون شك — ابداع لواقع الذات والجماعة، وتجسيد لنهضة متموجة (43) في أدب العصر العلوي الى ما قبل الحماية.

---

(43) سوس العالمة محمد المختار السوسي ص 116.

## سبته في السياسة البريطانية

د. محمد أبو طالب<sup>(١)</sup>

يكمن القول بأن اهتمام الانجليز بمدينة سبته يرجع إلى القرن الحادي عشر حيث ورد ذكرها في «حكايات كانتربري» الشعرية (The Canterbury Tales) للكاتب جيفري تشوسر (Geoffrey Chaucer) إذ جاء في حكاية «رجل القانون». في لغتها القديمة :

Forth gooth hir ship thurghout the narwe mouth Of Jubaltare and Septe

أي : «واجتازت سفينته المضيق بين جبل طارق وسبته».

### بداية صلة الانجليز بسبته

قبل نهاية القرن الرابع عشر تزوج الملك البرتغالي دوم جاو الأول (Dom Jao) بالأميرة فيليبا البريطانية (Philippa of Lancaster) التي أنجبته خمسة أولاد كلهم خاضوا حروباً ضد المغرب، معلنين تهجمات عديدة على سبته. ولما كانت الملكة تتلفظ أنفاسها الأخيرة من إثر وباء أصاب لشبونة، أوصت أبناءها بالاستمرار في محاربة المغرب وأعطت كل واحد منهم سيفاً. وبعد وفاتها عبر الملك وأبنائه الخمسة إلى ميناء سبته باسطول مكون من ثلاثة وثلاثين باخرة حربية وتسعة وخمسين بارجة ومئة وعشرين ناقلة، وذلك في غشت من سنة 1415 في محاولة أولى.

(٥) كلية الآداب — الرباط.



وفي المحاولة الثانية دخل المدينة الأميران (Duarte) وهينريكي (Henrique) على رأس جيش مكون من خمسمئة جندي.

وهكذا وعن طريق المصاهرة تكون بريطانيا قد شاركت في عملية احتلال سبتة منذ البداية. ويسجل التاريخ البريطاني لنفسه روح المبادرة في ذلك، خاصة وأن الملكة فيليبا كانت تحت أبناءها على خوض حرب صليبية ضد المغرب.

وفي سنة 1625 وعلى هامش مهمة ساسية للمغرب، اتصل المبعوث البريطاني جون هارسن (John Harrison) بمجموعة من الموريسكيين المقيمين بتطوان ليقنعهم بالتعاون مع بلاده ضد اسبانيا، وذلك عن طريق هجوم محتمل على مدينة سبتة، لكن محاولته هذه فشلت.

### الاحتلال البريطاني لمدينة طنجة

في القرن السابع عشر شهدت العلاقات البرتغالية البريطانية مصاهرة شبيهة بالسابقة حيث تم زواج الملك تشارلز الثاني (Charles II) بالأميرة كاتالينا (Katalina) أخت الملك البرتغالي ألفونسو السادس (Alfonso Vi) والتي أتته بهدية بسيطة وهي مدينة طنجة.

فهكذا ولمدة اثنتين وعشرين سنة، أي من 1662 إلى 1684، أصبح الشاطئ الشمالي للمغرب يمثل موقعا أساسيا بالنسبة للسياسة الخارجية البريطانية وخاصة في ميداني الملاحة والتجارة، حتى أن الاستسلام للصمود المغربي لم يكن بالشيء الهين.

### تحالف اسباني بريطاني

وأثناء المعارك التي كان المغاربة يخوضونها لتحرير مدينة البوغاز، تم إبرام اتفاقية بين اسبانيا وبريطانيا في عاشر يونيو من سنة 1680 قدمت بموجبها اسبانيا مساعدة عسكرية هامة بارسالها جنودا من الأندلس في نونبر من نفس السنة. وقد تكبد الاسبان في هذه المعركة خسائر بشرية ضمن أزيد من تسعين قتيلًا وما يقرب من أربعمئة جريح. كما أن قائد القوات البريطانية آرثر هربرت (Arthur Herbert) خصص مكافأة لكل جندي إسباني استطاع أن ينزع راية من مجاهد مغربي. وما يبرر المساعدة الاسبانية الا الرغبة في حماية الثغور التي كانت مهددة، كما أن اسبانيا كانت تترقب احتمال بحث بريطانيا عن تعويض لطنجة في إحدى الضفتين، الشيء

الذي تم باحتلالها لجبل طارق سنة 1704 إلى أن أصبح مكتسبا قانونيا بمقتضى إحدى اتفاقيات أوترخت (Utrecht) لسنة 1713 ومصادقة اسبانيا بمقتضى اتفاقية اشبيليا لسنة 1729.

وقبل هذا الاحتلال الجديد وضيلة خمس سنوات (1699 — 1700) تدهورت العلاقات بين المغرب وبريطانيا إلى أن دفعت المواقف البريطانية السلبية بالملك وليام الثالث (William III) أن يطلب من السلطان مولاي اسماعيل محاصرة سبتة.

ولما قبل مولاي اسماعيل تسليم الأسرى الأنجليز رغبة في تقوية العلاقات الثنائية، كان يتوقع في المقابل دعما لاسترجاع المغرب لسبتة كما أكدت ذلك بعثة مغربية إلى الملكة البريطانية آن (Queen Anne) في مارس 1706 مع وعد المغرب بتقديم ما تحتاج إليه من مساعدة بشأن إمداد مستعمراتها الجديدة بالمواد الغذائية، إلا أن السفارة لم تكن ناجحة.

### تدهور العلاقات

في سنة 1776 أدي عدم استجابة بريطانيا لبعض رغبات المغرب إلى رفع الرسوم الجمركية على الصادرات إلى جبل طارق، مع العلم أن اسبانيا حاولت قبل ذلك بست سنوات أن تمنع المغرب من مد جبل طارق بالمواد الغذائية، كما سبق لسفير مغربي أن أخبر الحكومة البريطانية بذلك. ومن غريب الصدف أنه في هذه الفترة بالذات أعلن المغرب سنة 1777 عن سماحه لبواخر الولايات المتحدة الأمريكية المستقلة بالارساء في موانئه، معترفا بذلك بالدولة الجديدة، المستعمرة البريطانية سابقا.

### مساعدة بريطانيا سنة 1807

في عهد السلطان مولاي سليمان قبلت بريطانيا المشاركة في محاولة مغربية لاسترجاع سبتة، وذلك باحتلالها لجزيرة المعدنس بموافقة المغرب الذي كان يستعد للقيام بمحاصرة المدينة. لكن سرعان ما تراجعت بريطانيا أمام ضغوط فرنسا التي كانت تهدد باحتلال سبتة، مما أثار احتجاج السكان الاسبان. والغريب في الأمر أن تتحول نية المساعدة إلى عرقلة بعض المفاوضات التي انطلقت في مرحلة لاحقة بين المغرب واسبانيا بخصوص استرجاع الثغور المحتلة بساحل البحر الأبيض

المتوسط. بل ذهبت بريطانيا أبعد من ذلك باغتنامها الانقسام السياسي داخل اسبانيا للحصول على موافقة اسبانية لاحتلال سبتة ما بين سنة 1810 و 1814، أي إلى نهاية الحروب النابوليونية.

### تدهور العلاقات من جديد

من أهم الأسباب التي كانت تؤدي إلى فتور في العلاقات بين المغرب وبريطانيا قضية سبتة ومليلية والجزر المجاورة كما كان الشأن سنة 1858، أي مباشرة بعد إبرام اتفاقية 1856 الشهيرة.

ونظرا لما كان للمغاربة من حذر دبلوماسي شعروا آنذاك ببعض التراجع في المواقف البريطانية تجاههم حينما طُلب منه التساهل مع اسبانيا التي كانت تهدد بإشهار الحرب اذا لم تُلب رغبتهم الترابية خاصة. ورغم التنازلات المغربية. من بينها ضبط وضعية سبتة، طالبت اسبانيا بالمزيد من الأراضي، وكان ذلك من بين الأسباب التي أدت إلى حرب تطوان. ثم بعد ذلك تدخلت بريطانيا لتطلب من المغرب قبول شروط اسبانيا تفاديا لاحتلال تطوان، كما أنها قامت بدور في الحصول على جلاء القوات الاسبانية من المدينة. ومن جملة الشروط التي قبلها المغرب النظر في قضية الحدود.

### جون درومند هيي (John Drummond Hay) وسياسة البوغاز

يعتبر المفوض البريطاني جون درومند هيي عملاق السياسة الغربية تجاه مغرب القرن التاسع عشر حيث تمكن من اكتساب خبرة واسعة بحكم ممارسة دامت أزيد من اثنتين وأربعين سنة في منصب شغله تقريبا عن طريق وراثية، نظرا لأن والده كان يحتله من قبله. والرجل هذا معروف بالدور الذي كان يقوم به في مجال السياسة الخارجية المغربية وكذا في تقديم النصح للمسؤولين المغاربة بخصوص مجال الإصلاحات التي كانوا يفكرون في الاقدام عليها. ولما انشغل بقضية سبتة أثار في سنة 1868 احتمال تسليم جبل طارق إلى اسبانيا مقابل سبتة بالذات، وذلك إثر نشر جريدة التايمز (The Times) مقالا في الموضوع بقلم الأميرال كربي (Admiral Grey)، وهو ضابط بحري سبق له ان عمل بجبل طارق. أما الرأي العام البريطاني فكان معارضا للفكرة.

وفي سنة 1871 أفصح هيي عن موقفه الخاص، وذلك بتأييد الفكرة من أجل



الحفاظ على علاقة ودية مع اسبانيا أساسا، وبناء على المبررات والاستنتاجات التالية على الخصوص :

- 1 . في وقت الحروب لا يمكن الاستفادة من قاعدة جبل طارق إلا إذا توفرت على جيش لا يقل عن ستة آلاف جندي ؛
  - 2 . أن سببة قد تكون أكثر فائدة من جبل طارق، وخاصة بعد إدخال التحسينات على مينائها ؛
  - 3 . تمكين بريطانيا من التحكم في الأوضاع على الشاطئ قصد الحفاظ على استقلال المغرب ؛
  - 4 . تقوية المغاربة بوجود بريطاني على شاطئهم ؛
  - 5 . تقوية حظوظ تنفيذ مشاريع الإصلاحات التي كانت مطروحة ؛
  - 6 . استغلال الموارد المعدنية، خاصة وأن الحساسيات والمناقشات الغربية حالت دون الاستفادة منها ؛
  - 7 . استخدام سببة مستودع بريطاني للقمح ومركز تجاري يكون أكثر صلاحية من جبل طارق ؛
  - 8 . ضمان سلامة البواخر البريطانية والحصول على المواد الغذائية، خاصة فيما يجب سد الحاجة به من مادة القمح ؛
  - 9 . ضمان الاستقرار في القارة الأوروبية واستتباب الأمن بها ؛
  - 10 . فلسفة اللورد نيلسن (Lord Nelson) القائلة بأن نجاح بريطانيا البحري جنوب أوروبا رهين اما بصداقة المغرب أو باحتلال طنجة.
- وكان همي يقدم كل هذه التبريرات مدعيا في نفس الوقت أنه كان يستهدف خدمة مصلحة المغرب إلى جانب مصلحة بلاده.
- ومن جهة أخرى كانت كل التحاليل السياسية السابقة لعهد الحماية تدل على احتمال تسليم جبل طارق لاسبانيا في وقت ما.

### اتفاقية 1904 الفرنسية البريطانية

مع بداية القرن العشرين حيث بات من المؤكد أن مفتاح المضيق في قوة الملاحه، كما تأكد أيضا أن احتمال توحيد بين بريطانيا واسبانيا قد يقطع لا محالة



طريق البحر الأبيض المتوسط على فرنسا نتيجة دور عسكري تقدمه سبته للحد من التفوق البريطاني انطلاقا من جبل طارق.

فبعد الاتفاقية الفرنسية الاسبانية والاتفاقية البريطانية الاسبانية وضمن مسلسل الاتفاقيات التي كانت تبرمها الدول الغربية فيما بينها من أجل تعايش استعماري، هناك اتفاقية 1904 التي عبرت فيها بريطانيا عند توقيعها مع فرنسا عن موقفها تجاه الوجود الاسباني بشمال المغرب. ومن الأشياء التي تنص عليها الاتفاقية ما يلي :

1. ترك حرية التصرف لفرنسا بالمغرب شريطة احترام الحقوق البريطانية به (الفصل الثاني) ؛

2. اتفاق الحكومتين على عدم السماح بإقامة بنايات جنوب مضيق جبل طارق أو على طول ساحل المحيط الأطلسي إلى حد منبع نهر سبو جنوبا، أو على ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى مليلية شرقا، باستثناء ما في حوزة اسبانيا (الفصل السابع) ؛

3. بناء على العلاقات الودية يعترف لاسبانيا بحقوقها على ساحل البحر الأبيض المتوسط (الفصل الثامن) ؛

وبعد فرض نظام الحماية حرصت بريطانيا على حياد مدينة طنجة أو تدويلها بدعوى الحفاظ على وحدة المغرب وسيادته.

### تطابق الموقفين الاسباني والبريطاني

في الأثناء التي بدأ المحللون البريطانيون مثل برايت (Bright) وكولدفين (Goldvin) ونيومن (Newman) وكونكريف (Congreve) يعتبرون احتلال جبل طارق عملا غير لائق بدولة متحضرة ومنافيا لجميع مبادئ القانون الدولي والأخلاق، برزت في الأوساط الاسبانية فكرة مماثلة بخصوص احتلال المغرب. ولعل أهم تصريح في هذا الباب ما جاء في خطاب ألقاه السيد بريمو دي ريفيرا (Primo de Rivera) يوم 25 مارس 1917 أمام أعضاء الأكاديمية الأمريكية الاسبانية بقاديس، ملخصا الوضع بأنه «إهانة مستمرة» حسب الجانب الاسباني و «ظلم ضروري» بالنسبة للجانب الانجليزي. ومما قاله :

«أعتقد أنه لا بد من توفير الفرصة المناسبة للعمل على اقتراح استبدال

قلعة جبل طارق وحوضها بقلعة سبتة وحوضها، ومعنى ذلك وبكل وضوح التخلي عن أي مطلب في طنجة وإذا ما اقتضى الحال تسديد عرض التعويض بأراضي أو جزر افريقية خاضعة لنفوذنا وسيادتنا.» وبعد التعليق على هذه الفكرة بأنها ليست جديدة، يؤكد بريمو دي ريفيرا بأنه «سيأتي قريباً وقت إعادة النظر في العديد من الحدود والمواقع»، وأنه «إذا كان لاسبانيا أن تفخر بسياسة افريقية، فلها كذلك سياسة أخرى لا تقل فخراً وهي التخلي عن افريقيا»، مفضلاً في نفس الوقت إلا تضطر اسبانيا إلى «عرض أكثر من سبتة مقابل جبل طارق».

ومع هذا كله لم يغفل العلاقات المغربية الاسبانية حيث قال :

«هناك بلد مجاور يستحق كل ما يلزم من العناية والعطف، فيجب أن نعمل على الحصول على وحدة أخوية معه، وذلك من أجل مصلحة الجانبين».

وقد أدت هذه التصريحات بصاحبها إلى عزله من منصبه، ولكنه سرعان ما غير موقفه بعد ارتقائه مقاليد السلطة في شكل جديد حيث لا مجال هنا لذكر سلوكه تجاه المغرب والمغاربة بعد الثورة.

ومن جهة أخرى حاول الانجليز اغتنام فرصة هذه الثورة لاستلاء على سبتة لكل دون التمكن من تنفيذ الخطة لعدم توفرهم على أسطول لحماية المدينة.



# فج الحياة العلمية والأكبية بسببة





## مدخل إلى الحركة النقدية في سبتة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة.

ذ. علي لغزيوي<sup>(\*)</sup>

يمثل هذا البحث جانبا من مشروع دراسة موسعة عن حركة النقد الأدبي في الغرب الاسلامي هي الآن قيد الإنجاز.

وهذا العرض لا يتجاوز إطار (المدخل) وطبيعته، ويعالج الموضوع وفق الخطوات المنهجية الآتية :

1 — توطئة عن حركة النقد الأدبي في الغرب الاسلامي بصفة عامة، وفي مدينة سبتة بصفة خاصة، بعد ضعف النقد في المشرق، مع تحديد ملامح الخطاب النقدي في مدينة سبتة باعتبارها بيئة نقدية متميزة خلال هذا العهد.

2 — عوامل تنشيط الحركة النقدية في سبتة.

3 — أعلام النقد البارزون في البيئة السبتية.

4 — الاتجاهات النقدية الكبرى في سبتة.

5 — قضايا النقد الهامة في سبتة.

6 — الطابع العام للخطاب النقدي عند السبتيين.

7 — اقتراح.

---

(\*) كلية الآداب فاس

## — توطئة : —

حينما تحدث الدكتور إحسان عباس عن النقد الأدبي في القرنين السادس والسابع للهجرة، ضمن كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب)، قرر أن الانحراف نحو الشكل كان قد وصل في المشرق، خلال هذين القرنين، إلى النتيجة الحتمية، وهي الاهتمام في الشعر بالشؤون البلاغية التي كانت تسير من قبل في معونة الحركة النقدية، فلما ضعف النقد، انفصلت عنه البلاغة واستقلت، واستأثرت بالاهتمام الكلي، وأصبحت جهود أصحابها مقصورة على التفنن في التقسيم والتفريع، وتحولت كلمة «نقد» عن معناها الأصلي.(1)

غير أن الحال إذا كان كذلك في المشرق، حيث ساد الاهتمام بالمصطلح البلاغي الشكلي أكثر من غيره، فإن الأمر يختلف بالنسبة للغرب الإسلامي، ونعني به الأندلس وشمالي إفريقيا بصفة عامة، إذ عرفت بعض المراكز الثقافية نشاطا ملحوظا في مختلف العلوم والفنون، وفي مقدمتها الأدب والنقد، ومنها : فاس ومراكش وسبتة وبجاية والقيروان وغيرهما من مراكز شمالي إفريقيا، بالإضافة إلى بعض البيئات الأدبية في الأندلس.

كذلك ظهر أعلام كان لهم دور بارز في تنشيط الحركة النقدية التي كانت في مقدمة اهتماماتهم، بالإضافة إلى آخرين وافدين شاركوا في النشاط النقدي بحظ واضح، في مختلف البيئات النقدية في الغرب الإسلامي.

وقد تضافرت مجموعة من العوامل والمؤثرات في تنويع الاهتمامات النقدية، وتعدد الاتجاهات، منها ما يعود إلى الروافد الكبرى : المحلية والمشرقية، ومنها ما يعود إلى ثقافة النقد وطبيعتها، ومنها ما يعود إلى طبيعة القضايا. والمشكلات التي يخوض فيها النقد والبلاغيون.(2) وكل ذلك يظهر جليا لمتتبع أسس النظرية النقدية لدى المغاربة، وللباحث في مقوماتها ومعاييرها، اعتمادا على النصوص النقدية المتوافرة، مطبوعة ومخطوطة.

---

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : نقد الشعر ص : 496.

(2) انظر : النقد الأدبي القديم في المغرب : روافده واتجاهاته : علي لغزوي : ضمن أعمال :

ندوة : جوانب من الأدب في المغرب الأقصى.

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة رقم : 1 ص 44 وما بعدها

ولعل حال النقد في المشرق، هو الذي جعل الدكتور إحسان عباس ينتبه إلى دور الأندلس فيرى أنها قد اضطلعت بكثير من مهمة النقد في هذين القرنين، ولكنه يلاحظ أن الأندلس لم تكن تعي أنها مهياةٌ لدور خطير في النقد، وغياب الوعي جعلها — في نظره — تتقاعس عن أداء دورها، ذلك بأنها — على سبيل المثال — قد اضطلعت بتطوير فني الموشح والزجل اللذين كانا يتطلبان مقاييس نقدية جديدة ملائمة، ولكنها لم تستطع أن تضع تلك المقاييس النقدية التي تتطلبها كل من الموشح والزجل، وفات العهد الذي كان يمكنها من الالتفات إلى المشكلات الكبرى.<sup>(3)</sup>

ولا نريد أن نناقش الدكتور إحسان عباس فيما ذهب إليه، فلتعلقنا عليه مجال آخر، وانما نشير إلى أن الدور الذي اضطلعت به الأندلس في مجال النقد لم يكن وقفا على هذه البيئة دون غيرها، بل هو قاسم مشترك بين مختلف بيئات الغرب الاسلامي.

كما أن هذا الدور لم يقتصر على القرنين السادس والسابع، بل تعداهما إلى القرن الثامن الهجري الذي تميز بكثير من الخصب والتنوع في مجال النقد الأدبي في المغرب والأندلس على السواء. علما بأن التداخل بين العدوتين قد قوي خلال هذه القرون الثلاثة على عهد الموحدين وبني مرين في المغرب، وعهد بني الأحمر في غرناطة بالأندلس.

ويؤكد ذلك أمران :

أولهما : عدد النقاد والبلاغيين خلال هذه القرون، وهو عدد كبير بالقياس إلى المراحل السابقة.

وثانيهما : النصوص النقدية التي بدأ كثير منها يرى النور على يد مجموعة من الشباب المغربي الباحث بمختلف الجامعات المغربية، وهي نصوص هامة، من شأنها أن تغير أو تعدل كثيرا من الأحكام والآراء السالفة، وهو ما نلمسه في بعض الدراسات الجادة التي اعتمدت نصوصا نقدية من هذه القرون، ولاسيما ما يعود منها إلى القرنين السابع والثامن للهجرة.<sup>(4)</sup>

(3) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص: 497

(4) من تلك الدراسات على سبيل المثال : مناقشة الدكتور غلال الغازي لآراء ابن خلدون، وذلك في أطروحته : مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن الهجري.



فإذا قصرنا الأمر على مدينة سبته، خلال هذين القرنين بالذات، وجدنا أنها تمثل بالفعل بيئة نقدية متميزة، توافرت لها مختلف العوامل والظروف التي جعلتها تحظى بعناية خاصة في الدراسات النقدية والبلاغية على غرار اهتمامات الدارسين في مختلف مجالات العلم والمعرفة.

وليس الازدهار الثقافي الذي عرفته المدينة في هذين القرنين إلا نتيجة طبيعية للجهود السابقة منذ عهد المرابطين والموحدين، أثمرت في هذا العهد ليتحقق لها النضج والرقى في الفكر والثقافة عامة، مما جعل بعض الدارسين يعتبر هذا العهد مرحلة الثبات والاستمرار، إذ «تواصل سبته على امتداد القرنين السابع والثامن مسيرتها الفكرية فلا تنه ولا تتعثر، وتتسع روابطها بخواضر العلم الأخرى في المشرق والمغرب، وتلمع في سمائها أسماء أعلام ذوي شهرة وجاه عريضين، كلهم من أقطاب العلم أو فرسان الآداب» (5).

وعلى الرغم من تنوع المعارف والعلوم فيها، نستطيع أن نلاحظ أن أهم ما كانت تمتاز به هذه المدينة في هذه الحقبة، عناية علمائها وأدبائها بالجانب النقدي، وبالأبحاث اللغوية الدقيقة. وبالشروح على المتون العلمية والأدبية، وبالتصرف في ألوان البديع وإخضاع الشعر لقيوده وفنونه (6).

كما أن دراسة بعض فنون الشعر العربي في المغرب، والبحث في أصولها النقدية في المجالين : التنظيري والابداعي التطبيقي، يعود الفضل فيه إلى سبته، وأعني بذلك دراسة المولديات، والتنظير لفن المديح النبوي في المغرب فإنه لا يمكن أن يتم بمعزل عما نظمته السبتيون في هذا المجال ومنهم :

= ودراسة الأستاذ مبارك العلمي في رسالته عن (أبو القاسم الشريف السبتي : الناقد الأديب)، وتحقيق الأستاذ رضوان ابن شقرون لكتاب (الروض المريع في صناعة البديع) لابن البناء المراكشي. وتحقيق الأستاذ محمود الحجوي لشرح الشريف السبتي (رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة). وإشارات د. محمد ابن شقرون في مقدمة تحقيقه لكتاب (الامتاع والانتفاع...) لابن الدراج السبتي.... إلخ.

بالإضافة إلى المنزغ البديع للسجلماسي بتحقيق علال الغازي.

(5) سبته : رجالها ومكانتها وصلاتها العلمية بمختلف الحواضر الإسلامية :

د. محمد العربي الخطابي — مجلة المناهل ع : 22/1982 ص : 55.

(6) أبو القاسم السبتي من خلال شرحه لمقصورة حازم :

د. محمد بن عبد العزيز الدباغ — مجلة المناهل ع : 22 ص : 636.

— ابن فرج السبتي بمخمساته في مدح النعال النبوية الشريفة، ملتزما فيها ما لا يلزم على غرار أبي العلاء المعري.

— ومالك بن المرحل الذي بلغ هذا الفن أوجه على يديه خلال القرن السابع الهجري، من خلال نبوياته وفي مقدمتها مُعشَّراته، و(الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى). وقد رتبها على حروف المعجم، ملتزما افتتاحها كلها بحروف الروي، ونظم في كل حرف عشرين بيتا.

— وأبو العباس العزفي السبتي صاحب المولديات الشهيرة، وغيرهم، «فإذا قلنا ان القرن السابع الهجري عصر الأمداح النبوية والنعال الشريفة والمولديات، فإن هذا صادق إلى أقصى ما يكون الصدق، وقد تحقق هذا لأول مرة بمدينة سبتة التي كانت على اتصال وثيق بالأندلس»<sup>(7)</sup>.

وكذلك لا يمكن التأصيل النقدي لفن المقصورات والتنظير له، دون ادخال مقصورة حازم، وجهود الشريف السبتي في شرحها شرحا أدبيا وافيا في دائرة الاهتمام، بالاضافة إلى مقصورة المكودي الشهيرة بطبيعة الحال، وما ينبه عليه صاحبها من أصول خاصة بالمقصورات، وإشكال متعلق بمضمونها بين المنحى الدنيوي والمنحى الأخروي؛ فقد نعى المكودي على ابن دريد وحازم القرطاجني جعل مقصورتيهما في معنى الدنيا، بينما جاءت مقصورته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو أمر يستحق وقفة نقدية خاصة.

يقول المكودي في مقصورته في هذا المعنى<sup>(7)</sup> :

|                            |                              |
|----------------------------|------------------------------|
| مقصورة، لكنها مقصورة       | على امتداح المصطفى خير الورى |
| ماشبتها بمدح خلق غيره      | لرتبة أحظى بها ولا جزا       |
| فاقت علاء كل ذي مقصورة     | وان هم نالوا الأيادي واللها  |
| فحازم قد عُدد غير حازم     | وابن دريد لم يفده ما درى     |
| فإن أكن ملقى الغنى من غيره | فلن يفوت مملقا منه الغنى     |
| وإنما قصدي أن أحظى بما     | يبقى من الذكر الجميل والتقوى |

(7) الوافي بالأدب العربي في المغرب د. محمد بن تاويت 342/1.

(7م) أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن (نشير الجمان) لآين الأخر تحقيق د. محمد

رضوان الدايدة ص: 394. مؤسسة الرسالة. بيروت 1396هـ/1976م.

## — عوامل تنشيط الحركة النقدية بمدينة سبتة :

تتميز ثقافة السبتيين بالطابع الموسوعي في الغالب. ولعل هذه السمة كانت غالبية خلال هذين القرنين في المشرق والمغرب على السواء، فهما يمثلان عهد الموسوعات في تاريخ حركة التأليف عند العرب.

ويعتبر النشاط النقدي جانبا من جوانب الحركة الفكرية عامة، تخضع لنفس العوامل والمؤثرات، مع خصوصيات هذا الجانب أو ذاك.

ويمكن إجمال العوامل والمؤثرات التي كان لها دور في تنشيط الحركة الفكرية عامة، والحركة النقدية خاصة، فيما يلي :

### أولا : دور بعض الأسر التي عرفت بتشجيع العلم والعلماء :

وفي مقدمتها آل العزفي، فيتهم من بيوتات سبتة النبيلة، تداولوا حكمها خلفا عن سلف منذ سنة 647هـ، على يد الفقيه أبي القاسم العزفي، في أواخر عهد الموحدين. «ومن حسن حظ سبتة ولاية بني العزفي عليها في هذه الفترة التي كان المغرب فيها يموج ويعج بالاهوال والأوجال، من جراء انتقال الملك من الموحدين إلى المرينيين، فبقيت بمنجى من الفتنة وما يصحبها من اضطراب الأحوال إذ قام رؤساؤها الجدد بضبطها وتحصينها حتى انتظم أمرها واشتهر ذكرها... وهم مع ذلك عاملون على تنشيط الحركة العلمية والأدبية والأخذ بضبعها، بما كان لهم من ميل صادق إلى المعرفة، ومشاركة طيبة في فنونها».(8)

ويكفي أن نذكر أبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد، مؤلف كتاب ( الدر المنظم في مولد النبي المعظم)، وقد أكمله ولده أبو القاسم محمد.

وأبا القاسم عبد الرحمن صاحب كتاب (الاشادة بذكر المشتهرين من المتأخرين بالاجادة) وهو كتاب ألفه للوزير ابن الحكيم. ويعتبر ذا أهمية كبرى في تاريخ الأدب المغربي،(9) نقل منه المقرئ في أزهار الرياض، أحمد ابن القاضي المكناسي في (جذوة الاقتباس). وكذلك نذكر أخاه أبا العباس أحمد (ت 708هـ) شاعر سبتة

(8) أبو العباس العزفي ذ. عبد الله كنون ص : 5 — 6. سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب رقم : 27 دار الكتاب اللبناني — بيروت — الطبعة الأولى : 1960.

(9) نفسه ص : 8.



الذي حمل راية مذهب الشعر في وقته حسب عبارة لسان الدين بن الخطيب الذي وصف شعره بقوله: «وشعره نمط عال، ومحل للبراعة حال، لطيف الهبوب، غزير المائبة، أنيق الديباجة، جم الخحاسن» (10).

وهكذا جمع بنو العزفي بين الزعامة الروحية والفكرية والسياسية في مدينة سبتة، وعملوا بثتى الوسائل من أجل تهيم المناخ المناسب لحركة ثقافية نشيطة في مختلف المعارف.

### ثانيا : دور الوافدين عليها :

فقد كانت سبتة باستمرار نقطة عبور أو محطة استقرار لعدد من العلماء والمفكرين الذين يفدون عليها من عدة جهات، من فاس ومراكش وتلمسان وبجاية والقيروان وغيرها، وتمثل لأولئك الوافدين عليها من مختلف الحواضر المغربية بأبي عبد الله محمد بن خميس التلمساني (ت 708هـ)، فقد وفد على سبتة بقصد الاقراء والاقامة، وبين يديه قصيدة غريبة في موضوعها، مدح فيها سبتة، وأشاد بمائها وهوائها ورقتها واعتدالها، ورواء بساينها وحدائقها، وجمال أبحرها وجبالها، وآلى على نفسه ألا يرتوي غير مائتها، وأن لا يحط رحله إلا بقصرها... والتفت إلى العزفيين أمرائها، فأجاد مدحهم والثناء عليهم :

كواكب هدي في سماء رئاسة      تضيء فما يدجو ضلال ولا يطنحو  
ثواقب أنوار ترى كل غامض      إذا الناس في ظحياء غيهم التخوا  
وروضات آداب إذا ما تأرجت      تضائل في أفياء أفنانها الرخ (11)

ولكن ابن خميس لم يجد في سبتة إلا ما أقضى مضجع غريب مثله، وجعله يرحل عنها سريعا لا يلوي على شيء، وقد تبخرت أمانيه في الاستقرار، ولكن ما بهمنا هنا هو ذلك الموقف الذي وقفه عيون طلبة سبتة، بإيعاز من ابن أبي الربيع،

(10) الاحاطة : 278/1 الطبعة الثانية.

(11) المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله ابن خميس : ذ. عبد الوهاب بن منصور ص : 29 — 30 الطبعة الأولى 1365 — مطبعة ابن خلدون — تلمسان.

والقصيدة في نفح الطيب 307/5 — 376 تحقيق د. إحسان عباس، وانظر شرح الدكتور عبد الله الطيب لهذه القصيدة الخائية : بين ابن خميس وسبتة — مجلة المناهل : ع : 1982/22 ص : 493 وما بعدها.

ظحا الضلال : اشتدت ظلمته — الرخ : الشجر المجتمع.



حين أمطروه بأسئلة أرادوا بها اعجازه، وتعلق بمسائل من غوامض الاشتغال،<sup>(12)</sup>

والواقع أن مدينة سبتة كانت حاملة لواء النحو والعربية، ولا سيما على عهد ابن أبي الربيع (599هـ — 688هـ). إمام أهل النحو في زمانه، اللغوي الفقيه الفرضي، جاء إلى سبتة لما استولى المسيحيون على موطنه اشبيلية، وكان سقوطها سنة 646هـ، فاستقر بها وأقرأ بها إلى أن توفي سنة 688هـ. وقد هيا هذا الجو العام لازدهار الاتجاه اللغوي في النقد الأدبي، كما سرى، فكثرت الجدل، وتعقب النحاة واللغويون استعمالات بعض الشعراء التي أثارت انتقادهم، وقويت الخصومات أحيانا بين كبار الأدباء واللغويين والنحاة والشعراء.

وأما المشاركة الوافدون على سبتة، ممن كان لهم دور في تنشيط الحركة الثقافية عامة، وضمنها الحركة النقدية، فمثل لهم بالسيدة سارة الحلبية التي أثارت مساجلات مع بعض أدباء سبتة مثل مالك بن المرحل، وابن رشيد السبتي وغيرهما، وتبادلت معهما ومع غيرهما التقريزات، وكانت أديبة شاعرة، وفدت على فاس، ثم دخلت الأندلس ومدحت أمراءها، ثم قدمت على سبتة في آخر المائة السابعة، فمدحت رؤساءها، وخاطبت كتابها وشعراءها.<sup>(13)</sup>

### ثالثا : جهود بني مرين في تشجيع العلم والأدب :

اهتم بنو مرين بالعلم والأدب، وعقدوا مجالس للمناظرة والمحاضرة، ومطارحة الأدباء ومحاوره الشعراء.<sup>(14)</sup> بل كان منهم الفقهاء والأدباء والعلماء. كما عنوا بالكتب والمكتبات، ويكفي أن مدينة سبتة على سبيل المثال، غدت خزانة للكتب كما تصفها المصادر،<sup>(15)</sup> وأنشأوا المدارس في كل بلد من بلاد المغرب وغيرها مما امتد إليه نفوذهم، وحظيت سبتة بنصيب وافر من ذلك،<sup>(16)</sup> وقد بلغ عدد

(12) انظر هذه القصة والأسئلة في : المنتخب النفيس ص 30 — 32 ونفح الطيب 356/5 — 357.

(13) جذوة الاقتباس لابن القاضي : 522/2.

(14) سلوة الأنفاس للكتاني 168/3.

(15) انظر الحركة العلمية في سبتة خلال القرن السابع الهجري. اسماعيل الخطيب ص : 73. مطبعة النور، تطوان 1406هـ/1986م.

(16) من مدارس سبتة على سبيل المثال مدرسة الشيخ المحدث الراوية المعني بالعلم وأهله المنفق ماله في نشره واقناء كتبه أبي الحسن الشاربي الغافقي السبتي

الخزانات العلمية بها ما يناهز 62 خزانة علمية حسب إحصاء محمد بن القاسم الانصاري السبتي. (17)

وتضافرت جهودهم مع جهود بني العزفي لتحقيق الازدهار الثقافي الذي شهده المغرب على عهد بني مرين خاصة.

رابعا : التنافس والرغبة في التفوق وإثبات الذات :

وهو أمر طبيعي في كل انجالات، وفي مختلف البيئات، ولكنه قوي عند السبتيين الذين كانوا يحسون إحساسا قويا بالمواطنة. فبرزت شخصيتهم، وسعوا إلى تخليد مآثرهم ومآثر مدينتهم ورفع اسمها وتفضيلها على غيرها في نثرهم وشعرهم، وتشوقوا إليها عند بعدهم عنها.

وقد أدى ذلك كله إلى خصومات أدبية عديدة، ومنها على سبيل المثال خصومات مالك بن المرحل مع بلدته ابن أبي الربيع النحوي، ومع أبي علي ابن رشيق الذي كان قد سكن سبتة وأصبح فيها من المبرزين، كما وقعت خصومة أدبية بين مالك بن المرحل وابن عبد الملك المراكشي وشارك فيها أيضا ابن رشيد السبتي منتصرا لمواطنه وبلديه ابن المرحل.

— أعلام سبتة في النقد :

لا أريد الترجمة لأعلام النقد في سبتة في مختلف مراحل تاريخها الاسلامي، فهذا مشروع كبير أدعو إخواني وزملائي الباحثين إلى الاضطلاع به، كل في مجال اهتمامه، ليكون نواة للموسوعة السبتية التي ستكون لها فائدة كبيرة. ولكني أود أن أبرز مالمعرفة أعلام هذه المدينة من دور في الاقتراب من الاتجاهات الثقافية التي سادت فيها، والاطلاع على العلوم والمعارف التي كانت متداولة في حلقات الدرس بها، وطبيعة التفاعل الفكري الذي يربط بين مبدعيها ومفكريها على اختلاف اتجاهاتهم ومنازعاتهم.

وليس من المبالغة في شيء أن نقرر أن مدينة سبتة التي غدت بيئة ثقافية متميزة

---

والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة لزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام والواحة المتعددة التي ابتناها السلطان أبو الحسن المريني. انظر : اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار مجلة تطوان ع : 3 — 4 مزدوج/1958 — 1959 ص : 81

(17) اختصار الأخبار، نفسه ص : 82.

قائمة الذات، قد عرفت من الأعلام الذين خلدوا ذكرها، بإسهامهم في بناء مجدها الثقافي، أكثر مما عرفته أخوات لها في باقي بلاد المغرب، ولعل موقعها الذي جعلها بوابة ومنفذاً من الأندلس وإليها، قد جعلها ممراً طبيعياً وجسراً ميسوراً لكل الراحلين إلى الأندلس أو منها من المشاركة والمغاربة والأندلسيين، ولاشك أن المناخ الثقافي كان يشد بعضهم إلى الاستقرار بها مدة تطول أو تقصر، يتصل فيها بأعلامها وشيوخها وطلبة العلم فيها، ويشجع على ذلك توافر المرافق الضرورية بها من مساجد ومدارس وفنادق وما إليها،<sup>(18)</sup> وما عرف عن أهلها من تكريم للعلم والعلماء.

ولذلك نقول إنه إذا كان لأبناء سبتة دور في تنشيط الحركة الفكرية بمدينتهم، فإن لهم أيضاً فضل توفير الظروف المناسبة للوافدين عليها كي يسهموا بنصيبهم في ذلك، ومن هنا تأتي كثرة الأعلام ممن يجمع بين النسبة إلى سبتة وغيرها من المراكز المغربية والأندلسية.

إن الرجوع إلى كتب التراجم والطبقات والفهارس والبرامج، أو معاجم الشيوخ، وكتب الرحلة — وللمكتبة السبتية نصيب وافر من ذلك كله — كفيل بتأكيد جملة أمور. منها :

**1 — كثرة أعلام سبتة في مختلف العلوم والمعارف، وفي مختلف الاهتمامات،** كالتفسير والحديث والفقه واللغة والنحو والعروض والأدب، وقد أربت نسبة السبتيين على غيرهم، على سبيل المثال، عند الأستاذ عبد الله كنون في سلسلته عن (ذكريات مشاهير رجال المغرب)، فقد خص عددا منهم بأعداد مستقلة مثل مالك بن المرحل، وإبي بكر بن شبرين، وابن رشيد، وأبي القاسم الشريف السبتي، وعبد المهيمن الحضرمي، وأبي العباس العزفي... الخ.

(18) انظر ماسجله أحد أبنائها وهو أبو عبد الله محمد بن القاسم الأنصاري من آثارها في كتابه الموجز (اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار) الذي انتهى من تأليفه سنة 825هـ. وقد نشر الكتاب عدة مرات، فقد نشر لأول مرة بعناية ليفي بروفنسال سنة 1931م بمجلة هسبيريس — المجلد : 12.

ثم نشره الأستاذ محمد بن تاويت بمجلة تطوان العدد : 3 — 4 مزدوج — السنة 1958 — 1959. ص : 73 — 95. ثم نشره الأستاذ عبد الوهاب بن منصور بالرباط — المطبعة الملكية، سنة 1969م



كما قدم الأستاذ عبد العزيز ابن عبد الله مشروعا طيبا في حاجة إلى تنمية وتطوير، سعى فيه إلى الترجمة لأعلام سبته، إسهاما منه في إظهار عبقريتها في مختلف المجالات. (19)

وذلك بالاضافة إلى جهود السابقين مثل :

- بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته من مدرس وأستاذ وطبيب.
- الكوكب الوقاد فيمن كان بسبته من الصلحاء والعباد.
- كتب البراجم والفهارس بصفة عامة، مما له صلة بسبته.
- كتب التراجم والطبقات ومكانة السبتيين فيها.
- كتب الرحلة التي تحدثت عن سبته أو ألفها سبتيون.

2 — كثرة شيوخ العلم وتنوع حلقات الدرس للمقيمين والطارئين. (20)

3 — ميل السبتيين إلى التأليف والدرس والشرح والترجمة للشيوخ.

ولعل تساؤلا يتبادر إلى الذهن هو : كيف نظر هذا البحث إلى أعلام سبته في النقد الأدبي والبلاغة ؟ وعلى أي أساس قامت دراسة إسهامهم النقدي ؟  
يمكن الاجابة عن ذلك إجابة مختصرة، يتحدد من خلالها التصور، وتبرز الاعتبارات التي اعتمدت معايير في الدراسة، وهكذا يمكن تصنيف أعلام سبته إلى ثلاثة أصناف هي :

• أولا : أعلام ولدوا ونشأوا ودرسوا بها، ولازموها أو رحلوا عنها مدة ثم عادوا إليها.

---

(19) انظر : سبته من خلال رجالاتها (بيوغرافية شاملة) — مجلة المناهل : ع 1982/22 عدد

خاص بالحركة الفكرية في سبته. ص : 658 — 719.

وقد جمع الأستاذ عبد العزيز ابن عبد الله تراجم حوالي 150 (مائة وخمسين) علما من أعلام سبته.

(20) انظر على سبيل المثال : شيوخ العلم وكتب الدرس في سبته، من خلال برنامج القاسم التجميعي

السبتي (670 — 730 هـ) للدكتور حسن الوراكلي.

منشورات جمعية البعث الاسلامي — تطوان — سلسلة المكتبة السبتية رقم : 1 مطبعة النور :

1404 هـ / 1984 م.



• ثانيا : أعلام ولدوا بها ونشأوا ودرسوا في معاهدها. ثم رحلوا عنها إلى جهات أخرى من بلاد المغرب أو المشرق، وإن ظلت مغربيّتهم قوية، وارتباطاتهم الروحية بموطنهم سبّنة واضحة، لأن شخصيتهم الفكرية اكتملت بها، ومنهم على سبيل المثال ابن دحية السبتي.

• ثالثا : أعلام وفدوا عليها من المشرق أو الاندلس أو المغرب، وهم فئتان :  
أ — فئة طاب لها المقام بسبّنة، وتصدروا للتدريس بها، وكان لهم دور في المجال الفكري عامة.

ب — فئة وفدت على المدينة، أو مرت بها مرورا عابرا، قد يطول أحيانا، ولكنه لا يجعل هذه الفئة تمكث بها وتستقر كالفئة السالفة، والذي يجعلنا ندخل هذه الفئة ضمن أعلام سبّنة هو دورهم في إثارة اهتمامات السبّتين ببعض المباحث، وعملهم على تنشيط الحركة الثقافية عامة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مثلما حدث بالنسبة لابن خميس وسارة الحلبية وغيرهما كثير، من إثارة للمساجلات الأدبية، والتقريظات أو الانتقادات.

### — الاتجاهات النقدية الكبرى :

من الطبيعي جدا أن تتعدد اتجاهات النقد الأدبي في البيئة السبّنية، لأنها كانت مركزا ثقافيا هاما، تعايشت فيه مختلف العلوم والمعارف، وإن برّز بعضها أحيانا، وتبوأ مكانة رفيعة، ومن ذلك بصفة خاصة : علوم الحديث، النحو واللغة...

وقد تفاعلت مجموعة من العوامل لتفرض اتجاهات نقدية معينة، يمكن رصدها خلال القرنين السابع والثامن سواء أعلق الأمر بمن يتعايشون بمدينة سبّنة من أبنائها والطائرين عليها، أم بمن هاجرها إلى جهات أخرى، ولكنه ظل يذكرها ويحن إليها، ويصدر عن ثقافته التي تلقاها بها على كبار شيوخها، وبمختلف المراكز الثقافية المغربية والاندلسية الأخرى.

ونشير في هذا العرض إلى مجموعة من الاتجاهات التي برزت وتميزت على غيرها، خلال هذه الفترة بالذات، وفي مقدمتها :

### — الاتجاه اللغوي

### — الاتجاه الانطباعي/أو النقد الذوقي.

— النقد التطبيقي.

— المساجلات النقدية أو التقريظات.

ونقول كلمة موجزة عن كل منها فيما يلي :

## 1 — النقد اللغوي :

نقف في هذا الاتجاه بصفة خاصة عند بعض الأمثلة التي كان شعر مالك ابن المرحل محورا لها، ومنها مما يتعلق ببعض الظواهر الأسلوبية :

أ — قضية «أم» التي انتقدها ابن عبد الملك المراكشي على مالك بن المرحل في شعره، وشارك فيها ابن رشيد السبتي منتصرا لبلده ابن الرحل،

ب — قضية : «كان ماذا»، وهي في الإطار السابق نفسه، بالاضافة إلى ابن رشيخ خصم مالك بن المرحل.

ج — قضية التضمين، في الاطار نفسه.

ح — انتقاد كلمة (رويدا) في الشعر، وفي شعر ابن المرحل خاصة. وقد انصبت بعض الدراسات الحديثة على هذه القضايا وغيرها، نسجل أهمها :

« — رحلة ابن رشيد السبتي : دراسة وتحليل : ذ. أحمد حدادي.

« — مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن الهجري د. علال الغازي. فقد عرض كل منهما لعدد من هذه المباحث عرضا شافيا، لذلك نكتفي بالاحالة عليهما. كما حرصت المصادر القديمة،<sup>(21)</sup> وبعض الدراسات الحديثة<sup>(22)</sup> على تسجيلها إسهاما منها في تقديم صورة واضحة عن هذا الاتجاه الذي تفاعلت سبته من خلاله مع بعض البيئات النقدية الأخرى.

## 2 — النقد التطبيقي :

إذا كان كتاب ( بغية الرائد) للقاضي عياض نموذجا متقدما للنقد التطبيقي في سبته، ومثالا فريدا في بابه، فإن كتاب (رفع الحجب المستورة في محاسن

(21) منها على سبيل المثال : فتح المتعال : ص 220 — 222

— الذيل والتكملة 339/337/1

— نفح الطيب 145/4 — 146

(22) في مقدمتها : النبوغ المغربي في الأدب العربي عبد الله كنون 57/2 وما بعدها من الطبعة الثالثة.

المقصورة) للشريف السبتي يحتل الصدارة بين الشروح الأدبية في المغرب والمشرق، لما يتفرد به من مميزات، ولما يعالجه من قضايا، بمنهج متكامل واع، وبأدوات إجرائية تعكس تمكن الشارح وتحكمه فيها، وامتلاكه لعنانها. ولعل ما أنجز عن هذا الشرح من دراسات موسعة كفيل بإبراز قيمته بصفة عامة، وتقديم صورة مشرقة عن الجهود النقدية لصاحبه بصفة خاصة. (23)

والغالب أن هناك نصوصاً أخرى يمكن أن تظهر إلى النور بعد البحث والتنقيب في الجامعات والمكتبات العامة والخاصة.

وإذا كان النقد التطبيقي منهجاً عملياً للممارسة النقدية في سبته من خلال النماذج المشار إليها آنفاً، فلا شك أن هناك إلى جانبه نقد نظري، يهتم بالنظريات، والتصورات والبحث في الاتجاهين معاً كفيل بتقديم صورة واضحة عن النظرية النقدية في سبته بين قطبي التصور والتطبيق، ومدى أصالتها أو اتباعيتها. يساعد على ذلك الكم الوافر من الابداع الشعري والنثري الذي خلفه السبتيون، مما جعل التفاعل قوياً بين ملكات الأدب الثلاث : الانشاء أو الابداع، والتذوق، والنقد.

### 3 - النقد الذوقي/الانطباعي :

من المعروف أن النقد في مراحله الأولى انطباعي تأثري بطبيعته، يعبر فيه الناقد عن الاثر المباشر الذي يحدثه فيه النص الابداعي بطريقة تلقائية، انفعالية عامة.

غير أن الانطباع ظل سمة ملازمة للعملية النقدية، مهما حرص الناقد على الخضوع للمعايير الموضوعية، واعتمد التحليل والتعليل، لأن النقد في حقيقته ذوقي بالدرجة الأولى، ولكن العبرة في التمييز بين النقد الانطباعي وغيره هي الغلبة.

ومهما بلغ الذوق من الرقي عند كبار النقاد المتمرسين، فإنه لا يمكن تعليل كل الاحكام الصادرة عن الذوق، فهناك منطقة (اللاتعليل)، وقد تنبه نقادنا القدماء إلى ذلك. فذكر الآمدي في موازنته أن هناك أحكاماً تخرج عن حدود التعليل

---

(23) في مقدمة هذه الدراسات : مناهج النقد الأدبي في المغرب خلال القرن الثامن الهجري، د.

علال الغازي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب. الرباط

— أبو القاسم الشريف السبتي : الناقد الأديب. ذ. مبارك العلمي.

رسالة دبلوم الدراسات العليا في الادب العربي، كلية الآداب الرباط.

— وانظر بعض الدراسات عن الشريف السبتي في مجلة المناهل : العدد : 22. عدد خاص

بسبته.



وإمكانه، لأنها ذاتية جدا، وخاصة إلى أبعد الحدود. حتى في حالة اقتناعنا بها غير أن النقد كثيرا ما يسعى إلى تقريبها من خلال الأوصاف والتشبيهات المماثلة : فالشاعر أبو عبد الجبار بن حمديس، على سبيل المثال، في نظر ابن دحية السبتي : «شاعر جيد السبك، مليح الاستعارة، حسن الأخذ، لطيف التناول، رقيق حواشي المعاني، عذب اللفظ...» (24).

والنقد الذوقي عند ابن دحية لا يعني الانطباع الساذج الفطري كما قد يتبادر إلى الذهن، بل هو مرتبط بالمثل الذي يقدمه نموذجا في بعض الأحيان، وكأنه الحجة التي يجب أن يتأملها المتلقي للبحث في مصداقية حكم الناقد، فالشاعر ابن حمديس يعبر عن الأدب بأنفاسه النفيسة الرفيعة، ومما يجري من قوله رقة مع الماء، ويكاد يمتزج بالهواء، ويأخذ بمجامع الأهواء، قوله من قصيدة :  
 قم هاكها من كف ذات الوشاح      وقد نعى الليل تباشر الصباح  
 وباكِر اللذات واركب لها      سوابق اللهو ذوات المراح  
 من قبل أن ترشف شمس الضحى      ريق الغوادي من ثغور الأقاح (25)  
 إنه يجعل المتلقي في مواجهة الحكم والنص، للبحث بنفسه عن سر الجمال، ويحثه على ذلك بقوله معلقا على النموذج السابق :  
 «انظر ما أحسن هذه الاستعارة، وأحلى هذه العبارة» (26).

#### 4 — المساجلات النقدية أو التقريظات :

إذا كان مفهوم مصطلح النقد يتضمن معنى الشمول والموضوعية، لأنه يعني بفحص النصوص الابداعية من أجل تمييز جيدها من رديتها، فإن هناك مصطلحين يستعملان للتعبير عن طريفي العملية. هما : التقريظ، وينصرف إلى المدح والثناء خاصة، والانتقاد، ويركز على المساوئ والنقائص خاصة. ولكل منهما دوافع ذاتية تبعدهما عن الموضوعية، إلا في حالة انطباق كل منهما على مايرزه من أمور، وما يتناوله من ظواهر.

(24) المطرب من أشعار أهل المغرب : 54

(25) المصدر نفسه : 54 — 55

(26) نفسه : 55



وقد عرف كلاهما أيضا في تاريخ الحركة النقدية، فكان هناك المدح والثناء الذي يغض الطرف من كل نقیصة أو عیب، وكان هناك التحامل الذي يعمي البصيرة فتتساق مع التعصب وتندفع مع الأهواء.

ويعیننا في هذا المقام تلك المساجلات النقدية التي اتخذت صیغة شعرية، أوجمعت بین الصیغة الشعرية والصیغة النثرية في التقريظ والثناء اللذين يسجلان الرضى والإعجاب. ومن ذلك تلك المساجلات والتقريظات التي تبادلتها الأدبية الشاعرة سارة الحلبيّة مع بعض أدباء سبته حين وفدت علیها، وفي مقدمتهم مالك بن المرحل — أبو بكر ابن البواب — ابن رشيد، وغيرهم.

#### أولا : بین سارة وابن المرحل :

حين قدمت سارة الحلبيّة على مدينة سبته في أواخر المائة السابعة — بعدما دخلت الأندلس وبعض مدن المغرب الأخرى كفاس وغيرها — مدحت رؤساءها، وخطبت كتابها وشعراءها، ومن ذلك مخاطبتها لملك بن المرحل بقولها :

يا ذا العلا يا مالكي أنعم عليّ بملك  
العالم المتفنن البحر المحيط السالك

فأجابها مالك بن المرحل بقوله، وذلك بمدينة سبته :

يا ندرۃ الدنيا لقد حزت العلا بكما لك  
جمعت لك الآداب حتى إنهن كالك

فأجابته بقولها :

ورد الخطاب فسرني مضمونه ورددت أني في الفؤاد أصونه  
واشتقت كاتبه كما اشتاق الكرى من لا تنام من الغرام جفونه  
ثم وصلت الشعر بالنثر قائلة :

«وصلتني ابيات سيدنا أبقى الله مطلع سعادته، ومجمع سيادته، ومنيع كل حسن وريادته، فكانت ألد من الأمن عند الخائف، والانقياد من الخل المخالف، فنشقت مسكها المختوم، وحليت بصري وبصيرتي من درها المنظوم ووشيا المرقوم، فرأيت من السحر ما طوق النحر، والبيان ما أحرس اللسان، ومن بديع المعاني ما ألكن ابن هاني، وأبكم الكناني، ولو رآه قيس بن ساعدة، لطلب منه

المساعدة.... وقد تيقنت أنني عرضت مدلسي على نقاد، وعارضت بظلامي سني  
كوكب وقاد...» (27)

### ثانيا : بين سارة وأبي بكر ابن البواب :

ومن المساجلات النقدية التي تدخل في باب التقريظات، ما دار بين سارة  
الحلبية وأبي بكر ابن البواب، فقد كتبت إليه بأبيات منها :  
يا أيها الندب الكريم المنتخب ومن له دون الوري كل الأدب

\*\*\*

عليَّ جُدْ يا خير مرجو بما رجوته منك من أبيات الحب  
من لفظك الدر النقي المشتى الرائق العذب الشهي المنتخب  
فأجابها ابن البواب بقصيدة ميمية منها قوله مقرظا شعرها :

أرسلت البحر من الحكم ونظمت الدر من الكلم  
فجنيت جني أزهـره من مفتـح أو مختـم  
ووردت موارد صفحته فكرعت لدى نهر الكرم

\*\*\*

وأشرت إلى نظمي خيـا ومقالي ليس بمنتظـم  
لكني قلت على ثقة من سمحك أو تلك الشيم (28)

### ثالثا : بين سارة والرحالة ابن رشيد الفهري :

ومن مساجلاتها التقريضية مع الرحالة الخطيب المحدث أبي عبد الله ابن رشيد  
الفهري السبتي (ت 721هـ) ما يلي :

كتب إليها ابن رشيد بقصيدة رائية أولها :

سرى نسيم من حمى سارة عاد به كل حمى عاطرا  
وجال أقطار الدنيا ذكرها فسار فيها مثلا سائرا  
دائرة المجد قطب لها دارت عليه فلکا دائرا

(27) جذوة الاقباس 523/2 — 524

(28) المصدر نفسه ص : 524/2 — 525.

فأجابته بهذه القصيدة التقرظية من نفس الوزن والقافية :

|                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|
| وإني قريض منكم قد غدا     | لبعض أوصافكم ذاكرا        |
| أطلع من أنفاسه أنجما      | ومن شذاه نفسا عاطرا       |
| أعادت ميت الفكر من خاطري  | من بعد دفن في الثرى ناشرا |
| يهر طرفي حسن منظره        | أحب به نظما غدا باهرا     |
| فقلت له لما هالني حسنه    | أشاعرا أصبح أم ساحرا      |
| أم روضة هذي التي نرى      | أم بدرتم قد بدا زاهرا     |
| أم ضرب من فمه سائل        | أم جوهر أضحي لنا ناشرا    |
| لله ما أعذب ألفاظه        | وأنور الباطن والظاهر      |
| يا ابن رشيد يا أبا الرشيد | من لم ينزل طي العلا ناشرا |
| خذها فدتك النفس يا سيدي   | وكن لنا من نظمها عاذرا    |
| ما تصل الأثنى بتقصيرها    | لأن تباري ذكرا ماهرا(29)  |

#### • - قضايا النقد الهامة في سبته :

إن القضايا النقدية التي انصب عليها اهتمام النقاد السبتيين كثيرة جدا، لا يمكن حصرها ولا الاحاطة بها في بحث محدود كهذا، ولكن من المؤكد أنها تتصل بمختلف جوانب العملية الابداعية، وتعكس المواقف المتعددة للنقاد، ونكتفي منها بقضيتين هامتين، نوجز القول في كل منهما، مكتفين ببعض الأمثلة الموضحة، في انتظار انجاز دراسة أخرى أكثر اتساعا، وهما :

— الموقف من الشعر

— قضية المصطلح النقدي.

ولاشك أن الحديث عن الاتجاهات النقدية الكبرى يتضمن الخوض في القضايا النقدية التي يقوم عليها كل اتجاه، مع بيان ملامح منهج كل منها في معالجة تلك القضايا، كما أن القضايا النقدية التي عالجها السبتيون منها ماهي أصل، ومنها ما هو فرع من ناحية، ومنها ما هو عام، ومنها ما يرتبط بالظروف الخاصة للبيئة السبئية من ناحية أخرى.

(29) جذوة الاقتباس 434/2 — 435.

## آ - الدفاع عن الشعر :

هذه قضية شغلت ابن الدراج كثيرا في كتابه الامتاع، ويبدو أنها كانت تشغل غيره من المعاصرين له في الغرب الاسلامي أيضا، وفي مقدمتهم ابن الأحرر (ت 807هـ) كما شغلت آخرين ممن فاضلوا بين الشعر والنثر، فمال بعضهم إلى تفضيل النثر كابن عبد الغفور الكلاعي في كتابه (إحكام صناعة الكلام). ومال بعضهم إلى تفضيل الشعر.

غير أن القضية عند ابن الدراج تأخذ بعدا آخر، لأنها ترتبط بقضية أخرى لا تخلو من حساسية هي قضية السماع أو الغناء، وما يتعلق بجوازه أو تحريمه. ولعل ذلك ما جعله يهتم بإيراد النصوص الشعرية. ولاسيما في الغزل ووصف مجالس الشراب والغناء، وفي غير ذلك من الموضوعات والأغراض. ومن المعلوم أن الغناء لا ينفصل عن الشعر، لأن الغناء يقوم على أمرين :

— نظم الصوت، ويتعلق الأمر بالأشعار التي تغنى، ويختلف باختلاف موضوعها.

— الآلات وأصواتها، ويتعلق الأمر بالألحان.

ويقرر ابن الدراج موقفه الدفاعي عن الغناء والشعر في علاقتهما الجدلية، مبرزا أسباب إباحتهما أو تحريمهما فيرى أن عارض نظم الصوت يتنوع الحكم بحسبه، فإن كان العارض محرما كالخنا والفحش وهجاء المسلمين والكذب على الله تعالى أو على أحد من رسله صلوات الله عليهم أو على أحد من الصحابة، فهذا حرام أيضا كان الغناء بلحن أو بغير لحن. ويحدد موقفه بأن ذلك ولو لم يكن في غناء لكان محرما، والمستمع فيه شريك القاتل. وكذلك وصف امرأة بعينها بحضرة الرجال. بينما يذهب إلى أن النسيب والتشبيب بوصف أغصان القدود وورد الخدود، ونرجس العيون وأقاحي الثغور ولؤلئها المكنون، ولعس الشفافة، وطرر الجباه، وغرر الوجوه، وقسي الحواجب، وسهام الحافظ، وعقارب الاصداع، ورحيق الريق، وسائر الوصف الأنيق. فهذا لا يخلو أن ينزل على معين. أو على غير معين، فإن نزل على معين، فإن كانت زوجته أو جاريته جاز له ذلك في خاصة نفسه دون أن يعرض غيره للفتنة بسماع ذلك، وإن كانت أجنبية حرم ذلك عليه، وإن لم تنزل على معين جاز بدليل ما صح من تسويق الشرع لإنشاد



أشعار الغزل، لكن يحرم استماعه على من خشي الفتنة على نفسه بسماعه. (30)

ثم يرى ابن الدراج أنه إن كان العرض مكروها عن الغناء حكمه، وجرى فيه ما يجري في سائر أنواع الكلام مما تمدحه أو تدمه، وإن كان العارض مندوبا إليه كمدح الرسول ﷺ، وتعظيم الإسلام، والفخر به، والثناء على المؤمنين والترغيب في الأعمال المحمودة، والترهيب من عاقبة الأحوال المذمومة. والتذكير بمن يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، والحض على تفويض الأمور لمن تصير إليه «ألا إلى الله تصير الأمور». فهذا وما كانت مثله جميل إذا حسنت فيه النية. (31)

وهكذا يضع ابن الدراج حدودا بين المباح والمحرم، ويميز بين الجائز والمكروه في الشعر والكلام عامة، سواء أعلق الأمر بالشعر المغنى، أم كان مجردا عن الغناء، وهي نفس الاعتبارات التي يراعيها في جواز السماع أو تحريمه. (32)

وبذلك فإنه في دفاعه عن الشعر لا يخرج عن إطار الطابع المحافظ، والثقافة الدينية، والأصول التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية، دون تحرر متسبب أو ترمت.

## ب — العناية بالمصطلح :

يعتبر المصطلح مفتاحا للعلوم كما هو معروف. وقد نال عناية زائدة عند نقاد سبته، حتى غدا قضية ملحة، وموضوعا يثير اهتمام الدارس. ومن خلال مجموعة من النصوص والاشارات النقدية في المصادر السبئية، نستطيع أن نرصد مظاهر اهتمام نقاد سبته بالمصطلح النقدي والبلاغي فيما يلي :

**أولا : الاستعمال المجرد :** ويظهر واضحا من خلال تتبع النصوص النقدية، ومثله بنص لابن الدراج السبتي في كتاب الإمتاع والانتفاع بمسألة السماع يميل فيه إلى حشد مجموعة من المصطلحات بطريقة تدفع الباحث إلى إعادة النظر في كثير من التصورات النقدية في المغرب، وتثير لديه تساؤلات عديدة عن التفكير النقدي لدى المغاربة، ومصادر النقد الغائبة عنا، وعن أسبقية هذا المصدر على ذلك. يقول ابن الدراج السبتي بعد أن يخوض في قضية الدفاع عن الشعر، وينتهي

(30) كتاب الامتاع والانتفاع بمسألة السماع ص : 108

(31) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(32) نفسه ص : 41، وص : 71، وص : 106

إلى القول بإباحته حين لا يخرج عن الحدود التي رسمها الشرع :

«وهذا باب تضيق القراطيس عما نقل فيه، عن الفضلاء العلماء الجلة، ويحصل العلم القطعي من مجموع تفاصيله، بإباحة قول الشعر وتحليله على الجملة، لاسيما وهو لم يزل العلماء يعتنون بتدوين نفيسه، وتجميعه وتبيين فنون محاسنه الرائقة والبديعة، كالاستعارة، والوحي، والاشارة، والمقابلة، والمماثلة، والالتفات، والمساواة<sup>(33)</sup>، والاعتراض، ثم الرجوع بعد الإعراض، والتلويح، والتوشيح، والتصدير، والتفسير، والترديد، والتجريد، والاطراد، والتقرير، والتتبع، والترصيع، والتقفية والتصريع، والتسليم، والتقسيم، والتتميم أو الإتمام، والإيهام، والتدرج الأريج، والتبليغ أو الإيغال البليغ، والتشبيه النبیه، والتعريف العجيب، والمبالغة البالغة، والمطابقة الرائقة، والموازنة المستحسنة، والتمكين المكين، والمظافرة الباهرة، والمثل الأمثل، والتجنيس النفيس، والتكافؤ، والعلو (أو الغلو) أو الاغراق ذي الغلو (أو الغلو)<sup>(34)</sup>، والتشكيك المستطرف، والتباله المستظرفة، والمجازذي الإعجاز، ورد الصدر على الاعجاز، والاستثناء المستوجب الثناء، إلى غير ذلك من أنواع الابداع، كما أوضحوا المخترع من محاسنه أحسن الاختراع، وشرحوا أوزانه بما زاد على الكفاية وأرى». <sup>(34م)</sup>

إن هذا النص لا يمكن أن يقرأ إلا مقترنا بما في المنزع البديع للسجلماسي الذي يتضمن المصطلحات نفسها بطريقة مخالفة للطريقة السردية عند ابن الدراج. ولكننا نتساءل عن الأسبق تأليفاً : كتاب الامتاع لابن الدراج أم كتاب المنزع البديع للسجلماسي ؟

لقد توفي ابن الدراج سنة 693هـ. وقرأ القاسم التجيبي نصف كتاب الامتاع على مؤلفه الذي كان صديقاً له. ونسخ كتاب الامتاع سنة 701هـ، بخط الناسخ محمد بن ابراهيم الشلاحي. وبين وفاة المؤلف وتاريخ النسخ وقت وجيز.

أما كتاب المنزع البديع فقد انتهى مصنفه من تأليفه سنة 704هـ، وبذلك يكون كتاب الامتاع لابن الدراج أسبق تأليفاً من المنزع. ومن هنا تأتي أهمية

(33) ورد في النص المنشور بتحقيق د. محمد ابن شقرون : المساورة

(34) ورد في النص المنشور : العلو، بعين مهملة في المرتين معا.

(34م) كتاب الامتاع والانتفاع ص : 54 — 55

النص الذي يذكر فيه ابن الدراج جملة من المصطلحات النقدية والبلاغية، ومعظمها وارد عند السجلماسي، إن لم نقل إنها جميعها مستعملة في كتاب المنزع. غير أننا لا نعرف مع ذلك شيئاً عن علاقة السجلماسي بسبته، ولا نعلم شيئاً أيضاً عن شيوخته، ولا مدى اشتراكه مع معاصره ابن الدراج في شيوخته، وأين؟ تلك تساؤلات لا تخلو من أهمية، ولكن سئلاً أهم يلح أكثر من غيره، وهو: هل يتعلق الأمر بمصدر مغربي من مصادر السجلماسي، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أم أن هذه المصطلحات والفنون كانت رائجة متداولة لدى المغاربة بصفة عامة، ولدى السبتيين بصفة خاصة، من المعتنين بالنقد والبلاغة، سجلها ابن الدراج وسردها بطريقة عادية مكثفة في كتابه الإمتاع، دون عناية بتحديد مفاهيمها، ولا بتصنيفها وكأنها شيء مألوف متداول، بينما بناها السجلماسي بفكره الفلسفي، وحسه المنطقي بناءً منهجياً تركيبياً موفقاً؟.

#### ثانياً : توضيح المفاهيم :

أما المظهر الثاني للعناية بالمصطلح لدى أعلام النقد من السبتيين، فيتمثل في ميلهم إلى التعريف وتوضيح المفاهيم، مع الإشارة إلى مصطلحات أخرى مستعملة للدلالة على نفس المفهوم حين تتعدد المصطلحات بين ناقد وآخر، ونستطيع أن نستنتج من ذلك المصطلح المأثور الذي يفضلونه على غيره لأنه الأكثر تداولاً بين النقاد والبلاغيين.

ونمثل لهذه الظاهرة بنموذجين :

آ — مصطلح الالتقاط الذي يستعمله ابن دحية (ت 633هـ)، ويشير إلى أنه قد يسمى أيضاً بالتلفيق، والترتيب. ولكنه فيما يبدو، يؤثر استعمال الأول. ويقوم منهج ابن دحية في توضيح مفهوم هذا المصطلح على العناصر الآتية :

- 1 — اختيار النموذج/الشاهد وإثباته منسوباً إلى صاحبه.
- 2 — الإحالة على النصوص الغائبة التي يتم التقاطع بينها وبين الشاهد، وإثباتها منسوبة إلى أصحابها.
- 3 — تعريف مفهوم المصطلح، وذكر بعض مرادفاته.
- 4 — تحديد درجة الشاهد من الابداع والجودة.



5 — إبراز دلالة هذا الصنيع بالنسبة للتجربة الشعرية وأدواتها، مع ذكر بعض الشعراء الذين برعوا في ذلك.

ويمكن أن يتضح ما سبق من خلال قول ابن دحية في هذا النص :

«يقول ابن رشيق (أبو علي الحسن) في مدح المعز :

لو أورك من دم الأبطال سُرقنا لأورقَ عنده سمر القنا الذُّبل  
إذا توجه في أولى كتائبه لم تفرق العين بين السهل والجبل  
فالجيش ينفض حوليه أسنته نفص العقاب جناحيها من البلل

وهذا البيت (الأخير) من غرر قلائده، وهو مع ذلك ملتقط من قول المتنبي :

هز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب

ومن قول أبي صخر الهذلي :

واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر».(35)

ويعرف ابن دحية مصطلح الالتقاط بقوله مباشرة بعد بيت أبي صخر الهذلي :

«ومعنى الالتقاط، ويسمى أيضا بالتلفيق والترتيب، أن ينشر الشاعر المعاني المتقاربة، ويستخرج منها معنى مولدا يكون فيه كالمخترع، وينتظر به إلى جمع تلك المعاني، فيقوم وحده مقام جماعة من الشعراء، وهو ما يدل على حذف الشاعر وفطنته، ومن أحذق من فعل ذلك : المتنبي والمعري».(36)

ب — مصطلح التبليغ عند أبي القاسم الشريف السبتي (697 — 760هـ) :

ويقوم منهجه في تحديد مفهومه على الخطوات الآتية :

- 1 — تحديد المصطلح في سياقه العام.
- 2 — إبراز خصوصيته.
- 3 — ذكر بعض مرادفاته.
- 4 — تحديد معناه وإبراز وظيفته ( أو وظيفة دلالاته في مكانها من الشعر).

(35) المطرب من أشعار أهل المغرب ص : 58

(36) المطرب ص : 58 — 59.



5 — الاستشهاد على كل ما سبق بآراء النقاد. وهي تجمع بين الجانبين : النظري والتطبيقي، اعتماداً على الشواهد الشعرية المناسبة. وهكذا يعرف الشريف السبتي هذا المصطلح بقوله :

«وأما التبليغ فإنه نوع من التتميم الذي يراد به استيفاء غاية المعنى. إلا أنه خاص بالمقاطع، ويسمى أيضاً الإيغال، وهو أن يتم كلام الشاعر دون مقطع البيت ويبلغ به القافية، فيأتي بما يتمم المعنى ويزيد في فائدة الكلام، لأن للقافية محلاً من الأسماع والخواطر، فاعتناء الشاعر بها أكيد، ولا شيء أقبح من بناء القافية على فضول الكلام التي لا تفيد». (37)

ولكنه لا يكتفي بذلك، بل يسعى إلى توضيح مراده وتأكيده من خلال آراء الأصمعي في وظيفة التبليغ أو الإيغال في بعض النماذج الشعرية فيضيف قائلاً : «وقيل للأصمعي : من أشعر الناس ؟ قال : من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً، أو ينقضي كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى. قيل نحو من ؟ قال : نحو ذي الرمة حيث قال : قف العيس في أطلال مية فاسأل رسوماً كأخلاق الرداء... فتم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال : (المسلسل) فزاد شيئاً. ثم قال :

أظن الذي يجدي عليك سؤالها دموعاً كتبيد الجمال... فتم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال : (المفصل) فزاد شيئاً». (38)

ويمثل أيضاً بالبيت المشهور للشاعر الأعشى الأكبر الذي يقول فيه :

كناطح صخرة يوماً ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ثم يأتي بتعليق الناقد الأصمعي عليه، وتعليقه استعمال الشاعر لفظة (الوعل) في القافية، بعد تمام المعنى عند كلمة (قرنه)، لاحتياجه إلى القافية، فقد سئل الأصمعي : كيف صار الوعل له مزية على كل ما ينطح ؟ فقال : لأنه ينحط من قمة الجبل على قرنه فلا يضره. (39)

(37) رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة. ذ. محمد الحجوي 78/1 — 79.

(38) رفع الحجب المستورة ذ. الحجوي ص : 78 — 79

(39) المصدر نفسه ص : 79 — 80.

## — الطابع المحافظ للنقد عند السبتيين :

يرى بعض الدارسين أن البيئة السبئية كانت بيئة محافظة، وأن ثقافة السبتيين كانت ثقافة عربية إسلامية أصيلة ومتينة، ولكنها في إطار التنوع تهتم بسائر العلوم والفنون التي يتلقاها المغاربة في مختلف نواحي بيئاتهم، وفي سائر أطوار أعمارهم. (40)

وإذا كانت السمة الغالبة عليهم هي اهتمامهم الزائد بالحديث وعلومه، وما يتعلق بذلك من عناية بالسند والرواية والضبط والتحقيق والجرح والتعديل والنسخ وما إليه، فإن ذلك لا يعني غياب العلوم الأدبية واللغوية بما فيها النقد والبلاغة، وهو ما تؤكد مصنفات السبتيين ونصوصهم في هذا المجال، علما بأن الطابع الموسوعي واضح لديهم، كما هو الحال عند القاضي عياض والشريف السبتي وابن رشيد والقاسم التجيبي... وغيرهم.

ولكن يبدو أن الطابع المحافظ كان سمة عامة لدى السبتيين، ولم يغب عند النقاد أيضا؛ فبالنظر إلى الاتجاهات النقدية القائمة على الخلفية الثقافية وما يميزها من طوابع، أو بمراعاة الأصول الثقافية المرجعية لكل اتجاه، يمكن أن نلاحظ غياب الاتجاه المتأثر بالفكر اليوناني والنقد الأرسطي إلى حد ما، أو كونه يبدو باهتا على الأقل بالقياس إلى غيره من الاتجاهات من ناحية، وبالقياس إلى بروز هذا الاتجاه نفسه في بيئات نقدية أخرى بالغرب الإسلامي.

لقد ساد الاتجاه النقدي ذي الطابع العربي الخالص، عند الشريف السبتي على سبيل المثال، في كتابه (رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة)، والاتجاه المهتم بالاعجاز البياني للقرآن الكريم، في وقت سابق عن المرحلة التي نحن بصدددها. عند القاضي عياض في كتابه (الشفاء)، وعند بلديه ابن سبع السبتي، ثم كان لهذا الاتجاه امتداد في المراحل الموالية.

وعلى الرغم من أن الفلسفة والمنطق كانا يدخلان ضمن المناهج الدراسية بسبئية، فإن صوت النقد المتفلسف الذي يميل إلى التنظير والتعقيد، ويعتمد المقولات الأرسطية، والنظريات الفلسفية، كان خافتا إلى حد كبير، أو هذا ما يتراءى لي

---

(40) اتجاهات أدبية وحضارية في عصر بني مرين أو/كتاب الامتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع لابن الدراج السبتي، تحقيق د. محمد ابن شقرون، ص: 1 من مقدمة المحقق.

على الأقل من خلال حصيلة النصوص النقدية التي اعتمدتها هذه الدراسة، وإن كانت بعض المصطلحات واردة عند عدد من النقاد السبتيين كالحكاكة والتخييل... وبذلك فسح المجال للنقد التطبيقي الذي غلب عليه، مستفيدا من مختلف العلوم والمعارف، وفي مقدمتها علوم الآلة من لغة ونحو وعروض وما إليها، ولاسيما في بعض الشروح مثل (بغية الرائد) للقاضي عياض، و(رفع الحجب المستورة) للشريف السبتي.

#### ٥ - اقتراح :

أما الاقتراح الذي أحتّم به هذا العرض فهو عبارة عن دعوة موجهة إلى السيد العميد، الدكتور محمد الكتاني صاحب الصلة القوية بالدراسات الأندلسية، وإلى جميع الشعب المعنية بكلية الآداب بتطوان، وفي مقدمتها شعبة اللغة العربية، رئاسة وهيئة تدريس، من أجل إنشاء مركز للدراسات عن مدينة سبتة بهذه الكلية، يهتم بالتاريخ العام لهذه المدينة في مختلف العصور، ويعمل على جمع الوثائق والنصوص المتعلقة بها، في اللغة العربية وغيرها من اللغات، وفي مقدمتها الأسبانية والبرتغالية، مخطوطة أو مصورة أو مطبوعة، وتكوين نواة لمكتبة متخصصة جامعة لكل ما كتب عن مدينة سبتة، وما ألفه السبتيون نجارا أو دارا، ليكون رهن إشارة الباحثين في مختلف الميادين.

## دور المدرسة الشارعية في الحياة العلمية بسبته

ذ. اسماعيل الخطيب<sup>(١)</sup>

عرفت مدينة سبته بأنها «دار علم» وطغت هذه الصفة على صفات أخرى لا تقل أهمية، خاصة الناحية البحرية التي جعلت منها بابا للجهاد، نظرا لمركزها العسكري الحصين.

غير أن صفة العلم اتسمت بالاستمرار، على حين أن الصفات الأخرى ربما أصابها مد وجزر. فالذين أرخوا لسبته رددوا: «ولم تزل دار علم»<sup>(١)</sup>، لقد عاشت المدينة في حركة علمية مستمرة لم تتوقف إلا بسقوطها في يد المستعمر الدخيل. وإذا كان موقعها الجغرافي قد جعل منها مدينة بحرية هامة. فإنه أيضا قد ساعد على جعلها مركزا من أهم المراكز العلمية بالغرب الاسلامي فهي ملتقى للوافدين من المشرق نحو الأندلس أو من الأندلس نحو المغرب والمشرق. وكثيرا ما كان يستهوي طائفة منهم جوها العلمي فيفضلون الإقامة بها.

وقد اتسعت وتنوعت الروابط العلمية بين سبته والعواصم الثقافية في المشرق والمغرب، ولمسنا تبادلا ثقافيا فتحا لم يأت نتيجة اتفاقية موقعة، وإنما جاء نتيجة إيمان بأن الوطن الاسلامي وطن واحد، لا حواجز تفصله، ولا حدود تقسمه، فهذا طالب علم يرحل نحو المشرق للتزود، وذاك استاذ يستدعى للتدريس، وتلك كتب السبتيين تدرس بانحاء الوطن الاسلامي وكتب المشاركة تحفل بها مكاتب

(٥) كلية أصول الدين تطوان.

(١) انظر : في مشاهير البلاد وأخبار العباد 533 — بيروت 1969 وكذلك البكري «المسالك والممالك».



سبته العامة والخاصة. وحسبي أن أشير إلى أن كتب امام النحاة «ابن ابي الربيع، كانت تدرس. في مصر في الوقت الذي كان صاحبها يدرسها في سبته، وبذلك كان هذا الامام النحوي استاذاً لطائفة من علماء المشرق عن طريق كتبه النحوية الهامة» (2).

وقد عرفت مدينة سبته مراكز علمية متعددة ابتداء بالمساجد التي تعتبر اولى المؤسسات التعليمية في الاسلام إلى جانب الكتاتيب والرباطات والمدارس.

ولا نعلم أن مدينة سبته قد توفرت على أكثر من مدرستين وبذلك فقد بقي للمساجد ذاك الدور الاول في نشر الثقافة والعلم.

وعلى الرغم من كثرة المساجد بها فإن حلقات الدرس كانت تقام في جلها، خاصة المسجد الجامع العتيق.

وقد انشئت المدرسة الاولى — وهي الشارية — بجهود عالم محدث هو أبو الحسن الشاري.

او الثانية — وهي المدرسة الجديدة — فلم تتأسس الا في عهد السلطان ابي الحسن المريني.

وقد تحدث صاحب «اختصار الاخبار» عن المدرستين فقال : «مدرسة الشيخ المحدث الراوية المعنى بالعلم وأمنه المنفق ماله في نشره واقتناء كتبه، اعجوبة زمانه في ذلك ووقته ابي الحسن الشاري الخافقي السبتي المتقدم الذكر. والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة، وأعمدة الرخام والواحة المتعددة الغالية الثمن التي ابتناها السلطان أبو الحسن مخلص الآثار الدالة على شناعة الملك وعلو المقدار» (3).

كان تأسيس المدرسة الشارية عام 635. (4) وذلك من السنة التي ثار فيها أهل

(2) ظلت عناية المشاركة مستمرة بكتب ابن ابي الربيع إلى عصرنا الحاضر حيث قام الدكتور عباد بن عبد الثبيتي بتحقيق (السيط في شرح جمل الزجاجي) وتقديمه لنيل درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى عام 1402 كما حقق الدكتور علي الحكيمي كتاب (الملخص).

(3) اختصار الأخبار 30.

(4) الذيل والتكملة

سبته على أميرهم اليانشتي وبايعوا الرشيد الموحيدي، وقد اتجهت الأعين نحو أبي الحسن الشاري ترشحه للامارة، غير أن الرجل كان منصرفاً تمام الانصراف إلى العلم.

وهكذا مرت سبته بفترة انتقالية استمرت حوالي سنتين ولى أهلها عليهم فيها أبا العباس ابن السيد ابن سعيد الذي كان والياً بغمارة<sup>(5)</sup> إلى أن ولى الرشيد عليهم أبا علي بن خلاص.

وقد عرف عن ابن خلاص تشجيعه للعلم والأدب، وسار على نهج سابقه من استدعاء العلماء والأدباء، كالتحدث الضابط محمد الانصاري المعروف بابن الجنان، والشاعر ابن سهل الاشبيلي الذي ولاه كتابته.

وظلت المدرسة الشارية قائمة تؤدي رسالتها في حياة مؤسسها وبعد ازعاجه عن وطنه ووفاته بمالقة.

وبذلك يمكننا أن نقسم تاريخ هذه المدرسة إلى مرحلتين :

الاولى : من تأسيسها في رجب خمس وثلاثين وستائة، إلى منتصف سنة احدى وأربعين وستائة، حيث امتحن مؤسسها بالتغريب عن وطنه، فأجيز به البحر إلى جزيرة الاندلس.

الثانية : من سنة احدى واربعين وستائة إلى سقوط سبته.

فبالنسبة للمرحلة الاولى، نقرأ في المصادر التي بين ايدينا النصوص التالية : «وبنى مدرسة ببلده سبته، ووقف عليها من الكتب ما يحتاج اليه وشرع في تكميل ذلك على السنن الجاري بالمدارس ببلاد المشرق. فعانه عن كمال غرضه في ذلك قواطع الفتن الموجبة لالخراجه عن بلده»<sup>(6)</sup>.

بعد حديثه عن اعتناء الشاري بالكتب قال : «انتقى منها جملة وافرة فحبسها في مدرسة أحدثها بجوار باب القصر أحد أبواب بحر سبته»<sup>(7)</sup>.

«وحبس منها جملة وافرة نافعة بالمدرسة التي ابتناها بسبته وكان له أمل في

(5) ابن خلدون 6 — 614

(6) صلة الصلة لابن الزبير — القسم الثاني —

(7) الذيل والتكملة 8 — 197، والعبارة منقولة عن التكملة ونقلها بن الخطيب.

الزيادة إليها، والوقف من صميم ماله عليها حال دون ما امتحن به من الازعاج عن وطنه إلى المرية».(8)

وهكذا فقد بنى الشاري مدرسته، وضمت منذ التأسيس مكتبة حافلة «وقعد بها لتروية الحديث واسماعه».(9) وكان من اساتذتها القاسم بن الشاط الذي «اقراً عمره بمدرسة سبتة الأصول والفرائض متقدما موصوفا بالامامة».(10)

أما بالنسبة للمرحلة الثانية. فبعد ازعاج الشاري عن وطنه ظلت المدرسة قائمة، نستشف هذا من خلال النصوص التالية :

«ولد بسبتة ونشأ بها وأحيا بها العلم حيا وميتا».(11)

ونقرأ في كتاب «السنن الابين» لابن رشيد انه انتهى من كتابته في الحادي والعشرين من جمادى الاولى سنة خمس وتسعين وستائة بمدرسة مدينة سبتة. وعندما تحدث الانصاري عن مساجد سبتة وخزائنها ذكر المدرسة الشارية. وصاحب اختصار الاخبار انما يتحدث عن الآثار المتواجدة عند سقوط المدينة.

### ملاح المدرسة الشارية :

1 — عرف عن الشاري انه محدث في المقام الاول. يقول ابن الزبير : «وكان شيخا فاضلا، وراوية ثقة، وعدلا جليلا متحريرا ضابطا متيقظا عارفا بالاسانيد والطرق والرجال».(12)

ويذكر ابن رشيد معارفه وعلومه فيقول : «وكانت له مشاركة في القراءات، ومعرفة بطرق التحديث والتاريخ، وكان جيد التقييد حسن التعريف بالاشياخ والمصنفين».(13)

(8) إفادة النضج 105

(9) الذيل والتكملة 8 — 200

(10) الاحاطة 4 — 259

(11) إفادة النضج 105.

(12) صلة الصلة 149

(13) إفادة النضج 109

ويقول ابن عبد الملك : « كان محدثا راوية مكثرا ثقة عدلا ناقدًا ذا كرا للتواريخ وأخبار العلماء وأحوالهم » . (14)

وعندما أسس مدرسته « قعد بها بعد اكملها لتروية الحديث واسمعه في رجب خمس وثلاثين وستائة وكثر الأخذ بها عنه واستمر على ذلك مدة » . (15)

وبذلك كانت المدرسة الشارعية مدرسة حديث بالمقام الأول اضافة إلى تدريس مواد أخرى .

وإذا كنا لا نستطيع التعرف على المواد الدراسية التي كانت تدرس بها . فكتب مكتبة المدرسة التي وضعها الشاري بين أيدي الطلبة كمراجع تدلنا على ذلك . ففي قصيدة ابى الحسن الأغماتي التي خاطب بها الشاري بعد بنائه لمدرسته ، مع من خاطبه وكتبه من العلماء والأدباء منوهين ومقدرين — ذكر لفنون العلم التي كانت تتوفر كتبها في خزانة المدرسة ، وهي :

— التفسير :

فمن كتب التفسير أعظمها غنى وأنفسها قدرا [وأففعها جدا] — السنة :

ومن سنن المختار واضح نقله وجاء به أهل العدالة مسندا — اللغة والاعراب :

ومن علمى الاعراب واللغة التي بها انزل لله الكتاب الممجد — المواعظ :

ومن كتب التذكير مارق سمعه وكان إلى التقوى دليلا ومرشدا — التصوف :

ولم يعر من كتب التصوف جمعها ولكن فما بالكتاب تقيدا (16)

اننا لا نستبعد أن علومها أخرى كانت تدرس بهذه المدرسة كالفقه ، والسيرة ، وغيرها .

(14) الذيل 8 — 197

(15) الاحاطة 4 — 188

(16) راجع نص القصيدة في الذيل والتكملة 8 — 200



2 — جاء عن ترجمة الشاري : «وكان سنيا منافرا لأهل البدع».(17)

ولا نشك في أن الرجل قد صبغ مدرسته بهذه الصبغة : اقامة السنة، ومحاربة البدع.

وقد عرف — هذا الغرب الاسلامي — انواعا مختلفة من البدع منها ما عيس العقيدة، غير أن دعاة العمل بالكتاب والسنة وقفوا في وجه كل التيارات الانحرافية. وخلال القرن السابع تعرفت سبته على تيارات التصوف المختلفة فبرز التصوف المقيد بالكتاب والسنة، الذي صدر أعلامه :

— عبد الجليل القصري، قال ابن الزبير : «وكلامه عن طريق التصوف سهل محرر مضبوط بظواهر الكتاب والسنة».(18)

— ابو الصبر ايوب، ذكر مترجموه انه من بقايا شيوخ الصوفية السنية.  
— محمد بن ابراهيم البلفيقي، يذكر انه كان صريحا مع الحكام، قولا للحق، وله في ذلك مواقف.(19)

كما عرفت سبته التصوف كقرطبة — وقد عرف التصوف تطورا خطيرا عندما تحول الى طريقة برأسها شيخ، ومشى في ركابه اتباع —

وفي الفترة التي كان فيها الشاري يؤسس مدرسته السنية كانت سبته تضج بطريقة اسسها (شيخ) لم يأخذ تعليما منظما، ولم يلازم استاذا، ولم يسافر مع عالم يقتدي به، ذلك هو ابو مروان عبد الملك بن بشر اليجانسي(20)، الذي اجاب من اعترض عليه في ذلك بقوله «إن الله اقام لي في باطني شيئا».

واليجانسي هذا وان لم يتلق تعليما منظما، فقد سمع الكثير من كلام المتصوفة في رحلته إلى المشرق التي وصل خلالها الى خراسان، وقد جمع حوله بسبته جماعة

(17) الذيل والتكملة 8 — 201

(18) صلة الصلة 30

(19) الاحاطة 3 — 258

(20) نسبة إلى يجانس كما وردت غير مرة في كتاب «تحفة المغرب» بتحقيق فرناندو دي لا كرانغا (مدريد 1974) وفي نفح الطيب 3 — 448 يجانس، أما عند المقصد الشريف فهي وجانس، وبالتالي فقد جاءت نسبته هكذا اليجانسي (تحفة المغرب) اليجانسي (نفح الطيب) الوجيهانسي (المقصد الشريف) اليجانسي (اختصار الاخبار).

كبيرة من الفقراء — خاصة من الوافدين الذين كانوا يجتمعون معه بداره بزقاق بن ناردن او برناطه بأحجار السودان، وقد كانوا من الكثرة حتى اهتموا بالتأثير على الحياة الاقتصادية للمدينة.

وبواسطة اليحانسي وغيره انتشرت بين الناس اعتقادات تبتعد عن التصور المستمد من الكتاب والسنة.

فكان من مهام المدرسة الشارية أن تعمل على تصحيح المسار، وذلك عن طريق دراسة التصوف الذي يستمد تصوره من الكتاب والسنة، والى ذلك يشير الأغماتي بقوله :

ولم يعر من كتب التصوف جمعها ولكن مما بالكتاب تقيدا  
ونلاحظ أن شيوخ العلم الذين درّسوا بما عرفوا بسيرهم على المنهج السني كابن رشيد وابن الشاط.

### 3 — جاء في قصيدة الأغماتي :

بحسبك عند الله ذكراً مكرماً معادة من في الدين ضل والهدا  
حرمتم الفضل الذي عم نفعه ذوي الفضل والتوحيد مثني وموحدا  
وحالّتهم عن مورد الفضل والاعلا وقوضت من تضليلهم ماتشيد  
فما بعدها للمنطقيين رفعة كيف وقد أوردت عزهم الردى  
هذه إشارة الى دور آخر ومهمة اخرى للمدرسة الشارية، إنها التصدي لافكار المناطق وضلالاتهم.

ونلمح من الابيات أن هؤلاء المناطق كان لهم وجود قائم بسببة فجاء الشاري ليصدّهم وليقوض ما شادوا.

لكن المصادر التي بين ايدينا لا تشير الى أعلام من المتكلمين والفلاسفة. ولعل تلك المصادر قد تغافلت عن ذكرهم نتيجة الجو الفكري العام الذي لم يكن له ميل الى هذا الاتجاه.

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى أن المنطق اليوناني لقي عناية ودراسة ليس فقط من طرف المتكلمين والفلاسفة، بل أيضا من طوائف المتصوفة الذين مزجوا بين الفلسفة والتصوف.

فهذا ابن سبعين الذي انتشرت آراؤه في هذا الغرب الاسلامي خلال القرن السابع، والذي دخل سبته قبل عام 640 — يخصص قسما كبيرا من كتابه (يد العارف) لمباحث المنطق، وبعد عرضه لآراء ارسطو وغيره يعمل على هدمها من أساسها لينني عليها منطق القائم على اساس الفطرة والمشاهدة، او ما سُمي «بمنطق المحقق» هذا المنطق الذي اصبح أحد المميزات الهامة لفلسفة ابن سبعين التصوفية، حتى ان الشيخ احمد زروق ميز تصوف ابن سبعين عن غيره من أنواع التصوف الأخرى بأنه تصوف قائم على أساس المنطق. (21)

وهذا الاتجاه الذي سلكه ابن سبعين يمثل خطرا على الفكر الاسلامي الصحيح أكبر من خطر الفلسفة، ذلك أن الفلسفة تظل رهينة مدارسها الفكرية، وهي في الغالب تعيش في ابراج عاجية، اما هذه الأخرى الممزوجة بالتصوف فانها تجد طريقها نحو العامة والبسطاء وهكذا فأفكار ابن سبعين التي كانت تحوم حول القول بوحدة الوجود أوجدت له اتباعا في مورسية هاجروا معه الى سبته، حيث صار يعقد المجالس لشرح مذهبه، فمالت العامة اليه. والظاهر أن ميل العامة اليه كان كبيرا. يقول ابن الخطيب: «وكثر أتباعه على مذهبه الذي يدعوا اليه من التصوف نحلة ارتسموا بها من غير تحصيل لها وصنف في ذلك اوضاعا كثيرة تلقوها منه وتقلدوها عنه وبثوها في البلاد شرقا وغربا.. وهي الى وساوس الخبولين وهذيان المروضين اقرب منها الى منازع اهل العلم». (22)

ولقد ضاقت سبته ذرعا بآراء ابن سبعين واتباعه الذين كونوا لأنفسهم طريقة خاصة تخالف ما عليه الناس، واعتبر علماء سبته آراء ابن سبعين من الآراء الفاسدة التي يجب أن تحارب وكان من نتائج ذلك اخراج ابن سبعين من سبته. ولذا كان من مهام المدرسة الشارعية مواجهة هذا (المنطق) مع (المنطق) الآخر. وبعد :

فهذه بعض ملامح المدرسة الشارعية التي اسسها محدث من رجال سبته الذين خدموا مدينتهم، وأرادوا لها ان تظل مدينة علم واشعاع حضاري.

---

(21) ابن سبعين وفلسفته الصوفية 296

(22) الاحاطة 4 — 32

غير أن ابن خلاص الذي أئحنا إلى تشجيعه للعلم والأدب واستدعائه لاهل العلم للاقامة بسبته عمل على تغريب الشاري إلى الأندلس.

فما هو السبب ؟

ان اغلب المصادر لك «صلة الصلة» و«افادة النضج» و«الاحاطة» لا تشير إلى السبب في تغريبه. بل ان ابن الخطيب وهم في نسبة التغريب لليانشي مع العلم ان اليانشي (المستبد بسبته) خلع عام 635<sup>(23)</sup> بينما غرب الشاري عام 641. وذلك خلال اماره ابن خلاص التي استمرت من عام 637 إلى وفاته في رجب 643<sup>(24)</sup>.

لقد ذكر لنا الذهبي السبب في تغريب الشاري مع ذكر مصدره فقال : «حكى لي ابو القاسم بن عمران الحضرمي عن سبب اخراج الشاري من سبته ان ابن خلاص وكبراء سبته عزموا على تمليك سبته لصاحب افريقيا يحيى بن عبد الواحد. فقال لهم الشاري : «يا قوم خير افريقيا بعيد عنا وشرها بعيد والمرأى مدارة ملك مراکش. فما هان على ابن خلاص وكان فيهم مطاعا فهبأ مركبا وانزل فيه ابا الحسن الشاري وغربه إلى مالقة، وبقي بسبته أهله وماله. وله بسبته مدرسة مليحة كبيرة»<sup>(25)</sup>.

لقد اراد الشاري لمدينته أن تظل متمسكة بمغريبها فكانت عقيدته هذه سببا في اخراجه من بلده.

---

(23) البيان المغرب 343 ابن خلدون 6 — 536، 614، 615

(24) الذخيرة السنية 67 ابن خلدون 7 — 168

(25) سيرة النبلاء 23 — 227





## جوانب من الحياة الفكرية بسبته في عهد البرغواطيين والمرابطين من خلال «مختصر المدارك» — لابن حمادة

ذ. سعيد أعراب

ذ. سعيد أعراب

هذه بعض صور من تاريخ سبته الفكري، استخلصتها من نصوص وردت في «مختصر المدارك»<sup>(1)</sup> لأبي عبد الله محمد بن حمادة البرنسي السبتي، من أهل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، قد يقال : لماذا المختصر — وبين أيدينا الأصل ؟ الجواب أن المختصر انفرد بزوائد ذات أهمية بالنسبة لموضوعنا، وكنت أشرت في مقدمة تحقيق الجزء الثامن من مدارك عياض — إلى هذه الزيادات، وضمنتها ملاحق ذيلت بها الكتاب، لكنني لم أكن اهتديت بعد — إلى الإضافات التي جاءت عرضا — في غضون الكتاب، وهي على جانب من الأهمية كذلك، وسأشير إلى بعض صور منها؛ على أن المخطوطة الوحيدة التي بين أيدينا لا تعطينا الصورة الحقيقية، فهي مبثرة الأوراق، يتخللها بترفي عدة مواضع، وقد أصابت الرطوبة بعض حواشيها — ومن الصعب — جدا — قراءتها، وقد تبين لي أخيرا — بعد تصفح «ملخص من ترتيب مختصر ابن حمادة» — لأبي محمد بن سهل

---

(1) نسخة مخطوطة انفردت بها الخزانة الحسنية، وتوجد تحت رقم (672) — وعندي صورة منها، وتذكر بعض المصادر أن هناك نسخة ثانية بدار الكتب المصرية، وقد حاولنا الحصول عليها — ولكن بدون جدوى.

القضاعي<sup>(2)</sup> — أن هناك سقطاً فيما زاده المختصر على الأصل تضمن تراجعاً، من بينها : ترجمة القاضي أبي بكر بن العربي — وقد أثبتنا ابن سهل في حرف الميم<sup>(3)</sup>.

ومهما يكن، فالخطوطة تقدم لنا خطوطاً عريضة عن الحياة الفكرية بسببها في فترة ما بين منتصف القرن الخامس الهجري — الحادي عشر الميلادي، وحوالي أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجري — الثاني عشر الميلادي، تلك الفترة التي يتقاسمها البرغواطيون والمرابطون، والمصادر — هذا العهد — جد شحيحة، لاتكاد تبيل غلة الصادي، حتى أن الذين ترجمهم عياض في «مداركه» من أهل سبته، لايتجاوز عددهم العشرة<sup>(4)</sup>.

ومن المؤكد أن الحركة الفكرية نشطت بسببها منذ أوائل القرن الثالث الهجري — التاسع الميلادي، ويخطئ أولئك الذين يجعلون بدايتها أواخر المائة الرابعة للهجرة، وممن وقع في هذا الوهم : الذهبي، فقد ذكر في كتابه «تاريخ الاسلام» أن من أهل سبته أبا عبد الله بن الشيخ الأموي<sup>(5)</sup>، وأنه كان محدث وقته في أواخر المائة الرابعة، قال : ولا أعلم أحداً من أهلها روى العلم قبل هذا الرجل<sup>(6)</sup>. وتابعه على ذلك ابن حجر في «لسان الميزان»<sup>(7)</sup>.

ولانعبد النجعة، فإن من شيوخ أبي عبد الله الأموي هذا — أبا الأصبغ عيسى بن علاء بن منذر ابن أيمن — وهو سبتي، عاش النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع، وقد رحل إلى الأندلس فسمع بقرطبة من أحمد بن خالد، ومحمد بن عبد الملك، وقاسم بن أصبغ — في آخرين، وكان عيسى هذا فقيهاً، عالماً محدثاً ضابطاً، كتب عنه<sup>(8)</sup>، (ت 336<sup>(9)</sup> — 947).

---

(2) مخطوطة الأستاذ الكبير محمد إبراهيم الكتاني — أعارني إياها مشكوراً.

(3) انظر اللوحة : (29 — أ ب).

(4) انظر ج 278/7 — 284، وج 8 / 83 — 84.

(5) انظر بحث «أبو عبد الله محمد بن الشيخ الأموي» — لكاتب هذه السطور، المنشور بمجلة «دعوة الحق» س 21 ع 2 ص 25 — 29.

(6) نقل ذلك عنه ابن حجر في لسان الميزان 5 / 290 — 291.

(7) المصدر السابق.

(8) انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس لابن القرضي 337/1 — 338، وترتيب المدارك لعباس

6 / 276 — 277.

ومن الرواد الأوائل : أبو زكرياء يحيى بن خلف الصديقي من أهل سبتة، وأصله من بصرى المغرب، رحل ومن غيره، حدث كثيرا، وتوفي بسبتة (10).

ونجد البكري — وهو من رجال القرن الخامس الهجري — يصف سبتة بأنها :  
(لم تزل دار علم) (11) — بمعنى أن لها سابقة شهيرة في الحركة العلمية.

ولإخواننا المشاركة — سواء منهم القدامى أو المحدثون — أكر من عذر، وإنما اللاتمة علينا في إهمالنا لتاريخنا، ولك أن ترجع — ان شئت — إلى موسوعي «ميزان الاعتدال» للذهبي، و «لسان الميزان» لابن حجر، لترى التحامل السافر، والجهل الفاضح — بتاريخ المغرب وأهله (12).

### الحركة الفكرية في الفترة التي حددناها لهذه الدراسة :

ترجم ابن حمادة في زوائده لنيف وأربعين علما من أعلام سبتة — ما بين تراجم أصلية وفرعية — وفيهم المقرئ، والفقيه، والمحدث، والنحوي، واللغوي، والأديب، والشاعر، وقاضي الجماعة، وقاضي البلد، وخليفة القاضي، والمستشار، والكاتب، والخطيب، والمدرس، والمفتي، وصاحب الصلاة، وسوى ذلك، ويمكن تصنيفهم إلى فئتين :

1 — الفئة الأولى : شيوخه ومن في طبقتهم — ويمثلون العصر المرابطي.

2 — الفئة الثانية : شيوخ شيوخه ومن اليهم — ويمثلون العصر البرغواطي.

والظاهرة التي تطبع الفئتين معا : أنهم في أغلبهم — الصفوة المختارة من رجالات العلم، ويتجلى ذلك واضحا في التحليات والألقاب العلمية التي يضيفها عليهم المؤلف من : الحفظ، والاتقان، والضبط، والاستظهار، والرواية، والدراية، والامامة، والرئاسة، وما إلى ذلك.

### المكونات الأساسية لهذه الحركة :

ومن المكونات التي أسهمت في خلق الحركة الفكرية هذا العهد :

(9) تصحف في تاريخ علماء الأندلس بـ (306).

(10) انظر تاريخ علماء الأندلس

(11) المغرب، في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 102.

(12) انظر بحث «المحدثون المغاربة في موسوعي «الميزان» للذهبي و «لسانه» لابن حجر — لكاتب هذه السطور المنشور بمجلة دار الحديث الحسنية ع 5 ص 7 — 27 (1985).



أ — أولاً : الأمن والاستقرار، فالبرغواطيون — وإن انتزعوا الحكم من مواليهم انتزاعاً، فقد استطاعوا أن ينشروا الأمن والاستقرار في سائر الجهات التي كانت حكمهم — وفي مقدمتها سبتة (العاصمة). وقد أخذ سكوت البرغواطي زمام الأمور بيد من حديد، فلا تكاد تظهر بادرة من التمرد والعصيان، إلا ويسرع إلى القضاء عليها في مهدها، فعاشت البلاد في أمن واستقرار، وطمأنينة ورغد عيش، ويكفي أن نعرف أنه لما بلغه تحرك المرابطين صوب طنجة، خرج في جيش كثيف — وهو شيخ يناهز التسعين من عمره، وأقسم أن لا يسمع أحد من رعاياه طبول للمتونيين — وهو حي أبداً، فقاتل حتى قتل (١٣).

ب — المكون الثاني : تشجيع الحكام للحركة الفكرية، فبالرغم من أن الفقهاء — وهم أهل الحل والعقد — ربما لم يكونوا راضين بحكم الموالى المنتسبين إلى برغواطة : القبيلة المعروفة بجهلها وتمردتها على شرائع الإسلام، فإن سكوت هذا — استطاع أن يستميل إلى قلوب أهالي سبتة بعدله وإنصافه، وقضائه على المظالم — مهما كان شأنها، فقد كان يبعث صاحبه شرطته (١٤) إلى أهل العلم ورجال الفضل — يسألهم عما يلحظونه من مناكر، ليقوم بتغييرها، ويقضي عليها في حينها — قبل أن يستشري أمرها، ويستعصي علاجها — إلى جانب روحه الدينية؛ ولعل مما يؤيد ذلك ما تذكره بعض الروايات عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه قال : وردت علي من الكتب في يوم واحد — كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد صاحب اشبيلية يطلب جارية زامرة (مغنية)، وكتاب من سواجات (سكوت البرغواطي) يطلب قارئاً يقرأ القرآن، فوجه إليه من طلبة قرطبة رجلاً يعرف بعون الله بن نوح (١٥).

(١٣) انظر بحث «نحات من تاريخ سبتة في القرن الخامس الهجري» لكاتب — هذه السطور، المنشور بمجلة «دعوة الحق» ع 231 ص 20 — 37

(١٤) انظر قصته مع الفقيه الزاهد أبي علي حسن بن خالد الزبيدي في كتاب «التسريف» لمحمد بن عياض ص 56 — 57.

(١٥) البيان المغرب 3 / 250 ويسكوت هذا يعبرنا الشقندي فيقول : بالله ألا سميت لي بمن تفخرون أسكوت الحاجب ؟ أم بيوسف بن تاشفين ؟ نعم نفاخر بهما ونطاول، لأنهم طلاب علم ودين — فكان لهم العزة والسؤدد، وقومك طلاب هو ودينا، فكان مصيرهم الدلة واخوان ؟

انظر رسالة الشقندي في «فضائل الأندلس وأهلها» ص 32 — 33.

ولم يكتف بهذا، بل قرب إليه الفقهاء وولاهم المناصب العليا، فكان منهم قضاة ومستشارون، وخطباء ومفتون، إلى غير ذلك.

ج — المكون الثالث : الرحلات العلمية، فمن التقاليد المعروفة التي حافظ عليها أهل المغرب — منذ القدم : الرحلة في طلب العلم، وكانت الرحلات — لهذا العهد — على أشدها، وكان ذلك لعدة عوامل؛ منها، انفتاح المغرب على المشرق، والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وكان أول من قام بذلك سكوت البرغواطي، ثم جاء يوسف بن تاشفين ففتح الباب على مصراعية، فكان خليفة بغداد هو الخليفة الشرعي للبلاد، تضرب العملة باسمه، ويذكر في خطب الجمع والأعياد<sup>(16)</sup>.

ومن علماء سبته الذين شدوا الرحال إلى أقطار المشرق :

1 — عبد الرحيم بن مسعود الكتامي المعروف بابن أبي غافر، وهو من شيوخ سبته الأوائل<sup>(17)</sup>.

2 — عبد الله بن غالب الهمداني، أصله من نكور، استوطن أجداده سبته، وهم من البيوتات الشهيرة بالعلم والسيادة، رحل وسمع، أخذ عنه كثير من أهل سبته<sup>(18)</sup>.

3 — ولده محمد رحل مع والده وسمع بمكة ومصر، وبعد عودته تقلب في عدة وظائف<sup>(19)</sup>.

4 — أبو علي حسن بن خالد بن إبراهيم الزبيدي، قرأ بمصر علوم القرآن، وأقرأ بجامع سبته<sup>(20)</sup>.

5 — أبو القاسم عبد الرحمان بن العجوز، من الأسر العلمية الشهيرة بسبته، توارثوا ذلك أبا عن جد<sup>(21)</sup>.

---

(16) انظر في هذا الصدد كتاب «مع القاضي أبي بكر بن العربي» لكتاب هذه السطور ص : 59 — 64

(17) انظر المدارك ج 276/7.

(18) المدارك ج 8 ملحق 2 ص 188.

(19) المدارك ج 8 — ملحق 1 ص 170 — 171.

(20) المصدر السابق ص 172

(21) المدارك ج 8 — ملحق 4 ص 204 — 205.

6 — ولده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن العجوز، رحل مع والده وسمع بأقطار الشرق، ولده يوسف بن تاشفين قضاء فاس، وكان مثال العدل والاستقامة(22).

7 — إسماعيل بن محمد بن إبراهيم بن يربوع القيسي، من البيوتات الشهيرة بالعلم والفضل، رحل فسمع بمكة ومصر، وتصرف في علوم كثيرة، خرج من سبته أول ظهور المرابطين وتوفي بأغمات(23).

8 — قاسم بن محمد بن هشام المأموني، من أسرة عريقة في الجند والسيادة بسبته، رحل فسمع، وبعد عودته نزل بالمريّة فنال بها مكانة(24).

9 — ولده حجاج، رحل مع والده وسمع من مشيخته، له باع طويل في علوم الحديث حدث بسبته وتتملذ له كثيرون(25).

10 — مروان بن عبد الملك اللواتي، أصله من طنجة، رحل فحج ثم نزل مصر فأخذ عن مشيختها، وتفنن في علوم كثيرة، أقرأ بجامع سبته قديماً(26).

11 — سعيد بن إبراهيم بن جراح، انتهت إليه رئاسة في وقته، له سماع من الأصيلي وغيره، أخذ عنه جماعة من فقهاء سبته(27).

12 — أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد المعافري المعروف بالخطيب، لقي أبا الوليد الباجي وجماعة بالمشرق، أخذ عنه أهل سبته أصول الديانات (علم الكلام)، منهم عياض وغيره(28).

د — المكون الرابع : حلقات الدرس، قلما تجد عالماً من علماء سبته لم يخلق بمساجدها، فكانت هناك كراسي للقراءات، والفقه، والحديث، والنحو، والأدب، وسواها.

ولنترك ابن حمادة يحدّثنا عن حلقات بعض شيوخه، ولنقتصر منها على ما كان

(22) المدارك ج 8 — ملحق 1 ص 174 — 175.

(23) نفس المصدر ص 175 — 176.

(25) المدارك 8 / 86.

(26) المدارك 6 ملحق 1 ص 176.

(27) نفس المصدر ص 169.

(28) المدارك 8 — ملحق 4 ص 198.

في الفقه — وفي تدريس المدونة — بوجه خاص، مثل :

1 — حلقة شيخه أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي — شيخ الجماعة بسبته، قال فيه : انه كان إمام المغرب في وقته، ولم يكن في قطر من الأقطار — بعد يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك — من حمل الناس عنه أكثر منه، ولا أكثر صحابة من صحابته، ويقول عنه الشيخ الحاج الداني : حضرت أهل المشرق والأندلس يدرسون، والله ما رأيت أحفظ منه للمسائل ! وهو الذي وسع جامع سبته، وزاد فيه زيادات تقدر بنحو ثلثيه<sup>(29)</sup>.

2 — حلقة شيخه : أبي محمد عبد الله بن منصور قاضي الجماعة، قال : حضرت مجلسه فما رأيت أفهم منه !<sup>(30)</sup>

3 — حلقة شيخه أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأموي، وصفه بقوله : كان حافظا للمسائل، يستظهر المختصر، وشاهدته في المناظرة في المدونة يضع الكتاب تحت كتبه، ويلقي من صدره، أخذ عنه جماعة من أهل البلد<sup>(31)</sup>.

4 — حلقة شيخه أبي القاسم عبد الرحمان بن العجوز، قال عنه : كان فقيها نبیلا، بصيرا بالأحكام، عالما بالاحتجاج، حضرت مجلسه في تدريس المدونة وغيرها، فما رأيت أحسن منه احتجاجا، ولا أبين توجيها !<sup>(32)</sup>

5 — حلقة شيخه الفقيه المشاور عبد الله ابن الفقيه محمد بن عيسى التميمي الآنف الذكر، قال فيه : حضرت مجلسه فما رأيت مثله في تتبع ألفاظ المدونة، واستخراج الخلاف من آثارها، وفهم معانيها، وإيقاع الخلاف موقعه، حسن اللقاء، كثير الهيبة<sup>(33)</sup>.

6 — حلقة شيخه أبي بكر بن حجاج بن صالح، يقول عنه : انه من جلة فقهاء سبته، على سنن السلف الصالح، حضرت مجلسه في تدريس البراذعي عرضا، فما رأيت أقوم منه عليه، ولا أكثر استخراجا منه للخلاف من ألفاظ المدونة<sup>(34)</sup>.

---

(29) المصدر السابق : ص 199 — 201.

(30) المصدر نفسه ص 202.

(31) نفس المصدر : 196 — 197.

(32) نفس المصدر : 204 — 205.

(33) نفس المصدر : 207 — 208.

(34) نفس المصدر : 208 — 209.



وهو — كما نرى — وصف دقيق، وتصوير رائع لمجالس العلم، وحلقات الدرس بسبته — بما لم نجده عند غيره، ولا في كتاب سواد !

على أن لأهل سبته طريقة خاصة في تدريس المدونة — جمعوا فيها بين طريقة العراقيين التي تجعل مسائل المدونة كالأساس، وتبني عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس؛ وطريقة أهل القيروان التي تبحث في ألفاظ الكتاب وتحرير رواياته، وما يتبع ذلك من آثار وأخبار وسماعات، ونسب بعضهم طريقة الجمع هذه — لعياض<sup>(35)</sup>، ولعله اقتبسها من شيخه أبوي عبد الله محمد بن عيسى التميمي، ومحمد بن عبد الله الأموي<sup>(36)</sup>.

**المكون الخامس والأخير :** التواصل العلمي بين العدوتين : اتصل المغرب بالأندلس منذ الفتح الإسلامي، فكانت سبته صلة الوصل بين العدوتين، ومعبر الثقافتين، وتحفظ لنا كتب التراجم بأعلام مغاربة كان لهم دورهم الرائد في الثقافة الأندلسية، أمثال : يحيى بن يحيى الليثي الصمودي الطنجي، الذي اشتهر موطأ مالك بروايته في ربوع الأندلس والغرب الإسلامي بعمامة<sup>(37)</sup>، وأبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي الذي كان أول من أدخل صحيح البخاري برواية المروزي، وعنه اشتهر في أقطار المغرب — بما في ذلك الأندلس<sup>(38)</sup>.

وأبي موسى عمران بن عبد الله البصري — نسبة إلى بصرة المغرب، وهو أول من أدخل الموازية، وعنه أخذها الأندلسيون<sup>(39)</sup>.

ومن أهل سبته : أبو سعيد خلف بن علي بن ناصر البلوي، رحل إلى المشرق، وأخذ في طريقه عن ابن أبي زيد القيرواني، وأبي محمد الصقلي، وسواهما، ثم قدم قرطبة ونشر علمه بها، فسمع منه أبو عمر الطلمنكي، وأبو عبد الله الخولاني، وابن عفيف، وغيرهم<sup>(40)</sup>.

(35) انظر أزهار الرياض 3 / 22 — 23.

(36) انظر المدارك ج 8 — ملحق 4 ص : 196 — 197، وص 199 — 200، و ص 207 — 208 و ص 209.

(37) المدارك ج 3 / 379 — 394 — والتهديد لابن عبد البر 1 / 10.

(38) المدارك ج 7 / 135 — 145.

(39) المدارك 5 / 148.

(40) انظر الصلة 1 / 174.

ومنهم : قاسم بن محمد بن هشام الرعيني المعروف بابن المأموني، مر بنا أنه بعد عودته من رحلته من المشرق — نزل المرية فأخذ عنه جلة مشيختها — كأبي المطرف الشعبي، وأبي بكر بن صاحب الأحباس، وأبي محمد غانم الأديب، وله كتاب في المناسك روي عنه (41).

وأبو محمد عبد الله ابن إبراهيم بن جراح، كان آية في الحفظ، حضر مجلسه أبو الوليد الباجي، فأعجب بحفظه، وأنابه عنه في مجلسه للمناظرة في المدونة، وكان أهل دانية يعجبون من استحضاره وسعة أفقه (42).

ومن شددت الرحال للأخذ عنهم بسبته : أبو القاسم عبد الرحمان بن العجوز (43)، وأبو محمد عبد الله بن غالب (44)، وأبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي — شيخ زمانه، حدث الناس عنه من مختلف الأقطار، وكانت تأتيه الأسئلة من قاضي الجماعة بقرطبة ابن حمدين، ومن القاضي ابن شبرين في اشبيلية، ومن ابن ملجوم قاضي فاس، وسواهم (45).

والأمثلة في هذا الباب كثير، وإنما أردت فقط — التدليل على أن الثقافة المغربية ثقافة أصيلة لها جذور في أعماق التاريخ، وليست أصداء للثقافة الأندلسية — كما يزعم البعض، ونحن لاننكر أن المغرب تلمذ على المشرق، وعلى الأندلس — في فترات من تاريخه، وليس بوسعنا إحصاء — فقط — الذين عبروا البحر إلى سبته أو اجتازوا بها — وهم في طريقهم من إفريقيا أو من أقطار المشرق فحدثوا بها وسمع الناس منهم؛ ولكن الذي نؤكد عليه أنه كما أخذ أعطى، وله جولات في هذا الميدان لا ينكرها إلا متعصب أو جاهل (46)، ولعل من هنا جاء التنافس بين أبناء العدوتين، وربما احتدم أحيانا فادى إلى التراشق بالكلام النائي، ومن أمثلة ذلك، ماتذكره بعض الروايات عن حجاج بن قاسم المأموني السبتي — أنه رحل

---

(41) المدارك 8 / 86.

(42) المدارك 8 ملحق 1 ص : 169 — 170.

(43) المدارك 8 — ملحق 4 ص 204 — 205.

(44) المدارك 8 — ملحق 2 ص 188 — 189.

(45) المدارك 8 — ملحق 4 ص 199 — 201.

(46) ونخيل القاريء — بالنسبة لموضوعنا — على شفاء عياض، ومشارقه، اللذين اشتهرت روايتهما بالأندلس وبأقطار المشرق — على نطاق أوسع. أنظر ازهار الرياض 4 / 271 — 346.

مع والده إلى أقطار المشرق، وسمعا من جلة المشايخ هناك، وبعد عودتهما نزلا المرية — لظروف سياسية كانت تعيشها سبتة آنذاك، فحضر حجاج يوما مجلس الشيخ أبي عمر أحمد بن رشيق كبير فقهاء المرية، فناظره حجاج في مسألة، فاحتار في المسألة ولم يدر مايقول ؟ فقال له الحجاج : أنت هنا بعد — بمعنى أن العلم تجاوز ما عندك، فبلغت القصة والده فعنفه (47).

وكان لحجاج هذا كرسي الحديث بجامع سبتة، وعنه أخذ الناس صحيح البخاري وغيره من كتب السنة، ومع كل هذا فهناك اعترافات وشهادات تنويه وتقدير للكفاءات المغربية من أهل الأندلس أنفسهم، فهذا الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي جعفر المرسي — حامل لواء الفقه والحديث بعد ابن عبد البر — يقول : ماوصل إلينا من المغرب أنبل من أبي الفضل عياض، ولا أفهم من أبي محمد بن عيسى التميمي (48) !

ولما دخل سبتة — بعد منصرفه من الحج — جلس إليه — للاختبار — عبد الله بن منصور قاضي الجماعة، وأبو محمد بن شبونة الفقيه المشاور، فقال : مارأيت في قطر أفهم من الرجلين (49) ! وكفي بها شهادة من حافظ الأندلس في شيوخ سبتة — بعد خبرة ومعرفة — والقوم في تنافس وتزاحم بالمناكب (50).

وينبغي أن نشير إلى أن سبتة — لهذا العهد — كان لها الاكتفاء الذاتي في الأطر التعليمية وسواها، ويكفي أن نعرف أنها أعطت للمرابطين الأطر الكفاة في السلك القضائي، فتولوا في عدة جهات من المغرب — كمراكش، وفاس، ومكناسة، وسلا، وطنجة، وفي بعض جهات الأندلس — كغرناطة، والمرية، والجزيرة الخضراء — وكان هذه الأخيرة تابعة لسبتة ومن عملها (51).

وأسند يوسف بن تاشفين إلى مروان بن عبد الملك اللواتي — وهو من شيوخ سبتة — شؤون القضاة بالأندلس وشمال المغرب، وفوض إليه الأمر في ذلك، فكانت تصدر التعيينات والإعفاءات بترشيحاته واقتراحاته، وكان مثال العدل

(47) انظر المدارك 8 / 148.

(48) المدارك 8 — ملحق 1 ص 176.

(49) نفس المصدر : 194 — 195.

(50) ومن هذا القبيل : قصة الشقندي مع ابن المعلم الطنجي، انظر فضائل أهل الأندلس ص 28.

(51) المدارك 8 — ملحق 4 ص 205.



والصرامة، وقد طبق في سطوته قوة عمر بن عبد العزيز : تحدث للناس أفضية، بقدر ما أحدثوا من الفجور. فانتظمت أمور القضاء والقضاة على عهده، وخلفه بنوه من بعده — وهم بيت علم وجلالة، وفضل وسيادة، وبنوه ابن حمادة بشأنهم ويقول : ان بني مروان، من ندرات الزمان، وذكر ممن ولي القضاء منهم ومن أبناء عمومتهم نحو العشرة<sup>(52)</sup>.

كما عين علي بن يوسف بن تاشفين أبا محمد عبد الله بن منصور السبتي — قاضي الجماعة بمراكش (العاصمة)<sup>(53)</sup>، وقاضي الجماعة بالمغرب — يعني قاضي القضاة في المشرق، وجاءت تسميته بذلك في بعض المصادر<sup>(54)</sup>.

ودعا إلى بلاطه كذلك — أبا محمد عبد الله بن أحمد بن شبونة — السبتي وعينه مستشارا لديه، وهو من حفاظ المذهب المبرزين، وكان صلبا في الحق، لا يداهن في فتياه، ولا يصانع أحدا، وكان علي بن يوسف يعرف ذلك منه ويقدره قدره، وكان هو يدل عليه بصحبته، وسلامة مذهبه<sup>(55)</sup>.

هذا، وقد وقع صاحب كتاب قيام دولة المرابطين — عند ذكره قضاة العصر المرابطي في أوهام ينبغي التنبيه عليها، ذلك أنه ذيل كتابه بجداول حدد فيها قضاة كل مدينة من مدن المغرب والأندلس في هذا العصر، ومن بين ذلك قضاة سبتة، وقد ذكر منهم<sup>(56)</sup> :

1 — عبد الله بن حمو — ويعني به ابن عمر اللواتي المعروف بالمسيلي، وذكره في قضاة العهد المرابطي خطأ، وإنما هو من قضاة العصر البرغواطي — كما يذكر ذلك ابن حمادة في ترجمته<sup>(57)</sup>، وقد وقع في هذا الخلط غير واحد، فلم يفرقوا بين العصرين في كثير من المجالات.

2 — عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي، وتصحف

---

(52) نفس المصدر ص : 178 — 179.

(53) المدارك ج 8 — ملحق 4 ص : 202.

(54) المدارك ج 8 — ملحق 1 ص 176.

(55) المدارك ج 8 — ملحق 4 ص 206، والعية ص 214 — 215.

(56) انظر ص 464.

(57) المدارك ج 8 — ملحق 1 ص 174.



عنده ابن منصور بـ (ابن رياض، واللمخي بـ (اليحصي) — وقد ولي قضاء سبتة مرتين<sup>(58)</sup>.

3 — محمد بن داود بن عطية، ترجمه عياض في الغنية<sup>(59)</sup>، وابن بشكوال في الصلة<sup>(60)</sup>، وابن القاضي في الجذوة<sup>(61)</sup>، وذكروا أنه ولي قضاء تلمسان، واشبيلية ثم فاس، ولم يذكر واحد منهم أنه ولي قضاء سبتة، فذكره من بين قضائها خطأ.

4 — مروان بن عبد الملك اللواتي — كبير فقهاء سبتة، مر بنا أن يوسف بن تاشفين أراد أن يوليه قضاء سبتة فتأى، ثم ولده قضاء طنجة<sup>(62)</sup>، وأسند إليه شؤون القضاة في الأندلس وشمال المغرب، فذكره في قضاة سبتة خطأ كذلك.

5 — محمد بن عبد الله الأموي، ذكر عياض أنه ولي قضاء سبتة مرتين : أولاهما أيام البرغواطيين والثانية أول دولة المرابطين<sup>(63)</sup>، وخالفه في ذلك تلميذه ابن حمادة فذكر أن يوسف بن تاشفين لما دعا مروان بن عبد الملك لقضاء سبتة، أشار عليه بقاضيها أبي عبد الله الأموي فلم يرتض ذلك، لكونه كان مولى من قبل خصومه البرغواطيين، فولى مكانه عبود بن سعيد التنوخي<sup>(64)</sup>، ومما ذكره ابن حمادة أمر معقول، وربما السياسة تفرض ذلك، وهذا مبدأ طبقه المرابطون على كل الذين تولوا لخصومهم في المغرب والأندلس؛ ومن شملهم ذلك : أبو الأصبع بن سهل الأزدي الذي كانت له الخطوة الكبرى لدى البرغواطيين، فولى قضاء طنجة ومكناسة وغرناطة، ولما دخلهما المرابطون، لم يبق إلا يسيرا حتى أقصي.

---

(58) المدارك ج 8 — ملحق 4 ص 202.

(59) انظر ص : 132.

(60) انظر ص : 573.

(61) انظر ج 1 / 156.

(62) انظر المدارك ج 8 — ملحق 1 ص 177 — 178.

(63) الغنية ص 125 — 126.

(64) المدارك ج 8 — ملحق 1 ص 177.

(65) نفس المصدر : ص 182 — 183، على أنه يمكن الجمع بين الروايتين بأن يوسف لما اطلع على حسن سيرته، وصفاء سيرته — ولده قضاءها بعد وفاة عبود — كما تشير إلى ذلك عبارة في ترجمة عبود بن سعيد، انظر المدارك ج 8 — ملحق 4 ص 197 — 198.

على أن الدكتور حسن أحمد أغفل جماعة من الذين تولوا قضاء سبت في العصر المرابطي، نذكر منهم :

1 — عبود بن سعيد التنوخي — وهو أول قاض على سبتة في عهد المرابطين (66).

2 — عبد الرحمان بن محمد المعافري المعروف بالخطيب، ولي قضاء سبتة ثم الجزيرة الخضراء (67).

3 — أبو عبد الله محمد بن عبد الله المسيلي، أشار به شيخ الجماعة بسبتة محمد بن عيسى التميمي — وهو من تلاميذه (68).

4 — إبراهيم بن أحمد بن يربوع، قدمه قاضي الجماعة بمراكش عبد الله بن منصور (69).

5 — أبو عبد الله محمد بن عبود التنوخي، المعروف بابن العطار (70).

6 — القاضي عياض — ولي قضاء سبتة مرتين، وطالت مدة قضائه بها (71).

— فإذا أضيف إلى ذلك — الذين تولوا قضاء سبتة على عهد البرغواطيين، وهم كما يلي :

1 — أبو إسحاق إبراهيم بن الفضل بن يوسف بن حمود الصديفي (72).

2 — سعيد بن إبراهيم بن جماح (73).

3 — محمد بن عبد الله بن غالب (74).

---

(66) المدارك ج 8 — ملحق 1 ص 177.

(67) المصدر السابق ص 198.

(68) نفس المصدر ص 201.

(69) نفس المصدر : 202 — 203.

(70) نفس المصدر : 203.

(71) انظر «التعريف» لولده محمد ص 10 — 11، والديباج لابن فرحون 2 / 48 — الطبعة الثانية.

(72) المدارك ج 7 / 284.

(73) المدارك ج 8 — ملحق 1 ص : 174.

(74) نفس المصدر ص : 170 — 171.

4 — محمد بن إبراهيم بن يربوع<sup>(٦٥)</sup>.

5 — عبد الله بن حمو اللواتي.

6 — أبو عبد الله الأموي.

وهذان الأخيران سبقتا الإشارة إليهما في العصر المرابطي. ومم أن الصواب ذكرهما في العصر البرغواطي.

فيكون مجموع قضاة سبته في الفترتين نحو خمسة عشر قاضياً — بغض النظر عن الذين تولوا خارجها، على أنه لا يوجد واحد منهم من غير أبناء البلد — وهي من خصوصيات سبته العديدة.

### ميزة العصر البرغواطي :

وإذا كان لكل عصر ميزته الخاصة، فإن ما يمتاز به العصر البرغواطي :

أ — نشاط الدراسات القرآنية : وممن برز في هذا الميدان :

1 — أبو الحسن الحصري، أقرأ بنجام سبته، وتخرج على يديه كثيرون، وبسبته نظم قصيدته الشهيرة في مقراً نافع التي يقول في طليعتها :

إذا قلت أبيتاً حسناً من الشعر فلا قلتها في وصف ولا هجر  
ولكنني في ذم نفسي أقولها كما فرطت فيما تقدم من عمري  
ولابد من نظمي قوافي تحتوي فوائد تغني المقرئين عن المقرئ<sup>(٦٦)</sup>

2 — مروان بن عبد الملك، من الشيوخ المقرئين بسبته لهذا العهد<sup>(٦٧)</sup>.

3 — أبو علي حسن بن خالد الزبيدي، تصدر للاقراء بنجام سبته بالروايات السبع<sup>(٦٨)</sup>.

(75) المدارك ج 8 — ملحق 2 ص : 190.

(76) انظر المكتبة القرآنية بالمغرب — بحث كاتب هذه السطور نشر بصحيفة الميثاق — لسان حال رابطة علماء المغرب ص 7 غ 118 — ص 15، وبحث «نحات من تاريخ سبته في القرن الخامس الهجري» — المنشور بمجلة «دعوة الحق» غ 231.

(77) تكررت الإشارة إليه، انظر رقم (26)، (47).

(78) انظر ج 8 — ملحق 1 ص : 172.

4 — ومرونا أن سكوت البرغواضي طلب من ابن جمهور مقرئاً، فبعث إليه من شيوخ قرطبة رجلاً يعرف بعون الله بن نوح<sup>(79)</sup>.

ب — كما ظهرت على مسرح الحياة الثقافية — نهضة أدبية كان لها صداها البعيد، حتى قال ابن عباد: أشتهي أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر<sup>(80)</sup> : ابن غازي الخطيب — ويعني به أبا العباس أحمد بن سعيد بن غازي السبتي<sup>(81)</sup>.

وابن عطاء الكاتب — ويريد به أبا بكر بن عطاء الأديب الشاعر<sup>(82)</sup> وابن مرانة القرظي صاحب المنظومة الشهيرة في الكوائن والحوادث، وقد نوه بها ابن خلدون في المقدمة<sup>(83)</sup>.

ومن الشعراء البارزين هذا العهد :

— أبو محمد عبد الله بن هارون المعروف بابن القابلة السبتي<sup>(84)</sup>، وعبد الله بن غالب الحمداني، كان عالماً أديباً، وشاعراً مجيداً. ذكر ابن حمادة أن له شعراً كثيراً أورد جملة منه في كتابه «تاريخ أهل سبتة»<sup>(85)</sup>. وإسماعيل بن محمد بن إبراهيم بن يربوع، قال فيه : انه كان أديباً شاعراً<sup>(86)</sup>. وأبو الحسن الحصري — الأنف الذكر، وكان شاعر القصر البرغواضي، أغدق عليه يحيى المعز بهاء الدولة بجوائز سنوية، أنسته عطاءات ملوك الطوائف بالأندلس، حتى قال فيه بعد موته : أين العزيز — قدما — وإن تذكر قريباً فأين ملك المعز — وخطيء أولئك الذي يجعلونه المعز بن بادس الصنهاجي<sup>(87)</sup>.

---

(79) انظر رقم (15).

(80) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (سبت) 3 / 183.

(81) انظر المطرب لابن دمية ص 89.

(82) المصدر السابق : 90.

(83) انظر ص : 609.

(84) انظر المطرب ص 88.

(85) انظر المدارك ج 8 — ملحق 2 — ص 188 — 189.

(86) المدارك ج 8 — ملحق 1 ص 175 — 176.

(87) انظر المرزوقي والجيلالي : أبو الحسن الحصري ص 229، والذخيرة لابن بسام م 2 — ق 2 ص 661 — 662.



## العصر الذهبي :

أما العهد المرابطي، فيمكن أن نعتبره العصر الذهبي الذي استكملت فيه سبته نضجها الفكري ومقوماتها الحضارية، وربما لم تكن هناك مدينة تضاهيها في ذلك، وحتى العاصمة (مراكش) — فإنها كانت تعج بالوافدين والواردين من رجالات الفكر، ولم تكن أخذت طابعها الشخصي بعد، وإدراكا من ابن حمادة لهذه المزية التي انفردت بها سبته، اختصها بالطبقة الثانية عشرة من فقهاء المالكية التي وقف عندها عياض في «مداركه»<sup>(88)</sup>، وترك — جانبا — ما كان بها من القراء، والنحاة، ورجال الأدب، أمثال : أبي علي حسن بن طريف النحوي — وهو من شيوخته<sup>(89)</sup>، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن عبد الله الموروري الشيخ المقرئ الذي أقرأ بالروايات السبع بجامع سبته طيلة عمره<sup>(90)</sup>، وأبي بكر محمد بن يعلى المعروف بابن الجوزي — خال عياض، متفنن في العلوم والآداب<sup>(91)</sup>، والأديب الشاعر أبي الحسن علي بن عمر ابن الفقيه عبد الله بن غالب<sup>(92)</sup>، وعلي بن يقظان الذي طوف بشعره في أقطار المشرق<sup>(93)</sup>، وأبي الحسن علي بن بياض السبتي الشاعر الصداح<sup>(94)</sup>، وسواهم كثير.

وحتى المؤلفات التي صدرت لهذا العهد — لم يذكر منها إلا ما يتصل بالفقه : — كاختصار المدونة لأبي حفص عمار بن مسلم، وقد زاد فيه على اختصار الباجي — زوائد<sup>(95)</sup>.

— ومختصر كتاب ابن أبي زمنين — لأبي إسحاق إبراهيم بن جعفر اللواتي، نحا فيه منحى حسنا<sup>(96)</sup>.

(88) المدارك ج 8 — ملحق 4 — ص 196 — 210.

(89) ومن شيوخ عياض كذلك، انظر الغنية ص 204.

(90) الغنية ص 159.

(91) انظر الصلة ص 573.

(92) انظر المطرب ص 89.

(93) انظر جريدة القصر 1 / 343 — 345.

(94) انظر معجم السفر للسلفي ص 122، والخريدة 505/3.

(95) انظر المدارج ج 8 ملحق 4 ص 207.

(96) المصدر السابق ص 203.

— وشرح المدونة لأعلى حسن بن سهل الحشني<sup>(97)</sup>.

يضاف إلى ذلك «تبيهات»<sup>(98)</sup>، عياض التي كان لها شأنها في الفقه المالكي — إلى غير ذلك.

وإذا كان لابن حمادة عذره في تركه — جانباً — من ليسوا من أهل الفقه — والموضوع يفرض عليه ذلك — فلا أدري ما عذره في إغفال ابن سبع — وهو من الفقهاء الأفذاذ، وقد حلاه بلديه محمد ابن قاسم الأنصاري في كتابه «اختصار الأخبار» بـ (الشيخ الفقيه، الخطيب، انحدث الحافظ<sup>(99)</sup>)، ولعل ابن حمادة اقتفى أثر أستاذه عياض الذي أهمل شأنه — ولم يشر إليه من قريب ولا من بعيد في كتابه: «الغنية» و «المدارك»، وقد خص الأول لشيوخه الذين سمع منهم أو لقيهم — وإن لم يأخذ عنهم، والثاني «المدارك» — لمعرفة أعلام مذهب مالك.

ويشير ولده في كتابه «التعريف» إلى أن لعياض روايات عن أبي الربيع (سليمان بن سبع) — في مناقب رجالات سبته الذين كانت لديهم كرامات، واستجيبت لهم دعوات<sup>(100)</sup>.

ومن المعلوم أن ابن سبع ألف كتاباً في الموضوع، أسماه «الحجة في اثبات كرامات الأولياء»<sup>(101)</sup>. وفي نظري أن ابن سبع لا يقل شأنًا عن عياض في كثير من الجوانب العلمية والأدبية، وكتابه: «شفاء الصدور في أعلام النبوة وخصائص الرسول» الذي قضى في تأليفه قرابة ثلاثين عاماً — أكبر شاهد على ذلك، وهو يقع في خمسة عشر مجلداً، وبين أيدينا الآن المجلد الأول منه<sup>(102)</sup>، وهو أقدم

(97) المصدر نفسه : 210.

(98) انظر الديباج 2 / 49، وأزهار الرياض ج 4 / 349 — نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

(99) انظر ص : 24 — نشر المطبعة الملكية بالرباط.

(100) ص : 41، 42، 51 — ويشير إلى أن هناك جماعة ممن يتكبرون وجود الكرامات، على رأسهم الحجاج بن قاسم المأموني، انظر التعريف ص 96.

(101) توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط رقم (35 — ق).

(102) يوجد بالخزانة العامة بالرباط رقم (1383 — ك) — وقد ضاعت أوراقه الأولى، وفي مكتبة الأوقاف بعداد مختصر منه تحت رقم (2842)، وبالخزانة الحسنية قطعة من كتاب «شفاء الصدور» — لأبي مهدي عيسى بن سبع، ولاندري من هو عيسى بن سبع هذا؟ ولعله تحريف.

مؤلف وصلنا لعالم مغربي — فيما نعلم. (103).

وقد أصابت العدوى ابن حمادة — وهو الفقيه الأديب، والعالم المؤرخ، فهذه كتب التراجم تطبق بالصمت عنه، ولولا أن بعض المصادر التاريخية احتفظت لنا بشذرات من كتابه: «المقتبس في تاريخ المغرب والأندلس»، لما كان له ذكر (104)، وينقل الذهبي عنه سيرة شيخه عياض — وهي شبه مذكرات عن أطوار حياته، وإنتاجاته العلمية والأدبية (105)، ولا شك أنها مقتبسة من كتابه «تاريخ أهل سبتة».

وهذا مؤلفه القيم «مختصر المدارك»، أخطأت عين الزمن بعض نسخه بالخزائن العامة، وكأن ابن حمادة أراد بعمله هذا — إكمال ما ابتداء تشييده عياض من صروح المعرفة، وربما كان ابن سبع خطط لها من قبل وعمل في غير ما واجهته منها، ولذا نجد بعض أعمالهم تتشابه وتتقارب في كثير من مناحيها (106).

ولم يغفل ابن حمادة العنصر النسوي، فهذه زينب النفزاوية زوج يوسف بن تاشفين — رابها أمر الفقيه الزاهد أبي محمد عبد العزيز التونسي الذي تجول في ربوع الأندلس، واستقر مدة بسبتة، وانتهى به المطاف إلى أغمات؛ — وكان يعيش حياة التقشف في ملبسه ومأكله، غير مبال بالدنيا، فأرسلت من ورائه رجلا فأتى به مكبلا في الأغلال، فامتحنته — ولكن الله سلم (107).

ولأنبالغ إذا قلنا: إنه ليس هناك مدينة اهتم أبناءها بتاريخها الفكري والحضاري — مثل سبتة، ويعتبر كتاب «الفنون الستة»، في أخبار سبتة (108)، لعياض — اللبنة

---

(103) انظر بحث «أبو الربيع سليمان بن سبع السبتي» — لكاتب هذه السطور، المنشور بمجلة «دعوة الحق» س 20 ع 8 — ص 17 — 22، وع 9 — ص 19 — 26، وع 10 — ص 39 — 42.

(104) انظر بحث «ابن حمادة العالم المؤرخ» — لكاتب هذه السطور، المنشور بمجلة «دعوة الحق» س 23 ع 3 ص 28 — 31، وع 228 — 24 (في تنظيمها الجديد).

(105) انظر تذكرة الحفاظ 4 / 1305.

(106) انظر المدارك 8 — ملحق 1 — ص 168، والأعلام لعباس بن إبراهيم 8 / 398 — 399، والاستقصا 2 / 19 — 20.

(107) ويتجلى ذلك واضحا في شفاء ابن سبع وعياض، «والفنون الستة» لعياض، و«تاريخ أهل سبتة» لابن حمادة.

(108) ذكر في قائمة مؤلفات عياض — وهو مفقود الآن.



الأولى في هذا الصرح الشامخ، ثم جاء بعده ابن حمادة فألف كتابه «تاريخ أهل بسبته» الآنف الذكر. فابن خميس — دفين بسبته — صاحب كتاب «الأعلام»<sup>(109)</sup> في تراجم أهل بسبته، ومحمد بن أبي بكر الحضرمي<sup>(110)</sup> مؤلف كتاب «الكواكب الوقادة، فيمن حل بسبته من العلماء والصلحاء والعباد»، ثم أخيراً — وليس أخيراً — محمد بن قاسم الأنصاري الذي عاش أيام احتلال بسبته، فألف عنها عدة مؤلفات، منها «اختصار الأخبار، عما كان بسبته من سني الآثار»<sup>(111)</sup>، و«بغية السامع»، و«الأعلام» و«الكواكب الوقادة، في ذكر من دفن بسبته من العلماء والصلحاء والقادة»<sup>(112)</sup>.

ونسب له بعضهم «بغية الأمنية ومقصد اللبيب، فيمن كان بسبته — في الدولة المرينية — من مدرّس وأستاذ وطبيب»، ونسبه البعض الآخر للحضرمي السالف الذكر<sup>(113)</sup>.

وبعد : فهذه صفحات مشرقة من «مختصر ابن حمادة» — تكشف لنا عن جوانب من الحياة الفكرية بسبته — في فترة بنحو قرن من الزمن، وهي حلقة مفقودة في تاريخ المغرب، ولعل من هنا جاء التجني على العصر المرابطي — تاريخاً، وفكراً، وحضارة... وهناك صور حية عن المجتمع السبتي — لهذا العهد — أحتفظ بها إلى فرصة أخرى، وربما كانت أوسع ما كتب في الموضوع — بالنسبة لهذه الفترة؛ وهذا — ان دل على شيء — فإنما يدل على مدى أصالة مدينتنا السليبية، ومغربيّتها، وعروبيتها وإسلاميّتها...

(109) ذكره في اختصار الأخبار ص 28، وترجمه في «بغية الأمنية» — المنشور بتحقيق محمد ابن تاويت في مجلة «تطوان» ع 9 ص 176.

(110) ترجمه في لفظ الفرائد، انظر دليل مؤرخ المغرب 1 / 53 — 54.

(111) طبع غير مرة، وآخر طبعة له بتحقيق عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية بالرباط.

(112) ذكر هذه الكتب الثلاثة : الأعلام، بغية السامع، الكواكب الوقادة — صاحب اختصار الأخبار، وأحال عليها في مواضع من الكتاب :

انظر ص 14، ص 38 — 39 — 42 — 43 — 47 — 55 — وهذه الكتب لا تملك منها إلا أسماؤها، وتعتبر مفقودة إلى الآن.

(113) انظر مقدمة «بغية الأمنية» المنشور بمجلة تطوان، ع 9، ص 173 — 174.



وهذه سجلات موثقة أودعها أسلافنا في محافظة التاريخ، لتبقى حجة قائمة إلى الأبد :

وهل يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل؟!

## الحركة الشعرية في سبتة في عصر الموحدين

د. محمد مجيد السعيد<sup>(١)</sup>

### سبتة في عهد الموحدين :

تنحدر مدينة سبتة عبر حقب سحيقة في التاريخ، ولها حضور بارز متميز خلال مسيرته الطويلة، تملأ صفحاته بأخبارها وأذكارها، حتى تكاد لا تخلو مرحلة من مراحلها من الإشارة إليها والوقوف عندها، فهي مدينة أزلية — كما يصفها ابن عذاري<sup>(٢)</sup> — ولكنها على صغر مساحتها كانت تشغل بال القادة والساسة، أولئك الذين يفكرون بمدّ أذرعهم إلى ما وراء البحر، سواء أكانوا من الغرب أو الشرق، فكلاهما في حاجة قبل كل شيء إلى تثبيت أقدامهم على أرض سبتة، لأنها، كما قيل، مفتاح الأندلس، وبالمقابل فهي مفتاح المغرب العربي، وهذا الموقع الجغرافي (الاستراتيجي) يؤهلها لأن تتبوأ مكانة مهمة في تاريخ المنطقة، ولست بصدّد الحديث عن تاريخ سبتة عبر عصورها التاريخية. وإنما لا بد من إلمامة بسيطة عنها خلال فترة الموحدين وحتى نهاية حكم أبي علي بن خلاص، لما لذلك من علاقة بموضوع بحثنا الذي يستناول النشاط الشعري في سبتة أثناء الفترة المذكورة. حينما انحسر نفوذ المرابطين وانطوت دولتهم على أيدي جيوش الموحدين الزاحفة

---

(١) اتحاد الجامعات العربية الأردن

(٢) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ١ ص 202 تحقيق ومراجعة ج.س كولان، و.إ. لفي بروفيسال، دار الثقافة — بيروت — لبنان — التاريخ : بلا وسوف نشير إليه عند وروده ثانية ب : المراكشي : البيان ط. بيروت.

في شمال إفريقيا، ومن ثم في الأندلس، تحول ولاء سبته إلى حكم الموحدين، فنالت حظوة واهتماما من لدن خلفائهم، فكان يولى عليها أمراء من أبناء العائلة الحاكمة أو من المقربين إليهم، فقد حكمها الأمير أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر<sup>(2)</sup> والأمير أبو سعيد عثمان والأمير أبو علي الحسن بن عبد المؤمن<sup>(3)</sup> وإدريس بن يوسف بن عبد المؤمن<sup>(4)</sup> وكذلك تولى أمورها أبو موسى ابن المنصور أخو الخليفة المأمون الذي قام بثورة ضد أخيه الخليفة ودعا إلى نفسه بالخلافة في سبته<sup>(5)</sup>، ومن غير الأمراء تولى أمرها أبو يحيى بن يحيى بن إبراهيم ملكها في مدة المستنصر<sup>(6)</sup> وابن عبد الصمد<sup>(7)</sup>، وأبو علي الحسن بن خلاص البيلنسي الذي ولاه الخليفة الرشيد عليها عام 635 هـ<sup>(8)</sup>، وغيرهم من الأمراء ومن المقربين للخلفاء، ممن كانوا يتولون أمرها ويديرونه شؤونها بأمر الخليفة وكانوا يلقبون بلقب «ملك سبته» زيادة في التكريم<sup>(9)</sup>.

- (2) العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر، ج 3 ص 399، تحقيق آذرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر 1972، وسوف نشير إليه عند وروده ثانية ب : الأصفهاني. الخريدة.
- (3) ابن القطان : نظم الجمان ص 170 بتحقيق الدكتور محمود علي مكي المطبعة المنهدية بتطوان — منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية — جامعة محمد الخامس — الرباط — التاريخ بلا — وسوف نشير إليه عند وروده ثانية ب : ابن القطان : نظم الجمان. المراكشي : البيان المغرب، القسم الثالث ص 84 عني بنشره امبروسي هويسى مراندة مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني، دار كرماديس للطباعة تطوان سنة 1960 وسوف نشير إليه عند وروده ثانية ب : المراكشي : البيان، ط. تطوان.
- (4) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب 136/1، ط 3 دار المعارف — مصر 1978 أما الجزء الثاني منه فكانت طباعته سنة 1980. وسوف نشير إليه عند وروده ثانية ب : ابن سعيد : المغرب.
- (5) الأستاذ محمد بن تاويت : تاريخ سبته ص 79 منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر 1982، 1402 هـ، وسوف نشير إليه عند وروده ثانية ب : تاويت : سبته.
- (6) نفسه
- (7) ابن سعيد : المغرب 2 / 318
- (8) المراكشي : البيان، ط. تطوان. ق 3 ص 350.
- (9) لمعرفة المزيد عن تولى أمر مدينة سبته يمكن الرجوع إلى المراكشي — البيان، ط. تطوان ق 3؛ روض القرطاس لابن أبي زرع، العبر في ديوان المبتدأ والخير لابن خلدون وغيرها من كتب التاريخ التي تعرضت لهذه المنطقة خلال فترة الموحدين.

ونلمس اهتمام الخلافة الموحدية بهذه المدينة فيما نقرأه من مجموعة الرسائل التي كان يبعثها الديوان الخلافي إلى ضلبة سبتة وما تتضمنه من دعوة لابنائها إلى التمسك بالعروة الوثقى وإلى له الصفوف وتوحيدها وببذ الفرقة والاختلاف، والوقوف إلى صف الخلافة الموحدية من أجل التصدي لأعداء الاسلام<sup>(10)</sup>، ولكن الذي يتابع تاريخ هذه المدينة خلال عصر الموحدين يجد أنها كانت غير مستقرة في ولائها، بل كانت تنزع بين الفينة والأخرى إلى الاستقلال وترنو إلى بناء دولة أو دويلة ذات سيادة ومكانة منفردة تكون سبتة محورها وقطبها، فأبناؤها يراودهم إحساس بعظمة مدينتهم ومكانتها، وانما أهل لأن تأخذ دورا مهما في تاريخ المنطقة، ولذلك ماكانت تمر فرصة ضعف من قبل القيادة المركزية الا ويشور أبناؤها ويعلمون تمردهم على السلطة برغبة في تحقيق مايطمحون إليه، ففي سنة 562 هـ اندلعت في جبال غمارة وغيرها من المناطق المجاورة لسبتة ثورة — كان ابن عذارى يسميها فتنه بربرية بقيادة سبع بن منعفاذ، وما فشا أمره وتوسعت حركته اضطر الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن نفسه أن يتوجه إلى جبال غمارة لاختداد ماهو قائم<sup>(11)</sup> فيها وفي أيام ضعف الخلافة الموحدية يعلن أبو العباس اليانشتي استقلاله عن الموحدين وتسمية نفسه ملكا على سبتة وذلك عام 630 هـ<sup>(12)</sup>، ولكن السبتيين مالبثوا بعد أربع سنوات حتى هجست في نفوسهم هواجس الاستبصار... فاتفقوا على عودتهم وتجديد بيعتهم للرشيد الموحدي<sup>(12)</sup>، فوصلت عام 634 هـ بيعة أهل سبتة للرشيد في مراكش وبها وجوه سبتة وأعيانهم بعد أن قبضوا على اليانشتي وابنه<sup>(13)</sup>.

وفي عام 635 هـ ولى الخليفة الرشيد على مدينة سبتة أبا على الحسن بن خلاص البيلنسي<sup>(14)</sup>. ولكن هذا مالبث، بعد وفاة الرشيد وتولى الخلافة من بعده أبو الحسن علي بن المأمون الملقب بالسعيد، أن خالف على الموحدين، وبايع للأمير

(10) انظر الرسائل التي وردت ضمن كتاب «مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنين» اعني بإصدارها الأستاذ . لافي بروفنسال المطبعة الاقتصادية — الرباط 1941

(11) المراكشي : البيان ط. تطوان ق 3، ص 69

(12) نفسه ق 3 ص 338.

(13) نفسه ق 3 ص 340. ولكن الحميري الروض المعطار يروي خبر نهاية اليانشتي بصورة أخرى. انظر : تاويت : سبتة ص 103.

(14) نفسه ق 3 ص 350.



أبي زكرياء الحفصي في تونس عام 643 هـ<sup>(15)</sup> ثم بعد ذلك بقليل نفاجاً بعودة سبتة إلى طاعة الموحدين عندما تولى أمرها الفقيه العالم أبو القاسم محمد بن أبي القاسم أحمد العزفي وذلك عام 647 هـ بعد مؤامرة دبرها مع بعض أنصاره ضد القائمين على المدينة من الحفصيين<sup>(16)</sup>، فكان العزفي في بدء أمره يبايع خليفة الموحدين المرتضي «ويخاطبه في كل الأوقات، ويخطط بما يجب له من التخطيطات. والبر والكرامات، ويعرفه بجميع الأمور والمزيدات»<sup>(17)</sup>، ويبدو أن ذلك كان بذكاء منه حيث كان في حاجة إلى حماية الموحدين وإسنادهم لتقوية مركزه، ولكنه في عام 654 هـ أعلن استقلاله عن الدولة الموحدية<sup>(18)</sup>، وهكذا استمرت سبتة بعد ذلك تحت حكم ابن العزفي بين استقلال وتبعية للمرينيين حتى عام 705 هـ حيث انتهى حكم عائلة العزفين<sup>(19)</sup>.

وتأسيساً على ما سبق فقد اعتبرنا تولي العزفين الحكم في سبتة نهاية للوجود الموحي فيها، وبذلك اخرجنا من دراستنا فترة مابعد ابن خلاص لأنها في الحق واقعة ضمن الحدود الزمنية للبحث وعليه فإن ما سنده من نشاط أدبي لمدينة سبتة إبان فترة الموحدين سيقصر على سنوات دخول الموحدين مدينة سبتة بعد طرد المرابطين منها وحتى نهاية حكم أبي علي بن خلاص، على الرغم من أن الأخير قد خلع ولأهـ لهم وباع للحفصيين في تونس، ولكن تلك الفترة كانت قصيرة وليست بذات أثر على صلب الدراسة.

### ملامح الحياة العلمية في سبتة :

تمتعت مدينة سبتة بموقع جغرافي مهم، بوأها لأن تأخذ مكانة مرموقة متميزة في الجغرافية وفي التاريخ، فقد أصبحت بفضل موقعها «جسراً حضارياً وملتقى

(15) نفسه ق 3 ص 359، 379.

(16) نفسه ق 3 ص 400 وما بعدها.

(17) نفسه ق : 3 ص 414، وانظر : خلف العاقي القيتوري : رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي ص 16، وانظر الرسائل السابعة والثامنة منها بخاصة والكتاب بتحقيق الدكتور محمد الحبيب الخيلة المطبعة الملكية بالرباط 1399 هـ، 1979 م

(18) المراكشي : البيان. ط. تطوان ق 3، ص 414.

(19) القيتوري : رسائل ديوانية من سبتة، مصدر سابق ص 16، 17.

للعلماء من المشرق والمغرب والأندلس»<sup>(20)</sup> فسجلها حافل بكثير من العلماء اللامعين الذين كانوا سببيين أصلاً أو وافدين إليها للإقامة فيها وبخاصة أيام الاستقرار والرفاه أو من العابرين من خلالها شرقاً أو غرباً — ولكن هذا العبور ليس كعبور الكرام، وإنما كان يمثل حضوراً علمياً لفترات قد تقصر وقد تطول حسب الظروف، فكان هؤلاء العلماء يقرؤون ويجيزون وينفعون الناس بعلمهم ويزادهم الفكري والثقافي، ولذا فإن أجواء سبته لا تخلو من ذلك العبق العلمي والأريج الثقافي تتعطر بهما في عصورها ومن خلال الروافد الفكرية التي ماتنفلك تتواصل عبرها. ويكفي دلالة على عظمة هذه المدينة أنها أنجبت رجالاً أعلاماً برزوا في العلم. وتفوقوا في الأدب، وتبوأوا مراتب عالية في السراة والسياسة والحكم والرياسة، وإشارة عابرة إلى الشريف الادريسي صاحب الجغرافية، والقاضي عياض مؤلف كتاب «الشفاء» والشريف السبتي شارح مقصورة حازم، وعبد المهيمن الحضرمي صاحب القلم الأعلى، ومحمد بن رشيد الرحالة الشهير، ومالك بن المرحل الشاعر الفحل، وآل العزفي أولي السراة والنبيل تدلك على بقية حلقات السلسلة وتنبئك عن مدى مابلغته هذه المدينة في غابرها الاسلامي من رقي وتقدم»<sup>(21)</sup>، ولقد ذكر الأستاذ محمد بن تاويت مجموعة طيبة من أولئك العلماء الذين اقترن اسمهم بسبته عبر عصورها المختلفة في كتابه «تاريخ سبته»<sup>(22)</sup> أما العلماء الذين احتوتهم فترة الموحدون فقد ذكر تاويت منهم مجموعة كبيرة بين عالم وفقه وصوفي وشاعر وأديب<sup>(23)</sup>، ولكنه لم يستقص — كما أشار إلى ذلك — فهناك بالتأكيد أعلام آخرون لم يرد ذكرهم في الكتاب.

ولعل من المفيد هنا أن نعيد بعض أولئك العلماء الذين كان لهم حضور فاعل ومتميز في تاريخ الحركة الفكرية بالمدينة، كنماذج تقرب صورة الحياة الفكرية فيها

(20) الدكتور صباح إبراهيم الشبخلي، القاضي عياض مؤرخاً — ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية. الخرطوم 1983. ط. بغداد 1985 ص 204

(21) محمد بن القاسم الأنصاري السبتي : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار. ص 5 المقدمة تحقيق عبدالوهاب بن منصور، المطبعة الملكية — الرباط 1389 هـ — 1969 م. وسوف تشير إليه عند وروده ثانية بـ / السبتي : اختصار.

(22) طبع الكتاب في دار الثقافة — الدار البيضاء (المغرب) ضمن منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر سنة 1982.

(23) تاويت : سبته ص 83 — 98.

إلى الذهن، وترسم أبعادها، وأطرها التي كانت عليها آنذاك. أما الشعراء فسوف نفرّد لهم فصلا مستقلا يفي حقهم.

لقد كان للحركة الصوفية أثر واضح في الحياة العامة للمدينة، وكان لابنها القاضي عياض ولابن العريف الدور الكبير في غرس ذلك الاتجاه وتعزيزه، ثم حذا حذوهما تلميذ عياض أبو عبد الله الفخار السبتي (ت 586 هـ) ثم تلميذ الفخار) الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي (ت 611 هـ) (24) «وقد اشتهر هذا القطب العالم بسلوكه الإنساني، كما اشتهر بآرائه وأفكاره في الإحسان، تلك التي انبثقت من قوله تعالى : «ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي كان بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» (25)، ان نظرية الإحسان التي نادى بها أبو العباس السبتي تمثل «فلسفة إشراقية إسلامية حقا... ولم يدع إليها السبتي كفكرة مجردة، بل كسلوك خلقي اجتماعي، يهدف إلى أكثر من هدف بإحسانه الذي دعا إليه» (26)، فكانت فلسفته تتمحور في رد الشرع إلى الصدقة» (27)

وقد نما هذا الاتجاه الديني في سبتة، وكان يتمثل في أكثر من مظهر من مظاهرها، ولعل من ذلك الاحتفال بعيد المولد النبوي الذي بدأ لأول مرة في هذه المدينة أيام حاكمها العزفي، ثم غدا بعد ذلك تقليدا سنويا شائعا في المغرب والأندلس وبلاد الشرق حتى يومنا هذا (28)

ومن فقهاءها ولد الامام أبي الفضل عياض بن موسى، المدعو بأبي عبد الله محمد بن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت 575 هـ) (29)، وكان

---

(24) عباس بن إبراهيم المراكشي : الاعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الاعلام ح 1 ص 239 وما بعدها. وذكر وفاته سنة 601 هـ، المطبعة الجديدة بطالعة فاس، ط 1 سنة 1355 هـ، 1932 م. وسوف نشير إليه عند وروده ثانية بـ/المراكشي : الاعلام.

(25) تاويت : سبتة ص 84.

(26) نفسه

(27) المراكشي : الاعلام ح 1 ص 241

(28) المقرئ : أزهار الرياض 243/1

(29) لسان الدين بن الخطيب : الأحاطة في أخبار غرناطة م 2 ص 229، تحقيق محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 1

1394 هـ — 1974 م، مع اختلاف في تاريخ طباعة الأجزاء، وسوف نشير إليه عند وروده ثانية بـ/ ابن الخطيب : الأحاطة.



فقيها جليلا أديبا كاملا، وكان له مؤلف في شيء من أخبار أبيه<sup>(30)</sup>، ومنهم أبو عبد الله محمد بن حسن الفهري السبتي المعروف بابن اخلي (ت 661 هـ)<sup>(31)</sup>، «كان أديبا بارعا كاتباً بليغاً، ناضماً وناثراً، عامداً للشروط مبرزاً في العدالة نحوياً ماهراً حسن القيام على تفسير القرآن العظيم، مذكراً، خلق بالتفسير في سبته مدة فانتفع به خلق كثير»<sup>(32)</sup>.

ومن جملة الفقهاء مرجي بن يونس الغافقي الذي ألف شرحاً على قصيدة الحصري في القراءات. وكان من شيوخ العزفي<sup>(33)</sup>.

أما المحدثون فمنهم : عثمان بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم العبدري البياسي «سكن مدينة فاس واستقر أخيراً في سبته، وكان ديناً عدلاً فيما ينقله ضابطاً لما يحدث به ثقة فيما يأتريه... أم طويلاً بمسجد القفال من سبته، توفي فيها عام 663 هـ»<sup>(34)</sup>.

ومن المحدثين الذين استقضوا في سبته أبو سليمان داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن الأنصاري الأندلي<sup>(35)</sup>، «كان حافظاً للقراءة، عارفاً بإقراء القرآن بها، محدثاً متسع الرواية، شديد العناية بها، كثير السماع، مكثراً عدلاً ضابطاً لما ينقله، عارفاً بطرق الحديث، اطلال الرحلة في بلاد الأندلس شرقها وغربها، طالبا للعلم بها، ورحل إلى سبته وغيرها من بلاد الأندلس العدوية<sup>(36)</sup>، وتولى القضاء في سبته والمرية والجزيرة الخضراء<sup>(37)</sup>، توفي سنة 621 هـ»<sup>(38)</sup>.

(30) نفسه.

(31) المراكشي : الاعلام 149/3 وما بعدها.

(32) نفسه 149/4.

(33) تاويت : سبته ص 91.

(34) أبو عبد الله محمد بن محمد الأوسي المراكشي : الدليل والتكملة لكتاني الموصول والصلة : السفر الخامس، ترجمة رقم 278 ص 137. تحقيق الدكتور إحسان عباس، نشر دار الثقافة — بيروت، 1925 م مع اختلاف في تواريخ طباعة الاسفار الأخرى، وسوف نشير إليه عند وروده ثانية ب : المراكشي : الدليل.

(35) ابن الخطيب : الاحاطة 503/1.

(36) نفسه.

(37) نفسه 505/1.

(38) نفسه 506/1.



وفي أيام ابن خلاص قدم محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري — ابن الجنان إلى سبته بدعوة من حاكمها «فاجل وفادته، وأجزل افادته، وحظى عنده حظوة تامة»<sup>(39)</sup>، وابن الجنان إلى جانب كونه شاعرا كان محدثا رواية ضابطا كاتباً بليغاً<sup>(40)</sup>.

أما النحاة فقد عرفت سبته منهم علي بن محمد بن علي بن خروف الحضرمي النحوي<sup>(41)</sup>، «كان مقرئاً مجوداً حافظاً للقراءات، نحويًا ماهراً عددًا فرضيًا عارفاً بالكلام وأصول الفقه، وقد صنف من كل ما ينتحل من العلوم مصنفات مفيدة شرقت وغربت.. من مؤلفاته «تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب» شرح لكتاب سيبويه، وكتاب «جمل الزجاجي» وغيرهما<sup>(42)</sup>. وكان يتردد في مدن المغرب والأندلس ويتعیش من التجارة وصناعة أواني الخشب المخروطة<sup>(43)</sup>.

ومنهم أيضاً عمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدي<sup>(44)</sup>، كان نحويًا متقدماً، بارعاً أدبياً، أقرأ القرآن ودرس العربية والأدب طويلاً بسبته، له شرح جمل الزجاجي، توفي عام 616 هـ في مالقة<sup>(45)</sup>.

أما رجالها الذين اعتنوا بالتراجم والرحلات فمنهم محمد بن محمد أبو عيشون

(39) انظر مصادر ترجمته في : المقرئ : نفح الطيب 416/7 تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر — بيروت — 1968 م 1388 هـ وسوف نشر إلى عند وروده ثانية ب/ المقرئ : النفح، ابن الخطيب : الأحاطة 349/2 وما بعدها، أبو العباس الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بيجاية ص 349 تحقيق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر — بيروت 1969 م وسوف نشر إلى عند وروده ثانية ب / الغبريني : عنوان الدراية.

(40) المقرئ : النفح 416/7

(41) انظر ترجمته في : المراكشي الذيل : س 5 ترجمة رقم 635، ابن الزبير : صلة الصلة ص 122، ابن الأبار : التكملة رقم الترجمة 1884، ابن خلكان : وفيات الأعيان : 22/3 : تحقيق محيي الدين عبد الحميد، أبو الحسن الرعيني : برنامج الرعيني ص 81 تحقيق الأستاذ إبراهيم شيوخ، دمشق 1962 — وانظر بقية مراجعه في هامش الذيل والتكملة.

(42) المراكشي : الذيل س 5 ترجمة رقم 635.

(43) نفسه

(44) نفسه : ترجمة رقم 780.

(45) نفسه : ترجمة رقم 453.

اللخمي المرسى أليكي من تأليفه تقيد في الوفيات اعتمد عليه ابن الأبار في «التكملة» وكانت وفاته سنة 614 هـ<sup>(46)</sup>

ومنهم أيضا محمد بن عبد الرحمان التجيبي اللقنتي «أخذ عنه بسبته سنة 574 هـ، وله تأليف وبرناج ورحلة إلى الشرق سنة 610 هـ<sup>(47)</sup>

ولا يمكن هنا أن ننسى الجغرافي الشهير أبا عبد الله الشريف الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الأندلسي السبتي من نسل الإدريسين الحسينيين، ولد في سبته سنة 494 هـ. وأتى الإدريس هذا في صباه إلى قرطبة وساح في الأندلس وشمال إفريقيا وآسيا الصغرى، وأتى إلى جزيرة صقلية تلبية لصاحب ملكها روجرز الثاني، وألف وهو مقيم فيها كتابه الذي فرغ من تأليفه سنة 549 هـ المسمى «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وهو وصف إفريقيا والأندلس، وكانت وفاته في صقلية سنة 576 هـ<sup>(48)</sup>

هذه نماذج من أعلام سبته خلال فترة دراستنا وهم يمثلون صورة لامعة مشرقة في مسيرتها العلمية، وفي كتاب «تاريخ سبته» كشف طويل لبعضهم، وكذلك في كتب التاريخ والآداب والتراجم أسماء أخرى تضاف إلى القائمة الطويلة التي قدمها — مشكورا — الأستاذ الكبير محمد بن تاويت.

### الحركة الأدبية في سبته :

تمتعت سبته بمكانة مرموقة لدى خلفاء الموحديين، لما كانت تحظى به من موقع جغرافي أهلها لأن تكون مفتاح العدوتين، فكان الخلفاء يحرصون على تولية أمورها لأشخاص من عائلاتهم وأبنائهم لكي يضمنوا سيادتهم عليها، فهي المعبر الحيوي إلى الأندلس وهي الميناء الرئيسي لهم، كما أنها مركز الأسطول البحري ومصنع السفن، ولعل هذا الموقع الذي حصلت عليه سبته خلال عصر الموحديين هو السبب في تسمية حكامها بلقب (الملك) زيادة في تعظيم متوليها وتفخيم شأنه من دون نظرائه من حكام المدن الأخرى التي قد تفوق سبته في السعة الجغرافية وعدد السكان. وبناء على ماسبق فقد لاحظنا أن ملوك سبته كانوا يحرصون على التشبه بذوي البلاطات في أن تكون لهم من الهيبة والاهبة ومن رجالات القصور من

(46) تاويت : سبته ص 92

(47) تاويت : سبته ص 92

(48) المراكشي : الاعلام 33/3

فقهاء وأدباء وشعراء إلى غير ذلك من مظاهر تجعل منهم صورة مصغرة عن الخليفة أمير المؤمنين، وهذا التصرف من ملوك سبته أثر إيجاباً على الحركة الأدبية فيها، لأن الأدباء والشعراء كانوا آنذاك، وكما هو معروف، يتجهون حيثما يجدون التشجيع والتكريم، والحنفاة والرعاية، ومن هنا فقد سجلت كتب الأدب مواقف عديدة لشعراء قصدوا مدينة سبته استجابة لدعوة من أحد ملوكها، أو باغراء منهم أو بطمع بنوال وعطاء.

يضاف إلى ماسبق فإن مدينة سبته تعدّ الملجأ الذي يركن إليه العرب والمسلمون حينما تتأزم بهم الظروف في الأندلس أو تقسوا عليهم الصراعات السياسية نتيجة للفتن والحن التي كانت تعصف بين الحين والآخر هناك، فقد ذكر أن «عدد النازحين من اشبيلية عندما استولى عليها العدو، كان 400 آلاف نسمة، قصد سبته منهم مائة ألف، منهم من اتخذها كمحلة أولى، ومنهم من أقام فيها بصفة نهائية إلى أن وقع الاستيلاء عليها في القرن التاسع الهجري»<sup>(49)</sup> وبالتأكيد كان من ضمن أولئك عدد كبير من العلماء والأدباء والفقهاء وذوي الفكر والثقافة، كما لجأ غيرهم إليها قبل ذلك الحادث أيضاً، متخذين من سبته مستقراً لهم عند ملوكها أو مرفأً يركنون إليه إلى حين التوجه إلى مراكز علمية وثقافية غيرها.

فمن أبرز الشعراء الذين انجبتهم سبته خلال عصر الموحدين أو الذين أمضوا حياتهم فيها حتى حسبوا عليها الشاعر ابن شقرق السبتي، وله مدح في عبد المؤمن<sup>(50)</sup>، والمتصوف الشاعر السبتي أبو الحسن علي المسفر<sup>(51)</sup>، وعلي بن يقظان السبتي، الشاعر الأديب المتطبيب، له أمداح في أبي جعفر بالموصل وغيره من حاكم بلاد المشرق<sup>(52)</sup>.

وأبو علي محمد بن حسن بن عمر الفهري السبتي ابن المحلى<sup>(53)</sup>، وكان أديبا

(49) القتبوري : رسائل ديوانية ص 13.

(50) الأصفهاني : الخريدة 345/1.

(51) تاويز : سبته ص 84.

(52) انظر : الأصفهاني : الخريدة 343/1، ومصادر ترجمته نقلا عن الخريدة في القفطي : أخبار العلماء 160، المنوفي : العلوم والآداب في عهد الموحدين ص 165.

(53) انظر ترجمته : المراكشي : الاعلام، 149/3 وما بعدها، ولقد مرت ترجمته عند الحديث عن علماء سبته.



بارعا كاتباً بليغاً ناظماً ونائراً. عاقداً للشروط مبرزاً في العدالة، نحوياً ماهراً... (54).  
أخذ عن جماعة من أهل سبته، كم استقصى فيها وله شعر مدون في كتاب  
الأعلام (55)، ومنهم الشيخ الأديب أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبي بكر  
المعروف بابن همث التميمي، «نشأ في سبته وتأدب بها وبالجزيرة الخضراء...  
من أهل الطب والذكاء والفطنة والدهاء.. جامعا لأنواع العلم والأدب» (56)،  
وذكر له ابن سعيد في كتاب القدح قصائد ورسائل عديدة (57).

وهناك مجموعة شعراء اتخذوا من سبته مقر هجرة وإقامة فيها، لظروف مختلفة،  
منهم الشاعر هارون بن عبد الله بن هارون، وكانت له صلة بابن خلاص (58)،  
ومرثية في ابنه أبي القاسم.

وأبو القاسم عبد الرحمان العثماني (ت 627 هـ) الذي عشق سبته وأحبها وكان  
يتولى الكتابة عمن تولوها (59).  
ومن نزلاء سبته الشاعر الزاهد أبو الحجاج يوسف المنصفي، وقبره فيها  
يزار (60).

ومنهم أيضاً الرحالة محمد بن أحمد بن جبير (ت 614 هـ) الذي تولى الكتابة  
فيها عن أبي سعد عثمان بن عبد المؤمن وله فيه أمداح كثيرة (61)، ويقال «أنه  
عندما عاد من رحلته الثانية عام 587 هـ سكن غرناطة ثم مالقة ثم سبته ثم فاس  
منقطعا إلى إسماع الحديث والتصوف وتروية ما عنده» (62)، كما أنه بدأ رحلته الثالثة  
إلى المشرق من مدينة سبته» بعد موت زوجته عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر

(54) نفسه 149/3.

(55) نفسه 149/3 وما بعدها.

(56) ابن سعيد : القدح ص 98 وما بعدها.

(57) انظر : نفسه.

(58) ابن سعيد : القدح 145.

(59) نفسه : 199.

(60) انظر : ابن سعيد : المغرب 354/2، القمري : النفح 181/1. وكناه بأبي عبد الله، 3/

595، 336/4.

(61) ابن الخطيب : الاحاطة 231/2، المراكشي : لأعلام 90/3.

(62) ابن الخطيب : الاحاطة 231/2، المراكشي : الدليل ص 5 ص 606، ترجمة رقم 1172.



الوقشي وكان كلنا بها، فعظم وجدده عليها»<sup>(63)</sup> فترك موتها في نفسه غما كبيرا وأثرا عميقا، وجرحا لا يندمل، فكانت ذكرى سبتة تقترن أبدا بذكرى زوجته عاتكة، فنراه حينما يكتب إلى صديقه أبي محمد عبد الله بن التميمي البجائي من الديار المصرية لما بلغه توليه قضاء سبتة<sup>(64)</sup>

بسبتة لي سكن في الثرى وحلّ كريم إليها أتى  
فلو أستطيع ركبته أهوا فزرت بها أخي والميتا

يشير إلى زيارة حبيبه الآخر الذي ثوى في تربة سبتة.

أبو عمران موسى بن سالم القلعي (المتوفى سنة 629 هـ) «كان بيته في أعيان هسطورة، فلما كانت فتنة ابن هود المشهورة أخرج عن بلده وفرق بينه وبين ولده»<sup>(65)</sup> فاستقر في سبتة وقد رآه ابن سعيد مؤلف القدح المعلى فيها<sup>(66)</sup> وأبو المطرف بن عميرة الخزومي (ت 656 هـ) وقد أقام في سبتة زمنا يسيرا في رعاية صديقه الرئيس أبي علي الحسن بن خلاص البلتنسي<sup>(67)</sup>

وكذلك هاجر إليها أبو القاسم خلف بن أبي الأصبع القبتوري مؤلف كتاب «رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي» مع والده الذي كان شاعرا وحافظا. وكانت هجرتهما في أعقاب استيلاء الأسبان على اشبيلية<sup>(68)</sup>

ويلجأ إليها الشاعر أبو جعفر أحمد بن طلحة<sup>(69)</sup>، بعدما فسد ما بينه وبين

(63) نفسها.

(64) المقرئ: النسخ 489/2.

(65) ابن سعيد المغربي: اختصار القدح المعلى في التاريخ اخلى ص 201 تحقيق إبراهيم الأبياري، نشر القاهرة — بيروت 1980 وسوف نشير إليه عند وروده ثانية ب/ابن سعيد: القدح.

(66) نفسه

(67) محمد بن شريفة: أبو المطرف ص 119، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي — مطبعة الرسالة 1385 هـ — 1966 م، وانظر ترجمته ومصادره في كتاب ابن شريفة.

(68) القبتوري: رسائل ديوانية ص 27.

(69) مصادر ترجمته في: ابن سعيد: القدح ص 116، ابن سعيد: المغرب 364/2، ابن الأبار: المفتضب من تحفة القادم رقم 96 تحقيق إبراهيم الأبياري ط، القاهرة 1957،

المقرئ: النسخ 309/3

مخدومه ابن هود، فيحتضنه منكها الموفق الينشتي<sup>(70)</sup> ويحسن إليه، ولكنه يقابل الاحسان بالاساءة ويهجوه بقوله: (71)

سمعنا بالموفق فارتحلنا وشافعنا له حسب وعلم  
ورمت يدا أقبليها وأخرى أعيش بغضها أبدا وأسمو  
فأنشدنا لسان الحال عنه يد شلا، وأمر لايته  
فكان ذلك سببا في مقتله فيما بعد<sup>(72)</sup>.

ومن أولئك الشاعر ابن سهل الاسرائيلي الذي كانت له علاقة مع ملك سبتة الموفق الينشتي<sup>(73)</sup>، ثم بعد ذلك إقامة هجرة في سبتة على عهد ابن خلاص، ولم توضح المصادر أسباب التحاقه بهذه المدينة، وان كان بعضها يعلل ذلك باستيلاء الافرنج على مدينة اشبيلية<sup>(74)</sup> وعلى كل حال فإن الشاعر المذكور خدم ابن خلاص وأصبح كاتبه، وله فيه وفي ابنه أي القاسم أمداح كثيرة، حتى اعتبرت فترة وجوده في سبتة من أخصب فترات عطائه الشعري، فلقبه البعض بشاعر اشبيلية وسبتة<sup>(75)</sup>.

وقد حظي ابن سهل بمنزلة خاصة لدى ابن خلاص، ولكن الأيام لم تدم له حيث توفي غرقا سنة 643 هـ مع أي القاسم ابن خلاص عندما كانا يحملان هدية إلى صاحب تونس أي زكرياء الحفصي<sup>(76)</sup>

وكذلك استدعى أبو علي بن خلاص إلى سبتة — كما ذكرنا سابقا — ابن

---

(70) ملك مدينة سبتة واستقل بها خلال الأعوام 630 — 635 هـ، وقد جعلناه ضمن فترة دراستنا لأن استقلاله عنها كان لفترة قصيرة. فسرعان ما عادت سبتة إلى حكم الموحدين.

(71) ابن سعيد : القدح ص 116، المقرئ : الفج 364/2.

(72) انظر : خبر نهايته في مصادر ترجمته التي سبق ذكرها.

(73) انظر : ديوان ابن سهل ص 369.

(74) انظر : الراعي : المستع السهل ص 40 تحقيق محمد قوبعة — حوليات الجامعة التونسية 1980 العدد 19. وانظر ديوان ابن سهل ص 26. تحقيق محمد قوبعة. المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية 1985.

(75) المقرئ : أزهار الرياض 213/2

(76) يوجد اختلاف في سنة غرقه، انظر ديوان ابن سهل ص 38 — 42 بتحقيق احسان عباس. وديوان ابن سهل ص 26 — 27 بتحقيق محمد قوبعة.

الجنان الكاتب البليغ، الشاعر المبدع، بعدما تشئت شمله باستيلاء الأسبان على مدينته، فأكرمه وأجزل وفادته، وحظي عنده حظوة تامة<sup>(77)</sup>

أما محمد بن مفضل بن مهيب اللخمي المكنى بأبي بكر فقد استقر آخر عمره فيها حتى توفي عام 645 هـ<sup>(78)</sup>، وكان أديباً شاعراً، خمس (عشر بنيات) الفازازي<sup>(79)</sup>.

وهناك مجموعة أخرى من الشعراء الأدباء ممن تولى القضاء أو الكتابة فيها منهم : عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمان الأنصاري (ت 612 هـ)<sup>(80)</sup> تولى القضاء فيها وكان «نحويًا كاتبًا أديبًا شاعرًا، متفننًا في العلوم، ورعا دينًا، حافظًا تبتًا، مشهورًا بالعقل والفضل، معظمًا عند الملوك معلوم القدر لديهم، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية»<sup>(81)</sup>، ومنهم علي بن محمد بن هيثم الرعيني (ت 666 هـ) من أهل اشبيلية ويكنى أبا الحسن «كان من أهل العلم والمشاركة وغلبت عليه الكتابة السلطانية... وكان انفصاله من الأندلس قبل سنة أربعين وستائة»<sup>(82)</sup>، ويشير ابن الخطيب إلى أنه رحل إلى مراكش فكتب عن أمير سبتة وعن ملوك الموحدین بمراكش... ووصفه بجودة الكتابة وإن شعره متوسط<sup>(83)</sup>.

أما الشعراء الذين كانت لهم زيارات وتردد إلى سبتة فهم كثير ويصعب استقصاؤهم ولكننا سنذكر منهم الذين أشارت المصادر صراحة بزياراتهم أو ترددهم : ولهم فيها شعر أو خبر، فمن هؤلاء : علي بن موسى بن سعيد العنسي (ت 685 هـ) متمم كتاب المغرب في حلى المغرب<sup>(84)</sup> وله شعر في وصف

(77) ابن الخطيب : الاحاطة 349/2

(78) ابن الخطيب : الاحاطة 426/2.

(79) نفسه 418/2 — 421.

(80) ابن الخطيب : الاحاطة 417/3

(81) نفسه.

(82) ابن الخطيب : الاحاطة 418/2 — 421

(83) نفسه

(84) انظر ترجمته في : ابن سعيد : المغرب 172/2، القدح ص 1 — 11، امراكشي : الدليل

ص 5 ص 411 — 412، ابن شاکر الكتبي : الفوات 178/2، العمري : مسالك الأبصار

382/8، السيوطي، البغية ص 357، ابن فرحون : الدياج المذهب 208، المقرئ :

الفتح : ترجم له في مواضع عديدة فليراجع القهرس.

ضبيعة سبتة، وفي مخاطبة ميوكها<sup>(87)</sup> وهو الذي كتب الرسالة المعروفة إلى أبي يحيى صاحب سبتة يعتذر فيها عن استدعائه للكتابة له في مراكش عندما استوزره مستنصر بني عبد المؤمن، محاولاً تبرير ذلك بتعلقه ببلده الأندلس وحبه وشغفه بها<sup>(88)</sup>.

والشاعر أبو الحسن سهل بن مالك الأزدي (ت 639 هـ)<sup>(89)</sup>، كانت له زيارة إلى سبتة وشعر فيها، ويذكر المقرئ نقلاً عن ابن سعيد أن ابن مالك سكن حصن سبتة وقد أسنّ وعليه زَيّ البادية حتى أن ابن زهر لم يعرفه حينما دخل عليه في أحد مجالسه<sup>(90)</sup>، والذي نعرفه أن ابن مالك «قد امتحن بالتغريب عن وطنه، لبغي بعض حسدته عليه، فأسكن بمرسية مدة طويلة إلى أن هلك بالمرية الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود آخر جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستائة، فسرّح أبو الحسن بن سهل إلى بلده في رمضان من هذه السنة»<sup>(91)</sup>، فهل أن مذكره المقرئ كان يعني هذا التغريب أم أن لسهل بن مالك إقامة أخرى أواخر أيامه في سبتة؟

ومنهم الشاعر المهر بن القوس<sup>(92)</sup>.

وكانت للشاعر أبي الحسن علي بن يوسف بن خروف القرطبي (ت 610 هـ)<sup>(93)</sup> زيارة إلى سبتة واتصال بملكها إدريس بن يوسف بن عبد

(85) المقرئ : النفح 2/263، 311.

(86) انظر ترجمته في : ابن سعيد : المغرب 2/170، القمري : النفح ترجم له في مواضع عديدة فليراجع الفهرس.

(87) المقرئ : النفح 3/186.

(88) نفسه 1/182.

(89) انظر أخباره في التجيبي : زاد المسافر ص 96، المراكشي : الذيل ص 4 ص 106 ترجمة رقم 229، ابن الخطيب : الأحاطة : 4/277، المقرئ : النفح 3/600، 4/8.

(90) المقرئ : النفح 7/9.

(91) ابن الخطيب : الأحاطة 4/285.

(92) المقرئ : النفح 4/8.

(93) انظر ترجمته في : ابن سعيد : المغرب 1/136، ابن سعيد : الغصون اليانعة ص 138، ابن الأبار : التكملة رقم 1894، المراكشي : الذيل ص 5 ص 496، ابن الزبير : صفة الصلة 115، ياقوت الحموي : معجم الأديباء 1/75 (ط. القاهرة) ابن خلكان : الوفا.



وقصد الشاعر أبو الحسن علي بن محمد بن حريق (ت 622 هـ) (95) صاحب أعمال سبته ابن عبد الصمد في مدة مستنصر بني عبد المؤمن للذائع من كرمه (96)

ومنهم الشاعر أبو عمرو بن غياث (ت 619 هـ) (97)، والشاعر أبو جعفر أحمد بن محمد المتيطي، دخل سبته أيام المستنصر «وله أمداح كثيرة في أبي يحيى بن يحيى بن أبي إبراهيم ملك سبته» (98) ومثله كان الشاعر أبو عمران موسى الطرياني (99)، وله مدائح في القائد أبي السرور صاحب ديوان سبته الذي أكرمه بأكثر مما يحلم ويتصور (100)، كذلك كانت لأبي علي عمر بن الحسن بن علي بن دحية (ت 633 هـ) (101)، مؤلف كتاب المطرب وقفة في سبته أثناء تنقله في المغرب لطلب العلم، وقد شهد فيها جنازة أستاذه عبد الله بن شقريق، كما يقال أنه ولي القضاء في سبته (102).

- 
- 476/1 ط. مصر المقرئ النفح : 2/640، 4/204، 4/89، ابن شاكِر الكتبي : الفوات (ط. بولاق) 2/79، السيوطي : البعية ص 354 (ط. القاهرة)
- (94) ابن سعيد : المغرب 1/136.
- (95) انظر ترجمته وأخباره في : ابن سعيد : المغرب 2/318، ابن سعيد رايات المبرزين ص 56، التحيي : زاد المسافر ص 64، ابن الأبار التكملة ص 679، ابن الزبير : صلة الصلة 129، المراكشي : الذيل والتكملة ص 5 ص 275، ابن شاكِر الكتبي : الفوات 2/70
- (96) انظر : ابن سعيد : المغرب 2/318
- (97) ابن سعيد : المغرب 1/305، وانظر أخباره في : ابن سعيد : الرايات 24، المقرئ : النفح 2/608، 5/65، ابن الأبار : التكملة 325، ابن الأبار : التحفة رقم 281.
- (98) ابن سعيد : المغرب 2/362.
- (99) انظر مصادره وأخباره في : ابن سعيد : المغرب 1/294، ابن سعيد : القادح 202، المقرئ : النفح 4/63، 131.
- (100) المقرئ : النفح 4/131.
- (101) انظر مصادره ترجمته في كتابه المطرب، تحقيق الدكتور مصطفى عوض الكريم. مطبعة مصر — الخرطوم 1954.
- (102) انظر : ابن دحية : المطرب : ص (و) من المقدمة.

ومنهم الأديب المعروف إسماعيل بن محمد الشقندي (ت 629 هـ) (103) صاحب الرسالة المشهورة في فضائل الأندلس (104)، وكانت له مجالسات مع صاحب سبته أبي يحيى بن أبي زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن (105).

تلك نخبة من أسماء الشعراء الأدباء الذين عرفتهم سبته من أبنائها أو كانت هم مجالس أدبية ولقاءات ثقافية شكلت الجو الأدبي في المدينة خلال عصر الموحدين.

ضمن هذا الجو العلمي والأدبي كانت سبته تعيش سنواتها وهي في ظل الموحدين متباهية بتلك الأسماء النامعة في سماء المعرفة تجملها وتحلبها مجالسها الأدبية والشعرية التي يعقدها الأدباء ويتغنى بها الشعراء، متشبهة بعواصم الحكم، أو ببلاطات كبار الملوك والأمراء، ولقد سجلت لنا كتب الأدب بعضا من تلك المجالس الأدبية والشعرية. فمنها :

مارواه ابن سعيد عن والده أبي عمران موسى بن سعيد قوله «كنت يوما في مجلس صاحب سبته أبي يحيى بن زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن، فجرى بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين، فقال الشقندي: لولا الأندلس لم يذكر بر العدو، ولا سارت عنه فضيلة، ولولا التوفير للمجلس لقلت ماتعلم، فقال الأمير أبو يحيى: أتريد أن تقول كون أهل برنا عربا وأهل بر كم بربرا، فقال: حاشا لله. فقال الأمير: والله ما أردت غير هذا، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم: أتقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدو؟ فقال الأمير: الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بره. فالكلام هنا يطول ويمر ضياعا، وأرجو إذا أخليتما له فكر كما يصدر عنكما ما يحسن تخليده فعلا ذلك» (106) وأورد المقرئ رسالة الشقندي كاملة. ولكنه لم يورد رسالة الطنجي ولم نعثر لها على أثر في الكتب الأخرى، وعلى كل حال فإن هذا المجلس وما تضمنه من حوار يضع أمامنا الحقائق التالية :

---

(103) انظر مصادر ترجمته في : ابن سعيد : القدح 138، المقرئ : النسخ : فيه أخبار في مواضع عدة : فليراجع الفهرس.

(104) انظر الرسالة في : المقرئ : النسخ 186/3 وما بعدها.

(105) المقرئ 186 3.

(106) المقرئ : النسخ 186/3.

- 1 — كانت هناك مجالس أدبية تعقد بحضور الأمراء وتشجيعهم.
- 2 — كانت تشيع فيها أجواء من الحرية والصراحة.
- 3 — كان الأمراء يشجعون الكتاب والشعراء على الكتابة والمناظرات الأدبية ويدفعونهم إلى ذلك.

ومن تلك الندوات الأدبية، ندوة جمعت بين الشاعر سهل بن محمد بن مالك والشاعر ماهر الفرس ومجموعة من الأدباء على ساحل البحر في سبتة، وتذكروا محبوبا لهم يسكن الجزيرة الخضراء، أي في الساحل المقابل لهم، فاقترحوا أن يقول كل واحد منهم شيئا في ذلك، فقال أبو الحسن سهل بن مالك (107) :

لما حططت بسبتة قرب النوى      والقلب يرجو أن تحول حاله  
والجو مصقول الأديم كأنما      يبدى الخفي من الأمور صقاله  
عائنت من بلد الجزيرة مسكنا      والبحر يمنع أن يصاد غزاله  
كالشكل في المرأة تبصره وقد      قربت مسافته وعز مناله

حينذاك قال الجماعة : والله لا يقول أحد منا بعد هذا شيئا.

وغير ذلك من لقاءات ومحافل تجمع بين جوانبها عشاق الأدب والشعر ومحترفيها، وتؤثر بعد الحركة الشعرية في سبتة، وتكشف من خلال النصوص جوانب عديدة من حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية. وفي هذا المجال فإننا نود أن نشير إلى أن النصوص أقل بكثير مما توقعنا، فبعض الشعراء الذين مر ذكرهم والذين وصفوا بالشعر في كتب التراجم والسير لم نعثر لهم على نصوص شعرية، في حين أثر عن بعضهم الآخر البيت أو البيتان وفي أحسن الأحوال نجد لبعضهم مجموعة من المقطوعات قد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وهذا يدل على أن كثيرا من تراث سبتة الشعري مفقود، وبحاجة إلى البحث والتنقيب عنه، وقد يكون من جملة أسباب عدم توفر النصوص حاليا هو قلة ما ألف عن سبتة في الأزمنة الغابرة من كتب تعنى بعلمائها وأدبائها وشعرائها أسوة بما وقع للمدن الأخرى مثل بنجاية ومراكش وبلاد الأندلس وغيرها. ومن المؤسف حقا أن ما ألف بصدددها من كتب على قلتها لم يصلنا منها سوى تأليف يسمى « بلغة الأمانة

(107) انظر : التجيبي : زاد المسافر ص 96، المراكشي : الدليل ص 4 ص 106، ابن الخطيب لاحاطة 277/4، المقرئ : الفتح 8/4.



ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب<sup>(108)</sup>، أما كتاب أبي الفضل القاضي عياض «الفنون الستة في أخبار سبته»<sup>(109)</sup>، وتأليف محمد بن أبي بكر الحضرمي (ت 787 هـ) المسمى الكواكب الوقاد فيمن حل بسبته من العلماء والصلحاء والعباد<sup>(110)</sup> فقد ضاعا ولم نعرف عنهما غير الاسم، مع العلم أن هذه المؤلفات خارجة بجملتها عن فترة دراستنا، ولأنعلم أن كانت ثمة تأليف أخرى اهتمت بالنشاط الأدبي في مدينة سبته ابان عصر الموحدين. ودونت نتاجاتهم الأدبية والشعرية.

ومع ذلك فقد تمكنا من تجميع باقية متنوعة ملونة من تراثهم الشعري للفترة المذكورة، يستطيع الباحث من خلالها أن يضع يده على مسارات الحركة الشعرية آنذاك، وأن يحدد الأغراض والفنون التي عالجتها نظما، وهي في مجملها امتداد للأغراض الشعرية التي عرفها الشرق والغرب العربيين خلال ذلك العصر، ونظرة سريعة إلى النصوص المتوفرة بين أيدينا تعطينا أن الشعر السبتي يمثل مجمل المقاصد الشعرية ويتناول فنونها، وإن اختلف من حيث الكم بين غرض شعري وآخر. وسوف نفصل الحديث في ذلك، فنقول : ان من الفنون الشعرية التي عالجها القريض السبتي هي :

## 1 - المدح :

كان غرض المدح أوسع حظا من غيره في المأثور النظمي، ولعل سبب ذلك هو إقبال الملوك وكبار الرجال في سبته على كسب رضا الشعراء وانتزاع ودّهم

(108) السبتي : اختصار ص 7 أشار الخفقي إلى نشر نقل عن كتاب يسمى «الكواكب الوقادة في ذكر من دفن بسبته من العلماء والصلحاء والقادة أوردتها محمد بن أبي مريم المليتي في كتابه «البيان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان» كما أشار إلى نشر نتف من (بلغة الأمنية) في مجلة تطوان، ولكن أخيرا صدر كتاب «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب» مؤلف مجهول بتحقيق عبد الوهاب بن منصور - المصنعة الملكية - الرباط 1404 - 1984.

(109) ابن الخطيب : الاحاطة 83/1 وقال انه تركه في مسودته.

(110) السبتي : اختصار ص 7.

(111) المقرئ : النفع 4 131.



ومحبته بما يقدمونه من هبات وعطايا تنطق ألسنها وتدفعها إلى القول والثناء، وتسجيل الشكر والتعجيد للممدوحين الذين هم في الغالب من ذوي النفوذ والسلطة. فمن المدائح التي عرفها تراث سبته الشعري قصيدة رفعها أبو عمران الطرياني إلى القائد أبي السرور صاحب ديوان سبته «يعرض فيه بَراد وقد عزم على سفر، فأنعم عليه بذلك، ثم أتبعه بتحف مما يكون في الديوان مما يجلبه الأفرنج إلى سبته، ولم يكن الشاعر التمس منه ذلك ولا خطر بخاطره» (111) قال فيها (112) :

أيا سابقا بالذي لم يجل بفكري ولم يبد لي في خطاب  
ويا غائضا في بخار الندى ويا فاتحا للعلا كل باب  
كذا فلتكن نعم الأكرمين تفاجي بنيل المنى والطلاب  
ولم أر أعظم من نعمة أتنني ولم تك لي في حساب  
سأشكرها شكر عهد الرضى وأذكرها ذكر غصن الشباب

وفي قصيدة لابن شقرق السبتي يمدح عبد المؤمن، وهو فيها يركب مركب القدماء... ويتمثل بالجاهلين حينما يدعو رفاهه إلى إيقاف العيس في حضرة الممدوح... ويؤكد في المدح على قيم الكرم والتقوى والایمان... منها (113)

قفوا عيسكم في حضرة الملك الأتقى وقضوا بلثم التراب من ربه حقا  
وحثوا المطايا المقربات ويمسوا ذراه الرحيب الأخضر الأمانع الأوق  
وما هو إلا رحمة لمن اهتدى وغوث وغيث هائل شمل الخلقا  
وشد عرى التوحيد ناشد أزره فدونك فاستمسك بعروته الوثقى  
هو البحر حدث عن عطاياه انها عطايا جواد عمّت الغرب والشرقا

وهذا أبو جعفر أحمد المتيطي يخاطب أبا سعيد بن جامع وزير أئمة بني عبد المؤمن (114)

سموت حتى علوت النجم مرتفعا هذا صعود لمن في الدهر قد مجدا  
وخافك الناس طرا في مياههم لو أن بأسك في ماء لما وردا  
زينت ملك أمير المؤمنين بما أظهرت من غزوات نظمت عددا

(112) نفسه.

(113) الأصفهاني: الخريدة 1/345.

(114) ابن سعيد: المغرب 2/361.

وفي الأبيات مبالغة وتفخيم منزلة الممدوح وهي سمات معروفة في القصيدة المدحية.

ومن مداحي هذا العصر الذين أثر عنهم مجموعة من القصائد في المدح وصلتنا كاملة أو قريبة من ذلك. الشاعر ابن سهل الأسرائيلي الذي مدح أبا العباس اليناشتي صاحب سبئة<sup>(115)</sup>، ثم مدح وأكثر، من بعده أبا علي الحسن بن خلاص<sup>(116)</sup>، فقد مدحه بإحدى عشرة قصيدة. كما مدح ابنه أبا القاسم بواحدة. وبدراسة هذه النصوص المدحية لابن سهل نجد أنه لا يخرج عن الأطر العامة للقصيدة المدحية العربية. وأنه ملتزم بقواعدها ومحافظ على أركانها وعناصرها التي تمسك بها الشعراء من قبل، من حيث ديباجتها التي تقوم على البدء بالغزل التقليدي أو بوصف مجالس الخمر واللهو أو بوصف الرحلة إلى غير ذلك من مقدمات، ليتخلص بعد ذلك إلى ممدوحه، وقد يتجاوز ذلك، فيبدأ مباشرة بالمدح ثم بعد المدح يختتم في العادة قصيدته بأبيات يلفت فيها انتباه المتلقين إلى حسن قصيده، وبكر قوافيه.

ومن حيث المضمون فإنه لا يخرج في معانيه وأفكاره عما انطوت عليه قصائد المدح عبر عصورها الإسلامية السابقة لفترتنا، من المبالغة والتفخيم والتعظيم لسمات الممدوح وصفاته الشخصية والخلقية، فالمعاني جاهزة متوفرة ولا تختلف أو تتباين سوى فيما ترتديه من ثياب أو تشكيل يعتمد أصلاً على قدرة الشاعر الفنية ومدى إمكانياته في بناء المفردات والألفاظ وصياغتها وتعشيقها، ومن هنا يصدق ما قاله الدكتور إحسان عباس حول مدح ابن سهل في كون قصائده في هذا المجال «باهتة ضعيفة الحرارة حتى كأنه يكلفها تكليفاً»<sup>(117)</sup>

أي أن هم الشاعر ينصب على تجويد مستوى الصنعة، فهو «يفتقر إلى صدق العاطفة»<sup>(118)</sup> ويتمركز في جانب العناية باستفراغ الصورة الشعرية<sup>(119)</sup> دون إعطائها جزءاً من حواسه وشيئاً من حرارة وجدانه ومشاعره. لتقترب الصور

(115) حكم سبئة خلال الفترة 630 — 635 هـ

(116) تولى أمر سبئة من سنة 637 هـ حتى عام 646 هـ

(117) انظر : ديوان ابن سهل ص 43 ط. احسان.

(118) ديوان ابن سهل ص 32، ط. قويعه.

(119) نفسه.

من الصدق والمعاناة الحقيقية، فتطوى بين جناحيها مقداراً من الحرارة والانفعال  
للذين يؤثران بالقارئ، أو السامع ويثيران لديه مشاعر قريبة مما يشعر به الصانع.  
ولسنا بصدد تقويم شعر ابن سهل وشاعريته، فإن لذلك مجالاً آخر.

ونعود إلى مدحيه في حكام سبته، فنجد في ديوانه مجموعة قصائد، منها قصيدة  
في مدح أبي العباس اليناشتي<sup>(120)</sup>، وفيها يباشر الشاعر موضوع المدح بلا  
مقدمات أو تمهيدات<sup>(121)</sup> :

طاول بنكد فالأقدار عنوان واحكم فما لصروف الدهر عصيان  
محمد وكفانا من فتى هرمت به الليالي وقاراً، وهي شبان  
ثم ينتقل بعد أن يثني على سمات ممدوحه وماتصف به من حكمة ووقار  
وتجارب إلى تقديم صورة من حياة الأندلسيين ومجالس خوهم وشرهم في أحضان  
الزهور وتحت ظلال البساتين. ولكن الشاعر يستدرك فيوضح بأن شرهم ليس  
راحاً أو عقاراً وإنما هو دماء الأعداء وإن رياحينهم وعطورهم ليست أزهاراً أو  
نواوير وإنما هي سيوف ورماح.

يرى الدماء عقاراً والظبي زهراً فالحرب في زعمه راح وريحان  
والصفات التي تمتع بها اليناشتي والمفاخر التي جسمها ببطولاته ومواقفه جعلت  
سبته تتفاخر على كبريات المدن، وأصبح بحر سبته على ملوحته محسوداً من الفرات  
على عدوخته.

لولاك لم يحسد الملح الفرات ولا جنت بسبته يوم الفخر بغداد  
ويحشد الشاعر مجموعة القيم والفضائل في ممدوحه فيقول :

ملك فتى البأس كهل الرأي متضح عالي الذؤابة رحب الباع يقظان  
أغرّ للجاه منه منطلق سدّد إلى الصواب وبعض الجاه الحان  
إذا تكلم أصغى الدهر مستمعاً كما يصيغ لداعي الماء ضمآن  
يجزي الاساءة بالحسنى مسامحة حتى تخيل أن الذنب قربان

وفي مدائحه الأخرى في ابن خلاص يكرر هذه المعاني والصفات الجاهزة مثل  
قوله<sup>(122)</sup> :

(120) وتكتب هذه الكلمة : اليناشتي، واليناشتي.

(121) ديوان ابن سهل : 205 ط. احسان.

(122) ديوان ابن سهل ص 137 ط. إحسان.

فالأسد من صولاته مذعورة      والظير من تأمینه لن تدعرا  
فهو الذي سفت أهبات مؤملا      وهو الذي حقن الدماء مؤمرا  
فكسا بني الآمال غيثا أخضرا      وكفى بني الأوجال موتا أحمر  
استخلص ابن خلاص أهمم التي      بلغ السماء بها ويغني مظهر  
ملء المسامع منطفا، ملء الخواخ      هبة، ملء النواظر منظرا  
لو كان عند النجم بعض لحاله      ماكان في رأي العيون ليصغرا  
ويشير إلى كرم الممدوح وإسعاف حاجة الشاعر حتى لكأنه سحابة تسقي  
الظمأى :

كفناك تفت إليهما وأراهما      لعلاج سقمي زمزما والكوثرا  
فامدد أقبّل ثم أحلف أنسي      قبلت في الأرض السحاب المظرا  
وقد يكون الممدوح بمثابة المسيح الذي يبعث لشفاء المرض (123)  
بعثت مسيحا للبلاد وقد فشا      بأرجائها داء الردى المتفامم  
وفي قصيدة أخرى يلتفت الشاعر ليوضح موقف ابن خلاص منه، ومقدار  
اهتمامه به ورعايته إياده، وحمايته، في حين تفامم حوله كيد الحساد، وضافت به  
الأيام: (124)

وأنت أضائي والناس ليل      وجدت عليّ في الزمن البخيل  
وكم قد أضرح الحساد نارا      على رددتها نار الخليل  
سددت مفاقرى وشددت ركني      بعزة ناصر وندي منيل  
ومواقف الممدوح التي سجل الشاعر بعضها من كرم وبطولة وشهامة  
 واحتضان للمحتاجين من أمثال شاعرنا، تطمع ابن سهل في أن يستغيث به لنجدة  
بلده اشبيلية والوقوف إلى جانبها في محنتها، لكي يقلّ عنها الحصار الاسباني ويزيل  
غمّة أمت بها (125) :

حمص التي تدعوك جهز دعوة      لغياثها ان لم تجهز عسكرا  
وقد شمت مباهجها مولية على      حرف كما زار النسيب معذرا

(123) نفسه ص 327 ط. قوبعة

(124) نفسه 306

(125) نفسه 137 ط. احسان



حُفَّتْ مصانعها الأنيفة بالعدا فيرى بساحة قصر قيصر  
ما تصدم النظرات حسنا مقبلا منها ولا الخسرات حفا مدبرا  
وتلك المواقف نفسها أنست ابن سهل موطنه الأول وعوضته بموطن جديد  
هو سبتة، والفضل كله لابن خلاص: (126).

دعوا حمص تفعل أفعالها فقلبي بسبتة عنها سلا  
نسيت بموطن عزري الأخير موطن ————— نشأني الأول  
كما يألف السيف كف الكمي ويطرح القين والصيقل  
وقد يهجر الطير أوكاره إذا وجد الأمن والسنبلا  
ويكرر هذه المشاعر في موضع آخر (127).

ماضرنى مع رؤية الحسن الرضى أنى أفارق موطننا أو معشرا  
إذ أفقه كل البلاد، وعصره كل الزمان، وشخصه كل الورى  
ومما يلاحظ في شعر ابن سهل المدحى أنه كان يحرص على ذكر اسم الممدوح  
في القصائد، كما كان يحرص على ذكر مدينة سبتة فيها، وقد يجمع بين الاثنين في  
بيت شعري واحد مثل قوله: (128).

هاسبتة بأني عليّ جنة والبحر فيها كوثر مورود  
فلا تكاد تخلو مدائحه من ذلك، يمزج بين ابن خلاص وعاصمته سبتة فهي  
به فخورة مبهجة مطمئنة، يغمرها الفرح والسرور بهذا البحر الزاخر والخلق  
السمح، والبيان الناصع: (129).

يلقى ذوي الحاجات مسرورا بهم فكأن سائله أتاه مبشرا  
لم أدر قبل سماحه وبيانه أن الفرات العذب يعطي الجوهرا  
يأهل سبتة اشكروا آثاره ان المواهب قيدها أن تشكرا  
هو فوقكم للأمن ظل سابغ لو أن ظلا قد أضاء ونورا  
ولا ينسى ابن سهل أن يختم قصائده بالاشادة بشعره، وجودة فنه، مع اعتذاره

(126) نفسه 271.

(127) نفسه 136.

(128) نفسه 96.

(129) نفسه 137.

بتواضع عن قصوره في إيفاء الممدوح حقّه، فمنه قوله في نهاية قصيدة مدح: (130)

فدونك من مدحي أراهير روضة تشق من الأفكار عنها كرائم  
نظمت بها دراً وباعى مقصر ولو أنني فيك الدراري ناظم  
لئن كان فرض الحج يحجر مآثماً ففنيك حج والخطوب مآثم  
وهكذا يقتضي ابن سهل طريقة من سبقوه من المداحين، فليس لديه جديد  
فيما قدمه سواء في الصورة أو الفكرة أو البناء، لكنه شاعر قادر، وذو باع في  
تفريغ الصور والمعاني والبأسها ثوباً جديداً ضريفاً، فكأنك تسمعها لأول مرة.  
أما قصيدته في مدح أبي القاسم محمد بن علي بن خلاص فلا تختلف عن مدائحه  
الأخرى من حيث الأسلوب والمضمون ولكنها فقط تميزت عنها بالمقدمة الطويلة  
التي تتحدث عن مجلس هو وأنس ثم بالغزل الرقيق الذي عرف به شاعرنا ثم  
بعد ذلك يتخلص المادح إلى غرضه وكأني به هنا أقل تكلفة مما كان عليه مع  
ابن خلاص الأب، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة العلاقة التي تربط بينهما (131)

## 2 - الشعر الديني :

من المتوقع أن يكون الشعر الديني، من تصوف أو زهد أو مناجاة إلى غير  
ذلك، طاعياً على نتائجهم الأدبي أبان فترة الموحدين، وذلك لطبيعة توجهات الحكم  
الموحدي، وللروح الدينية التي كانت تصبغ السبتيين. فلقد ذكر أن مدينة سبتة  
كانت تضم من أضرحة الأولياء والنسك والمتزهدين المتصوفين والفقهاء والصلحاء  
والخطباء والأدباء والعلماء، الشيء الكثير، وقد جمع من قبور أولئك الأئمة والقادة  
مؤلف كتاب الكواكب الموقدة «اثنين وثمانين» قبراً عدا بعض المزارات التي لم  
يحتوها التأليف، وذلك، على كل حال يمثل مؤشراً لتوجهات المدينة الدينية، ويؤكد  
ما سبق ذكره من أن الحركة الزهدية قد فعلت فعلها بين السبتيين منذ البذرة  
الأولى التي زرعتها في أرضهم ابن العريف وغذاها ونماها القاضي عياض... فأينعت  
وأعطت أكلها عند العزفيين، وكل الذي تقدم يوهنا عند الوهلة الأولى اننا سنجد

(130) نفسه 332 طه قربة

(131) انظر القصيدة في الديوان ص 273 طه احسان. وفي ص 287 طه قربة.

(132) انظر السني : مختصر ص 15.

تراثاً حراً من الشعر والأدب في مجال الغرض الديني لدى السبتيين، ولكن المنحوق فعلاً يصدمنا ويثير لدى الذهن تساؤلات عديدة لتفسير شحة الموجود من الشعر الديني وقلته ونزوته التي لا تتجاوز بضع قصائد في المناجاة أو في الزهد، ولا تتعدى بضع شعراء... فهل كانت غالبية هؤلاء المتزهدين والمتصوفين والنسك والفقهاء لا يعانون قرض الشعر؟ أو أن نتائجهم لم يؤبه به خلوه من عناصر البقاء، من فكرية أو فنية؟ أو أن ماثورهم الأدبي ضاع طي السنين كما ضاعت أشياء أخرى كثيرة؟.

تساؤلات عديدة، لأنجد الآن إجابات شافية عنها.

فمن شعرهم الذي يدخل في باب المناجاة قصائد ثلاث لأبي عبد الله محمد بن حسن بن عمر الفهري السبتي المعروف بابن الخليل، والقارئ هذه القصائد يللمس فيها رقة أشبه برقة الحبيب في مناجاة حبيبه وهمسا خافتاً بل وشوشة موسقة في أذن العاشق، أنها أشبه بوجديات ابن الفارض فلنسمعه يقول: (133)

|                                   |                           |
|-----------------------------------|---------------------------|
| أبوح بما القاد فهو مباح           | فقبل أرباب أخبة باحوا     |
| إذا باح من قبلي ولم يلق بعض ما    | لقيت فلاني ماعلى جناح     |
| أحبابنا لا تحسوا الصبر بعدمكم     | سخيا ولا أن الدموح شحاح   |
| وان فئت أجسادنا وقلوبنا           | فتلك العهود السالفات صحاح |
| سمحت لكم بالنفس كي أربح الرضى     | على ثقة أن السماح رباح    |
| فؤادي منقاد إليكم مذلل            | فمالي إذا لج العذول جماح  |
| وهل من سبيل أن أطير إليكم         | وقد حصّني ريش وقصّ جناح   |
| تغير وقتي بعدمكم فكأنما           | صباحي مساء والمساء صباح   |
| وما تفضل الأيام أخرى بذاتها       | ولكن أيام الملاح ملاح     |
| وياعجبا اني أسير وانسي            | أنشدكم أن لايتاح سراح     |
| فها أنا عند الباب متوا أو اطرّدوا | فمالي عنه كيف كان براح    |

ويقول في أخرى. ولا يخرج في معانيه عما جاءت به القصيدة السابقة ولكنها أوضح من حيث معاني النداء والمناجاة وطلب الشفاعة والرحمة (134).

(133) المراكشي : الاعلام 150/3.

(134) نفسه

وقال أهل الهوى شأن الهوى عجب  
والعتب في سلوة الأحباب موقعه  
يامن أناجيته، والأشواق توهمني  
فارحم تقلب قلبي فهو شيمته  
رفقا به فهو في حالي مناقضة  
ومنة الجود تدنيه فتؤنسه  
فقلت ان سلوي عنك أعجبه  
عذب، ولكن عتاب السر أعذبه  
نيل الوصال، كأن الشوق يوجهه  
حتى يكون بما ترضى تقلبه  
فالقبط يحزنه والبسط يطربه  
وخشية الرد تقصيه فتحجبه

ويكرر الشاعر صورة المناقضة التي يعيشها قلبه، وحالة الشد التي تتوزعه، فهو أبدا يعاني هذا التمزق القاسي بين حب الدنيا وما فيها من رغبات وشهوات، وبين طلب الآخرة وما تتوجه من تضحية وعناء وبذل، بين الجسد ونزعاته ومطالبه وبين سمو الروح ونقائنها وشفافيتها... انهما النقيضان حقا يتوحدان في وعاء واحد، ويتواجدان في بوتقة، وليس من اليسر الحفاظ على توازنهما وتساوقهما وانسجامهما، واعطاء كل واحد منهما مايلبي حاجته ويشبع عطشه.

وهذا التوزع والتوتر بين طرفين متناقضين يتكرر في صورة أخرى عند ابن

الحلي: (135)

غرامي دعائي والعذول نهائي  
أما علما أي على الشحط والنوى  
يقولون لي من ذا دعاك لما نرى  
ضمان على قلبي الأسى بعد بعدهم  
أعمل نفسي بالسلو تعللا  
إذا خفق البرق اليماني بأفقكم  
وان هملت وزن السحاب بأرضكم  
رعي الله جيران العذيب وأهله  
واذكر سكان العذيب تسترا  
ومن فضله وجدي به وتولهي

ولا يخفى ماتضمنه الأشعار السابقة من محسنات لفظية من جناس وطباق، تصل أحيانا حد التكلف والافتعال والقسر، حتى ليكاد كل بيت من أبياتها يحمل قسطا



من تلك المحسنات، وكذلك تبرز فيها صور وأسماء مشرقية مثل نجد والحجاز، وليس ذلك إلا مجازة وتقليد لقصائد في الموضوع نفسه، فكان الشاعر يستمد من تلك الأماكن تبركا... ويسترجع ذكريات تاريخية عبقة موحية له وللقارئ لما تضمنه تلك الأماكن من أريج إسلامي وعبق نبوي إبان ظهور الرسالة المحمدية.

ولابن سهل الاسرائيلي قصيدة عينية حجازية وتخميس مشهور في مدح الرسول محمد (ﷺ) وهما العملاقان الأدبيان الوحيدان اللذان وصلا من تراثه في هذا الغرض، وقد اختلف في دوافعهما فقد ذكر الراعي في كتابه الممتع السهل مانصه «وأما القصيدة والتخميس فالمنقول أنه صنعهما في يهوديته على لسان سلطانه، ويشهد بهذا المعنى قوله في العينية :

تكاد مناجاة النبي محمد تنم بها مسكا على الشم ذائعا

ولم يقل الرسول، وهو أخص وأبلغ في المدح — فكان إبراهيم بن سهل والله أعلم — ممن يثبت النبوة وينكر الرسالة ولا أقول انه ممن يثبت الرسالة وينكر كونها عامة، ويروى تكاد مناجاة الرسول محمد» (136)، بينما يذكر المقرئ وهو يورد تخميس ابن سهل» ان بعضا ذكر أنها — أي التخميسات — من قوله لما أظهر الاسلام، وهي لا تقتضي دفع الريبة فيه والاثام» (137).

أما القصيدة فقد صرح ابن سعيد بأن الشاعر نظمها بتكليف من ممدوحه أبي علي بن خلاص صاحب سبتة (138)، ويبدو أن مثل هذه التكاليفات والطلبات كانت شائعة معروفة أيام ابن سهل حيث نجد في ديوانه أكثر من إشارة إلى تكليفه بنظم أبيات أو قصيدة في غرض ما وحسبما يريد الآخرون منه، ومثل هذا اللون من العطاء الفني (عند الطلب) إذا صح التعبير، لا يمكن أن يتسم بالصدق والابداع وال عفوية، ولا بد من غلبة الافتعال والتكلف والتصنع عليه.

وعلى أي حال، ألا يضح أنه قال القصيدة والتخميس بنية صادقة خالصة لله ونبيه، وأراد بهما تأكيد ماشاع بين الناس عن إسلامه، ودفع الشك عن قلوبهم في اضمماره اليهودية؟! ان هذا جائز كما ان الاحتمال الأول جائز هو الآخر.

(136) محمد قوبعة : أشعار لابن سهل الاسرائيلي لم تنشر ص 51

(137) النفح 445/7 وما بعدها.

(138) انظر : القدح ص 79.

حينما نقرأ القصيدة الحجازية نلمس فيها روح السرد والقص والوصف الخارجي لقافلة تقطع البيد القفار في رحلة الحج، دون أي دغدغة أو ملامسة لمشاعر أولئك القاصدين بيت الله وقبر نبيه ودون أي تصوير وتعبير عما يخالجه من أحاسيس أو نوازع (139) :

وركب دعتهم نحو يثرب نية      فما وجدت إلا مطيعا وسامعا  
يسابق وخذ العيس ماء شؤونه      فيقنون بالشوق المدى والمدامعا  
إذا انعطفوا أو رجعوا الذكر خلتهم      غصونا لدانا أو حماما سواجعا  
تضيء من التقوى خبايا صدورهم      وقد لبسو الليل البهيم مدارعا  
تخالهم النبت المشيم تغيرا      وقد فتقوا روضا من الذكر يانعا  
سقى دمعهم غرس الأسى في ثرى الجوى      فأنبت أزهار الشجون اليونعا

ويظهر على الأبيات السابقة أثر البيئة ومظاهر الطبيعة التي عاشها الشاعر في شبيلية، وذلك من خلال الصور والتعابير والتشبيهات، ثم يناشد الشاعر الركب حينما تخايل وصولهم يثرب بأن يأخذوا قلبه فيرموه مع الجمرات حصوة لكنه حصوة مملوءة بالشوق والتلهف والوجد إلى بيت الله وإلى كل مكان مقدس في الحجاز :

كأنني بهم قد شارفوا تربة الهدى      ومدوا إلى مرسى الرجاء الأصابع  
خذوا القلب ياركب الحجاز فأبني      أرى الجسم في أسر البطالة قابعا  
ولانرجعوه ان قفلتم فإنما      أمانتكم ألا تردوا الودائعا  
مع الجمرات ارموا فؤادي فإنه      حصاة تلتقت من يد الشوق صادعا  
ونلمس التكلف والاعتمال والبعد عن      معايشة الحدث والانفعال بتجربته أو  
الاكتواء بخارته حينما يقول :

وتسعف «ليت» في قضاء لياقتي      وتترك «سوف» فعل عزمي المضارعا  
أو حينما يقول :

بُنيت بناء الحرف خامر طبعه      فصار لتأثير العوامل مانعا  
أما تخميسه فهو متفرع في مدح النبي محمد ﷺ وقد افترضنا انه قاله في

(139) ديوان ابن سهل ط. إحسان ص 232، ط. قويعه ص 221.

سببة باعتبار أن ملكها ابن خلاص هو الذي كلفه بنظمه كما أشار الراعي إلى ذلك. (140)

وقد نال هذا التخميس شهرة واسعة في الآفاق، ومن الغريب أننا لم نجده ضمن شعر ابن سهل المنشور سوى في طبعة ديوانه الذي أصدره مؤخر السید محمد قوبعة، رغم أن الخمس منسوب صراحة إليه في كتاب نفح الطيب (141) موضوع الخمس هو مدح الرسول محمد ﷺ ومعانيه جميعها تدور حول معجزات النبي وكراماته، اعتمد الشاعر فيه على ثقافته التاريخية وإطلاعه الواسع على سيرة الرسول وحياته وعلامات نبوته، مستعينا بالقرآن الكريم وبما جاء به من آيات كريمات في حق الرسول، يقول فيه: (142)

جعل المهيمن حب أحمد شيمة وأتى به في المرسلين كريمة  
فغدا هوأه على القلوب تميمة وغدا هداه لهديهم تميما  
صلوا عليه وسلموا تسليما

الله أوضح فضله فتوضحا والله بين حبه في «الضحى»  
والجدع حن هوى له فترنحا والماء فاض بكفة تسليما  
صلوا عليه وسلموا تسليما

ويتحدث الشاعر في التخميس عن معجزة الاسراء والمعراج بأبيات عديدة، مصورا تمسك الأرض بالنبي وخوفها من فراقه، وتكريم الآله للنبي محمد بأن جعله جارا له إذ كان من قبله قد جعل موسى كليما له :

احتث في السبع الطباق براقه والأرض واجمة تخاف فراقه  
سبحان من أدنى سره فساقه شخصا على ملك الملوك كريما  
صلوا عليه وسلموا تسليما

فاشتم ريحان القبول الطيبا ودنا فأسمع يا محمد مرجبا  
اني جعلتك جار عرشي الأقربا ان كنت قبلك قد جعلت كليما  
صلوا عليه وسلموا تسليما

(140) قوبعة : أشعار ص 51.

(141) المقرئ 445/7.

(142) ديوان ابن سهل، ط. قوبعة ص 506.

ويشير في مواضع أخرى إلى كراماته ومعجزاته :  
 دفعت كرامته الزئوج عن الحرم ودعا جبريل المنزه في الحرم  
 ودعت له آيات نون والقلم خلقا به شهد الإله عظيما  
 صلوا عليه وسلموا تسليما  
 طاو يفيض الزاد في أصحابه غيث ولكن كان يُستصحى به  
 طابت ضمائر قبره وترابه منه بسر لم يزل مكتوما  
 صلوا عليه وسلموا تسليما

ثم يختتم الخمس بالمقطع التالي الذي يعبر فيه عن شوقه وتلهفه إلى زيارة قبر  
 الرسول محمد ﷺ والتمرغ في صعيده وثره :  
 ياشوقي الحامي إلى ذاك الحمى فمتى أقضيه غراما مغرما  
 ومتى أعانقه صعيدا مُكرما بضمير كل موحد ملثوما  
 صلوا عليه وسلموا تسليما

وفي غرض الشعر الديني تندرج مقطوعة من بيتين لأبي الحجاج يوسف بن  
 أحمد الأنصاري المنصفي — نزيلة سبتة — تنسم بحوار صوفي (143)  
 قالت لي النفس أذاك الردي وأنت في بحر الخطايا مقيم  
 هلا اتخذت الزاد قلت اقصري هل يحمل الزاد لدار الكريم  
 ومن المؤسف أن النصوص في هذا الفن قليلة لا تتناسب مع ما تذكره المصادر  
 من قيام حركة دينية واسعة ونشطة في المدينة، وهو ما يؤكد رأينا في أن كثيرا  
 من تراث السبتيين المكتوب قد ضاع واندثر، وأن الموجود منه لا يمثل الا هامشا  
 بسيطا مما كان متحققا فعلا.

### 3 — الغزل :

يعتبر فن الغزل من الأبواب الواسعة في ديوان الشعر العربي لأنه تعبير عن  
 الذات، وتصوير لموقف عاطفي حينما تجيش الأحاسيس وتنفعل المشاعر، ولقد دخل  
 هذا الفن في أغراض شعرية أخرى مثل المدح والخمر والجون، لزيادة في جمالية  
 الصور الشعرية، أو لغرض جذب اسماع المتلقين وشد انتباههم إلى المقصود من  
 القصيدة وبخاصة المدح.

(143) ابن سعيد : المغرب 354/2، المقرئ : النفح 181/1، 595/3، 336/4.



وقد توفر للشعراء الذين كان لهم تواجد في مدينة سبتة بشكل أو بآخر، مجموعة من القصائد والمقطوعات في غرض الغزل، وقد حرصت أن أقف، قدر الامكان، عند الغزل الذي نظمته الشعراء أثناء وجودهم في سبتة بدافع منها أو بوحى من عيشهم فيها، لأن نتاج الشعراء — عدا المحسوبين عليها من أبنائها أو المقيمين فيها — الذين مروا فيها مروراً أو أمضوا سنوات قليلة في ربوعها غزير وكثير لا يمكن أن يؤخذ كله على أنه من نتاج سبتة، ولذا فإننا استبعدنا كل ما لم تتوفر لدينا قرينة من أنه قيل أثناء وجود الشاعر فيها.

فمن أمثلة الشعر الغزلي ما قاله أبو القاسم عبد الرحمن العثاني: (144)

أفدي التي أقبلت إلينا في أول الليل بالصبح  
وجه هو الحسن ظل نخوي جميع ماكان في الملاح  
ضاجعت منه رياض زهر جالت لديها يد الرياح  
أو قوله في غلام معذر: (145)

ان الذي أهواه ماشأنه الأعذار دب في الخد  
وذلك الشين له زينة كالآسى ملتف على الورد  
باليتم لما ادعوا عييه بالشعر خلوني له وحدي

ويروي ابن سعيد عن الأديب أبي عمران الطرياني — من سكنة برّ العدو —  
— الأبيات التالية متغزلاً وقد استخدم الشاعر أسلوب التمازج لخلق حركة تزيد  
من حيوية الشعر وتضفي عليه واقعية وصدقاً (146) :

شكوت لها الغرام على رضاها يريني بعد شقوتي النجاحا  
فقلت لي : إذا ما الليل أرخي ستائره، فسل عني البطاحا  
فيممت البطاح ولا دليل سوى عرفت تُضمّنه الرياحا  
فقلت : نعم : فقلت : أمثل طرفي ينام وقد رأى ذاك السماحا ؟  
فقلت : بل تناوم ان وجهي إذا استيقظت يُذكرك الصباحا  
فتمسي طول ليلك في عذاب ترع وماصبح الروع لاحا

(144) ابن سعيد : القدح ص 197.

(145) نفسه ص 196.

(146) ابن سعيد : المغرب 1/294، القدح : ص 202.

ومما كتبه ابن سعيد في المغرب عن أبي الحسن علي بن حريق حينما كانا في سبتة مقطوعة رقيقة في الغزل، ولكنها لا تخلو من مبالغة تضعف فيها روح العفوية (147) :

كلمته فاحمر من خجل حتى اكتسى بالعسجد الورق  
وسألته تقبيل راحته فأبى، وقال أخاف أحترق  
حتى زفير عاق عن أمني أن الشقي بريقه شرق  
وللشاعر سهل بن مالك الأزدي مقطوعة رقيقة أسكت فيها الشعراء حينما تباروا للتعبير عن عواطفهم وتشوقهم إلى حبيب لهم كان يسكن الجزيرة الخضراء، وهم في مدينة سبتة وبينهما البحر (148)

لما حططت بسبتة قرب النوى والقلب يرجو أن تحول حاله  
والجو مصقول الأديم كأنما ييدي الخفي من الأمور صقاله  
عاينت من بلد الجزيرة مسكنا والبحر يمنع أن يصاد غزاله  
كالشكل في المرأة تبصره وقد قربت مسافته وعز مناله  
ومعنى البيت الأخير لطيف، ولكنه مسبوق بقول ابن مجبر وقد نبه إلى ذلك التجيبي (149)

فبت أظماً إلى من لا يخلوئي والورد صاف ولا شيء يكدره  
تراه عيني وكفي لا تبشره حتى كأني في المرأة أبصره  
وقال ابن همشك التمني السبتي المنشأ والتأدب، في جارية اسمها نسيم، وكان يكلف بها ويهيم، ويستضيء بنور تخيلها في الليل البهيم (150).

تبارك باري الخلق إذ صور الخلق وأتقنهم صنعا وأطلعهم أفقا  
وأودع في الأجفان سحرا مضاعفا يعلمني التيهام والوجد والعشقا  
وذكرني من كنت أعهد أنسه مقيما ولما بان أورثني شوقا

(147) ابن سعيد : المغرب 319/2، التجيبي : زاد المسافر ص 65.

(148) التجيبي : زاد المسافر 96، المراكشي : الدبل : ص 4 ص 106، ابن الخطيب : الاحاطة 277/4، المقرئ : النفع 8/4.

(149) زاد المسافر ص 97.

(150) ابن سعيد : القدح ص 99.

خليلي عيد الفطر وافي فهاجني غراما وتهاما وزاد الحشا خفقا  
ولما رأيت الحسن بالطاق طالعا نحت ثناياها وقد لمعت برقاً  
صبوت وقد يصبو الحليم لمثلها يرق وكم صب لغانية رقا

ومن الغريب أن نجد لابن سهل الاسرائيلي قصيدة غزلية كلفها حينما كان في  
سبته سنة 643 هـ، لأن مثل هذا الغرض لا يمكن أن يصدر بطلب أو بأمر وبخاصة  
من شاعر غزل مشهور ومعروف بموسوياته الرقيقة الشفافة، وائناً، عادة في فن  
الغزل نفترض صدق المشاعر وقوة الدوافع، وتوفر الأسباب التي تدعو إلى الخلق  
والتعبير في إبداع وعفوية وانفعال، ولأن الشاعر يعبر في تغزله عن ذاته ومشاعره  
الوجدانية دون تكلف أو قسر أو افتعال إلا في حالة اصطناع الغزل تمهيدا لغرض  
آخر. أو لمجرد التسلية واللهو في مجلس أنس أو موضع سمر. وقصيدة ابن سهل  
التي صنعها تلبية لطلب مطلعها: (٥١)

باسمي المصطفى يا بغيتي يامن نفسي وحظي من زماني  
ولا يكاد القارىء يحس من خلالها ما كان يحسه حينما يقرأ الكثير من غزلياته  
الذاتية الصادقة... فالتكلف والاعتماد والتصنع واضحات على أبياتها، فهي تكرر  
لمعان جاهزة في مخزون الشاعر، وترديد لألفاظ وجمل طالما استخدمها في مواطن  
أخرى تكاد أن تبلى :

يا غزالا صاد آساد الشرى وقضيا قد سبي سحر الطعان  
برح الشوق إلى عينيك بي عجا أصبو لسهمي من رماني  
مائل بالود عني نافر مرح كالمهر يطغى في العنان  
ليس بدعا نفرة من شادن فرق أو ميلة من غصن بان  
قر من عدن وقد بان على حسنه آثارها أي بيان  
فجرى في مرشفيه كوثر وازدهرت في وجنتيه جنتان

وشعر الغزل الذي مر بنا يتسم عامة بظاهرة الحسية والوقوف عند الملموس  
المشاهد، دون سبر الأعماق ودغدغة شغف الأفتدة وأوتار الأحاسيس الشفافة  
التي ترق وتلين مع الحب والوجد والتهيام، ثم انه يعتمد على الغلو والمبالغة لتحويل

الحدث وتوريم المشاعر وهذا الأسلوب يفقد الشاعر التأثير في الآخرين ويخسر تعاطفهم وانفعالهم، استجابتهم لتجربته.

#### 4 - الوصف

اهتم الوصف بنقل ملامح الجمال والتعبير عن ظواهر الفتنه وتصويرها بالكلمات وبخاص الطبيعة الغناء التي كانت لها سطوة على الشعراء وحظوة لديهم، يتغنون بها ويتربغنون بسحرها شغوفين مولعين بما توحيه لديهم من صور فتانة وتبعته في نفوسهم من إحياءات وخيالات تضي على شعرهم روعة وبهاء وجمالا.. فلا يكاد فن من فنونهم الشعرية يخلو من ألفاظ الطبيعة وصورها وأشكالها وتعبيراتها، كما لم يقتصر شعرهم الوصفي على الطبيعة وحدها بل شمل أشياء أخرى مما وقعت عليه عيونهم وتأثرت به حواسهم ففاضت شاعريتهم، ونظموا في وصفه، مثل وصفهم السفن والزوارق ومدن الحلوى وغيرها.

كانت قرية بليونش من أجمل قرى سبتة وأغناها في طبيعتها وجمالها مما دفع الشعراء إلى القول فيها والتغني بمتنزهاتها ومواطن الفتنه فيها، ولقد ذكر المقرئ نقلا من خط ابن حيان، بعد حديث عن سبتة مانصه «ومتنزهاتها أعظمها بليونش، تحتوي على مياه عيون وأودية ومتنزهات وأبنية عظيمة، وفيها جميع الأشجار والثمار»<sup>(152)</sup> وقد نالت حظوة لدى الشعراء من قبل ومن بعد، فقد تغنى فيها القاضي عياض واصفا وعورة طريقها وصعوبة مسالكها الموصلة إليها — لأنها واقعة على جبل عال — ولكنها مثل جنة الخلد لاتنال بيسر وسهولة ولا بد من تضحية وصبر وجلد لكي يحصل الانسان على لذة التمتع بجمالها وروعته<sup>(153)</sup>

بليونش جنة ولكن طريقها يقطع النياط  
كجنة الخلد لا يراها إلا الذي جاوز الصراطا

ومن بعد فترتنا قال فيها ابن الخطيب أبياتا وشبهها هو الآخر بالجنة<sup>(154)</sup>.

ومن شعراء فترة الموحدين، الذي قالوا فيها أبو الحجاج المنصفي<sup>(155)</sup>

(152) أزهار الرياض 34/1.

(153) نفسه.

(154) انظر : نفسه.

(155) نفسه 35/1.



بليونش شكلها بديع      أفرغ في قالب الجمال  
فيها الذي مارأته عيني      يوماً ولم يخطر ببال  
طريقه كالصدود لكن      تعقبه لذة الوصال

ويتغزل بها في مقطوعة أخرى، فيصور حسننها ونضرتها، ويشبها بالعادة الكاعب، ويشير إلى رخائنها ولطف أيامها التي تفوق أيام ملكها (الحاجب) (156)

انظر إلى نظرة زهر الربا      كأنه وشي على كاعب  
ومتع الطرف بليونش      ومائها المنبعث الساكب  
تشاركت والحسن في وصفها      تشارك العين مع الحاجب  
وقد أرتنا اليوم من حسننها      ما لم يكن في زمن الحاجب (157)

ولأي الحسن علي بن سعيد المغربي أبيات في بنيونش (بليونش) موضع الفرجة بسبته. وقد مزج بين وصف طبيعة القرية ومظاهر الجمال فيها وبين وصف مجلس شرب ولهو وعث ماجن ليشكل من جزئيات الموضوع صورة متكاملة متناسقة (158) :

اشرب على بنيونش      بين السواني والبطاح  
مع فتية مثل النجو      م لهم اذا مروا جماح  
ساقهم متبذل      لا يمنع الماء القراح  
كل يمد يمينه      مافي الذي يأتي جناح  
هبوا عليه كلما      هبت على الروض الرياح  
طوع الأماني كل ما      يأتي به فهو اقراح  
عانقته حتى تركت      بخضره أثير الوشاح

ويقدم شاعر آخر هو أبو جعفر أحمد المتيطي صورة جميلة من صور الطبيعة، تتمثل فيها الشمس وقت غروبها وقد خلفت وراءها جمرة متوهجة حمراء فكأنها خريدة تستحم في البحر، وقد انتزعت عنها سوارها (159)

(156) نفسه 36/1.

(157) قال المقرئ : الحاجب : أحد ملوك سبته

(158) المقرئ : النفح 311/2.

(159) ابن سعيد : المغرب 362/2.

انظر إلى الشمس قد وافت لمغربها مصفرة الوجه لكم ما بها خجل  
 كأنها عند رأي العين إذ سقطت وخلفت جهرة تذكي وتشتعل  
 خريدة غطست في اليم وانتزعت خلدية ريثا تروى وتغتسل<sup>(160)</sup>

ويصف أبو الحجاج يوسف المنصفي زورقا فيقول<sup>(161)</sup>

وسابح بات لايتنى قوائمه كالصقر ينحط مذعورا لعقبان  
 كأنه مقلّة للجو شاخصة ومن مجاذيفه أهداب أجفان  
 وتشبيه الزورق بالعيون والمجاذيف بأهداب الجفون صورة مكررة في الشعر  
 الأندلسي<sup>(162)</sup>

وفي المدن البحرية تمثل السفن والزوارق حاجات مهمة في حياة الناس إذ  
 بواسطتها ينتقلون من مكان إلى آخر وبها ينقلون بضائعهم وتجارتهم، يقول ابن  
 شقرق السبتي في وصف سفينة ويحث صاحبه على ركوبها<sup>(163)</sup>

فاركب على اسم الله متن ركوبة خضراء تسبح فوق لجّ مترع  
 اتخذت جناحا مثل قلبي خافقا وحوّت قوادم كل طير مسرع  
 تسري وترجها الرياح إذا سرت وتمر مر العارض المتقشع  
 تستعذب الملح الاجاج لدى الظما مهما العطاش وردن عذب المشرع  
 وكأنما ركبائها أبناؤها وكأنما الملاح فيها آمر  
 يمضي أوامره لأول موقع

ونلاحظ التشخيص في وصفه للسفينة وإضفاء سمات إنسانية عليها، فهي كالأم  
 تحنو على أولادها وتعطف عليهم وتحميمهم من المخاطر. وبذلك يكون الشاعر قد  
 خرج من تلمس السطح إلى تحسس أعماق الأشياء والتعامل معها كموجودات  
 حية، يتفاعل معها، ويحس بخفقان قلبها وارتجاف قوادمها واصطفاف أجنحتها وهي  
 تسير مسرعة خفيفة لتحمل أحبابها إلى غايتهم ومبتغاهم.

(160) خلدية : السوار.

(161) ابنس سعيد : المغرب 354/2.

(162) د. محمد مجيد السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص 135 وما بعدها،  
 منشورات وزارة الثقافة والاعلام — بغداد 1980.

(163) الاصفهاني : الخريدة 347/1.

## 5 - أغراض شعرية أخرى

لم يقتصر التراث الشعري السبتي على ماسبق من أغراض وإنما عالج مختلف الفنون الشعرية المعروفة في ديوان العرب، بنسب متفاوتة من حيث كمية المأثور الباقي من تراثهم، وفي واقع الحال فإن المتبقي منه نزر قليل لا يمكننا من تقويمه أو دراسته وتقديم صورة تفصيلية عنه قريبة إلى ما كان عليه وقتئذ، وليس من تعليل لهذه القلة والنذرة سوى ضياع نتائجهم وفقدانه، أو عدم العناية به وجمعه من قبل المهتمين بالأدب آنذاك، وعلى كل حال فإننا سنقف عند الذي توفر لدينا من نصوص شعرية لأغراض فنية غير ماسبق ذكره، ونلقي عليها خطافات ضوئية تكمل أبعاد الاطار العام للمسار الشعري في سبته والتعرف على مجمل أغراضه وفنونه التي عرفها خلال فترة الموحدين.

فمن الأغراض التي عثرنا على نصوص شعرية لها : الرثاء والهجاء والنجون والتشوق.

ففي مجال الرثاء لدينا نصان أحدهما لابن سهل في رثاء والدته الوزير أبي علي بن خلاص، والثانية للشاعر هارون بن عبد الله بن هارون في رثاء أبي القاسم ابن الرئيس أبي علي بن خلاص.

في المراثية الأولى يقول الشاعر ابن سهل وقع المصاب وعظم الحادث وثقل الرزء الذي أفجع الناس بفقدان أم الوزير وما كان يحصل ذلك لولا خطيئة الاقدار وتجنّي القضاء (164)

قل للمنون لئن عظمت خطيئة فلقد أصاب سداذك المعتام  
ثم بعد ذلك يلتفت الشاعر إلى ذكر محاسن الفقيدة ومفاخرها وأعمالها الخيرات، وسلوكها الاسلامي القويم :

أوحشت شهر الصوم حتى قد بدت للبت فيه ولأسي أعلام  
سيسير هذا الشهر قبل الوقت إذ لم يرضه، لما ظعنت، مقام

ويشير إلى كرمها وبرها، فهي ديمة جود وعطاء، بل انها أم للمكرمات :  
ياديمة في الترب، غارت بغتة ذوو الأماني واقفون حيام  
كانت رؤوفاً بالصنيع تربته فالمكرمات لفقدها أيتام

(164) ديوان ابن سهل ط. قوبعة ص 334.

وليس غير جنان الخلد مستقرا ووكنا لها، فالخور يستقبلها بالترحاب والسلام  
فرحات بها وبمقدمها :

سبقت خطاك إلى الجنان وسائل أثنى عليها الله والاسلام  
مدت إليك الخور من أبصارها واستقبلتك تحية ومبارك  
ولا ينسى الشاعر ابن الفقيد فليثفت إليه ويمدحه ويثنى عليه بصفات البطولة  
والشجاعة والقدرة على مقارعة الخطوب ومواجهة الأحداث. وليس ذلك بغريب،  
أليس هو ابنها ؟ وهو خلفها، فهو كالربيع الذي يعقب الأمطار :

خلقت حين ذهبت خير ابن كما يبقى الربيع إذا استهل غمام  
ذاك الهمام الفرد لكن ثنيت سمة الوزارة فيه فهي تؤام  
قل للدجون أو للحروب تصدعي فأبو علي كوكب وحسام  
لايكه الدهر الخؤون بخادث فالدهر عنه ضاحك بسام  
أثروعه الدنيا بنثر منظم ووجوده أمن لها ونظام

أما المراثية الثانية فلم يبق منها سوى أربع أبيات فقط وهي طويلة كما أشار ابن  
سعيد (165) وفيها تجسيم للحدث وتفخيم للمصاب يقول فيها هارون بن عبيد الله  
بن هارون (166)

هو الرزء ما أبقي عزيزا ولا صبرا دهينا من الأيام بالبطشة الكبرى  
حقيق علينا أن تسيل نفوسنا دما من دموع مازجت مزنها القطرا  
وأن نهب الدنيا نضارة عيشنا وإن كان عيشا لاشهيا ولأنضرا  
أبا قاسم لهفي عليك وانسي لفقدك لأنفك ذا كبد حرى

وقد علق ابن سعيد على الأبيات السابقة بقوله «هكذا يكون حرّ الكلام، وبمثل  
هذا يعزى أعلام الأنام» (167)

ولسنا بصدد مناقشة رأي ابن سعيد في المراثية، ولكننا نستطيع القول بأن  
المراثيتين السابقتين لاتخرجان عن الاطار العام للمراثية العربية من حيث اعتمادها  
على التهويل والتفخيم والتعظيم للمصاب والفجعية، وعلى الوقوف على صفات

(165) القدح ص 145.

(166) نفسه.

(167) نفسه.



الفقيد الخلقية من كرم وجود وشجاعة إلى غير ذلك من صفات تعظم شخص المتوفى وتكبر من مكانته الاجتماعية، ثم ان القصيدتين السابقتين لم تتضمننا معاني أو أفكارا مبتكرة جديدة، وإنما كانتا تغرفان مما هو شائع ومعروف في قصائد الرثاء.

□ □ □

أما فن الهجاء فقد وصلتنا مقطوعة واحدة لأبي جعفر أحمد بن طلحة في هجاء أبي العباس الينشتي حاكم سبته الملقب بالموفق وهي: (168)  
سمعنا بالموفق فارتحلنا وشافعنا له حسب وعلم  
ورمت يدا أقبها وأخرى أعيش بفضلها أبدا وأسمو  
فأنشدنا لسان الحال عنه يد شلا وأمر لا يتم  
ولا تخلو الأبيات من قسوة كانت سببا في مقتل صاحبها (169)

وهناك أبيات لأبي المطرف أحمد بن عميرة قالها في مدينة سبته أثناء توجهه إلى تونس يهجو فيها قومه ويبرر هجرته من بلاده وتوجهه إلى بلاد المشرق، وليس في الأبيات تحديد للقوم المهجوين ولا للمدينة التي نوى الشاعر إبدالها بمدن شرقية أخرى، ولكنني أعتقد أنه لم يقصد بالأبيات مدينة سبته ولاحكامها، لأنه في الأصل لم يكن مقيما في سبته حتى يهجرها بل جاءها عابرا وفي نيته منذ البدء التوجه إلى الحضرة العلية مدينة تونس. لما فيها من بريق وجاذبية يحكم كونها مركزا للمخالفة المستنصرية آنذاك. ولعل الشاعر كان يوجه هجاءه إلى قومه في الأندلس الذين خدمهم ومدحهم ولكنهم أذلوه وكسروا جناحه فكان لابد له من أن يبحث عن ناصر وجابر (170) :

فحين رأيت القوم لاخير عندهم رحلت ولي طرف إلى الشرق ناظر  
وقلت لهم أرض بأرض في السرى لمن ضلّ أو لمن ذل ناصر  
إذا كان في أفق من الأرض كأسر ففي أفق ثان من الأرض جابر

(168) نفسه ص 116، المقرئ : النسخ 309/3.

(169) انظر : المصدرين السابقين نفسيهما.

(170) ابن سعيد : القدح ص 49.

أما انه قالها أثناء وجوده في سبّته وأرسلها منها إلى تونس فلا يعني ذلك بالضرورة انها موجهة إليها.

وفي غرض المجون لم تتوفر لدينا سوى قصيدة واحدة قيلت في مدينة سبّته، وتوجد مقطوعات أخرى لشعراء كان لهم وجود في سبّته ولكننا غير متأكدين من أن مآقالوه في هذا الغرض كان من نتائجها وحصيله ظروفها وحياتها<sup>(171)</sup>، ولذا فإننا استبعدناه من دراستنا.

أما القصيدة فهي لأبي جعفر أحمد بن طلحة قالها في شهر رمضان وهو على حالة استهتار جاء فيها<sup>(172)</sup> :

يقول أخو الفضول وقد رآنا      على الايمان يغلبنا المجون  
أنتهكون شهر الصوم هلا      حماه منكم عقل ودين  
فقلت اصحب سوانا نحن قوم      زناذقة مذهبنا فنون  
ندين بكل دين غير دين الر      عاع فيما به أبدا ندين  
نحي على الصبوح الدهر ندعو      وابليس يقول لنا آمين  
فياشهر الصيام إليك عنا      إليك ففيك أكفر مانكون  
وقد دفعت هذه الأبيات حاكم سبّته الينشتي، إلى إرسال من هجم على الشاعر وهو على هذه الحال من الاستهتار وقتله، فآظهر انه يرضي العامة بقتله<sup>(173)</sup> وهو في الحقيقة يظفيء حنقه عليه ويشفي غلاً وحقدآ تحملهما في صدره عليه بسبب هجائه إياه بأبيات سبق ذكرها.

وفي شعر الشوق والحنين إلى سبّته انتهى إلينا نص لقصيدة نظمها أبو العباس الينشتي الذي كان قبل توليه حكم سبّته سالكا مسلك الأدباء، متغربا ومتنقلا بين البلاد حتى وصل إلى بغداد من أجل العلم وطلب المعرفة<sup>(174)</sup>، وبعد عودته

(171) انظر على سبيل المثال : مقطوعات لأبي الحسن بن حريق في المغرب 2/318.

(172) ابن سعيد : القدح ص 117، المقرئ : النفع 3/309.

(173) انظر : ابن سعيد : المغرب 2/364، القدح ص 117، المقرئ : النفع 3/309.

(174) انظر : تاووت : سبّته ص 104.

من غربته إلى مدينته سبته تهايات له الظروف ليصبح متصرفا في شؤونها.  
ويدو من خلال النص أنه قاله حينما كان في بغداد يعبر من خلاله عن حنينه  
وتشوقه إلى بلده وبخاصة إلى قرية بليونش، ويث اشجانه في غربته ويترقب يوم  
العودة، يقول فيها: (175)،

تذكرت من بغداد أقصى المغارب فجال نجى الفكر بين الترائب  
فصبرتها نفسا تكاد من الأسى تسرب ما بين الدموع السوارب  
وقلت لئن كابدت ترحة راحل فسوف يريك الله فرحة آيب  
فلا تياسى من بعد قصة يوسف ولو كنت قد جاوزت سد مآرب

ثم يصور حاله وما يعانیه من أرق وسهاد وتذكر لأهله وإخوانه هناك في بلده :  
وياجفن كم تجفو المنام مغيظة وكم أنت معمود برعي الكواكب  
لعل الذي ترعاه ليس بخافظ لعهدك والأيام ذات عجائب  
ولكن سأرعى من يخون مودتي ورعي الهوى في البعد أوجب واحب

ولكنه ومهما تغير الاخوان وتبدلوا، وحتى لو خانوا العهد والمودة فإنه باق  
على العهد حافظ للوداد لن تغيره الأيام ولن تنال من حبه وهواه، كما انه ليس  
لبلاد الله مهما بلغت من الجمال والروعة والرخاء أن تنسيه بلده أو تعوضه عنه،  
لأن قلبه وطرفه وذكرياته وحواسه كلها متعلقات بموطنه الأول.

وأذكر أوطانا نعمت بظللها معاهد أحباب ومغنى حباب  
أبليونش لا جانب روضك الصبا وجاد على مغناك صوب السحاب  
فما شعب بوان ولا الغوطة التي زهت برياض بينها ومذائب  
بأحسن من مرآك والبحر معرض وقد جال فيه الطرف من كل جانب  
لقد طفت في شرق البلاد وغربها فجانب طرفي غير تلك الجوانب

والقصيدة طويلة، وفيها يتجلى انشداد الينشتي إلى بلده وتعلقه بوطنه وأهله.  
ومرة أخرى تؤكد بأن السبتيين فقدوا كثيرا من تراثهم الأدبي، ولا يعقل أن  
تكون حصيلة نتاج السبتيين في عصر الموحدين كله قصيدة أو قصيدتين في  
الأغراض الشعرية التي أشرنا إليها في الدراسة. ولعل الأيام تكشف عن جديد

من المخطوطات التي تلقي مزيدا من الضوء على تاريخ هذه المدينة العربية العريقة وعلى نتائجها الأدبية والفنية والعلمية.

ونرى أن من المفيد ونحن نختتم بحثنا عن الحركة الشعرية في سبته أن نقبس بعضا من مقامة للسان الدين بن الخطيب في وصف سبته<sup>(176)</sup> : «قلت : فمدينة سبته ؟ قال : تلك عروس النجلى، وثنية الصباح الأجلى، تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر في المرأة الصقيلة، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة، وإذا قامت بيض أسوارها، وكان جبل بليونش شمامة أزهارها<sup>(177)</sup>، والمنارة منارة أنوارها، فكيف لا ترغب النفوس في جوارها، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها.. دار الناشبة<sup>(178)</sup>، والحامية المضربة للحرب الناشبة<sup>(179)</sup>، والأسطول المرموب، المحظور الأهوب<sup>(180)</sup>، والسلاح المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب، كرسي الأمراء والاشراف والوسيط، لخامس أقاليم البسيطة، فلاحظ لها في الانحراف، بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمره امتثال قوله : «ان الله يأمر بالعدل والاحسان»، الأمانة على الاختزان، القويمه المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان... وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم، بالبشير المهاجم، وراعي الجديب بالمطر الساجم<sup>(181)</sup>، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة، الشك عندي في مكة والمدينة».

---

(176) المقرئ : أزهار الرياض 30/1، النفع 6/210.

(177) الشمامة مايتشمم من الأرواح الطيبة.

(178) الناشبة : القوم الذين يرمون بالنشاب أي النبل.

(179) يقال نشابه الحرب أي نابذه.

(180) الأهوب : السطو والبطش، مأخوذ من أهوب الفرس، وهو اضطرامه في عدوه.

(181) المطر الساجم : القليل.



## مصادر البحث ومراجعته :

- 1 — ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت 658 هـ)  
أ — تكملة الصلة : نشره السيد عزت العطار الحسيني — القاهرة 1955 م.  
ب — المقتضب من تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري .ط. القاهرة 1957 م.
- 2 — ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد التلمساني (ت 776 هـ) الاحاطة في أخبار غرناطة في أربعة مجلدات، تحقيق محمد عبد الله عنان مكتبة الخانجي بالقاهرة ط، 1393 هـ، 1394، 1395، 1397 هـ الموافق 1973 م، 1974، 1975، 1977 على التوالي.
- 3 — ابن خلدون : عبد الرحيم بن خلدون المغربي (ت 808 هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة. ط. بولاق 1284 هـ.
- 4 — ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681 هـ)، وفيات الأعيان، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1948 م.
- 5 — ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي (ت 633 هـ) : المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق الدكتور مصطفى عوض الكريم. مطبعة مصر، الخرطوم 1954.
- 6 — ابن الزبير : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت 708 هـ) : صلة الصلة تحقيقا : ليفي بروفنسال، الرباط. المطبعة الاقتصادية 1937 م.
- 7 — ابن سعيد المغربي : أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت 685 هـ)
- 8 — اختصار القدح المعلي. تحقيق إبراهيم الأبياري — القاهرة — بيروت 1980.
- ب روايات المبرزين تحقيق أميلو غرسيه غومس 1978.
- ج — الغصون الياقة في محانس شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري ط 2 دار المعارف بمصر 1967.

د — المغرب في حلى المغرب جزءان، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، ح 1 ط 3، دار المعارف بمصر 1978 ح 2 ط 3 دار المعارف بمصر 1980.  
ابن سهل : ديوان ابن سهل، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر — بيروت 1387 هـ — 1967 م.  
ونشر بتحقيق السيد محمد قوبعة — المطبعة الرسمية — الجمهورية التونسية 1985، منشورات الجامعة التونسية.

ابن شريفة : محمد  
أبو المطوف (أحمد بن عميرة الخزومي) حياته وآثاره، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي — جامعة محمد الخامس مطبعة الرسالة — الرباط 1385 هـ — 1966 م.

10 — ابن فرحون : إبراهيم بن علي العمرى (كان موجودا سنة 799 هـ) الديباج المذهب في معرفة أعياء علماء المذهب، مصر 1351 هـ.

11 — ابن القطان : نظم الجمان — جزء من الكتاب، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية — جامعة محمد الخامس — الرباط، المطبعة المهدية — تطوان، التاريخ بلا.

12 — الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن حامد بن عبد الله بن عبد الله المعروف بالعماد الاصفهاني (ت 579 هـ)

جريدة القصر وجريدة العصر — قسم شعراء المغرب — الجزء الأول — بتحقيق محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر 1973.

الجزءان الثاني والثالث : قسم شعراء المغرب، الأندلس، بتحقيق آذرتاس آذرنوش وبتقيق السادة محققى الجزء الأول منه، الدار التونسية للنشر 1971، 1972 على التوالي.

13 — بروفسال : ا. ليفي  
مجموعة رسائل موحدية من إنشاء الدولة المؤمنية. مطبوعة معهد العلوم العليا المغربية، المطبعة الاقتصادية — الرباط 1941.

14 — تاويت : محمد بن تاويت.

تاريخ سبته، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر دار الثقافة —  
الدار البيضاء، 1402 هـ — 1982 م.

15 — التجيبي : أبو بحر صفوان بن إدريس المري (ت 598 هـ)  
زاد المسافر، تحقيق عبد القادر محداد، بيروت 1970.

16 — الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626 هـ) .  
معجم الأدباء.

17 — الراعي : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إسماعيل.  
المتع السهل في ترجمة وشعر ابن سهل، نشر تحت عنوان «أشعار لابن سهل  
الاسرائيلي لم تنشر» بتحقيق محمد قوبعة. حوليات الجامعة التونسية، العدد 19  
سنة 1980.

18 — الرعيني : أبو الحسن علي بن محمد بن علي الفخار (ت 666 هـ برنامج  
شيوخ الرعيني، تحقيق الأستاذ إبراهيم شيوخ، دمشق 1962).

19 — السبتي : محمد بن القاسم الأنصاري.  
اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار. تحقيق عبد الوهاب بن  
منصور، المطبعة الملكية — الرباط 1389 — 1969.

20 — السعيد : الدكتور محمد مجيد :  
الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، منشورات وزارة الاعلام العراقية  
— دار الرشيد للنشر 1980 م.

21 — السيوطي : جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر (ت 911 هـ) :  
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة  
الحلبي وشركاه.

22 — الشبخلي : الدكتور صباح إبراهيم :  
القاضي عياض مؤرخا. بحث نشر ضمن ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في  
الحضارة العربية الاسلامية — الخرطوم 1983، ط. بغداد 1980 م.

23 — الفبريني : أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت 714 هـ) :  
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية.  
تحقيق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بيروت 1969.

- 24 — القبوري : خلف الخافقي :  
رسائل ديوانية من سبته في العهد العزفي، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة المطبعة  
الملكية — الرباط 1399 هـ — 1979 م.
- 25 — الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت 764 هـ) :  
فوات الوفيات، ط. بولاق.
- 26 — مجهول : مؤلف مجهول.  
بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ  
وطبيب، بتحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية — الرباط 1404 هـ  
— 1984 م.
- 27 — المراكشي : أبو العباس أحمد بن محمد بن عزازي (كان موجودا سنة  
706 هـ).  
البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب الجزء الأول والثاني  
والثالث بتحقيق ليفي بروفنسال، دار الثقافة — بيروت  
القسم الثالث — تاريخ الموحدين. عني بنشره امبروسي هويسبي مراندة مع مساهمة  
الأستاذين محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني. دار كريمةاديس للطباعة — تطوان  
1960.
- 28 — المراكشي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري  
الأوسي : الذيل والتكملة لكتاني الموصول والصلة، عدة أسفار — السفر الأول  
بتحقيق الدكتور محمد بن شريفة — دار الثقافة — بيروت 1964 1965 على التوالي.  
بتحقيق الدكتور إحسان عباس — دار الثقافة بيروت 1964 1965 على التوالي.
- 29 — المراكشي : عباس بن إبراهيم الاعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من  
الاعلام، المطبعة الجديدة بطالعة فاس ط 1 سنة 1355 هـ — 1936 م.
- 30 — المقرئ : أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041 هـ)  
أ. ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض (1 — 3) تحقيق مصطفى السقا،  
إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر  
1939 — 1942.
- ب. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس  
بيروت، دار صادر 1968.



الايباري، عبد الحفيظ شلبي، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر 1939 — 1942.  
ب . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس  
بيروت، دار صادر 1968.

أعلام من سيرة



## عالم من سبتة ابن رشيد، ورحلته

### د. نجاح صلاح الدين القابسي

هو محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن محمد<sup>(1)</sup> بن إدريس بن سعيد بن مسعود ابن حسن<sup>(2)</sup> بن محمد بن عمر بن رشيد<sup>(3)</sup> أبو عبد الله الفهري<sup>(4)</sup> السبتي<sup>(5)</sup>، يكنى أبا- عبد الله، ويعرف بابن رشيد وقد اتفقت الآراء على أن مولده كان في جمادى الأولى سنة 657 / 1258 في مدينة سبتة، وان وفاته كانت في شهر محرم من سنة 721 / 1321<sup>(5)</sup> في مدينة فاس.

وقد كانت النشأة العلمية الأولى لابن رشيد في مسقط رأسه في مدينة سبتة، التي كانت تمثل آنذاك إحدى الركائز العلمية الهامة في المغرب، بما تضمنته من مشاهير رجال العلم، سواء من أبنائها أم من أنحاء متفرقة من المغرب والأندلس.

---

(1) اسقط الصفدي في الوافي بالوفيات 4 ص 495، إسم ابن محمد وأضاف ابن القاضي، في ذيل وفيات الأعيان ص 96، بعد اسم بن محمد اسم بن عمر.

(2) في ذيل وفيات الأعيان (حسين) وذكر عمر كحالة في معجم المؤلفين انه قد ورد في بعض المصادر باسم حسين.

(3) ويعرف بابن رشيد كانه تصغير رشد، انظر ابن القاضي في ذلك وفيات الأعيان، ص 96، وقد ضبطها ابن خلدون بضم الراء وفتح الشين وسكون الياء، انظر التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تحقيق ابن توديت الطبخي ص 172.

(4) الفهري، نسبة إلى فهر، بطن من بطون قريش، انظر حسن حسني عبد الوهاب ورفقات، ص 48.

(5) السبتي نسبة إلى سبتة التي تقع على مضيق جبل طارق، انظر المقرئ، ازهار الرياض، 2 ص 352 - 356.



وكان من أوائل رجالات العلم فيها آنذاك، أبو الحسن بن أبي الربيع، الذي برع في علوم اللسان وقد أخذ عنه ابن رشيد ثقافته في علوم اللغة العربية، فأخذ عنه القراءات السبع، كما قرأ عليه كتاب سيوييه، وكتاب إيضاح الفارسي المسمى بالكافي في الاصلاح، ولاشك أن مهارته اللغوية، قد ساعدته على تفهم القرآن الكريم، عماد العلوم الدينية التي تعمق فيها ابن رشيد فيما بعد، لذا يمكننا أن نقول أن ابن رشيد، قد تعلم وفق الأصول التعليمية الأندلسية، إذ كان الأندلسيون يعنون بتعلم طلابهم اللغة العربية أولاً، إلى جانب القرآن الكريم ليتفهموه.

على خلاف أهل المغرب والمشرق الذين كانوا يبدأون بتعلم القرآن الكريم أولاً. وبعد أن تلقى ابن رشيد علوم اللغة العربية في مدينة سبتة، انتقل بعدها إلى مدينة فاس طلباً لعلم الحديث، الذي ماهر فيه ابن رشيد، واثراً ذلك عاد إلى مسقط رأسه، وتصدر لأقراء الفقه في سبتة.

ورجل علم طموح مثل ابن رشيد لن يكفيه ماتحصل عليه من ثقافة محلية في بلاده، بل كان عليه أن يتوج اجتهاده العلمي برحلة إلى المشرق إيماناً بالتضحية القائلة :

علم الحديث فضيلة تحصيلها بالسعي والتطواف  
فإذا انت حصولها اجازة فقد استعضت الصفر بالدينار

(6) لا اختلاف في سنة وفاته، بالنسبة للمراجع التي أتت على ترجمة حياته. المقري، ازهار الرياض، 2 ص 352 — 356، السيوطي، بغية الوعاة ص 285، ابن فرحون، الدياج، ص 310 — 311. كشف الشوكاني، البادر الطالع، 2 ص 234. حاجي حليفة، كشف الظنون 551 — 836، الكتاني، فهرس الفهارس، 1 ص 332 — 333، ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب، ص 345 محمد القاسمي، مجلة معهد المخطوطات، 5 ص 31 — 32.

أما بالنسبة لتاريخ اليوم الذي توفي فيه ابن رشيد فينفي المقري أن يكون ابن رشيد قد توفي في الثامن المحرم، ويؤكد ان وفاته كانت في الثالث والعشرين من الشهر المحرم انظر، المقري، ازهار الرياض، 2 ص 356.

(7) ابن خلدون، المقدمة، الفصل 31 ص 538

(8) ابن رشيد، الرحلة، ح 1737، الورقة 13 أ، من محفوظات خزانة. دير الاسكوريال.

(9) ذكر ابن حجر في الدور الكامنة 4 ص 111 — 113، نقلاً عن الذهبي في سير النبلاء، ان ابن رشيد كان على مذهب اصحاب الحديث في الصفات يمرها ولا يتأول، وكان يسكت لدعاء الاستفتاح، ويسر بالبسملة، فانكروا عليه ذلك وكتبوا محضراً بأنه ليس مالكيًا، فاتفق ان القاضي الذي شرع في المحضر مات وبطل المحضر.

لذا فقد كانت العلوم الدينية تستقطب جل اهتماماته، فقد كان عليه لقاء رجالاتها أينما وجدوا، ورغم ان ابن رشيد كان مالكي المذهب، إلا أنه لم يكن متعصبا له تعصبا أعمى، بل ان العلم في حد ذاته كان بغيته ومقصده، فاغترف من روافده الأربعة دون تمييز بين مذهب وآخر، فاهتم بالحديث والمحدثين، وبعد ان صقلت شخصيته العلمية وضع مؤلفات قيمة اثرت المكتبة العربية الاسلامية.

فمن مؤلفاته في العلوم الدينية :

- 1 — ترجمان التراجم على أبواب البخاري
  - 2 — إيفادة النصيح في التعريف بمسند الجامع الصحيح
  - 3 — فهرست مشائخة.
  - 4 — الصراط السوي في اتصال سماع جامع الترمذي
  - 5 — جزء في مسألة العننة
  - 6 — المحاكمة بين البخاري ومسلم.
  - 7 — جزء في حكم رؤية هلال شوال ورمضان.
- ومن مؤلفاته في علم اللغة وفقهها :
- 8 — الاضاءات والانارات في البديع، المسماة بإيراد المرتع المربع لرائد التشجيع والترصيع.
  - 9 — كتاب القوانين في النحو.
  - 10 — وصل القوادم بالخرافي، شرح فيه كتاب القوافي لشيخه أبي الحزم حازم القرطاجني.
  - 11 — حكم الاستعارة.
  - 12 — جزء في مختصر العروض، وتقييد على حكم سيويه.
  - 13 — المرحلة المسماة : (ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطية). وهي من أشهر مؤلفاته.
- وغير ذلك من الخطب والقصائد النبوية. والمقطعات البديعية.

ولما كان غرض ابن رشيد من رحلته المشرقية، لقاء رجالات علم الحديث، فقد التقى بمشاهيرهم في رحلته، فكان من شيوخه في المشرق ابن<sup>(11)</sup> الخيمي، وابن دقيق العيد<sup>(12)</sup>، ومن شيوخه في المغرب، أبو عبد الله محمد<sup>(13)</sup> الصائغ، وابن كحيلة<sup>(14)</sup>، والوزير محمد بن شلطبور<sup>(15)</sup> وابن زيتون<sup>(16)</sup>.

ولنا في رحلة ابن رشيد المسماة<sup>(17)</sup> (ملء العيبة بما جمع في طوال الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة) خير مثال على كثرة شيوخ ابن رشيد، إذ ضمنها أربعاً وخمسين ترجمة للشيوخ الذين التقى بهم في الاسكندرية، والفسطاط، والقاهرة، موزعة بين الجزئين الثالث<sup>(18)</sup> والخامس<sup>(19)</sup>. وخمسا وأربعين ترجمة للشيوخ الذين لقيهم في تونس، وقد ضمنهم الأجزاء<sup>(20)</sup> الثاني، والسادس<sup>(21)</sup> والسابع<sup>(22)</sup>.

(10) وقد قام بتحقيقه، د. حمد الحبيب ابن الخوجة. الدار التونسية للنشر.

(11) هو محمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد النسي الأنصاري، شهر بابن الخيمي ووصف بالأديب البارع، الامام العالم، الصدمي، انظر ابن رشيد، الرحلة. حـ 1739 الورقة 88 أ و 89 ب، وأيضا ابن القاضي درة الجمال، 2 ص 15.

(12) هو محمد بن الامام أبي الحسن علي بن وهب القشيري، الشهير بدقيق العيد تقي الدين أبو الفتح. انظر، ابن القاضي، درة الجمال، 2 ص 6.

(13) هو محمد بن حسن ولد سنة 645 / 1247، انظر المرجع السابق. 2 ص 304.

(14) هو عبد العزيز بن كحيلة البجائي، أبو محمد، وقيل أبو فارس، فقيه مالكي، توفي في سنة 685 / 1286، انظر الغبريني، عنوان الدراية، ص 687.

(15) من أهل المرية وأعيانها، وكان من صدور أهل الأدب ومهرة الشعراء، والكتاب، توفي سنة 704 / 1304، وله من العمر ست وتسعون سنة، انظر ابن القاضي، درة الجمال، 15 ص 125.

(16) هو تقي الدين أبو القاسم بن أبي بكر النيني، الشهير بابن زيتون، 621 — 291 / 1224 — 1291، ذكره الغبريني بأنه رجل له علم وجلال، رحل إلى المشرق مرتين، كان كثير الاعتناء بالطلبة والاهتمام بأمرهم، ولي حاضرة إفريقية انظر، الغبريني، عنوان الدراية ص 97، وابن القاضي، درة الجمال، 1 ص 193.

(17) نسخة فريدة في خزانة دير الاسكوريال، وهناك نسخة مصورة عنها في دار الكتب المصرية، تحت رقم 13847.

(18) الجزء رقم 1739 — توجد قطعة من هذا الجزء في معهد مخطوطات الجامعة العربية تحت رقم (43 — 283).

(19) الجزء رقم 1630.

(20) الجزء رقم 1736.

(21) الجزء رقم 1737.

(22) الجزء رقم 1735.

من المرحلة، وخمسة عشرة ترجمة لشيخه في الحرمين الشريفين، في أول الجزء الخامس<sup>(23)</sup> من المرحلة. أما شيخه الذين لقيهم في دمشق، فلا نعرف عددهم لفقدان الجزء الرابع من المرحلة والذي يتضمنهم.

أما رحلة ابن رشيد من ناحية الزمان والمكان، فقد استغرقت من حياته ثلاث سنوات 683 — 686 / 1284 — 1287، قضاها في ربوع الديار المصرية، والحجازية، والشامية، وعاد إثرها إلى المغرب، على أنه لم يتوجه إلى مسقط رأسه سبتة، بل عرج على الأندلس للقاء صديقه ابن الحكيم في رندة، الذي كان قد التقى به في طريقه إلى الحج خلال رحلته المشرقية، وربطت بينهما أواصر من المودة، وقد أقام ابن رشيد في كنف صديقه فترة حافلة بمظاهر التكريم والاعزاز، لقي خلالها علماء رنده، ثم ودع ابن الحكيم في طريقه إلى مسقط رأسه سبتة، وأقام في موطنه لمدة خمس سنين، غادرها بعدها إلى مدينة غرناطة، بناء على دعوة من صديقه ابن الحكيم الذي كان يشغل آنذاك منصب ذي الوزارتين في بلاد بني الأحمر.

وقد وصل<sup>(24)</sup> ابن رشيد غرناطة في سنة 692 / 1292، وكانت إقامته فيها طيبة للغاية في ظل صديقه الوزير ابن الحكيم، الذي كان يباشر أحيانا<sup>(25)</sup> خدمته بنفسه.

وخلال تلك الفترة من حياته رزى ابن رشيد بابتين شاب له اسمه محمد فرثاه بقصيدة موجهة.

---

(23) الجزء رقم 1630

(24) اليعمرى، الديباج المذهب، ص 311.

(25) ابن حجر، الدرر الكامنة، 4 ص 111 — 113.

(26) المقرئ، ازهار الرياض، 2 ص 356.

(27) الصفدي، الوافي بالوفيات، 4 ص 495.

(28) المقرئ، ازهار الرياض، 2 ص 355

(29) نفسه.

(30) ابن حجر، الدرر الكامنة 4 ص 112.

(31) المقرئ، ازهار الرياض، 2 ص 248.

(32) الصفدي، الوافي بالوفيات، 4، ص 495

(25) ابن حجر، الدرر الكامنة، 4 ص 111 — 113.



وقد أقام ابن رشيد في غرناطة «منتصبا للاقراء ومركزا لدائرة القراء» إلى أن دارت الدائرة على صديقه ابن الحكيم، فقتل اثر انقلاب سياسي في غرناطة سنة 1308 / 708، ولاشك أن هذا الحادث الأليم قد هز ابن رشيد لصلته الحميمة بابن الحكيم، وقد كادت أيدي القتلة أن تمتد إليه، لولا أن الله سلمه فنجوا منهم بأعجوبة، وقد طوى ابن رشيد تلك الجراح الأليمة في قلبه، إذ لانجد لها صدى شعرا أم نثراً في مؤلفاته التي وضعها، رغم كثرة القصائد التي رثت فاجعة ابن الحكيم ولم يشارك فيها ابن رشيد، وربما كان مرد ذلك إيمان ابن رشيد بأن تلك المحنة التي أنزلها الله بصديقه ابن الحكيم، إنما هي محنة أراد بها الله أن ينجيه من عذاب الآخرة، وفق ماكان يجتهد ابن رشيد في شرح الحديث، قول رسول الله ﷺ : «بحسب أصحابي القتل» ان معناه منجيهم من عذاب الله تعالى، فقد ذكر ابن رشيد، انه روى عن النبي ﷺ، ذكر فتنة عظم أمرها، فقالوا يارسول الله، لئن أدركنا هذا الزمان لنهلكن ؟ فقال : كلا ان بحسبكم القتل».

وبعد مقتل الوزير ابن الحكيم، لم يعد مايشد ابن رشيد للبقاء في غرناطة، حتى لو لم يخرجها أهلها منها، كما ذكر الصفدي<sup>(27)</sup>، فانتقل إلى المغرب ودخل فاس، فرحب به ملكها، أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، وقد خيره في امر إقامته، فاختار مدينة مراكش<sup>(28)</sup>، فأنيطت به الامامة والخطابة في جامعها، إلى أن استدعاه السلطان المريني إلى بلاطه، في فاس، فانتقل إليها تحبوه الرعاية والايثار، وأصبح من المقربين من السلطان، بل وفي اعداد خواصه وآل مجلسه<sup>(29)</sup>، إلى أن توفي في فاس في الثالث والعشرين من الشهر المحرم، سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ودفن خارج باب الفتوح، بالروضة المباركة المعروفة بمطرح الجنة، حيث يدفن العلماء والصلحاء، الواردون على فاس من الغرباء.

وقبل أن تناول احد آثار ابن رشيد العلمية وهي رحلته، نود أن نشير إلى ظاهرة تستلفت النظر في ترجمة ابن رشيد، وهي إجماع من أشاروا إلى ابن رشيد بالثناء على أخلاقه، وما اتصف به من صفات، جعلته في هذا الميدان من القلائل

(26) المقرئ، ازهار الرياض، 2 ص 356.

(27) الصفدي، الوافي بالوفيات، 4 ص 495.

(28) المقرئ، ازهار الرياض، 2 ص 355.

(29) نفسه.

الذين جمعوا برؤيتهم غاية ما يرجوه الرجل الفاضل من سمات، ولعل الصفات التي تعتبر ركيزة من ركائز الخلق عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وعند المسلمين على وجه العموم، هي الكرم نحو الآخرين، ولقد تمثل هذا في كتابات أكثر من واحد ممن ذكروا ابن رشيد، وحسبنا أن نجعل على رأس هذه الجماعة ابن حجر، وهو في تصويره للرجال يزنهم بميزان الاعتدال ويرد كل واحد منهم إلى مكانه وحججه الطبيعي في العلم والأخلاق، فذكر حين ترجم له أنه «كان يؤثر الفقراء»<sup>(30)</sup> والغرباء والطلبة ومشاركة في هذا أيضا من جاء بعده مثل السيوطي، فوصفه بأنه كان<sup>(31)</sup> مبذول الجاه.

وإذا كان العرب، قد عرفوا نوعا من فنون الأدب والشعر وسموه بالاخوانيات فقد مارس ابن رشيد هويته في بره بإخوانه وأصدقائه مع حسن العشرة<sup>(32)</sup> لهم. وقد لخص الصفدي، ذلك كله في قوله : كان ابن رشيد فاضلا، سريا، حسن الأخلاق، وهكذا اكبر أهل العصر وعلمائوه في ابن رشيد هذه الجوانب السمحة من أخلاقه، فكان موضع الرحلة منهم، وكعبة يحج إليها طلاب المعرفة، تزدان به المحافل، ويتسابق إلى حلقة الفضلاء، وذوو القدم الراسخ في العلم، ولقد كان ابن رشيد مضرب المثل في تقييده بالعرف الاخلاقي، يرى أن أي مغمز في الشخص يؤدي إلى خلل الأخذ عنه، ولربما غالى في ذلك بعض الغلو، ولكنه اتخذ لنفسه منهجا وام ستمته فلم ينحرف عنه قيد شعرة، ورغم أن رحلته كانت في سبيل طلب الحديث، إلا أنه كان يسقط من حسابه تقدير كل مشقة في سبيل الحصول على الحديث من مصدر موثوق به، فإن كان مسمعه مغمور في أي ناحية ابتعد لذا كان يتجنب مجالس العلماء الذين يتطرق إليهم أدنى شك في ذمهم أو ترقى إليهم شبهة ولو بالظن، ولعل أظهر ما يوضح هذه الناحية في شخصية علاقته بابن التونسي، وهو جمال الدين أبو عبد الله بن حسن بن علي، وقد ذكره ابن رشيد بقوله :<sup>(33)</sup> (هذا الرجل أبو عبد الله التونسي، أصلحه الله ووفقه يشهد في المكوس، فلم نر أن نخرج عنه حديثا للنبي ﷺ، ولا أن نجعل مثله وسيلة تتصل بها إلى النبي ﷺ، لنا سلسلة الاسناد، والله أسأل السلامة والعصمة).

(30) ابن حجر، الدرر الكامنة 4 ص 112.

(31) المقري، ازهار الرياض، 2 ص 248.

(32) الصفدي، الوافي بالوفيات، 4، ص 495.

(33) ابن رشيد، رد 1739، الورقة 14.

وصدق ابن رشيد وورعه دفعاه إلى تجريخ رواة الأحاديث غير الصحيحة، وحذر من الأخذ بأقوالهم. فقال رحمه الله (من عمد إلى أحاديث خراش<sup>(34)</sup>، ودينار<sup>(35)</sup>، أبي هدية<sup>(36)</sup>)، وشبههم الذين يسميهم أهل الرواية، طيور انس فمثل هؤلاء لا يعرج عليهم، ولا يفرح بعلومهم ورواياتهم، شبه الرخ، وإنما يكتب حديثهم للتعريف بهم، وقد جمع الحافظ أبو الظاهر الاصبهاني جماعة منهم في بيتين، فأحسن، أحسن الله إليه.

أنشدني المكتسب الخير، المقيد أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد بن حيان الشاطبي، صاحبنا بتونس قال : أنشدني الشيخ الخطيب أبو محمد ابن بركات رحمه الله قال : «قرأت على الحافظ أبي عمر بن عات، قال، سمعت فيما قرئ على السلفي رحمه الله من حفظه :

حديث ابن نسطور وقيس ويغنم وبعد اشبح الغرب ثم خراش  
ونسخة دينار ونسخة تربة أبي هدية القيسي شبه فراش  
قال أبو عبد الله، قال لنا ابنو محمد، قال أبو عمر، كان الحافظ السلفي إذا  
فرغ من إنشاده لها، نفخ في يديه، فمثل هؤلاء لا يلتفت إليه، ولو بلغ أقصى الممكن  
في المغرب.

واستشهاد ابن رشيد بحركة السلفي، إنما تدل على موافقته إياه في التأفف من أمثال هؤلاء، ممن قد يضل المرء إذا آمن بكل ما قالوه، والسلفي حجة في الجرح والتعديل والالابة عن الصحيح والغث، وقد امتدحه ابن رافع السلامي في كتابه منتخب<sup>(37)</sup> المختار.

هذا الجانب الأخلاقي عند ابن رشيد، دفعه إلى تجريخ من يشتم عنده رائحة الوضع، وهو يزن رجال الحديث ورواته المتأخرين، وزن الصيرفي الحاذق، حين

(34) خراش بن عبد الله، الذي يروي عن أنس رضي الله عنه، كذاب لا يجوز كتابة حديثه، وحفيده خراش بن محمد بن خراش تدوك، انظر، تاج العروس.

(35) دينار بن عبد الله مولى أنس بن مالك، مفكر الحديث ضعيف، انظر، تاريخ ابن الخطيب، 8 ص 382.

(36) أبو هدية، إبراهيم بن هدية أو هدية الفارسي، كان بالبصرة، ثم خرج إلى اصبهان والري، ووافي بغداد، وحدث عن مالك بالأباطيل، انظر المقرئ ازهار الرياض، 2 ص 354.

(37) انظر، السلامي، منتخب المختار، ص 12 — 13، وانظر، ابن حجر، الدرر الكامنة، 1 ص 50، وانظر السبكي، طبقات الشافعية، 6 ص 82.



يميز الغث من السمين، والسليم من المشبوه، والصادق من المغمور، لما للحديث من منزلة عالية تلي القرآن الكريم في التشريع الاسلامي وتنظيم الحياة الاسلامية. وبعد أن تناولنا سيرة ابن رشيد، ننتقل إلى الحديث عن أهم أثر من آثاره العلمية ونقصد بها رحلته المسماة (ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة في الوجهة الوجيبة مكة وطيبة) ولن نتناول موضوعها بالتفصيل إذ يضيق بنا المجال لذلك. ولكننا سنحدد الأهداف التي قصدها ابن رشيد من تسجيل هذه الرحلة. التي يتحدد معناها كمسمي (الرحلة) بذلك النوع من التأليف الذي برع فيه المغاربة واقتبسه منهم بعض المشارقة، وأطلقوا عليه في المغرب إسم برنامج<sup>(38)</sup> وهو أقرب ما يكون إلى الفهرسة، أو الكتاب الذي يسجل فيه صاحبه مآثره من شتى المؤلفات، في مختلف العلوم والفنون السائدة في عصره، والتي يحسن هو نفسه بإقباله عليها. اقبالا كاملا أو مجزوءا، وتقتصر هذه الفنون في العادة على الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب، ويتخلل ذلك بعض الأحداث التاريخية التي يكون لها اتصال مباشر بالفن أو للمترجم.

ومؤلف البرنامج يذكر عنوان الكتاب، واسم مؤلفه، والشيخ الذي قرأ عليه، أو أخذ عنه، وسنده إلى المؤلف الأول، ذكرا المكان الذي كان موزعا للدرس ونحن نعلم شغف العلماء وخاصة المغاربة، بلقاء الشيوخ كان أكبر من حرصهم على اقتناء حديث منهم، وعن حياتهم ومنزلتهم، دون أن تتجاوز في ذلك القصد والاعتدال.

واصل هذه الكتب يعود إلى أصول علم الحديث، وقد أطلق المحدثون عليها لفظ معجم أو مشيخة، ومن ثم ظهرت على مر الزمان ولكن في وقت متأخر نسبيا، لجمع الأحاديث الأول، كتب المتفق والمقترن والمؤتلف والمختلف، في الأول ما أنفق في الاسم الواحد فيه أكثر من اسم واحد لفظا وكتابة، والثاني ما اتفق فيه الاسم كتابة، وإن تباين في النطق وعله ذلك الترقيم<sup>(39)</sup> وعلاماته.

ولقد حفل التراث الاسلامي التاريخي بعشرات الكتب الأصلية في هذه المواضيع وماشابهها، مما لا تترك دراستها شبهة لشاك أو راو أو محدث.

(38) عبد العزيز الاهواني، كتب برامج العلماء، فصله من مجلة معهد المخطوطات، المجلد الأول. ص 2، القاهرة سنة 1955.

(39) انظر، ابن حجر، الدرر الكامنة، 1 ص 84، المقرئ، ازهار الرياض، 2 ص 253.



وإذا كان المحدث يذكر الأحاديث مسندة إلى الرواة الذين نقل عنهم، فكتب البراج تذكر المرويات مسندة إلى العلماء، وهذا هو الفرق في أسلوب السالفين. ونلاحظ أن القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وهو العصر الذي عاشه ابن رشيد قد حفل بمثل تلك المؤلفات ونقصد بها البراج، لذا كان مؤلفه صدى لما هو سائد في المجتمعات والبيئات الفكرية والثقافية، ومن ثم كانت رحلته كمؤلف مرادفة للفظلة برناج وهو ما أكدته تلميذ ابن رشيد، عن المهيمن<sup>(40)</sup> الحضرمي حينما أطلق على رحلة ابن رشيد لفظة برناج وكتب بخطه مانصة. (اكملت قراءة هذا البرناج في يوم الأحد الحادي عشر لشهر رجب من عام عشرين وسبعمائة في مدينة فاس).

وبعودتنا إلى برناج ابن رشيد، نجد أنه يختلف عن البراج السابقة في أسلوب التصنيف المرتب، على شكل أبواب أو أجزاء، أو حلقات وقد أشار ابن رشيد في بداية خاتمة برناجه إلى ذلك بقوله: (لم أكن قد قصدت مقصد التصنيف المهذبة، ولا التأليف المرتبة)، ومع ذلك فإن مضمون برناج ابن رشيد لا يخرج عن نطاق الاهتمامات التي عنيت بها البراج دائما من مسائل حديثة وأدبية ومشیخات.

أما عن القيمة العلمية لبرناج ابن رشيد، فقد اهتم علماء مشاركة ومغاربة بمؤلف ابن رشيد، المسمى (ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة في الوجهة الوجية مكة وطيبة)، كما عرف باسم الرحلة، وقد أشاد العلماء بقيمته العلمية ومنهم السيوطي، وابن حجر، وحاجي خليفة، والكتاني، والشوكاني، وابن الخطيب، والعباسي، واليعمرى، وابن القاضي، ومن المحدثين، الصفدي، وابن سودة، والفاسي.

وتعتبر رحلة ابن رشيد من أقدم الرحلات المغربية في هذا المجال، على أن الأستاذ محمد الفاسي، يرى أن هناك رحلات سبقتها قد ألفت في هذا المجال.

ونلاحظ من خلال دراستنا لرحلة ابن رشيد، أو برناجه، أنه لم يكن فيما ضمنه من الفوائد والمسائل الحديثة والأصولية والأدبية والبيانية، قاصرا على النقل فحسب من أئمة وشيوخ وقته ممن عرفهم أو سمع بهم، ومن رجالات قد سبقوه.

(40) السفر الأخير من رحلة ابن رشيد، الذي يحمل رقم 1735 هـ. من أجزاء النسخة المحفوظة في دير الاسكوريال.

(41) الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، العدد الثاني نوفمبر 1958، ص 25.

ولكن إلى جانب ذلك أيضا يضمن البرنامج بين آن وآخر بعضا من تأليفه الخاص، وعلى الرغم من قلة هذه الناحية عند ابن رشيد وعلى الرغم من أنه لم يفعل ذلك إلا عرضا وتأكيذا للاستدلال على ما يريد تأييده، إلا أن ذلك للقليل يمكن أن يوضح شخصية ابن رشيد واتجاهاته الأدبية والفقهية، وأنه كان يهدف من وراء برنامجه هذا تدعيم الحركة الإصلاحية، في المغرب، الأفريقي الإسلامي، من أجل تصحيح مسار الإسلام

وذلك بالتعريف بمشاهير الرجال من الأئمة والشيوخ في عصره وبالتالي أحداث هزة عنيفة فكرية وروحية وثقافية في بني جلدته، وإذا صح هذا الرأي وجدنا أنه يخالف ما يذهب إليه المستشرق، روجيه لي تورينه في محاولته المغرقة في الشدة، من تقسيمه الإسلام في بلاد شمال إفريقيا ابتداء من تونس حتى الساحل الأطلسي، إلى نوعين، إسلام المدن وإسلام القبائل<sup>(43)</sup>، وهو يذهب إلى أن إسلام القبائل سرعان ما تدعم، بين مختلف القبائل منذ اللحظة الأولى من دخوله إليها، على أيدي الجماعات سواء أكانت حربية أم مهاجرة لاجئة إسلامية.

وإذا كنا نوافق لي تورينه على أن أهالي هذه المناطق كانوا ينزلون (الشريف) منزلة التقدير والاحترام، فإننا نوافقه أيضا على أن الإدارة كانوا قد وجدوا في هذه النسبة ما يدعم ملكهم هناك، لاسيما في المغرب الحالي، على أن لي تورينه يهدف من وراء ذلك للوصول إلى أن الإسلام في هذه النواحي، كان يدور حول (الفرد) قبل (الفكرة)<sup>(43)</sup>

على أن هناك رأيا غريبا أيضا يعارض هذا الرأي، ونسمعه من رجل اهتم بالدراسات الدينية في إفريقيا عامة وفي شرقها خاصة ذلك هو المستشرق ترينجنهام<sup>(44)</sup> الذي ينعت الإسلام ويصفه ويحلله، بأنه نظام ثقافي شامل، كان هدفه على الدوام أن يمتد وأن يصل هذا الامتداد والتوسع إلى أن ييسط جناحيه على شتى الشعوب المختلفة المذاهب والألوان والأفكار وأن يصيرها جميعا في بوتقة واحدة.

وعلى هذا لن يكون هنا مادعا لي تورينه، من إسلام القبائل وإسلام المدن بل هي رسالة واحدة، أعطى المجتمعات التي ساد فيها لونا حضاريا مميزا.

(42) ابن رشيد، الرحلة ح 1735، الورقة 63 ب.

Roger le Tonneau - Unity & Variety in Muslim Civilization, PP. 231 - 232

(43)

ومن استقرائنا للتاريخ عامة، نتبين أن ارهاصات الحضارة في الغرب قامت نتيجة عوامل مختلفة كالصراع العنيف بين الامبراطورية والبابوية (1056 — 1106) وإلى موجة الفتوحات والهجمات النورماندية وما اعقب ذلك من فرج بين الحضارة الشرقية والغربية، وتعايش سلمي في ظل الريدبين في صقلية بين الاسلام والمسيحية، وماترتب على ذلك من صهر النشاطات المختلفة في بوتقة واحدة.

أقول من استقرائنا لذلك كله يمكن أن يؤدي بنا في مجال المقارنة إلى القول بأنه كان في العالم الاسلامي زمن ابن رشيد وقبله وبعده، جماعات أرادوا أن يتخذوا من الأحداث وسيلة لتجديد شباب<sup>(45)</sup> الاسلام، فلما وقفت القوى الحاكمة ضدهم خوفا على نفوذها راحوا يلتمسون إبراز ما يمكن أن يطاول مراكز هذه القوى وشخصياتهم لشخصيات العلماء.

ونرى أن ابن رشيد في مؤلفه وفي التراجم التي ضمنها اياه كان ينحو هذا النحو من حيث الهدف النهائي.

وهكذا استطاع ابن رشيد أن يجعل برنامجه زائرا بتراجم لمشاهير رجالات عصره من العلماء الذين قابلهم، أو أخذ عنهم أو سمع منهم، وعددهم كبير ضمنه اجزاء برنامجه، ويمكننا عن طريق دراستنا لتلك التراجم، أو بالأحرى لبرنامج ابن رشيد، أن نستخلص الفوائد التالية :

1 — الحياة الفكرية ومراكزها في المدن التي قصدتها ابن رشيد في تونس، طرابلس، الاسكندرية، القاهرة، بليس، دمشق، الحرمين الشريفين، بوتة، مالقا، رندة، سبتة.

2 — تراجم للشيوخ والعلماء الذين يمثلون حجر الاساس في البيئات الفكرية السابقة.

(44) IBID. PP. 233 - 234

(45) J.Spencer Triningham - Islam in East Africa PP. 65 - 66

(46) نرى مصداق هذا في ان بعض الباحثين المحدثين، يرون أن قوانين جستنيان مثلا، وما ترتب عليها ماعرف باسم القوانين الملكية، انما تنقل السلطة والنفوذ إلى يد شخص يحدد شباب الامبراطورية في الغرب.  
انظر :

- 3 — أهم المسائل العلمية التي كانت تشغل اجتماعات الثقافة في ذلك العصر.
- 4 — الأجازات والأسانيد عن طريق الرواية، أو السماع، أو المراسلات
- 5 — أهم الكتب المعروفة في عصر ابن رشيد.
- 6 — وهكذا يمثل ابن رشيد بثقافته ومؤلفاته القيمة إحدى ركائز الثقافة الإسلامية الخامة.





## عياض الحفيد السبتي

### مصادر دراسته وملاح شخصيته

ذ. عبد الحميد عبد الله الهرامة<sup>(١)</sup>

#### مقدمة

ما كانت لأسرة بني عياض صلتها الوثيقة والمعروفة بمدينة سبتة رأيت من المناسب أن يكون التعريف بها أحد موضوعات الندوة التي تتخذ من تاريخ سبتة وتراثها محتوى لدراستها وأبحاثها.

ثم اقترحت لهذا الموضوع إسما بعد جمع شتات من معلوماته فكان «ورقات في تراجم بني عياض السبتيين». غير أن ضيق الوقت حال دون استكمال البحث في ذلك، فاكتفيت للمشاركة في ندوة سبتة بورقة واحدة تعرّف بأحد أعلام هذه الأسرة، هو عياض الحفيد.

وكان لاختياره أسباب منها : أن من سبق إلى دارسة بني عياض من الباحثين قد عرّف بالقاضي عياض الجد وابنه محمد، حين لم يحظ الحفيد المذكور ببعض ماحظي به العلمان السابقان. بل إنه مانشر عنه من معلومات يحتاج إلى مناقشة. فهل كان عياض هذا قاضياً كما يفهم من مقدمة التعريف بالقاضي عياض ؟

---

( ١ ) كلية التربية جامعة الفاتح ليبيا

وما مدى صحة نسبة كتاب «التعريف بالقاضي عياض» إليه كما يقول النباهي؟ وهل بقي شيء من شعره يصدق وصفه بالشاعر المنفرد كما جاء في بعض المصادر المعاصرة؟

والورقة بعد ذلك تنشر لأول مرة — فيما أعلم — نصين شعريين لأبي زيد الفازازي في مدح عياض الحفيد إلى جانب تعرضهما لبعض القضايا الخاصة بالمرجم مثل احتفاظه بمؤلفات جده واجتماع الشاعر به.

ولقد ذللت رحلتي إلى المغرب كثيراً من الصعاب التي كنت أواجهها متمثلة في نقص بعض مصادر صاحب الترجمة، وبذلك آمل أن أكون قد أسهمت، بجهد المقل، في التعريف بعلم من أعلام هذه الأسرة السبتية الماجدة.

### رسالة بني عياض العلمية

اشتهر بنو عياض السبتيون بعميدهم القاضي أبي الفصل عياض بن موسى اليحصبي، وأسسوا على مجده الرفيع قواعد أحسابهم وسامق أمجادهم، بل إن المغرب بكامله يضع هذا الرجل في مقدمة أعلامه المشاهير حتى شاع في ربوعه على ألسنة الناس قولهم «لولا عياض لما ذكر المغرب».

كان هذا القاضي إذن أشهر أبناء أسرته وأكثرهم إسهاماً في ميادين العلم والسياسة، ثم حمل أبناؤه من بعده لواء المعرفة، فانصبت جهودهم على تراثه، رواية وجمعاً وتعريفاً ونسخاً ودراسة.

فمن هؤلاء الذين حملوا رسالته العلمية من بعده ابنه القاضي أبو عبد الله محمد<sup>(1)</sup> صاحب «التعريف بالقاضي عياض»، وهو الذي جمع ما لم يتمكن والده من جمعه من مؤلفاته مثل كتاب «مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام» وقد وجدته بطاقات تحمل عنوان «أجوبة القرطبيين<sup>(3)</sup>» فأضاف إليها أجوبة غيرهم، وأجوبة أبيه، وفعل مثل ذلك مع كتاب «الأجوبة المجبرة على الأسئلة المتخيرة»<sup>(4)</sup>.

(1) ترسيب المدارك، التقديم (أ)

(2) ترجمته في الذيل والتكملة 344/8 والتكملة 667/2 وصلة الصلة (مخطوطة دار الكتب المصرية) والإحاطة 229/2 ووفيات الأعيان 485/3

(3) التعريف بالقاضي عياض ص 118، ومنه نسخة بالخزانة الحسينية برقم 4042

(4) المصدر نفسه، وبهامش الصفحة السابقة ما يفيد أنه مفقود دورة القاضي عياض — 3، 34/،

ومن حملة الرسالة العلمية في البيت العياضي أبو الفضل عياض الحفيد صاحب هذه الترجمة. فقد أسهم برواية وحفظ ونسخ تراث جده<sup>(5)</sup>، وكذلك فعل ابنه محمد المتولي لمهمتي القضاء والتعليم، حتى لقد ارتفع ذكره شرقاً وغرباً، وجاءته الكتب المخيرة من أقاصي البلاد المشرقية<sup>(6)</sup>

وتذكر بعض المصادر أن أبا المجد أحمد بن محمد بن عياض الحفيد كان ممن يروي كتاب «الشفاء» عن أبيه عن جده عن القاضي عياض في رواية مسلسلية بالآباء<sup>(7)</sup>. وهي ظاهرة تدل على مبلغ اهتمام هذه الأسرة بتراث أبي الفضل الجد. كما اشتهر من ذرية القاضي عياض في المجال العلمي محمد بن أبي المجد المذكور قبله، فكان «آية في الحفظ واستظهر كتباً كثيرة».

### مصادر ترجمة عياض الحفيد

يمكن تقسيم هذه المصادر إلى نوعين، أولهما ماكتب في عصره من مصادر المائة السابعة، وثانيهما ماتلاً ذلك من مصادر ألفت في المائة الثامنة وما بعدها. فمن النوع الأول مخطوطة «أعلام مالقة» لابن خميس وابن عسكر، وهذا الأخير وثيق الصلة بصاحب الترجمة، فقد أظهر إكباره له وعمق علاقته به في ثنايا ترجمته. وذكر المراكشي أنه كان ممن أخذ عن أبي الفضل بن عياض هذا بعض مروياته<sup>(8)</sup>. ومن هنا اكتسبت ترجمته قدراً من الأهمية والثقة.

ومن هذا القبيل ترجمة عياض الحفيد في ذيل أبي العباس ابن فرتون، وقد احتفظ ابن الخطيب منها بخبر عن مكان وزمان ميلاد صاحب الترجمة، ولاشك أن رواية ابن فرتون لتاريخ حياة عياض كانت على قدر كبير من الأهمية لو بقيت لأن صاحبها أحد تلاميذه الذين سمعوا عنه كثيراً بمدينة فاس<sup>(9)</sup>

وحفظ لنا ابن الزبير في ترجمته لعياض، ضمن كتابه «صلة الصلة»، معلومات

(5) ترجمته في الذيل والتكملة 344.8، 5/6 والاحاطة 226.2 والديباج 266.2.

(6) سبعة ودورها في إثراء الفكر الاسلامي ص 146

(7) الدرر الكامنة : 449.3

(8) انظر الذيل والتكملة 6 — 449 و 8 — 245

(9) انظر الصلة لابن الزبير 165



قيمة كانت مدار النقل والافادة لدى من ترجم لعياض الحفيد في الحقب التالية<sup>(10)</sup>، بل لقد أفاد منها معاصره ابن الأبار، الذي خصّ عياضاً بترجمة في تكملته منقولة في معظمها من صلة الصلة<sup>(11)</sup>.

ومن مصادر هذا القرن الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي وفيه تفصيل لأماكن دراسة المترجم وأساتذته، وإشارة إلى بعض مصادر الترجمة نقل ضمنها جزءاً من تعريف «أعيان مالقة» بأبي الفضل<sup>(12)</sup> ويمكن أن يدخل في هذه المصادر تجاوزاً قصيدتان لأبي زيد الفارازي صاغهما في مدح عياض المذكور، وفيهما يذكر لقاءه به وإعجابه بمناقبه.

لَمْ أَزَلْ سَامِعاً بِفَضْلِكَ حَتَّى  
حَقَّقَ اللَّحْظُ عَنْكَ مَا قَدْ رَوَاهُ

ومهما يكن نصيب الشعر من الثقة في إثبات الحقائق التاريخية أو تدعيمها فإن هذين النصين يوردان صفات للممدوح لا تختلف عما عُرف به في المصادر التاريخية الأخرى.

ومن مصادر النوع الثاني من تراجم أبي الفضل الحفيد كتاب الإحاطة لابن الخطيب، وهو ينقل أكثر معلوماته عن صلة الصلة، وينقل عن ابن فرتون ما يتعلق بمكان وزمان ميلاد صاحب الترجمة<sup>(13)</sup>.

أما ابن فرحون في «الدباج المذهب» فلا يعدو أن يكون ناقلاً مختصراً عن ابن الخطيب<sup>(14)</sup>، وعلى نحو أكثر اختصاراً نجد ترجمة صاحبنا في شجرة النور الزكية لابن خلوف، مع خطأ في تسمية بعض طلابه<sup>(15)</sup> وخلط النباهي بينه وبين جده حين ذكر أن الجدل سكن مالقة مدة ونسب التعريف بالقاضي عياض لحفيده وهو من تأليف ابنه<sup>(16)</sup>.

(10) انظر الإحاطة 4/ 221 والديباج 52/0

(11) التكملة 2/ 694 ط كوديا

(12) الذيل والتكملة 244.8

(13) انظر الإحاطة 4/ 221

(14) انظر الديباج 2/ 52

(15) شجرة النور الزكية ص 179 وفيها أن ابن تومرت من تلاميذ المترجم وهو يعني ابن فرتون على الأرجح.

(16) المرقية العليا ص 11

وتعرض ابن قنفذ بحسب طبيعة تأليفه المختصرة في «الوفيات» إلى أن تاريخ وفاة المترجم كانت سنة 642 وهو ما يخالف ما أجمعت عليه المصادر الأولية الموثوقة (17)

وفي كتابات الخدثين إشارات عجلت إلى عياض الحفيد، منها ما أورده الدكتور محمد بن شريفة في مقدمة تحقيقه النفيس لكتاب «التعريف بالقاضي عياض» (18)، والأستاذ محمد المنوني في مؤلفه «العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين» والأستاذ محمد بن تاويت في موضوعه «سببة السلبية، وتتسم هذه الاشارات بمبسمين واضحين هما أن الذين عنوا بترجمة عياض كانوا من الاخوة المغاربة، وأن إشاراتهم كانت مختصرة إلى حد بعيد، ربما بسبب عرضية التناول في غضون سرد وصفي لا يقتضي التفصيل والاستقصاء.

### التعريف بعياض الحفيد

هو عياض بن محمد بن أبي الفضل عياض بن موسى ابن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض، اليحصبي السبتي، حفيد الإمام والقاضي الشهير أبي الفضل عياض، والحامل لكنيته واسمه.

ولد في اليوم التاسع عشر من المحرم عام 561 هـ الموافق ليوم الخميس 26 من نوفمبر عام 1165 م، وذلك بمدينة سببة التي تلقى فيها علومه الأولية (21). ثم انتقل إلى الأندلس صحبة أبيه الذي عُيِّن قاضياً في دانية فغرناطة قبيل عام 570 وحتى عام 575 هـ (22).

كان عياض في هذه الفترة في منتصف العقد الثاني من عمره تلميذاً يتلقى معارفه الفقهية واللغوية على جماعة من أهل قرطبة واشبيلية (23)، ولا يبدو أنه أقام

(17) وفيان ابن قنفذ ص 31

(18) مقدمة التعريف بالقاضي عياض ص 9

(19) العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 182

(20) مجلة البحث العلمي، العدد 25 ص 160

(21) الذيل والتكملة 244/8 — 245 وصلة الصلة ص 166

(22) التكملة 677/2 (طبعة العطاء) وصلة الصلة ص 166

(23) صلة الصلة ص 166 ومن نقل عنه مثل التكملة 694.2 والاحاطة 221.4

طويلاً بالأندلس في الفترة التالية لوفاة أبيه، فقد تزوج ورزق في سبته بابنه محمد عام 584 هـ، وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره.

وظل في سبته فترة ليست بالقصيرة على ما يبدو، فقد نشأ فيها ابنه أبو النجد المذكور وتعلّم على شيوخها ثم رحل إلى الجزيرة الخضراء في سن التلمذة<sup>(24)</sup> وهو ما يرجح محبة لأبيه طيلة هذه الفترة.

ولكن ذلك لا يعني أن عياضاً قد انقطع عن الأندلس كلياً خلال الفترة السابقة فالمصادر تؤكد أنه تردّد بين العدوتين بعد دخوله الأول، وأنه «استقر بمالقة، واختارها لسكناء، وتأنل بجهاتها أصول أملاك إلى ماكان له بسبته»<sup>(25)</sup> وتذكر أن جده عياضاً اشترى ضيعة بخارج مالقة<sup>(26)</sup> ويحدد ابن الخليل مسكن الحفيد بالربض الشرقي لمالقة وبه جنته وروضته<sup>(27)</sup>.

### صفات عياض في المصادر الرئيسية

ضمن القدر اليسير الذي حظي به عياض الحفيد في كتب التراجم نجد ثناءً عاطراً على شخصه، وتنوعاً في صفاته، فهو محدث وراوي ثقة، وفقه حافظ، ومهيب متواضع وفصيح مقدام وحبيب طيب النفس قضاءً لحاجات الناس، يقول ابن خميس في ترجمته :

«ومنهم عياض بن محمد بن عياض اليحصبي، يُكنى بأبي الفضل، وهو حفيد الفقيه العالم العَلَم الأوحَد الإمام أبي الفضل عياض، وكان رحمه الله من جلة الطلبة مشاراً إليه معظماً عند الملوك يفاخرون به في مجالسهم، لطلبه وحسبه، وكان رحمه الله مهوباً مقداماً فصيح اللسان عارفاً بمقادير الناس متواضعاً، فاضل الاخلاق، حسن المصاحبة جميل العشرة كثير الرجولية، متسرعاً لقضاء الحوائج فاضل الطبع كثير الأدب»<sup>(28)</sup>

(24) الذيل والتكملة 5/6.8

(25) صلة الصلة ص 66 ومن نقل عنه.

(26) التعريف بالقاضي عياض ص 113

(27) الاحاطة 221.4

(28) أدباء مالقة لابن خميس وابن عسكرو، (النسخة المرقونة) ص 178 — 179

ثم يورد ابن خميس ما حدثه به خاله ابن عسكر من إكباره للفقهاء على أن يستدعيه إلى حفل عرسه يوم الذبح، وما أبداه الفقيه عياض من رغبة في التصرف في جملة من يتصرف ذلك اليوم تواضعاً ومودة.

ويقول ابن الزبير<sup>(29)</sup> في صلة الصلة :

«عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي»... كان من جلة الطلبة، وذوي المشاركة في فنون العلوم العقلية وغيرها شاعراً حسناً مقداماً، موصوفاً بجزالة واحدة، ومن هناك امتحن بالتضييق والخبس، وكان مع ذلك كثير التواضع فاضل الأخلاق سرياً مشاركاً، معظماً عند الملوك، مشاراً إليه جليل القدر<sup>(30)</sup>

ونقل ابن الأبار رواية ابن الزبير السابقة مع تغيير طفيف في الرواية، مضيفاً إليها ولاية عياض الحفيد للقضاء، وهو ما انفرد به عن غيره ممن ترجم لهذا العلم<sup>(31)</sup>.

وقال ابن عبد الملك : « كان محدثاً راوية ثقة شديد العناية بشأن الرواية » لقاء صلة العلم، فقيها حافظاً شهيراً التعيين والحسب، من بيت علم وجلالة، حسن الخلق، وكريم الطباع، طيب النفس، متبرعاً بقضاء حوائج الناس، متواضعاً معظماً عند كل من يلقاه، مهيباً مقداماً فصيح اللسان، يرغب الملوك في الاستماع إليه<sup>(32)</sup> ثم أورد ماجاء في أدباء مالقة من دعوة ابن عسكر لأي الفضل إلى آخر الترجمة.

(29) المصدر نفسه ص 179 وأختصة ص 90 والذيل والتكملة 8 / ص 245

(30) صلة الصلة، لابن الزبير، تحقيق لتقرير بروفنسال، الجزائر 1937 م ص 165

(31) التكملة لابن عبد الله بن الأبار، طبعة كوديرا 694/2 ترجمة 1947

(32) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي 244/8 — 245



| الصفات       |           |               |                | الصفات |                   |
|--------------|-----------|---------------|----------------|--------|-------------------|
| أدياء مألوفة | صلة الصلة | تكلمة الصلة   | الذيل والتكملة |        |                   |
| —            | —         | عن ابن الزبير | فصبحت الفارابي | —      | المنهاية والخلال  |
| —            | —         | —             | —              | —      | الحسب             |
| —            | —         | عن ابن الزبير | —              | —      | الإقدام           |
| —            | —         | عن ابن الزبير | —              | —      | الفصاحة           |
| —            | —         | عن ابن الزبير | —              | —      | الشاعرية          |
| —            | —         | —             | —              | —      | الحدة             |
| —            | —         | عن ابن الزبير | —              | —      | التواضع           |
| —            | —         | —             | —              | —      | الاشتغال بالحديث  |
| —            | —         | —             | —              | —      | الاشتغال بالفقه   |
| —            | —         | —             | —              | —      | الاشتغال بالقضاء  |
| —            | —         | عن ابن الزبير | —              | —      | الفضل             |
| —            | —         | صلة الصلة     | —              | —      | الحظوة عند الملوك |

### عياض الحفيد شاعراً

أول من أشار إلى شاعرية أبي الفضل من القدماء أبو جعفر ابن الزبير في صلة الصلة، فقد جاء في ترجمته «وكان... شاعراً لسناً»<sup>(33)</sup> وتبعه في ذلك من نقل عنه من المؤرخين أمثال أبي عبد الله بن الأبار<sup>(34)</sup>، وزاد ابن الخطيب في الإحاطة «شاعراً لسناً مفوها»<sup>(35)</sup> ولكنه نسب النص إلى ابن الزبير أيضاً، وبالرواية ذاتها أخذ ابن فرحون في ديباجته<sup>(36)</sup>.

وجرى ذلك على أقلام بعض المحدثين، فكتب الأستاذ القدير محمد المنوني في ترجمة مختصرة لعياض الحفيد «فصيح لسن، شاعر مفوه، ولهذه الصفة مايزكيها من جهة الوراثة، فالقاضي عياض الجد شاعر أديب وكذلك ابنه محمد، فهل بقي من آثار عياض الحفيد ما يؤكد هذه الصفة؟»

(33) انظر غرباء الصلة، في الذيل والتكملة 558.8 وفي تحقيق بروفتسال لهذا النص وردت كلمة «حسنًا بدل «لسناً» هنا.

(34) التكملة 694.2 كوديرا

(35) الإحاطة 221.4

(36) الديباح المذهب 52.2

إن تحفظاً له أسبابه تحول دون القبول المطلق لوصف عياض بالشاعر المفود، إذ لم يبق بين أيدينا — فيما أعلم — قليل ولا كثير من شعره، ولم يشر إلى شاعريته تلميذه ابن عسكر في كتابه «أدياء مألقة»، وابن فرتون فيما بقي من الذيل، على قلة ذلك الباقي، كما لم يشر إلى ذلك محمد بن عبد الملك المراكشي في ترجمة عياض بالذيل والتكملة، وهو الذي حظي فيها بترجمة وافية، جمعت معظم صفاته وأحواله<sup>(38)</sup>.

ولم يتعرض أبو زيد الفازاري في مديحه لعياض الحفيد إلى شاعرية ممدوحه، ولا إلى ما يفيد أنه يبادل الخطاب الشعري على عادة ذلك العصر.

### شيوخه وتلاميذه :

حظي أبو الفضل بالتلمذة على علماء بارزين في عصره، فقد أخذ بسبته وقرطبة واشبيلية وغيرها من مدن العدوتين على جماعة منهم والده القاضي أبو عبد الله محمد، والقاضي أبو بكر ابن بيش الشاطبي، وأبو عبد الله بن حميد، وأبو عمرو ومرجي بن يونس وأبو القاسم بن حبيش، وأبو محمد عبد الله الحجري، وأبو بكر بن الحداد القاضي السبتي، وأبو القاسم بن بشكوال صاحب الصلة. وأكثر الأخذ على أبي محمد عبد الله بن محمد بن عبيد الله الحجري الفقيه والتحدث الراوية المتوفى سنة 591 هـ<sup>(39)</sup> وكان أبو محمد هذا قد أقام بسبته معظماً يقرى، صحيح مسلم ضمن مروياته الكثيرة<sup>(40)</sup>.

ويبدو من خلال التعرف على شيوخ أبي الفضل الحفيد وتخصصاتهم العلمية أن اهتماماته كانت في مجالي الفقه والحديث، ولا يخفى أن عدداً منهم كان يمارس القضاء كوالده وابن بيش وأبو بكر بن الحداد، وهو ما يتفق مع اهتمامات هذه الأسرة بمجال القضاء، على أن المصادر لم تذكر أنه تقلد منصب القضاء، باستثناء أبي عبد الله ابن الأبار في التكملة من القدماء، والدكتور محمد بن شريفة من

(37) العلوم والآداب ص 182

(38) الذيل والتكملة 244.8

(39) ترجمته في بغية المتتمس ص 338 ومجلة البحث العلمي العدد 25 ص 65 / 166

(40) المصدر السابق، وعلى الصفحة نفسها.

أخذه، ولا شك أن الأخير قد رجع في ذلك إلى ابن الأبار، فهل كان هذا صائبا فيما يقول؟ الحق أن للشك في ذلك ما يؤزره ولعل ابن الأبار قد أخذ فيما قاله من اعتياد أفراد هذه الأسرة لتولي منصب القضاء، ويدل على ضعف الصلة بين عياض وابن الأبار أنه نقل كل معلوماته عن ابن الزبير ماعدا صفة القضاء وأن تلميذه ابن فرتون وابن عسكر لم يصفاه بهذه الصفة، ولم يتحدثا عنها، كما لم يفعل ذلك الفازاري في قصيدته، ولقد كانت ولايته القضاء مدعاة للمدح أن يصفه بالعدل والقسطاس، ولكنه وُصف ببث العلم ونشر المعرفة<sup>(41)</sup>

ولبث العلوم أعظم فضل  
فاغنمته فقد حوت مده

ومع هذا التحفظ تبقى رواية ابن الأبار أقوى من كل الإشارات الجانبية حتى يطلها دليل في قوتها، ولكنها لاتنفي جهود الرجل في مجال الرواية والتدريس. فقد أشارت المصادر إلى أن الذين تلقوا عنه العلوم كانوا جماعة منهم ابنه أبو عبد الله محمد قاضي الجماعة بغرناطة وأبو العباس بن فرتون صاحب الذيل<sup>(42)</sup>، والتجسي، وابن عسكر صاحب «أدباء مالقة»<sup>(43)</sup>

ويفهم من عبارة ابن الزبير في الصلة أن عياضاً تولى التدريس بمدينة فاس، فقد جاء فيها قوله عن تلاميذ عياض : ومنهم «أبو العباس بن فرتون أخذ عنه كثيرا بمدينة فاس». فماذا كان موضوع دروسه تلك؟

أوقفنا بعض المصادر على أن عياض كان يروي كتاب الشفاء الذي ألفه جده أبو الفضل عياض<sup>(44)</sup> ويمكن أن نستشف من خلال صفاته وشيوخه أن دروسه لا تخرج عن مجالي الفقه والحديث والسيرة النبوية.

**وفاته :**

توفي أبو الفضل عياض الحفيد «في العشر الوسط من شهر جمادى الآخرة

(41) من كلام أبي زيد الفازاري «مخطوطة مصورة»

(42) صلة الصلة ص 166

(43) الذيل والتكملة 449.6

(44) صلة الصلة الصفحة السابقة

(45) سبته ودورها في إثراء الفكر الاسلامي ص 146

عام 630 بمالقة<sup>(46)</sup> وذكر ابن الخطيب أن روضته كانت في جنة له بمالقة بربضها الشرقي<sup>(47)</sup>.

### نصّان في مدح عياض الحفيد

صاحب النصين هو أبو زيد الفازازي<sup>(48)</sup> معاصر أبي الفضل وصديقه، وفيهما يظهر أن صاحبنا كان على أهبّة سفر، وهو ما يتفق مع ما عرف عنه من كثرة التجوال بين العدوتين، كما يبدو من النص الأول أن غرض الشاعر كان استعارة مؤلفات عياض الجد من حنفده، أما الثاني فهو تعبير عن شوق ومودة يحملها الشاعر لصديقه :

النص الأول :

يا أبا الفضل وابنه وأخاه  
وسنّاه وجليّه وخُلاه  
وشبيهه بأوليّه فإن لا  
ح، حسيّناه جدّه وأباه  
علم تحسّر اللّواحظ عنّه  
سفحه الجود والعلا مُرتقاه  
لم أزل سامعاً بفضلك حتى  
حقّق اللحظ عنك ماقد رواه  
أنت من أنت فضل طبع وإرث  
طابق الفرع أصله وحكاه  
وأخو العقل إن أسف لنقص  
من مهاوي الهوى نهته نهاه

(46) صلة الصلة 166

(47) الاحاطة 222.4

(48) هو أبو زيد عبد الرحمان بن خليفة الفازازي ت سنة (627 هـ) انظر ترجمته في التكملة 585 /2 طبعة كوديرا ترجمة رقم 1641 وفي تحفة القادم 133 والاحاطة 317.3 وأعيان مالقة ص 67 من المخطوط، وصلة الصلة 131 (المخطوط) وقد نشر في ذيل الجزء الثامن من الذيل والتكملة ص 542 ضمن غريباء الصلة.



سَرَّني القربُ منك والدهرُ دأباً  
مازجُ طيبٍ وصله بسواه  
وسواءٌ لديه جيلةٌ عدر  
نالتنا منه خيرُه أو سواه  
أنا مغرَى بكُتِبَ جَدَّك علماً  
إنه البحرُ واجمیعُ رداه  
فلِإِذا أُبِتَ سالماً فأعزَّها  
من يكافيك شكره وثناه  
ولَبِثُ العلومُ أعظمُ فضل  
فاغتنمه فقد حوت مداه  
ولتسبرُ ولتؤوبُ موافق [معافي]  
تسمع الخير دائماً وتراه  
ولطرفِ الخافِ عنك اغتاض  
ولطرفِ الموادِ منك انتباه  
ماطوى الروضُ سرُّه جنح ليل  
فأذاعته للطباح صباه

#### النص الثاني

دليلُ غلاك ليس عليّ اعتراض  
وبسطُ ندادك ليس إلى انقباض  
وفيك محاسنُ لفظاً ومعنى  
نهضت بعثها أي انتهاض  
يقرُّ الحاسدون بها ولم لا  
وجدك شاهداً وبذاك قاضي  
بقية منجيك أباً وجداً  
وبالباقيين تُعتبرُ المواضي  
وأورثهم وقد كثروا وطابوا  
كإرث الزهر أنفاس الرياض  
فهذا النور من تلك المشاكي  
وهذا النهر من تلك الخياض

أَتَانِي عَنْ أَبِي الْفَضْلِ ارْتَحَالُ  
ثَنَانِي بَيْنَ جَدِّ وَارْتِمَاضِ  
فَلَمْ تُحْنِ الضَّلُوعَ عَلَى سُلُوءٍ  
وَلَمْ نَطْوِ الْجَفُونَ عَلَى اغْتِمَاضِ  
فِرَاقِ النَّفْسِ لَيْسَ عَلَى اخْتِيَارِ  
وَفَقْدِ الرُّوحِ لَيْسَ عَنِ التَّرَاضِ  
وَمَنْ يَعْتَضُ خَلِيلًا مِنْ خَلِيلِ  
فَمَا عَوِضْتُ خِلَاءً مِنْ عِيَاضِ  
وَلِي دِينَ بُلُقَيَّهِ وَلَكِنْ  
أَرَى الْأَيَّامَ تُمِطُّ بِالتَّقَاضِ  
أَبَا الْفَضْلِ الزَّمَانُ كَمَا تَرَاهُ  
تَقَلَّبَ فِي انْبِرَامٍ وَانْتِقَاضِ  
رَضِيْتُ عَنِ الْفِرَاقِ وَفِيهِ سُخْطُ  
وَإِنِّي عَنْ فِرَاقِكَ غَيْرُ رَاضِ  
فَسِرْ مُتَمَهِّلاً وَارْجِعْ سَرِيعاً  
كَصَقْرِ فِي عُلوِّ وَانْقِضَاضِ  
وَعِشْ فِي غِبْطَةٍ وَعُلاٍّ وَمَجْدِ  
وَسَعْدِكَ ذُو انْقِيَادٍ وَارْتِيَاضِ  
مَتَى صَحَّتْ دَعَاؤِي كُلُّ صَبٍّ  
بِتَزْكِيَةِ مَنْ الْحَدِيقِ الْمَرِاضِ

## المصادر والمراجع

- 1 — الاحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب. مكتبة الخانجي القاهرة
- 2 — أدباء مالقة لابن خميس وابن عسكر.  
نسخة مرقونة على الآلة الكاتبة في مكتبة الأستاذ عبد الله الترغي المرباط
- 3 — بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، للضبي  
دار الكتاب العربي 1967
- 4 — ترتيب المدارك للقاضي عياض،  
تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف. الرباط
- 5 — التعريف بالقاضي عياض، لولده أبي عبد الله محمد  
تقديم وتحقيق د. محمد بن شريفة  
منشورات وزارة الأوقاف : المغرب
- 6 — التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار، طبعة مدريد بعناية كوديرا
- 7 — التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار، طبعة القاهرة بعناية من العطاء
- 8 — الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العقلائي ط مصر  
1967
- 9 — دورة القاضي عياض (أعمال ندوة) في ثلاثة أجزاء.
- 10 — الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن وحوون المدني،  
تحقيق محمد أبو النور  
دار التراث، القاهرة
- 11 — الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لأبي عبد الله بن عبد الملك المراكشي  
السفر الثامن — تحقيق د محمد بن شريفة  
مطبوعات الأكاديمية المغربية
- 12 — الذيل والتكملة، السفر السادس  
تحقيق الدكتور احسان عباس  
دار الثقافة (1973)

- 13 — سبتة ودورها في إثراء الفكر الاسلامي  
(أعمال ندوة) أقيمت بتطوان — المغرب
- 14 — شجرة النور الزكية، محمد مخلوف
- 15 — صلة الصلة، لأبي جعفر بن الزبير  
تحقيق ليفي بروفنسال  
مكتبة خياط بيروت 1937
- 16 — العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين لمحمد المنوني ط : الرباط  
1977
- 17 — مجلة البحث العلمي، العدد 25 ت الرباط 1976 ص III وما  
بعدها
- 18 — المشرقية العليا، للنباهي، المكتب التجاري بيروت
- 19 — من كلام أبي زيد الفازازي  
(مخطوطة مصورة بمكتبة، الباحث)
- 20 — وفيات الأعيان، لابن خلكان  
تحقيق إحسان عباس  
ط، دار الثقافة بيروت
- 21 — وفيات ابن قنفذ، تحقيق عادل نويهض  
دار الآفاق الجديدة، بيروت 1980





## «ابن هشام اللخمي ونشاطه اللغوي في سبته في القرن السادس الهجري»

د. خوسية بيرث لاثارو José Pérez Lázaro

إن اهتمامي بدراسة اللغة العربية ونشاطها بالأندلس جعلني أدرس أحد أعلام الأندلسيين الذين أقاموا مدةً ضويلةً في سبته في عصري المرابطين والموحدين<sup>(1)</sup>. وأقصد بذلك أبا عبد الله محمد بن أحمد بن هشام بن إبراهيم بن خلف اللخمي المعروف بابن هشام اللخمي، صاحب التاليف اللغوية الشهيرة<sup>(2)</sup>. ويذكر صاحب الذيل والتكملة أنه إشبيلي سكن سبته، فعليه حمل النسبتين «الإشبيلي» و «السبتي» واشتهر بالأخيرة — أي «السبتي» نظراً لطول إقامته في سبته، الأمر الذي دفع ابن الأثير إلى وضع ترجمته في التكملة في باب «الغرباء» لتوهمه أن ابن هشام ولد في سبته.

والمصدر الوحيد الذي يحدد تاريخ وفاة ابن هشام هو الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي حيث ذكر أنه توفي بإشبيلية سنة 577<sup>(3)</sup>. أما بقية

---

(1) ظ : «تاريخ سبته» محمد بن تلويت (الدار البيضاء، 1982)، «شيوخ العلم وكتب الدرس في سبته» للدكتور حسن الوراكلي (تطوان، 1984)، «الحياة الثقافية بسبته في القرن السابع الهجري» للدكتور إسماعيل الخطيب (تطوان، 1984)، «مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحدي» للدكتور عبد الحادي أحمد الحسيسن (الرباط، 1982).

(2) ظ ترجمة ابن هشام اللخمي في المصادر التالية : المطرب (ص 183)، التكملة لكتاب الصلة (رقم 1053 من طبعة مدريد ورقم 1709 من طبعة القاهرة)، وفیات الأعيان (4/324) الوافي بالوفيات (2/131)، الذيل والتكملة (6/70 — 75)، بغية الوعاة (1/48 — 49)

(3) الذيل، والتكملة، 75/2

المصادر فتكتفي بذكر أنه توفي في حدود سنة 570<sup>(4)</sup>، أو أنه كان حياً سنة 557<sup>(5)</sup>.

ولا تكون تلك المصادر حافلة بأخبار تتعلق بحياة ابن هشام اللخمي فتقتصر على ذكر أسماء بعض شيوخه وتلاميذه وعناوين مؤلفاته. ويبرز صاحب الذيل والتكملة أنه «كان نحوياً لغوياً أدبياً تاريخياً ذاكراً أخبار الناس قديماً وحديثاً وأيامهم، حسن الخلق، درس ما كان ينتحله من العلوم بسبته طويلاً وصنف فيما كان لديه من المعارف مصنفات مفيدة»<sup>(6)</sup>.

### شيوخه

ولانعرف من شيوخه غير القاضي أبي بكر ابن العربي (468 — 543)<sup>(7)</sup> وأبي الخليل<sup>(8)</sup> وأبي طاهر السلفي (472 — 576)<sup>(9)</sup>.

ومن بين الكتب التي قرأها ابن هشام مع أبي بكر ابن العربي تذكر المصادر إصلاح المنطق لابن السكيت<sup>(10)</sup>، والقصيدة المقصورة لابن دريد وكتاب الفصيح لأبي العباس ثعلب<sup>(11)</sup>. ويتبين احترام ابن هشام اللخمي تجاه أبي بكر ابن العربي من خلال العبارات المستعملة لنقل آرائه: «شيخنا المحدث الفاضل»<sup>(12)</sup>.

(4) وفيات الأعيان، 364/4، الوافي بالوفيات، 131/2.

(5) التكملة، رقم 1053 (مدريد)، رقم 1709 (القاهرة)، بغية الوعاة، 49/1.

(6) الذيل والتكملة، 71/2.

(7) هو أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الأشبيلي، إحدى الشخصيات البارزة في حياة الأندلس الثقافية، ارتحل إلى المشرق مع والده في طلب العلم وعاد إلى أشبيلية حيث تولى القضاء قبل منفاه إلى مراکش في عصر الموحدين. توفي بفاس سنة 543. (ظ ترجمته في الصلة، رقم 1181، الوافي بالوفيات، 330/3، وفيات الأعيان، 296/4، شذرات الذهب، 141/4، جذوة الاقتباس، 160، سير أعلام النبلاء، 197/20).

(8) الذيل والتكملة، 70/6.

(9) هو أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصمباني الجرواني المشهور بالسلفي. (ظ ترجمته في سير أعلام النبلاء، 5/21 — 39، والمصادر المذكورة في هوامشها).

(10) ظ المدخل إلى تقويم اللسان (مخطوطة الاسكوريال رقم 46، الورقة 14).

(11) ظ الفوائد المحصورة في شرح المقصورة، 108 وشرح الفصيح (مخطوطة الخزنة الحسينية رقم 1944، الورقة 2).

(12) ظ المدخل إلى تقويم اللسان، الورقة 61 ب.

أو «الفقيه الأجل اخذت الأفضل»<sup>(13)</sup> أو «الفقيه الأجل الشيخ الأفضل»<sup>(14)</sup>

ولاندري الكثير عن شيخ آخر لابن هشام وهو أبو الخليل كما يذكره ابن عبد الملك المراكشي في الذيل<sup>(15)</sup>. أما ابن هشام فلم يذكر أبا الخليل إلا مرة واحدة في كتابه المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان حيث يقول : «أخبرنا الأستاذ أبو الخليل شيخنا — رحمه الله — بإشبيلية في دهليزه عن شيخه عاصم بن أيوب... إن»<sup>(16)</sup>. وقد يكون أبو الخليل هذا أبا الخليل مفرج بن عبد الله الأموي من أهل بطليوس وساكن إشبيلية الذي كان — في كلمات ابن الأبار — «أديباً نحويّاً لغويّاً وروى كثيراً من كتب الآداب واللغات»<sup>(17)</sup>.

أما أبو طاهر السلفي — اخذت والحافظ الشهير — فيقول ابن الأبار ان ابن هشام روى وحديث عنه<sup>(18)</sup>، ويزيد ابن عبد الملك المراكشي أن «له إجازة من الحافظ أبي الطاهر السلفي»<sup>(19)</sup> ولا يعني ذلك — في رأي — أن ابن هشام كان قد ارتحل إلى المشرق لطلب العلم ولقي هناك أبا طاهر السلفي «فمن المعروف أن الإمام السلفي قد أجاز المسلمين عامة قبل موته، فروى بعضهم بهذه الإجازة العامة»<sup>(20)</sup>.

### تلاميذه

ومن تلاميذ ابن هشام اللخمي الذين تذكرهم المصادر : أبو علي حسن بن محمد الجذامي وأبو عمر يوسف بن عبد الله الغافقي وأبو الحسن ابن أحمد الخولاني وأبو عبد الله ابن عبد الله بن سعيد الكناني وابن العابد بن غاز السبتي<sup>(21)</sup>.

(13) المصدر نفسه، الورقة 14 ب

(14) الفوائد المصورة في شرح المقصورة، 108

(15) الذيل والتكملة، 70/6

(16) المدخل، الورقة 15 ب

(17) التكملة، رقم 1833 (القاهرة)

(18) التكملة، رقم 1053 (مدريد)، رقم 1709 (القاهرة)

(19) الذيل والتكملة، 70/6

(20) ظ سير أعلام النبلاء، 20/21

(21) الذيل والتكملة، 70/6



ولم نوفق في بحثنا عن أخبار عن أبي علي الجذامي وأبي عمر الغافقي. أما أبو الحسن الخولاني وأبو عبد الله الكناني فهما — على الأكثر — سمعا ابن هشام في سبته: أولهما هو أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن سليمان بن مكثر الخولاني الذي لا يذكر عنه ابن عبد الملك المراكشي سوى أنه «روى عن أبي عبد الله بن هشام مقيم سبته»<sup>(22)</sup>.

ثانيهما هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الكناني الذي «روى عن أبي عبد الله ابن هشام الإشبيلي نزيل سبته، وكان مقرئاً مجوداً نحوياً ماهراً أديباً بارعاً»<sup>(23)</sup>.

غير أن أشهر تلاميذ ابن هشام هو أبو عبد الله محمد بن الحسن العابد بن عطية ابن غازي بن حلوف بن حمد بن موسى بن هارون بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن أحمد ابن جابر بن عبد الله الأنصاري السبتي المعروف بابن الغازي (508 — 591)<sup>(24)</sup>. وكان ابن الغازي ينتسب إلى عائلة سبتية عريقة تولى بعض أفرادها القضاء في سبته. وفيها روى ابن الغازي عن أبيه وعن القاضي عياض<sup>(25)</sup>، وأبي علي الخشني وأبي الحسن ابن فتحون وعن مؤلفنا أبي عبد الله ابن هشام اللخمي. وعنايته بالعلم والمعرفة جعلته ينتقل من مكان إلى آخر للاستماع إلى أبرز شيوخ وقته. فبعد تعلمه بسبته ذهب إلى فاس حيث روى عن أبي جعفر ابن باقي السرقسطي وأبي عبد الله ابن الرمامة وأبي موسى ابن الملجوم. ثم عبر المضيق ودخل الأندلس فأجاز له أبو العباس ابن زرقون بالجزيرة الخضراء وأبو عبد الله بن عمر في مالقة وأبو الحسن ابن هذيل في بلنسية وأبو القاسم ابن حبيش في مرسية وأبو جعفر بن البادش في غرناطة. ويعد ابن الغازي من بين رواة الحديث في سبته وتصفه المصادر مبرزاً في العدالة والثقة ذا العناية بعقد الشروط، له حظ في نظم الشعر والأراجيز. وقد نقل ابن عبد الملك المراكشي<sup>(26)</sup> بعض منظوماته

(22) المصدر نفسه، 160/5

(23) المصدر نفسه، 280/6

(24) ظ ترجمة ابن الغازي في المصادر التالية: التكملة، رقم 1060 (مدرید)، الذيل والتكملة 287/8 — 289، صلة الصلة (في الذيل والتكملة، 503/8 — 504)

(25) فهرس ابن غازي المكناسي، 109 و 112، حيث تذكر روايات الشفاء والإلماع والمدارك وبغية الرائد.

(26) الذيل والتكملة، 288/8 — 289

التعليمية حول مسائل قضائية ربما كانت تعكس تجربته الشخصية أثناء توليه القضاء في سبته.

ويهتمنا ابن الغازي بشكل خاص لكونه قد روى تأليف ابن هشام<sup>(27)</sup> أو بعبارة ابن الزبير «قرأ وسمع كثيراً على الوزير أبي عبد الله محمد ابن هشام اللغوي النحوي السبتي صاحب شرح الفصيح وغيره»<sup>(28)</sup>. فقد وصل إلينا نص المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان لابن هشام برواية ابن الغازي الذي روى الكتاب إلى تلميذه ابن الشاري<sup>(29)</sup>.

وبالرغم من أن ابن الشاري لم يتلمذ على ابن هشام بشكل مباشر ولكننا رأينا من المستحسن اعتباره تلميذاً عليه للدور الذي لعبه بحفظ المدخل وروايته. هذا بالإضافة إلى ما يمثل كل من ابن هشام وابن الغازي وابن الشاري من وحدة العدوتين الثقافية وسط الاضطرابات السياسية التي مرت بها المنطقة تلك الأيام والتي لم تكن قادرة على منع تبادل الأفكار ونقل المعارف من عدوة إلى أخرى.

أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى الغافقي الشاري المعروف بابن الشاري<sup>(30)</sup> ولد في سبته سنة 571 من عائلة أندلسية انتقلت إلى سبته سنة 562 إثر الفتنة التي وقعت وقت وصول الموحدين إلى الأندلس<sup>(31)</sup>. وتنسب عائلته إلى الشارة أحد أعمال بلنسية ومرسية في شرق الأندلس.

ويعد ابن الشاري من بين أبرز العلماء في وقته تعكس أهميته في كثرة الأخبار المتفرقة في المصادر. ولن نذكر سوى أسماء بعض شيوخه : منهم أبوه محمد بن علي الشاري وابن الغازي وأبو ذر الحشني وعلي بن خروف وعبد الله بن محمد الحجري ويحيى بن محمد الهوزري ومرجى المرجقي إلخ. ودرس معهم العلوم

---

(27) التكملة، رقم 1060 (مدريد)

(28) ظ صلة الصلة في النص المحقق في السفر الثامن من الذيل والتكملة (ص 504)

(29) ظ مخطوطة المدخل المحفوظة في مكتبة الاسكوريال، رقم 99

(30) ظ ترجمة ابن الشاري في المصادر التالية : التكملة، رقم 1922 (مدريد)، برنامج شيوخ الرعي، ص 74 ومابعد، صلة الصلة (لافي بروفنسال) رقم 300، سير أعلام النبلاء،

275/23، جذوة الاقياس، 470/2

(31) التكملة، رقم 978 (مدريد)

العربية بمختلف فنونها : الفقه والشريعة والحديث النبوي والقراءات بالإضافة إلى اللغة العربية وآدابها.

وتنفرد شخصية ابن الشاري بعنايته بالكتب «يقول الرعيني في برنامج شيوخه : «واقنتني من أعلاق الكتب وعتاقتها ما لم يصل سواد إليه، وحصلت عنده أكثر أمهات الدواوين العلمية وأصولها، وانفرد بفضيلة التحبب منها جملة كبيرة انتقاها من أعلاقه من كل فن من فنون علم السنة، وقفها على الطلبة مع موضع برسمها في مدينة سبته، وجعل لها وقفاً جيداً من ماله وفي خيار رابعه، محتدياً في ذلك طريقة أهل المشرق»<sup>(32)</sup>. أما صاحب اختصار الأخبار فيقول : «وعدد المساجد (في سبته) ألف مسجد، من جملة العدد المدرستان : مدرسة الشيخ المحدث الراوية المعنى بالعلم وأهله، المنفق ماله في نشره واقتناء كتبه، أعجوبة زمانه في ذلك ووقته، أي (مدرسة) أبي الحسن الشاري الغافقي السبتي»<sup>(33)</sup>. ثم يقول : «وعدد الخزانة العلمية اثنتان وستون خزانة... وكان منها في زماننا سبع عشرة خزانة، تسع بدور الفقهاء والصدور.. وثمان موقفة على طلاب العلم، أقدمها الخزانة الشهيرة ذات الأصول العتيقة والمؤلفات الغربية، خزانة الشيخ أبي الحسن الشاري المذكور التي بالمدرسة المنسوبة إليه التي ابتناها من ماله، وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم نفعه الله بها»<sup>(34)</sup>.

ولهذه الخزانة أمر ابن الشاري بنسخ المدخل إلى تقويم اللسان لابن هشام اللخمي برواية ابن الغازي<sup>(35)</sup>.

وفي نهاية عمره واجه ابن الشاري صعوبات كثيرة في سبته فاعترب منها إلى الأندلس سنة 641 فنزل المرية ثم مالقة وغرناطة حيث أقرأ القرآن وحدث إلى أن توفي في مالقة عام 649.

### مؤلفاته

يبدو تفرغ ابن هشام للتعليم وإهتمامه بالمسائل اللغوية بالمؤلفات التي أغنى بها

(32) ظ برنامج شيوخ الرعيني، ص 74 و 75

(33) ظ اختصار الأخبار (تحقيق عبد الوهاب بن منصور)، 30

(34) المصدر نفسه، 31 و 32

(35) ظ مخطوطة الاسكوريال رقم 99



المكتبة العربية والتي نتمنى أن تراها مطبوعة بتحقيق علمي لما لها من فائدة لدارسي اللغة العربية وتاريخها :

- الفوائد المختصرة في شرح المقصورة
- شرح المقصور والممدود
- شرح الفصيح
- المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان
- قصيدة في معاني الخال
- شرح قصيدة الهاشمي في ترحيل النيرين
- الفصول والجمال في شرح أبيات الجمل
- شرح قصيدة الحريري في الظاء

وقد وصلت إلينا مؤلفات ابن هشام اللخمي ماعدا شرح قصيدة الحريري في الظاء. ولابد لنا أن نشير هنا إلى المؤلفات التي نسبت إليه بالغلط والتي هي :

- كتاب الدر المنظم في مولد المعظم<sup>(36)</sup>
- الجمل في النحو<sup>(37)</sup>
- المقرّب في النحو<sup>(38)</sup>

ونظرا لضيق الوقت أكتفي بذكر ما طبع وما لم يطبع من مؤلفات ابن هشام قبل أن أنهى كلامي بالاشارة إلى مكانة المدخل إلى تقويم اللسان بين كتب لحن العام في الغرب الإسلامي في القرون الوسطى.

(36) نسب هذا الكتاب إلى ابن هشام اللخمي كل من :

GAL, S I, 541

Wüsterfeld, Geschichtschreiber, 91 : Pons Boigues, Ensayo, n° 237.

عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، 141/2، حاتم صالح الضامن (مجلة المورد البغدادية، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص 46)، ومهدي عبيد جاسم (مجلة المورد، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ص 184) والكتاب كما هو معروف لأبي القاسم العزفي. (37) قد أخطأ حاجي خليفة في نسبه الجمل في النحو إلى ابن هشام اللخمي (ظ كشف الظنون، 605/1).

(38) نسب إلى ابن هشام اللخمي في هدية العارفين، 97/2، وإيضاح المكنون، 545/2. والكتاب هو لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن هشام الفهري المعروف بابن الشواش المتوفى سنة 618 أو 619 في المرية (ظ التكملة، 607/2، الذيل والتكملة، 662/5، بغية الوعاة



## المؤلفات المطبوعة :

### 1 — الفوائد المحصورة في شرح المقصورة<sup>(39)</sup> :

خصّص الدكتور محمد رضوان الداية (سنة 1968) أحد أبواب كتابه «تاريخ النقد الأدبي في الأندلس» لدراسة شرح اللخمي لمقصورة ابن دريد<sup>(40)</sup> وتبعه بذلك الأستاذ رضا عبد الجليل الطيار (عام 1980) في كتابه «الدراسات اللغوية في الأندلس»<sup>(41)</sup>.

وقد نشرت «الفوائد المحصورة في شرح المقصورة» لأول مرة في بيروت عام 1979 بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار<sup>(42)</sup>، وتم نشرها عام 1986 بتحقيق مهدي عبيد جاسم تحت عنوان «ابن هشام اللخمي وجهوده اللغوية مع تحقيق كتابه شرح مقصورة ابن دريد<sup>(43)</sup>» من أصل رسالة للماجستير نوقشت في جامعة بغداد عام 1983<sup>(44)</sup>. أمّا التحقيق الذي قام به الدكتور محمد حامد خلف في رسالته للدكتوراه التي نوقشت عام 1986 في جامعة محمد الخامس في الرباط<sup>(45)</sup>، فلا ندري هل نشر أم لا.

---

(39) يذكر هذا الشرح في ترجمات ابن هشام اللخمي بعنوان «شرح مقصورة ابن دريد» — ظ: التكملة، رقم 1053 (مدرّيد) وفيات خليفة 324/4، الذيل والتكملة، 71/6، بغية الوعاة، 49/1). أمّا حاجي خليفة فيقول أن ابن هشام «سمّاه الفوائد المحصورة في شرح المقصورة» (كشف الظنون، 1808/2) وتحمل هذا العنوان المخطوطات التالية: المكتبة الوطنية (باريس) رقم 792، دار الكتب المصرية، رقم 65 ش، المكتبة الوطنية في الجزائر، رقم 1831، وراغب باشا (استنبول) رقم 1161.

(40) ظ طبعته الثانية (1981) ص 161/147

(41) ص 183/179

(42) منشورات دار مكتبة الحياة

(43) ابن هشام اللخمي وجهوده اللغوية مع تحقيق كتابه شرح مقصورة ابن دريد مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986.

(44) ظ مجلة المورد، المجلد الثالث عشر، 184/1

(45) ظ مجلة الفيصل (الرياض)، نوفمبر 1986، ص 147 وأخبار التراث العربي (الكويت) العدد الخامس والثلاثون (يناير / فبراير 1988) ص 20

## 2 — شرح المقصور والممدود<sup>(46)</sup>

لقد نشر هذا الشرح عام 1984 في مجلة المورد البغدادية بتحقيق مهدي عبيد جاسم<sup>(47)</sup>

## 3 — شرح الفصيح<sup>(48)</sup>

خصّص الأستاذ رضا عبد الجليل الطيار (عام 1980) أحد أبواب كتابه «الدراسات اللغوية في الأندلس»<sup>(49)</sup> لدراسة شرح ابن هشام لكتاب الفصيح لأبي العباس ثعلب.

ثم نشره في بغداد عام 1984 بتحقيق حاتم صالح الضامن ومهدي عبيد جاسم<sup>(50)</sup>.

## 4 — المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان<sup>(51)</sup>

أول من اهتم بهذا الكتاب ودرسه وحقّق البعض منه هو المرحوم الأستاذ الجليل عبد العزيز الأهواني الذي نشر عام 1957 مقالا بعنوان «ألفاظ مغربية من كتاب

---

(46) لم تذكره المصادر التي ترجمت ابن هشام اللحي وقد يعود سبب ذلك إلى الشهرة التي تمتع بها شرح المقصورة وإلى تشابه الكلمتين «المقصورة» و «المقصور»

(47) ظ مجلة المورد، اخلد الثالث عشر، 183/1 — 200

(48) ظ التكملة، رقم 1053 (مدرّيد)، الذيل والتكملة، 71/6، بغية الوعاة، 49/1

(49) ص 119 — 130

(50) ظ أخبار التراث العربي، العدد الخامس عشر (1984)، 14

(51) تذكره المصادر بالعناوين التالية :

— كتاب في لحن العامة : التكملة، رقم 1053 (مدرّيد) ورقم 1709 (القاهرة)

— لحن العامة : بغية الوعاة، 49/1، كشف الظنون (فلو جل) 308/5

— تقويم اللسان : الذيل والتكملة، 71/6، برنامج التجيبي، 162

— المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان : بغية الوعاة، 48/1، كشف الظنون (فلو جل)،

471/5

أما المخطوطتان الوحيدتان اللتان وصلتا إلينا، فتحمل إحداهما عنوان «المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان» (اسكوريال رقم 99 وهي المخطوطة التي أمر بنسخها ابن الشّاري) بينما تحمل الأخرى عنوان «كتاب الرّدّة على الزبيدي في لحن العوام (اسكوريال رقم 46) وهو عنوان الباب الأول من الكتاب.

ابن هشام اللخمي في لحن العامة»<sup>(52)</sup> ثم حَقَّق آخر أبواب الكتاب، «باب ما تمثَّلت به العامة... إلخ» ونشره عام 1962 ملحقاً بدراسته عن «أمثال العامة في الأندلس»<sup>(53)</sup>. وقد ترجم هذا الباب إلى اللغة الأسبانية وعَلَّق عليه الأستاذ اميليو غارثا غوميث عام 1970<sup>(54)</sup>.

ونشرت بقية الكتاب بالتسلسل فيما بين عامي 1966 و 1983. فالبايان الأول والثاني في الرد على الزبيدي وابن مكي الصقلّي نشرَا عامي 1966 و 1983 بتحقيق عبد العزيز مطر<sup>(55)</sup> أما ماتبقي من المدخل بما في ذلك الباب الأخير المخصَّص للأمثال فقد نشر فيما بين عامي 1981 و 1983 بتحقيق حاتم صالح الضامن<sup>(56)</sup>.

وبالإضافة إلى الجهود في التحقيق التي أثمرت إليها فهناك دراسات وافية عن مدّة المدخل اللغوية. فقد نُوقِشت ثلاث رسائل للدكتوراه حول هذا الكتاب. أولها الرسالة التي قدّمها الدكتور أما دور دياث غارثا عام 1973 في جامعة غرناطة<sup>(57)</sup> وثانيها الرسالة التي قدّمها الدكتور M. EL-Hannach في جامعة باريس عام 1977<sup>(58)</sup> وثالثها الرسالة التي قدّمها أنا في جامعة مدريد عام 1987.

ونشير أخيراً إلى ما نشره من دراسات عن المدخل كل من عبد العزيز

(52) في مجلة معهد المخطوطات العربية (القاهرة)، المجلد الثالث (1957) 167 — 157 و 285 — 321

(53) ظ الكتاب التذكاري إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين» (القاهرة، 1962)، ص 273 — 294

(54) مجلة الأندلس (مدريد)، المجلد 35 (1970)، ص 1 — 60

(55) ظ مجلة معهد المخطوطات العربية (القاهرة)، المجلد 12 (1960)، 2، 21 — 109 وحولية كلية البنات بجامعة عين شمس (القاهرة)، المجلد السابع (1966) 83 — 142

(56) ظ مجلة المورد، المجلد العاشر (1981)، 45/6 — 106، 3 — 205/4 — 306، المجلد الحادي عشر (1982)، 119/1 — 134، 79/6 — 98، 75/3 — 104، 55/4 — 70

المجلد الثاني عشر (1983)، 79/1 — 114.

(57) El dialecto arabe-hispanico y el «Kitab fi lahn al-amma» de Ibn Hisam al-Lajmi (Granada, 1973)

(58) ظ E.L.<sup>2</sup>, suppl., s.v. Ibn Hisham al-Lakhmi (Ch. Pellat)

مطر<sup>(59)</sup> ورمضان عبد التّوّاب<sup>(60)</sup> ونعمت العزّاوي<sup>(61)</sup> ورضا عبد الجليل الطيار<sup>(62)</sup> في بعض مؤنّفاتهم اللغوية.

وسنعود في نهاية هذا البحث إلى المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ومكانه بين كتب لحن العامة في الغرب الإسلامي.

## 5 — قصيدة في معاني الخال

وهي منظومة تعليمية يفسّر فيها ابن هشام إحدى وعشرين معنى لكلمة «الخال» في كلام العرب. وتتكوّن المنظومة من سبعة أبيات من البحر الطويل ذكرها ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته لابن هشام. أمّا السيوطي فلا يذكر سوى أربعة منها وهي التي ذكرها ابن دحية في المطرب<sup>(63)</sup>.

«وهذه الأبيات — في كلمات ابن عبد الملك المراكشي — أقرب للحفظ وأكبر شهادةً باقتدار منشئها على النظم من القصيدة التي ذيل فيها أبو الطيّب عبد الواحد بن علي اللغوي القصيدة التي أنشدتها ثعلب وماكملها به أبو إسحاق بن فرقد»<sup>(64)</sup>.

## المؤلفات غير المطبوعة

### 1) شرح قصيدة الهاشمي في ترحيل التيرين

ذكره ابن عبد الملك المراكشي بهذا العنوان<sup>(65)</sup> وذكره حاجي خليفة بعنوان «شرح قصيدة في الهيفة»<sup>(66)</sup>.

وصل إلينا من هذا الشرح نسختان خطيتان، أولهما في الخزانة الحسينية في

---

(59) ظ لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة (القاهرة، 1967)، 114 — 117 و 160 — 162

(60) ظ لحن العامة والتطور اللغوي (القاهرة، 1967)، 229 — 242

(61) ظ أبو بكر الزبيدي الأندلسي وآثاره في النحو واللغة (النجف، 1975)، 419 — 425

(62) ظ الدراسات اللغوية في الأندلس (بغداد، 1980)، 86 — 118

(63) ظ الدليل والتكملة، 71/6 — 72، المطرب، 183، بغية الوعاة، 49/1

(64) ظ الدليل والتكملة، 72/6

(65) المصدر نفسه، 71/6

(66) كشف الظنون، 1345/2



الرباط وتحمل عنوان «شرح منظومة في المنازل والبروج»<sup>(67)</sup> وثانيهما في الجزائر بدون عنوان<sup>(68)</sup>.

وقد أتيت لينا فرصة الاطلاع على نسخة الخزنة الحسنية بفضل محافظها الأستاذ محمد الخطابي وفي نيتنا المباشرة في تحقيقها لما فيها من الفائدة اللغوية.

## 2 — الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل

تذكر المصادر هذا التأليف بعناوين مختلفة :

— كتاب الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل وإصلاح ماوقع في أبيات سيوييه وفي شرحها للأعلم من الوهم والخلل (التكملة، رقم 1053 من الطبعة الجريدية)

— شرح أبيات الجمل (الذيل والتكملة، 71/6)

— الجمل في شرح أبيات الجمل ونكت على شرح أبيات سيوييه للأعلم (بغية الوعاة، 49/1)

وصلت إلينا من هذا الكتاب ثلاث نسخ خطية : أولها في الزاوية الحمزوية<sup>(69)</sup> وثانيها في خزنة ابن يوسف بمراكش<sup>(70)</sup> والثالثة في مكتبة السيد أبي اليسر العابدين الخاصة بدمشق<sup>(71)</sup>. وتحمل كل من النسخة التطوانية والدمشقية عنوان «الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل». أما النسخة المراكشية فعنوانها «الجمل في شرح أبيات الجمل».

والكتاب مايزال غير مطبوع ولكننا تمكنا من التقرب إليه من خلال ما يذكر منه في خزنة الأدب وفي شرح أبيات مغني اللبيب لعبد القادر البغدادي<sup>(72)</sup>.

(67) ظ فهارس الخزنة الحسنية، 316/3 — 317

(68) ظ E. Fagnan, Catalogue général des manuscrits... Alger, p. 167

(69) ظ محمد المنوني، «مكتبة الزاوية الحمزوية. صفحة من تاريخها» في مجلة «تطوان»، العدد الثامن (1963)، 132

(70) ظ الصديق بلعري «فهرس مخطوطات خزنة ابن يوسف بمراكش. مختصر» (مراكش، 1983)، 27

(71) ظ الزركلي، «الأعلام»، 185/10

(72) يذكر شرح ابن هشام في «شرح أبيات مغني اللبيب» 48 مرة. وظ «أقليد الخزنة» (لأهور، 1927) 40

ونتمنى أن نراه محققاً منشوراً في المستقبل لكونه ذخيرة ذات فائدة كبيرة للمهتمين باللغة العربية وآدابها.

### 3 - شرح قصيدة الحريري في الظاء

لم نعثر على نسخ خطية لهذا الشرح الذي لم يذكره سوى الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي<sup>(73)</sup>.

وبعد هذا العرض السريع لانتاج ابن هشام اللغوي نعود إلى المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان لرسم مسير كتب لحن العامة في الغرب الإسلامي في القرون الوسطى.

أول من ألف في لحن العامة في الغرب الإسلامي هو أبو بكر الزبيدي اللغوي الإشبيلي الشهير (المتوفى سنة 379) الذي ألف كتاب «لحن العامة» أو «لحن العوام» لتصحيح أخطاء معاصريه اللغوية. وقد حقق هذا الكتاب كل من الدكتورين رمضان عبد التّواب (القاهرة 1964) وعبد العزيز مطر (الكويت 1968 والقاهرة 1981). وقد شرح موسى بن علي بن عامر الجزيري (المتوفى سنة 628) كتاب الزبيدي ولكنه لم تصل إلينا نسخ لهذا الشرح<sup>(74)</sup>.

وتبع الزبيدي في التأليف أبو حفص عمر بن مكّي الصقلّي (المتوفى سنة 501) الذي ألف كتاب «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» الذي صحّح فيه أخطاء الصقلّيين. وقد نشر الكتاب بتحقيق الدكتور عبد العزيز مطر (القاهرة 1966).

وجاء بعدهما ابن هشام اللخمي الذي بدأ كتابه المدخل بالردّ على الزبيدي وابن مكّي ثم «أضفتُ إلى ذلك كثيراً مما لم يذكره مما غُيّر في زماننا ولَحُنْتُ فيه عوامنا. وجعلت هذا الكتاب مدخلا إلى تقويم اللسان وتعليم الفصاحة التي هي جمال الانسان»<sup>(75)</sup>.

وشارك ابن هشام اللخمي في ردّه على ابن مكّي أبو إسحاق إبراهيم الأجداني

(73) الذيل والتكملة، 71/6

(74) التكملة رقم 1073 (مدرّيد)

(75) ظ المدخل، الورقة اب

المؤاتي (المؤوفى سنة 600) برّد لم يصل إلينا<sup>(٧٦)</sup>.

وبعد ذلك نجد أبا عبد الله محمد بن علي بن هانيء اللخمي — وهو سبتي من أصل إشبيلي مات شهيدا بجبل طارق سنة ١٧٣٣<sup>(٧٧)</sup> — نجده وكتابه «إنشاد الضوال وإرشاد السؤل»، «رتب فيه لحن العامة للأستاذ النحوي أبي عبد الله بن هشام اختصار تهذيب وتغريب»<sup>(٧٨)</sup> وهو كتاب لم تصل إلينا نسخ منه غير أن أبا جعفر أحمد بن خاتمة الأنصاري (الشاعر الأندلسي الشهير المؤوفى سنة ٧٧٠)<sup>(٧٩)</sup> اختصر إنشاد الضوال وسمى اختصاره بعنوان «إيراد اللال من إنشاد الضوال» ولهذا الكتاب نسختان خطيتان، أولهما في الخزنة الحسينية تحت رقم ١٣٩٩ وتانيهما في مكتبة كلية الآداب في جامعة محمد الخامس بالرباط تحت رقم ٢ (لغة)<sup>(٨٠)</sup>. وهناك نسخة كانت في خزنة الجلاوي في مراكش لاندري هل نسخة الخزنة الحسينية أم غيرها<sup>(٨١)</sup>.

ولم يطبع من هذا الكتاب غير مختصر لمؤلف مجهول حققه الأستاذ جورج كولان ونشره في مجلة هيسبريس سنة ١٩٣١ وأعيد طبعه في مجلة اللسان العربي (سنة ١٩٦٥) وفي كتاب «نصوص ودراسات عربية وإفريقية» للدكتور إبراهيم السامرائي (بغداد، بدون تاريخ). وبالرغم من الجهود المبذولة فلم نوفق في معرفتنا عن مصدر ومصير مخطوطة هذا المختصر الذي حققه كولان.

ونختم كلامنا عن كتب لحن العامة في الغرب الإسلامي في القرون الوسطى بذكر «الجمانة في إزالة الرطانة» لابن الإمام التي تصف لغة التخاطب بإفريقيا

(٧٦) رحلة التجاني، ١٧٠

(٧٧) ط ترجمته في غاية النهاية، ٢١١/٢، درة الحجال، ١١٢/٢ — ١١٣، الدرر الكامنة، ٩١/٤، الاحاطة، ١٤٣/٣

(٧٨) ط «إيراد اللال من إنشاد الضوال» (مخطوطة كلية الآداب في الرباط).

(٧٩) ط ترجمته في الاحاطة، ٢٣٩/١ — ٢٥٩، الكتيبة الكامنة ٢٣٩ — ٢٤٥ درة الحجال ٨٥/١ — ٨٦

(٨٠) وتفضل كل من الأستاذين محمد الخطاني وم العطاي بتزويدنا بصورة خاتين المخطوطتين فلهما الشكر والتقدير.

(٨١) ط صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، الجلدان التاسع والعاشر (١٩٦١/١٩٦٢)، ص ٤٤٨

في القرن التاسع الهجري والتي حقّقها سنة 1953 الدكتور حسن حسني عبد الوهاب.

وتكوّن هذه الكتب مصدراً ذا قيمة عالية لدراسة تطور اللغة العربية فيما بين القرنين الرابع والتاسع في الغرب الإسلامي وتستحقّ عناية المهتمّين بلغة الضاد.

أنهي كلامي بالإعراب عن شكري الجزيل لمنظّمي هذه الندوة وعن تمنّياتي للتوفيق في أعمالها العلمية جامعة سيدي محمد بن عبد الله وكلّيتها للآداب والعلوم الإنسانية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





## التجبيي المحدث السبتي بين الرواية والدراية

ذ. محمد المنتصر الريسوني

تمهيد : الحركة الحديثية في سبته.

لست أريد التصدي للحديث عن تدوين السنة عبر العصور الاسلامية الزاهرة. ولست أريد أيضا التصدي لذكر العوامل التي تضافرت فيما بينها على حفز علمائنا إلى تدوينها ووضع علوم النقد لفحصها الفحص المحكم فذلك له مجال غير هذا المجال.

كيفما كانت الحال فقد ازدهرت في المشرق علوم الحديث رواية ودراية لأجل تمحيص الحديث واختباره بعد أن اصطلحت عدة عوامل على طمس معالم الشريعة من طرف كثير من الفرق والطوائف من بينها الشيعة والصوفية وغيرهما مما كان يريد الترويج لأفكاره الضالة المضللة وقد غاب عن هؤلاء ان الله تعالى حفظ ذكره بعنايته حيث قال «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»<sup>(1)</sup> وليس الذكر مقصودا به القرآن فقط بل المقصود كذلك السنة لأنها وحي بلا ادنى شك لأجل ذلك توالت رحلات العلماء من جميع الأقطار لتلقي الحديث وروايته واضطلع نقاده بمهمة الفحص واكشف عن صحيح ونبد سقيمه فوصلت إلينا السنة — والحمد لله — نقية مطهرة وانفضح كل من كاد للاسلام من اعدائه على مختلف طبقاتهم وتعدد أهوائهم.

---

(1) سورة الحجر : 9

ولقد شهدت سبته السليبية حكم الرومان والوندال ثم حكم البيزنطيين إلى أن شهدت انوار الفتح الاسلامي ومنذ تلك الفترة الأولى من حياتها في ظل الحكم الاسلامي عرفت نشاطا علميا مبكرا مما يحفزنا إلى القول بأن سبته كانت أحد المراكز العلمية في وقت مبكر من حياة المغرب الثقافية، إذ انتشرت في ربوعها المراكز العلمية المتمثلة في المساجد والمكاتب القرآنية والمدارس، تلك المراكز التي اضطلعت بالاشعاع الفكري فأسهمت في ارساء أسس الحضارة المغربية خاصة وخدمة الحضارة الاسلامية عامة.

وكان من بين المساجد التي قامت بعملها العلمي في سبته المسجد العتيق الذي كان يتلقى بين الحين والآخر طلابا وطلابا ويلتقى في رحابه علماء سبته وكل وافد عليها من اعلام الأندلس وكان من الذين تولوا التدريس فيه علي بن محمد الغافقي الشاري (ت عام 649 هـ / 1251) يقول عنه الرعيني «قرأت عليه بالجامع الأعظم بسبته كتاب الجامع الصحيح للبخاري»<sup>(2)</sup> وكان من أساتذته أبو العباس العزفي (ت عام 633 هـ / 1235 م). بالإضافة إلى مسجد القفال ومسجد رحبة الوزان ومسجد ابن خبازة وغيره وغيره<sup>(3)</sup>.

ومن المكاتب القرآنية التي عملت هي الأخرى في إثراء الثقافة الاسلامية في هذه المدينة مكتب عبد السلام بن مشيش (استشهد كما قيل عام 622 هـ / 1225 م)<sup>(4)</sup>، ومن المكتبات التي اضطلعت بمهمتها في هذا المجال خير اضطلاع مكتبة مسجد القفال وغيرها مما ذكره مفصلا صاحب اختصار الأخبار<sup>(5)</sup>، ومن هذه المكتبات المكتبات الخاصة كمكتبة علي بن هلال الحضري وغيره.

ومن المدارس التي تصدت للاسهام بنصيبها في إغناء الحركة العلمية في هذه الربوع المدرسة الشارية التي أسسها علي بن محمد الغافقي على نفقته الخاصة وهي أول مدرسة أنشئت بسبته وقيل انها أول مدرسة أنشئت بالغرب على النمط الشرقي<sup>(6)</sup>.

(2) انظر برنامج شيوخه ص 75 تحقيق إبراهيم شيوخ

(3) انظر الخطيب (إسماعيل) الحركة العلمية في سبته خلال القرن السابع ص 60 ومابعدها

(4) انظر قصة لصاحب هذا البحث تحت عنوان (شهيد من جبل العلم — جريدة الحسني العدد

30 السنة 1 — والقصة تتضمن بعض الأفكار يرفضها اليوم صاحبها

(5) انظر اختصار الأخبار ص 33

(6) انظر الخطيب المرجع السابق ص 70، 71

ويجب ألا نغفل عن أمر مهم وهو أن سبته — وهي على مرمى حجر من الأندلس — قد استقت من ثقافة الأندلس على مختلف ألوانها وأشكالها، إذ لم يكن طلاب العلم في هذه المدينة يبدأ لهم بال دون أن يلبوا رغبة ملحة في أعماقهم وهي الالتحاق بخواضر الأندلس مثل غرناطة وقرطبة وإشبيلية وغيرها من البلدان الأندلسية التي كانت تمثل منارة المعارف تهدي السارين إلى الشاطئ الأمين حيث يبادر الخضر وحقوق الخير.

ومع أن سبته استطاعت أن تقف على رجلها بعد سنوات من الكد في مجال المعرفة فإن طلبتها لم يكونوا يستغنون عن الرحلة إلى الأندلس للأخذ عن شيوخها توسعا في الرواية واختصا بالندرية وإغناء للمحصول العلمي، كما أن شيوخ الأندلس بعد أن انتهت إليهم أصوات الحركة العلمية في هذه المدينة لم يجدوا غضاضة في الانتقال إليها وهي بقربة منها للاسهام بنصيبهم في إثراء هذه الحركة في شتى واجهاتها العلمية فكان من الوافدين عليها أبو عبد الله محمد بن عمر بن قطري الزبيدي النحوي (ت عام 501 هـ/1107 م) الذي سكن سبته وقعد لتدريس علوم اللغة وغيرها وعبد الله بن سليمان الأنصاري الحارثي (ت عام 612 هـ/1215 م) الذي كان من أساتذة الأصول والنحو ومن أصحاب الاجتهاد وتولى قضاء سبته بعد أن اشتر أمره بها.

لقد كانت سبته عبر العصور بحكم موقعها الجغرافي محط الوافدين عليها من المشرق أو من الأندلس أو من المغرب نفسه ومن فاس على الخصوص أو عندما يعود إليها بنوها الذين شدوا الرحال إلى المشرق أو الأندلس مزودين بمختلف العلم والمعارف.

ولاشك عندي أن سبته كانت تتأثر فيما تأثر بهذا كله وتهضم كل ماينتهي إليها من ثقافات على صورة واعية أكسبتها شخصيتها المعرفية تلك الشخصية التي برزت فيما وصل إلينا من إنتاجات السبتيين في مجال التفسير ومجال الحديث ومجال الفقه ومجال اللغة والمجال الأدبي<sup>(8)</sup>، الأمر الذي جعل سبته مركزا مشعا على مر القرون يرسل الاشعاع الفكري إلى آفاق بعيدة.

وعندما نحاول البحث عن الحركة الحديثة في سبته نجدها قد اخذت تدرج

(7) انظر ابن فرحون (إبراهيم) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ص 142

(8) انظر الوراكي حسن الدكتور شيوخ العلم وكتب الدرس في سبته ص 11



وتنمو — مع نمو حركة العلوم الأخرى — منذ القرن الثاني الهجري خاصة حين رجع من المشرق العالم المحدث محمد بن وضاح (ت عام 286 هـ/899 م) والامام المكث المجتهد بقي بن مخلد<sup>(9)</sup> (ت عام 276 هـ/889 م) إلى الأندلس حاملين معهما الرواية مما تفقاه عن شيوخهما فكانا بحق طليعة المدرسة الحديثية في الأندلس دون منازع ثم ظهر بعدهما في المجال الحديثي امثال قاسم بن اصبع (ت عام 351 هـ/951 م) وخالد بن سعد القرظي (ت عام 352 هـ/962 م).

ولقد كان لهذه الحركة الحديثية اشعاع قوي في دفع عجلة النهضة الحديثية في سبتة إلى الإمام، إذ وقع عليها محمد بن الحارث الخشنى القيرواني الأندلسي (ت عام 366 هـ/976 م) وهو من تلاميذ قاسم بن اصبع قيل انه حقق قبلة الجامع العتيق بسبتة كما ذهب إلى ذلك ابن فرحون<sup>(10)</sup>، ومن هؤلاء الوافدين كذلك محمد بن عيسى التميمي المحدث الرواية الذي تولى قضاء سبتة وحدث بها وأخذ عنه من اخذ من أهلها (ت عام 505 هـ/1111 م) وحسين بن محمد بن سكرة الصدي (ت عام 514 هـ/1120 م)، ويعد نسيخ وحده في ضبط الحديث وتحرير العلو في إسناده في شرق الأندلس، ومنهم غالب بن عبد الرحمان أبو بكر بن عطية (ت عام 518 هـ/1124 م) ويعد من ذوي الرواية والدراية واتقان في النقد الحديثي وعنه اخذ القاضي عياض، (ت عام 544 هـ/1149 م) وعن غيره اخذ إلى أن أصبح أحد أئمة الحديث في عهده يصنف فيه ويؤلف. هكذا يتبين بجملاء أن الحركة العلمية خاصة الحديثية منها، لم تكن تبدأ بخال بسبتة قبل القرن إلا السابع الهجري، وآية ذلك ان هذه المدينة لم تكن تخلو من علماء متخصصين يلقون الدروس في الحديث، وعلماء متخصصين يعقدون

---

(9) كان بقي مجتهداً يعمل بالدليل وقد حارب دعوته الفقهاء المقلدون من بينهم اصبع بن خليل ولهذا الفقيه طامات منها أنه طعن في مصنف ابن أبي شيبة» وهو كتاب سنة قال: لأنه يكذب في تابوتي رأس خنزير أحب إلي من يكون فيه مصنف بن أبي شيبة وضع هذا قال عنه الذهبي انه متهم بالكذب والوضع: انظر الحديث عن موقف الفقهاء المقلدين فيه عند المقرئ (أحمد أنضج الطيب ج 3 ص 159 تحقيق الدكتور إحسان عباس انظر ماقاله الذهبي عند خصمه في ميزان الاعتدال ج 1 ص 269 ت 108 تحقيق علي محمد البجاري.

(10) انظر برنامج التحيبي ص 143

الحلقات لتدريس النحو وعلماء متخصصين يتصدون لافادة الطلاب في هذا العلم أو ذاك.

### كتب الحديث

اهتم السبتيون بكتب الحديث المعتمدة وغير المعتمدة ولو لم يكن هذا الاهتمام مانفقت سوق الحركة الحديثية في سبته، وإن من أوائل الكتب التي احتفلوا بها موطأ الامام مالك (ت عام 179 هـ/795 م) ومن درسه في سبته أبو العباس العزفي وصحيح الامام البخاري (ت عام 256 هـ/869 م) ومن انتصب لتدريسه أبو الحسن الشاري، وصحيح الامام مسلم (ت عام 261 هـ/875 م) ومن تصدر لتدريسه ابن أبي الربيع (ت عام 688 هـ/1289) وسنن أبي داود (ت عام 275 هـ/988 م) ومن قام بتدريسه أبو القاسم العبسي الجزري وسنن الترمذي (ت عام 279 هـ — 982 م) ومن اضطلع بتدريسه محمد بن علي الغافقي، وسنن النسائي (ت عام 303 هـ/915 م) ومن درسه أبو القاسم الجزري المذكور.

### علوم الحديث

لقد اهتم كذلك السبتيون بالمباحث التي تتناول علوم الحديث لأنها مفتاح لفهم الحديث وارتياذ افاقه وذاك أمر بدیهي يفرض عدم فصل هذا عن ذاك، فالرواية لا بد لها من دراسة من هذه الكتب التي عني بها السبتيون كتاب الاماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للمقاضي عياض وقد سمعه محمد بن حسن بن غازي الأنصاري (ت عام 591 هـ/1194 م) وسمعه عن ابن غازي غيره<sup>(11)</sup> وكان لهذا الكاتب صيت وأي صيت داخل سبته وخارجها حتى غمرت شهرته آفاق المشرق ونيس أدل على ذلك من ان ابن الصلاح (ت عام 642 هـ/1244) قد استفاد منه<sup>(12)</sup>

ومن هذه الكتب أيضا كتاب (معرفة أنواع علم الحديث) لابن الصلاح ومن درسوه الحافظ محمد بن محمد الكتامي الشهير بابن الخضار (ت عام

(11) انظر مقدمة الاماع ص 30 — طبعة دار التراث.

(12) منه التنبكتي (أحمد) نيل الانتهاج ج 214، 215

727 هـ/1326 م) وكتاب الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار) محمد بن موسى الخازمي (ت عام 584 هـ/1188 م): وقد تولى تدريسه خلف بن عبد العزيز الغافقي.

وأولاً وأخيراً وجملة وتفصيلاً بعد هذا فإن إلقاء نظرة سريعة على الفهارس والبرامج التي ألفها السبتيون تكفي لاستخلاص الصورة الحقيقية لملاحة الحياة العقلية والعلمية في عصر مؤلفيها، كما تكفي لاستخلاص الصورة الحقيقية للنهضة الحديثة في عهدهم ونظم التعليم المتبعة حينذاك في تلقي المعارف التي عملت هذه الفهارس على تصويرها خير تصوير، ومن هذه الفهارس أو البرامج برنامج فهرس القاضي عياض وبرنامج الرعيني (ت عام 666 هـ/1267 م) وبرنامج التجيبي.

فالقرن السابع الهجري في سبته كان يخفل بحركة حديثة مباركة تجلت في نبوغ أعلام وتأليف كتاب ودراسة مصنفات حديثة وفي هذا المناخ الحديثي تنفس القاسم بن يوسف التجيبي رواح ينهل ويأخذ ويعطي فتمثلت فيه براعة الرواية ومهارتها بجانب ابن رشيد (ت عام 721 هـ/1321 م) الذي كان هو الآخر يمثل الريادة في هذا العصر.

### حياة التجيبي وآثاره

(670 — 730 هـ = 1271 — 1329 م)

#### المولد والنشأة

فتح عينيه على سبته في حدود عام 670 هـ موافق 1271 م، كما أكد هو بنفسه ذلك في البرنامج خلافاً لمن ذهب إلى أن ذلك كان عام 665<sup>(12)</sup> والمعول على ما أثبتته هو لنفسه لا ما أثبتته غيره<sup>(13)</sup>.

ينحدر من ارومة اندلسية عربية صميمة فهو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي بن القاسم التجيبي ينسب إلى (تجيب) بضم التاء<sup>(14)</sup> وهي بنت ثوبان بن

(13) انظر البرنامج ص 64

(14) انظر الذهبي (محمد) المشتبه في الرجال. اسمائهم وأنسابهم ص 54 وقال إنه قد اختلف في ضمها

سليم من مدحج واليه ينسب التجيبيون الذين نزلوا الأندلس ودارهم بها سرقسطة ودروقة وقلعة أيوب، فنسبتهم إلى امرأة لا إلى قبيلة كما ذهب إلى ذلك الامام الذهبي. وحقق هذه النسبة الامام ابن حزم<sup>(16)</sup>

شبَّ التجيبي في أحضان سبته، وترعرع في أكتافها، غير أن المصادر ضنت عليها بالتفصيلات عن مرحلة الطفولة هذه، إذ لانكاد نعرف عنه وعن أسرته في هذه المرحلة المهمة في حياته شيئاً، لكننا سرعان مانلقاه وهو في السادسة عشرة من عمره في المكاتب القرآنية يتسابق بلهفة على حفظ القرآن كما يسابق عليه كل من يريد أن يغرف من نبع لا ينضب على مر السنين وتوالي الدهور.

### الدراسة

دخل التجيبي أول ما دخل المكتب القرآني للشيخ عبد الرحمان الورياغلي القصري المعروف بابن صاحب رزقه وعليه حفظ القرآن الكريم بقراءة نافع وهو أول من فتح لسانه بكتاب الله تعالى وسلك معه الطريق التكميلية المشهورة حينذاك والمعروفة لدينا منذ وقت قريب جداً وهي طريقة التعليم بواسطة اللوح الخشبي وبعبارة التجيبي نفسه «درسته بين يديه باللوح»<sup>(17)</sup> ومن هنا نستنتج انه التحق بالمكتب القرآني وهو طفل لا يطر شاربه بعد.

ثم حفظ جميع التنزيل الكريم بالروايات المشهورة على عبيد الله بن أبي الربيع وأكمل عليه (الكافي في القراءات السبع) عام 686 هـ وهو في سنته السادسة عشرة.

وانطلق التجيبي يختلف إلى الشيوخ لأخذ المعرفة وفي شتى النواحي فأخذ عن أبي العباس العزفي ومحمد بن عبد الرحيم القيسي (ت عام 701 هـ/1301 م) وغيرهما مما أخذ عنهم وكان لهم إسناده عال<sup>(18)</sup>.

ولم يقنع التجيبي بهذا فقط وهو يهوى الرواية ويريد أن يتوسع فيها فقد رحل

(15) انظر المصدر السابق ص 54

(16) جمهرة أنساب العرب ص 459

(17) انظر البرنامج ص 16

(18) انظر الوراكلي المراجع السابق ص 29



إلى الأندلس عام 694 فأخذ بمالقة عن أبي عبد الله بن عياش وعن غيره وبالمرية عن عبد الله بن شعيب القيسي.

ولم يقنع كذلك بهذه الرحلة فنزعت نفسه إلى القيام برحلة إلى المشرق، وهناك أخذ عن أشياء كثيرين وفي الرحل والبرنامج حديث عنهم طويل وعن كتبهم ومروياتهم كما سيأتي بعد لحظات إن شاء الله تعالى ومن أخذ عنهم الامام ابن دقيق العيد (ت عام 702 م / 1302 م) والحافظ عبد المؤمن التوفي (ت عام 705 هـ / 1306 م) والامام ابن تيمية (ت عام 728 هـ / 1328 م) هذا الامام الفذ الذي قدر التجيبي فقربه إليه وخصه بوصية<sup>(19)</sup> ويبدو أن من جملة ماورد في هذه الوصية نصيحته له بأن يكون على بينة من أن أنفع الكتب المصنفة النبوية صحيح البخاري يقول حاكيا ذلك. «وكان من جملة الوصية التي أوصاني بها التقي الفاضل أبو العباس ابن تيمية ان قال. ما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع عن صحيح محمد بن إسماعيل، وصدق ابن تيمية والله تعالى يفهمنا مافيه ويرشدنا إلى العمل به بمقتضاه بمنه وكرمه»<sup>(20)</sup>.

وبعد رجوعه إلى سبتة انصرف إلى التحديث فتقاطر عليه الناس يأخذون عن الرواية خاصة بعدما رحبت عنده آفاق الرواية وتعدد مشايخه، وفاضت معرفته. وكان مسجد وفاق ابن الشراك من المساجد التي يلتقي في رحابها بتلاميذه<sup>(21)</sup>.

### تلاميذه

أخذ عن التجيبي عدد غير قليل من اعلام العلماء منهم أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعيني الفاسي<sup>(22)</sup> ومحمد بن عبد المهيمن الحضرمي<sup>(23)</sup> (ت عام 787 هـ / 1385 م) وأبو الحجاج المتشاقري<sup>(24)</sup> وابن خميس الجزيري<sup>(25)</sup> وأبو

(19) توجد هذه الوصية بالخزانة التيمورية تحت رقم 314 فهرست الخزانة التيمورية 117/4  
(20) البرنامج ص 83 وعن الوصية كذلك يقول «وصية الشيخ الفقيه الامام العالم المفتن تقي الدين أبي العباس بن تيمية نفع الله له في جزء كتبه لي بخط يده المباركة ودفعه لي عند ازماعي المسيرة من دمشق وبالله التوفيق» البرنامج ص

(21) انظر بلغة الامنية ص 5

(22) فهرس السراج : 28

(23) المصدر السابق 155

(24) انظر ان الخطيب (لسان الدين) الاحاطة ج 4 ص 388

(25) المصدر نفسه ج 3 ص 185

## آثاره

للتجبي عملاقان يصوران جهده في الرواية والدراية خير تصوير هما (مستفاد الرحلة والاغتراب) و (البرنامج) أما الأربعون حديثاً في الجهاد فلا ذكر له الا في المصادر<sup>(27)</sup> — كما في علمنا — ولو كان هذا الكتاب بين أيدينا لأمدنا هو الآخر بجهده في الرواية وكذا في الدراية، إذ طبيعة هذا الكتاب تفرض مجهوداً في الرواية ومجهوداً في الدراية ان اقتضى الحال لاسيما ان التجبي مغرم بطريقة المحدثين في تتبع الاسانيد واستعمال أجود طرق التحمل.

أما مستدركاته على الدليل فهي عبارة — كما سبق الحديث — عن مجموعة تراجم اضافها للكتاب. فهي لاتكاد تمدنا بشيء في هذا الموضوع<sup>(28)</sup>.

## مستفاد الرحلة والاغتراب

عرف تراثنا الأدبي فنونا أدبية عبر امتداد الحضارة العربية وكان من بين هذه الفنون فن الرحلة، وقد تنوع فن الرحلة هذا فمنه مايمكن عده في قسم الرحلة الجغرافيا مثل كتاب المسالك والممالك لابن حوقل (ت بعد عام 367 هـ / بعد عام 977 م)، ومنه مايمكن عده في قسم الرحلة البحرية مثل مانجده في كتابي (آثار البلاد) وعجائب المخلوقات) للقزويني (ت عام 682 هـ / 1283 م) من أساطير عن عرائس البحر وغير ذلك، ومنه مايمكن عده في قسم رحلة الأمم والبلدان مثل رحلة ابن جبیر (ت عام 614 / 1217 م، ومنه مايمكن عده في رحلة قسم رحلة الأمم والبلدان وفي قسم الرحلة العلمية كما يسوغ لنا ان نسميها وهي التي يحاول الرحالة فيها تحقيق تطلعاته العلمية وذلك بالكشف والبحث عن المشاهد التاريخية ويحاول في الوقت نفسه إجراء الاتصال برجال العلم والفكر ورحلة تجبي من هذا الوادي.

ان رحلة التجبي تتميز — كما قلنا سابقا — من الرحلات الكشف والبحث

(26) المصدر نفسه ج 3 ص 199

(27) بلغة الأمانة ص 173

(28) انظر مقدمة الدليل والتكملة ص 1 وما بعدها السفر السادس ثم التراجم التي ألحقها التجبي بهذا الجزء صفحات 505 — 512 تحقيق الدكتور احسان عباس

لأنها تصور باحكام ما يصوره المؤرخ الرحالة من مشاهد تاريخية في القاهرة المعزية ومشاهد البلد الأمين.

والرحلة في الأصل ثلاثة مجلدات كما قال الامام ابن حجر في الدر الكامنة<sup>(29)</sup>، وأكدته التنبكتي في الابتهاج<sup>(30)</sup>، وهو ما ذهب إليه محققها الأستاذ عبد الحفيظ منصور<sup>(31)</sup>، وواقع الرحلة يشهد بذلك، لأنها تبتدي برحلة التجيبي للقاهرة المعزية وتنتهي برحلته إلى الحجاز ويعني ذلك ان الجزء الأول الذي يتحدث عن خروجه من بلده إلى مصر مفقود، ويعني هذا أيضا أن ما انتهى إلينا من الرحلة هو الجزء الثاني وبقية الجزء الثالث الذي يتضمن بقية أخبار التجيبي بالحجاز.

تستوعب الرحلة مشيخة التجيبي لكثير من العلماء وتقدم لنا مروياتهم وماسمعه منهم بأسانيد، ففي القاهرة أخذ عن الامام ابن دقيق العيد وعبد المومن التوفي، وفي البلد الأمين مكة المكرمة أخذ عن أبي محمد الخروي — وقد سجل في رحلته مرويات عديدة في مجالات شتى، في الحديث وعلومه، في التاريخ والأدب وفي علوم اللغة ومعاجم الرجال، ففي مجال الحديث البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجة والدارقطني، وفي مجال علوم الحديث المنتخب في معرفة علوم الحديث لخب الدين أحمد الطبري المكي (ت عام 722 هـ/ 1322 م) وفي مجال التاريخ والأدب (خلاصة سيد البشر ﷺ) لأحمد بن عبد الله الطبري المكي (ت عام 694 هـ/ 1295 م) وقصيدته في مدح الرسول ﷺ التي أسماها العقد الثمين في مدح سيد المرسلين وعدد أبياتها مائتان وعشرون بيتا وفي مجال علوم اللغة كتاب سبويه، وفي مجال معاجم المشيخة معجم عبد المومن التوفي، هذا باستثناء ما يرويه من كتب عن مشايخه وتصانيفهم في مختلف ميادين المعرفة، من ذلك كتاب (الاقتراح في بيان الاصطلاح) مأضيف إلى ذلك من الأحاديث المعدودة في الصحاح) للامام ابن دقيق العيد السابق الذكر، وكتاب فضل اتباع رمضان بست من شوال للتوفي السابق الذكر أيضا.

وتتخلل الرحلة اجازات علمية تحفه بها شيوخه، لكنه لم يورد نصوصها وانما اجتزأ بالاشارة إليها كقوله. « واجازنا الشيخ رضي الله عنه جميع ما يجوز عنه وله

(29) ج 3 ص 240

(30) ص 214، 215

(31) انظر المقدمة حرف ح



روايته وكتب لنا بذلك بخط يده انباركة مرات» (32).

على هذا النمط مضت الرحلة حافلة بأشتات المعارف، مما يجعلنا نصفها بأنها رحلة الأمم والبلدان ورحلة علمية في آن واحد — كما سبق الامام، ويسوغ لنا بعد هذا ان نصف هذه الرحلة في عداد الفهارس وان كانت لا تخضع للنظام العام لها فإنها بلا شك تتضمن أهم المقومات التي تقوم عليها الفهارس وهي الأشياء المرويات، وفي هذه الحالة يمكن أن ندعو الرحلة فهرسا للأسباب السالفة بالاضافة إلى أن المدلول اللغوي لكلمة فهرس نفسه يعضد ذلك لكونه يعني الكتاب الذي تجمع فيه الكتب (33).

والرحلة كما لا يخفى حافلة بالكتب على اختلاف مضامينها وتنوع محتوياتها، ولسنا نبالغ إذا قلنا انها مكتبة تحفل بكثير من ألوان الكتب.

مهما يكن من أمر فقد أخذنا صورة عن مضمون الرحلة أو مايمكن أن نسميه فهرسة الرحلة واستطعنا بذلك أن نتعرف على افاق الرجل العلمية

### البرنامج

البرنامج في الأصل الورقة الجامعة للحساب وهي فارسية (34) وأصبحت تطلق على كتاب يسجل فيه العالم ماقرأه من مؤلفات في مختلف العلوم ذكرا عنوان الكتب واسم مؤلفه والشيخ الذي قرأه عليه أو تحمله عنده وسنده إلى المؤلف الأول إلخ» (35).

والبرنامج لا يخرج عن الفهرس في مفهومه الاصطلاحي وقد ولع علماء الأندلس والمغرب بهذا الصنف من الانتاج المفيد والطريف في وقت واحد، وقد تباينت كتب البرامج أو الفهارس في الطرق المنهجية المتبعة في التعامل مع المادة التي يحتويها تبويبا وترتيبيا وعناية بالمرؤى واهتماما بالشيخ، ومع ذلك يمكن حصر مناهج اصحاب هذه الفهارس في عرض موادهم في الطرق الثلاثة الرئيسية.

(32) ص 51

(33) انظر ابن منظور (محمد) لسان العرب ج 2 ص 1140 عمود 2

(34) انظر المعجم الوسيط احرجه إبراهيم مصطفى وآخرون ج 1 ص 52

(35) انظر الأهواني (عبد العزيز) بحث كتب برامج العلماء في الأندلس مجلة معهد المخطوطات العربية ج 1 ص 91 سنة 1955 ونشر في فصلة على حدة مع برنامج ابن أبي الربيع



## الطريقة الأولى

تعتني هذه الطريقة بذكر الكتب بحسب موضوعاتها فتكون الأولوية بالتقدير في هذه الطريقة بالطبع لعلوم القرآن الكريم والقراءات والناسخ والمنسوخ وبلي ذلك في الترتيب الحديث وعلومه وهكذا.

## الطريقة الثانية

يهتم بالشيوخ والتعريف بهم وخلال ذلك يسرد صاحب الفهرس المرويات والكتب وعلى ذلك يتم تبويب الفهرس في هذه الطريقة على حسب أسماء المشايخ.

## الطريقة الثالثة

تجمع بين الطريقتين المذكورتين، وذلك بذكر المرويات من الكتب وذكر الشيخ فالفهرس حينذاك يصبح مؤلفاً من جزئين جزء للمرئيات وجزء للشيوخ مثل برنامج أبي عبد الله محمد بن جابر الوادياشي التونسي (ت عام 749 هـ/1348 م)<sup>(36)</sup> وفهرسة محمد ميارة الفاسي (ت عام 1072 هـ/1661 م) فأى طريقة لحبا برنامج التجيبي من بين هذه الطرائق ؟

إن برنامج التجيبي يترسم الطريقة الأولى وهي الاعتماد على ذكر الكتب بحسب موضوعاتها، وقد نهج التجيبي في عرض مواد — مروياته في برنامجه على النحو التالي.

### 1 — علوم القرآن :

ذكر التجيبي حين تعرض لمروياته علوم القرآن مصنفات كثيرة في القراءات والتجويد والتفسير واعراب القرآن نورد من بينها في مجال القراءات والرسم كتاب (الكافي) لمحمد بن شريح الرعيني (ت عام 476 هـ/1084 م) وكتاب (التيسير) لعثمان بن سعيد المعروف ابن الصيرفي (ت عام 444 هـ/1053 م).

### 2 — الحديث وعلومه<sup>(38)</sup>

تحتل مصنفات الحديث وعلومه بالاضافة إلى كتب السيرة النبوية والمغازي

(36) مخطوط يقسم المخطوطات بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم 762 و 144

(37) انظر البرامج ص 33 وما بعدها.

(38) انظر البرامج ص 52 وما بعدها

مساحة شاسعة في البرنامج إذ يبلغ عدد ذلك مائة وثمانين مصنفًا وقد رتبت هذه المصنفات بحسب طبيعة الموضوع فقدم الامهات من تأليف الحديث. مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم ومثل مسند ابن حنبل ( ت عام 241 هـ/855 م ) وهكذا.

وغالب هذه المصنفات مشرقية مما أخذ عن شيوخه. في المشرق، والقلة منها مغربية ك بعض مصنفات القاضي عياض ومصنفات ابن القطان الفاسي ( ت عام 628 هـ/1230 م ).

### 3 — معاجم الشيوخ والفهارس والبرامج<sup>(39)</sup>

ذكر التجيبي من هذا الصنف من التأليف ثمانية وعشرين مصنفًا كلها فيها من المعاجم إثنان ومن المشيخات تسع ومن الفهارس ثلاثة عشر ومن البرامج أربعة، وقد استهل كل ذلك بالحديث عن المعاجم ثم المشيخات ثم الفهارس وختمها بالحديث عن البرامج. وهذه المصنفات منها المشرقي ومنها المغربي الأندلسي فمن المشرقي مشيخة ابن الجوزي ( ت عام 597 هـ/1200 م ) ومن الأندلسي فهرسة ابن بشكوال ( ت عام 578 هـ / 1182 م )

### 4 — كتب الرقائق والحكايات والزهد<sup>(40)</sup>

ذكر التجيبي من هذا النوع ثلاثة كتب، من بينها كتاب (الرقائق) لعبد الله بن المبارك المروزي ( ت عام 181 هـ/797 م )

### 5 — كتب الوصايا

ذكر التجيبي من الوصايا خمسًا منها وصية النبي ﷺ لأبي هريرة ( ت عام 59 هـ 678 م ) ووصية القاضي أبي الوليد الباجي ( ت عام 474 هـ/1081 م )

### 6 — كتب التصوف<sup>(42)</sup>

أورد منها خمسة من بينها كتاب (أدب تصحبة) للسلمي ( ت عام 412 هـ/1021 م )

(39) المصدر نفسه صفحات 239 — 249

(40) المصدر نفسه ص 249 وما بعدها

(41) المصدر نفسه ص 252 وما بعدها

(42) المصدر نفسه ص 254 وما بعدها

## 7 - كتب التاريخ والرجال<sup>(43)</sup>

ذكر من هذه الكتب تسعة عشر منها مألوفة المغاربة مثل كتاب المنتقى في أسماء الأئمة المرضيين لابن خلفون (ت عام 636 هـ/ 1238 م) ومن المشاركة كتاب الضعفاء للبخاري.

## 8 - كتب الفقه أو أصوله والفرائض<sup>(44)</sup>

ساق من كتب الفقه وأصوله تسعة عشر جلها في الفقه المالكي من بينها كتاب التهذيب في اختصار المدونة لخلف بن القاسم البرادعي (ت عام 400 هـ / 1009 م).

وذكر من كتب الفرائض كتباً تنتمي لمؤلفين مغاربة أخص بالذكر منها (نهاية الرائض في خلاصة الفرائض) لجمال الدين الجدميوي الصودي كان قيض الحياة (عام 699 هـ/ 1299 م)

## 9 - كتب النحو واللغة والأدب<sup>(45)</sup>

عد التجيبي من كتب النحو خمسة في مقدمتها كتاب (سبويه، وعد من كتب اللغة والأدب نحو اثني وعشرين أخص بالذكر منها كتاب الكامل للميرد (ت عام 285 أو 286 هـ / 898 أو 899 م) وكتاب (الفصيح) لثعلب (ت عام 291 هـ / 903 م) وكتاب (اصلاح المنطق) لابن السكيت (ت كما قيل عام 243 هـ/ 857 م).

وبهذا ينتهي برنامج التجيبي وليس يعني إذا أن ماتحدث عنه من مرويات في كثير من حلائب المعارف ينحصر في ذلك فقط بل انه صرح ان ماقرأه وسمعه غير ما ذكر على غيره من ذكر كما تقول عبارته<sup>(46)</sup>.

---

(43) المصدر نفسه ص 258 وما بعدها

(44) المصدر نفسه ص 266 وما بعدها ص 274

(45) المصدر نفسه ص 277 وما بعدها

(46) المصدر نفسه ص 290

## الرواية والدراية عند التجيبي

### 1 - الرواية

هذا المصطلح عند أهل الحديث يعني النقل المحرر لكل ما أضيف إلى النبي ﷺ من أقوال وأفعال أو تقارير أو صفات وكل ما أضيف من ذلك كله إلى الصحابة والتابعين الرأي المختار<sup>(47)</sup>

والحديث عن الرواية يفضي بنا جزماً إلى أن نتعرف على مصطلح آخر وهو ما يسمى عند أصحاب هذا الشأن بطرق التحمل تلك الطرق التي ترسم منهج المحدثين في التعليم والتي تنحصر في ثمان<sup>(48)</sup> نورها مرتبة بحسب مكانة كل واحدة.

### السماع

هو أن يسمع المتحمل ما يقرأه عليه الشيخ من حديث من حفظه أو من كتاب ويختل مكانة الصدارة بين أنواع التحمل كلها كما عند جمهور أهل العلم. وقد لا يفرق جمهور من المحدثين بين (سمعنا) وبين (اخبرنا) وبين (أبأنا أو حدثنا) جرياً على ما توحى به الدلالة اللغوية وقد أثر عن الامام أحمد أنه قال — كما جاء عن الخطيب البغدادي في الكفاية<sup>(49)</sup> انه قال «حدثنا واخبرنا واحد» لكن نقده الحديث واطباء، يوثرون الالتزام باللفظ بحسب سماع المتحمل له تجنباً لكل التباس قد يقع في الرواية فإذا سمع قال سمعت وإذا قرأ قال قرأت وهكذا وهو ما يخرجه الخطيب البغدادي في الكتاب المذكور<sup>(50)</sup>

---

(47) انظر الزرقاني (عبد العظيم) المنهل الحديث في علم الحديث ص 33، وراجع موازنة هذا التعريف بتعريف ابن الاكفاني عند السيوطي (عبد الرحمان) تدريب الراوي في شرح تقريب الواوي ج 1 ص 40

(48) انظر هذه الطرق عند الخطيب البغدادي (أبو بكر) الكفاية في علم الرواية ص 271 وما بعدها والسيوطي تدريب الراوي ج 2 ص 8 وما بعدها والعراقي (عبد الرحيم) المستبصرة والتذكرة ج 2 ص 23 وما بعدها.

(49) ص 286

(50) ص 299



## 2 - القراءة

مدلول القراءة يعلن عنه اللفظ نفسه، إلا أن القراءة تكون من التلميذ على الشيخ حفظاً أو من كتاب ويسمى أكثر المحدثين عرضاً سواء كانت القراءة منك أو من غيرك وأنت تسمع، وسميت كذلك، لأن التلميذ يعرض قراءته على شيخه. ويذهب المحدثون إلى أن القراءة دون السماع خلافاً لمن يرى مستوياتها بالسماع كالإمام مالك وجميع علماء الحجاز والإمام البخاري، والجيد في مثال هذه الأمور ذكر القيد عند أداء الرواية كأن نقول «قرأت على الشيخ وهو يسمع أو حدث حدثنا الشيخ قراءة عليه» وهذا مانجد التجيبي قد سلكه في أداء الرواية كما سيأتي وشيكاً.

## 3 - الاجازة

هي باختصار غير محل إذن الشيخ تلميذه برواية مسموعاته أو مصنفاته ولو لم يسمعها منه أو يقرأها عليه<sup>(51)</sup>، مثل أن يقول الشيخ (أجزت لك رواية البخاري أو ما شتمل عليه فهرسي وهذا أعلى أضر بها المجردة عن المناولة، وتكون الاجازة مشافهة وكتابة على الأرجح.

## 4 - المناولة

هي إعطاء الشيخ تلميذه كتاباً أو حديثاً مكتوباً ليقوم بأدائه وروايته عنه ولها صور واجود صورها أن يناول الشيخ تلميذه الكتاب أو الحديث المكتوب ويقول له. «هذه روايتي أرو عني أو أجزت لك روايتي عني وهذه تدعى مناولة مع الاجازة، وصورة أخرى لها دون الأولى هي أن يدفع التلميذ لشيخه سماعه فيتأمله الشيخ وهو عارف متيقظ ويقول «أرو أو أجزت بك روايتي ويدعى هذا عرض المناولة»<sup>(53)</sup>

## 5 - المكاتب

هي أن يكتب الشيخ بخطه أو ينيب عنه من يكتب حديثه لمن يتلقى عنه العلم

(51) للاجازة أصناف عددها النووي في التقريب ج 2 ص 29

(52) انظر ابن كثير (إسماعيل) الباحث الحثيث في اختصار علوم الحديث ص 65

(53) انظر التدريب ج 2 ص 46 ويخلط البعض بين عرض القراءة وعرض المناولة وسبق أن

القراءة على الشيخ تسمى عرضاً

بين يديه أو من كان غائبا فيرسل إليه الكتاب ومع من له الثقة به، وهي نوعان  
أ — أن تكون الكتابة مقرونة بالاجازة وهي شبيهة في هذا بالمناولة المقترنة  
بالاجازة

ب — أن يكتب بغير إجازة وقد رفضها البعض<sup>(54)</sup> مع العلم أن أئمة هذا  
الشأن امثال البخاري ومسلم قد أخذوا بالمكاتبة وحدها، ذلك ان البخاري روى  
في كتاب الأيمان والنذور انه كتب إلى محمد بن بشار «واثبت حديثه»<sup>(55)</sup>

## 6 — اعلام الشيخ

يقصد بهذا النوع من التحمل اجتزاء الشيخ بأنباء تلميذه بأن هذا الحديث  
أو هذا الكتاب من مروياته سمعه من فلان من غير ان يصرح بإجازته له في أدائه

## 7 — الوصية

هي أن يوصي الشيخ قبل سفره أو موته بكتاب من مروياته لشخص بروايته  
عنه وقد روى هذا عن بعض السلف فأبو قلابة بن زيد الجرفي (ت عام  
104 هـ/722 م) أوصى بكتبه لايوب السخيتاني (ت عام  
131 هـ/748 م)<sup>(56)</sup>

والوصية تشبه الاذن والعرض والمناولة وتشبه أيضا الاعلام خلافا لابن الصلاح  
الذي لا يرى مشابة بين الوصية وبين غيرها مما ذكرنا<sup>(57)</sup>

## 8 — الوجادة

هي مصدر بكسر الواو من وجد وهو غير مسموع عن العرب، وقد اتفق  
المحدثون على استعماله في مجال آخر العلم من صحيفة أو كتاب من غير سماع  
ولا اجازة ولا مناولة أن يقول (وجدت) أو (قرأت) بخط فلان أو في كتابه بخطه  
حدثنا فلان ويأتى بالسند والمتن.

(54) اشترط الحافظ المحدث ابن حجر في قيام الحجة بالمكاتبة الا تحصل إلا إذا كان الكتاب  
مختوما وحامله مؤتمنا والمكتوب إليه يعرف خط الشيخ إلخ انظر الفتح ج 155.

(55) انظر الحديث في البخاري ج 7 ص 227

(56) انظر الترمذي المحدث العاجل بين الراوي والواعي ص 459 460 وانظر الذهبي حميد  
تذكرة الحفاظ ج 1 ص 88

(57) انظر علوم الحديث ص 167

تلك هي طرق التحمل الثمانية سقناها كلها لأجل أن نتعرفها — وإن لم يستعملها التجيبي جميعها، بل استعمل جلّها — فنستطيع أن نخلق في آفاق الرواية التي تحتويها الآثار التجيبية ونستطيع كذلك فحص هذه الآثار حينذاك فحسباً تطمئن إليه النفس وتركن إليه القلب فلا تتعثّر أثناء السير نتيجة الجهل بالوسائل التي تتوسع بها مناهج الرواية وتحقق بها مقاصدها ومراميها.

### طرق التحمل المستعملة في (مستفاد الرحلة والاغتراب)

سبق منا الحديث عن الرحلة وما تضمنته من مسموعات ومرويات، ونود الآن أن نستجلي طرق التحمل التي استخدمها التجيبي فيها واستطاع بها أن يحقق ما يحقق من مرويات في شتى مجالات المعرفة مسنداً ذلك بالطريقة المتبعة لدى المحدثين.

#### 1 — السماع

لقد استعمل التجيبي صيغة التحمل (سمعت) في غير مامكان من رحلته، من ذلك سماعه صحاح الإمام مسلم عن شيخه التونسي قال «وسمعت عليه أحاديث من صحاح الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى» (58).

وأما استخدامه صيغة التحمل (اخبرنا) — وهي على رأي توازي صيغة التحمل (سمعت) — فقد وردت عنده في الرحلة مرات ومرات كثيرة، بيد أن هناك ملحظاً فريداً نقع عليه أثناء تعامله مع هذه الصيغة هو أنه حين يقول (اخبرنا) يؤكد هذا الاخبار بقيد يشعر به أن ذلك كان منه سماعاً، بلا شك، لأنه يعلم أن إطلاق هذه الصيغة قد يوقع في الالتباس فيظن من يظن أن الاخبار لم يكن سماعاً وإنما كان اخباراً لأن (اخبر) ليست في قوة (سمع) التي هي أجود صيغة في هذا المقام كما نص عليه الخطيب البغدادي (59).

لذا حاول التجيبي أن يكون يقظاً حذراً في الاضطلاع بالتحمل والأداء يقول في رواية الحديث «أنا الرحمان خلقت الرحم وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بته» و اخبرنا الشيخ الفقيه الامام المفتي رضي الدين أبو إسحاق

(58) الرحلة ص 50 تحقيق عبد الحفيظ منصور

(59) انظر الكفاية ص 284

إبراهيم بن محمد المكي قراء عليه وأما اسمع بالحرم الشريف» (60)

ويقول في رواية الحديث السالف مستعملا (أخبر) قيدا يفيد ان الاخبار كان عن مشافهة «أخبرنا ناصر الدين ابن القواس المعمر شفاها بدمشق عن أبي إسحاق الكندي إلخ» (61).

وأحيانا يستخدم التجبي صيغة التحمل (أنبأنا) وهي صيغة أخرى يستعملها المحدثون ويرى البعض انها بمنزلة (أخبرنا) (62) من ذلك قوله راويا حديثا «ما اجتمع قوم على ذلك الا حفتهم الملائكة إلخ» «أنبأنا الصوفي المسند أبو المعالي أحمد بن إسحاق القرافي قال أخبرنا الشيخ الجليل أبو بكر عبد الله بن محمد بن سابور القلانسي بقراءة والدي عليه وأنا حاضر إلخ» (63)

## 2 - القراءة

لقد ترددت صيغة التحمل (القراءة) في غير ما موضع من الرحلة يقول عند حديثه عن شيخه بهاء الدين ابن النحاس (ت عام 698 هـ/ 1298 م) «وقرأت عليه أيضا مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه من مسند عبد بن حميد الكشي رحمه الله إلخ» (64) ويقول عند حديثه عن شيخه عثمان التوزري (ت عام 713 هـ / 1313 م) «قرأت عليه امتع الله ببقائه ونفعنا بصالح دعائه واعاد علينا بركاته من أول الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وإيامه تصنيف امام صناعة الحديث بلا مدفعة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي إلخ» (65).

## 3 - الاجازة

ترددت صيغة التحمل (الاجازة) أيضا في غير مامكان من الرحلة منه قوله وقد سبق جزء منه حين الحديث عن القراءة «وأجازنا سائرهم بسماعه كاملا

(60) الرحلة ص 109

(61) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(62) انظر تدريب الراوي ج 2 ص 8 وما بعدها

(63) انظر الرحلة ص 160

(64) المصدر نفسه ص 84

(65) المصدر نفسه ص 425



يُحلب<sup>(66)</sup>، وقوله قرأت عليه — أي ابن النحاس — من أول جزء أبي الجهم العلاء بن عطية الباهي رحمه الله تعالى إلى قوله أحاديث نافع عن ابن عمر «أجازنا سائرُه بحق سماعه لجميعه من أبي المنجي ابن التي المذكور بسماعه من أبي الوقت إلخ»<sup>(67)</sup>.

#### 4 — المناولة

نعثر بين الحين والآخر في الرحلة على صيغة التحمل (المناولة)، ولكنها لا تتكرر بالصورة التي تتكرر عليها الصيغ السالفة، ذلك لأن هذه الصيغة لا ترقى في قوتها إلى مستوى قوة الصيغ الأخرى التي مرت بنا، وهذا يفسر لنا سبب إثارة التجيبي الاكثار من توظيف صيغة تحمل معينة على صيغة تحمل أخرى، ومن ذلك قوله في معرض الحديث عن رواته عن شيخه ابن النحاس «وقرأت أيضا عليه بعضا من كتاب امام النخاعة أبي بشر عمرو بن عثمان قنبر، مولى بني الحارث بن كعب بن عمر بن علة بن جلد بن مالك بن أد بن زيد الملقب سيبويه» إلى أن يقول وناولنا سائرُه بحق قراءته لجميعه بدمشق على الامام علم الدين أبي القاسم بن موفق اللدرقي»<sup>(68)</sup>.

#### 5 — المكاتب

لا تخلو الرحلة من صيغة المكاتب، غير انها لا تتكرر فيها على الشكل الذي تتكرر عليه الصيغ المتقدمة، ذلك للأسباب التي ذكرناها منذ لحظة، ومما ورد منها قوله متحدثا عن روايه حديث «اللهم اني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنظر» «وكتب إلينا أبو طالب عبد اللطيف بن محمد البغدادي قال أخبرنا محمد بن عبد الله الحراني إلخ»<sup>(69)</sup>.

#### 6 — الوجادة

من هذا النوع قليل في الرحلة بالموازنة إلى ماسبق من الصيغ الأخرى، من هذا بديهي إذا تذكرنا ما قلناه سابقا عن مراتب صيغ التحمل، ومن ذلك قوله

(66) المصدر نفسه ص 84

(67) المصدر نفس والصفحة نفسها

(68) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(69) انظر الرحلة ص 395

مستعملا صيغة التحمل (وجدت) عند حديثه عن البيت الحرام، «ومما يشبه هذا ويلتحق به ما وجدته عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سفيان بن عينة رحمه الله دخل هشام بن عبد الملك الكعبة فإذا هو سالم بن عبد الله فقال به ياسالم سلني حاجة فقال له اني لأستحيي من الله ان أسأل في بيت الله غير الله فلما خرج في اثره قال له الآن قد خرجت فسلني فقال له سالم من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ فقال من حوائج الدنيا فقال له سالم. ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها» (70)

ومنه قوله مستعملا صيغة (قرأت) وتعني (وجدت) لقرينة تقيدها وتدل عليها وذلك عند حديثه عن البيت الحرام أيضا» وقرأت في كتاب المزاح والجوابات تأليف أحمد بن طاهر رحمه الله في نسخة ذكر كاتبها انه محمد بن شبيب وانه فرغ من نسختها في سنة ست وثمانين ومائتين قال وقال سليمان بن عبد الملك لطاوس وهو معه في الكعبة سلني حوائجك قال لأسأل في بيت الله إلا الله والله تعالى أعلم» (71).

### طرق التحمل المستعملة في البرنامج

سلف الحديث منا عن البرنامج في مضمونه وترتيبه وطريقة تعامله من المادة التي يحتويها والمنهج الذي اتبعه في ذلك.

والآن نود أن نتبع طرق التحمل التي وظفها التجيبي في برنامجه فحقق بها ماحقق في مجال الرواية

### 1 - السماع

يخفل البرنامج بصيغة (سمعت) بصورة ملحوظة وملحوظة جدا، إذ قد تجد هذه الصيغة تتكرر في صفحات متواليات ففي صفحة 57 يقول عن (الموطأ) «وسمعت جميع هذا الكتاب أيضا من أوله إلى آخره على الخطيب الصالح أبي عبد الله بن الصالح رحمه الله ببجاية بعد أن قرأت عليه ابعاضا منه»

وفي صفحة 58 يقول عن الكتاب نفسه «وسمعت جميع هذا الكتاب كاملا

(70) انظر المصدر نفسه ص 266

(71) المصدر نفسه والصفحة نفسها

بشعر سبته المخروس على المقرئ أبي القاسم بن عبد الرحيم العبسي رحمه الله تعالى»  
وفي صفحة 59 يقول عن الكتاب نفسه كذلك «وسمعت أيضا طائفة من  
هذا الكتاب على العدل الحاج الفاضل أبي محمد عبد المهيم بن عبد الله الناصري  
الغرضي المعروف بالجزيري رحمه الله تعالى في سنة تسع وثمانين وستائة»

كما يحفل البرنامج بصيغة (اخبرنا) لكن التجيبي. وقد سبق الايماء إلى ذلك —  
يقيد الأخبار بقيد دفعا لكل وهم والتباس حتى تكون روايته متحرية الوضوح  
يقول راويا ماورد من إشادة عن (الموطأ) «وأخبرنا الشيخ التاريخي أبو عبد الله  
الكتامي سماعا عودا بعد بدء»<sup>(72)</sup>

ويقول متحدثا عن الكتاب نفسه مستعملا كذلك صيغة (اخبرنا) ويقيد يفسر  
ويوضح وهو المشافهة «وأخبرنا بجميع هذا الكتاب الامام العلامة النسابة أعجوبة  
زمانه في ذلك شرف الدين أبو محمد التونسي فما شافهنا به من اذنه مرات»<sup>(73)</sup>

ويقول كذلك مستخدما صيغة (حدثنا) وهي من الصيغ التي تفيد السماع  
وذلك عندما يروي لنا قراءته كتاب شمائل الترمذي (ت عام 279 هـ/ 892 م) «  
وحدثنا به أبو عبد الله بن صالح المذكور عن أبي الحسين بن السراج الأنصاري  
المسند رحمه الله سماعا لبعضه ومناولة لسائره إن»<sup>(74)</sup>

## 2 — القراءة

تكثر صيغة (قرأت) في البرنامج بصورة ملحوظة جدا وهو يؤكد ان التجيبي  
يؤثر استخدام الصيغ القوية في التحمل والأداء، ففي روايته قراءة جامع الترمذي  
يقول «قرأت طائفة من هذا الجامع وذلك من قول المصنف باب ماجاء في النوم  
عن الصلاة إلى قوله ابواب الاضاحي على الشيخ الفقيه الامام الصالح مفتي الحرم  
الشريف وامام المقام رضي الدين أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الطبري ثم المكي  
نفعنا الله تعالى به»<sup>(75)</sup>، وفي روايته قراءته كتاب الالماع إلى معرفة أصول الرواية  
والسماع للقاضي عياض يقول «قرأت جميعه على الشيخ الحسيب والأصيل الحافظ

(72) البرنامج ص 62

(73) المصدر نفسه ص 65

(74) المصدر نفسه ص 111

(75) المصدر نفسه ص 100

أبي الظفر ابن الشيخ الأجل الوزير القائد أبي عمر وابن الفقيه أبي محمد الكلبي» (76)

### 3 - الاجازة :

لاتكاد العين تخطيء صيغة الاجازة عبر البرنامج كله، إذ نلاحظ التجيبي وهو يروي عن شيخه يقرن بالنص على إجازته له وذلك في مثل قوله متحدثا عن روايته كتاب، (المسند الصحيح من المختصر من السنن) للامام مسلم «وسمعت أيضا يسيرا من هذا المسند الصحيح على الشيخ الامام العلامة النسابة أعجوبة زمانه في ذلك شرف الدين أبو محمد التوفي واجازنا سائر الكتاب جملة» (77)

وقد لا يقرن روايته بالاجازة، إذ يجعلها منفصلة عن غيرها قائمة الذات مثل قوله «واجازنا هذا المسند جملة الفخر أبو عمرو التوزري وشمس الدين أبو عبد الله الأنصاري الجباني نزिला مكة المعظمة نفع الله بها والشهاب اللخمي نزيل دمشق» (7)

### 4 - المكاتبه :

نقل صيغة المكاتبه في البرنامج بالقياس إلى الصيغ السابقة، من ذلك ارجوزة في القوافي كتبها له بخطه الأديب أبو بكر القللسوسي يقول فذلك «جزء ضخمة تحتوي على أرجوزة حسنة في القوافي من نظم الأديب أبي بكر القللسوسي المذكور رحمه الله وهي الموسومة بالنكت المستوعبة سمعت جميعها أيضا من لفظه وكتبها لنا بخط يده» (79)

### 5 - المناولة

إن المناولة قليلة في البرنامج بالنظر إلى ماسبق من حديث عن صيغ التحمل، ومما ورد من ذلك حديثه عن كتاب (بيان المنن على قارئ الكتاب والسنن)، وجزء فيه تخريج طرق أبي القاسم ابن الطيلسان عن شيوخه في القراءات وقراءة

(76) المصدر نفسه ص 143

(77) المصدر نفسه ص 88

(78) المصدر نفسه ص 88

(79) المصدر نفسه ص 276



يعقوب من تأليف الخطيب أبي القاسم القاسم بن محمد ابن الطيلسان (ت عام 642 هـ/1244 م) يقول عن جميع ذلك «وتناولت جميعها من يده»<sup>(80)</sup>

ومن ذلك أيضا حديثه عن قراءته بعضا من كتاب (الضعفاء) للبخاري ببجاية علي ابن صالح يقول «وناولنا سائرهم في نسختي منه أصل أبي علي الصدفي الشهيد رحمه الله تعالى»<sup>(81)</sup>

هكذا نكون قد ترسمنا وجود تحمل الرواية عند التجيبي من خلال النماذج التي قدمناها من عملية الرحلة والبرنامج وهكذا استطعنا أن نتأمل معرفة في هذا المجال وتحريره التحكم في اختيار الوجوه المناسبة في تحمل الرواية مما يعطي روايته قوة ويضفي عليها الصفة العلمية الجادة ويبقى لنا بعد هذا محاولة الكشف عن دراسة التجيبي في مروياته، وبذلك تكتمل لدينا مصارفه الحديثية في مجالي الرواية والدراية، إذ لا يعقل أن تكون هناك رواية دون أن تقترن بدراية فالأمران مرتبطان ارتباطا الشرط بالجواب كما تقول العبارة النحوية.

## ب - الدراية

الدراية في الحديث تعني المباحث التي تعرف بواسطتها حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد، فحال الراوي هي معرفة حاله من حيث تحمله الرواية وتعديله وحياته بما تشتمل عليه شؤونه مما يتصل به مولدا وموطنا ووفاة.

وحال المروي هي ما يتعلق بشروط الرواية حين تحملها وبالاسانيد اتصالا وانقطاعا واعضالا ويمكن تلخيص ما يتضمنه علم الحديث دراسة بأنه علم الجرح والتعديل وعلم رجال الحديث وعلم مختلف الحديث وعلم غريب الحديث وعلم علل الحديث وعلم ناسخ الحديث وفنونه وعلم شروط الراوي وعلم أقسام الحديث ويدخل فيه الاسناد العالي.

وتسمية هذا العلم بعلم دراية الحديث وعلم الحديث دراية جاءت متأخرة بعد عصر الخطيب البغدادي، إذ كان يطلق عليه علم أصول الحديث وعلوم الحديث<sup>(82)</sup> وذلك حين ظهر التدوين وشاع التصنيف ولم تعد بحوث علم

(80) انظر تفصيل ذلك في البرنامج ص 46

(81) انظر بقية الرواية في المصدر السابق

(82) انظر مقدمة تدريب الرأي ص 9

الحديث كما كانت في مرحلتها المبكرة أنواعا مختلفة يجمعها اسم واحد.

فماذا بعد هذا عن دراية التجيبي في هذا المضممار ؟ لقد كان التجيبي مولعا بالحديث وعلومه وإن رحلته وبرنامجه ليؤكدان هذا الولع ويعكسانه، ذلك أنه روى بسنده المتصل الكثير من كتب السنة ومن كتب الصناعة الحديثية مما سبق الاماء إليه كما روى سنده المتصل أحاديث وأحاديث

### في علم الرجال

علم الرجال علم نعرف به رواه الحديث وأول من اشتهر بهذا العمل بالاشتغال بهذا العمل الامام البخاري وللتجيبي في هذا الميدان جولات لاغبار عليها، في الرحلة ساق بسنده المتصل عن شيخه التوني عن محمد بن السائب بن بركة عن أمه قالت. كنت مع عائشة رضي الله عنها في الطواف فذكروا حسان فوقعوا فيه فنهتهم عنه وقالت أليس هو الذي يقول.

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء<sup>(83)</sup>

فقال معرفا «بمحمد السائب» محمد السائب بن بركة من أهل مكة وثقه يحيى بن معين وغيره وترجمته عن أمه عن عائشة في ترجمته حسنة محفوظة أخرجه ابن ماجه والترمذي وصححها وقد روى مسلم هذا الحديث بطوله في كتب الفضائل من مسنده الصحيح<sup>(84)</sup>.

وساق التجيبي بسنده المتصل الحديث الذي رواه مسلم في كتاب الأطعمة عن عبد الله بن بسر قال «نزل النبي ﷺ على أبي فقرنا إليه طعاما ووظيفة فأكل منها ثم أتى بتمر فكان يأكله ويلقي النوى بين أصابعه ويجمع السبابة والوسطى ثم راح التجيبي يعلق على ماجاء في كلام شيخه التونسي في شأن عبد الله بن بسر قال «قال شيخه التوني نفعا الله من بركاته أن آخر من بقي بالشام من أصحاب النبي ﷺ عبد الله بن بسر هو الصحيح الذي عليه الجمهور خلافا لمن قال ان آخر من مات بالشام من أصحابه ﷺ أبو امامة الباهلي ثم يفصل ماقاله شيخه عن أخت عبد الله بن بسر قائلا «والصماء بنت بسر المذكورة اسمها بهية وقال الدارقطني بهيمة بزيادة ميم وهي أخت عبد الله بن بسر كما ذكره شيخنا

(83) هذه القصيدة مشهورة في الأدب العربي وتجدها في ديوانه ص 7 ومابعدا دار صادر بيروت

(84) انظر الرحلة ص 55

شرف الدين خلافاً لأبي عمر بن عبد البر الحافظ فإنه قال بسر والد عبد الله ليس من الصماء في شيء ومقاله أبو عمر رحمه الله ليس بشيء. وقد ذكر بسرًا وبنيه غير واحد من أهل العلم منهم أحمد بن محمد بن عيسى البغدادي في تاريخه من أهل حمص قال عبد الله بن بسر وعطية بن بسر والصماء بنت بسر اسمها بنية وأبوهم بسر أهل بيت أربعة صحبوا النبي ﷺ وبالله التوفيق (85)

على هذا النمط يمضي التجيبي في التعريف ببعض الرجال وقد يتعرض أحياناً لتصحيح بعض اغلاط الحفاظ كما رأينا ذلك جلياً عند تعرضه لما قاله ابن عبد البر في شأن (الصماء) وهذا يدل على اطلاعه وتمكنه في هذا المجال.

### في علم الجرح والتعديل

هو علم يبحث فيما يتعلق بالرواة يجرحهم أو يزيحهم بألفاظ مخصوصة (86) وعندما نستعرض البرنامج نجد التجيبي عند روايته كتاب سيرة رسول الله ﷺ محمد بن إسحاق ابن يسار المدني (ت عام 151 هـ / 768 م) يتعرض لما قيل في ابن الجباب قائلاً «ورجال هذا الإسناد كلهم ثقات وسماع بعضهم من بعض صحيح مغرور غير أن سماع ابن الجباب قال فيه بعض أهل العلم الحديث أنه كان بقراءة كذاب وأثبت سماعه وصححه بعض أهل الحديث وهو الذي تركز إليه النفس وبالله التوفيق (87) ثم يستدل بعد ذلك بما يبيِّن اخبرنا العز أبو الفدا الصاكي فيما شافها به نحن أذنه عن الحافظ أبي بكر بنت عبد الغني البغدادي المعروف بابن نقطة قال في ترجمة أبي البركات ابن الجباب من إكمالهِ. وسمعت الحافظ أبا محمد عبد العظيم المنذري يتكلم في سماعه لكتاب السيرة ويقول أنه بقراءة يخفى بن علي إمام مسجد عيثم وكان كذاباً ثم قدمت دمشق ذكرت ذلك لأبي الطاهر إسماعيل بن الأنماطي قراءته بثبت سماعه ويصححه فالله تعالى أعلم» (88).

ونجد التجيبي في البرنامج حين يتحدث عن كتاب (الشفاء) للقاضي عياض وعن

(85) المصدر نفسه ص 67 — 69

(86) انظر التبصرة والتذكرة ج 2 ص 2 وما بعدها وانظر معه الانصاري زكريا فتح الباقي ج نفسه و ص نفسها وانظر الراوي ج 1 ص 341 وما بعدها

(87) انظر البرنامج ص 131

(88) انظر البرنامج ص 131



سماعه له يتعرض لإجازة أبي محمد عبد الله الأنصاري المعروف بابن حكم والتنبه على أن شيخه ذاك اختلط عقله وأخبر فيما بعد أن رجع إلى وعيه يقول «وكانت إجازة الشيخ أبي محمد في منذ سنين عديدة باستدعاء صاحبنا الصالح الفاضل أبي عبد الله الغماري نفع الله به والشيخ يومئذ جميع قبل أن يحول ذهنه ويتغير ويظهر به ما ظهر».

ومن الاتفاق الغريب أن بعض أصحابنا أخبرني عما قريب أن الشيخ أبا محمد المذكور قد عاد إلى فهمه وحسه وإن يومه في ميزه خير من أمسه» (89)

ونجد التحيي أيضا في البرنامج عند حديثه عن جامع الترمذي وعمن رواه يتصدى للتعريف بأبي العباس المحبوبي وتوثيقه يقول ناقلًا عن السمعاني «ولد أبو العباس سنة تسع وأربعين ومائتين وتوفي في رمضان سنة ست وأربعين وثلثمائة وثقة الحاكم أبو عبد الله الحافظ وغيره روى عنه أبو العباس المعداني وأبو عبد الله الحضري وأبو سعيد الكرابيسي وأبو عبد الله بن منده والحاكم أبو عبد الله بن البيع وغيرهم من الكبار ويقال أن المحبوبي كان إذا دخل رجب تصدق بمائة ألف وفي شعبان بمائتي ألف وفي رمضان بثلثمائة ألف انتهى ما ذكر أبو بكر السمعاني» (90)

### في الاسناد العالي النسبي

الاسناد هو رفع الحديث إلى قائله وقد يستعمل الاسناد ويراد به السند (91) والاسناد العالي نوعان: العالي المطلق والعالي النسبي فالمطلق ما قرب رحاب سنده من الصحيح من رسول الله ﷺ لقلة عددهم إذا قيسوا بسند آخر يجيء في الحديث نفسه بعدد أكثر (92)، أما النسبي فهو ما قرب رجال سنده من امام من أئمة الحديث كالك وشعبة بن الحجاج (ت عام 160 هـ/776 م) وسواهما أو قربوا من أحد الكتب الستة لا المعروفة كالموطأ وغيره وسمي هذا النوع نسبيا

(89) المصدر نفسه ص 139

(90) المصدر نفسه ص 108

(91) انظر تدريب الراوي ج 1 ص 40 وما بعدها وتعريف السند هو الاخبار عن طريق المتن أي سلسلة الرواة الذين نقلوا الحديث مصدره

(92) انظر القاسمي (جمال الدين) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ص 108



لأن علوه إضافي وليس حقيقياً وهو على أربعة أقسام : الموافقة والبدل والمصافحة.

### 1 - الموافقة

هي أن يروي المحدث حديثاً في أحد الكتب الستة مثلاً بإسناده لنفسه من غير فيلتقي مع أحد الستة في شيخه مع عدم هذه السبيل ولو أنه رواد من سبيل أحدهم لراد عدد رجال السند ولقد ضرب لذلك مثلاً الامام الحافظ ابن حجر فقال ان يروي البخاري عن قتيبة عن مالك حديثاً فلو رويناه من طريقة كان بيننا وبين قتيبة ثمانية ولو رويناه ذلك الحديث بعينه من طريق أبي العباس السراج عن قتيبة مثلاً لكان بيننا وبين قتيبة فيه سبعة فقد حصلت لنا الموافقة مع البخاري في شيخه بعينه مع علم الاسناد إليه» (٩٣)

### 2 - البدل

هو أن نتوصل إلى شيخ شيخ المؤلف — يعني مؤلف الكتاب — من غير سبيله ومثل لذلك الحافظ ابن حجر قائلاً «كأن يقع ذلك الاسناد عينه من طريق أخرى إلى القعني عن مالك بدلاً فيه عن قتيبة» (٩٤)

### 3 - المساواة

هي تساوي عدد الاسناد من الحد إلى آخر السند مع إسناد أحد المصنفين وقد مثل لذلك الحافظ ابن حجر قائلاً «كأن يروي النسائي حديثاً يقع بينه وبين النبي ﷺ فيه أحد عشر نفساً فيقع لنا ذلك الحديث بعينه بإسناد آخر إلى النبي ﷺ يقع بيننا فيه وبين النبي ﷺ أحد عشر نفساً فساوى النسائي من حيث العدد مع قطع النظر عن ملاحظة ذلك الاسناد الخاص» (٩٥).

### 4 - المصافحة

هي الاستواء مع تلميذ ذلك المصنف ويعني ذلك أن يروي الراوي بإسناده

(٩٣) شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر ص 31

(٩٤) المصدر نفسه الصفحة نفسها

(٩٥) المصدر نفسه ص 32

فيقع عدد رجال الاسناد زائدا عن عدد رجال المصنف<sup>(96)</sup> ويكون الزائد رجالا واحدا وحينذاك يصبح الراوي قد قابل المصنف وكأنته روى عنه لأجل ذلك سمي هذا القسم انصافحة إذ العادة جرت بين من تلاقيا ان يتصافحا.

وهذا الذي تحدثنا عنه من مباحث الاسناد العالي النسبي هل كان له نصيب في آثار التجيبي وهو بلا مريه، يعد من بحوث الدراية الحديثية ذات الشأن والوزن؟.

الجواب نعم لقد ضمت الرحلة والبرنامج نماذج من الاسناد العالي النسبي، وذلك طبيعي لرجل كالتجيبي مولع بالرواية ومزود بالدراية.

## 1 - الموافقة

تحدث التجيبي في الرحلة والبرنامج عما وقع لغيره ووقع له من موافقات ففي الرحلة يتكلم عن شيخه ابن الصيرفي ثم يورد ما أخبره به شيخه التوني من انه كتب اليه أبو طالب عبد اللطيف بن محمد بن علي بن حمزة البغدادي وراح يعدد رجال السند راويا مارواه الترمذي في الشمائل عن أبي الأشعث أحمد بن المقدم بن سليمان بن الأشعث البصري العجلي عن حماد بن زيد بن عاصم بن سليمان عن عبد الله ابن سرجس قال أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه فدرت من خلفه فعرف الذي اريد فألقى الرداء عن ظهره فرأيت موضع الخاتم على نعص كتفه مثل الجمع حوله خيلان كأنها الثاليل فرجعت حتى استقبلته فقلت غفر الله لك يا رسول الله فقال ولك فقال استغفر لك رسول الله ﷺ قال نعم ولكم ثم تلا الآية «واستغفر لذنبك. وللمؤمنين والمؤمنات»<sup>(97)</sup>

قال التجيبي معلقا «هذا حديث صحيح عال تساعي لشيوخنا الأربعة عشاري لنا رواه الترمذي في الشمائل عن أبي الأشعث أحمد بن المقدم بن سليمان بن الأشعث البصري العجلي فوقع لنا موافقة عالية»<sup>(98)</sup>

فهنا تصريح واضح، ان الحديث وقع له فيه موافقة عالية للترمذي، فالترمذي

(96) المصدر نفسه الصفحة نفسها

(97) الرحلة ص 122

(98) الرحلة ص 122

يروى عن أبي الأشعث والتجيبى يروى من طريق أخرى فوقع له موافقة عالية مع الترمذي في شيخه بعدد أقل مع علماء الأسناد على الأسناد إليه.

وأورد التجيبى بعض موافقاته البرنامج فقال عن جزء يحتوى أحاديث انتقاها يقول «جزء لطيف يحتوى أربعة وعشرين حديثاً ملها عوى أو موافقات أو ابدال منتقاه من الجزء المذكور قبله انتقيته وقرأته على الشرف القاضي أبي محمد عبد المؤمن المذكور» (99).

ومن الاشارات الواردة عن موافقات غيره قوله عن تصانيف شيخه التوفى «ومنها الأربعون الموافقات العوالي» (100)، ومن الاشارات كذلك في هذا المجال والواردة في البرنامج قوله جزء فيه عوالي وموافقات انتقاها لنا من مسموعاته الشيخ الفقيه الفاضل الناقد الحافظ المفيد جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الشيخ المقرئ الزاهد زكي الدين أبي محمد عبد الرحمان بن يوسف بن عبد الملك بن يوسف بن علي ابن أبي الزهر الكلبى الحلبي المعروف بالمزى قرأت جميعه عليه بدمشق حرسها الله تعالى» (101).

## 2 - البذل

لم تخل الرحلة ولا البرنامج من هذا الصنف ففي الرحلة عند كلامه عن سنده المتصل في صلاة النبي ﷺ داخل الكعبة الذي رواه شيخه ابن النحاس بسنده إلى مالك بن انس عن نافع عن ابن عمران النبي ﷺ دخل الكعبة هو وأسماء بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة الحنبل فاعلقنا عليهم الباب ومكث فيها قال عبد الله ابن عمر فسألت بلالا حين خرج فإذا صنع رسول الله ﷺ قال جعل عمودا عن يساره وعمودين عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ثم صلى (102).

عقب التجيبى على هذا فقال «هذا حديث متفق عليه على صحته وثبوته من حديث الامام أبي عبد الله مالك رحمه الله تعالى وقع لنا عاليا سباعيا إلى الامام

(99) البرنامج ص 185

(100) الرحلة ص 46

(101) البرنامج ص 232

(102) الرحلة ص 86

مالك وبدلاً للإمامين أبي عبد الله البخاري وأبي الحسين مسلم ابن الحجاج معالان البخاري رواه في صحيحه عن عبد الله بن يوسف عن مالك ومسلما رواه في صحيحه عن يحيى بن يحيى عن مالك رحمه الله عليهم» (103)

وزيادة في بيان تعقيب التجيبي نقول : ان البدل يظهر في ان التجيبي توصل إلى شيخ شيخه من طريق أخرى هي — كم قال التجيبي بدلاً للبخاري ومسلم ويقصد بقوله بدلاً لهما يعني في شيخيهما. ذلك ان للتجيبي طريقاً أخرى إلى مصعب بن عبد الله بن مصعب عن مالك فيكون مصعب هذا بدلاً لعبد الله بن يوسف شيخ البخاري وبدلاً ليحيى بن يحيى شيخ مسلم. وتعضيد لما سبق نسوي سنده المتصل في هذا الموضوع.

أخبرنا الشيخ الفقيه الامام الفاضل الشيخ المقرئ الأديب الكامل الكاتب الحافل عمدة أهل الأدب وحجة العرب نحوي زمانه ولغوي أوانه خاتمة المقرئين بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي عبد الله بن النحاس الحلبي الشافعي نزيل القاعرة المعزية حاضرة الديار المصرية بقراءتي عليه بمنزله ليلاً قال. أخبرنا أبو المنجي عبد الله بن عمر بن علي اللتي قال أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى قال أخبرنا أم عزّ يبي بنت عبد الصمد بن علي المهرثمية قراء عليها قالت : أخبرنا أبو محمد عبد الرحمان بن أحمد بن محمد بن أبي شريح الانصاري قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ببغداد قال : حدثنا مصعب بن عبد الله بن مصعب قال حدثني مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمران رسول الله ﷺ دخل الكعبة» (الحديث) (104)

وفي البرنامج عند كلامه عن كتب الأربعين حديثاً عن أربعين شيخاً من رجال الأندلس من أربعين مصنفاً جمع الحافظ أبي محمد عبد الله محمد بن الابار (ت عام 658 هـ/ 1259 م) تعرض لذكر سنده المتصل في رواية حديث اني انا محمد وانا أحمد وانا الماحي الذي يحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي احشر الناس وانا العاقب الذي ليس بعده نبي» (105) ثم عقب على ذلك بقوله هذا حديث

(103) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(104) الرحلة ص 85، 86

(105) البرنامج ص 160 — 164



صحيح اتفق الامامان على إخراجهما في صحيحهما ورواية مسلم منهما له طرق منها عن زهير وابن أبي عمير وإسحاق عن بن عيينة به فوقع لنا بدلا عاليا لمسلم وبالله التوفيق» (106)

فقد وقع للتجبيي اسناد بعينه من طرق أخرى إلى علي بن حرب عن سفيان بن عيينة فيكون على ابن حرب بدلا فيه من إسحاق بن إبراهيم الذي روى عنه مسلم، فشيخ شيخه إذا هو سفيان بن عيينة الذي روى عنه إسحاق بن إبراهيم شيخ مسلم فكان هذا كما قال التجبيي — بدلا لمسلم ويقصد بذلك في شيخه

### المساواة

ضم البرنامج أحاديث تحتوي سندا يساوي فيه التجبيي بعض شيوخه من ذلك الحديث الذي رواه مسلم وغيره «اني انا محمد الخ» والذي أورده التجبيي عن طريق شيخه أبي عبد الله بن صالح الكتاني قال : وحدثنا به عاليا من طبق ابن عيينة عن الزهري القاضي أبو الخطاب ابن واجب قراءة عليه عن أبي بكر بن العربي إجازة عييه قال : اخبرنا النقيب أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي ببغداد قال : اخبرنا أبو الحسن محمد أحمد بن زرقويه قال : اخبرنا محمد بن يحيى بن عمر بن علي بن حرب قال : حدثنا علي بن حرب قال حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال قال النبي ﷺ — الحديث».

وعقب على ذلك قائلا : قلت وهذا ذكر الاسناد الذي أساوي الشيخ به من حيث العدد وهو متصل السماع واسناد لشيخ تتخلله إجازة ابن العربي لابن واجب رحمهما الله تعالى» (107)

اخبرنا الشيخ الأجل الأمير المعظم الثقة العدل ركن الدين أبو أحمد بيبرس الطاهري بقراءتي عليه باصطوان داره من دمشق حرسها الله تعالى قال : اخبرنا أبو الحسن بن المقير بمصر قال : اخبرتنا شهدة بنت أحمد قالت : اخبرنا طراد ابن محمد الزينبي هو المذكور قال : اخبرنا محمد بن أحمد بن زرقويه قال : حدثنا محمد بن يحيى بن عمر قال : حدثنا علي بن حرب قال : حدثنا سفيان بن عيينة

(106) المصدر نفسه ص 165

(107) المصدر نفسه ص 164

عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبي ﷺ قال : اني انا محمد الحديث» (108)

بالنظر إلى السندين لأنلقي التجيبي قد ساوى شيخه من حيث العدد كما صرح بذلك إذ سند شيخه بضم عشرة أشخاص وسده بضم احد عشرة شخصا ويبدو لي — والله أعلم — انه قد سقط منه راو، ومما يلفت النظر في اسناد التجيبي انه يقوم على السماع المتصل واسناد شيخه أبي عبد الله بن صالح الكتاني تتخلله اجازة ابن العربي لأبن واجب كما أشار التجيبي نفسه حين قال «واسناد الشيخ تتخلله اجازة ابن العربي لأبن واجب» (109) ويود التجيبي ان يؤكد بهذا الملحظ ان إسناد شيخه لا يرقى مستوى إسناده لكونه ليس متصلاً اتصال إسناد مادام تتخلله الاجازة والاجازة كما سبق ان بينا هي من صيغ التحمل التي لا تحتل درجة السماع لان السماع يتبوأ الصدارة بين صيغ التحمل ولقد صدق العراقي حين قال. في اللفية.

(ثم الاجازة تلي السماعا)

ويقول السيوطي في الفيته في علم الاثر:

أعلى وجوه من يريد حملاً سماع لفظ الشيخ إملا أم لا (110)

#### 4 - المصافحة

لم تخل الرحلة والبرنامج من الاشارة إلى مصافحته شيوخه أو مصافحة غيره شيوخهم غير ان مصافحة غيره تتكرر بصورة ملحوظة ولعل مصافحته لشيوخه لم يتأت له تحقيقه على نحو ما تحقق له في الأنواع الأخرى من الاسناد العالي النسبي لتعزز توافر شروطها.

ومن مصافحته قوله في الرحلة عند حديثه عن روايته لقوله ﷺ «اللهم إنيك أسلمت نفسي الخ» فأما حديث أبي إسحاق هذا الذي أوردته فأخرجه الأئمة الأربعة البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث شعبة وإبي الأحوص عنه والترمذي في جامعه والنسوي في سننه فرواه الترمذي في الدعوات عن محمد بن

(108) البرنامج 164، 165

(109) المصدر نفسه ص 164

(110) (املا) بالقصر لضرورة الوزن (أم لا) يعني بذلك تحديثاً من غير املا.

يحيى بن عمر العدني ورواه النسوي في اليوم واللييلة عن قتيبة بن سعد كلاهما عن  
الامام أبي محمد سفيان بن عيينة عن أبي إسحاق فوقع لنا بدلاً عالياً ورواه النسوي  
أيضاً في اليوم واللييلة عن محمد بن عبيد الله بن يزيد بن إبراهيم عن أبيه عن عثمان  
بن عمر عن سعيد عن إبراهيم عن ابن عبد الهادي عن أبي إسحاق فاعتبار هذا  
العود إلى أبي إسحاق عمرو بن عبد الله بن أبي يحمد وقيل ابن عبد الله بن علي  
بن أبي شعيرة بن مصعب بن معاوية بن كثير بن مالك الحمداني السبيعي الكوفي  
كان أسياسي الستة رضي الله عنهم شاهدوا فيه الامام الحافظ أبا عبد الرحمن  
أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان النسوي وسمعوه منه وصافحوه به وكانت  
وفاته بمكة في صفر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ويقال بالرملة مدينة بفلسطين يوم  
الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر من السنة المذكورة وكأني شاهدت  
فيه الحافظ أبا بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري المعروف بابن السني  
وصافحته به، وكانت وفاته يوم الأربعاء عاشر شوال سنة أربع وستين وثلاثمائة  
وقد أتى عليه نيف وثمانون سنة والله الحمد والسنة» (111)

ويقصد التجيبي بأسياسه الستة أولئك الذين روى عنهم الحديث المذكور وهم.  
محمد القشيري المنفلوطي وأبو محمد بن علي اللخمي وأبو الحسن الغرافي وشرف  
الدين التوني وأبو محمد بن محمد القرشي وأم أحمد بنت عيسى بن قدامة (112)  
ومما أورده في الرحلة عن مصافحات غيره شيوخهم قوله، وذلك عند حديثه  
عن شيخه ابن الصيرفث «قرأت عليه جزءاً فيه عوالي وأبدال وموافقات منتقاة  
من حديث عبد الله بن يحيى عبد الذهلي رحمه الله عن شيوخه يحتوي على أربعة  
وعشرين حديثاً» (113)

ومن ذلك أيضاً قوله في البرنامج عن حديثه عما ألفه الشيوخ من الأجزاء في  
شتى الموضوعات والتي أورد لها أصحابها روايات حديثة فيها من أنواع التحمل  
ما فيها ومن أنواع السند العالي ما فيها «جزء فيه ثمانية أحاديث مصافحات لشيخنا  
الامام العلامة النسابة أعجوبة زمانه في ذلك شرف الدين أبي محمد التونسي رضي  
الله عنه ورحمه كأنه صافح بها مسلماً وأبا داود والنسوي وسمعهما منهم رحمهم

(111) ص 25

(112) المصدر نفسه ص 21 — 24

(113) ص 120



الله تعالى، قرأت جميعه عليه بقاهرة مصر في عشر جمادى الأولى من سنة ست وتسعين وستائة<sup>(114)</sup>.

وكل هذا الذي أوردناه من أنواع الاسناد العالي النسبي وتبعنا نماذج منه في رحلة التجيبي وفي برنامجه ليدل على اهتمام هذا المحدث بقسم جليل من أقسام الاسناد العالي الذي يؤلف شطرا مهما من علم الدراسة ويعكس في الوقت عينه مهارة الرجل في هذا المضمار كما سلف البيان بالأمثلة والشرح.

### عثرات التجيبي

بعد أن تعرفنا اثار التجيبي وحاولنا استخلاص صورة للرواية والدراية منها تم لنا بذلك معرفة مكانة التجيبي في مجال الرواية وفي مجال الدراية كما تم بذلك التوصل إلى أن التجيبي المحدث يمثل في الوقت نفسه البيئة السبئية العلمية التي كان للدرس الحديثي فيها وزن وأي وزن ومكان وأي مكان.

أرى من المفروض علي بعد هذا أن أدل على عثرات وقع فيها التجيبي كان عليه أن ينتبه لها، لأنها تتعلق بصميم تخصصه في مجال الرواية والدراية، وليس من الامانة العلمية في شيء أن يمر الدارس بعثرات علمية دون أن ينبه عليها ويدلي بالصواب فيها، وإن الامانة العلمية هذه لتثقل مسؤوليتها كاهل الدارس أكثر حين يتعلق الأمر بالسنة، المصدر الثاني للشرع، ووجوب بيان ماعتورها من ضعيف وموضوع وما كان لذلك

نقع في اثار التجيبي على عثرات مما يتصل بالرواية والدراية ومما يؤلف في جله نزوعا إلى الخرافي وابتعادا عن منطق الشرع الحكيم في تعامله من الموت والانسان والحياة وابتعادا في الان عينه عن نصوصه الصحية سبحانه الذي لايسهو ولا يذهل ولا يخطيء وفيما ما لفت نظري من هذه العثرات مع التعليق عليها والادلاء بما يصحح المفاهيم في ضوء النصوص الشرعية الصحيحة. والكشف عن الضعيف والموضوع مما راج في فترة الغلة عن الصحيح مستنطقين في كل ذلك معايير النقد الحديثي التي بها صينت السنة المطهرة ووصلت إلينا سليمة من الدرس والتحريف تحقيقا لقول الله تعالى «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» والسنة بلا شك وحي والوحي هو الذكر والذكر وعد الله تعالى بحفظه.



## 1 — خرقه الصوفية

تحدث التجيبي عن خرقه الصوفية في الرحلة والبرنامج، أما في الرحلة (115) فقد أورد سنداً للخرقة عن طريق الحسن البصري عن علي بن أبي طالب لكنه عقب على ذلك بقوله «قلت قد تقدم في تقييدنا في ترجمة الراشد أبي محمد الخلاسي رحمه الله ذكر هذا السند في الخرقه والتنبه على مخالفة المحدثين للصوفية في سماع الحسن بن علي رضي الله عنه والصحيح ان شاء الله تعالى أن الحسن إنما سمع أحاديث علي رضي الله عنه من قيس بن عباد عنه والله تعالى أعلم» (116)

فهذه محاولة من التجيبي لتصحيح سند الحديث بعد أن وقف على رفض المحدثين ماروي في هذا الشأن وهي محاولة غير ناجحة بكل تأكيد لأنه لم يصح في قضية الخرقه حديث إذا كل ماورد فيها لم يسلم من الطعن بالوضع لأن أسانيده تحتوي مجهولين ووضاعين وأصحاب أهواء من مشعوذي الصوفية وقد صدق الامام ابن تيمية حين قال في ذلك «واما لباس الخرقه التي يلبسها المشايخ المريدين فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة» (117)

وقد حاول الشيخ السيوطي رحمه الله في (الحاوي فصل) (اتحاف الفرقه برفو الخرقه) ان يثبت سماع الحسن البصري من الامام علي رضي الله عنه بعد أن اعترف هو نفسه ان جماعة من الحفاظ وتبعهم في ذلك جماعة من المتأخرين انكروا ذلك وكان مما أورده في هذا المجال كلام المزي في التهذيب من طريق أبي نعيم قال : ثنا أبو القاسم عبد الرحمان بن العباس بن عبد الرحمان بن زكريا ثنا أبو حنيفة محمد بن صفية الواسطي ثنا محمد بن موسى الجرشي ثنا ثمامة بن عبيدة ثنا عطية بن محارب عن يونس بن عبيد قال سألت الحسن قلت يا أبا سعيد انك تقول قال رسول الله ﷺ وانك لم تذكره قال يا ابن أخي لقد سألتني عن شيء ماسألني عنه أحد قبلك ولولا منزلتك مني ما أخبرتك اني في زمان كما ترى — وكان في عمل الحجاج — وقبل شيء سمعتني أقول قال رسول الله ﷺ فهو عن علي بن أبي طالب غير اني في زمان لا أستطيع أن أذكر عليا» (118)

(115) ص 98

(116) ص 98

(117) انظر الفتاوي ج 11 ص 510

(118) ج 2 ص 102

عندما نتدبر سند هذا الخبر نجد أنه لا يسلم من ضعف، ذلك أنه تضمن محمد بن موسى وهو لين عند ابن حجر في التقريب<sup>(119)</sup> وتضمن ثمامة بن عبيدة وقد قال عنه النقادة أبو حاتم «منكر الحديث» وكذبه ابن المديني<sup>(120)</sup>، وهكذا لا يسلم ما أتى به السيوطي من مقال بل ما أتى به من منكرات يرفضها الشرع من أساسها ويرفضها العقل وكم للشيخ السيوطي من ضعيف وموضوع موضوع يؤيد به أوهام الصوفية ولم يتحر فيه الصواب غفر الله له وسبحان من لا يسهو ولا يخطئ.

والغريب حقاً أن مثل التجيبي في اطلاعه على السنة ينساق وراء أوهام الصوفية ويختفي بالخرقة ويصفها بالخرقة المباركة كما جاء في الرحلة واصفاً إياها قائلاً حاكياً. «ولبس الخرقة المباركة خرقة الصوفية المعروفة عندهم»<sup>(121)</sup>.

وأما في البرنامج فقد أورد وصية محمد بن يوسف المسدي (قتل عام 663 هـ = 1264 م) لمن تلقى عنه خرقة التشريف كما سماها قال «قرأت جميعها بتونس على الزاهد العابد أبي محمد عبد الله بن يوسف الخلاسي بحق سماعه من الجمال المذكور»<sup>(122)</sup> بمكة المعظمة ولبس منه بها وقد لبست منه<sup>(123)</sup>.

وليس يخفى أن المسدي هذا الذي لبس منه الخلاسي الخرقة ولبس التجيبي من الخلاسي رجل له أوهام وفيه تشيع وضعفته جماعة كما أكد ذلك لأمام الذهبي<sup>(124)</sup> وعنه نقل الحافظ النقادة ابن حجر بنصه موافقاً لإياه<sup>(125)</sup>، وهذا غيظ من فيض مما يحكيه نقاد الحديث الكبار عن أمثال هؤلاء الرجال الذين يروجون قضية الخرقة الصوفية ويختلقون لها أسانيد فينخدع بذلك من ينخدع وتجاوز عليهم اللعبة كما جازت على العارفين بالرواية والمأهرين في الدراية أمثال وغير التجيبي. وتعليل ذلك عندي عن مثل التجيبي رحمه الله، أنه تأثر بالاجواء التي

(119) ج 2 ص 211 تـ 748

(120) انظر ميزان الاعتدال ج 1 ص 372 تـ 1397

(121) ص 153

(122) الجمال المذكور هو كنية محمد بن يوسف المسدي

(123) ص 253

(124) انظر ميزان الاعتدال ج 4 ص 73 تـ

(125) انظر لسان الميراث ج 5 ص 437 تـ 1434

كان يتحرك فيها والتي عاش في كنفها وهو ينتقل من مكان إلى مكان يأخذ عن هذا وذاك من الشيوخ ذوي المشارب المختلفة مما قد يجعل طالب العلم يذهل أحيانا تحت مطارق أوهام شيوخهم مكانة خاصة في بلدهم فينساقي بلا وعي إلى مالا يتناسب ومنطق الرواية والدراية التي يعمل لأجل أن يحقق فيهما حضور، ولا يتناسب أيضا مع العقل الذي كرم الله به بني آدم وجعله خاضعا لمنطق الوحي لا العكس كما يذهب إلى ذلك أنصار المدرسة العقلية إذ الوحي معصوم والعقل ليس بمعصوم.

## 2 — معجزة إحياء والدته النبي ووالده إكراما له ﷺ

حدث التجيبي في الرحلة عن مرضع النبي ﷺ حليمه السعدية وبهذه المناسبة تصدى للحديث عن آمنة بنت وهب والدته نبينا ﷺ أورد حديثا موضوعا بسنده عن محمد بن إبراهيم الطبري المكي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ «نزل الحجون كثيبا حزينا فأقام به ماشاء الله عز وجل ثم رجع مسرورا قالت سألت ربي عز وجل فأحيا لي أُمِّي فأَمَنْتُ بي ثم ردها» (126).

وقد أحسن التجيبي غرابة القصة فقال في مستهل كلامه «ومن غريب ما وقع لي أن أم النبي ﷺ التي ولدته وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أحياها الله تعالى بعد موتها فأمنت بالنبي ﷺ ثم ردها أخبرنا بذلك الشيخ الإمام الفاضل عمدة المجاورين رضي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الطبري ثم المكي بقراءتي عليه بالمسجد الحرام تجاه الكعبة المعظمة في شهر ذي قعدة من سنة ست قال أخبرنا الشيخ الإمام الأوحد مفتي الحرمين محب الدين أحمد بن أبي عبد الله الطبري قراءة عليه مني قال. أخبرنا بذلك الشيخ الصالح أبو الحسن علي ابن أبي عبد الله المقير قراءة عليه بالمسجد الحرام وأنا أسمع سنة ست وثلاثين وستائة قال. أخبرنا الشيخ الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر السلامي إجازة قال. أخبرنا أبو منصور محمد بن أحمد بن علي بن عبد الرزاق الحافظ الزاهد قال. أخبرنا القاض أبو بكر محمد بن عمر بن محمد الأنخضر قال. حدثنا محمد بن يحيى الزهري قال. حدثنا عبد الوهاب ابن موسى الزهري عن عبد الرحمان بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها — الحديث

— (127)

(126) ص 117، 118

(127) إفريحة ص 117



بيد أن التجيبي لم يكلف نفسه مئونة البحث في سند هذا الحديث، كما لم يكلف نفسه مئونة النظر في شذوذ مضمونه عن الحس الاسلامي، إذ مر عليه مرور الكرام واضعا الثقة فيمن أخذ عنهم واجتزأ بالاستغراب وهو احساس بأن الخبر لا يسلم من مقال لكن في غمرة الثقة بغيره روى الخبر كما هو دون نقده كما يقتضي علم الرواية والدراية، ذلك العلمان اللذان يفرضان التحري والتثبت واليقظة في جميع الأحوال.

إن سند هذا الحديث يحتوي مجموعة من الضعفاء وليس يحتوي ضعيفا واحدا، انه يحتوي محمد بن يحيى الزهري المكنى أبا غزية قال عنه الدارقطني متروك «وقال عنه الأزدي «ضعيف»<sup>(128)</sup> ولعله هو محمد بن موسى المدني القاضي الذي قال فيه الحافظ ابن حجر في لسان الميزان «وانا أخشى أن يكون هو المتقدم وقع التصحيف في كنيته وانما هو أبو غزية ولكن النسخة بالكتاب المذكور بخط أبي الفرج ابن الجوزي»<sup>(129)</sup>.

ويقصد ابن حجر رحمه الله بالكنية هنا (أبا عوانة) وبالمقدم محمد بن يحيى السالف الذكر. فإذا كان محمد بن يحيى الزهري هو محمد بن موسى فإن البخاري قال فيه «له مناكير قال عنه ابن حبان» كان يسرق الحديث ويروي عن الثقات الموضوعات ووصفه أبو حاتم بالضعف وذكره العقيلي في الضعفاء واتهمه الدارقطني بالوضع<sup>(130)</sup>.

ويحتوي السند كذلك عبد الوهاب بن موسى تحدث عنه الذهبي رحمه الله فقال «عن أبي عبد الرحمان بن أبي الزناد لحديث «ان الله أحب لي أمي فأمنت بي الحديث لا يدري من الحيوان الكذاب فإن هذا الحديث مخالف لما صح انه عليه السلام استأذن ربه في الاستغفار لها فلم يأذن له»<sup>(131)</sup> وفيه يقول الامام الذهبي في (المغنى في الضعفاء) عن عبد الوهاب بن موسى بن أبي الزناد نكرة

(128) انظر ميزان الاعتدال ج 4 ص 62 تـ 929

(129) ج 5 ص 429 تـ 1402

(130) انظر لسان الميزان ج 5 ص 398 تـ 1295 وانظر العقيلي (محمد) كتاب الضعفاء الكبير ج 4 ص 138 تـ 1699.

(131) ج 3 ص 684 تـ 5326



والخبر احيا الله لي امي فآمنت بي والسند ظلمة» (132)

ويحتوي السند كذلك هشام بن عروة تحدث عنه الامام الذهبي في الميزان فقال «احد الاعلام حجة امام لكن في الكبر تناقص حفظه ولا عبرة بما قاله أبو الحسن بن القطان من أنه وسهيل بن أبي صالح اختلافاً وتغيراً، نعم الرجل تغير قليلاً ولم يبق حفظه كهو في حال الشبيبة فنسي بعض محفوظه أو وهم، فكان ماذا أهو معصوم من النسيان؟

نستخلص من كل ذلك أن السند ظلمة، في الحق، كما قال الامام الحافظ الذهبي سالفاً، وقد ساق الحافظ ابن حجر في معرض حديثه عن ترجمة عمر بن الربيع الحساب أحد الضعفاء قضية احياء ام النبي ﷺ حين حج حجة الوداع فمر على عقبة الحجون وذلك بسند يختلف عن السابق في بعض رواته وفيه عمر بن الربيع الخشاب السالف الذكر وقال ابن حجر بعد ذلك ناقلاً عن ابن عساكر الذي أورد القصة في غرائب مالك «قال ابن عساكر هذا حديث منكر من حديث عبد الوهاب بن موسى الزهري المدني عن مالك والكعبي مجهول والحلي صاحب غرائب ولا يعرف لأبي الزناد رواية عن هشام» (133)

غير أننا نلاحظ على الامام ابن حجر في (لسان الميزان) في ترجمة عبد الوهاب بن موسى انه ذهب إلى ان الامام الذهبي تكلم عن هذا الموضع بالظن فسكت عن المتهم بهذا الحديث» (134)، على حين أن الامام الذهبي أكد أنه غير معروف حين قال كما سلف «لايدري من ذا الحيوان الكذاب» (135) وذلك تعليقاً على رواية عبد الوهاب بن موسى عن عبد الرحمان بن أبي الزناد حديث ان الله أحى) وهذا تصحيح منه أن هذا الشخص مجهول ويزيد الأمر تأكيداً أيضاً حين يقول في (المغنى في الضعفاء) عن عبد الوهاب هذا «انه نكرة» (136)، فاجتهول مظنة الدرس والوضع وليس سكوت الذهبي عن تتبع بقية السند يعني أن النص صالح

(132) ج 2 ص 413 ت 3899

(133) لسان الميزان ج 4 ص 304، 305 ت 854

(134) ج 4 ص 94 ت 171

(135) ميزان الاعتدال ج 2 ص 684 ت 5326

(136) ج 2 ص 213 ت 3899

لأن ينجر وحسبه أنه لخص في قوله «و السند ظلمة» (137)

بالإضافة إلى كل ذلك فإن عبد الرحمان بن أبي الزناد وهو عبد الله بن ذكوان المدني أحد العلماء قد ضعفه البعض ووثقه البعض الآخر، فقد ضعفه — كما عند الذهبي — ابن معين وقال عنه أبو حاتم «لا يحتج به» وضعفه النسائي وقال أحمد مضطرب الحديث ووثقه مالك (138)، وتجدر الإشارة بجانب ماسبق إلى أن العقيلي أورده في الضعفاء (139)

وما قيل في أحياء والده رسول الله ﷺ يقال كذلك في أحياء والده عبد الله فالتجيب يشير إلى في قوله بعد أن أورد الحديث الموضوع السابق الذكر «وقد روي أيضا أن الله تعالى أحيأ له أباه عبد الله فأمن به» ثم بعد هذا مباشرة ينتبه التجيب من غفلته فيعقب على ذلك دون أن يبين لنا سر الأمر قائلا «وروي ما يدل على خلاف ذلك في صحيح مسلم والله تعالى أعلم» (140). ذلك أن ماروي في هذا المجال لم يصح قطعاً إذ سنده هو سند الحديث السالف كما أشار إلى ذلك السهيلي في (الروض الأنف) (141).

مهما يكن من حال فإن من المصادر التي روجت مثل هذه الموضوعات كتاب (الروض الأنف) وتذكرة القرطبي، ذلك أن السهيلي على الرغم من أنه أورد النصوص الصحيحة التي ترفض مثل هذه الاختلافات كحديث عدم إذن الله لرسول الله ﷺ بالاستغفار لأمه فإنه قال بعد ذلك روى حديث غريب لعله أن يصح وجدته بخط جدي أبي عمران أحمد بن أبي الحسين القاضي رحمه بسند فيه مجهولون ذكر أنه نقله من كتاب انتسخ من كتاب معوذ بن داود بن معوذ الواهد يرفعه إلى أبي الزناد عن عروة عن عائشة أن النبي ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه فأحيأهما له إلخ» (142) والذي يلفت النظر حقاً في كلام السهيلي هو أنه يصرح بأن الحديث غريب وأنه يختوي مجهولين ومع ذلك يقول (لعله يصح)، أليس في هذا تناقض صارخ، إذ كيف يصح وهو يتضمن مجهولين، أن الأمر لا يخلو من أي تردد أبداً فما دام الحديث على هذه الصفة فإنه باطل وسوف نتناوله من حيث

(137) المصدر نفسه

(138) الميزان ج 2 ص 575 تـ 4908

(139) 2 ص 340 تـ 938

(142) النظر الروض الأنف ج 1 ص 113

المضمون ويزداد كذبه ظهورا وبذلك يتعاضد واقع السند المختلف وواقع متنه المهمل على فضح ما في من اتحال صارخ.

ومن حيث مضمون الحديث فإنه يتنافى وتصور الكتاب والسنة في من مات على كفر، من ذلك قوله تعالى اثما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار» (143) وقال أيضا «فلم يكن ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون» (144).

فالتقرن الكريم يبين بوضوح ان من مات كافرا فلا يمكن أن تشمله التوبة بعد ان وافته الفرصة في الدنيا فلم تهبلها ولم يبق إلا الجزء الذي أعده الله لمن عزف عن طريقه وهذا حكم الله تعالى نافذ ولا مرد له أبدا فهو يستغرق كل زمان ومكان.

ومن ذلك ما رواه الامام مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته ان أزور قبرها فأذن لي وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أيضا قال «زار النبي ﷺ قبر امه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربي ان أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في ان أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت» (145).

ويحسن هنا أن نقل — عوض تعليلي — تعليق الامام النووي على هذا الحديث اخراسا لكل من يحاول أن يتقول في هذا المجال خاصة من يتهيب الخوض فيه جهلا بروح الشرع الحكيم قال النووي في شرحه على الحديث. «فيه جواز زيارة المشركين في الحياة وقبورهم بعد الوفاة لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى وقد قال تعالى وصاحبها في الدنيا معروفا وفيه النهي عن استغفار للكفار قال القاضي عياض رحمه الله سبب زيارته ﷺ قبرها انه قصد قوة الموعظة والذكرى بمشاهدة قبرها ويؤيده قوله ﷺ في آخر الحديث فزوروا القبور إنها

(143) النساء : 17 ، 18

(144) سورة غافر : 85

(145) ج 7 ص 45 ، 46

(146) المصدر نفسه



تذكركم الموت» ثم قال «فبكى وأبكى من حوله قال القاضي بكأؤه ﷺ على مافاتهما من إدراك أيامه والايمان به»

ومن ذلك الحديث الذي رواه الامام أحمد في المسند أن رسول الله ﷺ قال «ان امي مع امك في النار» وكذلك مارواه الامام مسلم في صحيحه ان رجلا قال للنبي ﷺ «اين أبي؟ قال: ان اباك في النار» فلما ادبر دعاه فقال «ان أبي واباك في النار».

من المعروف أن آمنة أم سيدنا رسول الله ﷺ ماتت بمكان يقال له (الابواء) وهو قرية من اعمال الفرع من المدينة بينها وبين الجحفة مايلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلا<sup>(147)</sup> ولم تمت بالحجون والحجون جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها<sup>(148)</sup> والنص السابق يقول انه ﷺ نزل الحجون فسأل ربه أن يحیی له أمه

وقد يعترض من يعترض — بجانب هذا الذي سقناه من الدلائل الدوامغ — بأن زيارة النبي ﷺ قبر أمه كان عام الفتح والاحياء كان بعد حجة الوداع ويقصد بهذا ان النسخ دخل الخبر والجواب عن هذا واضح جدا هو أن الخبر عن الماضي والمستقبل لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يلحقه نسخ والا كان هذا نقصا في علم الله تعالى ومشیئته وقدرته وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فالخبر الوارد في قوله ﷺ «واستأذنته ربي ان استغفر لأمي فلم يأذن لي» والوارد في قوله «ان أبي وأباك في النار» هو من جنس خبر قوله تعالى «سيصلى نارا ذات لب» «ومن جنس قوله في الوليد «سأره صَعُوداً»<sup>(150)</sup>.

وبقي بعد هذا أن نعيد إلى الالذهان أننا حين ننفي هذا الخبر ليس يعني اننا نتقص قدرة الله تعالى، لا ثم لا، هذا أمر لا يخطر ببال مسلم إلا من كان مشبوه الايمان، ذلك ان الله تعالى قادر بأن يحيى أبوا رسول الله ﷺ إكراما له ومعجزة له كما اكرمه بمعجزات ومعجزات في حياته وعل رأسها المعجزة الكبرى الخالدة كتاب الله الكريم حجة الباري على الخلق، لكننا التزاما بمنطق الشرع الحكيم

(147) انظر الحموي (ياقوت بن عبد الله) معجم البلدان ج 1 ص 92 باب الهمة والباء ومايليها

(148) المصدر نفسه ج 3 ص 227 باب الحاء والجيم ومايليها

(149) سورة المسد. 3

(150) المدثر. 17



لأنساق مع وارد وارد دون أن تمحصه وتغربله وتعرضه عليه، وكم من ضعيف وموضوع تسلل إلى كتبنا المعتمد فجنت على امتنا لولا أن قيض الله رجالا غربلوا ومحصوا وبينوا وحذروا فضينت السنة من كل دخيل اختلقه أعداء الله الحاجة في نفس يعقوب.

### 3 — حديث النقباء والابدال

نعثر في الرحلة على حديث في موضوع النقباء والابدال استقاه التحيبي من كتاب (تاريخ دمشق لابن عساكر يتحدث عن عدد النقباء والنجباء والبدلاء وماشئت من هذه المصطلحات التي نسجتها أخيلة الصوفية عبر العصور وقد أورد ذلك عند ذكره مكة المكرمة وسفره إليها قال بسنده «قرأت في كتب كتاب تاريخ دمشق حماها الله من تأليف الحافظ أبي القاسم بن عساكر رحمه الله تعالى الذي أخبرنا به إجازة في الجملة من مدينة القيروان الشيخ الامام أبو زيد الأنصاري عن أبي التقي صالح بن شجاع بن محمد عن أبي القاسم المذكور قال أخبرنا أبو القاسم علي بن إبراهيم بن العباس الحسين وأبو الحسن علي بن أحمد بن منصور العسائي وأبو منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن خيرون قال محمد أخبرنا وقال الآخرون حدثنا ابن بكر أحمد بن علي بن ثابت قال حدثنا عبد العزيز بن أبي الحسن قال حدثنا علي بن عبد الله بن جهضم بمكة قال حدثنا عبد الله بن محمد العيشي قال سمعت الكتاني يقول. النقباء ثلاثئة والنجباء سبعون والبدلاء أربعون والأخبار سبعة والعمد أربعة والغوث واحد فمسكن النقباء المغرب ومسكن النجباء مصر ومسكن الابدال الشام والأخبار سياحون في الأرض والعمد في زوايا الأرض ومسكن الغوث مكة فإذا عرست الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الابدال ثم الأخبار ثم العمد قال اجيبوا والا ابتهل الغوث فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته» (151).

وحين نمنع في النظر في هذا السند نلاحظ انه يضم عبد الله بن علي بن جهضم شيخ الصوفية — كما قال الامام الذهبي — بحرم مكة متهم بوضع الحديث وقيل انه يكذب وذكره غيره بأنه متهم بوضع صلاة الرغائب، وأكد ذلك الامام الذهبي بقوله في (تاريخ الاسلام) «لقد أتى بمصائب في كتاب بهجة الاسرار يشهد القلب بطلانها» (152).

(151) ص 239.

(152) انظر لسان الميزان ج 4 ص 238 ت 641

والذي نقرره هنا هو ان كل ماورد في الابدال أو النقباء أو ماشئت من هذه المصطلحات الصوفية لم يصح منها شيء، إذ كل حديث في هذا موضوع أو ضعيف ولولا خوف الاطالة لروينا نصوصا في هذا المجال تحفل بعلة تجعلها ظلمات حالكة يشهد الشرع ببطلانها ويرفض الاحساس الانساني اسطورتها ولا يعترف العقل بمقولتها، يمكن الاستدلال بواحد من هذه الأحاديث من ذلك ماأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق الطبراني «مثل خيار امتي في كل قرن خمسمائة والابدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون كلما مات رجل ابدل عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانه قالوا يا رسول الله دلنا على اعمالهم قال يعفون عما ظلمهم ويحسنون إلى من أساء إليهم ويتواسون فيما اتاهم الله عز وجل».

فهذا الحديث موضوع إذ في سنده سعيد بن أبي زيد وعبد الله بن هارون الصوري عن الأوزاعي فالاول غير معروف والثاني قال عنه الذهبي في الميزان «عن الأوزاعي لايعرف والخبر كذب في اخلاف الابدال»<sup>(153)</sup> وهذا الحديث نفسه أورده السيوطي في الجامع الصغير ورمز إليه بالحسن مع انه موضوع وكم في الجامع الصغير هذا من ضعيف وموضوع، ولم يفت ولم يفت المناوي أن يشير إلى علته ويقول بعد أن نقل ملام الذهبي السابق «ومن ثم حكم ابن الجوزي بوضعه ووافقه عليه المؤلف في مختصر الموضوعات فأقره ولم يتعقبه»<sup>(154)</sup>.

ولست أريد أن انهي الحديث عن هذا الموضوع دون الايماء فقط إلى أن ماورد عند السيوطي في (الحاوي) تحت عنوان (الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنقباء والأبادل) لم يحل أبدا من مقال بل من علل، وكما قلت منذ لحظة انه لم يصح في هذا شيء ومع تقديرنا للسيوطي رحمه الله فانه كان يغفل عن تحري الأسانيد ويجمع النصوص من هنا وهناك لأجل أن يؤيد منظومة فكرية معينة هي منظومة الصوفية في تصوراتهم الخيالية في شتى الموضوعات التي لا تمت إلى شرع الله بسبب ماكان له اثره السيء في فكر الأمة الاسلامية وساهم في تأخرها وتعطيل أوامر الله في واقعها وشل الفكر الاجتهاد عن العمل الجاد كما أراد له الخالق سبحانه،

(153) ج 2 ص 516 تـ 4661

(154) انظر الألباني (ناصر الدين) الأحاديث الضعيفة ج 2 ص 339

(155) ج 2 ص 241

ومن يرجع إلى كتب الصوفية يلحظ هذا بينا دون كبير عناء والله الأمر من قبل ومن بعد.

#### 4 — التوسل بصحيح البخاري في الأزمات

في البرنامج حديث عن صحيح البخاري وإشادة به<sup>(156)</sup> وهذا أمر بدهي لأن البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، بيد أن الذي يلفت النظر هو أن التجيبي لم يحصر اعجابه في ذلك وإنما تجاوز إلى تقرير أن من قرأه لشدة فرج الله عليه قال «وهذا الجامع الصحيح أحد الكتب الاسلام المعتمدة وهو أصحها وأكثرها فوائد وأعظمها نفعاً وأشهرها بركة، فقد صح وثبت أنه إذا قرئ لشدة رجاء تفرجها يفرجها الله عز وجل ورأيت أهل العلم والخير يقصدون ذلك بقراءته عند الشدائد شرقاً وغرباً، وفي ذلك قال الأديب أبو الحسن علي بن الكندي ونقل ذلك من خطه بدمشق الخروسة :

صحيح البخاري واطب على تحفظه واروه في المشاهد  
فذلك المجرب درياقـه لدفع سموم أفاعي الشدائد<sup>(157)</sup>

ولست أدري ما السند الشرعي عند التجيبي في هذه القضية إذا ما علمنا الشرع الحكيم عند اشتداد الأزمات هو أن نسلك غير هذا السبيل، ذلك أن التوسل في منهجه لا يخرج عن أمور ثلاثة.

1 — التوسل إلى الله باسم من أسماء الحسنى أو بصفة من صفاته العليا قال تعالى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها»<sup>(158)</sup>

2 — توسل الانسان بعمله الصالح كما ورد في قصة أصحاب الغار التي رواها الشيخان.

3 — التوسل بدعاء رجل صالح حي، من ذلك استقاء الصحابة بالعباس حين قحطوا كما في البخاري<sup>(159)</sup>

(156) ص 81

(157) ص 81

(158) سورة الاعراف : 180

(159) انظر لصاحب هذه الدراسة كتابا صدر أخيرا بعنوان (.. وكل بدعة ضلالة) ص 30 وما بعدها.



فالتوسل بغير هذا بدعة وكل بدعة ضلالة لانه مخالف للشرع ومخالف لما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من الذين كانوا يتبعون ولا يتدعون.

كيفما كانت الحال فالتجبيي رحمه الله، قد تنكب الصواب حين ذهب إلى أنه قد صح في هذا ماصح وثبت ماثبت معتمدا على ممارسة بعض أهل العلم هذه البدعة كما يفهم من كلامه السابق، وهذا أمر يجب فيه استنطاق الشرع وحده، إذ بيده حق التحسين والتقييح.

### 5 — قضية قطع عمر رضي الله عنه الشجرة :

عندما تصدى التجبيي في الرحلة لذكر جبال مكة تعرض للحديث عن الشجرة التي بويع تحتها رسول الله ﷺ، وتكلم عن قطع عمر رضي الله عنه هذه الشجرة خوف فتنه الناس بها فيتخذونها موضع عبادة على حين الخبر فيه مقال، فقد روى ابن بيشية ان عمر بلغه ان أناسا يأتون الشجرة التي بويع تحتها فأمر فقطعت، لكن سند هذا الخبر فيه انقطاع بين نافع وعمر ومما يؤكد أن هذه الحادثة لم تقع ما أخرجه البخاري في باب الجهاد من طريق أخرى عن نافع قال. قال ابن عمر رضي الله عنه. ورجعنا من العام المقبل فما اجتمع إثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها كانت رحمة من الله.

فالنص صريح بأن الشجرة اختفى وجودها فكيف تهباً لسيدنا عمر أن يقطعها، ولاحظ ما انتهى به النص وهو قوله «كانت رحمة من الله» تتأكد من أن اخفائها على الناس كان رحمة من الله تعالى حتى لا يفتتن بها بعض الجهال من الناس الذين لا يعرفون من دين الله شيئاً يذكر فيعتقدون فيها ما يعتقدون كما يفعل العوام اليوم ولم يفت التجبيي هذا الأمر وحده فقد فات كذلك الامام ابن القيم كتابه (اغاثة اللفهان من مصائد الشيطان<sup>(160)</sup>).

إذ ذكر القصة ولم يشر إلى ضعفها وهو من هو في هذا المجال وسبحان الذي لا يسهو.



## المصادر والمراجع

- الالباني (محمد ناصر الدين) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ج 2 ط 1 — المكتب الاسلامي 1399
- الأنصاري (محمد بن القاسم) اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من شتى الآثار تحقيق عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية الرباط 1389 — 1969.
- الترغبي (عبد الله) فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة ورسالة جامعية مرقونة قدمت لنيل دبلوم الدراسات العليا).
- التنبكتي (أحمد بابا) نيل الابتهاج بتطريز الديباج — ط فاس — 1317
- ابن حجر (أحمد) شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر — الباني — مصر 1352 — 1934.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج 3 تحقيق محمد سيد جاد القاهرة 1385 — 1966
- لسان الميزان — دارالفكر — ط — 1331
- تقريب التهذيب تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف — ط 2 1395 — 1975
- التجيبى (القاسم) مستفاد راحلة والاغتراب تحقيق عبد الحفيظ منصور — الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1395 — 1975
- البرناج تحقيق عبد الحفيظ منصور — الدار العربية للكتاب ليبيا تونس — 1981
- ابن حزم (علي) جمهرة أنساب العرب تحقيق عبد السلام هارون دار المعارف مصر 1391 — 1971

- ابن الخطيب (لسان الدين)  
الخطيب البغدادي (أحمد) :  
الخطيب (إسماعيل)  
الذهبي (محمد)  
الريسوني (محمد المنتصر)  
الزرقاني (عبد العظيم)  
السيوطي (عبد الرحمان)  
السيوطي (عبد الرحمان)  
الحاوي للفتاوى
- الاحاطة في أخبار غرناطة تحقيق عبد الله عنان  
ط 2 — 1393 — 1973  
الكناية في علم الرواية — المكتبة العلمية (بلا  
تاريخ)  
الحركة العلمية في سبته خلال القرن السابع —  
المكتبة السبئية منشورات جمعية البعث  
الاسلامية رقم 3 — ط 1 مطبعة النور تطوان  
1406 — 1986  
ميزان الاعتدال في نقد الرجال تحقيق علي محمد  
البجاوي ط 1 — دار المعرفة — بيروت  
1382 — 1963.  
المشتبه في الرجال. أسماءهم وانسابهم تحقيق علي  
محمد البجاوي ط 1  
دار إحياء الكتب العربية 1962  
المغنى في الضعفاء تحقيق نور الدين عتر (بلا  
تاريخ)  
وكل بدعة ضلالة ط 1 — مطبعة النور تطوان  
— 1408 — 1988  
المنهل الحديث في علم الحديث — القاهرة —  
1366 — 1947  
تدريب الراوي في شرح تقريب النوادي حققه  
عبد الوهاب عبد اللطيف — دار الفكر —  
1386.  
الروض الأنف في تفسير ما شتمل عليه حديث  
السيرة النبوية لابن هشام — المطبعة الجمالية  
مصر — 1332 — 1914  
ط 2 — دار الكتب العلمية بيروت 1395 —  
1975

المقدمة في علوم الحديث — منشورات دار  
الحكمة دمشق 1392 — 1972

الذيل والتكملة القرن السادس تحقيق الدكتور  
إحسان عباس ط 1 دار الثقافة بيروت 1973  
التبصرة والتذكرة — المطبعة الجديدة فاس —  
1354

قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث،  
مطبعة ابن زيدون — دمشق — 1353 —  
1925

المعجم الوسيط — المكتبة العلمية — طهران  
(بلا تاريخ)

لسان العرب اعداد نديم مرعشلي — دار لسان  
العرب — بيروت.  
الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث دار  
الفكر (بلا تاريخ)

فهرسة مخطوط بالخزانة العامة قسم المخطوطات  
تطوان رقم 762 و 144

شيوخ العلم وكتب الدرس في سبته (المكتبة  
السبتية)، منشورات جمعية البعث الاسلامي  
رقم 1 ط 1 مطبعة النور تطوان  
1404 — 1984.

الاماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع  
— طبعة دار التراث.

ابن الصلاح (عثمان)

ابن عبد الملك المراكشي  
(محمد)

العراقي (عبد الرحيم)

القاسي (جمال الدين)

مصطفى (إبراهيم) :

ابن منظور (محمد)

ابن كثير (إسماعيل)

ميارة (محمد)

الوراكلي (حسن د) :

اليحصي (عياض القاضي) :

## مجلات وجرائد

مجهول :

بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته  
في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب  
(مجلة تطوان العدد 7 — 1964) معهد مولاي  
الحسن للأبحاث تطوان

مجلة معهد المخطوطات العربية مج 1 ج 1  
جريدة الحسني العدد 30 السنة 1 — 1382 — 1962





من التراث الأدي لسبنة



## إشكال المنهج والمصطلح في النقد التطبيقي في «رفع الحجب المستورة...»

### د. علال الغازي<sup>(١)</sup>

في «سبته. التاريخ والتراث» يحار الذهن ويتشعب البحث، ولا تكفي ندوة مهما طالت واستطالت على الحقول المعرفية والأدبية الكثيرة والعميقة والمتنوعة في تراث سبته الخالد. ولعل رائعة الأستاذ أبي القاسم سمد بن أحمد الشريف السبتي الغرناطي<sup>(١)</sup> : «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة»<sup>(٢)</sup> خير نص في النقد الأدبي التطبيقي — التفسيري — نستدل به على نهضة سبته في النقد الأدبي الذي مثله العهد المريني خير تمثيل :

أما العصر المريني الذي احتضن ناقدنا ونقادا غيره احتلوا الريادة في تراثنا النقدي العربي، فلا نقف بالحديث عليه سياسيا وفكريا وحضاريا، بعد أن حظي بأكثر من دراسة جامعية وأبحاث حرة أبانت عن مكانته من تاريخنا المغربي، وأما

#### ( ) كلية الآداب الرباط

(١) ولد بين سنتي 697، 699 وتوفي بين سنتي 760، 761 على خلاف بين المؤرخين ولعل ما نعت به فوفقه من نعوت يتفق فيها كل من ترجم للرجل، انظر نماذج من مصادر ترجمته : نثير الجمان : 145، 146. المرقبة العليا : 171. الديباج المذهب : 290. الدرر الكامنة : 452/3. درة المجال : 248/1. نفح الطيب : 339/7 جذوة الاقتباس : 193. التعريف بابين خلدوت : 61 وغيرها.

(٢) حققها أخيرا في 6 مجلدات الزميل محمد الحجوي يرسم نيل دبلوم الدراسات العليا، والمعتمد عندي هنا هو المطبوع المصري القديم والمخطوط بالنسخة الحسنية رقم 334 مع اعتماد النص المحقق في صحة النص وسلامته.



سببته فلعل في محاور هذه الندوة المثمرة ما يشجع الباحث المستزيد على تحقيق ما يرغب في التطاع إليه من حقول، وأما ناقد سبته وفقهها بل ناقد العرب الاسلامي في المجال التطبيقي وفقهه في عصره، فيكفي أن ننقل بعض ما كتبه عنه رائدان من رواد الفكر والأدب والنقد في عصره لنعرف أي ناقد نحاور في هذه المداخلة، فعن شعره وأسلوبه يقول ابن الخطيب بأنه «القدح المعلى، والحظ الأوفى، والدرجة العليا، طبقة وقته، ودرجة عصره، وحجة زمانه، كلامه متكافئ في اللفظ والمعنى صريح الدلالة، كريم الخيم، متين الخبث، خالص السبك». وهو رجل «متوقد الذهن، أصيل الإدراك»<sup>(3)</sup>، ويقول عنه ابن الأحمر بأن الرجل «احتوى على جمل من الآداب رائقة، وطرائق في الإنشاء فائقة، وشعره»<sup>(4)</sup> يشبه بالنجوم لو نظمت سلكا، ويجري مع النفوس فيملكها ملكا، وحصل من علم البيان مفيدة وعجيبة، ومعرفة باللغات الغريبة، وقوة نفس في استخراج المعنى... وتفنن في جميع العلوم»<sup>(5)</sup>.

تلك هي سبته في عصرها المريني، وهذا هو ناقدها الكبير الذي واجه مقصورة حازم القرطاجني (684 هـ) صاحب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» وغيره من كتب اللغة والنحو والعروض وهي مواجهة أبانت عن تمكن السبتي من منهاجه ومعارفه ومصطلحه، كما أبانت عن الصراع العلمي البري وبين العدوتين تحقيقا لتنافس الأوس رغبة في تواصل الوحدة السلمية والحضارية والدينية، وتأتي هذه الندوة المباركة لتقدم لنا صورة كبرى عن ذلك التواصل مصرة على استمراره بين الجارتين مما يطمئني الفخر لكلية الآداب بتطوان التي تعمل على تحقيقه اليوم كما صنعت بالأوس مع ابن الخطيب، وتصنع عدا مع رموز أخرى وهي كثيرة. فماذا بعد هذا عن إشكالية المنهج والمصطلح في هذه الموسوعة؟

(3) انظر النصين في مخطوط الاحاطة بالخرانة الحسنية رقم 1842.

(4) لم يصلنا ديوانه «جهد المقل» الموجود منه ورقات خزانة القرويين، ولكننا وقفنا على نماذج منه فيما رجعنا إليه من مظان لعل أهمها: رفع الحجب نفسه. انظر ذلك في أطروحتي عن «مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال عدد المرقونة بكلية الآداب بالرباط، والموجودة الآن تحت الطبع: ج 2 / 369 — 377، والمداخلة تعتمد هذا العمل كثيرا وتنقل عنه.

(5) نشر الحمان: 146.

## الصورة العامة لمنهج السبتي النقدي :

واجه السبتي مقصورة حازم<sup>6</sup> بالشرح والتحليل النقدي الدقيق والممتع، مواجهة المتمكن الواعي بالنص والتمكن من منهجه وأدواته ومعارفه ومصطلحاته، ولقد شعر منذ البداية أن يحتاج لعمل يحمل إشكالا منهجيا في متنه بين خطبة حازم الغنية بالمصطلحات والإشارات النقدية والبلاغية، كما أنها غنية بالمظاهر الجمالية في أساليبها وإيقاع فقراتها، وبين عالم المقصورة أيضا سواء في ضروب المصطلحات المعتمدة فيها أو في المعارف المضمنة أو في المظاهر والألوان التي حددت علميتها وشعريتها معا في ذلك اللقاء الشعري الطويل وليحتاط لعمله المنهجي النقدي أخفنا بمقدمة احتاط فيها لنفسه قبل أن يحتاط لعمله ومنهجه فيها كذلك، يقول السبتي عن خطوط عمله المقبلة وعن موضوعه، واضعا ذلك في محاورين :

### الأول عن منهجية المقصورة ومضامينها العامة المعرفية والفنية :

لما تأملت مقصورة الامام الأوحّد أبي الحسن حازم... ألفيتها تجمع :

- 1 — ضروبا من الاحسان.
- 2 — وتشتمل على أفانين من البيان.
- 3 — وتتضمن فوائد جمّة من علم اللسان.
- 4 — وتشهد لمنشئها بما انتضمت من غرائب الأنواع.
- 5 — واتسمت به من عجائب الابداع، فإنه سابق الميدان، وحائز خصل البرهان. لا جرم أنها :
- 6 — بما أورد من الفوائد.
- 7 — وقيد من الاوابد.
- 8 — ووصف من المعاهد.
- 9 — وضرب من المثل الشارد.
- 10 — وأوماً إليه من الوقائع والمشاهد.

(6) انظر مراجع عن من المقصورة، ومعارضة حازم مقصورة ابن دريد وتحقيق كل ما يتعلق بذلك في أطروحتي عن مباحث النقد الأدبي بالمغرب... : 2 / 369، 271. الطبعة المرقونة بكلية الآداب بالرباط.

11 — وانتحاه من المنازع البيانية والمقاصد.

12 — ديوان العرب<sup>(7)</sup>.

13 — أودعه كثيرا من توارخها.

14 — وجمع فيه من المعارف ما يعترف لقدمه برسوخها<sup>(8)</sup>.

الثاني عن منهاجه هو في تحليل المقصورة :

«وقد رأيت أن أضع عليها كتابا أضمنه :

1 — شرح غريبها.

2 — والكلام على بدائع أسلوبها.

3 — منبها على ما اخترع من أنواع الأغراض وضروبها.

4 — ثم أمد عنان القول فيما أشار إليه من أيام الأوائل وحروبها.

5 — فيكون جامعا لكثير من الفنون، محتويا على الإبكار من غرائب الكلم والعدن.

6 — مطالعا على أخبار الأمم الخالية والقرون...»<sup>(9)</sup>

تلك هي المقاصد العامة لموضوع المقصورة ومضامينها ومنهاج حازم في إبداعها، ثم منهاج النقد التطبيقي الذي سيتبعه السبتي في تحليلها. وهذه المقدمة المنهجية القيمة تقدم لنا إشارتين هامتين جدا يسعف عرضها فيما تسعى إلى تحقيقه هذه المداخلات المتواضعة :

1 — تتعلق الإشارة الأولى برأي علماء العصر وأدبائه وشعرائه في حازم وشعره ومقصورته وينوب عنهم ثلاثة من أقطاب المغرب : ابن الشاط، وابن المرحل، وابن خميس، يقول السبتي : «سمعت شيخنا الإمام أبا القاسم بن عبد الله ابن الشاط... يقول غير ما مرة : وصل إلى بلدنا جزء من كلام أبي الحسن حازم يحتوي على مقصورته الالفية وجملة من قصائده، فدعاني الإعجاب بكلامه أن أوقفت عليه شيخ الجماعة أبا الحكم مالك بن المرحل رحمه الله، فتأمل ذلك ثم

(7) جواب «لاجرم أنها» السابقة.

(8) رفع الحجب : 2/1 وجميع النصوص والاحالات المعتمدة تنظر في المطبوع والمخطوط ومقارنته بتحقيق الزميل الحجوي السابق الذكر.

(9) رفع الحجب : 3/1

قال : « لا أقول إن هذا شعر، ولكني أقول هو ديوان علم». وحديثي بعض الشيوخ عن الشيخ أبي عبد الله ابن خميس التلمساني رحمه الله.... أنه كان كثيراً ما يفتخر ببقاء أبي الحسن حازم فيقول : «لقيت حازماً وما أدراك ما حازم» يردد ذلك في أكثر أوقاته<sup>(10)</sup> من أجل هذه القيمة بقول السبتي : «وقد رأيت أن أضع عليها كتاباً»<sup>(11)</sup> ليثبت أنه لا يشرح نصاً عادياً ولا يواجه شاعراً عادياً كذلك.

2 — الإشارة الثانية — وهي الصفة الأولى ونتيجة عنها وموجهة بأبعادها — تتعلق بما يمكن تسميته بازديادية الإحساس : فهو يعترف «المزاحمة الشواغل»<sup>(12)</sup> مما يشعرون بالاعتذار عما يمكن أن يقع فيه من هنات، لكنه اعتذار الحذر، لأنه يقرر قائلاً : «ولو آل جهدا في أن توخيت الصواب، وأوضحت من أسرار ما شرحت كل ما يبهر اللباب»<sup>(13)</sup> فيشعرون بالاعتذار ثم التواضع، فالتمدي والثقة فيما صنع من عمل انتهى إلى أن يكون «كالروض مطلول الخمائيل»<sup>(14)</sup>. ومع ذلك يظل في النهاية ناقدا متواضعا، كما نرى ذلك في نهاية هذا الشرح المتشعب العجيب، يقول السبتي : «هذا آخر شرح القصيدة، ومنتهى ما اعتمدته بالتقييد، وقد تركت فيه الأطناب، وما ذكرت ما يسوغ ذكره إلا اللباب، فإن كنت قد جئت من القول بسداد، أو أتيت بما يحصل من القارئ على رشاد، فقد وفيت بما وعدت، ووصلت إلى الغرض الذي كنت أردت، وإن كنت إنما فهمت خطأ وخطلا، وتكلمت بما لم يطبق للصواب مفصلا، فإني أستقبل من الزلل، وأقول : نية المؤمن أبلغ من العمل»<sup>(15)</sup>، لكن عمله كان في مستوى نيته وثقافته ووعيه بعالم المقصورة والعلم بها وبأسرارها اللغوية والشعرية والمعرفية.

فهل كانت الاشارتان بنصوصها تمثلان عندي جزئيات غير مباشرة تسمح في تقديم الصورة العامة لمنهج الرجل، لكن الإشارة الأولى تضم قضية كبرى تتعلق

(10) رفع الحجب : 3, 2/1

(11) نفسه : 3/ 1

(12) رفع الحجب : 3/1

(13) نفسه

(14) نفسه

(15) رفع الحجب : 183/2



بإشكالية «العلمية» و «الشعرية» في شعر حازم بالخصوص في «مقصورته»، وذلك عندما علق الشاعر المغربي الصالح مالك بن المرحل على شعر الرجل وهو يجيب ابن الشاطئ « لا أقول إن هذا شعر، ولكني أقول هو ديوان علم»، ومع إحالتي على ما حققته في شاعرية السبتي<sup>(16)</sup> بأن السياق يدفعني هنا إلى مخالفة توضيحية لشاعر المغرب مالك بن المرحل وهو العالم اللغوي والحكيم المتصوف.

إن تقسيمنا اللاحق<sup>(17)</sup> لمقصورة حازم تقفنا على عالمين رئيسيين حاسمين في تحديد صورة «الشعرية» و «العلمية» فيها، فالمقصورة برغم التداخل وتفاوت المستويات الفنية التي ترفض تقسيمنا التحريري المنهجي السابق في بعض جزئياته، تتكون من لوحات وصفية وغزلية، ومن حديث عن ذكريات نفسية وعاطفية وغيرها، كلها تنضم، على الرغم من محتواها المعرفي الذي يجعلها بوجه ديوان علم، بالصور الفنية البديعية الجميلة التي تذوب أفكارها ومعانيها أو «علمها» في مظاهرها التصويرية الشاعرية وتلتحم بالصور الفنية التي تجعل منها بحق آية من الشعر البعيد الاستعارات والملتحم التشبيهات والمجازات والكنائيات. لكن لوحات أخرى من المقصورة حبل بالمعلومات المتنوعة مما يجعل منها بحق ديوان علم أكثر منها ديوان شعر، وليس معنى ذلك — حتى في خلفية حكم ابن المرحل — خلو هذه اللوحات من مظاهر الشعرية وصورها وإيقاعها، وإنما ضآلتها أمام كثافة المادة العلمية المقدمة، مما يجعل حكم الشاعر ابن المرحل النقدي صائبا لكن ليس في عموميته.

### مستويات المنهج بين شرح خطبة المقصورة ونصها :

هناك تكامل منهجي مارسه السبتي بين شرح الخطبة والمقصورة وستطبع رصد المستويات التي شكلت منهجه في ذلك من خلال الطرح التالي :

1 — المستوى الأول : وهو مستوى عام يمس عمله في شرح الخطبة، وعمله في شرح المقصورة فقد قسم العملين إلى مقاطع ليسهل عليه الشرح ومواجهة قضاياها اللغوية والبلاغية والمعرفية، فجاءت الخطبة في سبعة وعشرين مقطعا، والمقصورة في 145 مقطعا ولن نستدل بنصوص لهذا المستوى، فما سيأتي سينهض كله بذلك.

(16) الاطروحة : 371/2 — 377.

(17) الاطروحة : 393/2 — 397. وسقدم صورة موجزة عن قوافيها بعد.

2 — المستوى الثاني : ونستدل عليه بمقطع دال ورد عند حازم في الخطبة — ونحن هنا نفصل في التحليل بين الخطبة والمقصورة — وذلك عندما أشار حازم إلى بعض المصطلحات البديعية ناعنا كل مصطلح بصفات جعلت الناقد يحتاط في الشرح بين المستوى الاصطلاحي وبين المستوى اللغوي، يقول حازم متحدثا عن المقصورة بصيغة الآخر الغائب :

«قد أحكم صيغتها ومبناها، وقسم صنعة لفظها ومعناها، إلى ما ينشط السامع، ويفرط السامع، من : تجنيس أنيس، وتطبيق لبيق، وتشبيه نبيه، وتقسيم وسيم، وتفصيل أصيل، وتبليغ بليغ، وتصدير بالحسن جدير، وترديد ماله من نديد، إلى غير ذلك...»<sup>(18)</sup>، وقد أحس الناقد — في الشرح — بالاشكال بين المصطلح واللغة فقال : «وقد عدد أبو الحسن هنا ألقابا من الفن المسمى بالبديع سآتي على تفسيره إن شاء الله عند الفراغ من الكلام على هذه الخطبة»<sup>(19)</sup>، فأفرد لها هنالك فصلا أجعله كالمقدمة للكتاب : فمتى سنح لي الكلام على نوع من ذلك في أثناء الشرح أحلت عليها»<sup>(20)</sup>.

3 — المستوى الثالث : ونستخلصه في النص السابق وهو قوله : «فأفرد لها هنالك فصلا أجعله كالمقدمة للكتاب»، وكأنه يشعرنا بأن كل ما فعله لحد الآن من تمهيد عن «البيان» وقيمة عازم ومقصورته وعناية رجال المصرية، ثم شرحه المختصر لخطبة مقصورته، لا يرتقي لمستوى العناية بهذه الإشارة البلاغية / النقدية.

4 — المستوى الرابع : ويتعلق بمجموعة من المصطلحات البلاغية التي أشار حازم في خطبته إلى بعضها، ولخطورتها وقيمتها عند الناقد، أشبعها القول مؤكدا اعتبارها مقدمة للكتاب ومرجعا يحال عليه لما سيرد منها أثناء شرح المقصورة. وأكتفي هنا احتراما لمنهج هذه المداخلة برصد تلك المصطلحات مرجئا بحثها وتصنيفها وإفراز ما بها من قيم نقدية / بلاغية إلى سياق أنسب :

لقد حصر السبتي تلك «الألقاب» «المصطلحات» من الفن المسمى بالبديع على

(18) رفع الحجب : 13/1

(19) يعني في مرحلة شرح كلماتها وقضاياها العامة، وليس الوقوف على المصطلحات المرفقة.

(20) وهذا ما يؤكد التكامل في شرح المصطلحات بين ما ورد منها في الخطبة، وما سيوظفه الشاعر في المقصورة، ويقف عنده الناقد بالشرح والاحالة والاستشهاد.

الترتيب الذي اعتمدته<sup>(21)</sup> حازم، مميزاً بين وضع صاحبها وبين ما شرحه هو وفرعه :

### مصطلحات حازم :

أ — التجنيس.

ب — التطبيق.

ج — التشبيه.

د — التقسيم.

ه — التفصيل.

و — التبليغ.

ر — التصدير.

ح — التردد<sup>(22)</sup>.

وقد وظفها حازم كما وظف غيرها في مقصوده مثلما تؤكد ذلك إشارته في قوله :... إلى غير ذلك مما أجري على الصبغة البدیعة، والصناعة الرفیعة<sup>(23)</sup>. لكن الناقد لم يلتزم بترتيب حازم في الشرح لضرورة علمية يقتضي استطرادا في التفسير وتفریع تلك الألقاب مما يشعرونا بخلط منهجي، ولكن الناقد كان واعيا بما يفعل ونجح في ذلك فتحدث أولا عن هذه الأنواع مما ذكره حازم، وبعد فاصل اقتضاه الشرح تم الباقي :

أ — التجنيس.

وذكر منه بعد تعريفه الأنواع التالية :

— التماثل أو (المستوى).

— تجنيس التركيب

— تجنيس الاشتقاق

— المنقوص

---

(21) رفع الحجب : 13 1 — 17.

(22) رفع الحجب : 10 1

(23) رفع حجب : 10 1 والديوان : 11

— تجنيس القلب

— تجنيس التصحييف

— تجنيس الكناية (أو التجنيس المعنوي)

— باب الثورية، ذاكرا أن قوما عدوه من ضروب التجنيس<sup>(24)</sup>.

ب — التطبيق: <sup>(25)</sup> (وهو الضباق والمطابقة، وقدامة يسميه التكافؤ كما يذكر منه نوعا أصحاح التبديل).

ج — التشبيه: <sup>(26)</sup> ويفرز حديثه عن هذا المصطلح مستوى منهجيا خامسا يوسع القول فيه قبل أن يعود إلى ما بعد التشبيه :

5 — المستوى الخامس : ويدخل ضمن حديثه عن المصطلحات عاقدا فصلا يقول عنه : «وما يتعلق بهذا الباب : الاستعارة والتمثيل، فلنلم هنا بطرف منهما لأنهما راجعان إلى التشبيه»<sup>(27)</sup>، وبهذا القيد المنهجي يبرر حديثه عن الاستعارة والتمثيل لعلاقتها بالتشبيه. باعتبار أن الاستعارة هي التشبيه، وأن أصل التمثيل هو إقامة المثال الشاهد<sup>(28)</sup>. وبتعميق تحليله بالشاهد يعود إلى لائحة حازم غير محل بعنصرنا المنهجي الذي جعلناه مستوى خامسا.

د — التقسيم: <sup>(29)</sup> ذاكرا منه بعض الأنواع التي عدها ابن رشيق تقسيما وهو «التقطيع».

هـ — التفصيل: <sup>(30)</sup> محدد الفرق بينه وبين التقسيم مزكيا رأي حازم في استقلال المصطلحين عن بعضهما رافضا وجهة نظر ابن رشيق الذي جعل التقطيع قسيما للتقسيم<sup>(31)</sup> دون أن يميز الفرق بين التفصيل والتقسيم، بل دون أن يضع للتفصيل مكانا في عمدته.

(24) رفع الخجب : 13/1 — 14

(25) رفع الخجب : 15/1.

(26) نفسه : 15/1 — 17.

(27) نفسه : 17/1

(28) نفسه : 19/1

(29) نفسه : 19/1 — 20

(30) 20/1

(31) نفسه : انظر العمدة : 25/2



و — التبليغ. (32)

ر — التصدير. (33)

ح — التردد. (34)

وبالتحليل والتعريف والاستشهاد، يقرر انتهاءه من «تفسير الألقاب التي سماها أبو الحسن...» (35) مؤكداً أنه سيتكلم «على سائر أنواع البديع أو أكثرها في أثناء شرح القصيدة» (36). تعميقاً للمستوى المنهجي الذي حددناه سابقاً.

6 — المستوى السادس : حيث يدخل مرحلة المواجهة الصعبة مع نص المقصورة فيقسم النص إلى مقاطعه المذكورة محلاً كل مقطع في ضوء ما يرى من إشكال لغوي أو بلاغي أو نحوي أو تاريخي أو غير ذلك، خاضعاً لطبيعة ومعطيات المقطع وضرورة ما يقود إليه المشاهد الموازي من استطراد يعمق الشرح ولا يبعد عن روحه.

7 — المستوى السابع : حيث يخرج الناقد عن الالتصاق بالنص إلى إيراد شواهد من القرآن والشعر وكلام العرب، محلاً بعض الشواهد غير مستطرد ولا غافل عن الدافع إلى إيراد تلك الشواهد أو شرحها. وهو في كلتا الحالتين : «يستطرد» بكيفية مقبولة ومعقولة إلى : حدث أو خبر تاريخي، أو ترجمة أو غير ذلك بما يفرض عليه تقديم المعلومات والظروف والملايسات التي نمت وتطورت فيها تلك الإشارة في المقصورة، مادام «الآثر الأدبي جزءاً من عالم أوسع» (37) على حد تعبير جان ستاروبنسكي.

8 — المستوى الثامن : ويفرضه غرض الناقد من تعدد الشاهد في المعنى الواحد، وقد يكون هو من الشعراء المستشهد بهم على يده ضمن شعراء عصره من شيوخه وتلامذته، وهذا النقد في الشواهد لمعنى واحد قد يشعرا بخديث الناقد عن

---

(32) نفسه : 20/1 — 21

(33) نفسه : 21/1

(34) نفسه : 21/1 — 22

(35) رفع الحجب : 22/1

(36) نفسه

(37) النقد والأدب : 16

«السرقاٲ»، لكن الرجل لا يستعمل هذا المصطلح، وكثير من نقاد عصره كذلك، ولكنهم — وهو منهج — يستبدله بكلمات أخرى مثل : «أخذ» «نظر» «أشار» «ضمن»، وهي كلها تدخل في دائرة تباري الشعراء في جمالية التعبير عن المعاني الواحدة أو المتقاربة في تناص بريء لا يصل مستوى السرقة، بل يحقق مبدأ التأثير والمأثير بين الشعراء في المعاني والطرق التعبيرية.

هذه هي المستويات سواء في صورتها العامة الأولى أو التفصيلية الثانية، وهي كلها تؤطر منهج الناقد من الخارج، أما المنهج من الداخل فستنهض به الصفحات التالية :

### تمهيد في مجال المقصورة ومجال شرحها

وهنا نواجه إنجاز السبتي في شبكته النقدية العامة محددين المجالات التي تحرك فيها كل من حازم مبدعا وكاتب خطبة، والسبتي ناقدا في المجالات المحددة وما قاده إليه السياق : منها هنا إلى أنني لن أقوم بشرح موازن لمقصورة حازم كما صنع الناقد، ولكنني سألتصق بالشرح في نماذجه جزئية كانت ودالة، أو كلية ودالة أيضا، محلا ومصنفا ومناقشا ومركبا صورة المنهج المتكامل في وجهي عملته من الخارج والداخل واستسمح — لضرورة منهجية — بعرض قضايا المقصورة التي حددت مجالاتها وتحكمت إلى حد في طريقة شرح السبتي، وهو تحكم طبيعي في نقد تفسيري كهذا مرتبط بنص شعري : وتحقيقا للإشارة السابقة عن رأي مالك بن المرحل في شعر حازم والمقصورة بالذات تكرر القول هنا بأن لوحات المقصورة الالفية تنقسم إلى قسمين رئيسيين<sup>(38)</sup> حاسمين في تحديد صورة «الشعرية» و «العلمية» لها. وفيما يلي تقديم موجز عن ذلك :

**القسم الأول :** يتكون من عدة لوحات تتقارب في طبيعة اللغة والتصوير والجمالية وهي :

- 1 — مقدمة غزلية رقيقة جدا : من : 1 — 53.
- 2 — مدح تقليدي في مبناه ومعناه وطريقته : 53 — 178.
- 3 — وصف الأيام السعيدة في لوحات تنوعت بين الوصف والغزل والتجارب والذكريات : 179 — 705.

---

(38) اختلفت هنا اختلافا يسيرا مع كل معرض الأغراض المقصورة وقضاياها انظر المصادر السابقة.

- 4 — حكم وعبر وخاتمة باخوس. 706 — 882.
- 5 — مدح المستنصر بالبأس والشدة والكرم. مع مدح الموحدين في ماضيهم بالأندلس ووصف موقعة «الأرك» : 882 — 912.
- 6 — نهاية الأندلس والعبرة من ذلك : 913 — 947.
- 7 — الاستنجاد بالمستنصر لنصرة الأندلس ومدحه بالشجاعة. 948 — 973.

**القسم الثاني :** ويتكون من لوحتين : الأولى في العبر والحكم، والثانية في وصف قصيدة المقصورة، وأستمرسل في نظام الترتيب حتى لا أخل بوحدة المقصورة :

- 8 — حكم فلسفية ودينية. وعبر : 974 — 995.
- 9 — وصف المقصورة وعمل الشاعر فيها مع الخاتمة : 996 — 1006.
- هذه هي لوحات المقصورة اخددة بخالاتها، ذكرناها مع عناوينها الفرعية المنبئة عن أغراضها، والتقسيم اعتباطي عام توصلت به للعللة المنهجية السابقة، وإلا فالتداخل وارد في القسمين معا حيث اللوحات الجميلة موجودة في سياق الحكم والعبر، والعكس صحيح.
- وهكذا يتحدد :

أ — اجمال المنهجي : الأولى الذي تحرك فيه الناقد لتتبعه بمجالات أخرى لعل أهمها :

ب — اجمال المعرفي : الذي عالج فيه الناقد أحداثا وساق تراجم، وانساق للمساق مع علوم متنوعة.

ج — اجمال اللغوي : كعلم النحو والصرف والمعجم، وهو مجال احتل كثيرا من حيز الشرح للضرورة.

د — اجمال البلاغي : حيث ناقش كثيرا من المصطلحات، واحتاط لعمله هنا كاحتياطه مع اللغة والمجالات الأخرى.

هـ — اجمال الأدبي : ويتعلق بالشاهد في اختياره وتحليله وتوظيفه في السياق المطلوب.

و — اجمال العروضي : سواء في بداية الشرح عند حديثه عن بحر وأوزان وعروض فن المقصورة، أو عند بعض الشواهد.

وهذه أجماليات التي سقتها نموذجاً لا حصراً تحمل في عناوينها نوع الأدوات التي ركبها الناقد متوسلاً بها في سير أغوار النص ورصد معطياته مهما صعبت. وبعد هذا الترميد ائدال منهجياً على جزئية نراها ضرورية فيما نحن بصدد، ننتقل إلى :

### المنهج من الداخل : صورة النقد في رفع الحجب :

اكتفينا فيما سبق بتأطير منهج السبتي من الخارج، والآن ينتقل إلى رصد عناصر المنهج من الداخل رابطتين القضية النقدية وأدواتها ومصطلحاتها سواء في خطبة المقصورة وما سرره السبتي خلالها من قضايا نظرية وعدنا بالرجوع إليها بين الفينة والأخرى خلال شرح المقصورة، وأهم تلك القضايا ما تعلق بالمنهج المنتظر ومجالاته، ثم بالمصطلحات.

ونستسمح القارئ هنا بأن تجري التحليل (1) بين شرح خطبة المقصورة ثم شرح المقصورة، (2) ويتم ذلك من خلال نصوص نموذجية دالة تغني عن غيرها وتمكنا من تحقيق بعيتنا من محاور السبتي.

### المضمون النقدي في الخطبة : صورته ومنهجه وأدواته :

ويمكن رصده في ضوء العناوين / القضايا التالية من خلال نصوص دالة :

#### النص الأول : اللغة بين المعجم والاشتقاق :

حازم : أ — « الحمد لله الذي أنطقنا بأفصح الألسن، ووفقنا إلى التمييز بين ما يقبح وما يحسن... إلخ »<sup>(39)</sup> المقطع.

ب — «... وحبا لله بنعمات رضوانه الطيبة، وسقيا رحمته الطيبة، جميع صحابته وأسرتهم وعصابتهم الكريمة وعترتهم»<sup>(40)</sup>.

ج — «واختص بأعقب تلك الريا، وأغدق تلك السقيا، طائفة اختصاصه، وفئة

(39) رفع الحجب : 1 / 3

(40) رفع الحجب : 1 / 3



استخلاصه، نجوم الامامة الوقادة... إنخ<sup>(41)</sup> المقطع.

ونكتفي بشرح المقطع الأخير (ج). يقول السبتي :

« الغدق والماء الكثير، وقد غدقت عين الصاء. قال تعالى : «وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا»<sup>(42)</sup>. والفئة : الطائفة، قيل هو من المحذوف اللام وهو الصحيح، واستقامة من : فأويت الشيء، أو من فأيته، أي فرقته، لأنهم يقولون في معناه الفرقة، وهو من فرقته. وقد قيل : اهلاء عوض من عين الكلمة، وأنه من فاء، ولا ينبغي أن يدعى حذف العين مع إسكان حذف اللام، لأن حذف اللام أكثر، وإنما ادعى النحاة حذف العين حيث لم يحدوا من ادعاء حذفه مندوحة، واستخلصت فلانا لنفسي أي اختصصته وفي التنزيل : استخلصه لنفسي<sup>(43)</sup> (44).

على هذا النمط يسير السبتي مع إشكال الكلمات لغة ونحوًا وصرفًا غير ذلك، وهي بهذا لا تقدم أي مظهر لمقاطع الخطبة، لكن هذا لا يعني أن عمل السبتي مع اللغة هذا الشكل لا يخدم الجانب النقدي، فنحن نعلم أن أول شيء يتم في مواجهة النص يتجلى في لغته وتراكيبه وطبيعتهما التشكيلية فإن نجحنا في اختراق لغة النص وفهم دلالاتها استطعنا أن ننقل مطمئنين إلى المستوى التركيبي عبر أدوات النحوية والاشتقاقية حتى نعرف كيف تم التشكيل في الصورة الابداعية، وبالتالي كيف نستنتج الدلالة البلاغية الجمالية حيث ذلك «النمط من الأساليب الذي يعلو ما سواه ويمثل قيمة أسلوبية عليا تدرج بعدها مستويات الكلام»<sup>(45)</sup> في سلم الأجناس الأدبية حتى تصل إلى قمة الانفجار اللغوي في لغة الشعر.

ومع المستوى المعجمي والنحوي والصرفي والاشتقائي، وقبل الانتقال معه إلى الصياغة ومتابعة فلسفة التراكيب، نجلس معه جلستين عريضتين مع حازم : الأولى من شعر حازم خارج المقصورة، والثانية تتعلق بنجد وزن المقصورة.

(41) رفع الحجب : 16

(42) الحن : 16—

(43) يوسف : 54

(44) رفع الحجب : 31

(45) الحجاب الدلالية في نقد الشعر : 49.

النص الثاني : إشكال عروضي بين الرجز والمنسرح : يقول :

حازم :

«فالعلم من جنانه والرزق من بنانه  
والصبح من سنانه والشمس من عيانه  
والبرق من ظباه والريح من عنانه»

(الآيات)<sup>(46)</sup>

السبتي : «هذه الآيات — الثانية — من شطر المنسرح، وعروضها وضربها كلامهما مجزوء، مكسوف، مخبون، ولم يجيء من هذا القبيل في شعر العرب شيء عند محققَي العروضيين، وإنما جاء للمولدين، فمن ذلك قول حبيب بن أوس :  
الحسن ————— وهب كالغيث في انسكابه<sup>(47)</sup>

(البيتان)

وقول أبي العتاهية وهو السابق إلى هذا العروض :

أيما ذوي الوخاسه أكثرتم الملامه<sup>(48)</sup>

(الآيات 4)

ولا يبعد أن تحمل هذه العروض على الشاذ من مجزوء الرجز المقطوع عروضه وضربه، قال بعض المحققين : وحملها على المنسرح أوجه. قلت : وليس هذا موضع استيقاء الكلام على ذلك، وقد ذكر عن بعض المتأخرين أنه يحمل كل بيت من هذه الآيات بيتين من المنهوك جعلاً بيتاً واحداً، وهو مذهب فاسد، وجعل أبو الحسن في البيت الثالث من الآيات البرق من سيوف الممدوح لوميضه، والريح عن أعتها لسرعتها، وكلا المعنيين متداول. والمعان : المباداة والمنزل. وقد فسره بعضهم بالمكان المعمور<sup>(49)</sup>».

يضيف الناقد إلى الجانب اللغوي / المعجمي النحوي الاشتقاقي، جانباً تقنياً آخر يتعلق بهيكلة البناء الشعري من حيث بحره ووزنه وما يلحقهما من تغيير

(46) الديوان : 8. رفع الحجب : 4/1 — 5

(47) ديوانه : 108/1. تحقيق محمد عبده عزام. دار المعارف. مصر / 1964

(48) ديوانه : 640، تحقيق : د. شرقي فيصل ، مطبعة جامعة دمشق/1965.

(49) رفع الحجب : 5/1.

ثم تحت رقانة ما قننه العروضيون من أوجه التعديل في دوائر البحور المعروفة. لكن ناقدنا — وهو من محققي العروضيين كذلك — يشير نقاشاً دقيقاً حول تقلبات هذا الشعر بين بحر الرجز والمنسرح، ونبين ذلك في هذه الأضائة :

يعرض الناقد لبحر الأبيات من خلال رأيين يقرر في الأول أن «هذه الأبيات من شطر المنسرح وعروضها وضربها كلاهما مجزوء مكسوف محبون» ويستأنس في التالي بأن «لا يبعد أن تحمل هذه العروض على الشاذ من مجزوء الرجز المقطوع عروضه وضربه» لكنه يؤيد رأيه الأول بما يراه بعض المحققين من أن «حملها على المنسرح أوجه» ولننظر — من جهتنا — أيهما أقرب إلى الصواب والتقديم في الجواز ؟

ولنبداً بالرجز المقطوع باعتباره مؤخرًا عند الناقد، ولنتنه بالمنسرح لأنه الأصوب عنده فيما يرى : أما الرجز المقطوع «وقد شذت منه عروضه وإفيه مقطوعة وضربها مثلها»<sup>(50)</sup>، فيسميه الدكتور عبد الله الطيب بالرجز القصير «مستفعلن متفعّل» مرتين<sup>(51)</sup>، والشعر يعطيه هنا :

|         |     |        |         |     |        |
|---------|-----|--------|---------|-----|--------|
| فالعالم | من  | جنانه  | والرزق  | من  | بنانه  |
| ...     | ... | ...    | ...     | ... | ...    |
| مستفعلن | من  | متفعّل | مستفعلن | من  | متفعّل |

وهذا هو النوع الثاني من رتب أوزان «الرجز» الثلاثة<sup>(52)</sup>، لكنه يقول، عند العروضيين، إلى الرجز المزهوك الذي سيترجمه الرأي الثالث فيما بعد، لأنه «لا يبعد أن تحمل هذه العروض على الشاذ من مجزوء الرجز المقطوع عروضه وضربه» كما رأى السبتي، لذلك فهذه العروض «حملها على المنسرح أوجه» «العلة في التقطيع، الذي تحولت فيه «مستفعلن» إلى «متفعّل» وهي «مزهوكة» فوجب النظر بعد هذا في الرأي الأول المؤكد عند الناقد وهو أن الشعر من نظر المنسرح ما دام الرأي الآخر «تكلفاً ولأن يعد رجزاً أشبه»<sup>(53)</sup>.

(50) المعيار في أوزان الأشعار : 59 (الوشرسي).

(51) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصياغتها : ج 1 ح 1 : 80، 81. ينقل مستفعلن إلى متفعّل الخائفة في هذا البحر.

(52) يعني المرحج : 81

(53) نفسه. وكتاب الشعر 61، 62 (جيل سلطان).

فوزن المنسرح «مستفعين مفعولان مستفعلين» مرتان، ومن جوارزته ما يلحق  
تفعيلة «مفعولات» من تفسير يقضي بها في النهاية إلى «فعولين» ذلك أنه «يجوز  
أن تحذف فاء «مفعولات» بالخب — حذف الثاني الممكن — فتصير «مفعولات»  
وهو قبيح، وأصح من ذلك حذف الواو والفاء معا بالخب — المركب من الطي  
— حذف الرابع الساكن — والخب — فتصير «معلات»، ويستحسن أن تحذف  
الواو بالظني فتصير «مفعلات» ويجوز أن تصير «مفعولات» — في المنهوك «فعولان»  
بالخب، ويجوز أن تصير «مفعولين» — في المنهوك — فعلون بالخب أيضا» (54).  
وهذا التحليل العروضي مراحل جوارزات «المنسرح» يعطيه بوضوح تحويل «متفعل»  
إلى «فعولين» فيصبح منهوك الرجز منسرحا كما في هذا التقطيع :

فالعالم من جنائه والرزق من بنائه  
.....  
مستفعلين فعولون مستفعلين فعولون

وبهذا يفضل الناقد «فعولين» التي امتلكها المنسرح علي شذوذ الرجز في  
«متفعل». ويبقى أمامنا رأي ثالث مرفوض الذي رآه بعض المتأخرين من «أنه يحمل  
كل بيت من هذه الأبيات بيتين من المنهوك جعلاً بيتاً واحداً وهو بمذهب فاسد  
لذلك لا ضرورة للوقوف عنده، وفي التقطيع الثاني تصریح بفساده :

فالعالم من جنائه  
.....  
مستفعلين متفعل  
والرزق من بنائه

بناء على العلل التي قدمها التحليل السابق للرأيتين، وظهور فساد الرأي الثالث  
بهذا التقطيع.

وتظل في هذا النص إشارة نقدية، يواجهنا فيها لون في التفسير أقرب إلى  
التحليل الأدبي منه إلى مجرد الاكتفاء بشرح كلمة، لكنه مع ذلك تحليل جزئي  
لا يرتقي إلى ما نتظره من ناقد لغوي، وأديب شاعر متمكن من حسنه وأدواته،  
فقد اكتفى بما ذكره حازم في البيت الثالث :

والبرق من ظباه والريح من عنائه



من جعله «البرق من سيوف الممدوح لوميضه، والريخ من أعنته لسرعتها» مؤكداً أن «كلا المعنيين متداول» وكأن دلالة المعنى تهيم على ناقدنا في كل شيء، حتى في الظاهرة الفنية التي يصبح فيها «المعنى» وليد تصوير فني بديع بتشكيل لغوي شاعري أكثر إبداعاً، ولد بتلك المقابلة التي أدرجتها بين «البرق والريخ» من جهة، وبين «الممدوح» من جهة أخرى :

|       |       |         |       |        |         |
|-------|-------|---------|-------|--------|---------|
| 1     | 2     | 3       | 4     | 5      | 6       |
| البرق | السيف | الممدوح | الريخ | الأعنة | الممدوح |
|       |       | الوميض  |       | السرعة |         |

والطرف الغائب في هذه المقابلة هو الفرس، والطرفان الحاضران هما : السيف والأعنة كرمز للجم الفرس. فهذا المقطع وإن لم يطلا تحليلاً فقد قدم إحياء بالقدرة على رصد العلاقة بين عناصر الصورة (البرق — السيف — الوميض / الريخ — الأعنة — السرعة = الممدوح). ولكن الناقد وهو الذواق للفن الشاعر به حساً وذوقاً وعطاءً وصناعة لم يشف غليلنا في تجسيد هذه الصورة عبر تحليل مطلوب، فهل هو فاعل ذلك في باقي النصوص والمخاور بعد الكلمة ؟

### النص الثالث : مظهر الكلمة بين الاقراء والصيغة :

وعلى الرغم مما في هذا النص<sup>(55)</sup> من آراء نقدية يمكن أن تعمق من صورته المنهجية والمصطلحية فإننا نستنتج أن نقف منه عند بدايته ونهايته لورود مصطلحين فلسفيين وموقفه الحذر من الوقوف عندهما احتراماً للسياق، يقول :

حازم : «وغاص لها الخاطر في بخار الأغراض على درر أصدافها جواهر، وجواهرها أعراض»<sup>(56)</sup>.

السبتي : «الدرر جمع درة وهي اللؤلؤة، والأصداف جمع صدف وهو غشاء الدرر الذي يشتمل عليها، والجوهر : الأحجار النفيسة، والجوهر في اصطلاح

(55) انظر تحليله الكامل في الأطروحة : 2 / 405 — 409. وهو في صفحتين حصهما لشرح النص السابق.

(56) الديوان : 10. رفع الحجب : 81.

المتكلمين يطلق في مقابلة الأعراض، وهو عبارة عن كل متحيز بنفسه شاغل للمكان، والعرض ما لا يتميز. وليس هذا موضع استيقاء الكلام على مذاهبهم في ذلك. والمعنى الذي أراد أن الخاطر غاص على درر من المعاني صارت الألفاظ التي يعبر بها عنها كالأصداغ لها لا شتاها عليها، تضمنها لها، كما يشتمل الصدف على الدرر وقد كرر هذا المعنى فقال من أبيات راجع بها بعض أهل عصره :

كذا يفتق المزن الكمام عن الدهر      وتبدي الدباجي عن سنا الأنجم الزهر  
كأئتم لفظ والمعاني أراها      وصبح بيان تحت ليل من الخبر (57)

أردت صور البيت الثاني : وجعل تلك الألفاظ جواهر لنفائسها وبارع حسنبا، ولم يزل تشبيه المعاني البديعة والألفاظ البارعة بالدرر والجواهر متداولاً بين الناس، قديماً وحديثاً. وقوله «وجواهرها أعراض» الضمير عائد على الدرر، أي جواهر تلك الدرر : أعراض، يريد أنها معان متخيلات، وليست بأعيان تتميز، فهي من قبيل الأعراض. وأراد بالجواهر هنا الحقائق، أي وحقائق تلك الدرر أعراض، يسوغ أن يراد بها الاحجار النفيسة على جبهة التشبيه كما تقدم، وتكون إضافتها إلى الدرر بمنزلة قولهم «دقيق الحوارية وشبهه، وقصد الثورية بالجواهر لإتيانه بها مع الأعراض، وقد يسوغ أن يريد بالأعراض هنا : أعراض الكلام، وهي معارضة، قال بعضهم : أعراض الكلام ومعارضة ومعارضة : كلام يشبه بعضه بعضاً في المعاني (شواهد من القرآن والشعر والحديث الشريف وكلام العرب) ... ويكون مراد أبي الحسن على هذا الوجه بالأعراض ما تحتوي عليه مقصودته من أنواع الثورية والكتابات والاشارات وشبه ذلك، مما فيه معظم محاسن الكلام، وتتم أيضاً على هذا المعنى الثورية بذكر الأعراض والجواهر فتأمل» (58).

وللتحكم في محاور هذا النص نشير إلى انتزاعنا ما به من إطناب معرفي خدم النص ولم يخدم المنهج، كما يؤكد أنه حقق لنا الإضافات التالية :

أ — لقد تحركت الكلمة عنده بين المستوى الوضعي وبين المستوى الدلالي، وهو مستوى منهجي سيقدم لوحات كثيرة منها في شرح الموسوعي، وهي لوحات تراوحت بين نسبية التركيز على المعجم كثيراً، وبين البحث عن أبعاد الكلمة في

(57) ديوانه : 137.

(58) رفع الحجب : 98/1.

شبكة الفنية الدلالية كما يحكيها ويوظفها النص المقطع الشعري (المقصورة)، وقد يحدث العكس فيتم التركيز على الدلالات الفنية والفكرية وعلى ما يمكن تسميته بالترف العلمي التي تنهض به النقطة التالية الموالية. هذا فقد ركز الناقد على الكلمات : «الدرر» و «الأصداف» و «الجواهر» و «الأعراض» لتكون محورا طويلا لشرح هذا المقطع النص المكثف من الخطبة. فقد رصد المستوى المعجمي لينتقل إلى مستوى أعمق سواء في تفسير «الجوهر» و «العرض» كمصطلحين فلسفيين قبل أن يتلقفهما منهج المتكلمين ومضامين ثقافتهم<sup>(59)</sup> حيث اكتفى بوضع «الحد الموجز» لهما بشكل يتفق معه فيه كل المدارس<sup>(60)</sup>. أو في العلاقة الجدلية، بينهما وبين دلالتيهما الوظيفية الفنية من حيث علاقتهما هنا بالمعاني والألفاظ «الدرر والأصداف».

ب — فقطعة منهجية أخرى تظهر في تحفظه من الاستطراد والجري وراء استيفاد الكلام على مذاهب «الفلاسفة في تفسير الجوهر والعرض»، وانتقاله مع حازم إلى «أن الخاطر غاص على درر من المعاني صارت الألفاظ التي يعبر بها عنها كالأصداف هنا لاشتراكها عليها وتضمنها لها كما يشتمل الصدف على الدرر» وهو وصف نقدي مقصدية حازم من هذا المقطع في عمله بالمقصورة، ومع هذا فكثيرا ما استطراد السبتي ليثبت كفاءته، ولم يكن هذا التحفظ من استيقاء الكلام على مصطلحين من ثقافة المتكلمين ليعده عن تأمل الكلمة في التركيب وتخيل موقعها في المقصورة، حيث لم توجد الكلمة لذاتها بل لدلالاتها التركيبية، ثم دلالتها الاحالية على خطاب المقصورة، ومن هنا أدرك حدود الكلمات إلا الجوهر — العرض — الدرر الأصداف) من طرف، و «الألفاظ — المعاني» من طرف، وأنواع الثورية والكتابات والاشارات وشبه ذلك مما فيه معظم محاسن الكلام» من طرف ثالث، أقول : أدرك «العلاقة» في «الأسلوب»، فأقنعنا بأنه، وبما سيفرزه الشرح، مالك لنقده ولأدواته وتصوره.

ج — أما الترف العلمي المصاحب له الشرح، فإننا نرفض منه الزائد عن الحد، ونقبل منه ما يضيء غامضا، ويفك معلقا، ويثبت قاعدة ويحلي ظاهرة في شبكة

(59) مباحث تحديد : 124. أمين الخولي : دار المعرفة ط. 1961 مقرر.

(60) المعجم الفلسفي (طبعا) : الجوهر : 423 1 — 424) و (العرض : 68 2، 71)



النص. لأن النص يموت إذا تغلق على نفسه، فوجب فتح نوافذه على دلالاته الخارجية الموحى بها الخطاب الداخلي بمكوناته.

#### النص الرابع : احترام السياق في ممارسة المنهج التفسيري :

ويقدم عنصرا منهجيا في غاية الدقة ويتحلى في موقفه من حديث حازم عن المصطلحات البلاغية التي أحكم بها صناعة مقصودته، يقول :

حازم... فقد أحكم صيغتها ومبناها، وقسم صنعة لفظها ومعناها، إلى ما ينشط السامع، ويفرط السامع، من : تجنيس أنيس، وتطبيق لبيق وتشبيه نبيه، وتقسيم وسيم، وتفصيل أصيل. وتبليغ بليغ، وتصدير بالحسن جدير، وترديد ماله من نديد، إلى غير ذلك، مما أجري من الصياغة... على نحو هذه المسالك»<sup>(61)</sup>.

السبتي : «... الأنين، المؤانس، وكل ما يؤنس به. واللبيق : اللائق يقال : لبق به الثوب أي لاق به. والنبيه : الشريف، يقال : نبه الرجل بالضم : إذا شرف. والوسيم : الحسن والأصيل : الخكم، من قوهم : أصيل الرأي : أي محكمه. والجدير : الحقيق بالشيء. والتديد : النظير.

وقد عدد أبو الحسن هنا ألقابا من الفن المسمى بالبديع سآتي على تفسيرها إن شاء الله عند الفراغ من الكلام على هذه الخطبة، فأفرد لها هنالك فصلا أجعله كالمقدمة للكتاب، حتى سنح لي الكلام على نوع من ذلك في أثناء الشرح أحلت عليها»<sup>(62)</sup>.

وبتفكيكنا لمعاني النص / الشرح، وتركيبنا لها في قضاياها، يحصل لنا الاستنتاج التالي :

أ — مبدأ احترام السياق جعل الناقد يحتاط أحيانا في مواجهة الكلمات والمصطلحات مما اعتاد أن يقوم به مع الكلمات العادية، قولا ينفعه مع المصطلحات المكثفة المعاني.

ب — من هنا ميز في النص بين شرح الكلمات وبين المصطلحات التي أخرها لمكانها نظرا للفرق الشاسع بين المستويين، لذلك رأيناه يتخطى المصطلح إلى شرح الكلمة :

(61) الديوان : 10 — 11. رفع الحجب : 10/1.

(62) رفع الحجب : 10/1.



تخطى مصطلح «التجنيس» إلى كلمة «الأنيس» و «التطبيق» إلى «اللبيق»... وهكذا وقد سبق أن احتاط من توسيع القول في مصطلحي «الجوهر» و «العرض» على مذهب المتكلمين، لكن الأمر هنا أبغ لأنه يتعلق بمصطلحات هي جوهر الأدب والنقد معا، إنها مصطلحات بلاغية تدخل جسم الأدب فتقويه وتعطيه الحس والجمال والخلود، وتدخل ثقافة الناقد فتبصره بالأدوات العلمية التي يركبها لرصد مظاهر الكمال والضعف في هيكل النص وبنيته العامة، لأن «هذه البلاغة هي روح الأدب، والأدب جسمها ومادتها: تعلم صنعه، وتبصر بنقده»<sup>(63)</sup>، ولن تتمكن هي، ولن يتمكن هو من الوصول إلى تحقيق ذلك إلا بمصطلحات هي الأدوات الإجرائية الصارمة التي أحس بها الناقد السبتي موضوعه بجانب كلماتها / صفاتها اللغوية، فاحترم السياق وميز بين شرح لغوي عادي، وبين شرح اصطلاحي أعمق وأشمل وأقوى، فخص المصطلحات بفصل خاص، وأدرج الكلمات ضمن مثيلاتها.

#### النص الخامس : الأسلوب بين دقة الصنعة وقوة التأثير :

يعالج النص طبيعة التناص في المسلمات المعرفية والفنية والمنهجية بين اللاحقين — السبتي — والسابقين — الجاحظ — عبر محوري الأسلوب بين صنعه وقوة تأثيره، يقول :

حازم : «... فالآذان بأفراطها خالية، والأذهان عن أسماطها غير خالية، فهي من تناسب ألفاظها وتناسق أعراضها قلادة ذات اتساق، ومن تبسم زهرها وتنسم نشرها حديقة مبهجة للنفوس والاسماع والاحاداف»<sup>(64)</sup>.

السبتي : «قد تقدم تفسير الاقراط وذكر المعنى الذي لأجله استعير القرط هنا، وكذلك تقدم تفسير السمط. والاتساق : الانتظام والتناسق كذلك... وقوله : «من تناسب ألفاظها» : إشارة إلى حسن النظم، فقد قال الجاحظ : «أجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء، سهل الخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا، وسبك سبكا» وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ، لذ سماعه، وقرب فهمه، وعذب نطقك به، وحلي في قلب سامعه، فإذا كان متنافرا متبائنا، عسر

(63) مناهج تحديد : 323

(64) ديوانه : 11. رفع الحب : 101

حفظه، وثقل على لسان الناطق به، ومجته المسامع. ومن أبدع تناسب الكلام قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بعض مواعظه: «أين من سعى واجتهد، وجمع وعدد، وزخرف وتجد، وبنى وشيد»، فاتبع كل لفظة ما شاكلها، وقرنها بما يشبهها»<sup>(65)</sup>.

يضيف الناقد في هذا النص جزئيات منهجية أخرى، يمكن اعتمادها في حل إشكالية المنهج والمصطلح في منهجه النقدي.

أ — تجاوز الكلمات التي سبق شرحها يحمل دعوة صريحة للدارس أن يكون على علم بمعجمه اللغوي، لأن سياق شرح النص لا يرحم.

ب — تحديد الأدوات والوسائل المنهجية واللغوية في بناء الأسلوب سواء صنعناه كمبدعين، أو حللناه كدارسين، والتركيب من الناقد على «الأسلوب» في المجال النقد الأدبي التطبيقي — أو النظري — يحمل بعدا منهجيا من أكتف أبعاده في صورته النقدية، واعتماده رأي الجاحظ في هذه القضية الابداعية / النقدية الكبرى تدخل في دائرة «التناسق» والتفاعل بين المثقفين في المسلمات، فقد تبنى رأي ذلك العبقري العباسي في الأسلوب الفني انطلاقا من تناسب الألفاظ وطبعها من تناسب المعاني والأغراض<sup>(66)</sup> كما أشار حازم إلى ذلك في مكان آخر من خطبته. وهذا التبنى يدخل في إطار التعامل مع مسلمة طبيعية في بناء الشعر. «تلاحم الأجزاء وسهولة الخارج» سواء عند المبدع وهو يصنع النص، أو عند الدارس وهو ينقده.

ج — والشعر بهذه الصناعة تحقق للسماع لذة المسموع، وللفهم قرب التأثير والتلقي التلقائي العفوي، وللنطق العذوبة والذوق، وإلا كان «متنافرا متباينا».

د — وبقدر ما ينجح السبتي في تحقيق التفاعل / التناسق مع الجاحظ في اعتبار مقولته بنية مسلمة في التركيبة النقدية لصاحبنا، بقدر ما ينجح كذلك في اختيار الشاهد لتحقيق صورة التناسق.

---

(65) رفع الخجب : 10/1.

(66) انظر صورة هذا التناسق في فعل «التناسب والوحدة» من كتاب «مفهوم الشعر» ص :

416 — 473 للدكتور جابر أحمد عصفور. دار الثقافة للطباعة والنشر ط 1/1978

القاهرة.

## النص السادس : المقصورة بين الوزن والتوثيق :

وكان يؤدي أن تتجاوز هذه القضية لما سبق بنا في نص سابق عن مكانة السبتي في العروض، ولكن المقصورة، وهي قطب في هذا الشرح، تفرض رأي حازم والسبتي في توثيقها من حيث صورتها ووزنها والذي مدحت به وابن دريد الذي عارض حازم مقصوره بألفيته هذه يقول :

حازم : «وما هذه القلادة المنظومة، والروضة المنطوقة، إلا قصيدة من الرجز غير مشطورة، عارضت بها قصيدة أبي بكر بن دريد المقصورة، وأطلعت فيها نورا هاديا من ثناء الحضرة المقصورة...» (67).

السبتي : «المقصورة التي أصابها المطر وذلك مما يزيد في حسنها... والرجز : أحد أشطر الدائرة الثالثة من العروض، وأصله من «مستفعان» ست مرات، وقد اختلف لم يسمي رجزا لأن أول كل جزء من أجزائه سببان، فهو يتوالى فيه حركة وسكون، ثم حركة وسكون، إلى أن تنتهي أجزاؤه، تشبيها بالرجز في رجل الناقه، وهو اضطرابها ورعديتها. وذلك أنها تتحرك وتسكن، وقيل غير ذلك.

وأحسن من هذا أن يقال : يسمي رجزا من الصوت لأنهم كانوا ينزعون كثيرا بهذا النوع من الشعر في عملهم وسوقهم وحروبهم فيرفعون به أصواتهم ويخلدون به. والارتخاز : صوت الرعد، والمشطور ما ذهب الشطر من أجزائه... وأبو بكر بن دريد هو... (ترجمته)... وقد ذكر أن أمير المؤمنين أبا عبد الله المستنصر صاحب إفريقية وصل أبا الحسن حازما على مقصوره هذه بألف دينار من الذهب العين...» (68).

وهو هنا يقوم — بالإضافة لما مر بنا في نص سابق — أصولا توثيقية نسجلها لبنات في صرح منهجه النقدي :

أ — فباستثناء كلمتين وقف عندهما لغويا، يوثق لنا بحر المقصورة بتحديد وزنها في «الرجز التام» غير المشطور كما نص حازم على ذلك... مع جواز زحافات لا تتسبب في نقل الوزن من التام إلى المشطور أو المجزوء أو المنهوك — مثل وإنما تبقى على صحته وإبعاده عن المشطور الذي بصر حازم على انتقائه من مقصوره

(67) الديوان : 11 — 12، رفع الحب : 101 — 11

(68) رفع الحب : 11 — 1

وانتقائها من ورثته، وفي التقطيع التالي بنموذجية نقف عند حدود هذا الوزن بزخافاتة المقبولة...

لقد ما قد هجت يا يوم الثرى على فؤادي من تباريح الجوى (69)

... .. مستفعلين مستفعلين مستفعلين مستفعلين مستفعلين مستفعلين

... .. مستفعلين مستفعلين مستفعلين مستفعلين مستفعلين مستفعلين

واحترمت وسط الثعور وثبة من كل دار طالما الضرا (70)

مستفعلين مستفعلين مستفعلين مستفعلين مستفعلين مستفعلين

ونظرا لما للرجز من إمكان الترخيصات فقد وصف العروضيون فيه «أربع أعاريض، وخمسة أضرب، يظهر من مجموعها كيف يكون تاما وكيف يجزا ويشطر وينهك» (71)، ولا ضرورة للقول فيها بعد تحقيق ما سبق.

ب — كما يوثق الوزن نفسه في أصل تسميته بالرجز وإثبات أسباب ذلك :

فالرجز أولا «أحد أسطوار الدائرة الثالثة، من العروض...» وهو ثانيا يفرض البحث عن أصل تسميته مفضلا من بين الأسباب : الجانب الصوتي الإيقاعي الموسيقي انطلاقا من أن «الارتجاز صوت الرعد» أولا، وثانيا : لأن العرب «كانوا ينزعون كثيرا بهذا النوع من الشعر في عملهم...» وهو تفضيل يترجم الجانب الموسيقي في حسن السبتي وذوقه كشاعر وناقد.

ج — ومع عنصر التوثيق المعرفي في وزن المقصورة وتاريخها وتسمية بحرهما، يقدم لنا أصلا نقديا ضد آخر يتعلق بأجمال الخارجي للنص كالظروف والملابس والاعلام كabin دريد وقصة مقصورته. والمستنصر.

وبإحالة القارئ على عملنا كاملا في هذا المصدر الخطير على الأطروحة نتقل إلى :

### المصطلح في خدمة المنهج النقدي :

تواصل الحديث عن إشكالية المنهج في شرح المقصورة، وهذه المرة مع المصطلح

(69) الديوان : 17

(70) الديوان : 67

(71) كتاب الشعر : 61 — 62.



ودوره في خدمة المنهج النقدي التطبيقي، بل والنظري كذلك. فقد أكد حازم أنه زرع في مقصودته مصطلحات جمالية ذكر بعضها منها وأحال القارئ على اكتشاف الباقي، وكانت خطبته مجال هذا التحديد والاحالة. وبالإضافة إلى ما سبق من هذه المصطلحات في سياق إحصائي وترتيبي سابق. نقف الآن وقفة متأنية مع موقف الشارح من تلك المصطلحات ورصد دورها في شبكة الأساليب :

### التجنيس من خلال أنواعه ومظاهره الفنية :

إذا كان التجنيس في رأي كل البلاغيين، بدون إحالة على أحد، هو اتفاق كلمتين أو كلمات في جميع الحروف أو أكثرها مع اختلاف المعنى فإن هذا «الحد» بعد جنسا جامعا لأنواعه التالية :

أ — أسلوب «التماثل» في التجنيس : أو ما يسمى عند بعضهم «بالمستوفي» وبعرض شواهد فيه، ثم تعليقه عليها، ووضعها صورة لإثبات القيد في تعريف النص، نجد أن الناقد قد أدرك قيمة هذا المصطلح في بناء الأسلوب الفني، فحذر من إكثاره والتكلف فيه، يقول السبتي : «ومن مستحسنه قول عبد الله بن طاهر : وإني للثغر اخوف لكاني وللثغر تجري ظلمه لثشوف<sup>(72)</sup> فأتى به سهلا عاريا من التكلف، وجمع بين الغزل والحماسة كما ترى<sup>(73)</sup> فيشترط «السهولة» فيه، ويحذر من «التكلف» الذي يخالطه عادة «وهذا النوع هو أكمل أنواع التجنيس، وإنما تجنبه الفحول لأنه قلما يفارقه التكلف في الغالب، فتحاموه لأجل ذلك، وإنما يستحسن منه ما كان سهلا<sup>(74)</sup>»، ولهذا الشرط والتحديد المنهجين ينتقل إلى فعالية الشاهد، يختاره في صوتها بدون وقوف معين عند زمان أو مكان أو شاعر : فبعض شيوخ السبتي «من أهل العدو بعد منه قوله الله تعالى : «تبت يدا أبي لهب» مع قوله : «سيعلى نارا ذات لهب»<sup>(75)</sup>. ومع هذا الرأي النقدي من شيوخه يستشهد كذلك ببيتين لشخيه أبي الحسن

(72) ينسبه صاحب «كانون البلاغة» : 88 خطأ لبشار، بينما هو لابن طاهر : الحلية : 146/1، العمدة : 323/1، حسن التوسل : 186.

(73) رفع الحب : 13/1

(74) نفس.

(75) رفع الحب : 13/1

بن الجياب لما كتب إلى السبتي مهثا إياه بمولود، من قصيدة :  
أهلا بسيط من بني هاشم في دوحة المجد سما منسبا  
ومرحبا بابن الامام الذي جدل يوم خير مرحبا<sup>(76)</sup>  
تطول شواهد من عصره ومن عصور الأدب العربي قبله، هدفه إثبات  
المصطلح، وهو يولد مع البلاغيين — «ضربا» :

ب — سماه تجنيس التركيب الذي يثبته بشواهد شعرية دالة ومن عصره، لينتقل  
إلى أنواع أخرى من التجنيس قبل الاشتقاق — المنقوص — القلب — التصحيف  
— التجنيس المعنوي أو تجنيس الكناية، نقف منها عند :

ج — تجنيس الكناية الذي يقول : إن «من التجنيس المعنوي قول بعض المشاركة  
وهو حسن جدا :

أعلمت بعدك وقفني بالاجرح ورضا طولك من دموعي السمع  
مطرت غصافي منزليك قد أوبا في أربع ومؤججا في أضلع  
وإنما «اهتدى» إليه قائله من بيت البحري الذي<sup>(77)</sup> يقول فيه :

فسقا الغضا والنازلين وإن هم شبوه بين جوانح وقلوب<sup>(78)</sup>  
فكلمة فعل «اهتدى» هي تعبير مهذب عن «السرقعة» لكن نقاد المغرب في معظمهم  
لا يستعملون «سرقعة» — كما مر بنا — وإنما : «اهتدى — نظر — أخذ — أشار»  
وما شابهها إيمانا منهم الخواطر، واعتبار السبتي للبيتين الأولين بأنها قول حسن  
جدا لم يخدمه أن ينظر صاحبهما في بيت البحري.

ويستمر الرجل عميقا هكذا مع التشبيه ودوره في تحديد مستويات الأساليب  
وكذلك إشكال الاستعارة والتشبيه في اتحاد اللفظ والمعنى<sup>(79)</sup>، وكذلك :  
تركيب الأسلوب الإبداعى من الاستعارة والتمثيل<sup>(80)</sup>. ليثبت بتحليل عميق دور

(76) رفع الحجب : 13/1 — 14.

(77) رفع الحجب : 14/1 — 15.

(78) ديوانه : 246/1.

(79) الاضروحة : 2/423 — 427.

(80) الاضروحة : 2/427 — 430.

اللفظ والمعنى في بناء المصطلح وتوجيهه في بنية الأساليب<sup>(81)</sup>. وكذلك مكانة «القافية» من معنى من خلال مصطلح «الإنفال» أو «التببيع»<sup>(82)</sup>.

ونكتفي بهذا القدر من الأشكال الذي يطرّحه المنهج والمصطلح في شرح هذه الخطبة مستفيدين من ذلك عدم وقوفنا مرة أخرى عند مظاهر كثيرة أهمها طول وقفة الناقد مع لغة المقصورة وأحداثها ومظاهر أخرى مما وردت منه نماذج هنا تغنينا عن الوقوف عندها هنالك، وتنتقل إلى :

### المضمون النقدي وإشكال المنهج والمصطلح في شرح المقصورة :

وأركز أساسا على المخاور التي أنجزتها بالاطروحة محيلا عليها ومكتفيا بعرض مظاهر منها موجها إياها لطبيعة هذه المداخلات وتقديم الصورة التي يتقبلها محلها والخطبة العامة التي أخضعتها لها وأنا أقدم هذا العمل للطبع ضمن أعمال هذه الندوة العلمية المباركة وهذه هي المخاور :

1 — التفاعل المعرفي في نقد الشعر / المقصورة<sup>(83)</sup>

2 — تكامل المصطلحات البلاغية في نقد الشعر<sup>(84)</sup>

3 — لغة الشعر بين المبدع والمتلقي في التوليد والغراية<sup>(85)</sup>

4 — التحليل الأدبي في خدمة المنهج النقدي التفسيري<sup>(86)</sup>

5 — من عناصر البناء الشعري<sup>(87)</sup>

6 — الدلالة المعرفية في بنية الشعر<sup>(88)</sup>

7 — حركة اللون والموسيقى في بناء الصورة<sup>(89)</sup>

(81) الاطروحة : 430/2 — 433

(82) الاطروحة : 433/2 — 438

(83) الاطروحة : 439/2 — 461

(84) الاطروحة : 462/2 — 479

(85) الاطروحة : 480/2 — 485

(86) الاطروحة : 493/2 — 500

(87) الاطروحة : 493/2 — 500

(88) الاطروحة : 501/2 — 508

(89) الاطروحة : 509/2 — 519

8 — التكامل المنهجي في نقد الشعر<sup>(90)</sup>

علما بأن عملها مع السبتي قد غطى من الأطروحة صفحات طويلة<sup>(91)</sup>،  
بالقياس إلى حجم الأطروحة ككل<sup>(92)</sup>.

ويقف للضرورة عند محور الثاني بالتفصيل نسبيا، محيلا على باقي المحاور في  
الأطروحة بعد أن ندفع خلاصتها في تركيب الصورة المنهجية العامة من عناصرها،  
فنقول :

في حديثه عن المصطلحات أثناء شرحه لخطبة حازم، وعدنا السبتي أنه سيتبعها  
كلما عنت له أثناء الشرح، وفي المقطع / النموذج التالي صورة تنوب عن غيرها.  
يقول حازم :

تسمنوا عوج المناقي ليتها ألهها عوج المناقير المنى  
وفي السروج والحدوج وسطها أسد تداري، وطلباء تدرى  
ترنو إلى من كوى وصارص بأعين مرقعات للكوى<sup>(93)</sup>

يأخذ هذا المقطع القصير من حجم التحليل أكثر من صفحتين بها ثلاثة  
وعشرون شاهدا، وأربعة عشر مصطلحا هي التي سرصد مظاهرها في الشرح،  
متجنبين غيرها من عناصر الشرح إلا ما تعلق بمظاهر التحليل الأدبي حيث نخب  
لأنفسنا ذكر بعض الكلمات المشروحة لدلالاتها في شرح المعاني وحصار  
المصطلح : فلفظة «المنى» في البيت معناها «المنية» أي الموت ويسوغ على تكلف  
وشذوذ أن يكون أراد المنايا فحذف على حد ما حذف الشاعر في قوله :

كأن إبريقهم ظبي على شرف مقدم بسبا الكتان ملثوم  
أراد بسبائب الكتان، وقد حمل على ذلك قول الشاعر :

«تريك المنا برؤوس الأسل»

فهذه الإشارة تقدم لنا عنصرين في نقد السبتي :

(90) : 520/2 — 524.

(91) الأطروحة : 368/2 — 524.

(92) تقع الأطروحة في ثلاثة أجزاء تغطي 918 صفحة من الحجم الكبير في طبعها المرقونة.

(93) الديوان : 18. رفع الحجب : 271.

(94) رفع الحجب : 27/1.



**الأول :** رفض «المنى» بمعنى المنايا لأنه «لا حاجة بنا إلى دعوى ذلك وتكلفه»<sup>(95)</sup> ولكونه — كما قال — «يسوغ على تكلف وشدوذ» لكن ابن منظور لم في (لسانه)<sup>(96)</sup> إلى أي شدوذ ما دام «المنى» هو القدر أصلا «والمنى والمنية : الموت لأنه قدر علينا» في هذا المعنى أصل للمنية، وقد أخذت المنية معناها من هذا الأصل. ثم إن هناك معنى آخر هو «المناء» ومعناه : الكيل أو الميزان، أي أنها تلحمها — وتعطيها اللحم — بميزان ومكيال، ولا أدري كذلك ما إذا كان «المناء» أيضا تم فيه حذف التاء من «المناء» بمعنى الصحرة أم لا ؟ فهذه الأوجه صحيحة لغويا ولكن ورودها في السياق بمعنى الموت جعل الناقد يعتبر ذلك شدوذا من الشاعر يؤخذ عليه

**الثاني :** للضرورة الشعرية التي ألزمته القافية إياها، كما يركي ذلك الشاهدان «سبا بسبائب / المنا : المنايا» فالناقد لم ينتقد «المنى» من حيث «الوزن» إذا كادت الضرورة إليه، وإنما من حيث اللغة فصحت الإشارة.

هذه عناصر أفرزها التحليل، لكن التحليل الفني نفسه يبقى معلمة خاصة تقدم لنا إدراك الناقد بثقافته النقدية وذوقه الشعري في مثل هذه الاشراقات التفسيرية للمعنى الشعري والذي مستخدمها مهذا أو روحا لما سنعالجه ضمنها من مصطلحات :

أ — «وتسنموا : أي ركبوا الاسنمة، والمعنى أنهم ركبوا أسنام الابل الاسنمة العظيمة منها — إعدادا لقطع الفيا في وجعلها عوجا لعظم أسنمتها، ثم أخذ يتمنى لها الموت — وهي المنى — حتى تأكل ذوات المناقير العوج من لحمها، وهي سباع الطير»<sup>(97)</sup> مع توثيق «الحم بمعنى : أطعم اللحم» بخديث شريف. لكن الناقد يأخذ على الشاعر ذلك التمني بالشر والدعاء «لأنه قد يراها من ذنب الفراق في البيت الذي قبل هذا»<sup>(98)</sup> وهو قوله :

مالمت في ذنب النوى ابن دابة ولا بنات العيد بل من قد حدا<sup>(99)</sup>

(95) نفسه

(96) لسان العرب : مى.

(97) رفع الحجب : 27/1.

(98) رفع الحجب : 28/1.

(99) رفع الحجب : 26/1.

هو بهذا يرفض التناقض في المعنى، كما رفض الشذوذ في الغريب، وكأنه يطالب ضمناً بتحقيق جودة المعنى والمبنى في الشعر الجيد، وهو رأي نكونه من مجموع آرائه التحليلية وأحكامه النقدية.

ب — «الحدوج : جمع حدج وهو مراكب النساء. والمدارة : الملاينة والمداجاة. وقوله : تدري : أي تحتل لتصاد. والدرية : دابة يتستر بها الصائد، فإذا أمكنه الرمي رمى»<sup>(100)</sup>، فهذه الكلمات المشروحة هي المداخل الحقيقية للصورة الشعرية التي يقدم لنا معناها بدقته المعهودة فيقول : «... ومراده في البيت أن هؤلاء النساء المعبر عنهن بالطباء ممنوعات بالفوارس من قومهن، فإذا صرن في الحدوج، دارت الخيل بهن، فكن في وسطها، وفيما بينها، حتى لا يوجد لهن سبيل إلا بالحيلة من ملاينة الحامين هن وهي المدارة والاحتيايل عليهن، والتلطف في صيدهن، والوصول إليهن وهو الادراء»<sup>(101)</sup>. وهذا الرسم البياني لبنوية الصورة يحملها مصطلح «الارداف» وهو : «أن يريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ عليه، الخاص به، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابه له فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراده»<sup>(102)</sup>. ومادام الناقد هنا يخاصر تحليله لأسلوب معانيه بهذا المقطع بمصطلح الارداف، فإنه يحسن لنا أن نذكر المصطلحات التي احتواها شرح هذا المقطع لتضيفها إلى ما سبق تأكيداً لأدوات منهجه :

فقد جمع الشاعر في البيت الأول «بين المناقير والمناق»<sup>(103)</sup>، وذلك نوع من التجنيس مستحسن»<sup>(104)</sup> «وهو الذي في إحدى كلمتيه حرف زائد على حروف الأخرى ويسمى : تجنيس الترخيم — وتجنيس التذييل — والتجنيس الناقص والمنقوص (تجنيس التداخل) — تجنيس التضمن»<sup>(105)</sup>، كما يعرض لمصطلحات أخرى أهمها : الارداف الذي سبق ذكره، والترصيع (المماثلة) — المجانسة —

(100) رفع الحجب : 27/1.

(101) رفع الحجب : 27/1.

(102) الصناعتين : 360.

(103) شرحها السبتي : المناق : ج : منقية وهي ذات النقي وهو الشم. رفع الحجب : 27/1. اللسان نقا.

(104) رفع الحجب : 28/1.

(105) رفع الحجب : 28/1 وقد سبق شرح هذه المصطلحات في خطبة المقصورة.

تجنيس الاشتقاق — المعادلة — التسهم (التوشيح عند قدامة) واكتفى بإحالتها على شرحه السابق، باستثناء «التسهم»، فقد وقف عنده معرّفاً وموثقاً رأيّه بأشهر آراء النقاد، يقول السبتي «ومنها التسهم...»<sup>(106)</sup> وقد شرح بعض المتأخرين معنى هذه التسمية فقال : التسهم أن يكون صدر الفقرة أو البيت مقتضياً لعجزه، ودالاً عليه، بما يستدعي المجيء به ليكون الكلام في استواء أقسامه، واعتدال أحكامه، كالبرد المسهم في استواء خطوطه، يريد أن خطوط البرد لا تكون ألوانها إلا على ترتيب قد عرف فإذا نظر المقلب للثوب إلى أول الصنعة عرف ما ينتهي إليه آخرها في كيفية ترتيب الأصبغة وارتباطها في مجاورة بعضها بعضاً إلى طريقة مخصوصة، وهذا الذي سموه بالتسهم هو الذي يسميه قدامة توشيحاً. وإن كان المتأخرون قد فرقوا بين اللقبين، ول بعض الناس في هذا المعنى كلام جامع حسن قال : اقتضاء أول الكلام آخره. يكون بأن يوازي بين لفظين في الصدر والعجز، أو بين معنيين فيكون في موضع أحدهما في طرف العبارة دليل على الواقع في الطرف الآخر، أن يكون هنالك قرينة يحصل معها أول الكلام العلم بما في آخره<sup>(107)</sup>، ثم يمثل، محيلاً على التسهم في المقطع الشعري. وهو دليل على ما سبق ذكره من مصطلح أو لغة أو نحو، لكنه عند التطبيق — خصوصاً في المصطلح — لا يمل من التكرار تعميقاً للظاهرة في شبكة الابداع، لكن هذا لم يمنعه من الوقوع في انطباع مقبول بين الفينة والأخرى بعد أن ينتهي من تقديم التحليل العلمي / الفني المطلوب : فقد تعودنا أن نسمع منه — مثلاً. «وما سمعت في هذا المعنى — أي الاردا ف المذكور سابقاً — أعذب لفظاً ولا أبدع عبارة من قول<sup>(108)</sup> أو «من أعذب ما قيل فيه قول...»<sup>(110)</sup> أو «فهو الغاية في الاحسان الذي ما بعده مذهب»<sup>(111)</sup>.

وفي مستوى توثيق مصطلحاته بآراء النقاد يواجهنا السبتي برأين خطيرين :

**الأول :** في مجال حديثه عن الترصيع أورد تعريف قدامة له «بأن يتوخى

(106) يذكر السبتي هنا القصة المشهورة بين الخاتمي وعلي بن هارون. رفع الحجب : 29/1.

(107) رفع الحجب : 29/1 وانظر الحلية : 152/1 — 153 مع القصة كلها المشار إليها في قبله.

(108) رفع الحجب : 28/1.

(109) رفع الحجب : 29/1.

(110) رفع الحجب : 30/1.

(111) رفع الحجب : 31/1.



(فيه) (112) تصيير مقاضع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به، أو من جنس واحد في التصريف، كما يوجد في أشعار كثير من القدماء المحيدين من الفحول وغيرهم، وفي (أشعار) (113) أكثر المحدثين المحسنين (113)، ثم مثل لذلك بقول امرئ القيس :

مخش مجش مقبل مدبر معاً كتيس ظمباء الحلب العدوان (114)  
قال : فأتى «باللفظتين الأوليتين مسجوعتين في تصريف واحد، وبالتاليين لهما شبيهتين بهما في التصريف» (115) قلت : أراد بالتصريف هنا : تشاكل الوزن. ثم قال : «وربما كان السجع ليس في لفظة (لفظة) (116) ولكن في (لفظتين بالوزن نفسه) (117) مثل قوله :

فسور القيام قطوع الكلام تفتت عن ذي غروب خصر  
فقد أتى بترصيع التصريف في لفظتين من غير سجع بالحرف نفسه، ثم أتى بأمثلة كثيرة (118) قلت :

الثاني : هذا مذهب المتقدمين، وأما المتأخرون، فقد جعلوا هذا الجنس أنواعاً كثيرة سمو كل نوع منها باسم يختص به، وجعلوا الترصيع واقعاً على نوع واحد منها، وقد سمى بعضهم ما وقع فيه من أجزاء البيت أو بعضها على سجع مخالف لحرف الروي باسم «السميط» شبهوه بسمط العقد، وجعلوا الأجزاء المسجوعة بمنزلة حبات الدر المجمعة فيه» (119).

من هذا القول الجيد والمسؤول يتضح لنا الزأبان الخطيران في منهج السبتي النقدي : رفض تفكيك بنية الشاهد (مخش البيت) إلى تسميته بالتصريف، واعتبار

(112) ساقطة من رفع الحجب وزائدة في نقد الشعر الموثق بعده.

(113) ساقطة من نقد الشعر. وانظر رفع الحجب : 31/1.

(114) ديوانه : 212.

(115) نقد الشعر : 38.

(116) ساقطة من رفع الحجب

(117) ساقطة من رفع الحجب

(118) رفع الحجب : 82/1 — 83.

(119) نفسه.



ذلك في «تشاكل الوزن». ثم يقود التحليل إلى اعتبار تدخل السبتي في رأي قدامة داخلا في مشروع (الحداثة) التي أشعرنا فيها بخالفة (مذهبية) من المتأخرين — والسبتي منهم — للمتقدمين للأسباب المنهجية والثقافية والحضارية والاصطلاحية الواردة.

وبهذا المنهج يستمر في علاج الكثير من المصطلحات سواء تلك التي ذابت لتصنع المقصورة وتحيى فيها وبها. أو التي نمت في نقده التفسيري العميق، خصوصا جولته مع مصطلح «التضمين» و «الاستعارة» و «التشبيه» وهو منهج قدم لنا صورته في الأداة الاصطلاحية بوضوح كانت هذه النماذج كافية لتقديم مظهر منها ننقل بعده إلى تقديم لوحات تحليلية نعمق بها ما سبق عن المصطلحات، هادفين من ذلك تحقيق دور التحليل الأدبي في خدمة منهج السبتي في النقد التفسيري :

ففي تحليل مقطع حازم :

لا ظميء الروض الذي كتابه      نروض أفراس الصبا ولا ضحا  
سقى المنار فديا رديرة      فالدير فالشطور هطال الحيا  
ووال السحب بعيني توبة      بمثل عيني توبة طول البكا  
(الآيات) (120)

يدرك السبتي أن حصار العملية الابداعية عند التفسير تتم بعمليتي : التحليل وبالمصطلح : فبعد حل الاشكال اللغوي لفعل (ضحا) ويستشهد لتحليله بخديث شريف واية كريمة يقول :

«واستعار للصبا أفراسا تابعا في ذلك زهيرا في قوله :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله      وعري أفراس الصبا ورواحله  
قال بعض من تكلم على بيت زهير : لما كان المعتاد أن يقال فيمن تصابى :  
ركب هواه، وجرى في ميدانه، وجمع في عنانه، حسن أن يستعار للصبا إسم  
الافراس، وأن يعبر عن النزوع عنه بأن يعري أفراسه ورواحله، وإنما أوردت هذا  
الكلام هنا لأن الاستعارة : نقل اللفظ عما وضع له في أصل اللغة إلى ما ليس  
كذلك، لشبه جامع بين المنقول والمنقول إليه، ولا يستحسن منها إلا ما كان الجامع

(120) الديوان : 38 — 39. رفع الحجب : 156/1.

(121) ديوانه : 124.

بين المستعار والمستعار منه واضحا كقولہ : «اشتعل الرأس شيئا» (122) ألا ترى أن شمول الشيب للرأس وديبته فيه شيئا فشيئا، وإحالاته عن لونه الأول إلى البياض بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب إذا عُلقت به، وتسري فيه حتى تجلبه إلى غير حاله الأول، وكذلك قول الشاعر :

وجعلت كدري فوق ناحية يقات شمم سنامها الرجل (123)

لما كان الشمم يقات، وكان الرجل هو الذي يتخونه ويذهبه شيئا فشيئا، كان ذلك بمنزلة الاقتيات، وحسنت الاستعارة لقرب الشبه الجامع، فإذا تقرر هذا فلاشك أن الأفراس بعيدة عن الصبا لا جامع من الشبه بينها وبينه، ولكن إذا كانت الاستعارة مبنية على وصف كثر في المستعار له حتى صار كالأصل فيه، وإن لم يكن إلا فرعا، كما كثر المتصاني بركوب الهوى والجري في الميدان، والجموح في العنان حسبا بيناد، كان ذلك مما قرب الاستعارة، وإن كان الجامع في الأصل بعيدا، فتأمل ذلك كله فهو حسن» (124) ثم قال : «وقول الناظم : ووالى السحب بعيني توبة (البيت) : دعا لهذا الموضع أن تبكي فيه السحب بمثل عيني توبة، يريد في مواصلة البكاء وأنها لا تفتقر، ولو أراد الكثرة لقصر وأفسد المعنى، لأن جميع ما يمكن توبة في عمره لو جمعت فيه دموعه لم يكن في جانب بعض قطر السحاب شيئا مذكورا، نعم يصح ذلك عند قصد المبالغة في وصف المشبه به، وليس هذا له بموضع، ألا ترى أن قول الشاعر :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يتمدح

صح فيه تشبيه الصباح بالوجه الواضح البشر مع أن المشبه به ينبغي أن يكون له شغوف على المشبه، لأن قصد الشاعر المبالغة في وصف الممدوح، وأن يحمل نور وجهه أعظم من نور الصباح. فحسن الكلام وظهرت براعته، ولولا ذلك لم يكن له وجه، فتأمل ما قلناه فإنه حسن. ومما يسوغ قول الناظم أنه لما استعار البكاء للسحب قصيرها في جنس الباكين، وقد علم أن توبة وعروة من أعظم المحبين بكاء وأن لهما التقدم فيه حتى ضربت بهما الأمثال، حسن أن يقع تشبيه

(122) مريم : 4

(123) الصناعتين : 292. نقد الشعر : 204.

(124) رفع الحجب : 157/1.

بكاء السحب بهما، ويكون المراد أنها تبكي البكاء الذي ما بعده غاية، كما عرف  
عن بكاء هذين المحبين فتأمل. ومثله قول الشاعر :

رب ليل أمد من نفس العا شق، طولاً، قطعتَه بانتحاب  
وإنما ضاع تشبيه الليل في الطول بنفس العاشق لأن كل واحد منهما خرج  
في طوله عن المعتاد من مثله، فالتشبيه في الحقيقة إنما وقع في أن لكل واحد منهما  
حالا غريبة، وبیت الناظم يجري هذا الجرى، وقد قال بعضهم :  
يقع مرة بالصورة.

ومرة بالصفة.

ومرة بالحالة والطريقة.

وهذا الموضع على هذا المأخذ وقع التشبيه فيه بالحالة والطريقة، على أن هذا  
البيت الذي أنشدته أنفا وهو قوله : «رب ليل أمد من نفس العاشق» قد يحمل  
على قصد المبالغة، ويكون قصد قائله أن يجعل طول نفس العاشق أمد من الطويل  
من الليالي كما قدمت قبل في قول الشاعر : «وبدا الصباح كأن غرته» ألا ترى  
أنه يشترك في ما يقاسي من الغرام فأدمج فيه وصف النفس بالامتداد والمبالغة  
فيه فتأمل» (125).

هذه اللوحة التحليلية لمقطع قصير (7 أبيات) من المقصورة يمثل نموذجاً من  
التحليلات الأدبية التي تدعم عملية المصطلح وقوته المنهجية، وهي لوحة تعمداً  
الآتيان بأكثر ما فيها لنقدم صورة تغني عن غيرها وتدل على مكونات وعناصر  
تحليلها. ومن عناصر البناء الشعري ومناقشته لمذاهب القدماء والمحدثين في بعض  
جزئيات هذا البناء كمصطلح التخلص مثلاً، يحسن أن نقف عند هذا العنصر  
المنهجي المهم في شرحه لقول حازم :

ضنت بمنزور القرى من الكرى كي لأرى طيفاً لها إذا سرى  
فلو تجود قدر ما ضنت، حكّت جود أمير المؤمنين المترجى  
خليفة الله المسمى المكتنى خير الأسامي الساميات والكنى (126)

وبعد جولته اللغوية والنحوية المعهودة يقول : «.. وقد خرج من التسبب إلى

(125) رفع الحب : 158/1.

(126) الديوان : 20، رفع الحب : 159 — 60.



المدح فأجاد في تخصسه إلى ذكر ممدوحه. والخروج من النسب أو غيره إلى المدح أو غيره هكذا بصف التحليل. مما يستحسنه المولدون حتى أكثروا منه» (127).

ثم يختم تحليله المقطع بقوله : «وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في خروجهم. بل يقولون بعد فراغهم من نعت الأبل، وذكر القفار، وما هم بسبيله «دع ذا» «وعد عن ذا» أو يبتدون الكلام في السبيل الذي يريدون الكلام فيها غير متصل بما قبله من غير «دع» ولا «عد» أو نحوهما» (128) ومن هذين الحكمين النقيدين نسجل الحقائق التالية :

1 — حكم الناقد بخودة تخلص الشاعر من النسب إلى المدح يشهد للسبتي بالحسن النقدي والشعري معا.

2 — الخروج بالحكم من خصوصية حازم إلى رصد صورة الظاهرة في المجال الشعري كله.

3 — ربط هذا التحليل الجميل في التخلص بالمولدين، يشهد للناقد بارتباطه بفعالية الحكم النقدي بعيدا عن الزمان والمكان.

4 — تميزه بين مذاهب القدماء والمولدين والمحدثين — كحازم — جعله ينتقد — كمعاصر لحازم — طريقة القدماء، وهذه موازنة قادت إلى مفاضلة حاصرهما بالتحليل والشواهد.

5 — وقوفه عند الشواهد يضيف عناصر منهجية أخرى تكتفي بالإشارة إليها وتتجلى في كثرة الشواهد وتنوعها خدمة لمصطلح ما وهو يتلوه ويتطور بين الشعراء، وليس المجال مناسباً لعرضها بتفصيل، فليرجع إليها من شاء في مكانها. ومع اعتماد السبتي في منهجه النقدي على تتبع أداة الاسرار اللغوية والمصطلحات البلاغية والتحليلات الأدبية العميقة، فإنه في تتبع الصورة الشعرية الهدف من توظيف كل هذه الأدوات، برصد حركة اللون والموسيقى في بناء هذه الصورة، نظراً لعلاقة النفس والذوق بها ولكون «الاستعراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية، قوي انفعالها وتأثيرها» (129) ولتحقيق ذلك وبالإضافة إلى

(127) رفع الخجب : 60/1.

(128) نفسه : 61/1.

(129) مباح الشفاء : 71 (ماهية الشعر وحقيقته) طبعة تونس.



الأدوات الاجرائية التي قدمها لنا السبتي، هناك عنصران أساسيان في هذا السياق يعتمدهما السبتي وهما : اللون والسمع، أو الموسيقى في الايقاع والصوت والألوان التي تشكل الصورة لمادتها ظاهرة كانت أو خفية. وفي النصوص التالية مقارنة منهجية وعملية لذلك :

يقول حازم :

طالت ليالي الدهر عندي بعدما قصرتها بكل مقصور الخطى  
فإن يطل ليلى فكم قصرت به بقاصرات الطرف بيض كالدمى  
وكم تنعمت بوصل ناعم وباقتناص باغم مثل الطل (130)

يرتبط السبتي في شرح هذا المقطع بطبيعة لغة الأبيات ومعانيها، لكن التركيز في بعض هذا الشرح يقع على «الألوان» و «السمع» والصوت الموسيقي» يشعرنا بأنه يقصد إليه قصدا لما يترتب على ذلك من إسهام في بناء المعنى الشعري وصورته، مما جعلنا نقف على العناصر التالية :

1 — تداخل الصوت والسمع في حركة الصورة، تجعل شرح الناقد لكلمات وعبارات مثل «الخطى» و «قاصرات الطرف» و «الدمى» و «الباغم» مقصورة لدلالاتها في بناء الصورة وليس لذاتها لسهولة معجميا، فلسنا في حاجة إلى معرفة أن «الخطا جمع خطوة وهي ما بين القدمين» وإن «الدمى جمع دمية وهي الصورة من العاج» لكننا في حاجة إلى إدراك الخطوة في تشخيص طول الليالي وقصرها، وأن الحاجة تزداد أكثر إلى تتبع معنى الآية / الشاهد «قاصرات الطرف» (131)، «اللواتي لا يمددن طرفهن حياء» و «يميل طرفهن إلى غير بعولتهن» (132)، فهذه الحركة في الصورة التي تقدمها الآية تقديما حركيا بديعا مع ما سبق من حركة الخطا، نحمل من تتبع الناقد لها إصرارا منهجيا تجعل الصورة فتشكل في النقد أكثر مما تشكلت في الشعر، ويتم ذلك أيضا بإرفاق تلك الحركة بالصوت واللون كما يبدو من تركيزه على الباغم وهو «من البغام وهو صوت الظبية، يقوم، والمباغمة، المحادثة بصوت رخيم» (133)، فالمقصود آخر هذا المقطع وليس المعجم. كما تعود

(130) الديوان : 20. رفع الحجب : 54/1 — 56.

(131) الرحمان : 56.

(132) رفع الحجب : 54/1.

(133) رفع الحجب : 54/1.

الحركة إلى التركيز عليها في الشرح مع «مقصود الخطي» فالشاعر بلغة الناقد «يريد بمقصود الخطا : أنه إذا مشى لم يسرع المشي لنعمته، ولما تعود من السكون والدعة وعدم المهنة، وذلك مما توصف به النساء، ويمدحن به»<sup>(134)</sup>. وفي التماذج الشعرية وتحليلاته هنا كشواهد ما يعمق من هذه المقصدية وقد تنوعت صوره هنا وتحركت بين ابن المرحل وذو الرمة وكثير وأبي العتاهية والأعشى والمعري وغيرهم.

2 — وعندما ينتقل الناقد إلى محاصرة هذه المعاني بالصنعة المطلوبة في تحقيق جمالية الشعر يعتمد المصطلح، ويتبعه في أساليب فنية تجلت في أن الشاعر «طابق... بين «طالت» و «قصرنها» و «يطل» و «قصرته» كما جانس بين «قصرتها» و «مقصود» وبين «قصرته» و «قاصرات» وكذلك جمع في البيت الثالث بين «ناعم» و «باغم» وهو نوع من التجنيس يسمى تجنيس التصحيف وهو أن تتفق الكلمتان في شكل الحروف»<sup>(135)</sup> يستشهد له بقول البحرى :

ولم يكن «المعتر بالله» إذ شكى لعجز «والمعتر بالله» طالبه<sup>(136)</sup> فيعلق عليه بأن هذا النوع «لا مدخل له في الفصاحة، ولا في أنواع البديع، إذ لاحظ للسمع فيه، وإن كان المتأخرون يقصدونه ويولعون به، وإنما حسن ما حسن من ذلك لأجل ما يقترن به في الأكثر من الموازنة بين الكلمتين، أو اتفاق المقاطع، أو الموازنة بين بعض الحروف، أو غير ذلك مما يدخل في فن البديع»<sup>(137)</sup>.

ويمثل هذا التحليل والصياح بالصوت واللون والموسيقى والحركة يعلق على المقطع اللاحق<sup>(138)</sup> بقوله : الحدائق وقد تقدم تفسيرها، واستعار للانس كؤوسا — في الحدائق — والجامع بينهما الذي حسنت لأجله الاستعارة هو إزالة الهموم وإحداث السرور، ثم وصف الحدائق بأنها ينتشى فيها بأكوس الاحداق، ومراده : أن الرياض لما تحتوي عليه من الأنوار وبديع الأزهار وحسن المنظر، كلما شاهدها

(134) نفسه.

(135) رفع الحجب : 55/1 — 56.

(136) ديوانه : 215/1. رفع الحجب : 56/1.

(137) رفع الحجب : 56/1.

(138) الديوان : 38. رفع الحجب : 153/1 — 154، وأوله قول حازم : تسقى كؤوس الأنس في حدائق بأكوس الأحداق فيها ينتشى.

الإنسان أحدثت عنده من السرور والابتهاج ما يحدث للشؤون. ولما كان ذلك إنما يحدث بواسطة العين، كما أن ما يحدث عن السكر إنما هو بواسطة الكؤوس، استعار للأحداق أكوسا، وقد يريد بالأحداق أحداق الحسن، واستعار لها الأكوس لما يحدث عنها من سكر الخوى، والأول أيين وهو الذي يقتضيه مساق الكلام (139).

والنص صريح فيما ذهبنا إليه من وصف هذه العناصر المنهجية في أسلوبه المنهجي التحليلي الدقيق.

وبهذا نكون قد قدمنا صورة موجزة عن الاشكال الذي يضعه المصطلح والمنهج عبر الأدوات التي أبان عنها التحليل في الخاور التي قدمنا سواء في شرح خطبة المقصورة أو نص المقصورة نفسه، وبذلك نختتم هذه المداخلة بمحورين تجري فيهما الحديث بدون تكرار لنصوص، بل اعتمادا على تقدم بين أيدي البحث، وهما :  
التكامل المعرفي، والتكامل المنهجي في نقد الشريف السبتي : فقد قاده رصيده الثقافي الموسوعي إلى تتبع خصوصية المعارف والعلوم والأحداث في المقصورة، فجاء تحليله لها غاية في الفهم والوعي والتمثل، وبقدر ما نجح حازم في إذاعة تلك العلوم وصياغة مقصورته بمادتها، بقدر ما كان السبتي في مستوى الناقد العالم والأديب اللغوي والبلاغي الذي لم تعجزه المقصورة في عمقها وطولها وتقنياتها وعلومها من ممارسة التحدي العلمي والأدبي واللغوي معها راصدا كل نكاتها المعجمية والنحوية والصرفية متتبعا إشكالاتها العروضية مهما دقت، متعمقا وموثقا تاريخها وأساطيرها وأحداثها التي لا تبث شخصية الشاعر فضمنها في تفاعل محكم مقصورته. وعابها الناقد فتبعها محلا ومفسرا ومقوما في أستاذية علمية نادرة. (140).

وكما تفاعل من علومه ولغاته وآدابه وبلاغته وتكامل شرحه النقدي وتم إنجازه في ضوئها تكاملت كذلك عدة مناهج أفرزتها تلك العلوم، فأبرز العمل بواسطة أدواتها ومصطلحاتها وتقنياتها بعد أن أدرك كمنطق أن :

وصف النص الإبداعي كالمقصورة هو وصف لقوانين صياغتها وأدواتها

(139) رفع الحجب : 821.

(140) نصير لأصوحة : 439 2 - 461.



وخصائصها ومصطلحاتها ومقاييسها التي اعتمدها المبدع في بناء ذلك النص ملتزما فيه بالمتعارف عليه من ثوابت بناء القصيدة العربية في ضوء التيارات التي تولدت عنها في عصر الشاعر وبالتالي الناقد بصورتها في الغرب الاسلامي، ولذلك فإن رصد تلك القوانين والأدوات والمصطلحات والمقاييس والمعايير في بنائية المقصورة، وتحديداتها وضبطها في عملية الوصف، بعد عملية تهدف إلى تخطيط في نفس الوقت لقوانين نقدية حددت لنا منهج الرجل في تفاعل عدة مناهج وتكاملها مما أفرزته تلك العنود والنعات والآداب. الشيء الذي آل في نهاية المطاف إلى إيجاد نوع من التكامل المنهجي في تفسير المقصورة ونقدها، والذي تم بتوظيف تلك العلوم... في عملية النقد الأدبي التطبيقي الذي ارتبط إما بالمقصورة وإما بمصطلحات خطبتها، أو بما قاد إليه سياق التحليل والشاهد وتحليله وما نما حول ذلك كله من نقد أدبي أفرز كثيرا من القضايا والآراء النقدية الجيدة : فالمنهج اللغوي في المستوى المعجمي، والمنهج النحوي في مستوى توظيف القواعد والأدوات النحوية في التركيب لنظم الجملة الشعرية والمنهج العروضي في رصد حركات الأوزان والقوافي، والمنهج التحليلي في توظيف الدلالات بأعمق مستوياتها، والمنهج البلاغي في تتبع أسرار الجملة والنص، والمنهج التاريخي كان له خطه الواضح انطلاقا من عطاءات المقصورة الكثيرة كما أن المنهج الوصفي الدقيق الذي كان الناقد يتجسس به على أدق تحركات عدسة الشاعر في حروفه وكلماته وجمله ومعانيه ومصطلحاته، وأخيرا المنهج المقارن الذي وظفه في رصد «المؤثرات أو المصادر أو حتى علاقات التأثير والتأثر بين نصوص وأعمال أدبية» (141) معينة وما ترمز إليه رموزها وإشارتها الخاطفة من حقائق وأساطير ومعاني تتطور بين زمان وزمان ومكان وآخر ومذهب قديم وحديث.

لقد حقق السبتي لحازم ميلادا جديدا لهذا الشرح النقدي الممتاز، وأعطى لمقصورته في عمله النقدي حياة أخرى علت بها على المقصورات، ودخل بالشاعر وبمقصورته عالم النقد التفسيري الحقيقي الذي يسعى نقدنا المعاصر إلى تأسيسه وتأسيسه لمواجهة ما يستجد من نصوص، وما يتناص منها مع القديم والحديث معرفة ولغة ومنهاجا (142).

(141) التناص وإشارات العمل الأدبي : 7 — 32. صبري حافظ. مجلة ألف عدد 4 الخاص بتفاعلية النصوص.

(142) استعيت عن وضع ثبوت بالمصادر والمراجع نظرا لأحالي على الأطروحة من جهة، ولكون ما هو مثبت في هامش هذه المداخلة يعين عن تكراره.





## مراسلات أدبية بين سبته وجزيرة منركة

ذ. سعيد بن الاحرش<sup>(١)</sup>

كان سقوط طليطلة<sup>(١)</sup> في يد النصارى، وأخذها من صاحبها القادر ابن المأمون يخيب بن ذي النون أول مسمار دُق في نعش دولة الاسلام بالأندلس. فمنذ ذلك الحين وحكم المسلمين في تراجع، وظلهم في تقلص، ورقعة بلادهم في انكماش، حتى صار وجودهم هناك ضرباً في الغلط ومغامرة غير محمودة العواقب. وعن هذا المعنى عبر شاعرهم عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال حينما قال: (2)

يا أهل أندلس حثوا مطيكمُ فما البقاء بها إلا من الغلط  
الثوب يُثسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط  
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحياة في سخط

حتى إذا ما أهل القرن السابع الهجري، وازداد تحرش النصارى ومضايقتهم واستفحل أمر الواقع، واتسع الخوف على الواقع، راحت بطاح الأندلس وروايها

---

(١) كلية الآداب تطوان

(1) كانت طليطلة أول ما استرد النصارى من مدن الأندلس العظيمة وكان أخذها سنة 478 بعد حصار شديد دام في بعض الروايات سبع سنين : نفح الطيب 4 : 352. وفيات الأعيان 4 : 118

(2) انظر ترجمة ابن العسال في المغرب 21/2، وانظر الأبيات مع اختلاف في روايتها في نفح الطيب 4 : 352.

تسبيل بمآت من المهاجرين الأندلسيين. وعشرات من الأسرى المنطردة، متخلية عن أوطانها وباحثة عن بلد إسلامي آخر يضمن لهم نعيش الكريم. وأحياة المظمنة الآمنة<sup>(3)</sup>.

وهكذا بدأت أفواج من الأندلسيين تهاجر بعد أن فقدت كل أمل في استقرار الأوضاع خاصة منطقة شرق الأندلس التي كانت معرضة أكثر من أي جهة أخرى لهجمات الأروغونيين. فقد كان خايمي الأول<sup>14</sup> أول ملك أروغوني قاد حملة صليبية اجتاحت جزر البليار سنة 627. وبعد هذا التاريخ بعشر سنوات استولى الملك المذكور على بلنسية. ثم امتد المد النصراني ليشمل باقي الجهات الأخرى فقي مؤسسة الأندلس وغربها، فسقطت قرطبة ثم اشبيلية. ولم يبق من بلاد الأندلس إلا بعض الجهات التي ظلت تقاوم الزحف النصراني الجارف بكل إصرار وعزيمة. أما الجهات المفتوحة، عنوة وقهراً، أو باقي الجهات الأخرى المهددة، فقد انطلقت منها سيول الهجرة، متجهة إلى غرناطة، وسبتة وإلى جزر البليار وخاصة جزيرة مئرققة، وتلمسان، ونجاية وتونس<sup>(4)</sup>.

(3) ماتزال صورة المشردين وحالة المنطردين حية في كثير من أشعار شعراء هذه الفترة وخاصة أشعار ابن عميرة الذي يقول من جملة أبيات:

صاح بهم صانع الرحيل فمسا فيهم على النين واحد مسسا  
وحاس بالسروع عقر دارهم من بعد ما كان مريحهم حرما  
فهم عناديد في البلاد ولائيل لعل الخطوب مستظما

(4) خايمي الأول الملقب بالفاتح Jaime I el conquistador الذي حلف والده «بيدرو» «Pedro» وإد كان طفلاً في الخامسة من عمره فقد خضع لنظام الوصاية. وتذكر المصادر المسيحية أن الذي كان وصياً عليه هو:

Don Sancho Condo de Rasellari

انظر التفاصيل في تاريخ المرابطين والموحدين لأشباح 168/2 ابن عميرة ص 91 هـ: 1  
(5) كان معظم الأندلسيين قد نفضوا أيديهم من الموحدين واعتبروهم مسؤولين عن ضياع الأندلس باستيلاء النصارى عليها فيما يعرف بحرب الاسترداد Reconquista لذا رأينا آلاف الأندلسيين يولون وجهم شطر كثير من البلاد الإسلامية فتركوا غرناطة وسبتة وجزر البليار وتلمسان ونجاية وتونس التي كان حكامها الحفصيون، يحسنون استقبال الخالية الأندلسية ويولونهم المناصب الرفيعة في دولتهم وقد علل ابن خلدون كثرة ارتحال الأندلسيين إلى تونس وسد توجههم إليها باستفحال الدولة الحفصية بها: 453/1. أما حسن حسني عبد الوهاب فيعلل ذلك بالعلاقة التي كانت موجودة من قبل بين الأندلسيين والأمراء الحفصيين الذين سبق بعضهم أن باشرُوا الحكم في الأندلس من قبل الموحدين.

وقد كانت حالة الطرق المؤدية إلى مهاجر هؤلاء الأندلسيين المطرودين، براً وبحراً، مخوفة بكثير من المخاض، لأن جحافل الجيوش النصرانية كانت قد انتشرت في كثير من بقاع الأندلس شرقاً وغرباً. وكانت تحصد كل من كانت تجده في طريقها بالسلب والنهب تارة، وبالتعذيب والتنكيل داخل السجون تارة أخرى. فقد كانت مُسَطَّحات<sup>(6)</sup> العدو تتعقب مراكز المهاجرين في البحر فتأخذهم أسرى إلى أن يُقتلوا، وقد تغرقها في بعض الأحيان، كالذي حدث للشاعر الاشبيلي الرقيق ابن سهل الأسرائيلي الذي نجا من الأسر بأعجوبة إذ لولا تدخل رئيس منركة أبي عثمان سعيد القرشي لأصبح شاعراً أسيراً لدى الروم<sup>(7)</sup>. وكالذي حدث أيضاً للشاعر الأديب الفقيه العالم أحمد بن محمد القيسي القرطبي<sup>(8)</sup> الذي فرّ من قرطبة، ومنها إلى اشبيلية فجزيرة منركة بعد أن عرج على سبتة، لكن قراصنة البحر أسروه هو وأهله، وألحقوا به أنواع التعذيب البشعة، فافتكه رئيس جزيرة منركة

أما الدكتور بشريفة فيعلن ذلك ببراعة الأندلسيين وكفاءتهم وقدرتهم على تحمل أعباء كثير من المناصب الرفيعة التي كانوا يشغلونها في دولة الخفصيين التي كانت ماتزال فتية وفي حاجة إلى الرجال. ابن عميرة ص 141.

(6) المستطحات ج مسطح وهي ضرب من المراكب الحربية، وراجع أمثلة مما أشرنا إليه في تكملة ابن الأبار 656/2 ومنح السحر من روح الشعر وروح الشجر لأن ليون التجبي في تحقيقنا، وانظر أيضاً مخطوط الاسكريال رقم 520 ورقة 120 ورقة 71 وكتاب ابن عميرة للدكتور يحيى بشريفة ص 56 وهامش 2 من نفس الصفحة

(7) كان ابن سهل الأسرائيلي من جملة الشعراء الذين أفنكهم الرئيس أبو عثمان القرشي. فقد كان ابن سهل عزم الرحيل إلى تونس وركب سفينة تجارية من ميناء منركة. فجاء مركب حربي للروم وهاجم السفينة، فسمع بذلك الرئيس أبو عثمان صاحب جزيرة منركة وركب سفينة في قطعة من الخيل متوجهاً إلى مرسى مغونة وهناك عرفه قائد المركب الحربي فنزل منه يسلم عليه وكف عن مضايقة السفينة. وحيث أن ابن سهل أن يستمر في سفرته وعاد مع الرئيس إلى العاصمة ومدحه بقصيدة ذكر له فيها هذا الفعل وصر قدومه إلى المرسى بقوله :

أتيت بالدرع فوق الطرق مرتدياً      ماض كحامله لو أعطي الفهما  
كالبحر في البهر فوق السيل مشحاً      بجدول قد سقى في الشوك كل طما  
يا آل أصفر هبكم للورى شرراً      فهذه الشمس تطفى ذلك الطرفا

(8) عالم من كبار الأساتذة في عصره. كان مقرباً متقدماً في صناعة التجويد شاعراً. درس بقرطبة قبل أن يأخذها الروم ثم بأشبيلية. له عدة تصانيف متنوعة الاختصاص، أسره الروم هو وأهله وهم في طريقهم إلى سبتة فافتكه أبو عثمان القرشي صاحب منركة وأقام لديه. مولده سنة 562 هـ. ووفاته سنة 643 الذيال والتكملة 2/1. 484.



العالم النبيل والرئيس الحسيب أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي<sup>(9)</sup> وأقام عنده، ولكنه لم يغنم لذيذ العيش عند هذا الأمير إذ توفي بعد ثلاثة أيام من حلوله جزيرة منرقة تحت تأثير عذاب الأسر، تاركاً وراءه أسرته تحت رعاية وحماية صاحب منرقة وهذا أيضاً أبو عبد الله بن أحمد المعروف بابن الجلاب<sup>(10)</sup> الشهيد صاحب كتاب روح الشعر وروح السحر<sup>(11)</sup> قد لقي حتفه على ظهر البحر حينما هاجم سفينته زورقا آخر للروم، فاستشهد رحمه الله، بعد أن أبلى بلاءً حسناً، مقبلاً على قتل الروم غير مدبر، سنة 664 هـ.

والأمثلة على تعقب النصاري للمهاجرين المسلمين، ومضايقتهم وأسرههم كثيرة لا يكاد يأتي عليها الحصر والعد.

(9) هو أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي عالم جليل وسيد نبيل. ولد بجزيرة بغير الأندلس ودرس بأشبيلية واشتغل بالكتابة عند بعض أمراء تونس في نهاية تم الانتقال إلى جزر البليار سنة 624 حيث ولي هناك خطة الاشراف على أمور الخبايا والأتجاد بجزيرة منرقة من قبل والي ميورقة، ثم أعلن نفسه فيما بعد أميراً على منرقة بعد تغلب النصاري على ميورقة. كان عالماً شديداً العناية بجمع دقاتر العلم وأعلاق الكتب حتى جمع منها مالا نظير له كثرة وسودة. وقد أقبل العلماء على تأليف الكتب وإهدائها إليه انظر تفاصيل أخبار هذا الرئيس في : الذيل والنكاملة 28/4 وما بعدها الخنة السراء 288/2 بعية الوعاة 283/1 أعمال الاعلام في حلي المغرب. 469/2 مخطوط 520 بالاسكريال نفع الطيب 474/4 وانظر ما كتبناه عنه في مقدمة كتب ملح السحر في روح الشعر وروح لاين ليون التجيبي.

(10) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الفهري الشهيد المشهور بابن الجلاب. أصله من المرية وقيل من وادي آش وقيل من اشبيلية نشأ بتونس وبها كانت سكناه كانت له عناية خاصة برواية الحاديث الثر ومشاركة في النحو. نزل في آخر أيامه جزيرة منرقة عند رئيسها أبي عثمان القرشي. وأقيل هناك على التدريس والتأليف وانتساح الكتب ومعارضتها ومقابلتها بأصول مؤلفيها، برفعها للرئيس المذكور اعترافاً منه بجميل فضله واحتساباً لنته وفعله. توفي ابن الجلاب سنة 664 هـ بمقربة من جزيرة منرقة : انظر عن هذا الرجل : مقدمة كتاب ملح السحر من روح الشعر في تحقيقنا والذيل والنكاملة 52/6 وصفحات متعددة من رحلة ابن رشيذ وصلة الصلة مخطوط القاهرة ورقة 15.

(11) الكتاب من تأليف أبي عبد الله محمد بن الجلاب الفهري الشهيد، وهو في متخير الأشعار، الغالية الأسعار، شرقية وأندلسية ومغربية وقد أراد ابن الجلاب من تأليفه لهذا الكتاب أن يجعله حلقة في سلسلة كتب المختارات الأدبية التي ابتدأها المؤلفون الأندلسيون قبله. ويعتبر الكتاب في عداد الكتب المفقودة، ولم يبق منه إلا مختصره الذي عمله عليه ابن ليون التجيبي، وقد سبق لنا أن قمنا بتحقيق المختصر وقدمناه موضوعاً ليل دبلوم الدراسات العليا في الموسم الجامعي 1983 — 1984 بإشراف الدكتور الجليل العالم النبيل الأستاذ عبد السلام الحراس.

وإزاء هذه الأوضاع الخصرية التي آل إليها المسلمون بالأندلس قام جماعة من الزعماء فانتدبوا أنفسهم لافتداء أبناء وطنهم وافتكاكهم في الأسر وتقديم المساعدات لهم والعمل على ترحيلهم إلى مهاجرهم في ظروف حسنة. ومن بين هؤلاء الزعماء أبو عثمان سعيد القرشي الأنف الذكر وأبو بكر بن عيسى صاحب شاطبة وأبو علي الحسن بن خلاص<sup>(12)</sup> صاحب سبتة.

تقاطرت على سبتة أيام أبي الحسن بن خلاص جماعات كثيرة من مهاجري شرق الأندلس، حتى اكتظت بهم المدينة وضافت بهم جنباتها واستفحل الغلاء وانتشرت المجاعة الكبرى التي اجتاحت سبتة<sup>(13)</sup>، إلا أن ابن خلاص، تخفيفاً من شدة هذا الازدحام، وخدمة لأبناء الجالية الأندلسية الشرقية، قام بمساعي حميدة لدى الخليفة الموحي، بقصد إبلاغ ما أصاب هؤلاء المشردين من الجلاء وتوابعه، وخاصة أهل شاطبة وشقر وبلنسية وأورثولة. وقد أثمرت مساعي هذا الحاكم إصدار ظهير يخول بموجبه إسكان مهاجري شرق الأندلس مدينة الرباط. والذي قام بتحرير هذا الظهير رجل من شرق الأندلس هو أبو المطرف ابن تحية المشهور<sup>(14)</sup>.

(12) أمير نبيل، وعالم جليل، أصله من بلنسية، ولأه ستة الرشيد الموحي، وكان ابن خلاص هذا، قد اقضى الأموال واصطنع الرجال كما يقول ابن خلدون في العبر، وتكونت حوله حاشية تتألف من بعض الشعراء والكتاب الأندلسيين مثل الشاعر الاشبيلي ابن سهل الاسرائيلي وأبي الحسن الرعيني وأبي عبد الله ابن الجنان وأبي الحسن العشبي وأبي الحسن بن زنون وابن عميرة وغيرهم كثير : العبر 6/614، البيان المغرب 4/399 ابن عميرة 119.

(13) أنظر عما أصاب سبتة في هذه الفترة : البيان المغرب 4 : 406.

(14) عندما اكتظت سبتة بالمهاجرين الأندلسيين القادمين من شرق الأندلس، سعى أمير سبتة أبو علي بن خلاص مساعي حميدة لدى الخليفة الموحي الرشيد، وأثمرت مساعيه هذه عن صدور قرار يأذن بموجبه لهؤلاء اللاجئين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وغيرها من البلاد الشرقية الأندلسية في الانتقال إلى رباط انفتح بقضهم وقضيضهم. ويعلق الدكتور بن شريفة على هذا القرار قائلاً : «ولهذا الظهير قيمة تاريخية حيث إنه يدلنا على أقدم جالية أندلسية استوطنت الرباط إذ أن جميع الذين أرحوا لهذه المدينة يقتضرون على ذكر الجالية التي نزلت إليها سنة 1018 بعد القرار الذي أصدره فليب الثالث بطرد المرسكيين من إسبانيا أما هذه الجالية التي نحدثنا عنها هذا الظهير فلم يشر إليها المؤرخون إطلاقاً. انظر نص الظهير في مخطوط الاسكريال رقم 520 ورقة 116

أما جزيرة منركة فقد التجأ إليها أيضا جماعة من الأندلسيين ممن طوحت بهم نكبة الجلاء بأرض الغربية ومن امتحن يومئذ بالأسر والتعذيب، وقد كان توجههم لجزيرة منركة مقصوداً لما تميزت به مكانة رئيس هذه الجزيرة — أبي عثمان القرشي — عند العرب والعجم بكثير من الاحترام والتقدير، فقد كانت له علاقة طيبة مع الأرغونيين نوهت بها المصادر المسيحية والعربية، كما كان صديقاً وفيّاً لأصدقائه وشيوخه الذين ظل يخدمهم طوال حياته ويقدم لهم كل ما كانوا يحتاجون إليه (16) محاولة منه تعويضهم ما فقدوه في أوطانهم، كما عرف هذا الرئيس كيف يستجلب ودهم ويجيد القيام بهم ما أقاموا لديه ويحسن صرف من أحب الانصراف عنه بأجمل القول أو أجزل الفصل أو بهما معاً وقد أكثر الشعراء والكتاب في مدحه والثناء عليه وتعددت الرسائل الواردة عليه في مختلف جهات البلاد الإسلامية شاكرة ومهنتة ومادحة.

ومن الذين اعتنقهم الرئيس المنركي وأطلق سراحه الفقيه محمد بن أبي بكر عبد الله بن موسى الأنصاري الوشقي التلمساني أبو عبد الله البري (17) أخو أبي إسحاق إبراهيم التلمساني الآتي الذكر وشيكا.

(15) أصبحت جزيرة منركة في عهدها الذهبي ملأها عدد من العلماء والأدباء الذين امتحنوا بالأسر والتعذيب، وقد تمكن حاكم الجزيرة أبو عثمان القرشي بحكم علاقاته الطيبة مع الأرغونيين من إفكك عدد كبير من الأسرى وإيوائهم في جزيرته أو مساعدتهم في الانصراف عنها إلى أماكن أخرى.

(16) انظر خدمات ومساعدات أبي عثمان القرشي لشيوخه الأندلسيين المقيمين بحجاية : كتاب عنوان الدراية للغريبي ص 304

(17) هو محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى التلمساني الوشقي وقيل الوشقي الأصل أبو عبد الله البري، ولد عام 556 ومات سنة 681. روى ببلده عن أبي عبد الله بن عبد الرحمن التجيبي وأبي عبد الله بن عبد الحق وبالأندلس عن ابن محرز وسهل القرشي، مال في دراسته للعناية بالأنساب والحديث كما كان له حظ وافر من المصنف والنثر، له مصنفات مفيدة منها :

— الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة، وقد صدر الكتاب محققاً بالرياض عام 1983.

— العمدة في ذكر النبي ﷺ والخلفاء بعده وقد اختصره الشيخ أبو الظفر الكلبي وسماه : كتاب العدة المختصر من كتاب العمدة وكان يخلق به ضمن حلقات السيدة في مدينة سيّنة. — وله أيضاً أرجوزة طويلة في السيدة النبوية سماها : فريدة اللائء دخل منركة : أسيراً فأفتكه الرئيس أبو عثمان واستقر عنه إلى أن مات : انظر عنه : زواهر الفكر لابن المرباط مخطوط 520 معهد المخطوطات العربية مجلد 29 ج 1 ص 280. مقدمة كتاب الجوهرة.



وقد تعرض أبو عبد الله البري التلمساني قبل أن يعتقه الرئيس المرقى لذل الأسر وعذاب السجن ومرارة الغربة شأنه في ذلك بشأن كثير من العلماء والأدباء الذين أثارتهم أحداث بلادهم وأزعجتهم عن مواظبتهم، ويحدثنا أبو عبد الله البري عن محنة أسره في مقدمة كتابه الجوهرة وما كان يعانيه نفسياً من ذل الأسر وامتحانه ويذكر أنه كان أثناء تأليف كتابه الجوهرة مشغول الخاطر مبلبل التفكير.

ويتناقل الناس أخبار رئيس مرققة أبي عثمان سعيد القرشي، ومساعديه الحميدة في انفكاك الأسرى والخدمات التي كان يقدمها لهم في هذه الظروف العويصة، وتتناهى إلى سبته فتبلغ مسامع أبي إسحاق إبراهيم التلمساني<sup>(18)</sup> أخي أبي عبد الله البري المذكور، ويعرف أن الرئيس أبا عثمان القرشي قد أعتق أخاه وحماه هو وأولاده وأصبح من القاطنين لديه. فكان هذا الخبر أثر بالغ في نفس أبي إسحاق إبراهيم التلمساني وفرصة طيبة لمكاتبة هذا الرئيس والثناء على خدماته الانسانية الجليلة. فيكتب إليه من سبته رسالتين مطولتين مصدرتين بقصيدتين شعريتين يمدحه فيهما ويشكره على فعله الجميل<sup>(19)</sup>.

والرسالتان تفيضان بالصدق والاخلاص وتنطقان بالشكر والوفاء فهو يمدحه بكرمه وأعماله الخجدة في إيواء اللاجئين وإكرامهم وحمايتهم ورعاية أهل الأدب والعلم وافتكاكهم من الأسر وقد دلت الرسالتان شكلاً ومضموناً على مكانة هذا

(18) هو إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري نجاراً التلمساني مولداً الوشقي أو الوشقي أصلاً السبتي داراً كنيته أبو إسحاق. ولد بتلمسان سنة 609 ثم انتقل مع أسرته إلى الأندلس فنزلت غرناطة ثم رحلت عنها إلى مالقة وربها أخذ التلمساني عن أبي بكر بن محرز وأبي صالح محمد بن محمد الزاهد وأبي عبد الله بن حفيد كما روى أيضاً عن أبي الحسن سهل بن مالك وأجاز له كتابة أبو الحسن بن طاهر الدباج وأبو علي المشلوبين. ومن مالقة رحل إلى سبته وبها تزوج من أخت مالك بن المرحل وهي أم بنيه، وبسبته لقي جماعة من الشيوخ وأجازوا له.. ومن تلامذته النهاء الشيخ التاريخي ابن عبد الملك المراكشي الذي ترجمه لشيوخه في السفر السابع المفقود وقد نقل ابن الخطيب هذه الترجمة بالحرف تارة وبالتصرف تارة أخرى كما تحدث ابن عبد الملك عن شيخه هذا في السفر الثامن حيث أشار إليه عند ترجمة أخيه محمد المعروف بالبري. وقد خلف أبو إسحاق هذا مؤلفات جليلة وأوضاعاً مقيدة من ذلك :

— أرجوزته الشهيرة في الفرائض وهي مشهورة وعليها شروح كثيرة منظوماته في السيرة النبوية وأمداح النبي : من ذلك المعشرات على أوان المغرب [الملحون] وقصيدة في المولد الكريم وله مقالة في علم عروض الدوبيتي وغيرها من الأعمال الأخرى.

(19) أنظر نص الرسالتين في مخطوط 520 بالاسكريال.



الأديب ومنزلته في النثر خاصة فقد ذكرت الكتب التي ترجمت لأبي إسحاق إبراهيم التلمساني أن الرجل كانت له مشاركة ملحوظة في الأدب واللغة وله في ذلك آثار جيدة تشهد له بالتميز والتفوق فيها كثير ممن عاشره وترجم له. فقد ذكر ابن الزبير أن الرجل كان أديبا لغوياً ماهراً<sup>(20)</sup> وأكد هذه الصفة ابن الخطيب نقلاً عن ابن عبد الملك قال : كان أديبا شاعرا وشعره كثير مبرز الطبقة بين العالي والوسط منحازاً أكثر إلى الاجادة، وتقع له الأمور العجيبة، ثم يضيف فيقول : وله أمداح مبدية في الاحسان<sup>(21)</sup>. ثم ينتخب له مجموعة من الأشعار جاءت غالية الأسعار.

ويذكر التجيبي في برنامجه أن شيخه أبا إسحاق التلمساني كان قائماً على تدريس جل منشاته الأدبية فمن جملة ماأخذ عنه في حلقة الأدب جزء ضمته معشراته التي أنشأها في المدح النبوي<sup>(22)</sup> وجزءاً آخر ضمته أشعاره الحكيمة. ويذكر أبو يعقوب يوسف السيتاني<sup>(23)</sup> في طالعته شرحه للتلمسانية أن لأبي إسحاق التلمساني قصيدة في المولد الكريم<sup>(24)</sup> وهي مائة وخمسة وثمانون بيتاً

(20) الاحاطة إلى 326.

(21) نفس المصادر.

(22) نقف في برنامج أي القاسم التجيبي على العديد من الحلقات العلمية التي كان أبو إسحاق التلمساني يتصدر للاقراء بها كحلقة الأدب وحلقة الفقه والفرائض وحلقة السيرة النبوية انظر برنامج التجيبي ص 239، 114، 251.

(23) له مجموعتان في المدح النبوي : الأولى هي قصائد معشرات على حروف المعجم لكل حرف ثلاثة قصائد بحسب إعراب الأسماء وافتح أبياتها بحروف رويها محركا بحركته إلا الباء فليس فيها القصيدة المخفوضة لتعذر وجدان الباء المكسورة أول الكلمة عليه. والمجموعة الثانية هي معشرات عروضية في مدح خير البرية ﷺ وقد أجرى ذكرها أبو القاسم التجيبي في برنامجه وعن وصفها يقول : نظمها على جميع أوزان الشعر المشهورة وأعاريضه الماثورة وضروبه المعدودة المحصورة مما روى عن العرب ولم يدع عروضا تؤثر ولا ضرباً يقدم ويؤخر ولا نوعاً يروى ولاوزناً ييسط ويؤزى إلا صرف وجه الاعتناء إليه. نظم تسعة لعلماء الصنعة على ذلك الوزن / برنامج التجيبي.

(24) للمشيخ الفقيه الحافظ أبي يعقوب يوسف السيتاني شرح على منظومة أبي إسحاق التلمساني في الفرائض. وقد سمي شرحه هذا بـ«متن الباني ومرتقى المعاني في شرح أبي إسحاق التلمساني».

(25) هي قصيدة غنية، وجرى ذكرها في بعض المصادر على أنها قصيدة في نحو مائتي بيت. إلا أن السيتاني يقول : هي مائة وخمسة وثمانون بيتاً. انظر مقدمة متن الباني.

أودعها مضمن كتاب المولد الكريم لأبي العباس الغزفي<sup>(26)</sup> الذي حذر فيه مايفعله الناس من تعظيم النيروز والمهرجان وليلة العجوز وحظ فيه على التعريف بمولد الرسول ﷺ<sup>(27)</sup> والمنظنون أن لأبي إسحاق التلمساني أعمالاً أدبية أخرى ورسائل فاخرة وشعراً منتخبا كثيراً يستكشفه الأيام إن شاء الله.

والناظر في هاتين الرسالتين يجدهما تعكسان بحق طبيعة الأدب شعره ونثره الذي كان شائعاً خلال القرن السابع وهي نفس طبيعة الأدب الغربي بصفة عامة الذي كان قد تجاوز في طريق التطور مرحلة التضج البديعي ومرحلة التصنيع البديعي المعقد إلى مرحلة التصنع المعقد حيث أصبحت الكلمة عند أدباء، هذا العصر لاتجد طريقها إلى التعبير عن المقاصد الإنسانية إلا بعد أن تمرّ على صراط حاد طويل من الاختبارات والموازن والمقاييس المعقدة حول المعنى الحقيقي والمجازي والاصطلاحي مع الفحص الدقيق والنظر العميق إلى هيئة الحروف وعددها وترتيبها<sup>(28)</sup> ثم ما يتطلب ذلك من أسجاع بجميع ألوانها والجناس بجميع أصنافه والطباق والمقابلة وسائر ألوان البديع الأخرى الذي غلب على باقي الفروع البلاغية الأخرى حتى غدت الرسالة (والقصيدة غير مستقلة بمفهومها وغرضها، بل أصبحت مرتبطة أكثر بنوع من الرياضة الذهنية والتسلي بمشاهدة ذلك العرض المنمق فإذا التزم الأديب زيادة على ذلك التزاماً خاصاً كأن يجعل كلماته من ذوات حرف مهممل أو معجم فقد ضمن لنفسه عند قراء أدبه عنصراً هاماً من الإعجاب والرضا وما يتبع هذا الإعجاب من إبطاء<sup>(29)</sup> فتحت تأثير هذه المفاهيم وفي هذا الجو الأدبي العام أنشأ أبو إسحاق التلمساني جل آثاره ومنشأته الأدبية ولم يكن في وسعه أن يأتي بما لم يأت به أهل زمانه من الأدباء أو أن يكلف نفسه فوق طاقته.

---

(26) يشيد إلى كتابه: الدر المنظم في تعظيم المولد المعظم.

(27) انظر بعض أبيات هذه القصيدة في مقدمة كتاب منتهى الباني ومرتقى المعاني لأبي يوسف يعقوب بن موسى السبتي.

(28) انظر عن طبيعة الأدب في هذه الفترة وبعض معالنه كتاب أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر للأستاذ عبد القادر زمامة.

(29) نفس الرفع وفي صفحات متعددة فيها.

فالمعجم المستعمل في الرسالتين هو نفسه المعجم السائد بين كتاب عصره من حيث اقتباس ألفاظ القرآن الدالة والتراكيب المنسوبة مع ميل إلى الاتيان ببعض الألفاظ الغربية والكلمات الصعبة وغلبة المفردات الدينية ومصطلحات العلوم التي أصبحت بكثرة الاستعمال والتداول، كلمات لغوية عادية لازل لها من المعاني الاصطلاحية التي لها في معجم العلوم والفنون.

وعن المعاني التي طفت بها الرسالتان فهي معاني مكرورة معادة لاجديد فيها ولاغوص ولا معاناة إلا فضل اقتناصها وعرضها وتخيرها من الأعمال الأدبية الإبداعية التي كانت رائجة في زمنه أو التي تداولت قبله بين الناس. فقد مدح أبو إسحاق التلمساني أبا عثمان وغيرهما من صفات الممدوح المعروفة التي نلجها بكثرة في قاموس الأمداح.

وكعادة كتاب القرن السابع وما بعده، فإن أبا إسحاق التلمساني لم يخرج عما رسمه فن الترسل مع هذا العهد من إطالة في الكلام واسهاب في القول واستطراد في الحديث، ولعل ما يفسر هذه الظاهرة كثرة تعدد صفات الممدوح في الرسالة المدحجية لأن المدح كما هو معلوم من مقامات الاطناب ومجالات الاسهاب التي يخلو فيهما تكرار المعاني والتلاعب بالألفاظ والاكثر من التلميحات والاشارات والاقتباس وغيرها من المحسنات التي صارت لأدباء هذا العصر بضاعة جاهزة للاستعمال في كل حين.

ومهما يكن من أمر، فإن للرسالتين قيمة تاريخية لاتنكر وفائدة عظيمة جدا في تصوير أوضاع الأندلس عموما وتصور أوضاع بعض الأفراد خصوصا علاوة على قيمتها الأدبية التي لاتنكر وتبدو القيمة التاريخية في الرسالتين ذات أهمية بالغة فهي من جهة تفيدنا معلومات قيمة عن شخصية صاحبها أي بكر التلمساني واحتكاكه بكبار رجال السلطة آنذاك والصلات الحميمة التي كانت بينه وبين الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي حاكم جزيرة منرقة.

كما تفيدنا أيضا عن شخصية المرسل إليه ومدى السمعة الطيبة التي كان يتمتع بها في الغرب الاسلامي ومدى الاجلال والاحترام الذي كان يكتنه له كبار العلماء كما تشير أيضا إلى طبيعة الحكم عند هذا الزعيم وأحوال المعيشة والأمن الاستقرار بخضرة جزيرة منرقة. كما تطفح الرسالتان بمعلومات قيمة عن هذه الحقبة التي عمت فيها الفتن والاضطرابات فهما بحق يعدان من الوثائق التاريخية النادرة التي ينبغي أن تضاف إلى ما يمكن أن يساهم في تبديد الظلمة عن هذه الحقبة الغامضة التي

كاد يغمر تاريخها النسيان والاهمال. ذلك أن فترة الطوائف التي نشأت بعد انهيار حكم الموحدين في الأندلس ماتزال فترة غامضة فلا نكاد نجد عنها في المصادر المعروفة إلا تلويحات وتلميحات وسندات متفرقة هنا وهناك لولا أعمال بعض الباحثين المحدثين الذين آثروا على أنفسهم إلا أن يشتغلوا بهذه الفترة وبغيرها. ويساهموا بقسط وافر في إجلاء الضالام عنها كما فعل ويفعل العالم المغربي. الدكتور محمد بنشريفية في كثير من أبحاثه وأعماله.





# الخلفية السياسية الفكرية للتراث النقدي السبتي في مرحلته الأولى كتاب شفاء الصدور نموذجاً

ذ. جعفر بن الحاج السلمي<sup>(١)</sup>

## مقدمة

لأبد من الاعتراف والاقرار في البدء أن كلّ دراسة منهجية للأدب المغربي تواجه دائماً معضلة الوثائق والمصادر. إن هذه الوثائق إما ناقصة وإما منعدمة. وحتى ماتوفر منها، فيه المخطوط والمطبوع طبعة سقيمة، والمطبوع طبعة حجرية، مع مآثره هذه الظواهر الدالة على التخلف العلمي من مشاكل للباحث.

أضف إلى ماسبق، أن التراث المغربي تعرّض لإبادة منظمة قام بها المغاربة أنفسهم أو بعضهم. هكذا تمّ في الخفاء والعلانية، عن قصد وعن غير قصد، إتلاف كثير من الوثائق لأسباب تاريخية، سياسية ومذهبية ونفسية. إن قلة ماوصلنا من تراثنا لا يرجع فقط إلى قلة التدوين والنسخ، وهو مااتهم به المغاربة بالحق وبالباطل، بل يرجع قبل كلّ شيء إلى العوامل التالية :

أ — محاولة الدول المغربية القديمة إثبات مشروعيتها السياسية الفكرية بإلغاء التجارب الفكرية للدول السابقة، وبناء صرحها الفكري في الفراغ المحدث. وهذا ما جعل تراثنا، ومنه أدبنا، سلسلة من الفجوات وحلقات الفصل لا الوصل. وهذا

---

(١) كلية الآداب تطوان

ما جعلنا نكاد نجهل كل شيء عن تراث ما قبل أواخر القرن الخامس. وحتى ما كتب بعد هذا التاريخ، ضاع الكثير الكثير منه. نظر لنصران المرابضي الموحدى، والموحدى المريني.

#### ب — رسوخ عقدة المشرق :

لأريب أن «العلم» بمفهومه الإسلامى مشرقى الأصل والنزعة غير أن هذا لايعني حتماً أفضلية الانتاج المشرقى على الانتاج المغربى. غير أن المثقف المغربى القديم رسوخ فى نفسه عقدة المشرق واستسلم لها، لأسباب سياسية مذهبية، مما جعله يهتم بكل مايرد عليه من المشرق حتى ولو كان هذا الوارد هزئياً لاخير فيه؛ ويهمل روائع إبداعه.

#### ت — رسوخ عقدة الأندلس :

ومثلما ترسخت عقدة المشرق فى نفس المثقف المغربى القديم، ترسخت فيه أيضاً عقدة الأندلس؛ فصار الشاعر المغربى يقلد نظراءه الأندلسيين و صار العالم المغربى لأهم له الا شرح وتحشية الكتابات الأندلسية. مع أن الهيمنة السياسية كانت للمغرب على الأندلس عموماً. وهذا من مفارقات التاريخ والفكر.

إن رسوخ هاتين العقيدتين فى البنية الفكرية المغربية، فضلاً عن العامل السياسى الفكرى، جعل المثقف المغربى القديم، لايعيش فى عالمه الخاص، وينظر إلى تجربته بمنظاره هو، ويطور أدواته الاجرائية لتعكس تجربته الحضارية وعمقه التاريخى وأصالته وعطاءه وإبداعه. بل يعيش فى الآخر، «المتفوق» حضارياً وفكرياً، الذى هو الأندلس والمشرق.

وإذا كانت الأندلس هي أيضاً قد تأثرت بعقدة المشرق، حتى إن كما هائلا من تراثها كان رد فعل وجواباً على إشكاليات مشرقية، لافعلاً ولا جواباً عن إشكالياتها الخاصة؛ فإن المغرب القديم ورث عقدة المشرق وعانى منها بشكل مثلث : مباشرة إلى المشرق وإلى الأندلس، من جهة، ولا مباشرة إلى المشرق (عبر الأندلس نفسها). إن هذه العقدة المثلثة جعلت من الآخر نموذجاً ومحوراً، ومن الذات تابعا ووليا. الشيء الذى جعل المحافظة على التراث المغربى من الضياع مهمة لايقوم بها ولا يفرغ لها إلا أصحاب الترف الفكرى، إذ لافائدة ترجى من محصول مصنف أصلا فى الدرجة الثالثة. وحتى من شكلوا الاستثناء من هذه الظاهرة، إنما شكلوه لأن محور كتابتهم مشرقى أندلسي. ولم يكتشفهم المغاربة إلا عندما

عكستهم مرآة الأندلس وشرق. ولنا في القاضي عياض والشريف الإدريسي خير شاهد على مائز عمه.

إن العوامل الثلاثة السابقة تطبق، ولأريب، على التراث النقدي السبتي. إننا نجهل كل شيء عن بدايات النقد الأدبي في سبته. غير أننا نفاجأ بوجود مؤلف في السيرة والحديث الشريف، يتضمن فصولاً في البلاغة القرآنية والإعجاز. هذا المؤلف هو كتاب «شفاء الصدور» لابن سبع السبتي. وهو أقدم نص نقدي بين أيدينا. وهو ما يوهم أن الكتابة النقدية الإعجازية في سبته ولدت مكتملة ناضجة جاهزة. ونظراً لغياب النصوص والوثائق، التي تجعل من التحليل والتركيب ضرباً من الرجم بالغيب أحياناً، لامتلك إلا أن نعتبر كتاب «شفاء الصدور»، وهو المكتوب في النصف الثاني من القرن الخامس، في ظل دولة المرابطين، ولاسيما عهد يوسف بن تاشفين، نقطة البداية في الكتابة النقدية.

2 — إن استقراء التراث النقدي السبتي منذ نشأته إلى نهايته يمكننا من أن نقسمه إلى ثلاثة مراحل.

— المرحلة الأولى : ويمكننا أن نسميها المرحلة السبعية العياضية. وهي الفترة التي أنتج فيها أبو الربيع سليمان بن سبع (α 440 — 520 / 1408 — 1126) كتابه «شفاء الصدور» وأنتج فيها القاضي عياض (ت 544 هـ) كتبه المشهورة : الشفاء وبغية الرائد وديوان خطبه وغنية الكاتب. وقد اختتمت هذه المرحلة بكتاب التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد (ت 575 / 1179 هـ).

تمتد هذه المرحلة إذن من سنة 460 هـ تقريباً، لنتهي سنة 575 هـ. إن هذا يعني أنها شملت ما يزيد على قرن من الزمان، شهدت فيه أوج دولة المرابطين، ثم أوج دولة الموحدين، مع ما يطرّحه هذان الاسمان من إشكاليات تاريخية فكرية سياسية.

المرحلة الثانية : ويمكننا أن نسميها المرحلة الدحيوية، لأنه لمع إسم أبي الخطاب عمر بن دحية (α 548 — 663 / α 1153 — 1235) بصفته عالماً محدثاً وشاعراً كبيراً. وفيها كتب كتابه المشهور : «المطرب في أشعار أهل المغرب» للسلطان الكامل الأبوي ولنا أن نجعل هذه الفترة تبتدىء من وفاة أبي عبد الله بن عياض، وتنتهي باستيلاء أبي القاسم العزفي على السلطة بسبته (647 / 1249).



المرحلة الثالثة : وهي المرحلة الأخيرة. ويمكننا أن نسميها المرحلة العزفية. وهي الفترة التي لمعت فيها أسماء ابن رشيد الفهري (ت 721 / 1321)، وابن هانيء اللخمي (ت 733 / 1332)، والشريف الغرناطي (ت 760 / 153)، وأبي القاسم العزفي الحفيد (ت 717 / 1317). إن هذه المرحلة الطويلة تنتهي قطعاً سنة 819 / 1417، حيث احتلت دولة البرتغال ثغر سبتة.

لأشك أن هذا التقسيم ليس صارماً نهائياً، بل هو تقسيم تقريبي يحاول أن يربط بين بعض الظواهر النقدية والفترات الزمنية التي ظهرت فيها.

### 3 — السبعية (1)

قد تشير المصادر المتوفرة بين أيدينا إشارات سريعة إلى بعض أدباء سبتة ممن كان لهم علاقة مابالبلاغة والنقد والاعجاز، وعاشوا في النصف الأول من القرن الخامس. غير أن الانطلاقة المنهجية لحركة النقد في سبتة إنما تعود إلى النصف الثاني منه. وتتجسد هذه الحركة في ابن سبع وكتابه «شفاء الصدور». ونعتقد أن فهم بعض ظواهر السبعية النقدية يسهل استبطان ظواهر النقد وخلفياته عند عياض ومن تلاه.

كتاب شفاء الصدور في أعلام نبوة الرسول وخصائصه : لنلاحظ في البدء أن هذا الكتاب ليس كتابة متخصصة في النقد أو الأدب أو البلاغة أو الإعجاز أو العروض أو القوافي.

إنه كتاب سيرة وحديث قبل كل شيء. غير أن المؤلف عقد فيه بابين لهما علاقة مباشرة بالنقد والإعجاز.

أ — الباب الأول : إعجاز القرآن. وجوه إعجازه. خواص نظمه.

ب — الباب الثاني : فصاحته. بلاغته. جزالته أسماؤه مافيه من علوم.

إن هذا الربط بين الإعجاز والبلاغة القرآنية وبين علم الحديث والسيرة، الذي شنه ابن سبع سوف يشكل ثابتاً محورياً في الكتابة النقدية السبتية : وسوف تظل وروح ابن سبع وكتابه «شفاء الصدور» مرفرفة في كتاب الشفا لعياض وفي بغية

(1) اعتمدنا في هذا التحليل دراسة الأستاذ العلامة سعيد أعراب عن ابن سبع، والمنشورة بمجلة دعوة الحق. عدد 8 — 9 — 10. سنة 1979 تحت عنوان : «أقدم عالم مغربي وصا تراثه : أبو الربيع سليمان بن سبع السبتي».

الرائد له أيضا، ولن تستقل العلوم الدينية عن البلاغة والنقد إلا فيما بعد. إن المباحث البلاغية الإعجازية ليست إذن إلا عنصرا بنويوا في إشكالية تطرحها السبعية وسياقها التاريخي.

إن الإشكال الذي يتبادر إلى الذهن هو : لماذا ولد النقد السبتي مرتبطا بالسيرة الحديث والقرآن، ولم يولد علما قائما بذاته ؟ هل الأمر مجرد صدفة ؟ أم أنه اختيار فكري ؟ وهل ولدت السبعية في الفراغ أم ولدت في سياق تاريخي خاص تحكم في تشكيلها ؟

لاشك أن الكتابة في السيرة والاعجاز مشروع فكري قام به المسلمون للدفاع عن قدسية النص القرآني ونبوية الرسول ﷺ ومن ثمة، هو مشروع فكري للدفاع عن الدولة الإسلامية التي جعلت من الفكر الديني عقيدة رسمية. إن كل طعن في القرآن أو السيرة يترجم إلى لغة الواقع التاريخي بالطعن في مصداقية الدولة الإسلامية ومشروعيتها ومبرر وجودها واستمرارها.

هكذا كتب أهل السنة وغيرهم من الفرق المجلدات الضخمة دفاعا عن الدولة الإسلامية عبر دفاعهم عن الرسول ﷺ أو تأريخهم لسيرته أو عبر دفاعهم عن قداسة القرآن وإعجازه.

ولنعد إلى «شفاء الصدور». لقد ألفه صاحبه في نهاية القرن الخامس الهجري، واستمر يشغل به إلى بداية القرن السادس على الأرجح. وقئد، كانت المكتبة الحديثية والاعجازية والبلاغية قد تضخمت بكم هائل من مؤلفات هذا الميدان سواء في المشرق أو إفريقية أو الأندلس. فلماذا كتب ابن سبع كتابه هذا ؟ ألم يكن يحس بضخامة التراث الإعجازي والحديثي ؟ أكان يتوقع من كتابه أن يكون موسوعة لعلوم متعددة كل فصيلته التجميع والترقيم ؟ وإذا كان الأمر هكذا، ألم يكن يحس بالعبث وهو ينفق ثلاثين سنة من عمره في سبيل كتابه هذا ؟ أم أنه كان يحتسب عمله لله تعالى ؟ أم أن حافزا كبيرا كان يحفزه على الكتابة وإنفاق السنين فيها ؟ إننا نعتقد أن الإجابة على إشكالات «شفاء الصدور» كامنة في السياق السياسي الفكري الذي غمر ابن سبع وألح عليه في الكتابة.

لقد كان المشرق الخاضع نظريا للخلافة العباسية يئن تحت وطأة الهجمة الصليبية وهي في عنفوانها يومئذ. وكان لابد للمشروع العسكري الإسلامي المقاوم من معاضدة مشروع فكري مواز لطرد الصليبية عسكريا ونقض أطروحتها فكريا.

أما مصر، فكانت تحت سيطرة الخلافة الفاطمية وهي دولة شيعية إسماعيلية متطرفة ؟ بلورت فكرا متأثرا بالفلسفة اليونانية والغنوصية، يركز على تضخم شخصية الامام الفاطمي والتأويل الباطني للقرآن، وعلى تقليص دور الرسول ﷺ بالنسبة لدور الامام المعصوم.

ولم ينحصر هذا الفكر في مصر وحدها، بل انتشر في السر والعلن في جميع أرجاء دار الاسلام. أما إفريقية، فقد كان الصراع فيها عنيقا بين المالكية وبين بقايا ممثلي الفكر الإسماعيلي بها. فإذا وصلنا إلى أقصى الغرب، وجدنا أن الأندلس قد شهدت وجود مذاهب فكرية مخالفة لمذهب أهل السنة ؟ لم يكن المرابطون، ولا الأمويون قبلهم، ليرضوا عنها وهم المالكية المتحمسون. نذكر منها مذهب ابن مسرة والفلسفة والتصوف المتطرف. لقد شكلت هذه المذاهب وغيرها نقيضا وبديلا عن الفكر السني المالكي. وعلى صعيد الواقع، شكلت تهديدا سياسيا خطيرا لدولة المرابطين، ومن قبلهم للأمويين والطوائف.

أما المغرب، فقد عرف إلى غاية منتصف القرن الخامس أهواء وفحلا بعيدة عن الاسلام السني وغير السني. غير أن المشروع المرابطي عمل على توحيد المغرب سياسيا وعسكريا وفكريا بنشر المذهب المالكي وترسيمه وتجديره. بل سعى إلى توحيد المغرب والأندلس. بل سعى إلى أبعد من هذا، قاصدا توحيد دار الاسلام من جديد، بالاعتراف بالتبعية، ولو إسمية، للخلافة العباسية السنية، لإيقاف المد الإسماعيلي الفاطمي، والمد الصليبي المسيحي في الشام وصقلية والأندلس غير أن المشروع المرابطي كان يواجه عراقيل في المغرب نفسه، فضلا عن الأندلس. وكانت سببة أجدر المدن المغربية بالتحمس للمشروع المرابطي. وكان ابن سبع أجدر علمائها بتمثل المشروع المرابطي والتعبير عنه فكريا. كيف ذلك ؟

تقع سببة في قبائل غمارة. ومنذ أن ضمها الخليفة الناصر الأموي في القرن الرابع إلى الأندلس وهي مالكية على مذهب دولة الأمويين. وقد استفادت من مناعتها لتصد جيوش الفاطميين، غير أن قبائل غمارة لم تكن تشارك سببة مبادئها الفكرية. هكذا ظهر فيها زعيم ادعى النبوة اسمه حاميم بن من الله، يلقب بالمفتري. بسط سلطانه عليها إلى أن قتل بأحواز طنجة سنة 315 / 3 / 927<sup>(2)</sup> لكن هذا لم يمح دعوته ولم يستأصلها. بل لقد عاشت إلى ما بعد منتصف القرن الخامس

(2) المسالك والممالك : 101.



حيث كان يكتب ابن سبع. وفي هذا الصدد كتب أبو عبيد البكري : «ويجاور بلد نكور بلد غمارة. فمته محكسة. وتنبأ بذلك الصّقع أبو محمد حاميم بن من الله... الملقب بالمتفري. ويبند محكسة جبل حاميم المنسوب إليه. وهو على مقربة من مدينة تيطاوان وأجابه بشر كثير أقرّوا بنبوته.»<sup>(3)</sup> «وبنو وجفال رهط حاميم ينزلون على نهر راس وهل على ثلاث أميال من مدينة تطاوان» بل يشير البكري إلى ماهو أخطر ونعني به قوله «ووضع خم قرانا بلسانهم. فمما ترجم منه...»<sup>(5)</sup>

إن كون هذا الكتاب وضع بالبربرية ليتعبد به عامة قبائل غمارة، وكون ترجمته الكلية أو الجزئية وصلت إلى الأندلس وكانت مازال معروفة إلى ما بعد منتصف القرن الخامس، يدل على أن الإسلام، وكتابه المقدس، كان يواجه تهديدا خطيرا في شمال المغرب. إن الأمر ليس أمر بدعة وفسق. بل إن وجود الاسلام وحرمة القرآن وإعجازه كانوا موضع جدل. وكان من البديهي أن نشارك سبته في هذا الجدل الفكري بين الاسلام وعقيدة حاميم ؟ بين القرآن ذي اللسان العربي المبين، وبين كتاب حاميم العجمي.

لم تكن غمارة وحدها المتملصة من الاسلام، بل لقد شاركتها في الأمر قبائل برغواطة. يقول البكري في هذا الصدد : «وكان موت صالح [البرغواطي] بعد موت النبي ﷺ بمائة عام... وكان من أهل العلم والخير، فتنبا فيهم وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم. [سنة 460 / 1068] وادعى أنه نزل عليه قرانهم الذي يقرأونه إلى اليوم.»<sup>(6)</sup> وعلى غرار غمارة، أورد البكري نصا مترجما من كتاب متنبىء بورغواطة<sup>(7)</sup>

لاشك إذن أن كلا من برغواطة وغمارة كانت تطرح مشروعا فكريا في صيغة كتاب مقدس، كانت تحاول به نقض الأطروحة الإسلامية، ونسخ القرآن العربي به.

(3) المسالك والممالك : 100.

(4) المسالك والممالك : 101.

(5) المسالك والممالك : 100.

(6) المسالك والممالك : 135.

(7) المسالك والممالك : 140.



إن أسوار سبتة، وإن حمت مالكيها وسنتها من الضلالة الخارجية، فإنها لم تكن لتحميها من الضلالة الداخلية. هكذا عمل الحموديون بها على تشجيع أدب ذي نفس شيعي لأعهد لسبتة به، نجده عند ابن دراج، وابن الحناط وعبادة بن ماء السماء وابن ماقانا الأشبوني وابن شهيد<sup>(8)</sup>. بل لقد توصل بعض موالي الحموديين، وهم سقون بن محمد البرغواطي، إلى الاستيلاء على السلطة سنين طويلة بسبتة حتى انتزعها منهم المرابطون. صحيح أن هؤلاء لم يحولوا سبتة إلى قلعة بدعة.

غير أن وجود سلطة بسبتة ذات أصل برغواطي كان لابد من أن يثير بعض الصراعات ولو مكتومة.

قاتل المرابطون كل الفرق المغربية غير السنية. يقول ابن الخطيب متحدثاً عن أبي بكر بن عمر الممتوني : «استولى على سجلماسة وبلاد سوس وقاتل الروافض.. ثم تملك بلاد تادلة وتامسنا سنة تسع وأربعين وأربع مائة. واتصل بقبائل برغواطة... فأخلص فيهم الجهاد<sup>(9)</sup>» «وأسلم من أفلت من القتل إسلاماً جديداً»<sup>(10)</sup>.

وقد توجت عملية توحيد الغرب عسكرياً وفكرياً وسياسياً بفتح سبتة واستخلاصها من الدولة البرغواطية بها سنة 476 / 1083<sup>(11)</sup>

لقد هيأ الفتح المرابطي على يد يوسف بن تاشفين الفرصة لسبتة لانتعاش المالكية بها، ولتعتبر عن رفضها لكل مذهب فكري غير سني. هكذا جاء كتاب شفاء الصدور الموسوعة تمثل فكر الدولة المرابطية وفكر أهل سبتة، وموقفهما من كل ماهو غير سني، وغير إسلامي، سواء أكان في المشرق أم الأندلس أم في أحواز سبتة نفسها. لاغربة إذن، والحالة هذه، أن يقوم ابن سبع في شفاء الصدور بتخصيص باب كامل لإعجاز القرآن ووجوه إعجازه وخواص نظمته وباب آخر لفصاحته وجزالته وأسمائه ومافيه من علوم<sup>(12)</sup>، إنهما إذن البابان النقديان في كتابه

(8) ينظر مثلاً عن هذا : الدخيرة : 88/1 — 91. 445/1 — 447

(9) أعمال الأعلام : 230.

(10) أعمال الأعلام : 232.

(11) الدخيرة : 460/6 — 464.

(12) شفاء الصدور. مخطوط الخزانة العام رقم ك 1383. وينظر عن هذه القطعة. دراسة الأسدي

«شفاء الصدور» وعندنا أنهما عبّرا في واقع الأمر عن الردّ السبتي المرباطي على الكتابات النبوية الغمارية والبرغواطية وقداستها ومصادقتها.

وإذا كان هذا كذلك، فإن إشكالا آخر يطرح نفسه وهو : لماذا احتجب كتاب شفاء الصدور ولم يؤثر إلا قليلا جدا في الفكر المغربي بحيث تكاد النقول عنه أن تنعدم، ويكاد مؤلفه أن يظل مجهولا رغم ضخامته وقيّمته الفكرية واحتياج سبته بل المغرب والأندلس في القرن الخامس إليه ؟

إن احتجاج شفاء الصدور أمر محير قطعاً. حتى إن القاضي عياض لا يذكره ولا يشير إليه. رغم أنه لا بد أنه قرأه وتأثر به في كتابة الشفا إننا نقترح للإجابة على هذا الاشكال نقطتين أساسيتين نرى أن الحل يكمن فيهما.

أ — النقطة الأولى. ويتمثل الأمر في كون ابن سبع كان رجلاً صوفياً أو ليثياً. بل منظراً من منظريهم. حتى إنه كتب كتاباً أسماه : «الحجة في إثبات كرامات الأولياء وإيضاح البراهين على صحة وقوعها من الكتاب والسنة وإجماع الأمة»<sup>(13)</sup> إن هذا الجانب في فكر ابن سبع لم يكن المرباطون ليرضوا عنه، وهم الذين أحرقوا إحياء علوم الدين للغزالي، وتخوفوا من ظاهرة الصوفية والأولياء الذين تلتف حولهم العامة، الشيء الذي جعل السلطة تعرض عنه.

ب — النقطة الثانية : ويتمثل الأمر في كون القاضي عياض (ت 544 هـ) حاول أن ينسخ «شفاء الصدور» بكتابه «الشفا» وأن يجعل من كتابه هذا جواباً سبتياً مرباطياً على التحدي الفكري الموحدى، ولاسيما لتعاليق المهدي ابن تومرت المسماة «أعز ما يطلب». إننا نعتقد أن أهل سبته كانوا قد تجاوزوا في الربع الأول من القرن السادس الإشكالية السياسية الفكرية التي طرحها الصراع بين المرباطين وبين الرافضة وبرغواطة وغمارة، والذي أفرز كتاب شفاء الصدور، إلى إشكالية جديدة، غطت بجذتها وعنفها الفكري والعسكري والسياسي على الإشكالية السابقة. ويتعلق الأمر بالجدل السياسي الفكري بين المرباطين والموحدين. فإذا كانت برغواطية وغمارة تجادلان خارج دائرة الاسلام في نهاية القرن الخامس، فإن الموحدين في الربع الأول من القرن السادس كانوا يجادلون من داخل دائرة

---

= العلامة سعيد أعراب «أقدم عالم مغربي وصلنا تراثه : أبو الربيع سليمان بن سبع السبتي» المنشور بدعوة الحق. عدد 9 شتبر 1979. ص 19 — 26.

(13) أقدم عالم مغربي وصلنا تراثه : دعوة الحق. عدد 8. غشت 1979 ص 17 — 22.

الاسلام المربطين. بل كان فكرهم هو الذي يضع المربطين خارج دائرة الاسلام، معتبرا ايّاهم من الكفرة وانجسة والمشبّهة<sup>(14)</sup>. إن هذا الصراع الجديد العنيف هو الذي أفرز «كتاب الشفاء» بل العياضية عموما لنقض الأطروحة المهدوية.

ولما كانت سبّية من أشد مدن المغرب رفضا لدعوة الموحدين وتمسكا بدعوة المربطين، فلقد عمل علماءؤها على مدارسة كتاب «الشفاء» للقاضي عياض لأنه كان ينقض بالفعل الأطروحة المهدوية التي ثاروا عليها مرات متعددة. ولما كان كتاب شفاء الصدور إفراز مرحلة متجاوزة، فقد تجاوزته بإهماله، ولأسيما أن خطه الفكري هو نفس الخط العياضي؛ سواء ماتعلق بالأعجاز أم غيره.

ونريد أن نخلص إلى القول بأن التراث النقدي السبتي في مرحلته الأولى في صورته الإعجازية عمل على تمثيل واقعه السياسي الفكري، وتقديم الأجوبة الشافية على كل الإشكالات الفكرية المطروحة وقتئذ، والمشاركة في الجدل السياسي الفكري المربطي ضد كل المذاهب المناوئة لفكر أهل السنة والجماعة. وبناء عليه، يمكننا أن ندعي أن هذا النقد الإعجازي السبتي، ونموذجه كتاب شفاء الصدور، لم يكن قط نقدا بريئا أو مولودا في الفراغ.

بل لقد كان نقدا ملتزما بمالكة سبّية والمغرب، وثمره سياق فكري منسجم، ولم يكن قط نقدا يتوخى خدمة الأدب لذاته.

إن هذا ما يفسّر اندماج المباحث الإعجازية في كتاب «شفاء الصدور» وكتاب الشفاء بكل ماهو تاريخي وفقهي وحديثي وغير أدبي.

إن الاستسلام لعقدة المشرق والأندلس هو مايوهم بأن كتاب شفاء الصدور، ومن بعده كتاب الشفاء، ليس إلا امتدادا بسيطا لكتابات البلاغيين والإعجازيين من المشاركة والأندلسيين عن القرآن بينما هو في الباطن موقف من الجدل السياسي الفكري لمغرب المربطين.

---

(14) ينظر مثالا عن هذا الموقف الموحدي رسائل المهدي بن تومرت : 1 — 10 ص 10 كتاب أخبار المهدي بن تومرت.

## المصادر والمراجع :

- ذ سعيد أعراب : أقدم عالم مغربي وصلنا تراثه : أبو الربيع سليمان بن سبع السبتى. مجلة دعوة الحق. عدد 10.9.8 سنة 1979
- أبو عبيد البكري : المسالك والممالك.
- (نشر تحت عنوان : المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب) تحقيق : البارون دي سلال الجزائر — 1911.
- ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق د. إحسان عباس. بيروت — 1979
- ابن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجرّ ذلك من شجون الكلام.
- (نشر تحت عنوان : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) تحقيق : ذ. أحمد العبادي. إذ. إبراهيم الكتاني. الدار البيضاء — 1964.
- أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين. تحقيق : إلافي بروفنسال. باريس — 1928.





# شرح الشريف السبتي لمقصورة حازم وتأصيل الأسس النقدية لفن المقصورات

ذ. محمد الدناي<sup>(١)</sup>

تلتقي جل التعاريف التي عرفت المقصورة حول وصفها هذا الفن الشعري بأنه قصيدة رويها ألف مقصورة<sup>(١)</sup>، وورود هذه الألف رويًا يجعل القافية بناءً صوتيًا شاحبًا يفتقر إلى البروز الصوتي الذي تختص به كل قافية تعتمد على غير الألف من حروف الروي التي تبنى عليها القوافي في الشعر العربي. ويبدو أن هذا الشحوب يعود إلى ضياع الصورة الصوتية للمقصورات القديمة نتيجة حلول الكتابة محل الإنشاد<sup>(٢)</sup>، مما جعل الصورة الأولى للمقصورات صورة مهمة غير واضحة الملامح الصوتية، بالقياس إلى وضوح الروي صوتيًا، في باقي أنواع القوافي. ويؤكد هذا الشحوب الصوتي نفور الشعراء القدماء، الذين تفرغوا للشعر، من المقصورات فديوان أبي الطيب مثلاً، لا يضم إلا مقصورة واحدة، وديوان مهيار الذي بلغت قصائده ومقطعاته<sup>(٣)</sup> 386 نموذج، لا يضم إلا ثلاث مقصورات، ونفس الظاهرة نلاحظها في دواوين<sup>(٤)</sup> كبار الشعراء كبشار وأبي تمام والبحري

(١) كلية الآداب — فاس.

(٢) خصصها بعضهم بانتسابها إلى بنية الكلمة المكونة للقافية.

(٣) انظر البنية الصوتية في الشعر بين الكتابة والإنشاد. محمد الدناي. مجلة دراسات س. أ. ل. ع 2/ 1988 ص 33

(٤) المقطوعات في ديوانه جد قليلة.

(٥) في ديوان بشار مقصورة واحدة. وسقط الزند بخلو مطلقاً من المقصورات.

وأي العلاء وغيرهم من الشعراء الخذاق. إن نفور هؤلاء الشعراء من المقصورات، يمكن أن يفسر بخضوع الشاعرية في العصور الأدبية الأولى. لزرعة التخصص والفصل بين الشعر وباقي المعارف. فالشاعر لا يخوض في ما يخوض فيه العالم المتأدب، والعالم يمنعه اشتغاله بالعلم من أن يرقى إلى درجة الشعراء الجيدين. وقد عبر ابن قتيبة عن هذا التصور في حديثه عن الضرب الرابع (١٤) من أضرب الشعر، حين قال معالفا على شعر للخليل: «وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة، وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن حماح وسهولة كشعر الأصمعي وابن المقفع والخليل، خلا خلف الأحمر، فإنه كان أجودهم طبعاً...» (١٥). هذا الفصل بين الشعر والعلم كان يمنع الشعراء من أن يتسئلوا المقصورات عبر مهيمن آخر (١٦) محل محل الصوت الشاحب الذي ميز الروي المقصور، أي عبر الصورة الجديدة للمقصورة، صورة المقصورة المطولة التي رسخ أصولها العالم الشاعر ابن دريد. فابن دريد يمثل شخصية الأديب الذي حاول أن يستثمر معارفه واستعداده الشعري، ألف الجُمهرة والاشتقاق والملاحن وكتبها لغوية أخرى (١٨). كما نظم الشعر، مما جعله يستحق أن يوصف لدى الدارسين القدامى بأنه أشعر العلماء وأعلم الشعراء. مثل هذا الوصف الذي أصبح مستساغاً في الأعصر المتأخرة نتيجة اتساع مفهوم الشاعر، لم يكن مقبولا في عصر ابن دريد نفسه لأن ارتباط الإجابة والتبريز بزرعة التخصص، كان يستبعد قدرة نفس الشخص على الجمع بين صفة الشاعر والعالم من حيث النظر إلى براعة النظم وعمق التصنيف، وهذا ما جعل مقصورة ابن دريد نموذجاً أدبياً موازياً للشعر الخالص، يفرغ فيه العالم الشاعر مختلف أنواع العلوم التي حملها. لذا وجد الشراح العلماء — خلافاً للشعراء — في مقصورة ابن دريد متنا قابلاً للاستثمار.

لقد أشار المسعودي (٩) إلى مقصورة الحلواني باعتبارها نموذجاً مبكراً، وأورد

(٥) الضرب الذي تأخر لفظه وتأخر معناه.

(٦) الشعر والشعراء. ص ١٢

(٧) هو المهيمن الدلالي أو الموضوعي.

(٨) كتاب المقصور والمملود، السرج واللجام، صفة السحاب والغيث. (انظر تاريخ الأدب العربي. بروكلمان ١٨٢/٢).

(٩) مروج الذهب ٣٠٧/٩.

ابن صيفور والثقافي مقصورة اختلف في نسبتها،<sup>(10)</sup> ورغم ذلك ظلت منظومة ابن دريد، دون باقي المقصورات المبكرة، والنموذج الذي احتذاه المتأخرون من الشعراء العلماء، وأمثل الذي عني الشراح بشرحه لما تضمنته هذه المقصورة من «الأمثال السائرة والأخبار النادرة وأحكام البالغة والمواعظ الإنسانية»<sup>(11)</sup>.

والذي يثير الانتباه عند تتبع تاريخ المقصورة بعد ابن دريد، ظاهرتان: الأولى تتمثل في عدم تأثر كبار الشعراء في القرن الرابع وما بعده، بهذه المطولة رغم اهتمام الشراح بها. فإذا ما استثنينا بعض المعارضات التي نجدها عند بعض شعراء اليمن المغمورين ومعارضتي الخفاجي والمنوفي المنظومتين بعد ازدهار المقصورات في المغرب الكبير، لا نجد بين كبار الشعراء في المشرق من أولى هذه المقصورات اهتماما خاصا، بل إن الاهتمام بها في المشرق عموما يبدو قليلا.<sup>(12)</sup> وقد انتهى بعض الدارسين بعد التنقيب إلى الاقتناع بأن الذين عارضوا مقصورة ابن دريد كانوا قلة، فقال: «لقد أكثر المتقدمون والمتأخرون من ذكر المقصورة لابن دريد، وذكروا أن الكثيرين من الشعراء قد عارضوها، ومن عباراتهم في ذلك، وقد عارضها خلق كثير. غير أنني وإن كنت لا أشك في صدقهم، فإن ما بين يدي من المصادر. لم يمكنني من العثور على الكثير ممن عارضها، على أنني سأثبت هنا ما عثرت عليه من معارضات على قلتها»<sup>(13)</sup>.

والظاهرة الثانية المثيرة للانتباه، تتجلى في كون البيئة المغربية الكبرى الوسط الثقافي الذي وجدت فيه المقصورات مجالا للاستمرار بل وللازدهار. رغم كون نشأتها مشرقية صريحة. فأشهر المقصورات في تاريخ الأدب العربي بعد منظومة ابن دريد لم تظهر إلا في البيئة الأدبية المغاربية.<sup>(14)</sup>

أقصد مقصورة حازم القرطاجني التي نظمها في تونس، مادحا الأمير الحفصي

---

(10) نسبها الثقافي إلى الأسدي.

(11) شرح مقصورة ابن دريد (المقدمة) ص 6.

(12) ممن عارضها أبو القاسم الأنطاكي (ق. 4هـ)، وابن الورقاء (ق. 4هـ) وابن جابر الأندلسي (ق. 8هـ). وسليمان النهائي (ق. 10هـ) من عمان، وأبو سلم الرواحي العماني (ق. 14هـ).

(13) معارضات في الشعر العربي — د. محمد بن سعد بن حسين ص 223.

(14) استعمل هذه النسبة غير القياسية، للإشارة إلى المغرب العربي الكبير.



المنتصر بالله. ونظرة هذه المطولة، التي تجاوزت ألف بيت، إلى مقصورة ابن دريد، كما يدل على ذلك كلام حازم نفسه، صريحة يقول حازم في خطبة مقصورته : «وما هذه القلادة المنظومة، والروضة الممشورة، إلا قصيدة من الرجز غير مشطورة، عارضت بها قصيدة أبي بكر بن دريد المقصورة» (15).

ويبدو أن ظهور مقصورة حازم هذه كان البعث الحقيقي لفن المقصورات الذي كان يحتضر بالشرق، لذا لم يكن مستغربا أن تتطلع إليها مواهب المغاربة باعتبارها النموذج المكتمل للمقصورات. فقد انتزعت المقصورة إعجاب ثلاثة من أعلام المغرب : مالك بن المرحل وابن الشاطئ والشريف السبتي شارحها (16)، إن حازما استطاع بنظمه مقصورته المشهورة أن يصبح أكبر شعراء المقصورات (17)، في المشرق والمغرب. ورغم مكانته هذه لم يكن المغاربة يجدون في هذا الذي نظمه حازم معجزا يمنعهم من النظم على غرارها، بل إن بعضهم نظم هذا الفن وهو يهدف إلى تجاوز حازم وأستاذه ابن دريد معا. يقول صاحب الأزهار : «وقد ألف الإمام المكوذي شارح الألفية، مقصورة بديعة نبوية، وعاب على ابن دريد وحازم جعلهما مقصورتيهما مدحا في بني الدنيا، فكان من جملة أبياتهما :

فحازم قد عد غير حازم وابن دريد لم يفده ما درى (18)  
أما اهتمام المغاربة بالمقصورات من حيث هي متن، فقد تجلّى في الشروح التي خص بها المغاربة مقصورة حازم والمكوذي. يقول المقرئ متحدثا عن مقصورة حازم : «وتولى شرح هذه المقصورة الشيخ أبو القاسم الشريف الحسني القاضي، كان بغرناطة، وسمى شرحه هذا رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، وملاؤه بكل غريبة. وقد طالعه غير مرة» (19). ثم يقول مشيرا إلى مقصورة المكوذي : «وقد تولى شرح مقصورة المكوذي بعض أصحابنا وهو الكاتب الأديب أبو عبد الله المكلاقي أعانه الله تعالى» (20).

(15) قصائد ومقطوعات، صنعة حازم القرطاجني . تحقيق بلخوجة. ص 12.

(16) انظر الصلات الثقافية بين المغرب وتونس الحفصية. م. المنوفي. ص 56.

(17) انظر : أبو الحسن حازم وفن المقصورة — د. مهدي علام.

(18) أزهار الرياض 174/3.

(19)، نفسه 174/3.

إن المدارس يستطيع أن يربط بسهولة، بين ازدهار الموشحات لدى الأندلسيين ونشأتها الأندلسية. لكن ظهور المقصورة في المشرق وازدهارها في المغرب الكبير بعد أن كادت تتلاشى في بيئتها المشرقية، ظاهرة تلزم المدارس بأن يتساءل عن الأسباب التي جعلت هذا الفن يزدهر في البيئة المغاربية<sup>(21)</sup> دون باقي البيئات الثقافية (العراق، الشام، مصر، فارس...).

إن الرابط الأول بين المقصورات، الذي يمكن أن يلاحظ عند مقارنة المقصورات بعضها ببعض، هو رابط الطول، بل إن القدرة على إطالة المقصورات — تميزا لها عن غيرها من القصائد — كان مما يحكم عند المفاضلة بينها. لذا ظلت منظومة حازم بأبياتها الألف، لدى المغاربة نموذجا مكتملا لهذا الفن. وإذا كان الروي المقصور يسمح للناظم بالاطالة غير الممكنة في القصائد الأخرى —<sup>(22)</sup> لوفرة الكلمات التي تنتهي بألف مقصورة —، فإن تقصي هذه الكلمات نفسها يتطلب سعة المحفوظ المعجمي وغناه لدى الناظم، مما يجعل التقصي نفسه دليلا على إحاطة الناظم بما لم يحيط به غيره. لقد استخدم ابن دريد في مقصوده التي تجاوزت 230 بيت «نحو ثلث الأسماء العربية المقصورة ولذا اعجب بها الشعراء والعلماء، فأخذوا في معارضتها والنسج على منوالها وتغيير غريبها وإشاراتها»<sup>(23)</sup>، فهل كانت الأبيات الألف في مقصورة حازم محاولة لتقصي الثلاثين الباقيين؟ وأيا كانت الإجابة فالواضح أن المهيمنة الجديدة في هذا الفن أصبحت مرتبطة بتراكم الموضوعات التي وجدت في استغلال معارف الناظم ما يساعدها على النمو والامتداد. فالمقصورة المشرقية الأولى، التي فقدت قيمتها الصوتية أصبحت بعد ابن دريد تحيي بمختلف أنواع المعارف والعلوم التي يفرغها الناظم في مقصوده موفرا لها مجالا للامتداد ومبرهنا بذلك على تنوع معارفه وقدرته الى الانتقال من علم إلى علم داخل نفس المتن. لذا لا نستغرب أن تتجه كل النصوص التي وصفت المقصورات إلى رصد هذه المعارف وتبعتها في المنظومة. فالشريف السبتي شارح مقصورة حازم يكاد يصرح بأن شرحه الكبير ليس إلا استثمارا لهذه المعارف المتنوعة التي تتضمنها منظومة إمام المقصورات: «فإني لما تأملت مقصورة الإمام

(21) استعمل هذه النسبة غير القياسية للإشارة إلى ما يمثل اليوم المغرب العربي.

(22) تجنبا للإطالة.

(23) شرح مقصورة ابن دريد صنعة الخطيب التبريزي. تحقيق قباوة. ص 6.

الأوحد أبي الحسن حازم.... ألفيتها تجمع صرويا من الإحسان وتشمل على أفانين من البيان، وتتضمن فوائد جمّة من عمّ اللسان، وتشهد منشئها بما انتظمته من غرائب الأنواع واتسمت به من عجائب الإبداع، بأنه سابق الميدان» (24)

ويقترن هذا الشرح المطول الذي وضعه الشريف السبتي لمقصورة حازم القرطاجني، بالتنبيه الصريح إلى أنه في شرحه هذا، يشرح نموذجاً فنياً مكتملاً للمقصورات، قابلاً للاحتذاء. وقد يكفي لظهور هذه النماذج الفنية المكتملة، أن يكون الشاعر ذا استعداد شعري وطبع يكتنّاه من أن يبدع ويوجد، دون أن يكون هذا الطبع مفتقراً إلى غزارة المعارف الخصلة، التي تجعله يعي الجودة وعيا نظرياً، قبل أن يحققها شعرياً، لكن ما يميز مقصورة حازم كونها مطولة ينجزها شاعر ناقد، يفهم الشعر ويتصوره تصوراً مختلفاً<sup>25</sup>، عن تصورات النقاد السابقين. وفي نسبة المقصورة إلى ناقد ينظر للشعر، ما يلزم الاختياري والمعارض بأن يدرك أن الكتابة الشعرية في هذه المطولة كانت تصوراً نظرياً قبلها قبل أن تصبح إنجازاً شعرياً أي أن كل المكونات الشعرية لهذه القصيدة وكل وسائل الأداء الأخرى، عناصر قصد حازم إلى تجميعها في مطولته. وإذا كان الشريف السبتي في شرحه الطويل لمقصورة حازم، قد نبه إلى أن شرحه هذا مقصور على الباب بعيد عن الاطناب في قوله: «هذا آخر شرح القصيد ومنتهى ما اعتمدته بالتقييد، وقد تركت فيه الإطناب، وما ذكرت من كل ما يسوغ ذكرى إلا الباب» (26)، فإن في وصفه هذا الشرح الطويل بكونه غير مطلب، ما يؤكد أن غاية الشريف السبتي، كانت استقصاء كل المكونات والعناصر الفنية التي أنجز حازم من خلالها الصورة النظرية لفن المقصورات، كما تصورها هو، وإن كانت مقصودته في أصلها معارضة لمقصورة ابن دريد وفي تتبع هذه المكونات الفنية للمقصورة، كما تمثلها حازم شاعراً وناقداً، وكما تمثلها الشريف السبتي شارحاً وناقداً، توجيه نقدي لكل من يروم نظم المقصورة والإجادة فيها. فالصورة المكتملة التي رسمها حازم لفن المقصورات من خلال نظمه مقصودته المشهورة، جعلت منظومته — لا منظومة ابن دريد

(24) رفع الحجب المستورة. (مقدمة الشرح). وانظر ما كتبه مهدي علام عن أهمية تراكم المعارف في تمييز ما أسماه بالمقصورات الفنية: أبو الحسن حازم وفن المقصورة.

(25) انظر كتابه: متاهج البلغاء.

(26) رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة 183/2.



— قبلة للمعارضات. وإذا كنا قد اعتبرنا شرح السبتي لهذه المطولة، توجيهها نقدياً لكل الشعراء والعلماء اللاحقين، فإن هذا التوجيه نفسه يصبح تأصيلاً نقدياً مدرسياً، للأصول الفنية النظرية والمنجزة، التي بنى عليها حازم مقصورته النموذج. وأول ما ينبه إليه الشارح وهو يؤصل هذه الأصول النقدية، ماهية المقصورة وطبيعتها، باعتبارها كتابة فنية. هل تعد منظومة حازم التي أصبحت النموذج المكتمل لفن المقصورات، قصيدة شعرية؟ قد يبدو هذا السؤال في ظاهره بسيطاً، لكن جوهر التأصيل النقدي في شرح الشريف السبتي، كامن في الإجابة عن هذا السؤال.

يحدد الشارح ماهية المقصورة، معتمداً على كلام رواه عن شيخه ابن الشاط : «سمعت شيخنا الإمام أبا القاسم بن عبد الله بن الشاط الأنصاري رحمه الله يقول غير ما مرة : وصل إلى بلدنا جزء من كلام أبي الحسن حازم، يحتوي على مقصورته الألفية... فدعاني الإعجاب بكلامه أن أوقفت عليه شيخ الجماعة أبا الحكم مالك بن المرحل رحمه الله، فتأمل ذلك، ثم قال : لا أقول : إن هذا شعر ولكني أقول هو ديوان علم».(27)

إن اعتبار المقصورة شعراً، قد يكون وصفاً لبعض عناصرها ومكوناتها، إلا أن العنصر الشعري فيها ليس العنصر المهيمن. والتعريف الذي يراه ابن المرحل شاملاً لها ومحيطاً بها، هو كونها «ديوان علم». وفي هذا التفريق الصريح بين طبيعة المقصورة الشعرية، وطبيعتها العلمية، فصل بين الوجه الشعري للمقصورات، والوجه الدلالي لها، باعتبارها عنصريين غير متكافئين(28)، في هذا النوع من النظم. ويبدو تجاهل السبتي للعناصر الشعرية الصريحة في المقصورة، جلياً في تجاهله لقافية هذه المطولة ووزنها. فشرحه يخلو مطلقاً من الحديث عن رويها، رغم أن الروي المقصور في صورته المتأخرة يكاد يفيد أن المنظومات المقصورة ذات قواف مرسلة. وعندما نتأمل الطريقة التي يشرح بها الشريف السبتي خطبة المقصورة، نلاحظ أنه يتتبع ألفاظ الخطبة ليشرحها لفظاً لفظاً، لكن مصطلح «مقصورة» كان مما أهمل ولم يشرح، رغم وروده صريحاً في قول حازم : «وما هذه القلادة المنظومة، والروحية المبطورة، إلا قصيدة من الرجز غير مشطورة، عارضت بها

(27) رفع الحجب المستورة : 2/1.

(28) لأن بعض المكونات الشعرية كاملة في المقصورات وإن لم تكن هي المهيمنة.



قصيدة أبي بكر بن دريد المقصورة» (29)، هذا التجاهل المقصود لعنصر القافية أثناء الشرح نجعلنا نعتقد أن الشارح، كان يعتبر المقصورة قصيدة موزونة لا روي لها، ولا يبدو هذا غريبا في عصر وبينة ثقافية، أصبحت المقصورة فيهما تمثل باعتبارها قصيدة مفتقرة إلى الهوية الصوتية المميزة التي تميز باقي قصائد الشعر العربي المقفاة. ولعل الشريف السبتي كان يرى أن الوصول إلى الكلمات التي تنتهي بألف مقصورة، أسماء كانت أم أفعالا، أمر لا يكلف الناظم أي مجهود، في عصر توافرت فيه المعاجم وتعددت، فضلا عما ألفت في الممدود والمقصور. فتجاهل القيمة الصوتية للروي في المقصورات، إذن كان الأصل الأول الذي أصله الشريف السبتي في شرحه. وإذا كان الشعر لفظا موزونا مقفى يدل على معنى، وكانت القافية والوزن مما يميز المنظوم عن غيره، فإن في هذا التحلل من سلطة القافية وقيودها، ما يعد تحللا من أحد أركان الشعر الكبرى.

وكما تجاهل الشريف السبتي، في شرحه روي المقصورة، تجاهل وزنها فحازم يصرح في خطبة منظومته تصريحاً مقصوداً، بأن مطولته : «قصيدة من الرجز غير مشطورة»، والشارح يقف عند هذه العبارة ليشرحها، إلا أن حديثه عن الرجز، ينحو منحى مدرسيا يبعده عن الدلالة النقدية لكلام الناظم : «والرجز أحد أشتار الدائرة الثالثة من العروض، وأصله من مستفعلن ست مرات، وقد اختلف لم سمي رجزا فليل سمي رجزا لأن أول كل جزء من أجزائه سببان، فهو يتوالى فيه حركة وسكون إلى أن تنتهي أجزاؤه تشبيها بالرجز في رجل الناقة وهو اضطرابها ورعدها، وذلك أنها تتحرك وتسكن، وقيل غير ذلك. وأحسن من هذا أن يقال سمي رجزا من الصوت لأنهم كانوا يترنمون كثيرا بهذا النوع من الشعر في عملهم وسوقهم وحروبهم فيرفعون به أصواتهم ويحدون به. والارتجاز صوت الرعد. والمشطور ما ذهب الشطر من أجزائه كقول الشاعر...» (30).

فكلام الشارح عن الرجز، كما يتضح من النص السابق، عرض لما يجده القارئ في كتب العروض والمعاجم، وإذا نحن افترضنا أن الشريف السبتي يخاطب الشاعر التلميذ الذي يريد معرفة الأصول الفنية للمقصورات، فإن هذا الشرح يعد ناقصا

(29) خطبة المقصورة.

(30) رفع الحجب المستورة : 11/1.

إذا ما قيس إلى دلالة عبارة حازم «من الرجز غير المشطورة» فحازم ينيه إلى أنه ترك الضرب المستعمل المشهور من الرجز وهو المشطور إلى ضرب آخر غير مشطور، هو الرجز التام أو الرجز المقصد، المبني على «مستفعلن» ست مرات. وفي اختيار حازم لهذا الضرب من الرجز — كما اختاره ابن دريد من قبل — تنبيهه إلى ذلك، ما يفيد أنه كان يقصد إلى استئثار إيقاع وحدة الرجز «مستفعلن» دون الخضوع لقصره<sup>(31)</sup> المرتبط بالمشطور والمنهوك. لكن سكوت الشارح عن توضيح دلالة هذا الاختيار المقصود للرجز غير المشطور أو الرجز المقصد، يجعل المفهوم النقدي لهذا الاختيار مبهما. وما نرجحه أن الشارح — وهو يقصر شرحه على توضيح دلالة المشطور، دون التنبيه إلى الرجز التام المقصد — كان يقصد إلى جعل كل البحور غير المشطورة صالحة لنظم المقصورات. فباستبعاد الرجز المشطور وما دونه،<sup>(32)</sup> والسريع المشطور والمنسرح المنهوك، تكون كل بحور الشعر العربي التي يختارها نظام المقصورات، مقبولة. ولعل الشارح، كان ينظر في هذا التوسع في فهم دلالة رفض حازم للمشطور، إلى المقصورات السابقة التي بناها بعض الشعراء على أوزان أخرى غير الرجز. وفي قول الأسدي : «نأت دار ليل وشط المزار»، وقول أبي الطيب : «ألا كل ماشية الخيزلي»، ما يفيد أن المتقارب أيضا كان من أوزان المقصورات. وما نخرج به من حديثنا هذا، عن تنبيه الشريف السبتي القارىء، إلى أن المقصورة ليست شعرا، أن الشارح — وهو يضع الأصول النقدية المدرسية لفن المقصورات — كان يعتبر الفتحة والألف التي بعدها، في آخر كلمات أبيات المقصورة، كافيتين لبناء القافية. أما الشارح فقد اعتبر ترك المشطور والمنهوك — عند اختيارها — كافيا لاختيار الصالح للمقصورات منها. وفي هذا التخفيف من قيود القافية والوزن لفت نظر نقدي إلى عناصر فنية أخرى يعتبرها الشارح جوهرية ومهيمنة في المقصورات.

وإذا كان الشريف السبتي قد نقل عن مالك بن المرحل وصفه لمقصورة حازم بأنها «ديوان علم»، فإن في وصفها بهذا الوصف ما يؤكد أنها ببنائها الذي جمّع فيه الناظم ما حصله من معارف وعلوم، أقرب إلى كونها فوائد متراكمة منها

(31) نتحدث هنا عن القصر الأفقي المتمثل في اختزال تفعيلات البيت إلى النصف أو الثلث.

(32) يعتبر العلماء استضعاف المشطور لقصره، استضعافا لما سواه من الأبحر القصيرة كالمنهوك والمقطع.

إلى كونها صياغة شعرية. وفي هذا التنبيه إلى فاعلية المعارف والعلوم في مقصورة حازم، ما يقارب التصريح بأن المقصورة بناء دلالي أو منظومة دلالية تستعير من الشعر بعض عناصره، دون أن تكون هذه العناصر المستعارة جوهر البناء. وإذا كانت هذه المعارف المستثمرة في المقصورة قد تعددت وتنوعت، فإن من الممكن أن نميز في حديثنا عن صياغة الشريف السبتي للأصول النقدية، الفن المقصورات، بين وقوفه عند الوجه البلاغي لهذه المعارف والوجه العلمي الصريح.

أما الوجه البلاغي فقد حاول الشارح أن يقرب مكوناته، إلى القارئ، كما تمثلها الناظم قبل أن ينجزها. ولما كان حازم قد أشار في خطبة مقصودته إلى كل مظاهر الصنعة في صياغة المنظومة، كل الشارح ملزماً بأن يجمع في شرحه، بين الصياغة المدرسية المقررة لما أوما إليه الناظم في خطبته من أوجه الصنعة، والكشف المبسط لمظاهر التصنيع وهي منجزة مستعملة، من خلال تتبع هذه الأوجه البديعية في كل أبيات المقصورة الألفية، قصد تعريفها وتفريعها. ويبدو هذا الأسلوب في الجمع بين شرح ما تصور نظرياً، وما استعمل، واضحاً في شرحه للمقطع الذي نبه فيه حازم إلى ما ضمنه مطولته من صنعة. يقول حازم: «... قد أحكم صيغتها ومبناها، وقسم صنعة لفظها ومعناها، إلى ما ينشط السامع، ويقرط السامع، من تجنيس أنيس، وتطبيق لبيق، وتشبيه نبه وتقسيم وسيم، وتفصيل أصيل، وتبليغ بليغ، وتصدير بالحسن جدير، وترديد ماله من نديد، إلى غير ذلك مما أجري من الصياغة البديعية والصناعة الرفيعة على نحو هذه المسالك» (33). ويقول الشارح: «ينشط السامع أي يجعله ينشط لاستماعها... وقد عدد أبو الحسن هنا ألقاباً من الفن المسمى بالبديع سأتي على تفسيرها إن شاء الله عند الفراغ من الكلام على هذه الخطبة فأفرد لها هنالك فصلاً أجعله كالقدمة للكتاب، فمتى سنح لي الكلام على نوع من ذلك في أثناء الشرح أحلت عليها» (34). وقد التزم هذا الشارح الناقد فعلاً، بما وعد به، فقال قبل أن يبدأ شرح المنظومة: «فصل أذكر فيه تفسير ما وعدت بتفسيره من الألقاب التي سماها الناظم قبل، من الفن المسمى بالبديع على الترتيب الذي اعتمد. فأما التجنيس فهو اتفاق كلمتين أو كلمات من جميع الحروف أو أكثرها مع اختلاف المعنى، وقد جمع الناس منه ضرباً سموا كل ضرب

(33) خطبة المقصورة.

(34) رفع الحجب المستورة: 10/1.



منها بلقب أفردوه وإنما أذكر هنا ما كان مختاراً مرضياً.... وقد عد بعضهم في ضروب التجنيس باب التورية وسأتكلم عليها بعد إن شاء الله..... وأما التطبيق وهو الضباق والمطابقة ويسميه قدامة التكافؤ فهو تقابل لفظتين متضادتين من جهة المعنى..... وأما التشبيه فإن قدامة حين ذكره قال..... ومما يتعلق ذكره بهذا الباب الاستعارة والتمثيل..... فأما الاستعارة فهي نقل اللفظ عن المشبه به إلى المشبه مبالغة في قرب الشبه..... وأما التقسيم فسنل علي بن هارون عنه فقال.... وأما التفصيل.... إلخ....<sup>(35)</sup> وتتبع الشارح كل الفنون البديعية المتفرعة عن الفنون الكبرى التي ذكرها حازم، مسهلاً بذلك على الشاعر التلميذ الراغب في معارضة مقصورة الإمام، الوصول إلى هذه الفنون التي تعتمد الناظم جعلها من بين المكونات الفنية الجوهرية نطولته. وشفع الشارح هذا الدرس البلاغي النظري، بتتبع كل الفنون البديعية التي وردت في أبيات المقصورة، كاشفاً عن وجه استعمالها، للمقارن، في سياق شرح الأبيات، كما يتضح من قوله في بداية شرح المنظومة : «اللام في قوله «لله ما قد هجت» فيها معنى التعجب..... وقد جاء في قوله : لقد جمعت الظلم والاضلام، بنوع من التجنيس يسمى تجنيس الاشتقاق..... والناظم كثيراً ما يستعمل هذا النوع من التجنيس حتى لا يكاد يخلى نظامه ولا نثاره منه».<sup>(36)</sup>

ولم يكن هذا الشرح المبسط مقصوداً على ما صرح به الناظم من الأوجه البلاغية، فما بداله من عبارات حازم المورية، محتملاً الدلالة على هذه الأوجه، شرح كما شرحت العبارات الصريحة. فمما قاله الناظم في الخطبة : «وغاص لها الخاطر في بخار الأغراض على درر أصدافها جواهر وجواهرها أغراض».<sup>(37)</sup> ولاحتمال هذه العبارة أكثر من معنى، يربط الشارح بين لفظتي جواهر وأغراض، وبين بعض الصور البلاغية : «..... والمعنى الذي أراد أن الخاطر لما غاص على درر من المعاني صارت الألفاظ التي يعبر بها عنها كالأصداف لاشتغالها عليها وتضمنها لها كما يشتمل الصدف على الدرر..... وقوله : وجواهرها أغراض، الضمير عائد على الدرر أي جواهر تلك الدرر أغراض يريد أنها معان متخيلات

(35) رفع الحجب المستورة : 13/1 — 22.

(36) رفع الحجب المستورة : 22/1 — 23.

(37) خطبة المقصورة.



ولست بأعيان تحفيز، فهي من قبيل الأغراض وأراد بالجواهر هنا الحقائق.....  
وقد يسوغ أن يريد بالأغراض هنا أغراض الكلام وهي معاريضه..... ويكون  
مراد أبي الحسن على هذا الوجه بالأغراض ما تحتوي عليه مقصودته من أنواع  
التورية والكنائيات والإشارات وشبه ذلك مما فيه معظم محاسن الكلام. وتم أيضا  
على هذا المعنى التورية بذكر الأغراض والجواهر فتأمنه» (38).

والتصور النقدي الذي يخرج به القارىء من خلال تتبعه للأبيات الكثيرة التي  
وقف فيها الشارح عند مختلف فنون الصنعة، أن هذه الفنون تعد أصلا من الأصول  
الفنية التي تبنى عليها المقصورة المكتملة كما تصورهما وأجزها حازم القرطاجني.  
أما الوجه العلمي الذي يجعل بناء المقصورة بناء دلائلي، فقد كان نواة المادة  
العلمية المتنوعة الغزيرة التي بنى عليها الشريف السبتي شرحه الكبير. وقد لخص  
الشارح المكونات العلمية للمقصودات قبل أن يستهل شرح أبيات المنظومة، ومما  
قاله وهو يعدد هذه المكونات : «أما بعد، فإني لما تأملت مقصورة الإمام الأوحـد  
أبي الحسن حازم ابن محمد بن حسن بن حازم الأنصاري القرطاجني ألفيتها تجمع  
ضروبا من الإحسان وتشتمل على أفانين من البيان، وتتضمن فوائد جمّة من علم  
اللسان، وتشهد لمنشئها بما انتضمت من غرائب الأنواع واتسمت به من عجائب  
الإبداع بأنه سابق الميدان وحائز خصل الرهان، لأجرم أنها بما أورد من الفوائد  
وقيد من الأوابد، ووصف من المعاهد، وضرب من المثل الشارد، وأوماً إليه من  
الوقائع والمشاهد، وانتباه من المنازع البيانية والمقاصد ديوان من دواوين العرب  
وأودعه كثيرا من توارixها وجمع فيه من المعارف ما يعترف لقدمه برسوخها.....  
وقد رأيت أن أضع عليها كتابا أضمنه شرح غريبها والكلام على بدائع أسلوبها،  
منها على ما اخترع من أنواع الأغراض وضروبها ثم أمد عنان القول في ما أشار  
إليه من أيام الأوائل وحروبها فيكون جامعا لكثير من الفنون محتويا على الأبقار  
من غرائب الكلم والعون، مطلعا على أخبار الأمم الخالية والقرون» (39).

إن الفوائد التي تضمنتها مقصورة حازم، كانت من المكونات الفنية التي ميزت  
المقصورة عن القصائد الشعرية. وإذا كان الوصول إلى البناء الشعري الجيد يتطلب

(38) رفع الحجب المستورة : 8/1 — 9.

(39) رفع الحجب المستورة : 2/1 — 3.

من الناظم طبعاً قويا واستعدادا شعريا أصيلا، فإن إيراد هذه الفوائد لم يكن يتطلب من الناظم إلا تحصيل المعارف والعلوم التي كانت مجالس الدرس توفرها لطلاب العلم في مختلف البيئات فغريب اللغة وأخبار الشعراء وأشعارهم والأمثال، وأسماء الخطط والبلدان وتاريخ الأمم والملوك.... معارف يستوي كل التلاميذ في القدرة على تحصيلها وحفظها، وإن تفاوتوا في التبريز فيها. وإذا كانت هذه المعارف مما يُكون المادة الفنية للمقصورات، فإن التمكن من هذه المعارف كان مما يزيد الراغبين في نظم هذا الفن، قدرة على الإجابة في النظم. وليس الكلام المسهب الذي يشرح فيه الشريف السبتي أبيات منظومة حازم إلا توجيهها نقديا، نحو ما يجب على التلاميذ تحصيله، ونموذجا لمقدار المادة العلمية التي يلزم باستيعابها قبل أن يختزلها في لفظة أو بيت. فبدون هذه المعارف المحصلة لا تبنى المقصورات. إن تبسيط ما اختزله حازم في مقصورته من معارف وفوائد، وشرحه، يدل على سعة الحصول العلمي الذي توافر للشريف السبتي، إلا أن دلالة هذا على تمثله للأسس الفنية النقدية التي بنيت عليها مقصورة حازم، أقوى. فشرحه صياغة نقدية لما ورد في هذه المنظومة موزعا، قبل أن يكون عرضا للمعارف المحصلة فقول حازم مثلا :

وزدن سكرًا قلب غيلان الذي لم يصح من سكر الهوى ولا سلا  
وعاد ما عاد من الوجد بها على حميد وشجاه ما شجا  
وملأت بالشجن قلب جحدر وصدرة من شجن ومن شجا  
وأوشكت تحتطف الحوباء من جانحتي جرير بن الخطفا

يتحول إلى فصول في ذكر أخبار ذي الرمة وحميد بن ثور وجحدر وجرير، بطريقة تقنع التلميذ بأن هذه الإيماءات العابرة التي ترد في أبيات المنظومة لا تتأني إلا لمن حفظ أخبار الشعراء وأشعارهم، لأن الإيماء قد تبنى على مضمون خبر أو على معنى بيت أو أبيات في قصيدة من القصائد. ويعني هذا نقديا، أن إيراد مثل هذه الإشارات العابرة يتطلب من الناظم قراءة كتاب الأغاني كله وحفظ جل دواوين الشعراء.

وكما تتطلب الإيماءة إلى أخبار شاعر من الشعراء، أو معاني أبياته، محفوظا غزيرا من الأشعار والأخبار، تتطلب الإشارات التاريخية إلى أيام العرب في الجاهلية وتواريخهم بعد مجيء الإسلام، في المشرق والمغرب، وإلى تاريخ غيرهم من الأمم ما يماثل ذلك من الإحاطة بأخبار الأمم وملوكها. وليست الفصول التاريخية المطولة

التي يوردها الشارح في كتابه، إلا تنبيهاً إلى ما تتضمنه الإشارة التاريخية من معرفة بالوقائع والأحداث. فقول حازم :

ولحذار النذل ألقى نفسه      ذو يزن في بحر قد طمى  
وقد سقى أبو براء نفسه      كأس الخمر إذ عصاه من عصى  
ولف إذ رام الهوى من عل      ثوباً عليه ابن الأشج وهوى  
من بعد ما شب لظى وقائع      أصلى بها غلب الأسود واسطلى  
وظل بالدير يساقى أكوساً      بكل إبريق صقيل ممتصى  
وقام زيد من هشام مغضباً      قد شرد الخوف به وقد زرى

يستدعي كلاماً طويلاً لبسط هذه الأحداث، وفي ذلك ما يؤكد أن فهم دلالة هذه الأبيات التاريخية، في غياب المعرفة بأخبار العرب، يصح متعذراً. لكن أهم ما يؤكد هذا الاستنتاج، أن صياغة بيت واحد ذي إشارة تاريخية، كهذه الأبيات، دون معرفة الأخبار والتواريخ، تكون مستحيلة.

ولم يول الشريف السبتي، الأغراض والفنون الشعرية، التي وردت في مقصورة حازم، عناية كبيرة، رغم كون الناظم قد عددها وذكرها مفصلة في خطبة منظومته. ولعل الشارح كان يرى أن الإشارة المقتضبة إلى هذه الأغراض، في مقدمة الشرح كافية. فالشاعر لا يكون شاعراً إلا بقدرته على الوصف والتغزل والمدح والهجاء والفخر، وما سوى ذلك من أصناف الشعر. إن نظم المقصورات باعتبارها بناء دلالي، مرحلة تالية لنظم الشعر في صورته المقصدة المحدودة الطول. وفي تأخر نظم المقصورات عن نظم القصائد ما يفيد أن المقصورة نتاج علمي خبرة الشعرية والعلمية التي يكتسبها الشعراء في مرحلة التحصيل وطوال مرحلة النظم. إن حازماً يصف مقصورته بأنها «أم القصائد»، وقد يفهم من هذا الوصف أنه يفضلها على غيرها من القصائد، إلا أن شرح السبتي لهذه العبارة، يؤكد أن المقصود كونها تجميعاً لما يرد متفرقاً في قصائد متعددة : «وجعلها أم القصائد لما احتوت عليه من الفوائد التي تفرقت في غيرها فصارت بذلك أصلاً لجميعها».(40) إن منطوق كلام الشارح قد يفيد أن صياغة مجموعة من القصائد الصغرى في بنية واحدة، يكون كافياً لخلق المقصورة، لكن، هل يجوز لنا أن نفهم

(40) رفع الحجب المستورة : 12/1.



من نفس الكلام أن الشاعر لا يستطيع أن ينظم في حياته الشعرية والعلمية، أكثر من منظومة واحدة مصولة، يجمع فيها بين استثمار محفوظه العلمي وقدرته الشعرية، أي مقصورة يجمعها من محصوله العلمي ومنظومه؟ الإجابة عن هذا التساؤل تحتاج إلى بعض التأمل. لكن هذا لا يمنعنا من أن نشير إلى أن مما يميز تاريخ المقصورة الدلالية المتفردة بطورها وتنوع فوائدها العلمية، كون كل الذين نظموا المقصورات من الشعراء العلماء، قد اكتفوا بنظم مقصورة واحدة. والحديث هنا ينصرف إلى المقصورة في صورتها الجديدة، أعني صورة المقصورة العلمية، أما المقصورات الشعرية القصيرة، التي نظمها الشعراء المحترفون كأبي الطيب ومهيار الديلمي، فتعد بقايا نموذج قديم من المقصورات، ضاع وحجبت عنا صورته. وليست هذه الأصول النقدية التي أصلها الشريف السبتي من خلال شرحه لمقصورة حازم، إلا أصول المقصورة في صورتها الجديدة المتأخرة، صورة المقصورة الدلالية أو المقصورة العلمية.





## تحفة القاصد في أسنى المقاصد لأحمد بن منديل العزفي

د. حسن الوراكلي<sup>(١)</sup>

1 — لمدينة «سبته» في التاريخ الثقافي والعلمي للمغرب بل وللغرب الإسلامي مكانة مرموقة ملحوظة بالتجلة والإكبار تبوأها بفضل جهود بنيها، على توالي أعصارها الإسلامية في الدرس والبحث والتصنيف، وإليها يعود فضل كبير في تعريف الجناح الشرقي من العالم الإسلامي بشخصية المغرب الثقافية والعلمية مما عبر عن جانب منه فقط بالقولة المشهورة (لولا عياض لما عرف المغرب).

وبصرف النظر عن حلقات الدرس العلمي التي كانت تغص بها المدينة، على مدى تاريخها الإسلامي مما نقع على أخباره في معاجم الرجال وفهارس العلماء وتقاييد المؤرخين فإن ما أسهم به شيوخ العلم بسبته في ميدان التأليف على اختلاف دواعيه وتباين مجالاته ليكشف لنا، في جلاء ووضوح، عن الدور الهام الذي نهضت به هذه المدينة في تاريخنا الثقافي والعلمي، ومن يستعرض مؤلفات السبتيين مثل ابن سبع والقاضي عياض والشريف الإدريسي وابن عبد المنعم الحميري وابن رشيد والقاسم التجيبي وابن الشاط وابن دحية وابن المرحل وأبي القاسم الشريف السبتي وأبي العباس العزفي وابن الدراج وسواهم. وهي — أي المؤلفات — ذات علمية متعددة فيها التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، والنحو، والأدب، والتاريخ، والجغرافية. أقول: إن من يستعرض هذه المؤلفات يدرك أن (عياضاً) في القولة أنفة الذكر ليس إلا رمزاً لعطاء سبته العلمي الزاخر الذي يعود

(١) كلية الآداب تطوان

إليه الفضل في تعريف علماء الأمصار الإسلامية والعربية بسبته بل وبالمغرب.

2 — وكان لبعض البيوتات الحسبية الأصيلة من تولى أبنائها بالفضل والصلاح، وبرعوا في العلم والأدب، وشعروا خطط القضاء والفتيا أثر بعيد في حياة سبته الثقافية والعلمية، ومن أشهر هذه البيوتات نذكر بيت العياضيين وبيت الحضارمة أو بني عبد المنهمن، وبيت الحسينيين، وبين الكلبيين، وبيت العزفيين. وقد استطاع البيت الأخير أن يجمع بين (السيف والقلم) في سبته فكان رجاله، خلال النصف الثاني من القرن السابع وحيداً من القرن الثامن، يتسكون بزمام الرياسة والولاية، ويقبضون بعنان العلم والأدب فتحقق لهم بذلك نفوذان في القيام على أحوال المدينة : أحدهما سياسي وثانيهما ثقافي، وحين زال الأول ظل الثاني يفسح لهم حيثاً حلوا في حواضر العدوتين، ففي الأندلس وجدنا أبا العباس أحمد العزفي ينظم من قبل رئيسها الوزير أبي عبد الله ابن الحكيم الرندي (في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه)، وفي فاس وجدنا طائفة من أبناء هذا البيت، مثل أبي القاسم محمد بن أبي زكريا وابنه أبي يحيى بن أبي القاسم وغيرهما يظفرون برعاية بلاط المرينيين وتقدير الوسط العلمي بحضرتهم.

وإذا كان فيما شهدته سبته على عهد العزفيين من نهضة ثقافية وعلمية وأدبية مايدل على اهتمامهم بالعلم وتشجيعهم لأهله فإن ما عرفنا من آثارهم العلمية ومنشأاتهم الأدبية يؤكد ذلك ويبلوره مثل كتاب «منهاج الرسوخ إلى علم الناسخ والمنسوخ» وكتاب «دعامة اليقين في زعامة المتقين» وكتاب «الجمع بين معاني القرآن للغراء والزجاج» و«برنامج المشيخة» وكتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» وكلها من تأليف أبي العباس أحمد العزفي باستثناء الكتاب الأخير الذي توفي قبل أن يكمله فأكماله من بعده ابنه أبو القاسم، وكتاب «الإشادة في المشتهرين من المتأخرين بالإجادة» لعبد الرحمان العزفي، و«إثبات مالا منه بد لمريد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد»، وكتاب «النصيحة لمن يرجو الستر ويخاف الفضيحة» لأبي القاسم محمد العزفي وكتاب «تحفة القاصد في أسنى المقاصد» وهو موضوع هذا التقديم.

3 — ومؤلف هذا الكتاب هو أحمد بن منديل العزفي العاصمي كما نص هو نفسه في آخر الكتاب. ولم نظفر بترجمة له فيما رجعنا إليه من معاجم وفهارس ومدونات تاريخية لها صلة بسبته ورجالها بحاجة وبالبيت العزفي حين توليه مقاليد الأمور بالمدينة أو بعد ذلك حين استقر بنوه في حواضر العدوتين

ومن أسف أننا لم نهد كذالك لترجمة الشخصية التي رفع إليها المؤلف كتابه ولو أننا استطعنا تحقيق ذلك لأزاح لنا بعض ما يكتنف شخصية المؤلف من حجب. وإلى أن نقع على ترجمة له تمدنا بمعلومات عن حياته ومشيقته ونشاطه العلمي. نكتفي برسم بعض الملامح الشخصية العلمية والخلقفة مستخلصين إياها من مقدمة كتابه وأبوابه. فمما يدل على سعة اطلاعه وفرة الكتب والمصنفات التي أفاد منها في تأليف كتابه وسنعود للحديث عنها، كما أن مما يلقي بعض الضوء على توجهاته المذهبية والعلمية أخذه بمذهب أهل السنة والجماعة، وهو ما نجد الإشارة به في مقدمة الكتاب وفي الباب الرابع وهو الذي أداره حول فضل علم التوحيد، ومما يكشف عن جانب من شخصيته العلمية حرصه على إيراد الصحيح من الحديث اعتماداً على الأمهات (وكتب الحديثة الصحيحة النقل والرواية التي سلم بصحة نقلها أهل العلم والدراسة) على حد تعبيرة. ومما يعين على تصور شخصيته الخلقفة ذكره المعروف والشكر عليه ومكافأة صاحبه مثلما كان منه نحو الولي أبي عبد الله بن جيجة الذي قلده من أياديه مالا يستطيع حصره ويطبق شكره، فكانت مكافأته له، وقد عرف تعلقه بالخبر ووسائل الرجاء، هذا الكتاب الذي رأى أن يتحف به كما يقول (جنابه الأرفع بما يكون أعود بالخبر عليه وأنفع). ومما يدل على دماثة خلقه وحسن تواضعه اعترافه بالتقصير في كتابه هذا بالرغم مما بذل من جهد في الجمع والتصنيف، يقول في المقدمة (...). ويجب لمطالعه أن يحسن النظر ولا يبادر إلى الطعن حتى يجيد النظر ويحقق ما أنكر، فإن تيقن بعد بزلة أصلها أو وجد مبهمة أوضحها، وأن يشكر ما كفيته في جمعه من شغل الخاطر والفراغ للبحث والطلب المتواتر ويعذر فيما عساه من زلل خفي أو ظاهر فالغالب على المرء التقصير...

4 — وكان لتأليف هذا الكتاب باعث عرضه المؤلف في المقدمة فقال : (...). لما كان الدعاء مع العبادة، وسبب نيل السؤال والإرادة، ووسيلة التوصل إلى الحسنى وزيادة، وهو من أيسر ما يعمله العامل، وأفضل ما يتعلق بذيل بركتة الآمل وكان السيد العماد الماجد الأرفع والركن الحامي الأمانع، أوحى الولاية الأكابر وعلم الأعلام المشاهر، أكبر نجل وأفضل نتيجة أبو عبد الله محمد بن يوسف بن جيجة قد قلدني من أياديه مالا أستطيع حصره، ولا أطيق شكره، وعلمت رغبته رحمه الله تعالى في الخير واجتلابه وتحصيل وسائل الرجاء وأسبابه واستغراق عامة أوقاته بما هو بصدده من أمور سياسته وضروريات إمارته ورياسته رأيت



أن أتخف جنبابه الأرفع بما يكون أعود بالخير عليه وأنفع، فجمعت له من كتب الحديث الصحيحة النقل والرواية التي سلم بصحة نقلها أهل العلم والدراية مسائل..)

وإذن فالباعث على تأليف (تحفة القاصد) هو مكافأة هذا الوالي ذي الأيادي البيضاء على المؤلف بتحقيق رغبته الأكيدة في الخير وتحصيل وسائل الرجاء وذلك بجمع مادة صالحة من الأحاديث والأدعية والأذكار ونبد في التوحيد وأخرى في سعة رحمة الله وما يتصل بهذا وذلك مما تحدث عنه المؤلف فقال : (واستفتحت ذلك بباب مجموع فيه فضل الاستعاذة بالملك العلي من الشيطان القوي وفضل بسم الله الرحمن الرحيم وفتحة كتاب الله الكريم إذ ذاك مجموع ما تبتدأ به التلاوة والأذكار، وصنوعات الليل والنهار، وما يجب على الإنسان من معرفة التوحيد، ومسائل التقديس والتحميد، وفضل الصلاة والتسليم على النبي محمد المصطفى الكريم فوائده رجوت له أي الوالي الذي ألف الكتاب برسمه — عظيم بركتها والفوز إن شاء الله بمنفعتها، وأضفت إلى ذلك ما ورد فيها لمن يسمى باسم محمد الكريم من مزية الإجلال والتعظيم مع ما ضممته من الأدعية والأذكار الماثورة عن نبينا المصطفى المختار، واقتصرت على ما يسهل عليه ذكره ويعظم عند الله أجره وجعلت في ذلك نبذاً في ذكر الجود والإيثار والسخاء وختمته بباب في سعة رحمة الله وفضل الرجاء لينشرح بذلك صدره ويتنعم به سره وجهره).

وقد تناول المؤلف هذه الموضوعات في عشرة أبواب على النحو التالي :

— الباب الأول في فضل التعود وما كان يتعوذ به رسول الله ﷺ إذا سافر وأقبل عليه الليل وما يتعوذ به من نزل منزلاً وما يتعوذ به في المساء والصباح ومعنى الاستعاذة في كلام العرب.

— الباب الثاني في فضل البسملة وما جاء فيمن رفع كتاباً من الأرض فيه بسم الله الرحمن الرحيم وتفسيرها وما قيل فيها

— الباب الثالث في فضل فاتحة الكتاب وفي معنى قراءتها في الصلاة.

— الباب الرابع في فضل علم التوحيد ومعنى حقيقة التوحيد

— الباب الخامس في ذكر الله عز وجل والترغيب فيه وثواب ذاكره.

— الباب السادس في فضل الصلاة والتسليم على النبي المصطفى الكريم.

— الباب السابع في فضل من تسمى باسم محمد ﷺ.

— الباب الثامن في فضل أسماء الله الحسنى وما كان يدعو به رسول الله ﷺ.

— الباب التاسع في فضل الجود والسخاء والإيثار.

— الباب العاشر في سعة رحمة الله تعالى وفضل الرجاء.

وقد أفاد المؤلف في كتابة هذه الأبواب من مصنفات وتآليف متعددة ذكرها غير مرة حين ينقل عنها ويعزو لمؤلفيها، وفي هذه المصنفات والتآليف كتب التفسير هذه مثل «الكشف والبيان في تفسير القرآن» للثعلبي، وتفسير ابن الخطيب الرازي، وتفسير القرطبي و«الهداية» لمكي بن أبي طالب، وكتب فضائل القرآن مثل كتاب «فضل القرآن» لأبي عبد الله القاسم بن سلام وكتاب «فضائل القرآن» لأبي الحسن الأزدي، وفيها الأمهات والصحاح مثل الموطأ و«الصحيحين»، وسنن الترمذي وسنن النسائي، وفيها كتب السير مثل «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» لأبي العباس العزفي، وكتب في التوسل والصلاة على الرسول ﷺ مثل كتاب «التوسل إلى الله تعالى بنبيه وبالصلاة عليه» لأبي محمد عبد الغفور النفري وكتاب «الإعلام في فضل الصلاة والسلام على النبي عليه السلام» لأبي عبد الله التميمي، وكتب التراجم مثل «ترتيب المدارك» للقاضي عياض، وكتب الآداب والأخبار مثل كتاب «بهجة المجالس» لابن عبد البر... ومثل هذا التنوع في المصادر المعتمد في تأليف «تحفة القاصد» يدل على سعة اطلاع مؤلفه على تراث المؤلفين المسلمين، مشرقهم ومغربهم، في المعارف والعلوم المشار إليها، ويدل كذلك على طبيعة هذا الكتاب من حيث كونه مجموعاً يتضمن خلاصة بمقروءات المؤلف مما يُسَعِفُ المرء على تعميق إيمانه وتهذيب خلقه، وتقويم سعيه بالصورة التي تطلعون بها الآيات والأحاديث والمواعظ والأخبار المضمنة في أبواب الكتاب العشرة<sup>(١)</sup>.

---

(١) كان هذا العرض مشفوعاً في الأصل باختيارات من الكتاب، ولا نرى الآن داعياً لإثباتها بعد أن أعددنا نص الكتاب برمته للطبع.



## نظرات في شاعرية مالك بن المرحل

د. محمد مسعود جبران<sup>(١)</sup>

نَجْتَرِيءُ في هذا البحث بدراسة شاعرية الأديب مالك ابن المرحل (604 / 699)<sup>(١)</sup> باعتباره من أبرز الشعراء الذين ساهمت مدينة سبته في تكوين وجدانهم الأدبي، وصيرتهم بما فجرت في أعماقهم من لحون عذبة عنادل روحها فهم الذين تغنوا على فننها الأنيق بأروع الأنغام والمشاعر التي خلدت على الدهر.

ومن الجلي أن مالك بن المرحل كان من مشاهير أدباء هذه المدينة في القرن السابع، ومن أبرز شعراء المغرب المجودين الذين تفرغوا في محبة نادرة لفن القول، وأكثروا من صناعة الشعر ونظمه، وتوفروا على حوك القريض وإبداع ألوانه على نحو رفيع.

---

(١) جامعة الفاتح — كلية التربية — ليبيا.

(١) راجع ترجمة هذا الأديب الشاعر في المراجع التالية :

لسان الدين بن الخطيب «الاحاطة في أخبار غرناطة» ج 1 ص 328 — 472 — 475  
— ج 3 من ص 303 إلى ص 324. أحمد بن القاضي المكناسي «جذوة الاقتباس في ذكر  
من حل من الاعلام مدينة فاس» ج 1، ص 327، علي بن أبي زرع الفاسي، «الأنيس المطرب  
بروض القرطاس» ص 308 — 376 و «الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية» 14 —  
98 — 119 — 123 محمد الأندلسي السراج الحلل السندسية في الأخبار التونسية» ج 1  
ص 824 — 826، حلال الدين السيوطي «بغية الرعاة في أخبار اللغويين والنحاة»  
ص 384، أحمد المقرئ التلمساني، «نفح الطيب في تاريخ الأندلس الرطب» ج 10،  
ص 305، «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» ج 3 ص 263، البغدادي «إيضاح  
المكحول» ج 2 : 227 — 583 — 707 و «هدية العارفين» 2 : 1، ابن الجزري «طبقات  
القراء» ج 2 : 36 — الكتاني «سلوة الأنفاس» ج 3 : 99 — 71



يؤيد ما أئحنا إليه من شدة اهتمامه بهذا الفن ما أخبر به القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك أحد عارفيه من أنه «كان مكثرا من النظم مجيدا، سريع البديهة، مستغرق الفكرة في قرضه، لا يفتر عنه حيناً من ليل أو نهار»<sup>(2)</sup> ثم قال «شاهدت ذلك وأخبرني أنه دأبه، وأنه لا يقدر على صرفه من خاطره، وإحلاء باله من الخوض فيه، حتى كان من كلامه في ذلك، أنه مرض من الأمراض المزمنة»<sup>(3)</sup>.

ولم يخبرنا القاضي ابن عبد الملك عن هذه الظاهرة المشيدة بصديقه ابن الرحل، والمائلة في ولوعه بفن الشعر، واتخاذه دأبا وديناً فحسب، بل أخبرنا أيضاً بولوع أهل زمانه بأشعاره، وافتنانهم بآثاره، حتى فشا شعره بين طوائف عديدة من طبقات المجتمع السبتي والمغربي وشاع بين أهله، الذين تناقلوا فرائده، وجرت على ألسنتهم خواطره، قال — رحمه الله — «واشتهر نظمهم وذاع شعره، فكلفت به السنة الخاصة والعامة، وصار رأس مال المستمعين والمغنين، وهجير الصادرين والواردين ووسيلة المكدين، وطرارز أوراد المؤذنين، وبطائقة البطالين»<sup>(4)</sup>.

ومن المأسوف عليه كثيرا أن ديوان هذا الشاعر الذي قدر له أن يخيا طويلاً، وأن يتفرغ للشعر تفرغاً يكاد يكون كاملاً وأن يكتب له القبول عند أهل زمانه لم يصلنا كاملاً بل لم تصلنا حتى اختياراته التي سماها «الجوالات»<sup>(5)</sup> كما أننا لم نفق من نتاجه الشعري العزيز المتنوع الذي أبدع ألوانه خلال مسيرة حياته الطويلة الحافلة الأعلى النزر اليسير المتمثل في عدد من الأبيات المفردة والمقطعات، وجملة من القصائد والمعشرات ونحوها قالها من بعض أغراض الشعر وفنونه.

وليس يخاف أن هذا القدر الذي حفظ لنا من أشعاره في عدد من المراجع المغربية وفي المراجع المشرقية التي نقلت عنها هو قليل من كثير، وأنه لا يمثل في الحقيقة إلا جوانب محدودة من شاعريته، التي أجمعت آراء النقدة منذ عصر الشاعر الذي شهده ان عبد الملك وساق ارتساماته حولها وحول تعلق أهله بإبداعاته، إلى عصرنا الذي لم يشاطر فيه نقاده آراء القدامى ليس على كثرة عطاء هذه الشاعرية ووفرته، اللذين تحققا بامتداد جبل الحياة بالأديب، واشتغاله الموصول

(2) الاطاحة في أخبار غرناطة ج 3 ص 307

(3) المرجع نفسه ج 3 ص 307

(4) المرجع نفسه ج 3 ص 307

بصناعة الشعر، بل على الاقرار له والتسليم بجودة القريحة في المعاني والمباني،  
وخصوصية الملكة وشدة العارضة والأسر.

ومن هذا المنظور فلا مناص لنا من تقرير ملاحظتين مهمتين :

الأولى : أن الصعوبة التي تجابهنا في دراسة شاعرية مالك بن المرحل تكاد  
تجسد في ندرة النصوص — كما ألمعنا — فقد توفرت قلة منها قالها في بعض  
الأغراض، بينما ضاعت واحتجبت أشعار أخرى ذكر الدارسون أنه قالها في أغراض  
غيرها.

وحقيق بالذكر أن هذه النصوص التي انتهت إلينا على قلتها، لم تسلم هي  
الأخرى من النقص والاختصار الذي فرضه مبدأ اختيار الرواة والدارسين القدامى،  
ومن التحريف والتصحيف من لدن النساخ الذين جاءوا بعد ذلك الملاحظة  
الأخرى : وهي متولدة عن سابقتها تبدو في أن أحكامنا النقدية وارتساماتنا حول  
شاعرية الشاعر سوف تتركز بالضرورة على هذا المجموع المتبقى من تلك المظان،  
ومن ثم فلا يمكن أن ندعى لها الكمال لأنها لا تخرج عن الدائرة الضيقة المتسمة  
بالنسبية، وهو ما يدني بعض ملاحظها من ملامح الأحكام النقدية السابقة التي  
سجلت حول أبعاد الأشعار في عصور المرابطين والموحدين وعصر بني مرين الذي  
واكب ابن المرحل فترة طويلة منه، وما ماثله من الأحقاب التاريخية، التي لعبت  
طوارق الحدثان بأعمال الكثير من أدبائها)، وطوحت بالعديد من آثارهم في مجاهل  
لم يهتد إليها بحث الباحثين.

ومهما يكن من شيء فإن الآثار المتبقية — على ندرتها من نتاج هذا الأديب  
— يمكن أن تنهض لتمثل مادة أدبية أساسية صالحة للحكم النقدي على آفاقه هذه  
الشاعرية، كما يمكن أن تساعدنا على تكوين صورة نرجو أن تكون دقيقة وواضحة  
عبر مضامينه وأشكاله التي كتبت لهذا الشاعر السبتي حظا غير قليل من الشهرة  
والتألق بين شعراء المغرب في القرن السابع.

### الأغراض الشعرية :

تنقسم آثار مالك — المرحل الشعرية من حيث الأغراض إلى قسمين ظاهرين  
هما الشعر الوصفي، و الشعر النفسي المعرفي.

والمراد بالشعر الوصف — هنا الشعر الغنائي الذي يصور خلجات النفس تجاه  
الموجودات الحية والجامدة — ينفعل بها وجدان الأديب ونجد من ألوانه قصائد

الأمداح التي وظف الشاعر الكثير منها في مدح النبي ﷺ، أو في مدح بعض حكام دولة بني مرين، أو في مدح بعض الأشخاص من العزفيين في سبته، كما نجد هذا الشعر في قصائد الغزل، أو في المقطعات التي وصف بها مظاهر من الطبيعة المتحركة والجامدة.

أما الشعر النفسي والمعرفي، فيراد به القصائد التي يعري الشعراء فيها بالفضائل والخطايا، ويحملون النفوس فيها على الحكمة ومعالي الأمور، أو يقصدون بنظمهم شحذ الأذهان بمسلمات حقائق بعض العيوب.

ومالك ابن الرحل — كما سنوضح — سائر في كلا القسمين على مايتناسب ومتركرات هذين اللونين ومايوافق ملاحظها المرعية؛ وهذا ما نحاول أن نبرهن عليه باستقراء النصوص.

## أ — الشعر الوصفي :

الشعر الوصفي كما أننا سلفاً هو الخلق الفني الذي تفاعل به وجدان الشاعر مع ما يحيط به، وبين أيدينا من هذا الشعر الغزل والمدح والأمداح النبوية، على هذا الترتيب المتسق مع أطوار حياة الشاعر

### 1 — الغزل :

إن النظرة الفاحصة في الأشعار الغزلية التي وصلتنا من نتاج الشاعر، والتي قالها على الراجح في أوائل حياته التي كان يستفزه فيها ريعان الصبا، تدلنا على أفتين ظاهرين في هذا الغزل والتشبيب :

أ — أفق الانفلات واللذات الحسية، الذي لا تظهر فيه عاطفة صادقة، ولا تنقل خلاله مشاعر رفيعة كافية، ولكنه يدلنا من حيث الدرس على مرحلة عمرية من حياته تلبست بالجنانة، وينبغي رصدها في التأريخ له.

ب — أفق غزلي آخر يعبر عن تجارب عاطفية حقيقية وواقعية مر بها، وصور خواطرها واختلاجاتها في صور نقية موقنة، وهي أكثر جاذبية وتأثيراً من الأفق المتقدم.

فأبيات ابن المرحل ومقطعاته وقصائده في الأفق الأول تظهره لنا فتي غزلاً، منكبا على اللهو والفراغ، منهكما في نشدان اللذة والبطالة، يكرع من أفاويق الحياة العابثة التي سادت المجتمع الأندلسي والمغربي، وينغمس في غمراتها ومبازلها، حيث

جعل مذهبه في هذا الطور الجري وراء المتعة التي عمت حتى صارت مذهبا<sup>(6)</sup> مذهبي تقبيل خذ مذهب سيدي ماذا ترى في مذهبي لاتخالف مالكا في رأيه فيه يأخذ أهل المغرب ويوشك هذا المذهب أن يصور افتتاحه بهذه الحياة، واطمئنانه لفراغها، فهو ينتقل فيها من فنن إلى فنن، لا يقصر حبه على روض أريض واحد، يوطن نفسه على الاستنشاء بأنسامه وطيوبه، أو يستعذب بشذى أزاهيره ووروده بل ينقل فؤاده حيث شاء من الخوى.

وعلى ذلك فإن أشعاره الغزلية التي قالها في هذا الأفق لاتفصح عن تجربة واضحة مع معشوقة بعينها متفردة بصفاتها، وانما تتم عن تطلبه التصابي، و التغني بكل ظريف يتمتع حسه، ويؤنس مجالس سمره، فجاءت الأوصاف مكتسبة بالمادية والشيوع، والمشاعر غير متحلية في النصوص بالجرارة ووهج العاطفة، اللذين يمثلان عنصرين أساسيين من عناصر التجربة الشعرية، ومن هذا اللون مانقرأه في أبياته الغزلية التي تماثل في وزنها وغرضها قصيدة الشاعر البهاء زهير التي يقول في مطلعها :

يامن لعبت به شمول ما ألطف هذه الشمائل  
وعلى الرغم من أننا لم نستطع أن نتبين من هذين الشاعرين المشرقي أو المغربي كان الأسبق في هذا الخلق الأدبي، فبحسبنا أن ندل على أن هذا النموذج كان من أشعار ابن المرحل المبكرة جداً، فهو يطلعنا من حيث المعنى أو التجربة الشخصية على غزله الحسى المادي الذي لايعبر عن عاطفة صادقة وهو ماعرف به إبان شبابه، كما أنه يعبر من التقنية الفتية على مجرد ملكة لسانية قادرة على التوصيف والتصوير، ولكنها لاتصل في تقديرنا — إلى الأفق الفني المخلق لدى البهاء زهير — الذي تأصلت ملكته في ذلك الطور.

لقد كتب ابن المرحل هذا النظم الغزلي «في عروض يخرج من دوبيتي مجزوءا

(6) لست أدري كيف استنتج الأستاذ الكبير محمد المنوني أن هذا البيت يعبر عن ارتياح الشاعر وفقهاء المالكية بعودة المذهب المالكي للظهور بالمغرب بعد زوال دولة الموحدين — راجع ماكتبه في «التيارات الفكرية في المغرب المرنى» — فصلة من مجلة الثقافة المغربية — العدد 5 سنة 1971 — مطبعة محمد الخامس — فاس المغرب



مقصراً كما يقول لسان الدين الخطيب<sup>١</sup> واستهله بهذه الفاتحة المطعمة بضروب من التوشية :

الصب إلى الجمال مائل والحب لصدقه دلائل  
والدمع لسائلي جـواب إن رجوع سائل بسائل  
والحسن على القلوب والـ والقلب إلى الحبيب وائل  
لو ساعد من أحب سعد ماحل من الحبيب حائل  
يا عاذلي إليك عنـي لا تقرب ساحتني العواذل

فالذي يؤكد لدينا أن النص من شعر البواكير عند ابن المرحل هذا الرصف الظاهر، الذي لا تجيء فيه الألفاظ باسماح على نحو ما نقرأه في نص البهاء زهير الذي جاء في أوله بعد المطلع المذكور :

نشوان يهزه دلال كالعصن مع النسيم مائل  
لا يمكنه الكلام لكن قد حمل ظرفه رسائل  
ما أطيب وقتنا وأهنأ والعاذل غائب وغافل  
عشق ومرة وسكر والعقل ببعض ذاك ذاهل

فمائية الشعر — مهما اختلفنا في قيمة الغرض — مجلوة في هذا النص أكثر من جلالتها في نص ابن المرحل الذي رجحنا أنه قاله مبكراً.

وشيات الحبيب في أبيات شاعرنا لا تدل على سمات محددة فهي أشبه بالاغزال الصناعية، وحتى وإن سلمنا بأنها قيلت في ذات معينة، فإن الأبيات اللاحقة لاتشير إلى أن هذه الذات تتجلى بعفة أو خفة، بل تلمح إلى أنها كانت مجرد متعة عابرة، مباحة له ولغيره من جلسائه، والقصيدة نفسها تطالعنا بهذا المظهر المادي — الذي تتفق فيه مع نص البهاء زهير في هذا المنحى — فهي تسوق إلينا بعد تلك الفاتحة ماراه الشاعر متسقاً مع صبواته في زمن شبابه العاثر، ومتناغماً مع ذلك الجو اللاهبي، حيث تبرز الأبيات (من 6 — إلى 9) ثم الأبيات من (11 — إلى 18) حشداً من الأوصاف الحسية المجسدة المشابهة لأوصاف البهاء زهير، والتي لا يمكن أن نطالعها في آفاق التشبيب العفيف.

بل إننا نجد ابن المرحل يحرص على المبالغة تجسيد فاتنه فيصوره تصويراً دالاً على أنه كان لا يقيم للمواضع الكريمة والاعراف المحترمة وزناً كما في الأبيات من (20 — إلى 23).

والكأس تلوح في يديه كالنجم بأسعد المنازل  
يسقيك بريقه مداما مأمّلح ساقيا مواصل  
يسيبك برقّة الحزاشي عشقا ولكافة الشمائيل  
ما أحسن ما وجدت خدا إذ نجم صباي غير آفل

فالذي نذهب إليه مطمئنين، أن هذه القصيدة وأمثالها من القصائد التي لم  
يهد إليها بحث الباحثين من أشعاره، انما تمثل مرحلة من مراحل شبابه، وتدلنا  
على آفاق محاولاته الأولى في صناعة الشعر، ومن العبث أن نشد في أجوائها  
عاطفة الشاعر الانسانية المفصحة عن اهتزازاتها بالجمال العف، وانفعالاتها الروحية  
المتلفة بالتفكير والتعبير، كما لا يمكن أن نتلقى بتجربة شعرية عميقة ترسم وجدانه.

وشبيه بهذا النص من هذا الغزل نصه الآخر الذي نرجح أنه قاله في هذه  
المرحلة المبكرة، فقد أودعه — محاكاة وتقليداً — المعاني الغزلية المكرورة التي  
أشاعها الشعراء الغزلون من الانبهار بالجن، ومحاوله التكتم عن الهيام وابداء العجب  
الذي لا ينقضي عنده وعندهم من القرب الذي يشبه البعد، والدنو الذي يوازي  
في مرارته الهجر :

تلكتم عقلي وطرفي ومسمعي وروحي واحشائي وكلي باجمعي  
وتيهمني في بديع جمالكم فلم أدر في بحر الهوى ابن موضعي  
وأوصيتموني لأبوح بسرهم فباح بما أخفى تفيض أدمعي

وقد يضطره تتبع المعاني إلى استخدام المعاضلة في عرض هذه المعاني الكثيرة  
المعادة، ولكنه يأتي بها في اسماح

فلما فنى صبري وقل تجلدي وفارقني نومي وحرمت مضجعي  
شكوت لقاضي الحب قلت أحبتي جفوني وقالوا أنت في الحب مدع

والشاعر في إطار هذا التقليد من الغزل الصناعي يحاول مجارة الشعراء القدامى  
فيما يأتونه من التدليل على عمق عواطفهم بمظاهر بلاغية مثل النشر حيث يقول :  
وعندي شهود بالصبابة والأسى يزكون دعواي إذا جئت ادعي  
سهادي وشوقي واكتنابي ولوعتي ووجدي وسقمي واصفراري وادمعي

ثم تختتم هذه القصيدة بذكر شيء من المفارقات التي أكثر استعمالها الشعراء  
مذ أقدم العصور، ليدلوا بها على موضع الغربة فيما يعانون :

ومن عجب أني أحسن إليهم وأسأل شوقا عنهم وهم معي

وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قبي وهم بين أضلعي  
فهذا اللون وأمثاله مما لم ينم عن تجربة عاطفية عميقة هو في تقديرنا من شعر  
«الغزومة» الذي يجلو ملكة لسانية، ولا يصور عاطفة انسانية، ويدل على تشتت  
مشاعره واعجابه بالمفاتن، وهيامه باللذات من غير انفعال صادق يثري التجربة  
الشعرية، ويملاها بالوهج.

وابن المرحل على الرغم من تكتمه في القصيدتين السابقتين عن ذكر الذات  
السابقة، فإنه المع في جلاء إليها أوالي غيرها في قصيدته الغزلية، لابل في فاتحة  
مدحيته التي مطلعها :

أعدى على هواه خصم جفونه مالي به قبل ولا بغفونه  
وأبدى شدة افتتانه بها واستدادهـا بكيانه  
إن لم تجرني منه رحمة قلبه من ذا يجير عليه ملك يمينه

بل نراه يذكر صراحة في هذه الفاتحة الغزلية ما يشير إلى محبوبه، ويومئ إلى  
جنسه، حينما أوضح أنها تركية الأصول، أي أنها إحدى الصقليات اللاتي كثر  
عددهن في المجتمع الأندلسي والمغرني في ذلك العهد وذلك في قوله :

صاب من الأتراك أصبى مهجتي فعبدت نور الحسن فوق جبينه  
ثم نعتة بعد ذلك بنعوت معتدلة بارعة، أضيفت عليها ملكته اللسانية رونقاً  
ومائية تفتقدهما في نسق القصيدة السابقة، يتجلى ذلك في قوله :

تمتكن في الحسن نون صدغه فتبين التمكين في تنوينه  
تنساب عقرب صدغه في جنة لم ينج منها الصب غير منونه  
ولوى ظفيره فولى مدبراً فعل الكلم ارتاع من تبنيه

على أنه لم يمحض في هذا المضمار إلا شوطاً قصيراً، عاد بعده إلى الغزل المادي  
الذي اقترن بدفن بواكير حياته، فجنح من جديد إلى الأوصاف المادية الحسية،  
الدالة على مظاهر عبثيته وانفلاته في ذلك الطور :

قد اطمعني فيه رقعة خده لو امكنتني فيه رقعة دينه  
ورجوت لين قوامه لو لم يكن كالرمح شدة طعنه في لينه  
شاكي السلاح ومالذي في جفنه أعدى علي من الذي يجفونه  
ناديته لما بذت لي سينه وشعرت من لفظ السلام بسينه  
رحماك في دنف عدا وحياته ومماته وحراكه كسكونه  
إن لم تم علي منة راحم فمناه أن يلقاه ريب منونه

بيد أن النظرة في أغزاليه تفضي بنا إلى شعر غزلي آخر يختلف عن الغزل الأنف الذكر، يتجافى في أسلوبيته عن الإفصاح باللذة، وعن تزيين المتعة العابرة، ويعبر في دقة وجمالية عن تجارب عاطفية نذهب إلى واقعيتها وحدوثها.

فالشاعر في هذه الأغزال يمثل لنا نزعات إنسانية صادقة، يربأ خلالها عن عرض محبوبته في معارض الخساسة والابتدال، ومن أوضاع هذا الغزل مانقراه في قصيدته اللامية التي أورد لها لسان الدين والتي جعل الشاعر مطلعها معبراً في جلاء عما كان يعاينه من صباية

دنف تستر بالغرام ضويلاً حتى تغير رقعة ونحوها  
بسط الوصال فما تمكن جالسا حتى أقيم على البساط دليلاً  
فغير خاف أنه يتكتم في هذه التجربة عن ذكر إسم من أحب، ويكتفي بالرمز إليه بلفظ «الحبيب»، وأنه يرمض من هجره، بل نراه يؤثر أن يتحمل فيه قول الوشاة والعدول، وأن يتحمل ما يأتيه من إقبال وصدود حفظاً للعهد ورعاية للود. قالوا تعاطى الصبر عن أحبابه لو كان يصبر للصدود قليلاً  
مادام إلا شربة من هجرنا وكأنه شرب الفراث شمولاً  
أيقول عشت وقد تملكه الهوى لو قال مُت لكان أقوم قبلاً  
حلف الغرام بحبنا وجمالنا إن لم يدعه ميتاً فعليلاً  
إن الجفون هي السيوف وإنما قطعت فلم تسمع لمن صليلاً  
قل للحبيب ولا أصرح باسمه ماذا الملل وماعهدت ملولاً  
بيني وبينك ذمة مرعية أترك تقطع حبلها الموصولاً  
ولكم شربت صفاء ودك خالصاً وليست ظلاً من رضاك ظليلاً

والشاعر في هذه التجربة الحقيقية، التي يصور فيها محبوبة بالخفر والتمنع، ينقل في دقة، وفي تدلل ظاهر، وخضوع خاشع أحاسيسه وتشوقه إليه :  
اعطف على المضنى الذي احرقته في نار هجرك لوعة وغليلاً  
فارقته فتقطعت أفلاذه شوقاً ومألقي إليك سبيلاً  
لو لم يكن منك التغير لم يسلم بالناس لو حشروا إليه قبيلاً  
ياراحلا عني بقلب مغضب أيطيق قلبي غصبة ورحيلاً



على أنه وقد تحقق من رحيل هذا المحبوب، نراه يكاد ينفطر أسى ولوعة، بل نراه لصدور عاطفة يتدرع بكل ما يتدرع به الشعراء من محاولة تطويع مجالي الطبيعة لإرسال أشواقهم الالهية، واعتذارهم الخاضع إلى من يحبون :

قل للصبا هيجت اشجان الصبا فوجدت يارب القبول قبولا  
هل لي رسول في الرياح فاز من فارقه بعث النسيم رسولا  
بل يوحشه بعد دياره، ويوجفه نأي مزاره، ويبصر في عدم عودته ودنوه  
هلاكا محققا لنفسه :

بالت شعري أين قرّر قراره ياقلب ويك أما وجدت دليلا  
إن لم يعد ذاك الوصال كعهدنا نكلت عيني بالبكاء تذكيرا  
ومن قصائده الواصفة لأحاسيسه، والناضجة بخصائص التجربة الشعرية بكل  
ركائزها من مشاعر وأخيلة وتعايير وأفكار قصيدته اللامية الأخرى التي جعل  
مطلعها :

هو الحبيب قضى بالجور أو عدلا بى الخيار وأما في هواه فلا  
فمن مظاهر واقعتها وصدقها أنه يجيها فيها بالقسم على عمق عاطفته وهواه،  
الذي لا يعرف فيه السلو عن محبوبة بل إنه يعد السلو عنه غدرا.  
تالله ما قصر العذال في عذلي لكن أدنى أن تسمع العذلا  
أما السلو فشيء لست أعرفه كفى نجل عذرا أن يقال سلا  
جفون غيري أصحت بعدما قطرت وقلب غير صحا من بعدما مثلا  
فالجب عنده غذاء دائم لروحه، لا يبح لها أن تستغنى عنه.

والشاعر مع تجويده في اجتلاب الألفاظ التي تسهم في إثراء موسيقية النص،  
لا يكاد يلتفت إلى شيء من تجسيم النعوت أو تجسيد مفاتن المعشوقة، إنما يعنيه  
في وصفه أن يدل على طهر العاطفة وعذرية التعلق، بل ربما غالى في إبراز هذه  
الفكرة فتواضع بنفسه الواقعة أمام المحبوبة، وأظهر الانقياد أمام محسنها

وقال أيها طفيلي ومقترح  
ما من تحدث عن حبي وعن كلفي  
تقبل الأرض أعضائي وتخدمه  
يامن له دولة في الحسن باهرة  
ألست عبدي مملوكي فقلت بلا  
بحسنه ونحبي فاضرب المثلا  
إذا تجلى بظهر الغيب واتصلا  
مثلي ومثل فؤادي يخدم الدولا

كذلك يندرج ضمن هذا اللون من الشعر الوصفي — وإن لم يكن داخلاً في الغزل في ذبك المظهرين السابقتين — نصّه الوصفي<sup>(9)</sup> الذي أبدع على هيئة أقصوصة، تمثل تجربة زيجة لم يمتد أمدّها، ولسنا ندري هل تمثل هذه التجربة زيجة الشاعر الأولى التي تمت على ما يبدو في أيام عسرتة في أوائل حياته العملية في مدينة سبتة؟ أو أنها وصف أمين لحادثة من الحوادث الغريبة، التي شهدّها من أحوال الناس عند اشتغاله بالتوثيق في ذلك الطور؟

إلا أن الراجح لديّ — من خلال وصفه الدقيق المحدد، ورسمه المركز بالكلمات للدقائق والخفايا في هذا الزواج — إنها تجربة واقعية مرّ بها الشاعر نفسه، واكتوى بلهبها، فرسمها بريشته لوحة فنية عكست ما في أعماقه من ظلال وأبعاد بلغ بها حد الروعة والتأثير.

لقد كان ابن المرحل على الرغم من فشله الظاهر والواضح في هذه التجربة الأليمة، إلا أنه كان ناجحاً إلى حد بعيد في نقل مشاهد الخطبة والزواج، وفي تصوير ما اتصل بهما من مفارقات فاجعة، نجمت من تغيير النسوة الخاطبات المختاتلات، حينما صورن عرسه في مجلس بديع أغراه بالاقتران الذي كان عنه راغباً.

إن جمال الأقصوصة التي أبدعها الشاعر، والتي ينذر مثلها في الحكمة والصياغة في الأدب المغربي القديم، يمكن في التصوير الدقيق لمراي هذا العرس من بدايته إلى خواتيمه، وفي مزج اللقطات والمشاهد المتابعة باللمسات النفسية الواصفة، والمفاجآت التي تتولد في ألفافها النكتة والفكاهة والطفرة.

يستهل الأديب مشاهد الأقصوصة الشعرية بفاتحة يعمد إلى اثقالها واشباعها بالمعاني الدينية، وبالخواطر الدينية التي ملأت عليه نفسه، ولعلها كانت المسالك التي نفذت منها النسوة الخاطبات إل محادثة روحه الدينية، وأغرائه من خلالها بهذا الزواج، وهو إغراء كما يتبين لم يدع إليه الاشفاق على الشاعر انما دعت إليه الخديعة والمعاتبة على أنه نحا بعد هذا الاجمال المغلق، أو ان شئت بعد هذا التمهيد المبتر إلى التفصيل في خط التنامي التصاعدي، الذي يرسمه موقفه النفسي الانفعالي وتتبعه أطوار الأحداث بدءاً من الخطبة التي برع كيد النساء الماكرات في حوكها، إلى اليوم، لابل إلى الليلة التي تم فيها الزفاف، والتي ترك في جوها البارد القارص بيته الضائع.

(9) الاحاطة في أحبار غرناطة ج 3 ص 317

والشاعر في بداية أبيات الأقصوصة ينجح إلى شيء من الاسقاط والتبرير الذي يحاول الافناع فيه بعزوفه عن الزواج، وأنه لم يكن من البدء راغبا فيه، كأنما كان يخس بخدسه بما ينتظره من خطر داهم :

والله ما كانت إليه ضرورة لكن أمر الله غير مدافع  
وإزاء هذا التملص والاسقاط يبرز في الاقصوصة دور النسوة التي يتسم بالكثير من الحركية والنشاط، فيقمن له بالخطبة، ويختزن له الزوجة، ويزعن منها من بيت حسن ! ثم يعشن بمشارعه فيصورن الفتاة تصويرا ماديا حسيا جميلا، يقررن فيه صغر سنها، وماتسم به من مفاتن اخيا، ومحاسن الشعر والعيون واقرار الثغر وامتشاق القوام وبراعة الحركة، ولايكتفين بذلك التصوير المادي فحسب، بل يفرعن إلى التنويه بما تحلت به من المعاني التجريدية الخفية عنده، فيذكرون أنها من اللاتي يزين كتاب الله بأصواتهن في غنة وفصاحة.

فخطبن لي في بيت حسن قلن لي  
بكرا زعن من صغيرة في سنها  
خودا لها شعر أتيت حالك  
حوراء يرتاع الغزال إذا رنت  
تتلو الكتاب بغنة وفصاحة  
يسامة عن لؤلؤ متناسق  
أنفاسها كالراح فض ختامها  
شماء دون تفاوت عريته  
غيداء كالغصن الرطيب إذا مشت  
تخطو على رجلي حمامة أيكه  
ووصفن لي من حسنها وجمالها  
فدنوت واستأمنت بعد توحشي

وكذبن بل هو بيت قبح شائع  
حسناء تفرع جمال بارع  
كالليل تجلى عن صباح ساطع  
بحفون خشف في الخمائل راتع  
فيميل نحو الذكر قلب السامع  
في ثغرها في نظمه المتابع  
من بعد ماختمت بمسك رائع  
ببساله وشجاعة ومنزاع  
نأت بردف للتعجل مانع  
مخضوبة تسبي فؤاد السامع  
مالبعض منه يقيم عذر الخالع  
واطاع قلب لم يكن بمطاوع

ويوشك أن يبلغ هذا الوصف ذروته حينما يثير فينا التشوق لمتابعة بقية المشاهد.

ثم تصور الأقصوصة الشاعر المخلوع بعد ركوبه إلى ذلك «الاسقاط» والذي أضحى به كما ترسم الكلمات لايدى ولايعيد أمام سطوة النسوة المخادعات شخصا منقادا واهنا، ألقى نتيجة عجزه مقاليد في أيدي من اتقن في الدهاء والكيد، فمن كما تفضح الأبيات اللاتي حملته حملا إلى بيت الولي، ثم جئن له بالشاهدين وقمن بواجب الاكرام، كما استغللن ضعفه فاشترطن عليه شروطا أثقلت كاهله :

فحملني نحو النور وجثني بالشاهدين وجلد كبش واسع  
وبعرفه من نافع نفعادل والله عز وجل ليس بنافع  
فشرطن أشراط علي كثيرة ماكنت في حملي لها بمطاوع  
ثم انفصلت وقد عمت بأني أوثقت في عنقي لها بجوامع

والأقصوصة تجمع إلى الحدث بكل تفاصيله عناصر مهمة من مرتكزات القصة  
أعنى الزمان والمكان، فنحفظ أن عنصر الزمان يسهم بتتابعه في إلقاء اللمسات  
الساحرة على مشاهد الحدث، فقد جاءت الخاطبات بعد يوم واحد من تلك الخطبة  
— رغبة في جمع شمله في أقرب وقت — ولم يتركه إلا بعد أن حدد معهن موعداً  
للزواج لم يتجاوز هو الآخر اليوم الرابع من ذلك اليوم.

وتركتني يوماً وعدن وقسن في خد في البناء ولاتكن بمرفع  
واصنع لها عرساً ولاخوج بي قاض عليك ولاوكيل رافع  
وقرعت سني عند ذاك ندامة ماكنت لولا أن خدعت بقارع  
ولزمتني حتى انفصلت بمعد بعد اليمين إلى النهار الرابع

ثم تصور الأقصوصة في وصف جيد ثوران الهواجس في نفس الشاعر، فهو  
لا يزال مقدوفاً به بين قرار البناء أو الطلاقة، فقد عظم ريبه من هذا الزواج الذي  
تلاحقت فصوله وأحداثه ومسافات زمنه بما يظهر الشك في أمر النسوة، ولكن  
في الوقت نفسه تاق إلى معاينة الجمال المخجّب، حتى أنه هم أن يلقي عروسه  
ويراها قبل اليوم الرابع، وهنا تبدو حبكة الأقصوصة وعقدتها حينما تنهض العادات  
والتقاليد عائفاً هذا الأمل.

فلو أنني طمعت كنت موفقاً ونقضت من ذاك النكاح أصابعي  
لكن طمعت بأن أرى الحسن الذي زورن لي فديمت سوء مطامعي  
فنظرت في أمر البناء معجلاً وصنعت عرساً يالها من صانع  
وطمعت أن تجلى وييصر وجهها ويقر عيني بالهلال الطالع  
وظننت ذاك ما ذكرن ولم يكن وحصلت أيضاً في مقام الفازع

ثم تجلوا لنا الأبيات الوصفية في هذه الأقصوصة صوراً تبيين من خلال جوانب  
من حياة الشاعر في بداية حياته، ومشاهد من مراسم عرسه المتواضع، فترى أنه  
لم يكن من ذوي اليسار أو من البيوتات الكبيرة في مدينته، يتضح ذلك ليس  
في الطريقة الفجة التي تمت بها الخطبة فحسب، بل في مراسم الحفل وفي الدار  
التي ابنتى فيها، وفي الآثاء الذي أتت به الأبيات من (33 — 34 — 35)



وبعد ذلك التصوير للمكان الذي وصف بالخراب والايحاش والصغر والاضلام،  
يدنو النص القصصي من الشخصية الرئيسية في الأقصوصة فيصور ليلة البناء بها  
في ليلة شتائية شديدة البرودة تلتصق بين الغينة والأخرى بوميض البرق وعزيف  
الرياح وهطول الأمطار، وكيف أن الشاعر الذي كان محوطاً بتلك المكانية  
والزمانية حساً لم يتبينه، فارتاع منه — وحدث نفسه وهو كالمقروور بالفرار، ولم  
يهدى نفسه القلقة إلا بمجيء الخطابات اللاتي جنن إليه جدوة من نار، واستجلسنه  
وبادرن بعد ذلك بتجهيز فتاته، وتركته مع حظه المسعد :

|                              |                           |
|------------------------------|---------------------------|
| فسمعت حساً عن شمالي منكراً   | وتنحنحاً يحكي تقيق ضفادع  |
| فأردت أن أنجو بنفسي هارباً   | ووثبت عند الباب وثبة جازع |
| فلقيتهن وقد أتيت بجدوة       | فردنني وحسنني بمجامع      |
| ودخلن بي في البيت واستجلسنني | فجلست كالمقروور يوم زعازع |
| واشرن لي نحو السماء وقلن لي  | هذي زوبعة وبنت زوابع      |
| هذي خليلتك التي زوجها        | فاجلس هنا معها ليوم سابع  |
| وتنهأ النعمى التي حولتها     | فلقد حصلت على رياض يانع   |

على أن القصة تبلغ عقيدتها ونهاية تأزمها عندما يتم الزفاف الذي تنهار خلاله  
جميع تصورات الشاعر، التي مثلها له خياله في فتاة أحلامه الفاتنة، فإذا بالمفارقة  
المذهلة المضحكة، وإذا بصورتها تبرز شوهاً قميئة على غير ما جسده خياله المنحج  
أو جسمه تلوين المختلات :

|                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|
| فنظرت نحو خليلتي متأملاً  | فوجدتها محجوبة ببراقع     |
| وأثبتها وأردت نزع خمارها  | فعدت تدافعني بخد وازع     |
| فوجدتها في صدره وحذوته    | وكشفت هامتها بغيظ صارع    |
| فوجدتها قرعاء تحسب أنها   | مقروعة في رأسها بمقارع    |
| صولاء تنظر فوقها في ساقها | فتحأها مبهوته في الشارع   |
| فطساء تحسب أن روثة أنفها  | قطعت فلا شلت يمين القاطع  |
| صماء تدعى بالبرخ وتارة    | بالطبل أو يؤتى لها بمقاطع |
| بكماء إن رامت كلاماً صوتت | تصويت معزى نحو جدي راضع   |
| عرجاء إن قامت تعالج مشيها | ابصرت مشية ضالع أو خامع   |

ثم تختتم هذه الأقصوصة الوصفية لتجربة الشاعر الذاتية التي حصلت له في  
مفتح حياته بالحل، الذي يتمثل في صحوه من ذلك الحلم المزعج، فيسارع إلى

مغادرة هذا البيت، ويفرض ذلك الشبح، ويطلق ساقيه في الفضاء الفسيح خارجاً من أبواب بلدته مؤثراً للسلامة والنجاة.

فلقيتها وجعلت ابصق نحوها وافر نموذجا وغيث هامع  
حيران أغدو في الزقاق كأنني لص أحسن بطالب أو تابع  
حتى إذا لاح الصباح وفتحوا باب المدينة كنت أول كاسع  
والله مالي بعد ذاك يأمرها علم ولا بأمر بيتي الضائع

## 2 - المدح :

يبين أيدينا من مدح مالك بن المرحل أعني مدح الحاكمين وكبراء الدولة قصيدتان آثرنا عرضهما على هذا الترتيب.

الأولى قصيدته التي أوردها لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة، ونذهب إلى أنها من أوائل شعره، فقد افتتحها بفاتحة غزلية اتباعاً لمذهب شعري قديم، إذ شب بصاب من الأثرak في غزل مادي حسي، ثم خلص إلى المدح الذي لم يورده ابن الخطيب كاملاً، كما أنه لم يذكر لنا اسم الممدوح والمناسبة التي قيل فيها المدح، وإن امكننا أن نعثر في أحد الأبيات على إشارة تلمع باستحياء إلى شخصه، والأخرى قصيدته الميمية الرائعة التي مدح بها الأمير أبا مالك عبد الواحد بن السلطان يعقوب المريني بمناسبة فتح مدينة مراكش عام (668 / 1269)، وهي في تقديرنا تمثل نضج التجربة الشعرية المدحية في شاعريته، كما أنها تبلغ بينائها ومستواها المعماري من حيث المضمون والشكل مبلغ الدلالة على فنه المدحي الكثير، الذي لم نقف منه الأعلى هذين النصين.

لقد اشتملت المدحية الأولى على الفاتحة الغزلية المتركة من ثلاثة عشر بيتاً، بينما جاءنا من الغرض الرئيسي وهو المدح ثمانية أبيات فقط، على أن من وجوه التوفيق في النص حسن التخلص من الغرض الغزلي إلى الغرض المدحي، الذي عرج فيه على ذلك ببراعة في قوله :

سننسخها في باب أروع ماجد فيرى محلّ الفصل حق يقينه  
حيث المعارف والعوارف والعلا في حد مجد جامع لفنونه

ثم أشار بعد تلك الأوصاف المجملة العامة إلى ما يقرب لنا ذات الممدوح ويحدد المزيد من لغوته، حينما وصفه بالحسن ودل على شيء من اسمه فأشار إليه بالحسن بن أحمد، وأنه ينتمي إلى الفرع اليماني :

بدر وفي الحسن بن أحمد التقت حب مررون على العضا بركونه  
تبغى منها في منها عنده وتطوف بالاحتاجات عند حجونه  
فرغ من الأصل الجماني طيب ورث البيان وراد في تبينه  
وحسنة الأبيات الثلاث الباقية من هذا النص أنها تميل في مدح الرجل — زيادة  
على ما عرف وأدرك من علمه وبيانه بوصفه بأوصاف تزيد في تحديث معالم أخرى  
من شخصيته، وتدل على نواح من مزاياه النفسية المتمثلة في البشر والعزة وطلاقة  
الغيا وانسباط الشمائل :

يبدى البشاشة في أسرة وجهه وطورا ويحمي العزفي عرينه  
بسط الشمائل للزمان كمثل ما بسط الغناء نفوسنا بلحونه  
يشئ عليه كل فعل مبائر كأنسك إذ يشئ على دارينه  
أما القصيدة الأخرى فالملاحظ على بنيتها خلوصها منذ البدء من المقدمات  
المعهودة في أمداح الشعر العربي القديم، فهي تتغنى بداية من الفاتحة بهذا الفتح  
المريني في أسلوب يعتمد التكرار اللفظي الذي يقوي موسيقية النص من جهة،  
ويضفي على المناسبة شيئا من الجلال والتفخيم من جهة أخرى :

فتح تبسمت الأكوان عنه فما رأيت أملح منه ميسما وفما  
فتح كما فتح البستان زهرته ورجع الطير في أفنانه نغما  
فتح كما انشق صبح في قميص دجا وطرز البرق في أردانه علما  
أضحت له جنة الرضوان قد فتحت أبوابها وفؤاد الدين قد نعمما

ثم التفت الشاعر بعد هذه الفاتحة إلى بطل هذا الفتح، فحمد له الله على كمال  
الظفر، الذي عم به السرور وانتشر الفرح بيومه في الأرض والسماء :

الحمد لله هذا ما وعدت به ياخير من ولى الدنيا ومن حكما  
لن يخلف الله وعدا كان وعده فاشكر يضاعف لك الخط الذي قسما  
بفتح مراکش عم السرور فما يكابد الغم إلا قلب من ظلما  
حبا بها الله مولانا الأمير كما حبا أباه فاسنى فتحها لهما

فلم يزل سعه المألوف متصلا بسعد والده المتصور منتظما

والمدحية في إطارها العام تسير في نسق المدحيات في عهد ملوك الطوائف  
والمرابطين وعهد الموحدين من حيث التدفق والجزالة، ومن حيث الاغراق في  
المبالغات في مدح الممدوح، الذي تجتمع في دولته كما صور مالك بن المرحل  
وشعراء تلك العهود الدولة والدين :



فدولة الدين والدنيا قد اختلفت  
 من سنة الله أن يحيى خليفته  
 وأن يقيم به الإسلام من أود  
 وأن يقر عيون المسلمين وأن  
 بشراك يا مائت الدنيا وحافظها  
 في الفتح والنصر والتأييد بينهما  
 على يدك وأن يكفيهم النكما  
 وأن يديم بك الاحسان والنعما  
 يشفي الصدور وأن يبري بك السقما  
 فأنت أفضل من آوى ومن رحما

كما لاحظنا أن مالكاً على الرغم من أنه معدود في شعراء الدولة المرينية، أو  
 على الأقل أن هذا النص قائم في أحد أمرائها، فإنه تأثر في مدحه بالمعاني التي  
 أحاطها الشعراء في العهد الموحد، من الاكثار من ذكر ألفاظ العدل والعلم  
 والامامة، وما يتسق مع ذلك من أوصاف، فهو يصف أبا مالك بالعدل فيقول :

عدل الحكومة ماضي العزم معتدل كالريح يمضي بعدل كلما عزم  
 وينعته بالعلم المطلق :

إن غاب عنك فإن الأذن شاهدة وإن تشاهده لم ينطق وقد فهما  
 لله اعطاء علما من لدنه فلم يحتج إلى أحد في علم من علما  
 كما تأثر شعراء الموحدين في هذه المدحية في التهويل وفي توكير الحاكم الذي  
 عده اماماً أو شاك أن يجعله معصوماً كما يفيد من معانيهم الغالبة في استدعاء  
 السجود، حيث يطلب إلى شعره أن يسجد بهذا الامام :  
 أنت الامام لبعض السهو تحمله وبعضه يحبط الأعمال والجرم  
 يابنت فكري ضعي عنك النقاب إذا بلغت حضرته ثم انثرى النظم  
 ثم اسجدي في بساط غير واطئة فاصبح الرأس فيه يجهد القدام

### 3 - الأمداح النبوية

المدائح النبوية — كما يقول الدكتور زكي مبارك «من فنون الشعر التي أذاعها  
 التصوف»، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع،  
 لأنها لا تصدر الا عن قلوب مفعمة بالصدق والاخلاص»<sup>(10)</sup>

وقد انتشرت الامداح النبوية في الشعر المغربي والأندلسي إبان القرن السابع  
 — وبخاصة في مدينة سبتة التي كانت تقيم لذكرى المولد النبوي أعياداً، ومواسم  
 مشهورة، وعظمت العناية بها بالدرجة التي وجدت به طريقها إلى جل إبداعات

(10) زكي مبارك «المدائح النبوية ص 6



شعراء ذلك العصر وإلى دواوينهم ووجدانهم. ومن المعتقد أن هذا الانتشار العريض لفن الأمداح النبوية عائد إلى باعثن أصيلين لاجدال فيهما في شعر شاعرنا وفي أشعار معاصريه من المغاربة والأندلسيين : باعث ذاتي، و باعث غيري عام.

#### أ — الباعث الذاتي :

ينهض به الجاذب الديني النفسي المركوز في شخصية الشاعر عينه، من محبة عارمة للرسول الكريم والتغني بنعوته وآثاره ودياره وحقوقه، وإظهار التقصير والندم عما فرط منه في حضرته وقد يصل هذا الخضوع والتشوق بالشاعر — وبخاصة ابن المرحل في أخريات حياته — إلى مرحلة متقدمة من الشفافية والذوب الروحي في الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام — فيمتدح في غير انقطاع شمائله وآثاره، ويجعل من ذلك مجلى لسباحته وتسييحاته.

#### ب — الباعث الغيري العام :

ويتمثل في مكانية الشاعر المغربي والأندلسي البعيدة القاصية عن الحرمين الشريفين، وقد أصبحت هذه المكانية في أعماقه اللهفة للوصول إليهما، وأصبحت الشوق بالتعلق بالرسول، وبالإضافة إلى تلك المكانية — التي نأت بالمغرب والأندلس عن الحرمين ودنت بهما من مهاد النصرى، تبرز ظاهرة الزمانية في القرن السابع التي قويت فيها شوكة النصرى في الأندلس، وتدلى خلالها المسلمون ووهنوا فصاروا مغلوبين بعد أن كانوا غالبين، وقد أفضى بهم هذا الحال من التمزق والتخاذل إلى الاحتماء بالعتيدة والدين، وأمل على شعرائهم وأدبائهم — ومنهم شاعرنا — إلى التشفع بالرسول والتوسل به، وامتداح ذاته الشريفة طلبا للنجاة والنصرة.

إن التأمل في الآثار المدحية النبوية التي وصلتنا من شعراء القرن السادس والسابع الهجريين من أمثال الكلاعي وابن الغماد،

وفيما انتهى إلينا من شعر ابن المرحل الذي تنامت به تلك الآثار يدلنا بجلاء على ذئك الباعثن المحركين لإنشاء هذا اللون من الشعر والاتساع فيه.

فمالك ابن المرحل مرّ في شبابه على الراجح بخياة لم تكن خالية من البطالة والنجانة وخلع العذار، ثم دلفت به السنون الطويلة إلى كهولة وشيخوخة ندم في صقيعها على ما فرط منه في جنب الله، ثم فتح عينيه على واقع الحياة العامة التي

كان يحياها المغاربة والأندلسيون، ومالابستها من اضطراب وقلق وتوتر وما صار  
يفجئهم به النصارى من غزوات وكوارث، فلاذ من ذلك كله بالجناب الذي  
لايضام، وأفرغ أحاسيسه في العديد من المقطعات والقصائد والمعشرات ونحوها  
يفزع إلى الله مادحا بنيه ومتوسلا به.

وحقيق بالذكر أن أجلى مظاهر أمداحه النبوية، والتي أطلق عليها ابن الطيب  
«الوتريات النبوية»<sup>(11)</sup> كما وصفها أحمد بن القاضي المكناسي بـ «التوشيات  
النبوية» هو الهوى الذاتي الفياض الصادق والحب الغامر الذي يربطه عبر مواجد  
مخلصة بالرسول الكريم، فتحن نراه في منظومته التي استوعب فيها حروف المعجم،  
والتي عدها أحمد المقرئ «من غرر القصائد»، وفيها لزوم مالايلزم من ترتيبها على  
حروف المعجم يجعلها بدءا وروبا على اصطلاح المغرب» يجلو هذا المظهر الشفيف  
من التغني بالنعوت الظاهرة بل يمتلىء — على الرغم من تكلف الشكل الذي أظهر  
فيه معانيه وعواطفه — بالחס والشعور، كما أنه لا يخلو من التصوير والتأثير، يقول  
في مفتتح هذا النص الذي يصور فيه خواطره، وقبسات من أشواق روحه

(ألف) أجل الأنبياء نبى بضياءه شمس النهار تضيء  
وبه يؤمل محسن ومسيء فضلا من الله العظيم عظيما  
صلوا عليه وسلموا تسليما

ثم يتابع القول في رعاية حق الرسول ملتزما بإيراد عواطفه ومحبه وتصلياته وفاق  
الالفبائية المغربية، فيجىء في حروف (التاء والجيم والسين) على سبيل المثال لالحصر  
بالمعاني المذكورة كما يتحدث عن هديه وسنته

(تاء) ثوى في الأرض منه حديث في كل أفق طيبه ميثوث  
داع بأنواع الهدى مبعوث يتلو نجوما أو يهز نجوما  
صلوا عليه وسلموا تسليما

(جيم) جلا بسراجه الوهاج ماجن من ليل الظلام الداجي  
وسقى القلوب بمائه النجاح فاصرها بعد الغيوم نيمما  
صلوا عليه وسلموا تسليما

كما يحمل في بعض الأبيات تسليمه للرسول الذي برح به الشوق إليه ولم تعنه  
ظروفه المعوقة على المثول بين يديه

(11) نقلا عن كتاب الاعلام ج 7 ص 201

(سین) سلام کالنفسي تنفسا وقد اجتنى وردا وصافح نرجسا  
أهدى إليه في الصباح وفي المساء بقصائد كادت تكون نسيمًا  
صلوا عليه وساموا تسليما

ومن أمثلة مولدياته الوصفة هذا الاحساس، والمعبرة عن عميق حبه للذات  
المحمدية الطاهرة أبياته التي نظمها في الاحتفال بمولد النبوي محط عناية بلديه  
من أهل سبتة حاكميتها ومحكوميتها، فقد عدا ابن المرحل في هذه الأبيات وفي  
أمثالها من القصائد والمعثرات التي كان يبدعها في هذه المناسبة وفي غيرها — هذا  
اليوم يوماً أزهرًا، واعتبره من أفضل عاصم الجديرة بمزيد الاعتناء بمدح الرسول  
وتكريمه، ومواصلة الأرحام، والتفرح بعناية حقوق المصطفى بما هدى إليه صلحاء  
سلف الأمة في مجيده

فحق لنا أن نعني بولادة ونجعل ذاك اليوم خير المواسم  
وأن نصل الأرحام فيه تقربا ونغدو له من مفطرين وصائم  
ونترك فيه الشغل الا بطاعة وماليس فيه من ملام كلائم  
ونتبع فيه الصالحين فلانهم هدونا بأنوار الوجوه الوسائم

على أن هذه العاطفة الدينية — التي وجد فيها متنفسا لأصداء روحه تحمله  
— مع ما يبرز من قصائد ومولديات — على أن يفرغ وفرقة من أصدائها في عمل  
مطول آخر هو الذي سماه «الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا  
والآخرة» (١٢)، ففي هذا العمل لم يشأ أن يجعل من مطولته مجرد مولدية  
فحسب، وإنما أحب أن يبرزه عملاً متسعاً مليئاً بالتدفق، جامعاً في ألفافه حروف  
الروى كاملة على النحو الذي لحظناه في عمله السابق، ولكنه خص في الوسيلة  
كل حرف من تلك الحروف بعشرين بيتاً، حاول خلالها استقصاء المناقب المحمدية،  
وماتلى به عليه الصلاة والسلام من مفاخر الفضائل، وما عرف له التاريخ من خلق  
ونخلق وما شهدته من غزواته ومراحه — يقول في مطلع هذه الوسيلة  
إلى المصطفى أهديت غُرَّ ثنائي فياطيب اهدائي وحسن هداي

وقد أشار إلى غرضه منها فقال :

أكاليل من مدح النبي محمد بها جازت الآداب كل بهاء  
أضفت إلى ميلاده غزواته وما عن لي من آية وإياء

(١٢) توجد مخطوطة الوسيلة الكبرى في الخزنة العامة في الرباط تحت رقم ح ٨٩



أردت رضى ربي بها فهو ارتجى وربي كريم لا يضيع رجائي  
 احق البرايا بالثناء مضاعفا بنى له في الوحي كل ثناء  
 ثم خلاص في الأبيات بعدها من هذا الحرف، إلى التنويه ببعض أوصاف الرسول  
 ﷺ، فذكر امامته للرسول الكرام، وأمانته على الوحي الكريم، وإشراق الدنيا  
 بطلعته وبالنور الذي هدى إليه، ولفت أتباعه إلى عظيم حقه عليهم، ما يوجب  
 به التقدير والتجلة العظيمين، وهكذا يسترسل في بقية العشرينات الأخرى بحسب  
 حروفها، فيجمل أبياتها على هذه المعاني الدينية وأمثالها مما نقرأه في أشعار المشاركة  
 والمعاربة ممن أبدعوا، وقد لاحظ الدكتور عباس الجراري أن ابن المرحل في هذا  
 اللون الديني تأثر في الوسيلة الكبرى بأحد معاصريه من أعلام القرن السابع وهو  
 ابن رشيد البغدادي، الذي أقام في المغرب وعرف بوترياته التي هي «عبارة عن  
 تسع وعشرين قصيدة على عدد حروف المعجم، في كل قصيدة واحد وعشرون  
 بيتا» (13)

ويبدو أنه لم يكن لابن المرحل في هذا انجال إلا هذه العشرينيات وحدها التي  
 أودعها «الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى». وأنه مال بعدها إلى  
 شيء من التحفيف في عدد الأبيات، فصنع ضربا مشابها شاع في المغرب والأندلس  
 منذ القرن الخامس، وهو المسمى «المعشرات» الذي تعرض له بعد قليل بشيء  
 من التفصيل عند حديثنا عن الشكل.

على أن مالكا لم يشذ بعد ذلك عن متابعة ومحاكاة تيار فكري وأدبي ظهر  
 في الأندلس والمغرب وفي مدينة سبتة التي نما فيها وجدانه الأدبي، أعني التيار الذي  
 مدح فيه الشعراء موجودات النبي وآثاره وفعاله.

ويقول الأستاذ محمد بن تاويت : «فإذا قلنا إن القرن السابع عصر الأمداح  
 النبوية والنعال الشريفة المولديات فإن هذا صادق إلى أقصى ما يكون الصديق،  
 وقد تحقق هذا لأول الأمر بمدينة سبتة التي كانت على اتصال وثيق بالأندلس كما  
 تقدم، فكان حامل الأمداح النبوية فيها شاعرنا مالكا بن المرحل» (14)

لقد أنشأ هذا الشاعر الحب — في غمرة شوقه وتوقه إلى ذات الرسول وإلى  
 كل ما ينسب إليه من مجرد وملموس. شعرا لا يكاد يختلف في شيء عن الشعر

(13) عباس الجراري «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ص 154 — 155.

(14) الوافي بالأدب العربي في المغرب ج 1 ص 341



الكثير الذي صيغ في مثال النعل المقدسة؛ وفي الحق أننا نعثّر من شعره هذا  
إلا على القليل، ولكنه دال كبقية قصائده ومقطعاته وعشرنياته ومعرثاته على  
اخلاصه وحرارة إيمانه، وصدق مشاعره، على نحو ما نقرأ في قصيدته التي يقول  
فيها في مثال النعل الشريف التي جعل مفتحتها :

بوصف حبيبي طرز الشعر ناظمه      وثم خد الطرس بالنفس راقمه  
فقد امتدح ذات حبيبه عليه الصلاة والسلام، وبرع في اجلاء أوصافه وشيمه  
نبيء له فضل على الناس كلهم      متأخره مشهورة ومكارمه  
رؤوف عطف أوسع الناس رحمة      وجادت عليهم بالسؤال غمائه  
له الحسن والاحسان في كل مذهب      فأثاره محسودة ومعاله  
صفى وفي لآتين عهدده      حمى أبى لآتين شكائمه  
وكم نازعته الأمر شحم اعزّة      فم اسلمته بيضه ولهازمه  
غدا العالم العلوي ينزع دونه      فتقدمه قبل اللقاء هزائمه  
أما نصر الاسلام نصرا مؤزرا      فلم ينبج إلا مسلم أو مساله

ثم خلص بعد أبيات وليست تلك الأبيات إلى هذا الغرض الجديد من مدح  
الآثار، وهو مثال النعل الشريف فقال :

ومما دعائي والدواعي كثيرة      إلى الشوق ان الشوق مما اكتمه  
مثال لفعل من احب صوته      فها أنا في يومي وليلي لآتمه  
اجر على رأسي ووجهي أدبه      والشمه طورا وطورا الازمه  
صباية مشتاق ولوعة هائم      نعم أنا مشتاق والفؤاد هائم  
كان مثال النعل محراب مسجد      فوجهي فيه شاخص الطرف دائمه  
أمثله في رجل اكرم من مشى      فتبصره عيني وما أنا حاله

ومن روائع وصفه لمواجهه وخطرات روحه قوله :

أصك به خدي وأحسب وقعه      على وجنتي خطوا هناك يلازمه  
ومن لي بوقع النعل في حر وجنتي      لماش غلت فوق النجوم براجمه  
تفيض دموعي كلما لاح نوره      يكابد ذا البرق الذي أنت شائمه

وهو لا يجترئ بالاجمال، وإنما يروق البسط الذي يدعو إليه التحجب فيظل  
يثير ما في فؤاد المحب الواله من عشقه للرسول :

فيادمع عيني أنت تمنع ناظري      نعيماً، به فارفق فإنك ظالمه  
وياخرّ قلبي أنت ترحم باطني      لصوقاً به فاسكن لعلك راحمه

ساجعله فوق التراب عوذة لقلبي لعل القلب يبرد جاحمه  
واربطه فوق الشؤون تيممة لجفني لعل الجفون يرقأ سامه

وقد أخذ عليه معاصره صاحب كتاب التكملة القاضي ابن عبد الملك المراكشي بعض المآخذ في هذه القصيدة منها التضمين أو المعاضلة في قوله «ومما دعاني والدواعي كثيرة ومنها الايطاء في صوارمه في بيتين، وإعادة ضمير نواسمه وهو مذكر على الأرض وهي مؤنثة»<sup>(15)</sup> قال ابن رشيد السبتي في رحلة هذا ماقاله صاحبنا (يشير إلى ابن عبد الملك) جرياً على عادته عفا الله عنه من انتقاص الأفاضل، واعتساف الخاصل، وترك الصافي الزلال، وورود الكدر والعكسر من المناهل، وكل ماقاله فاسد، والنقد عليه عائد»<sup>(16)</sup> ثم تولى بعد ذلك نقض تلك النقدرات، برد نوافق الأستاذ عبد الله كنون في وصفه له بأنه «سديد كله»<sup>(17)</sup>

كذلك يدخل في هذا اللون من الشعر المدحي قصيدته الطائية التي قالها في مثال النعل النبوية، وتبدأ القصيدة بلون من الموازنة وحسن التقسيم وهو قوله :

أدمعك أم سمط وقلبك أم قرط وشوقك أم سقط وجسمك أم خط  
أخافرة بعد النزوع عن الصبا وللسيب شهب في عذاريك أو وخط  
أجل لا ولكن نفحة قدسية اشم لها ترب الحنان فانخط  
ثم ينفذ إلى تناول غرضه :

رأيت مثال النعل نعل محمد شملت ومالي غير ذلك اسقط  
على ان اختيار الشاعر لهذه القافية التي ليست هي من القوافي الذلل، جلبت لهذا النص المدحي سحبا دكنا حجبت اشراقه، ووسمته بشيء من الحوشية والاغراب :

رفعت حجاب السبع عن حسن وجهه فابصرته في سد مرة المنتهى يخطو  
رأيت مثلاً لو رآته كرؤيتي نجوم الدجى والليل أسود مشط  
لسرّ الثريا أنها قدم ولم يسر الثريا أنها أبدا قرط  
الا بأبي ذاك المثال فإنه خيال حبيب والخيال له قسط

(15) نقلا عن عبد الله كنون ذكريات مشاهير المغرب — 8 مالك ابن المرحل ص 40

(16) المرجع السابق ص 40 — 41

(17) المرجع نفسه ص 41

فإن لا تكبها أو تكنه فإنه أخوها اعتدالا اعتدل المسط  
أرى لثمه مثل اليتيم مجزياً فالثمة حتى أقول سنغبط  
وماهي إلا لوعة وصباية بقبي لها سقطا وفي مدمعي سمط  
قذفت الكرى في الدمع والصبر في الأسى فاغرف ذا نقط واحرس ذات النقط  
فلا تفعل ياعين أو يطفأ الأسى وهيات أن يطفأ وموقده الشحط

وقد انتقد ابن عبد الملك أبياتا من هذه القصيدة، وأخذ عليها بعض المآخذ،  
انبرى له ابن رشيد السبتي مرة ثانية في نقضها والدفاع عنها. (18)

## ب الشعر النفسي والمعرفي

أ — الشعر النفسي :

ب — شعر الجهاد :

كان الظرف الزماني الذي عاشه ابن المرحل في القرن السابع ظرفا حاميا مليئا  
بالدعوة إلى الجهاد، والتنادى بمناجزة الكفار، فقد تنمر فيه النصارى وتحالفوا،  
وتخاذل أهل الاسلام، وسقطت الكثير من البلدان والمواقع التي كانت تحت أيديهم  
والت إلى الفرنجة، ثم أخذ ظلهم في الانحسار بعد نكسات موجهة، حملت الكثير  
من حكامهم على الاستنجاد بحكام العدو المغربية، ولسنا نشك في أن شاعرنا  
الذي واكب تلك الظروف المتوترة قد نظم كثيرا من هذا الشعر النفسي والأخلاقي  
مازين به فضيلة المرابطة والتضحية والبذل، كما أننا لانشك في أنه صاغ شعرا  
قويا في مدح الملوك الذين تولوا عبء القيام بهذه المعارك في نصرة الاسلام  
والمسلمين، وانقاذ البلاد الأندلسية والمغربية من الاستسلام من قبضة المخالفين  
والكافرين، ومن المؤلم حقا ألا يصلنا من هذا الشعر إلا شذرات قليلة تنم عن  
جزء ضئيل من عطائه الشعري المتسم بالكثرة والتأثير.

ومن هذه النصوص النفسية الأخلاقية التي وصلتنا من شعر الجهاد، والتي تعلن  
بقوة ووضوح عن طبيعة هذا الغرض الذي عالج به في ذلك الظرف العصيب كما  
عالجه معاصروه من شعراء عصره، قصيدتان إحداهما رسمية ديوانية، والأخرى  
أهلية شعبية، قيلتا في هذا الغرض النفسي المهم، أعني قصيدته المتأنقة المعبرة التي  
قالها على لسان أمير الدولة يعقوب المنسوب المربني، مجيبا على الرسالة التي وجهها

إليه حاكم غرناطة ابن الأحمر<sup>(19)</sup> وقصيدته الأخرى الأهلية التي أنشأها في سنة (1263/662) والتي توجد فيها مباشرة إلى مخاطبة جماهير المسلمين، وعمل في أبياتها على تأجيح المشاعر وإثارة الخفايا وإغراء أنفسهم بواجب القيام لينهضوا خففا وثقالا إلى ساحات الوغى، وقد قرئت هذه القصيدة الحماسية — كما ذكر علي بن أبي زرع القاسي «بصحن جامع القرويين من فاس يوم الجمعة بعد الصلاة، فبكى الناس عند سماعها، وانتدب كثير منهم للجهاد»<sup>(20)</sup>

ومن الملاحظ في قصيدته الأولى أنه يتكلم فيها بلسان الأمير يعقوب المنصور المريني الذي خاطب من خلال كلمات أبياتها ابن الأحمر أحد ملوك الطوائف المازومين، وقد توخى من حيث اختوى التقييد بالمعاني التي أراد تقريرها يعقوب المنصور، وحرص على إبلاغها بأعيانها دون تغيير أو تبديل، ومن هذا المنطلق فإن الشاعر لا يؤاخذ على بعض جفاء أسلوبه الذي ربما استشف منه أنه لم يتقيد بالمواضعات، أو أنه لم يراع في التقاليد المعتبرة في خطاب الحاكمين، ولكن الندى يمكن أن يؤاخذ عليه هذا الشاعر أو غيره من الشعراء في مثل هذا النسق من العمل الأدبي، هو جنس التصوير، ومدى توفيقه في صياغة المعاني المراد أدائها بألفاظ مختارة وتعابير جزلة، هي وحدها التي تشير إلى براعته في الاحاطة بالأفكار الكلية التي يراد إيصالها تامة.

فهل بلغ شاعرنا في نصه هذا المبلغ الذي يحاسب عليه الشعراء؟

من الحق أن مالك بن المرحل تقيد بهذا الإبداع الأميري ووفى به، بل التزمه منذ مطلع القصيدة التي جاءت بدون تمهيد أو توطئة، إذا أشار دون إطالة إلى معاني يعقوب المنصور إلى ابن الأحمر وبخاصة إلى النجدة المرينية التي ذكر شهود الأرض والسماء عليها :

شهد الإله وأنت يا أرض اشهدي أنا أجينا صرخة المستنجد  
لما دعا الداعي وردد معلنا قمنا لنصرته ولم نتردد  
ثم حرص على تطعيم هذه الأبيات النفسية بعد تلك الفاتحة المفصحة بألفاظ من المعجم العسكري والحربي رآها مناسبة للسياق، نوشك أن نسمع في دوي

(19) ذكريات مشاهير المغرب «مالك بن المرحل» ص 24 الوافي بالأدب العربي في المغرب ج 1

-- ص 343

(20) الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ص 98



حروفها صليل الأسنة والغضب وسنابك الخيول المظهمة، ونرى من إيجائها اقتحام  
الفرسان المغاوير، وعثير المعارك اللاهبة التي خاضها المريونيون رغبة في الجهاد :

لما دعا الداعي وردد معلنا قمنا لنصرته ولم نتردد  
نسري له بأسنة قد جردت من عضها والصبح لم يتجرد  
لولا الأسنة والسنايك ماورى أحد يسير خيولنا في الفرقد  
والخيل تشكونا ولأذنب سوى أنا نروح بها وأنا نغندي  
لو أنها علمت بنا في قصدنا كانت تطير بنا ولم نتردد  
الله يعلم أننا لم نعتقد إلا الجهاد ونصر دين محمد

ثم يصور في الأبيات التي تلت تلك الأبيات، وقوف هذا الجيش المريني المتوثب  
لنصرة والنجدة ومقاتلة الكافرين وكبح جموح استكبارهم، فيصف في أكثر من  
سبعة أبيات شوق الفرسان المغاربة الشجعان، وكيف تأرن الخيل الصواهل  
مستوفزة لاجتياز العدو، حيث يتم استنفاد الأهل، واسترداد الديار من الغاصبين،  
ثم تتولى الأبيات بعدها الاشادة بالفتح الذي هزم فيه الكفار واندرحت جموعهم،  
وتم خلاله اللقاء بين أهل العدوتين من المسلمين، عندما تكاثف المجاهدون ليكتبوا  
بأسنتهم أروع وقائع الفتح والنصر في سجل التاريخ :

واستقبلت بحر الزقاق بعصبة نفذت عزائمها ولم تتعدد  
فاستشروا في أفقهم بطلوعنا كالشمس يوم طلوعها للأسعد  
حتى بغتنا القوم في أوطانهم إن الحوادث لاتجى بموعده  
ثم التقينا بالذين استصرخوا مما بكل مؤيد ومسد  
حتى إذا جننا وجاءوا نخونا ودنا المزار وقيل للبعد ابعده  
ازور جانبهم واشهد بعدما بسطوا لنا الآمال بسط ممهد

ونلاحظ أن هذا النص سرعان ما يخلص بعد ذاك التصوير إلى التباهي بالمنة،  
والاشادة بالمحمدة، وإذاعة المناقب والفخر على أولئك الاخوان الأندلسيين  
المستنجدين، بل يصل هذا التباهي إلى حد التطاول والعجب :

أو ما رأونا قد تركنا أرضنا ولنا بها ملك رصين المحتد  
وأطاعنا قوم كثير أسرعوا فمزود منهم وغير مزود  
أترون إن عادوا إلى أوطانهم يبقى لكم في الأرض موضع مسجد  
أم تحسبون بوارقاً نشأت لكم أمثالنا في جوكم ولم تعهد  
برماحكم نفحت وعنها أمطرت بل كان ذامنا وإن لم نشهد

أنا أردنا إن رعيننا قومنا فيكم فيرجع من مضى بتزويد  
فهذا الخطاب الخامي القاسي كما تنقله الأبيات. لا يؤاخذ عليه الشاعر، الذي  
لم يكن يملك فيه إلا أن يصور أفكار أميره كما هي، ويصبها في غير موازية في  
مثل هذا القالب الصارم المباشر.

غير أن الأبيات التالية في هذا النص تسوغ على نحو ما هذا الخطاب، إذ تظهر  
أن الذي حمل الأمير يعقوب على هذا الفخر الصارح الذي أوحى به إلى شاعره  
ابن المرحل مرده إلى مانسه من تغير مودة بني الأحمر في غرناطة ونكرانهم لصنائع  
بني مرين في المغرب وإياديهم عليهم.

على أن النص وإن اكتسى في عموميه طابع المباشرة فإنه لم يخل في تقديرنا  
من الألفاظ المعبرة، ومن الخسنات البلاغية غير المتصيدة، كما برع في تصوير  
الأندلسيين الذين أولعوا — في أثناء محنتهم — بالصليبي الغالب في زيه وطعامه  
وعاداته، ثم تأتت عن ذلك خاتمة النص دالة على بعض مواطن الحكمة والهدى.

أما قصيدته الميمية الأهلية الأخرى في الاستصراخ والاستنفار والتي تعد تسعة  
وأربعين بيتاً، فهي قصيدة عقدية تحريضية خاطب فيها ابن المرحل جموع المسلمين  
المختشدين في جامع القرويين بمدينة فاس، وقد جمع في الفافها بمسرد سهل قريب  
— راعى فيه مقام المخاطبين — كثيراً من المعاني الدينية الأصيلة التي تحرك السواكن  
وتهز الأعطاف، وتحمل السامعين من ذوي الغيرة والنخوة الإسلامية على المسارعة  
للالتحاق بمواقع القتال والضراب والتصدي بالاسل للمعتدين طلباً لأحد الحسين.

لقد استصرخ الشعراء في ذلك العصر من أمثال حازم القرطاجني وابن الآبار  
القضاعى وغيرهم الحكام في تونس والمغرب، وانتدبهم لتدارك المسلمين الذين  
جار عليهم في الأندلس فقد النصارى، ولكن هذه القصيدة الأهلية تسير في غير  
الاتجاه المشار إليه من استصراخ الرعاة، وإنما تلجأ إلى القاعدة بدل القمة فتصرخ  
حمية الرعية، واستشارة مشاعرهم ومخاطبة وجدانهم، يقول الأستاذ محمد بن  
تاويت : «فهذه أول قصيدة نراها تتوجه إلى مخاطبة الشعب واستسغاره على اعداء  
الاسلام، وهي في أسلوبها نراها تنزل عن مستوى الأسلوب الذي عرف لمالك  
بن المرحل، لأنها قصيدة نظمت للشعب، فهو كلام موجه إلى العامة وأشباه العامة  
من المجاهدين الذي يحملون السلاح ولا يحملون الاقلام»<sup>(21)</sup>

(21) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 — ص 343

وأيا كان الأمر فإن القصيدة بلغت المؤمل منها في التأثير على الجموع المؤمنة، التي اهتزت لهذه الصرخة واستجابت للدعوة. وقد مر بنا كلام علي بن أبي زرع الذي ذكر فيه بكاء الناس عند سماعها، وكيف حفر الكثير منهم إلى الجهاد<sup>(22)</sup> نرى في فاتحة القصيدة الشاعر يخاطب الضمير الديني عند أولئك المسلمين بأسلوب تقريرى مباشر لا يلجأ فيه إلى شيء من تفوق الألفاظ، أو تزيين العبارات :

استنصر الدين بكم فاستقدموا      فإنكم إن تسلموه يسلم  
لاتسلموا الاسلام ياإخواننا      واسرجوا النصره والجموا  
لاذت بكم أندلس ناشدة      برحم الدين ونعم الرحم  
فاسترحمنكم فارحموها انه      لا يرحم الرحمان من لا يرحم  
ماهي إلا قطعة من أرضكم      وأهلها منكم وأنتم منهم  
لكنها حدت بكل كافر      فالحجر من حدودها والعجم

ثم استرسل في مثل هذا العرض لقضية الأندلسيين والأندلس وما يشد هذه القضية من معاضدة مرجوة من مجاهدة المغرب، في هذا الأسلوب المباشر الذي لا يكاد يفصله عن الأسلوب النثري البسيط، أو الواقع اللغوي القريب إلا هذه الموسيقى الخارجية، الظاهرة في الوزن والقافية، فصور في تتبع شامل ودقيق — في الأبيات من (6 إلى 16) أحوال الأندلس المستصرخة، وماتعانيه من عبث الكفار ومايلقاه الأندلسيون من قتل وأسر وجوع وفنتة ساحقة.

ولم ينس ابن المرحل وقد خيم عليه هذا الجوع الكادح القائم مما أصاب المسلمين في ديارهم الأندلسية من ضرر، أن يلتفت في خفة إلى أهل المغرب ذوي الشوكة والحماسة، ليصور حميتهم ويستدعيها إلى هذا الحدث الجلل.

ماصدقوا أن وراء البحر من      يغضب للاسلام حين يظلم  
ولادروا أن لديكم حرمة      يحفظها شبابكم والمهرم  
لو عرفوا قبائل العدو ما      عدوا على جيرانهم واجترموا  
اليوم يدري كل شيطان بها      أن قدرتهم بالشعاع الأنجم  
تقدمت نحوهم طليعة      من نحوكم أخطاهم التقدم  
فانتصفوا للدين من أعدائه      واقترعوا عليهم واقتسموا  
وامتلأت أيديهم من السبا      وأحسبهم نعم ونعم

(22) لدخيرة السية في تاريخ الدولة المرينية ص 98



وغير خاف ان الشاعر بذلك الممدح يمهّد إلى الغرض الرئيسي من القصيدة، حينما يخاطب في الأبيات الخمسة عشر المغاربة الذين نعتهم باليأس ويزين لهم البذل والجهاد، ويغريهم بقطع المغاور والبحار لقتال الكفار، وقد استعان في ذلك الاغراء بإثارة انعاني الاسلامية والعاطفية، الجاذبة إلى الجود بالنفس والنفيس :

هل هي الأجنة مضمونة أو عوذة صاحبها مكرم  
 حدوا السلاح وانفروا وسارعوا إلى الذي من ربكم وعدتم  
 ان أمام البحر من إخوانكم خلقاً لهم تلفت إليكم  
 ونحوكم عيونهم ناظرة لاتطعم النوم وكيف تطعم  
 والروم قد همت بهم وماهم سواكم ردة فأين الهمم  
 كلهم ينظر في أطفاله ودمعهم من الحذار يسجم  
 أين المنقر لأمقر إنما هو الغياث أو أسار أودم  
 وختمت القصيدة بأبيات دعائية متلائمة مع الجو العام الزماني والمكاني الذي يسهم في تحريك سواكن العاطفة اليمانية، التي تنشّد أحد الحسينين :

يارب وفقنا واهمنا لما فيه لنا الخير فانت الملهم  
 يارب أصلح حالنا وبالنأ أنت بما فيه الصلاح أعلم  
 يارب وانصرنا على أعدائنا يارب واعصمنا فأنت تعصم  
 ياربنا مادأؤنا شيء سوى ذنوبنا فارحم فأنت ترحم

## ب - الزهد :

يمثل شعر الزهد في نماذجه القليلة جانباً من جوانب الشعر النفسي والأخلاقي في شاعرية مالك بن المرحل فقد طالت حياة الرجل — كما أسلفنا — وتقلبت عليه صروف الدنيا بالخلو والمر، وبالاقبال والادبار.

ثم انتهت به تجربته الطويلة الخصبة — كما يبين القدر الذي بين أيدينا من نتاجه الزهدي — إلى التعرف على مواضع الزيف في هذه الدنيا وزخرفها الخادع، وما تخالل به أيامها من بهرج وتزويق وافاق من هذه التجربة على مايفجع من الزمان المخدوعين من فواجع، فعمل على تحرير نفسه من أوقارها، وتخديرها من أقدارها، وساق ذلك في أسلوب تجريدي مباشر أغراها فيه بالتقوى وترك السفاهة :

تنام وهذا الدهر اما مصبح بجيش الردي يوما وأما مبيت  
 تقوت بذكر الله تقوى فإنه حقيق بأن يقوى الذي يتقوت  
 تنافس في غير النفسي شفاهة فقدك هوى ان السفاهة تمقت



ونقرأه في نص آخر يخاطب المخدوعين بالسراب، ويحذرهم من مُعانه ويصف  
خُـم الدنيا وصفا منفرا :

ياخاطب الدنيا طلبت غرورا      وقبّلت من تلك الخاسن زورا  
دنياك اما فتنة أو محنة      وأراك في كليتهما مقهورا  
وأرى السنين تمر عنك سريعة      حتى لأحسن صرّ شهورا  
بيننا تريك أهلة في افقها      ابصرتها في اثر ذاك بدورا

والشاعر في أثناء تفكره ينظر فيما يجيء به الليل والنهار، وما يخادعان به ذوي  
النوك والغفلة، فيورد ما أورده شعراء هذا اللون الزهدي من نظرات، ويحث على  
المبادرة إلى الارعواء والتوبة :

حتى متى لا ترعوي وإلى متى      أو ما لقيت من المشيب نذيرا  
أخشى عليك من الذنوب فرما      تلقى الصغير من الذنوب كبيرا  
فانظر لنفسك انني لك ناصح      واستغفر المولى تجده غفورا  
من قبل ضجعتك التي تلقى لها      خد الصغار على التراب حقيرا

وهو كثير التذكير بهذه المعاني التأملية الفلسفية، بل اننا نراه في مقام التأمل  
السابح في علاقة المتغير بالمتغير يأسي على السادرين في الأوهام ممن لم يحدثوا  
أنفسهم بتوبة أو أوبة :

جدير بأن يبكي على نفسه أسي      فتى كلما ترجى له توبة ترجا  
جبان على التقوى جرى على الهوى      قريب من المهوى بعيد من الملحا  
جرى في مجال النهو ملء عنانه      إلى الآن ما ألقى لجاما ولاسرجا  
جنى ماجنى واستهل الأمر في الصبا      فلما نهاه الشيب عن فعله لجا

بل إنه يعجب أشد العجب من هؤلاء المفتونين الذين اتخذوا في أيام عما يتهم  
وارتكابهم عدوهم اللدود صديقا واستناموا لخبرياته الفاجعة، ولم يركبوا في البحر  
اللجى سفائن النجاة :

بنى الدهر أما الدهر فهو عدوكم      وان لاح يوماً في ثياب حسب  
بوراقه لارئي فيها لعاطش      ولاخصب في أنوائه لجديب  
بلاكم وأبلاكم تقلب صرفه      فيها ويحيها من أنفس وقلوب  
بصائرهما في الرشد غير ثواقب      وأبصارها في الغي ذات ثقوب  
بعيد من التوفيق من بات ساهرا      رجاء بعيد لا يخاف قريب

وما أروع قوله بعد ذلك :

بضىء لعمري من سري الليل كله وأصبح حول الحى بعد لغوب  
بخيل لعمري من دعاه حبيه هلم إلينا وهو غير مجيب

## 2 — الشعر التعليمي المعرفي :

لقد عنى ابن المرحل كثيراً بالشعر التعليمي المعرفي، الذي يراد به عند الاطلاق نظم العلوم والفنون المختلفة في قوالب موزونة مقفاة، تعرض فيها الحقائق العلمية في تقص وسهولة ووضوح، ويبدو أن هذا اللون من الشعر التعليمي غلب في زمن الشاعر وانتشر حتى عد عنوان براعة، ومجلى لكمال المعرفة والشاعرية، فغنى به كاهن معط وابن مالك وحازم القرطاجنى وعبد العزيز الملووزي وغيرهم من الشعراء الناضجين، لأبل إن مالكا فاق الكثير من معاصريه في العناية بهذا النظم، وسخر قريحة الخصيبة في مضماره حتى طعن على شعره

فقد ذكر لنا الذين ترجموه أنه كان متوفراً على نظم العديد من العلوم وكتبها، كثير النتائج في ذلك، فقد ذكر ابن الخطيب في الاحاطة من هذا النظم «أرجوزته المسماة سلك المنخل لمالك بن المرحل نظم فيها متخل أبي القاسم بن المغربي، والقصيدة الطويلة المسماة بالواضحة، والارجوزة المسماة «اللؤلؤ والمرجان» والموطأة لمالك، والارجوزة في العروض»<sup>(23)</sup>

كذلك ذكر محمد بن الطيب في آخر كتابه المسمى موطئة الفصيح لموطأة الفصيح» زيادة على ماورد سلفاً «القصيدة الطويلة المسماة بالتبيين والتبصير في نظم كتاب التسيير، عارض بها الشاطبية وزنا وقافية»<sup>(24)</sup> وقال «من كتبه نظم غريب القرآن لابن عزيز، ونظم اختصار إصلاح المنطق لابن العربي، والثالث من آداب الكتاب»<sup>(25)</sup> بعد ترتيبه، وكتاب الحلي، ورتب الامثال لأبي عبيد على حروف المعجم»<sup>(26)</sup>

ومهما اختلفت الكلمة حول هذا النظم ومدى قيمته، فإن الذي ينبغي التسليم به أنه كان مظهراً من مظاهر طبائع الأدب في تلك العصور والأزمان، تقاس به مواهب الأدباء وقرائحهم؛ كما أنه دال على المام ابن المرحل بثقافة عصره في العلوم

(23) الاحاطة في أخبار غرناطة ج 3، ص 306، 307

(24) نقلا عن كتاب الاعلام لخير الدين الزركلي ج 5 — ص 263

(25) النوغ المعربي في الأدب العربي ج 1، ص 219

(26) المرجع السابق

الشعرية الإسلامية، والعلوم العربية بألوانها المختلفة، وقد سلم النقد القدامى وأخذثون له بالتفوق، وأشاروا إلى أن شاعريته الجنحة ساعفته في هذا الباب، بل أدخلت برقيتها على هذا النظم الذي يتصف في الغالب بالتفليس والأظلام والجفاف أنساماً من الرقة والتطريب والتسهيل. لا يمكن استرواحها إلا في نماذج الشعراء الناضجين المبرزين من ذوي القرائح الجيدة من أمثال مالك بن النحل. ولأنريد الأمانة في هذا اللون من النظم، فالكثير من آثاره — كما ذكر الدارسون والباحثون — صار مفقوداً، وحتى وإن وصلنا كاملاً فإنه لا يد لنا الأعلى مجرد أسلوبه في نقل الجانب المعرفي، وطريقته في عرض حقائق بعض العلوم، أما سوى ذلك مما نطلع عليه في الشعر الغنائي الوصفي من خلجات ومشاعر وخيلة وتصوير فلا نجد منه شيئاً في هذا الشعر التعليمي.

ونكتفي في هذا المقام من نماذج نظمته المعرفي الدالة على مجلي هذا اللون، وعلى سيولة شاعرية فيه، ونعومه ألفاظها التي يختارها في العرض والتبليغ بهذا المقطع من نظمته كتاب فصيح ثعلب<sup>(27)</sup> الذي شرحه فيما بعد محمد بن الطيب في كتابه «موظنة الفصيح لموطاة الفصيح»<sup>(28)</sup>

فقد جاء في فاتحة هذا النظم قوله في الديباجة المستملة على الحمدلة والتصلية :

|          |             |            |                |
|----------|-------------|------------|----------------|
| حمد الله | واجب لذاته  | وشكره      | على علاله      |
| نحمده    | سبحانه      | ونشكره     | ومن ذنوب سلفت  |
| ثم نـ    | أفضل الصلاة | على الرسول | الطاهر الصفات  |
| محمد     | ذي الكلم    | الفصيح     | والفضل والتقدس |
| صلى      | عليه ربنا   | وسلمنا     | كما هدى بنوره  |
|          |             |            | وسلمنا         |

ثم خلاص بعد تلك الديباجة إلى بيان الغرض من النظم فقال :

|          |                    |            |                  |
|----------|--------------------|------------|------------------|
| وبعد هذا | فجرى في خاطري      | من غير ندب | نادب أواخر       |
| أن انظم  | الفصيح في سلوك     | من رجز     | مهذب مسبوك       |
| وبعض     | مالأبد من تفسيره   | وشرحه      | والقول في تقديره |
| من غير   | أن اعدو ذاك المعنى | واللفظ     | إلا لاظطرر عنا   |

(28) مخطوط في مكتبة خير الدين الزركلي، راجع كتاب الاعلام 7، ص 201



فالمرء قد تنابته الضرورة فتصبح النفس بها مقهورة  
رجوت فيه من الالهى الأجر والذكر في عباده والشكرا  
ومن نماذج نظمه الدالة على طريقته في عرض مادة فصيح ثعلب قوله في باب  
فعلت :

ورعدت سماؤنا وبرقت كأنها قد بسمت ونطقت  
كذلك الانسان في الوعيد وفي الخيف منه والتهديد  
وقد يقال في الوعيد أرعدا وأبرق الانسان ان تهددا  
قال الكميث بعد كسر السجن وهرب صار به في أمن  
أبرق وأرعد يازيد انني ليس الوعيد ضائري فامعن  
هذا يزيد وأبوه شهير بخالد القرى ليس ينكر

يقول الأستاذ عبد الله كنون معقبا على تلك الأبيات : «وهكذا يمضي مسترسل  
النفس ناظما زهاء 1300 بيت، فلا ينقطع ولا ينهر، ويكون نظمه مع ذلك انما  
هو خاطر يخطر (من غير رأى نادب أو أمر) فما أحسن الصدق وعدم  
التكلف» (29)

وقد ختمت هذه المنظومة البديعة بقوله :

وهاهنا تم الفصيح وكمل والحمد لله على نيل الأمل  
نظمه مالك الفقير لعفو من لأمره يصير  
فجاء في ارجوزة خفيفة لمن يروم حفظها طريفه  
هذب فيها قوله ووطأه لأجل ذا لقيها الموطأة  
فاسمح له وادع له بالرحمة ياناظرا فيها رزقت النعمة

ومن نماذج هذا النظم المعرفي أيضا قصيدته المطولة التي أوردها أحمد بن  
القاضي في الجذوة، والتي جعل الشاعر موضوعها توثيق عقد نكاح أبي الوفاء  
بن محمد بن العباس العزفي، الذي شهدة في مدينة سبتة عام 658 هـ، وقد تضمن  
هذا النص الشرائط المرعية في توثيق عقود النكاح من الحمدلة، والتصلية، والعرض  
والقبول، وذكر ما اتفق عليه من الصداق المؤجل والمعجل، وأسماء الوليين والشهود  
ثم الختم بالدعاء.

(29) عبد الله كنون «ذكريات مشاهير لرجال المغرب» مالك بن المرحل، ص 11



وهذا لون نادر من النظم ليس في التراث المغربي وحده بل في النظم العربي بعامة، وغاية ما يحمد لمبدعه فيه، أنه وفي بصورة دقيقة في إبراد تلك المعاني مجتمعة في وزن واحد وقافية رائية واحدة، في أبيات تعد أكثر من خمسة وثمانين بيتا، فيها مع طول النفس ترتيب المعاني وسهولة الألفاظ بالمستوى الذي لا يقدر عليه إلا صاحب قريحة قادرة، وأرانا بهذا الحكم الذي حكمنا به على هذا النص تتفق مع حكم الأستاذ محمد بن تاويت على شعر مالك بن المرحل التعليمي والمعرفي حيث قال «فنظمه للعلوم نجده مشرقا على غير مانجده عليه عند الناظرين فيها، بل اننا نجده يعقد صدقا بشعره بذلك الاشراق» (30)

### الأشكال الشعرية :

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة الشكل من حيث الموسيقى الداخلية المتجلية في الألفاظ والتعابير، ومن حيث الموسيقى الخارجية الظاهرة في الأوزان والقوافي وطريقته التي يلجأ إليها في التخيل والتصوير فإننا نجد أنفسنا مضطرين لاجلاء هذا الأفق بالعرض الممهّد الذي يقوم على هيكلية سائر النصوص في آثاره الشعرية والمنظومة، التي يقوم عليها هذا الدرس.

#### 1 - الهيكلية :

تنحصر هذه الهيكلية بالاستقراء في البيت المفرد وفي المقطعات المترتبة من الثنائيات والثلاثيات، وفي القصائد والخمسات والمعشرات.

فمن أمثلة البيت المفرد بتيه المطرب المشهور الذي تغنى فيه بوطنه سبتة التي أخى بينها وبين الحرمين الشريفين في كلماته :

سلام على سبتة المغرب أحيّة مكنة أو يثرب  
أو قوله مفتخرا ومعتدا بنفسه ومواهبه :

وما أنا إلا عالم كل عالم ففي الشعر حسان وفي الفقه مالك  
ومما قاله في المقطعات المشتملة على المعنى المكثف قوله في الوصف ليكتب على حمالة سيف :

حمالة كرياض جاورت نهرا فانبئت شجرا راقا أزاهرها  
كحبة الماء عامت فيه انصرفت فغاب أولها فيه وآخرها

أو قوله يصف حاله وقد بلغ الثمانين :

يأياها الشيخ الذي عمره قد زاد عشراً بعد سبعينا  
سكرت من كؤوس خمر الصبا فخذك الدهر ثمانينا  
أو قوله في الخطاب المموء :

سترت مشيبي بالخصاب تعللا فلم يخط شيب وراب خضائي !  
كأني وقد زورت لونا على الصبا اغنون طرسا ليس في كتاب  
غراب خضاب لم يقف من حذاره واغرب شيء في الحذار غراب  
أو قوله في الكبرة يصف ضعفه وقد أسنَّ :

يامن لشيخ قد أسنَّ وقد عفا من جاوز السبعين أضحي مدنفا  
خانتة بعد وفائها أعضاؤه فغدا قعيداً لاتطبق تصرفا  
هرما غريبا مالديه مؤانس الا حديث محمد والمصطفى

وقد يوظف هذه المقطعات بما تتميز به من تكثيف للتجربة الشعورية إلى إجلاء  
معنى من المعاني الانسانية والخلقية، دالة على التأمل والنظر، أو سوق الحكمة  
والمثل. كقوله وما أروع مقال :

أبت همتي أن يراني امرؤ على الدهر يوما له ذا خضوع  
وما ذاك إلا لأني اتقيت بعز القناعة ذل الخضوع

أو قوله الذي وصفه لسان الدين الخطيب بأنه «البدیع المخترع»<sup>(31)</sup>

لابد من ميل إلى جهة فلا تنكر على الرجل الكريم ميلا  
إن الفؤاد وإن توسط في الحشا ليميل في جهة الشمال قليلا  
أو قوله :

لاتعجبوا للمرء بجهل قدره أبدا ويعرف غيره فيصر  
فالعين تبصر غيرها من بعده دوماً ولكن نفسها لاتنظر

أو قوله في طلبه العلم الذين غلبت عليه الشقوة واللجاجة

أرى المتعلمين عليك أعدا إذا أعلمتهم من كل عاد  
فما عند الصغير سوى عقوق ولا غير الكبير سوى عناد  
وشبيه بهذا كلمته في ذي الجاه، وكيف يظل الناس ينظرون إليه ويزنونه :

(31) الاحاطة في أخبار غرناطة ج 3، ص 116

يضع الناس صاحب الجاه فيهم كل يوم في كفة الميزان  
 إن رأوه يوماً ترجح وزنا ضاعفوا البير فهو ذو رجحان  
 كذلك نجد من بنوية النصوص وهيكلتها القصائد الآخذة بخصائص عمود  
 الشعر العربي، وبين أيدينا منها أكثر من عشر قصائد عرضنا لها ونحن ندرس طبائع  
 المضامين في الشعر الوصفي والشعر النفسي والمعرفي، ومن خصائصها أن الشاعر  
 راعى فيها مفهوم الإطار العام للقصيدة من جهة الفواتح وجزالة الألفاظ والعرض  
 وحسن التخلص والتدفق والعناية بالتصوير والتخييل وإقامة الوزن واختيار القافية.  
 فهو يعني بفواتح قصائده فيختار المطالع الشائقة المطربة في الغزل مثل قوله :  
 دنف تستر بالعرام طويلاً حتى تغير رقعة ونحوها  
 وقوله :

هو الحبيب قضى بالجور أم عدلاً لبى الخيار وأما في هواه فلا  
 أو فواتحه في الأمداح كقوله في مدح الرسول ﷺ :  
 إلى المصطفى أهديت غر ثنائي فيأطيب اهداي وحسن هداي  
 أو قوله في مدح الأمير أبي مالك عبد الواحد بمناسبة فتح مراكش :  
 فتح تبسمت الأكوان عنه فما رأيت أملح منه مبسماً وفما  
 ومن مطالعه المطربة ماقاله في تشوقه إلى بيت الله الحرام :  
 شوق كما رفعت نار على علم تشب بين فروع الضال والسلم  
 أو فاتحة قصيدته في النجدة والاستنفار والفخر :

شهد الإله وأنت يا أرض اشهدي أنا أجبن صرخة المستنجد  
 وقد ذكر النقدة أن مما يجب على الشاعر مراعاته أسلوب القصيدة ونهجها  
 الكامن كما قال ابن رشيق القيرواني في «حسن التائي والسياسة»، وعلم مقاصد  
 القول فإن نسب ذل وخضع، وإن مدح اطرى واسع، وإن هجا أقل وأوجع،  
 وإن فخر حبّ ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنّ ورجع»<sup>(32)</sup>  
 وقد وقفنا بالقارىء في الأغراض على طريقة ابن المرحل في عرض قصائده،  
 التي يراعي في انساقها الكثير من المواضع في أسلوب القصيدة عند كل غرض  
 من الأغراض المدروسة.

(32) ابن رشيق القيرواني «العمدة في صناعة الشعر ونقده



وجل القصائد مئنة إلى ذلك بسيولة الألفاظ الرقيقة والأخيلة التفسيرية الرشيدة كذلك نجد من بنيوية النصوص المتبقية وهيكلتها الأشطار الخماسية — التي أشرنا إليها في الأمداح النبوية — والتي عمد فيها إلى ابتداء كل قسم منها بحرف من الحروف المعجمية الألفبائية على الترتيب المشرق فبدأ بدء بالالف، وانتهى في ختام هذا النص بالياء، والتزم الحرف نفسه رويًا في الأشطار الثلاث على التوالي من كل قسم، ومتقيداً بحرف الميم في الشطرين الأخيرين الباقيين، جاعلاً قوله «صلوا عليه وسلموا تسليماً» خاتمة أو خرجة متكررة لسائر الأقسام في هذا الشكل.

ونكتفي هنا بإيراد القسم الأول منه، وهو قوله في حرف الألف مادحاً الرسول الكريم ﷺ :

(ألف) أجل الأنبياء نبى بضياءه شمس النهار تضيء  
وبه يؤمل محسن ومسيء فضلاً من الله العظيم عظيماً  
صلوا عليه وسلموا تسليماً

وقد أورد أحمد المقري في كتابيه «نفح الطيب» و «أزهار الرياض» جملة من هذه الخمسات التي أنشأها المغاربة في مدح الرسول، كما أورد خمسة مالك به المرحل هذه ونعتها بأنها «من غرر القصائد».

كما نطالع له من حيث الهيكلية أيضاً بعض الأعمال المطولة الأخرى، التي تختلف في نسقها عن تلك المقطعات والخمسات والقصائد، وهي أعماله التي يطلق عليها «المعشرات» و «العشرينات» والتي نلتبت لديها قليلاً لأنها معدودة من مظاهر ولوعه بالتجديد الشكلي.

ومجمل القول في المعشرات أنها ضرب من التجريد في القالب لا تتجاوز عدد أبياتها العشرة، تتحدث عن مضمون من مضامين الشعر بحيث تكون متحدة في أوزانها وقافيتها، وقد ظهر هذا الشكل — كما يقرر بعض الباحثين — في المغرب والأندلس مثل في الموشحات — في المائة الخامسة، أي قبل مائتي سنة من وفاة شاعرنا مالك بن المرحل، وقد ذكر ذلك الفريق أن عليا الحصري الضير كان الرائد في هذا اللون ومبتدعه<sup>(33)</sup> وأنه نظم فيه عملاً تاماً في غرض النسيب،

(33) أبو الحسن الحصري القيرواني — محمد المرزوقي الجيلاني الحاج يحيى ص 206



استوفى فيه الأحرف الأنشائية كاملة، ثم نحا نحو من عاصره أو جاء بعده من شعراء المغرب والأندلس مثل الكلاعي وابن الغماد والبطلوسي ثم اتسعت شهرة هذه المعشرات، وكبرت دائرتها فشملت العديد من الشعراء كما شملت أغراضاً جديدة مثل الأمداح النبوية والزهد والتشبيب وغيره.

فقد ذكر أنه كانت لكل من عبد الله بن السيد البطلوسي وأحمد الأقلبي الزاهد معشرات في الزهد، كما نظم أبو بكر العبدري معشرات في الغزل كفرها بأشباهها في الزهد، ثم قام على شرحها في سفر كبير (34).

ويبدو أن هذه المعشرات التي كانت معتبرة منذ القرن الخامس عصر على الحصري إلى القرن السابع عصر شاعرنا ابن المرحل — مظهرًا من مظاهر البراعة والتجديد لدى الشعراء المغاربة والأندلسيين، قد راق هذا الشاعر فنظم هو الآخر معشراته التي لم نطلع منها إلا على ماقاله فيها في المدح النبوي الذي اشتهر به.

ومن الانطباعات على ابن المرحل في معشراته النبوية أنه لم يأخذ في أبياتها بالمسلك السهل القريب، بل أخذ فيها بشيء من التصعيب والتعمل، ليبرهن به على امتلاك اللغة وحسن التصرف فيها.

فقد بنيت هذه المعشرات من حيث الاطار العام على ما بنيت عليه سائر المعشرات في الأخذ بالعشرة أبيات من حيث العدد، ولكن مظهر العمل يبدو في أنه التزم فيها — مثل البطلوسي — لزوم مالا يلزم، على نحو ما نلمسه في هذه العشرة التي تقيد فيها بحرف الميم ثانياً في أول كل كلمة من صدور الأبيات، وحرفاً ثانياً قيل حرف الروى :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| أُمالي إلى قبر النبي مبلغ    | سلاماً فقد أفنى الزمان ذمائي |
| أمانة مشتاق حمى الدمع جفنه   | فما طاف طيف النوم خوف حمائي  |
| أُماني كانت لي زيارة قبره    | وأرضى روض يانع وسماي         |
| أُمال قناتي بعد حسن اعتدالها | زمان أُراني النقص بعد ثمائي  |
| أُمات قوى الأعضاء إلا أفلها  | واعطش روضي حين انضب مائي     |

ثم يسترسل بعد ذلك في نظم خمسة أبيات آخر، يستكمل بها هذه العشرة، ملتزماً فيها هي الأخرى لزوم مالا يلزم :

(34) المرجع السابق ص 206 207 — 208 والذيل والتكملة.

أمارى مشي في سني وقد رمي      فؤادي على قوسي فكيف رمائي  
أما من الروى لو أبلغتني ناقتي      فلم تبقني ضمان بين ظمء  
أمام جميع المرسلين محمد      واکرم مبعوث من الکرماء  
أمان الوری فما يخافون حبه      فياحب شعشع ادمعي بدماء  
اماه الاسى عيني وسعر اظلعي      فخذ بيدي ياراحم الرحماء  
يقول الأستاذ عبد الله كنون تعقيباً على هذه المعشرة : « وهذا الالتزام تبعه  
في كل قصائد المعشرات؛ فمثلاً حرف الباء التزم فيه الراء بعد الباء أولاً، وقبل  
حرف الروى ثانياً، وهكذا بقية الحروف إلى النهاية»<sup>(35)</sup> ورأى مع تسليمه بما  
ذكرناه من التعامل الظاهر أن هذه الطريقة مبنية على ملكة الشاعر، دالة «على  
شدة عارضته ومكانة أسره»<sup>(36)</sup>

بيد أن الأستاذ محمد بن تاويت رأى فيها وفي أشباهها من معشرات ابن المرحل  
مظهراً جلياً من مظاهر التصنع، كما أنه لاحظ أنها لا تقوم على مجرد التزام حرفين  
في البدء والختام فقط، بل على ثلاثة أحرف إذ أن كل بيت يتبدى بحرفين، وينتهي  
بهما على غير الترتيب الأول، وبينهما الألف، وبذلك تكون البداية بثلاثة أحرف  
تكون بها النهاية، ففي البيت الأول مثلاً بدايته (اما) ونهايته (مائي)<sup>(37)</sup>.

وابن المرحل لا يقف في الاهتمام والمحاكاة في هذا التجديد الشكلي لدى المغاربة  
والأندلسيين عند حد هذا اللون المسمى بـ «المعشرات» وإنما يوغل في هذا التقليد  
— الذي لانشك مهما سلطنا بقوة عارضة قائله — في أنه يدخل به على آثاره  
شيئاً من الاضلام والتعقيد؛ فيرتقي مرتقى آخر من التلكلف والاغراب في تقليد  
النصوص المعروفة بالعشرينيات التي نلاحظ فيها يثقل قريحته وشاعريته بأوقار  
التعمل والتصنع، التي تمنع المشاعر والأحاسيس من الانطلاق، وتفرض عليه مراعاة  
الملكة اللسانية أكثر من مراعاة البوح والتعبير.

وحسبنا في الدلالة على ما تجتليه هذه البنيوية من خنق لشاعرية الشاعر قوله  
في الزهديات :

بأي لسان أم بأي طبيب      يداوى عذار من بياض مشيب

(35) ذكريات مشاهير المغرب «مالك بن المرحل» ص 19

(36) المرجع نفسه

(37) الوافي بالأدب العربي في المغرب ج 1، ص 341

بياض كما لاحت كواكب سحرة      تريت ضويعا مؤذنا بغروب  
 بشيرا نذيراً لاح كالنجر صادقاً      على كاذب حو اللسان خلوب  
 بنى ابك لي ان البكا يبعث البكا      وليس جواني منك غير وجيب  
 إن الاحساس لا يكذبنا ونحن نقرأ تلك الأبيات أن جودة القريحة تريد التعبير،  
 وأن صاحبها تحت وطأة اعجابه بالحاكاة يفرض عليها هذا التفكير — التفكير  
 المفتعل الذي يظل لأهتا وراء جمع الكلمات التي تبتدىء بالبلاء أو تنتهي بها :  
 بخاراً ركبناها بغير سفائن      غروراً فان تهلك فغير عجيب  
 بكى صاحبي حتى إذا مال في الثرى      وسالت مآقيه كمثل غروب  
 بسطت له كفن وقبلت كفه      وقلت له هذا مقام كئيب  
 بخقك لا تبرح أطارحك لوعتي      على نعم من أنه ونجيب  
 بداراً إلى هذي الدموع قربنا      غسلت ذنوبنا جمّة بدنبوب

## 2 - الموسيقى :

فإذا انتقلنا إلى الموسيقى الداخلية والخارجية في النصوص التي نعرضها من  
 أشعاره؛ فإخالي لأعدو الحق إذا قلت إن الشاعر مالك ابن المرحل — الذي  
 جعل الشعر دأبه في مرحلة حياته — جنح في جل الأغراض والموضوعات التي  
 تناولها في المضامين الوصفية والغنائية، أو في الأغراض الأخلاقية والمعرفية، وفي  
 متنوع أشكاله وبنوياته القصيرة والمطولة إلى التعبير عن معانيه وأفكاره بألفاظ  
 اكتشف في الأفشى بالسهولة والتقاوة والايحاء، حتى لتتأثر في أسلوبها المنتقى  
 مع الطريقة البحرية في الأداء، ولاتكاد تتخلف هذه الظاهرة الغالبة إلا في مواضع  
 معينة، أثر فيها الأديب أن يجلو رصيده حافظته وذاكرته من غريب اللغة؛ سواء  
 في مقامات جادة أو في مقامات أخرى دعت إليها الدعاية والمعاينة، ومن أمثلة  
 المنحى الأول في الاغراب ماجاء في قصيدته الطائية في مثال النعل النبوية، والتي  
 نخلها ألفاظ كثيرة نراها غير مألوقة، أو إن شئت الدقة غير متسقة مع معظم  
 معجمه الشعري :

أخافرة بعد النزع عن الصبا      وللشيب شهب في عذاريك أو وخط  
 رأيت مثال النعل نعل محمد      تمثلت ومالي غير ذلك اسقط  
 رأيت مثالا لو رآته كرؤيتي      نجوم الدجى والليل أسود مشمط  
 أرى لثمة مثل التيمم مجزياً      فالثمة حتى أقول سينغط

أو قصيدته الصاعية التي استعمل فيها فن التوشيح البديعي، ورأى فيها لسان  
الدين بن الخطيب أنها «من مستحسن نزعاته»<sup>(38)</sup> وفتحها قوله :

يارحلين وني من قريبه أمل لو أغنت الحيلتان القول والعمل  
ومن أمثلة ما جاء في المنحى الآخر، قصيدته التي فرضتها الدعاية وأملأها  
الظرف، والدالة على غزارة حفظه للغة وقد أنشأها على لسان الشع ينطق بالسين  
ثاء، ويجتزأ من أبياتها بقوله فيها :

عمرت ربع الهوى بقلب لقوة الحب غير ناكس ث  
لبث فيه أجر ذيل النحول احبب به للابس ث  
إن مت شوقا في غرام نباته بالسقام وادس ث  
أما حديث الهوى فحق يصرف بلواه كل حادس ث  
تعبت بالشوق في حبيب أنا به ماحيت يابس ث

ففي بعض هذه المواضيع وما يشابهها من أبياته الآخر القليلة يظهر ميله إلى  
استخدام عدد من الألفاظ الخوشية، والكلمات غير المألوفة والتي يجلبها — كما  
ألمعنا — للابانة عن سعة حفظه للغريب، أو لورودها لجرد الظرف والدعاية، أما  
سائر ألفاظه في أشعاره فهي سمحة واضحة، ليس ما جاء منها في شعره الغنائي  
الوصفي فحسب بل في شعره التعليمي أيضا، وهذا مادعا النقدة في القديم  
والحديث إلى تقدير براعته وإطاره الشعري، والاشادة بجودة قريحته واسماحه فقد  
وصفه أبو جعفر بن الزبير من أعيان القرن السابع بأنه «شاعر رقيق مطبوع»<sup>(39)</sup>  
وذكر ابن خلد من أعلام ذلك العصر أيضا أنه «الجامع بين سهولة اللفظ،  
وسلاسة المعنى، وإفادة التوليد، وأحكام الاختراع، وانقياد القرينة واسترسال  
الطبع، والنفاذ إلى الأغراض»<sup>(40)</sup>

وقد رد ابن خلد هذا الابداع إلى أن مالكا استعان على ذلك «بالعلم بالمقاصد  
اللسانية لغة وبيانا وعربية وعروضا وحفظا واضطلاحا إلى نفوذ الذهن، وشدة  
الادراك، وقوة العارضة»<sup>(41)</sup> كما وصفه أحمد بن القاضي المكناسي بقوله «شاعر

(38) الاحاطة في أخبار غرناطة ج 3، ص 311

(39) الاحاطة في أخبار غرناطة، ج 3، ص 304

(40) المرجع نفسه ج 3، ص 305

(41) المرجع نفسه. ج 3، ص 305



رقيق مطبوع سريع البديهة، رقيق الألفاظ، ذاكر للأدب واللغة» (42)

أما من حيث الأوزان والقوافي، فابن المرحل يتقيد كما اتضح بعمود الشعر العربي مثل فحول الشعراء في المشرق والمغرب، فيأخذ في جل أعماله إن لم نقل كلها بالأبحر الخليلية المعروفة، وهو أميل إلى استخدام الأوزان والأبحر الطويلة ذات التفعيلات المتعددة التي توأمت نفسها الشعري المتدفق، فنحن إذا استثنينا نصه الوحيد الذي ذكرنا تماثله مع نص البهاء زهير، والذي جاء على وزن دوبيتي مجزوءاً، فإننا لانكاد نعثر له فيما انتهى إلينا من آثاره إلا على الأوزان الطويلة كالبحر الطويل والبسيط والكال وماشابهها من بحور

### 3 - الخيال :

يستعين مالك ابن المرحل في القدر الذي وصلنا من أشعاره بالخيال التفسيري الرائج في شعر عصره من تشبيهات واستعارات ومحسنات لفظية ومعنوية، وغيرها من الصور التي تلعب دوراً في التخيل وإثراء تجربة الشعرية، والشاعر في ذلك كله مالك لأدواته، عارف بما يشيعه من أبعاد هذا التصوير والتزيين في اغناء نصوصه فالتشبيه الغالب في شعره مقسم بين التشبيه العادي القريب وبين التشبيه التمثيلي الذي تقارن فيه الصورة ذات الأجزاء بصورة أخرى ذات أجزاء، ومن أمثلة القسم الأول قوله في جواب النصرة الذي بعثه يعقوب المنصور إلى ابن الأحمر يصور به ابتهاج الأندلسيين

فاستبشروا في أفقهم بطلوعنا كالشمس يوم طلوعها للأسعد  
وقوله في مقام التشبيب وهو من المعاني المكرورة :

غيداء كالغصن الرطيب إذا مشت ناءت بردف للتعجل مانع  
أو قوله واصفاً تلك العروس التي ابتلي بها :

بكماء إن رامت كلاماً صوتت تصويت معزى نحو جدي راضع  
بيد أنه كان مدركاً إدراكاً كاملاً للروعة التي يجتلبها الشبيه التمثيلي التي تتماوج فيه الصور، وينطلق خلاله الخيال، ولذا جاء فيه بالكثرة الكثيرة التي تفسح المجال واسعاً لتوضيح المعني وتحسينه وتقويته ومن أمثلة ما جاء في الوصف قوله في مدينة سبته

أخطر على سبته وانظر إلى  
كأنها عود غناء وقد  
أو قوله في وصف قصر الليل

وعشية تسبق الصباح عشاءها  
مسكية لبث حلى ذهبية  
وكان شهب الرحم بعض حليها  
أو قوله في وصف النهر

والأرض قد ضربت بمرهف نهرها  
فاسمع إلى غريبه في حصائه  
وما أروع تصويره التمثيلي الذي قاله في حمالة سيف، وهو الذي نعتة لسان  
الدين بن الخطيب بأنه من «مقطوعاته العجيبة»<sup>(43)</sup> وعده من «المخترع  
المرقص»<sup>(44)</sup> وهو الذي يقول فيه :

جماله كرياض جاورت نهرها فانبئت شجرا راقا أزاهرها  
كحبة الماء عاصت فيه وانصرفت فغاب أولها فيه وآخرها  
ومن أمثلة هذا اللون التصويري ماجاء في أغزاله مثل قوله :

واللين يهز معطفيه كالغصن تهزه الشمايل  
والكأس تلوح في يديه كالنجم بأسعد المنازل

كذلك وشى تصويره باستعارات جاء بها في السماح على نحو ماجاء في مدحيته  
الميمية حينما تحدث عن بهجة الأرض :

أفاقت الأرض من نوم بها وصحت واصبحت وهي تلحى السكر والحلما  
ثم حديث بعد ذلك عن يوم الفتح :

فتح تبسمت الاكون عنه فما رايت أملح منه مبسما وفما  
كذلك جاء منه في الاغزال بطائفة دعمت الصورة كقوله في اللامية

والروض يعير وجنتيه ورداً كهواي غير حائل  
يسقيك بريقه مدا ما مأملح ساقيا مواصل

(43) الاحاطة في أخبار غرناطة ح 3، ص 315

(44) المرجع نفسه، ح 3، ص 315

أو في تصويره لعروسته المضحكة :

بسامة عن لؤلؤ متناسف من ثغرها في نضه المتابع  
وضمعت أن تجلى وابصر وجهها وتقر عيني باخلال الطالع  
كذلك ينحل أشعاره بضروب من المحسنات اللفظية والمعنوية، قصدا لأغناء  
الموسيقى الداخلية للنصوص، فيحسن عرضها والتدريج بها، ومما نطالعه من  
الضرب الأول قوله في الجناس :

إلى المصطفى أهديت غر ثنائي فيا طيب اهدائي وحسن هدائي  
وقد جاء في مدحيته للأمير أبي مالك عبد الواحد المريني قوله :

سيف وسيف وعفو بعد مقدرة وبطشه وأناة تجمع الحكماء  
ومن تخيره للدين خالقه أعطاه نورا يجلي الظلم والظلما  
كم من مصر يلاقى ماجنت يده وتائب آتب بالتوبة اعتصما

والجناس في نصوصه الشعرية له تأثيره ودلالته في تجلية المعنى وتقويته كما في  
الأمثلة السابقة وكما جاء في مقام الفخر ضمن القصيدة التي أجاب بها على لسان  
يعقوب المنصور على رسالة الاستنجد من ابن الأحمر فقد نعت أجناد بني مرين  
بالقوة الماحقة من خلال هذا الجناس

نسري بأجنحة البراة إلى العدا مثل الحمام الحائمات الورد  
والشاعر لا يأتي هذا الجناس في مقام الامداح والفخر فحسب، وإنما يشيعه  
في بقية الأغراض التي تناولها مثل الزهد كما جاء في العشرينية

بداراً إلى هذى الدموع فربما غسلت ذنوباً جمّة بذنوب  
بصائرهما في الرشد غير ثواقب وأبصارها في الغي ذات ثقوب

كما يستعمله في غرض الغزل نحو قوله

إن أقصدني فذاك قصدي أو جدلني فلا أجادل  
والدمع لسائلي جواب إن روجع سائل بسائل

كما نقرأ من المحسنات اللفظية «الافتباس» ولكنه لم يكن مكثرًا فيه، ومما جاء  
من ذلك اقتباس المثل العربي، الذي قوى به معناه حيث يقول

بررت عليها والخضاب لمائه وبيض وريح المسلك قد كاد يسطع  
فقال ملوح ماأرى غير أنه سحابة صيف عن قليل تشفع

كما أنه يستخدم احسنات المعنوية من طباق ومقابلة وحسن تعليل وتأكيـد المدح بما يشبه الذم وعكسه. وأسلوب الحكيم وتورية، وهذه المحسنات تؤدي دورا ملموسا في المواضع التي ترد فيها من نصوص الأديب فمن أمثلة ما جاء من الثورية قوله في باب الغزل :

مذهبي تقبيل خذ مذهب سيدي ماذا ترى في مذهبي  
لاتخالف مالكا في رأيه فبه يأخذ أهل المغرب

والمقابلات قليلة في شعره، إلا أنه يأتي بها في مؤثرة كقوله متغزلا  
ظمان مخفف الأعالي ربان مثقل الأسافل

على أن نصوصه تفصح عن ولوعه بالطباق الذي جاء منتشرا في العديد من الأغراض، ومن أمثلة هذا الطباق في باب الزهد قوله :

بنى الدهر اما الدهر فهو عدوك وإن لاح يوما في ثياب حبيب  
وقوله :

تنام وهذا الدهر اما مصبح بجيش الردي يوما واما مبيت  
وله في الغرض نفسه :

جنى ماجنى واستهل الأمر في الصبا فلما نهاه الشيب عن فعله لجا  
ومما ورد منه في المدح

فالغرب يعلو على شرق البلاد به وقومه يرهبون العرب والعجماء  
من أغزاله قوله في الطباق يشوه به البيت الذي خطبت له من النسوة الكائنات  
تلك الزوجة الشوهاء :

فخطبن لي في بيت حسن قلن لي وكذبن بل هو بيت قبح شائع  
والشاعر بعد ذلك يوفق في الأبيات بوجوه جيدة من مظاهر البلاغة التي تعلل  
بيان عن النثرية المباشرة، ومن طرائف هذه الكنايات ما عبر به عن الاسراف في  
تتبع اللذائذ والبعد عن الحق قوله

جرى في مجال اللهو ملء غنان إلى الآن مالقى لجاما ولا سرجا  
فعدم القاء اللجام والسرج يصور في قوة شكل اللجاجة العنيدة التي تأتي فيما  
تأباه السكون أو الوقوف عن حد من الحدود.

وفي بعض الأحيان يأتي بهذه الكناية لبيان حالة من حالاته، أو وضع من  
أوضاعه، نحو قوله دالاً على فقره وفقر الزوجة التي أراد الابتداء بها في بداية حياته



فقعدت في بيت صغير مظلم لاشيء فيه سوى حصير الجامع  
والغالب على هذه الكنايات أنها مشتقة من النسق التراثي القديم الذي كثر  
دورانه في الشعر العربي، يتجلى لنا ذلك في قوله الوارد في قصيدة الاستنفار :  
وقامت الحرب على ساق فما زلت لأهل الصدق منهم قدم  
وفي قوله مادحا الأمير عبد الواحد المريني :

أضحت له جنة الرضوان قد فتحت أبوابها وفؤاد الدين قد نعمنا  
لما رأته راية السلطان قد رفعت في أفقها قرعت أسنانها ندما  
فلا خفاء في أن قيام الحرب على ساق، وقرع السن من الندم كنايات تراثية  
تناقلها الشعراء العرب عبر العصور والأزمان :

وأرانا بذلك الاستقراء والعرض لتلك الملامح من أشكال أساليب البلاغة الأدائية  
المختلفة، المسهمة بمظاهرها التفسيرية والجمالية، تتفق مع الأحكام الدقيقة التي حكم  
بها الأستاذ عبد الله كنون عن هذا الجانب حيث أكد على ما في شعر مالك ابن  
المرحل من «تنوع المقاصد والأغراض، واختلاف الأساليب والأوضاع، والتجديد  
والابتكار سواء في المعاني أو الأساليب، مع ما يتعمده أحيانا من ارتكاب فنون  
البلاغة، ومحسنات البديع فيأتي بها مقبولة مستساغة بل محبوبة مرغوبا فيها،  
بالعكس مما تقع لبعض المتكلمين»<sup>(45)</sup>

## كلمة اختتام أعمال الندوة للأستاذ عميد الكلية

أيها الاساتذة الأجلاء  
سادتي سيداتي

ها نحن أولاء نختم أعمال هذه الندوة بعد أن ضممنا ثمرات نتاجها العلمي إلى رصيد هذا الملتقى للدراسات المغربية الأندلسية في ندوته الثانية، فأصبح هذا الملتقى يعتز بما حقق من خطوات وإنجازات بفضل أعمالكم ونتاج قرائحكم وإخلاصكم للمبادئ التي لا يقوم بحث علمي ولا إشعاع ثقافي بدونها. وفي مقدمتها السعي الحثيث والعمل الدائب مهما كلف من تضحية أو عناء، لجعل القيم العلمية والروحية في حياة الانسان فوق كل اعتبار ظرفي أو مصالح قريية المنال سريعة الزوال.

إن تنظيم الملتقى في حد ذاته طموح كبير نحو معايشة الماضي الفكري والروحي والثقافي لمرحلة من التاريخ الاسلامي حفلت بالعطاء الأدبي والفني. والثراء العقلي والتوهج الوجداني. تلك المرحلة التي انتهت في حكم المؤرخ الذي يحسب الحياة الانسانية بالآماد والازمان. ولكنها ما انتهت في حكم من يرى التجدد والتماثل في المجال الثقافي والروحي نظيري التجدد والتماثل في المجال البيولوجي. فالشجرة لا تنتهي بتساقط أوراقها وإنما تتجدد، ولعلها تخلع الماضي وتلبس الحاضر. والمستقبل نفسه بالنسبة إليها كائن في أحشائها. وتلك هي الصورة التي تمثل في علاقتها بالتاريخ والتراث، غير حافل بالأزياء العارضة، والتشكيلات المغايرة.

وربما كانت هذه الندوة فرصة ثمينة لمعايشة ذلك التراث القريب منا، الحميم الصلة بقلوبنا، المتألق دوما في ذاكرتنا. لكننا لم نعايشه لحظات هذه الندوة لنسجن أنفسنا فيه أو لنقف على أضرحة أعلامه، بل لنزكي حرارة الصدق والايان والحق والجمال في نفوسنا عن طريق انبعاث الصور التي عكست هذه القيم فيه، وعلى

هذا النحو ينبغي أن نقرأ اليوم تراث السلف لنبتعث تلك القيم الخالدة التي إن لم نناضل ونكدح للابقاء عليها مندمجة في نفوسها فقد يأتي يوم لا نجد لها بين أنفسنا وفي ضمائر الأجيال المقبلة منا أثر أو نسمع لها ذكرا.

لقد كانت (سبئة) مثالا أو خير مثال للمدينة التي صنعها تاريخ الاسلام وتواريخ العدوتين المغرب، والأندلس. فكانت الجسر الرابط بين شقي هذا الجسد الواحد، من الغرب الاسلامي، وبوابة المغرب نحو الشمال والشرق عبر البحر منذ أقدم العصور. واحتضنت لأجل ذلك الموقع تراثا حضاريا وثقافيا رائعا تميز بطابع لا أشك في أنه كان يعكس إلى حد بعيد الشخصية المغربية وتوهجها الروحي، وهذا الطابع هو خدمة السنة النبوية، وخدمة الثقافة الاسلامية بشتى فنونها، فكانت مثالا للأرض الاسلامية التي اعترك فيها الصراع بين القوى السياسية في ظل التاريخ الاسلامي، أو في المرحلة التي عرفت تدهور العالم الاسلامي وتطويق الغرب له مشرقا ومغربا. فكانت الموقع الاستراتيجي الدقيق الذي قدرت قوى الاستعمار خطره حق قدره، فركزت عليه وحشدت للهيمنة عليه ولاستمرار تلك الهيمنة كل قواها. وها نحن اليوم مانزال في عالمنا الاسلامي مشرقه ومغربه في دور من أدوار هذا الصراع الذي يأخذ عدة أسماء ومصطلحات في قاموس السياسة المعاصرة. نبلو من تجاربه ونتجرع من مرائره مالا يخفى على أحد.

من هذا المنظور أردنا أن نظل على وفاء لتراثنا الاسلامي ولحضارتنا وعلى صلة بتاريخنا حتى لا تنال الأعراض والظروف العابرة من الحقيقة الثابتة، ومن الأصالة المتوهجة وراء حواجز سميكة من الرماد.

أيها السادة

أود أن أعترف بأن هذه الندوة قد نجحت إلى حد بعيد في تحقيق أوري لا أراني بحاجة إلى تعدادها. وفي مقدمتها هذه الصلة التي تجددت بين الأساتذة الباحثين، وهذه الجلسات العلمية الخصبة الممتعة التي نقلت الكثير منها إلى أجواء جديدة متنوعة باللغة التنوع. وما من شك في أن هذا النجاح العلمي يرجع الفضل فيه إليكم أنتم الذين وفدتم عينا من أقاصي الجهات. لذلك أود أن أقول إنه أن جاز أن يكون بينكم تفاوت في استحقاق الثناء فإنه ينبغي أن يكون بقدر التفاوت بين المسافات التي قطعها كل منكم نحو هذه المدينة. ونحو هذه الكلية التي هي على مرمى البصر من مدينة سبئة. فشكر الله لكم مسعاكم وشملكم بالسلامة مقيمين وراعين، وجزاكم عن أعمالكم في هذه الندوة خير الجزاء.

ولأيفوتني بهذه المناسبة أن أنوه بمشاركة أساتذة إسبانيا الجارة والصديقة التي هي مؤتمنة علميا وثقافيا على التراث المشترك بين الأندلس والمغرب.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أيضا أن أشكر مرة أخرى كل الذين ساهموا في إنجاح ندوتنا من سلطات محلية على رأسها السيد عامل صاحب الجلالة نصره الله على الإقليم. وسلطات تشريعية في مقدمتها المجلس البلدي لمدينة تطوان والمركز المستقل لمُربّيل. وأحدد امتناني خاصة للسيد وزير التربية الوطنية والسيد وزير الشؤون الثقافية. كما أن من الحق الذي يظل الاعتراف به لأهله قائما تنويهي بأعمال اللجنة المنظمة لهذا الملتقى وعلى رأسها زميلي الدكتور حسن الوراكلي، والذين ساعدوه من موظفي الكلية وأساتذتها.

وأتوجه في النهاية بخالص الشكر لمراسلي الصحافة الوطنية والوحدة التلفزيونية والاذاعية التي قامت بتغطية هذه الندوة.

فبفضل هذه المساعدات والأعمال المشتركة تمّ إنجاح هذا الملتقى. ولعله أن يكون مرجع هذا النجاح الذي كنا لا نشك فيه قبل الندوة إنما هو في الحقيقة شعور الجميع بشرف المقاصد وسموها، التي جمعتنا حول الملتقى، فالله ندعوه أن يجدد لقاءنا على كلمة سواء. ومقصد سواء...



## الملتقى العلمي الثاني لكلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان

عرفت كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان خلال الأ. : 14 — 15 — 16 ابريل 1988 م. ندوتها العلمية الثانية<sup>(1)</sup> التي خصص محورها هذه المرة لمدينة سبتة.

استهلت الندوة اعمالها بكلمات الافتتاح<sup>(2)</sup> التي رحبت بالحاضرين شاكرة كل من ساعد ومد يد العون، سواء بالنسبة لمن يعمل داخل مؤسسة الكلية أو خارجها، وذلك لما للجميع من فضل اخراجها وتحقيقها واقعا وعملا.

بعد كلمات الافتتاح منحت لحظة لكل الحاضرين، رغبة في التعارف والتواصل، وحقا كانت فكرة ذهبية مكنت الجميع من فرصة الحوار والتعرف، والأخذ والعطاء : فالاسباني يستعرض الحضارة الاسلامية الأندلسية والليبي يتحدث عن اخلاف عمالقة الفكر والأدب بمدينة سبتة، والمصري يحكي عما كان للمغاربة من فضل على ديار الكنانة في مختلف العلوم بما نقلوه إليها من معارف وتيارات، إلى غير ذلك مما كانت تثريه كل حلقة من حلقات الحاضرين هنا وهناك، وكأن هذه الأحاديث كانت مقدمات لما سيعقبها على كراسي القاعة التي التحق بها الجميع بعد مهلة قصيرة حيث جلس يتابع مداخلات الجلسة الأولى.

---

(1) كانت الندوة الأولى أيام : 17 — 18 — 19 أبريل 1986 وكان محورها حول شخصية ابن الخطيب وعصره.

(2) تمت كلمات الافتتاح على الترتيب التالي :

- 1 — كلمة السيد عامل صاحب الخلافة على إقليم تطوان.
- 2 — كلمة السيد عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان.
- 3 — كلمة السيد رئيس اللجنة العلمية للملتقى.

عرفت ندوة سبته هذه أربع جلسات، كانت الأولى مساء الخميس وتمت تحت رئاسة الأستاذ أحمد الطريقي. وكانت الثانية صباح الجمعة بعده وترأسها الدكتور الطاهر أحمد مكي، والثالثة مساء نفس اليوم تحت إشراف الأستاذ خوسي بيريث لاثارو. وتمت الرابعة والأخيرة صباح يوم السبت الموالي برئاسة الدكتور محمد مجيد السعيد.

تدخل في الجلسة الأولى كل من السادة الأساتذة الدكتور أمين توفيق الطبيي من ليبيا بموضوع عن احتلال البرتغاليين لمدينة سبته، والدكتور علال الغازي من الرباط بموضوع عن بعض الجوانب النقدية عن الشريف السبتي الغرناطي من خلال شرحه لمقصورة حازم القرطاجني والأستاذة زليخة بنرمضان ميموني من الرباط بموضوع عن التخطيط المادي لمدينة سبته الإسلامية، والأستاذ عبد الملك الشامي من فاس بموضوع عن مدينة سبته في المعاجم الجغرافية، والأستاذ عبد السلام شقور من تطوان بموضوع عن بيوتات سبته التي اشتهرت بحفاظها على الاستمرار المعرفي عبر اختلافها في القرن الثامن، والأستاذ إسماعيل الخطيب من تطوان بموضوع عن دور المدرسة في الحياة العلمية بسبته ثم الأستاذ كونسيسیون كاسطيو من غرناطة والأستاذ محمد المنتصر الريسوني من تطوان.

وعلى صورة رسم الجلسة الأولى تابعت باقي الجلسات التي يمكن حصر عروضها في التخصصات التالية :

الأدب : 13 عرضا

التاريخ : 12 عرضا

الفكر الاسلامي : عرضان

الحديث النبوي : عرضان

اللغة والنحو : عرض واحد

التربية والتعليم : عرض واحد

ونلمس من الحصر السالف غلبة المادة الأدبية على عروض الملتقى. وغلبتها هذه توزعت بين محورين : انصب الأول على جوانب من تاريخ الأدب، من ذلك عرض الأستاذ سعيد ابن الاحرش الذي تناول الرسائل التي تبودلت بين سبته وثغر منركة

في موضوع افتكاك الأسرى. ومنه موضوع الأستاذ عبد الله بن ناصر العلوي الذي استعرض ماثارة احتلال مدينة سبته من نصوص في الأدب العربي. وبالنسبة للإعلام نذكر عرض الدكتور محمد مسعود حبران وهو من ليبيا، الذي خصصه للشاعر مالك بن المرحل وإذا كان هذا قد أوقف عرضه عند نفس الشخصية، فإن الأستاذ عبد السلام شقور نثر عرضه على بيوتات سبته التي حافظت على استمرارية المعرفة عبر اختلافها.

ويلحق بما سبق، العروض التي عاجلت ماتمستته بعض الكتب السبئية أو التي تضمنت رجالات سبته. نذكر من الأولى عرض الدكتور حسن الوراكلي الذي خصصه لكتاب در «تخفة القاصد في اسن المقاصد» وهو لأبي العباس أحمد العزفي السبتي. ومن الثانية نذكر عرض الأستاذ عبد الله المرابط الترغي الذي استخرج مافي مخطوط «أعلام مالقة» مؤلفه محمد بن علي ابن عساكر المالقي، من مادة سبئية (اعلام . مصادر . نصوص).

واستقل اخور الثاني بمادة النقد الأدبي. ومن الذين ساهموا في هذا الجانب الأساتذة علاء الغازي ومحمد الذناي. وقد تناول عرض كل منهما ماثارته مقصورة حازم القرطاجني وشرحها المشهور للشريف السبتي الغرناطي من تأصيل وتأسيس للنقد الأدبي. ثم الأساتذة جعفر بن الحاج السلمي وأحمد حدادي وعلي لغزيوي، وقد عاجلت عروضهم اسهامات مدينة سبته في موضوع النقد الأدبي سواء بما عرفته من اعلام أو بما أحدثوه من اتجاهات وعالجوه من قضايا.

ولم يقف ملتقى سبته العلمي عند حد العروض، ولكنه عرف على هامش ذلك، بعض المساهمات الأخرى، منها معرض الكتاب السبتي الذي قدم من خلاله خزانة نادرة النظير بما أبرزته للمشاهد الباحث والزائر من ذخائر تراثية ومعاصرة، وهي شهادة على ما كان للمدينة في مجد حضاري.

كما ان من ذلك الندوة الصحافية التي استدعي لها مديروا ومراسلوا الصحف اخلية، والتي تمت مع السيد عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية الدكتور محمد الكتاني، والسيد رئيس اللجنة العلمية للملتقى الدكتور حسن الوراكلي، وقد بينا في اجوبتهما المستفيضة اهداف الندوة، ودوافع اختيار مدينة سبته بالذات، كما قدما اعتذارات بعض المتغيين عن حضور الملتقى أو المساهمة في عروضه.

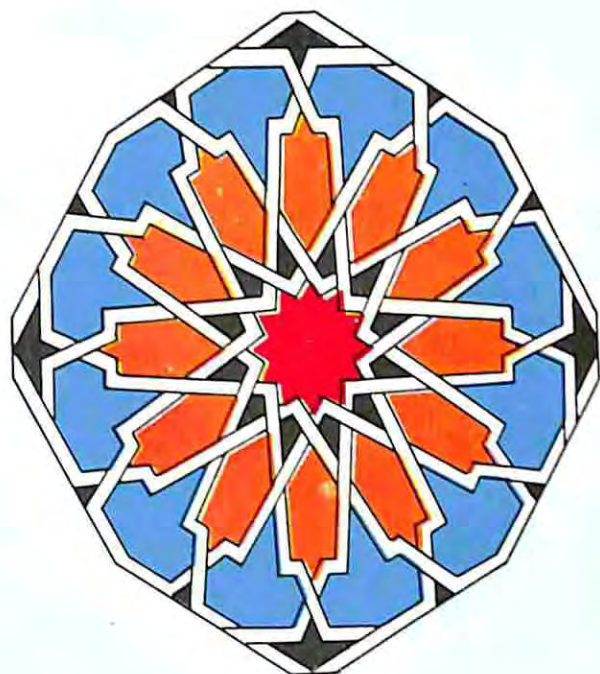
وأخيرا كانت كلمات الاختتام، كانت الأولى من طرف السيد عميد الكلية،

والثانية من طرف رئيس اللجنة العلمية، وكلاهما عبرت عما تركه حضور المساهمين الالقاء أو المناقشة، وما اثروا به الندوة من درر علمية في مجالات شتى، ونظراً لما تركته هاتان الكلمتان من تأثير في الحاضرين جاءت كلمة شكر وتقدير واعتراف بالجهود المادي والمعنوي الذي تطلبته الندوة، وكانت نيابة عن الحاضرين من طرف فضيلة الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي الذي كانت نهاية كلمته تحاتمة الملتقى.

ذ. عبد القادر الخراز



Université Sidi Mohamed Ben Abdellah



**Revue**  
**DE LA FACULTE**  
**DES LETTRES**  
**TETOUAN**

---

**Numéro spécial sur Ceuta Histoire et Patrimoine**

**3<sup>ème</sup> Année**

**N°3 - 1989**



Revue  
DE LA FACULTE  
DES LETTRES  
TETOUAN

Université Sidi Mohamed Ben Abdellah

Revue  
**DE LA FACULTE  
DES LETTRES  
TETOUAN**

*Numéro spécial sur*  
**CEUTA HISTOIRE ET PATRIMOINE**

**3<sup>ème</sup> Année**

**N°3 - 1989**





## SOMMAIRE

|                                                                                                                                         |    |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----|
| Algunos Aspectos de la vida intelectual en Ceuta a través de Al-Dayl wa-l-Takmila de ibn ʿabd Al-Malik Al-Marrakuṣī<br>Jesús ZANÓN..... | 7  |
| Ceuta en las relaciones Hispano-Marroquies de los siglos XVI y XVII<br>Rodolfo Gil GRIMAU.....                                          | 17 |
| La cuestion de Ceuta en la problematica del estrecho durante el siglo XX<br>José U. MARTINEZ CARRERAS.....                              | 27 |
| Algunas puntualizaciones en torno Al Kitāb Al-Šifā, del qāḍī ʿIyāḍ<br>Concepcion CASTILLO.....                                          | 39 |

# Algunos Aspectos de la vida intelectual en Ceuta a través de *Al-Dayl wa-l-Takmila* de Ibn 'abd Al-Malik Al-Marrakuṣī

Jesús ZANÓN

Como es sabido, la importancia política de Ceuta musulmana fue consecuencia directa de su privilegiada posición estratégica, llave de Marruecos en sus relaciones con la Península Ibérica y, en cierta manera, con el resto de las culturas de la ribera del Mediterráneo occidental. Dicha importancia ha sido examinada en numerosos estudios históricos sobre la ciudad, de entre los cuales pueden señalarse, para los siglos bajomedievales, los de Charles E. Dufourcq<sup>(1)</sup>, J. Vallvé<sup>(2)</sup> y J.D. Latham<sup>(3)</sup>.

Pero Ceuta no sólo fue un centro político-estratégico de primer orden, sino también un foco cultural, cuna de sabios de la importancia del qāḍī 'Iyād o de Ibn Rusāyd, así como un lugar de tránsito de sabios andalusíes, magrebíes y orientales y de sus corrientes intelectuales. Dejando aparte algunos trabajos dedicados a figuras aisladas y de gran peso, el interés por Ceuta como centro de vida intelectual es más bien reciente, y tiene un hito que marca un punto de partida a tener en cuenta: la conjunción de una serie de trabajos debidos a los más prestigiosos investigadores marroquíes que vieron la luz en el número especial de la revista *Al-Manāhil* dedicado a la vida intelectual de Ceuta musulmana<sup>(4)</sup>.

## 1. Objeto del estudio

El objeto de mi trabajo será un análisis de las biografías de los sabios nacidos en Ceuta según *al-IDayl wa-l-Takmila* de Ibn 'Abd al-Malik Al-Marrākūṣī.

(1) «La question de Ceuta au XIII<sup>e</sup> siècle», en *Hespéris*, XLII (1955).

(2) «Suqūt al-Bargawātī, rey de Ceuta», *Al-Andalus* XXVIII, 1963, pp. 171-209. «Descripción de Ceuta musulmana en el siglo XV», *Al-Andalus*, XXVII (1962), pp. 398-442. *Contribución a la Historia Medieval de Ceuta hasta la ocupación Almorávide*, Madrid, 1962.

(3) «The Strategic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim Period», *The Islamic Quarterly*, XV, London 1971, pp. 189-204. «The rise of the 'Azafids of Ceuta», *In Memoriam Samuel Mikós Stern, 1920-1969* (IOS II), 1972, pp. 263-287. «The Later 'Azafids», *R.O.M.M.*, 15-16, 1973, pp. 109-125.

(4) *Al-Manāhil*, n.º 22, editado por el Ministerio de Asuntos Culturales, Rabat-Marruecos, enero de 1982, 733 pp.

autor nacido en *Marrākuš* el 14 de *dū-l-qa<sup>c</sup>da* del 634 h. (9 de julio de 1237) y muerto en Tremecén en el 703 h. (1303), Sobre quien existe un extenso estudio del doctor Muḥammad b. Šarīfa en la «Introducción» a la edición del tomo VIII de la obra<sup>(5)</sup>.

Quiero advertir que en este trabajo me interesa el *Dayl* por sí mismo, es decir, que, en general, prescindiré de las biografías de sabios ceutíes según otros diccionarios biográficos.

## 2. Ceuta en el *\al-IDayl wa-l-Takmila*

Hay que decir en primer lugar que Ceuta está relativamente bien representada en el conjunto del *Dayl*, obra de la que, desgraciadamente, sólo disponemos de algo más de su mitad. En ella, el número de sabios musulmanes que nacieron, vivieron o residieron temporalmente en Ceuta por motivos de estudios u otras circunstancias se acerca al centenar, y en su mayor parte murieron en época almohade. Nosotros nos vamos a limitar a examinar aquellos ulemas nacidos en Ceuta, y sólo aludiremos a algunos sabios no ceutíes que tuvieron alguna relación con esta ciudad cuando hablemos de las relaciones entre maestros y discípulos.

Ibn ʿAbd al-Malik dedica al Magreb los tomos VII y VIII del *Dayl*, siguiendo la clásica división de los diccionarios biográficos occidentales en andalusíes y *guraḇāʾ*. El tomo VII, que debía comprender las biografías de los sabios cuyos nombres empezasen por una de las quince primeras letras del alifato<sup>(6)</sup>, se encuentra perdido, y debemos conformarnos con el tomo VIII que vendría a ser aproximadamente la mitad de esta parte dedicada a los *guraḇāʾ*, término con el que se designa tanto a los sabios magrebíes como a los orientales que residieron en algún momento de su vida en el Magreb.

## 3. Relación de las biografías de sabios ceutíes y época en que vivieron.

El total de biografiados es de 235<sup>(7)</sup>, de los cuales 14 son ceutíes de nacimiento, es decir, el 5,9 % del total. Aunque a primera vista esta cifra pueda parecer pequeña, no lo es tanto si se compara con las del resto de los personajes según su lugar de nacimiento. Así, los *fāsīes* ocupan el primer lugar en cuanto representación en el *Dayl* con 34 biografías (14,4 %) ; a continuación los nacidos en *Marrākuš* con 20 biografías (8,5 %) y los nacidos en Tremecén con 19 biografías (8,1 %). El resto de las ciudades magrebíes u orientales tienen una representación menor que Ceuta.

(5) Rabat, 1984, pp. 3-152.

(6) M. b. Šarīfa, «Introducción al t. VIII del *Dayl*, pp. 133-4.

(7) Tras los *guraḇāʾ* Ibn ʿAbd al-Malik recoge 57 biografías de mujeres de las cuales solamente 3 son de origen magrebí. Estas tres últimas sabias las hemos tenido en cuenta en nuestro recuento.



De los catorce personajes ceutíes, once tienen fecha de muerte conocida. Para los tres personajes restantes podríamos deducir la época en que vivieron a través de la fecha de muerte de sus maestros. Así, Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. ʿAbd Allāh b. Muḥammad al-Tamīmī debió de morir después que su maestro el qāḍī ʿIyād, en el 544. Yaḥyā b. Aḥmad al-Anṣārī al-Nukkārī es de suponer que muriera tras el único maestro que de él se cita : Ibn al-Šāʿig, es decir, después del año 600. Por último, Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. Muḥammad b. Abī Bakr al-ʿūdāmī debió de morir después del año 612 (1215), fecha de muerte de uno de sus maestros, Abu ʿAbd Allāh Ibn Ḥawṭ Allāh<sup>(8)</sup>.

Excepto en un caso, en concreto el de Abū Bakr al-ʿawzī muerto en el 483, el resto de los personajes vivieron toda su vida o una buena parte de ella durante la época almohade, lo cual muestra el período histórico de interés preferente en la obra de Ibn ʿAbd al-Malik.

Los catorce personajes ceutíes dispuestos según su fecha de muerte son los siguientes :

- 1) Abū Bakr Muḥammad b. Yaʿlā b. Muḥammad ; al-Maʿāfirī, al-ʿawzī  
428-Ceuta 483  
DT VIII 150
- 2) Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. ʿAbd Allāh b. Muḥammad ; al-Tamīmī  
+ 544  
DT VIII 104
- 3) Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. ʿIyād b. Mūsā ; al-Yaḥṣubī  
527 - Granada [Ceuta] 575  
DT VIII 133
- 4) Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. al-Ḥasan b. ʿAṭīyya b. Gāz ; Ibn al-Gāzī  
508 - 591  
DT VIII 87
- 5) Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. Aḥmad b. Muḥammad ; al-Tagmarī  
+ 596  
DT VIII 64
- 6) Abū l-Husayn Yaḥyā b. Muḥammad b. ʿAlī ; al-Anṣārī ; Ibn al-Šāʿig  
Ceuta 600  
DT VIII 200
- 7) Abū Bakr Yaḥyā b. Aḥmad ; al-Anṣārī, al-Nukkārī  
+ 600  
DT VIII 191
- 8) Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. Muḥammad b. Abī Bakr ; al-ʿūdāmī  
+ 612  
DT VIII 141

(8) Sobre este personaje véase J.M. Fórneas «Sobre los Banū Ḥawṭ Allāh», *Al-Andalus*, XXXII (1957), pp. 445-458.

- 9) Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. Ḥasan b. Aḥmad ; IBn Muḥabbir  
549-Triana 620  
DT VIII 82
- 10) Abū l-Faḍl ʿIyāḍ b. Muḥammad b. Mūsā ; al-Yaḥṣubī  
561 - Málaga 630  
DT VIII 39
- 11) Abū l-Ḥasan ʿAlī b. Muḥammad b. ʿAlī ; al-Gāfiqī, al-Šārri  
561 - Málaga 649. Autor que ha sido estudiado por ʿAbd al-Qādir Zamāma<sup>9)</sup>  
DT VIII 12
- 12) Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. ʿIyāḍ b. Muḥammad ; al-Yaḥṣubī ;  
Ibn ʿIyāḍ  
580 - Granada 655  
DT VIII 132
- 13) Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. ʿAbd Allāh b. Aḥmad ; al-Azdi  
568 - Ceuta 660  
DT VIII 99a
- 14) Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. Ḥasan b. ʿUmar ; al-Fihri ; Ibn al-Muḥalli  
583 - Ceuta 661  
DT VIII 88

#### 4. Importancia de la familia del qāḍī ʿIyāḍ en la Ceuta almohade

Llama la atención el hecho de que el número de familiares del qāḍī ʿIyāḍ en la parte del *Dayl* dedicada a los *gurbā* asciende a 4 personajes : uno es su tío materno, Abū Bakr al-Ŷawzī, y los otros tres son su hijo, su nieto y su bisnieto. El porcentaje 4 de 14 indica el gran peso que tenía esta familia en la sociedad ceutí<sup>(10)</sup>, sobre todo si se tiene en cuenta que el hecho de tener cabida en un diccionario biográfico de las características del *Dayl* significaba ser considerado parte de la élite intelectual y social del momento.

No obstante, tal vez cause extrañeza la ausencia del mismo qāḍī ʿIyāḍ, cuando su familia se encuentra representada de este modo. Creo que la explicación se encuentra en el carácter del *Dayl*, obra que fue diseñada como continuación de la *Šila* de Ibn Baṣkuwāl. Podría suponerse que Ibn ʿAbd al-Malik no introdujo la biografía del qāḍī ʿIyāḍ por no tener que decir nada nuevo con respecto a Ibn Baṣkuwāl. Otro caso diferente sería el de la ausencia en el *Dayl* de otros célebres personajes ceutíes de época almohade, como es el caso de Abū l-ʿAbbās Aḥmad al-ʿAzafī (1162-1236)<sup>(11)</sup>, que debería encontrarse en el perdido tomo VII.

(9) *Al-Manāhil*. 1402/1982, pp. 306-315.

(10) En este sentido es muy significativo que al-Maqqarī dedicara un libro al qāḍī ʿIyāḍ : *Azhār alriyād fī ajbār ʿIyāḍ*, editado en El Cairo, 1940-42, 3 vols..

(11) Sobre este personaje véase Latham, «The rise of the ʿAzafids», pp. 265-8 ; J. Vallvé, «Descripción de Ceuta», p. 403 n.6 ; F. de la Granja, «Fiestas cristianas. I : al-ʿAzafī», *Al-Andalus*, XXXIV (1969), pp. 1-18, esp. 15-16 ; *ET*, *Supplément*, «pp. 110-112 (artículo de J.D. Latham).

## 5. Lugar de origen familiar de los ceutíes biografiados

Ibn 'Abd al-Malik, siguiendo el modelo de los diccionarios biográficos andalusíes desde Ibn al-Farāḍi, tiende a consignar el lugar de origen familiar de los personajes biografiados. Se observa que un buen número de ceutíes tenían ascendentes andalusíes, hecho natural si se tiene en cuenta la unidad cultural que existía entre ambas orillas del Estrecho. Así pues, se nos indica a propósito de dos de los miembros de la familia del qāḍī 'Iyāḍ que ésta procedía de *Baṣṭa*, actual Baza en la provincia de Granada. Los antepasados de Ibn Muḡabbir procedían de Toledo y eran conocidos por los Banū Yūsuf, por el nombre de su bisabuelo, habitante de esa localidad. De emigración más reciente eran las familias de Abū 'Abd Allāh Muḡammad al-Azdi y la de al-Šārri. En ambos casos fueron sus padres quienes emigraron de Córdoba y de al-Šarra respectivamente.

A propósito del topónimo al-Šarra quisiera hacer un pequeño inciso. La biografía que Ibn al-Zubayr dedica a al-Šārri es más completa en relación al lugar de origen familiar, y dice: «*Šarrat Falyīn*, fortaleza al norte de Murcia»<sup>(12)</sup>. Tanto por su ubicación geográfica como por razones de fonética histórica, *Falyīn* ha de corresponder a la actual localidad albaceteña de Hellín, situada en una zona montañosa<sup>(13)</sup>. Por tanto *Šarrat Falyīn* tendría que ubicarse en algún punto montañoso cercano a Hellín. Creo que es la única ocasión en que aparece la localidad de Hellín bajo esta forma<sup>(14)</sup>, y el dato habría de sumarse al debate que existe sobre el topónimo *Iyyohdel* Pacto de Teodomiro, identificado tradicionalmente con Hellín<sup>(15)</sup>, y más recientemente con Elda<sup>(16)</sup>.

## 6. Jueces ceutíes

Entre las catorce biografías de sabios ceutíes, encontramos cinco correspondientes a qāḍíes que desempeñaron sus cargos, ya en al-Andalus, ya en Ceuta; aparece además, citado de modo incidental, un sexto qāḍí.

De entre ellos, dos desempeñaron sus cargos fuera de Ceuta. Se trata de Muḡammad b. 'Iyāḍ b. Mūsā que, en el año 570, fue designado para cubrir la judicatura de Denia, y, posteriormente, la de Granada; y de Muḡammad b. 'Iyāḍ b. Muḡammad, qāḍí de Granada y de otras localidades. que Ibn 'Abd al-Malik no especifica, en fechas más tardías. Ambos eran, respectivamente,

(12) Ed. Lévi-Provençal, Rabat, 1936, p. 149.

(13) P. Madoz, *Diccionario geográfico-estadístico-histórico de España y sus posesiones de ultramar*, Madrid, 1846-1850<sup>2</sup>, «Hellín» s.i....

(14) J.A. Pacheco Paniagua en «Sobre la etimología árabe de Albacete», *Al-Basīt* V (1974), pp. 71-78 documenta la forma *Falyān*. No he podido consultar este trabajo, utilizado por M<sup>a</sup>. Jesús Rubiera en Villena en las calzadas romana y árabe, Villena-Alicante, 1985, p. 42.

(15) J. Vallvé, «La cora de Tudmir», *Al-Andalus* XXXVII (1972), pp. 147, 167, 169 y 181; E. Molina Lápez, «Iyyo(h): otra ciudad yerma hispanomusulmana», *Cuadernos de Historia del Islam*, 3 (1971), pp. 67-81.

(16) M<sup>a</sup>. Jesús Rubiera, *op. cit.*, pp. 18, 32 y 41-42.



hijo y bisnieto del *qāḍī* <sup>c</sup>Iyāḍ. Se comprueba, por tanto, que los descendientes del *qāḍī* <sup>c</sup>Iyāḍ mantuvieron su poder y prestigio, y que el gobierno almohade contó con ellos para desempeñar el mismo cargo público que su antepasado a pesar de la oposición que este último mantuvo frente a la nueva dinastía, oposición que le costó su destitución<sup>(17)</sup>. Por otro lado, el *qāḍī* <sup>c</sup>Iyāḍ fue también designado para ocupar la judicatura de Granada, ciudad que, por tanto, vio pasar tres *qāḍīs* de la misma familia.

En cuanto a los *qāḍīs* que desempeñaron su cargo en Ceuta, estos fueron ; Ibn al-Gāzī, fallecido en el 591. Muḥammad b. <sup>c</sup>Abd Allāh al-Azdī, uno de los principales discípulos del anterior y muerto en el 660, e Ibn al-Muḥallī, quien ocupó el cargo en el año 654 tras la muerte de su antecesor Abū l-Ḥasan b. Abī l-Šaraf Rafī<sup>(18)</sup>, es decir, ya en época del gobierno autónomo de Abū l-Qāsim al-<sup>c</sup>Azafī<sup>(19)</sup>, y lo desempeñó hasta que murió en el año 661.

Ibn <sup>c</sup>Abd al-Malik dedica a todos los *qāḍīs* que biografía palabras elogiosas acerca de su rectitud y justo comportamiento. Tal vez llame la atención su observación acerca de Muḥammad b. <sup>c</sup>Iyāḍ b. Muḥammad, *qāḍī* de Granada. «Fue -dice- el último *qāḍī* justo de al-Andalus.

De estos 5 *qāḍīs* de Ceuta biografiados por Ibn <sup>c</sup>Abd al-Malik, cuatro son especialistas en *adab*. Este hecho sorprende un poco si se tiene en cuenta que dicha materia no es cultivada por ningún otro personaje ceutí. Aparte del *adab*, algunos *qāḍīs* fueron especialistas en otras ramas del saber profano, como la gramática (citada en dos ocasiones), la prosa y el verso. Desde un punto de vista intelectual, el *qāḍī* al-Muḥallī es el personaje que domina un mayor número de ramas del saber : *ʿaqd al-šurūʿ*, *adab*, *naḥw*, *naṭr naẓm* y *tafsīr al-Qurʿān*.

Desde luego todos los *qāḍīs* eran alfaquíes en el amplio sentido de la palabra. Sin embargo, Ibn <sup>c</sup>Abd al-Malik utiliza conceptos diferentes : «*kāna faqīh*<sup>an</sup><sup>(20)</sup>, o bien, «*kāna ʿāqīd al-šurūʿ*»<sup>(21)</sup>, o «*kāna dā ʿimāya bi-ʿaqd al-šurūʿ*»<sup>(22)</sup>. Un sólo personaje aparece designado al mismo tiempo como *faqīh* y *ʿāqīb al-šurūʿ*<sup>(23)</sup>.

Fuera de este grupo de cinco *qāḍīs*, dos personajes ceutíes más cultivaron el derecho. Un *faqīh* : Ibn Muḥabbir al-Tuḡībī, y un especialista en *uṣūl al-fiqh* : Abū <sup>c</sup>Abd Allāh al-ḡudāmī.

(17) *El*<sup>2</sup>, IV, p. 302-3.

(18) Véase J. Vallvé, «Descripción de Ceuta», p. 412.

(19) Latham, «The rise», pp. 272-3.

(20) *DT*, VIII, n<sup>os</sup> 99a, 132 y 133.

(21) *DT* VIII, n<sup>os</sup> 88 y 89.

(22) *DT* n<sup>o</sup> 87.

(23) *DT*, VIII, n<sup>o</sup> 99.



Puede constatarse un cierto despegue de los *qāḍīs* por el estudio del *ḥadīṭ*. Solamente dos de los cinco *qāḍīs* registrados fueron al mismo tiempo *tradicionistas*. Se da además la circunstancia de que estos dos *qāḍīs*-tradicionistas fueron discípulos importantes del *qāḍī* *ʿIyāḍ*, el cual era especialista en *fiqh* y *ḥadīṭ*; se trata de Ibn al-Gāzī<sup>(24)</sup> y de Muḥammad b. *ʿIyāḍ*, hijo de aquel.

Por otro lado se constata que, exceptuando el *qāḍī* al-Muḥallī, el resto de los jueces ceutíes tuvieron una relación de discipulato indirecta con el *qāḍī* *ʿIyāḍ* a través, bien de Ibn al-Gāzī, bien de los descendientes de *ʿIyāḍ*. Así, al-Azdī, que fue uno de los discípulos más importantes de Ibn al-Gāzī<sup>(25)</sup>, ocupó el mismo cargo que su maestro en Ceuta. Por otro lado, Muḥammad b. *ʿIyāḍ* b. Muḥammad, discípulo de su padre *ʿIyāḍ*, y éste de su abuelo Muḥammad, fue designado *qāḍī* de Granada como lo habían sido su abuelo y su bisabuelo.

Al-Muḥallī es un caso aparte. No fue nombrado *qāḍī* de Ceuta cuando era gobernada por los almohades, sino bajo el gobierno independiente o autónomo de Abū l-Qāsim al-ʿAzafī.

## 7. Disciplinas practicadas. Tradicionistas y alfaquíes

En términos cuantitativos, de entre las disciplinas practicadas por los sabios ceutíes se destacan, por su frecuencia, el *ḥadīṭ* y el *fiqh* en un sentido amplio. No se encuentra una división tajante entre *tradicionistas* y *alfaquíes*, pero sí una ligera oposición: de ocho *tradicionistas*, cuatro se dedicaron también al derecho, y de ocho *alfaquíes*, cuatro sobresalieron además por el estudio del *ḥadīṭ*. Tras el *ḥadīṭ* y el *fiqh*, el *adab* fue materia practicada por cuatro personajes, los cuales, como ya hemos visto, eran todos *qāḍīs*. En menor grado, los sabios ceutíes practicaron también las lecturas coránicas o estudios sobre el Corán (tres personajes), la gramática (tres), los *ajbār* (dos) y los *tawārīj* (dos).

## 8. Maestros más relevantes

A través del cómputo de maestros de los sabios ceutíes, podríamos establecer el grupo más relevante o influyente en su época según el número de veces que aparecen citados. Hemos escogido aquellos que son nombrados en cuatro o más ocasiones:

1) Abū l-Ṣabr Ayyūb b. ʿAbd Allāh b. Aḥmad al-Fihri, nacido en Ceuta y muerto en la batalla de Las Navas de Tolosa en el 609. Realizó viajes de estudio a al-Andalus y a Oriente. Destacó como *tradicionista* y *ṣūfī*<sup>(26)</sup>. Este personaje debería encontrarse biografiado en el desaparecido tomo VII del *Dayl*. Fue maestro de cinco sabios ceutíes<sup>(27)</sup>, la mayoría de los cuales destacaron como

(24) DT, VIII, p. 287 se dice a propósito de sus relaciones con el *qāḍī* *ʿIyāḍ*: *ʿāzama-hu kaḥīr<sup>an</sup> wa-ṣuḥūra bi-ṣuḥūbatihī*.

(25) Ver DT, VIII, p. 307.

(26) Ibn al-Abbār, *Takmila*, ed. El Cairo, n° 536; Ibn al-Qāḍī, *ʿāḍwat al-iqtibās*, n° 121.

(27) DT, VIII, n°s 82, 88, 99, 132 y 141.

alfaquíes. Como *ṣūfī* tuvo que influir en sus discípulos Ibn Muḡabbir al-Tuḡībī y al-Muḡallī.

2) Abū l-Ḥusayn Yaḡyā b. Muḡammad b. ʿAlī Ibn al-Ṣāʿig, nacido en Ceuta y muerto en la misma ciudad en el año 600. Destacó como lector del Corán, tradicionista y *ṣūfī*<sup>(28)</sup>. Fue maestro de cuatro sabios ceutíes, y como *ṣūfī* tuvo que influir en su discípulo Ibn Muḡabbir al-Tuḡībī.

3) Ibn Baṣkuwāl, el conocido autor de la *Ṣila*. Nació en Córdoba en el 494 y murió en la misma ciudad en el 578<sup>(29)</sup>. Fue maestro de cuatro sabios ceutíes, uno de los cuales, Ibn al-Ṣāʿig, estudió dos de sus obras : la *Ṣila* y el *Barnāmaʿ al-awsaʿ*.

4) El conocido tradicionista y *qāḏī* de Murcia Ibn Ḥubayṣ, nacido en Almería en el 504 muerto en Murcia en el 584. Proyectó la continuación de la *Sila* de Ibn Baṣkuwāl, y sus notas fueron aprovechadas por Ibn al-Abbar<sup>(30)</sup>. Fue maestro de cuatro sabios ceutíes.

5) Abū l-Ḥasan ʿAlī b. Muḡammad b. ʿAlī al-Naḡwī, destacado lector del Corán, alfaquí, teólogo y gramático. Nació en Sevilla y murió en esta misma ciudad en el 609<sup>(31)</sup>. Como gramático tuvo que influir en sus discípulos Abū ʿAbd Allāh al-ḡudāmī y en al-Muḡallī.

6) Abū Muḡammad Ibn Ḥawṭ Allāh, famoso tradicionista, teólogo y *qāḏī*, estudiado por J. M. Fórneas<sup>(32)</sup>. Nació en Onda en el 548 y murió en Granada en el 612. Fue, como el anterior, maestro de cuatro personajes ceutíes.

## 9. Viajes

Atendiendo a la información que nos ofrece Ibn ʿAbd al-Malik, al-Andalus fue el lugar preferente en los viajes de los sabios ceutíes. Málaga es la ciudad más frecuentada (citada como lugar de destino de cuatro personajes), y le siguen Granada, Sevilla, Almería y Algeciras (lugares de destino de dos personajes en cada caso), y Denia, Córdoba y Jerez (citadas en una ocasión). Los viajes obedecían preferentemente a motivos de estudios, y, en menor medida, como lugares de residencia.

En cuanto al Magreb, únicamente son aludidas las ciudades de Fez (en dos ocasiones) y de Marrakech (una ocasión).

Oriente es citada una vez a propósito del viaje de estudios de Muhammad al-Tagmarī<sup>(33)</sup>. Sin embargo otros personajes tuvieron relaciones con Oriente

(28) DT, VIII, 200.

(29) ET<sup>2</sup>, III, p. 756.

(30) ET<sup>2</sup>, III, p. 826-7.

(31) DT, V, 635.

(32) Véase nota 8.

(33) DT, VIII, 68.

aunque no se desplazaran para ello. Se trata de Abū ʿAbd Allāh Muḥammad al-Azdī y de Muḥammad b. ʿIyād b. Muḥammad, los cuales recibieron la *iyāza* por escrito de un numeroso grupo de sabios de Egipto, Bagdad, Ḥarrān, Arbīl y Mosul<sup>(34)</sup>.

## Conclusiones

Como resumen de todo lo anterior diremos que Ceuta, según se refleja en el *Dayl wa-l-Takmila* de Ibn ʿAbd al-Malik, puede considerarse como la cuarta ciudad del Magreb en importancia atendiendo a la vida intelectual bajo la égida almohade. El peso y prestigio de los descendientes del qāḍī ʿIyād es manifiesto, y trasciende los límites de la ciudad. La figura del *ṣūfī* se encuentra extendida como en el resto del Magreb y al-Andalus. Entre las materias cultivadas por los sabios ceutíes destacan principalmente el *ḥadīṭ* y el *fiqh*. En al-Andalus se encontraban los focos de vida intelectual donde acudían con más frecuencia dichos sabios. Al-Andalus es también el lugar de origen de varias familias de sabios ceutíes, así como de la mayoría de sus maestros más relevantes. Este hecho indica una vez más la fuerte conexión cultural entre ambas orillas del Estrecho.

No quisiera terminar sin antes aludir, aunque sea brevemente, a un hecho importante relacionado con la vida intelectual de Ceuta en la época que nos ocupa. Como ya ha sido señalado por Muḥammad b. Tāwīt<sup>(35)</sup>, por ʿAbd al-Qādir al-Zamāma<sup>(36)</sup> por Ismāʿīl al-Jatīb y por otros investigadores, la primera madrasa documentada en el Magreb extremo fue construida en la ciudad de Ceuta por Abū l-Ḥasan al-Šārri, hecho reflejado en varias fuentes árabes de entre las cuales la que más detalles ofrece es el *Dayl*<sup>(37)</sup>. Conocemos la fecha de su construcción: el año 635 (agosto 1237-agosto 1238), momento algo confuso en la historia política de Ceuta a caballo entre un periodo de independencia y otro de sometimiento al soberano almohade al-Rašīd<sup>(38)</sup>. Puede decirse, por tanto, que la madrasa de al-Šārri es la única documentada en época almohade<sup>(39)</sup>. No fue una fundación de tipo oficial, como lo fueron en el

(34) DT, VIII, nº99 y 132; Ibn al-Jatīb, *Iḥāṭa*, II, El Cairo, 1974, p. 227.

(35) «Sabta muslima», *Al-Manāḥil*, 22 (1982), p. 131.

(36) «Abū l-Ḥasan al-Gāfiqī al-Šārri», *Al-Manāḥil*, 24 (1982), pp. 310-11.

(37) DT, VIII, pp. 197-200; Ibn al-Zubayr, *Šilat al-Šila*, ed. Lévi-Provençal, Rabat, 1936, p. 152; Ibn al-Jatīb, *Iḥāṭa*, IV, p. 188; al-Anṣārī, *Ijtisār al-ajbār*, apud J. Vallvé, «Descripción», p. 413.

(38) Lathām, «The rise», p. 269.

(39) De la fecha de construcción de la Madrasa *Šammāʿiyya* sólo se puede decir que tuvo lugar durante el reinado de Abū Zakariyāʾ, del 30 junio 1228 (24 *raʿab* 625) al 2 octubre 1249 (22 *ḡumāda* II 647). Véase R. Brunschwig, «quelques remarques historiques sur les mēdersas de Tunisie», *Revue Tunisienne*, 6 (1931), p. 264; L. Golvin «Quelques reflexiones sur la Fondation d'une Madrasa a Grenade en 750. 1349», Actes del XII congreso de la U.E.A.I. (Málaga 1984), Madrid, 1986, pág. 305.

Magreb las *madrasas* hafsíes y benimerines, sino que se fundó de manera privada del mismo modo que la primera *madrasa* construida en suelo *naṣrī* ; la *madrasa* de Abū<sup>c</sup>Abd Allāh al-Ṣāḥilī en Málaga<sup>(40)</sup>.

---

(40) Véase M. J. Rubiera, «Datos sobre una «Madrassa» en Málaga anterior a la Naṣrī de Granada», *Al-Andalus*, XXXV (1970), pp. 223-6.



## **Ceuta en las relaciones Hispano-Marroquies de los siglos XVI y XVII**

**Rodolfo Gil GRIMAU**

Es evidente que la Historia no se divide en segmentos, ni siquiera articulados como los de un invertebrado, sino que es más bien un mazo continuo de hilos entrecruzados, yuxtapuestos o tejidos entre sí, formando un todo en el que acción y reacción se suceden e intercambian su papel. Sin embargo, hay unas fechas escuetas e importantes, respecto a las dos ciudades de Ceuta y Melilla, que son inevitables de recordar : en 1415, como ya es sabido, Ceuta es conquistada por los portugueses ; en 1497 lo es Melilla a cargo de Pedro de Estopiñán, por cuenta del Duque de Medina Sidonia ; en 1556, la casa de Medina Sidonia cede todos sus derechos a la Corona sobre esta ciudad ; en 1578, el Rey Sebastián de Portugal es derrotado y muerto en la batalla de Wādī Al-Mājazín y, tras de algún tiempo, este Reino se incorpora a la Corona de Felipe II, con lo que Ceuta pasa a formar parte del reino unido hispanoportugués ; en 1640, Portugal se separa de la Corona española, pero Ceuta, por manifiesto deseo de sus nobles hispano-portugueses, continúa adscrita a la Corona Española de Felipe IV.

Pasemos a los puntos de enfoque, que son puntos humanos y puntos de la política de unos reinos, que fueron todo menos estáticos o estables y monolíticos. La inevitable cortedad de las palabras que van a seguir no me permite extenderme en la explicación personal de estos que yo considero puntos de enfoque ; pero baste numerarlos y su propia enumeración va a constituir el texto de mis palabras.

Por lo pronto, yo rechazo como planteamiento inicial la dicotomía entre cristianos y musulmanes, y los enfretamientos por causa de religión. En cierto modo, tengo tendencia a rechazar también, como norma de base, el planteamiento de una política de Estados, firmemente calculada y llevada a cabo hacia unos intereses predeterminados de tipo económico, del tipo anteriormente dicho religioso, o de carácter defensivo. Es cierto que, en todo este flujo y reflujo alrededor del Estrecho de Gibraltar, la razón fundamental del mismo es el propio Estrecho ; lo que éste significa para la vida y el desarrollo

de las sociedades que están asentadas directamente sobre él, o que lo tienen como objetivo preferencial de su política exterior.

El imperio almohade que, junto con su inmediato antecesor el almorávide, había sido la expresión de unas reformas religiosas depuradoras en el Islám occidental, se convierte en una estructura estatal tan llena de compromisos peninsulares, mediterráneos y europeos, como los de los Reinos de Taifas en cuanto a la Península, o la del Califato Cordobés en lo que resta. Más va a ocurrir, en cuanto a compromisos, influencias e interdependencias, con los meriníes, que entran en la Historia sin una justificación religiosa que llevarse a la boca permitaseme la expresión-. Meriníes y wattasíes, primos hermanos entre sí por pertenecer al grupo irruptor zenete, carecen de toda ideología dinámica que justifique su expansión : la expansión de los meriníes ; su sucesión : la de los wattasíes. Ambas dinastías nos interesan y son nuestro primer punto de enfoque. Ya en los comienzos de la sublevación meriní, la milicia cristiana al servicio de los almohades, se pasa a aquellos en el combate de Guersíf, y contribuye a la creación del reino inicial meriní con capital en Fez. Con el primer gran soberano de esta dinastía, Abū Yūsuf Ya ʿqūb, un príncipe y un contingente meriníes procedentes de Alcazarquivir se pasan al rey nazarí de Granada ; produciéndose así la primera ósmosis de la conchaba, o ajustes y regateos políticos, que va a haber entre los meriníes, Granada y Castilla ; y otro príncipe meriní, rebelde a su vez contra su soberano, se hace ayudar y luego saquear por comerciantes cristianos españoles, en Salé, en ese mismo momento histórico. Vuelvo a repetir -como ya se ha dicho muchas veces- que los meriníes no son ni restauradores religiosos, ni descendientes del Profeta ; pero que al ser los herederos de los almohades sin contar con su prestigio ideológico, se ven obligados a hacer una política islámica forzada, que ira' a contrapelo de sus recursos y que carecerá en parte de una justificación de época. Ser los defensores del Islam andaluz, no teniendo la colaboración entusiasta de los propios andalusíes, obliga a toda clase de componendas tácticas ; y en estas componendas se ve el deseo de los granadinos por controlar al reino meriní, y la atención de Castilla y Portugal por controlar el comercio africano procedente de Marruecos. No debemos olvidar tampoco que, en estas época, los árabes Banū Hilāl y Maqīl han invadido el campo marroquí y han obligado, entre otros fenómenos, a que las estructuras bereberes se cierren en autonomías por reacción y por defensa ; poniendo así de manifiesto la debilidad interna del majzen meriní y acentuando su carácter urbano reducido a algunas ciudades ; en donde la influencia administrativa, cultural, etc, de los granadinos - o de los andalusíes - y de los hispanos en general cobra mayor importancia.

Los meriníes no ayudan a Granada en su constitución como reino nazarí, frente a la fuerza y la imposición de Castilla. Los nazaries, infeudados, a su vez, a Castilla, permitirán que los meriníes utilicen y ocupen una parte de la Andalucía del Estrecho para sus campañas de gran reino islámico ; pero al mismo tiempo irán comiéndoles el terreno. Se producen las alianzas de Castilla, el Reino de Tlemsem y Granada contra Abū Yūsuf Ya ʿqūb ; al tiempo que,

históricamente, se producen también las cuatro expediciones de este meriní, aliado con Granada, en contra de Alfonso X y Sancho. E igualmente, en la marea y contramarea de las alianzas, los nazaries, apoyando al emir Utmān, pretendiente meriní refugiado entre ellos, ocupan la ciudad de Ceuta ; que es la gran base naval de todo este periodo. El proceso histórico prosigue bajo Abū Ya<sup>C</sup>qūb Yūsuf, sucesor del anterior, con quien los merinies pierden Tarifa ; y con el gran rey Abū-l-Hasan que fortifica Ceuta (por un tiempo Convertida en plaza independiente, al amparo del apoyo nazari) y Gibraltar, reconquistada con la ayuda dal nazari Muḥammad IV ; y que fracasa en el sitio de Tarifa, llevado a cabo con la presencia y la colaboración de los Infantes castellanos, frente al denuedo de Guzmán el Bueno, que, por su parte, había combatido junto a los merinies antes. Abu-l-Hasan sufre la derrota del Río Salado, en contra de castellanos y portugueses ; y más tarde pierde Algeciras, en perjuicio del control del Estrecho. Este soberano se dedica, entonces, a la política norteafricana y a ser el rey de todas las fracciones zenetes ; cosa que consigue, para después sufrir un gran quebranto por exceso de esfuerzo y de dispersión. Tras la rápida muerte de su sucesor, la estructura estatal meriní entra en descomposición ; los granadinos, sobre todo con el nazari Muḥammad V, intervienen del modo más descarado y efectivo en la corte meriní de Fez ; y, en cierto modo, tratan de invertir los papeles precedentes ; pero Granada es un reino dependiente de las presiones de Castilla y de la política europea de la Guerra de los Cien Años, con lo cual se consigue que sea esta política europea la que presione en el reino meriní. Y, por otro lado, en medio de la descomposición, son los burócratas del majzen, especialmente los visires waṭṭasies, los que acaban por gobernar el reino.

En 1415, Portugal asoma del todo a este escenario de confluencias y conquista Ceuta. Por su parte, Granada se inhibe cada vez más de la política marroquí, y los visires waṭṭasies, como luego los soberanos waṭṭasies, dejan de apoyar a Granada ; quizás como reacción por los fallos y las traiciones granadinas, avisperos. ambos reinos, de luchas internas y de debilidad. En 1437 los portugueses fracasan en su intento de apoderarse de Tánger, y los merinies, a través del regente waṭṭasí y sus aliados, fracasan en el suyo de recuperar Ceuta. Sin embargo, en 1471, los portugueses se apoderan de Arcila y Tánger, mientras que el primer soberano waṭṭasí, Muḥammad Al-Šayj, hasta hacía poco señor de Arcila, inaugura la dinastía de este nombre, surgida en la fermentada cocina zenete.

Los soberanos waṭṭasies no han contribuido en nada a la defensa del Reino de Granada, cuando éste va siendo conquistado por Isabel de Castilla y Fernando de Aragón. Mientras tanto, las plazas expugnadas por los portugueses se mantienen en un equilibrio cómodo, gracias a treguas, paces y tributos con el entorno, hasta que los jefes de guerra musulmanes -como Sīdī al-Mandrī en Tetuán, o Mawlāy ʿAlī ben Rašīd en Xauen- no empiezan un hostigamiento en serio contra ellas. En efecto, el anterior empeño meriní de pasar por campeones del Islam, unido a la anquilosada herencia waṭṭasí y a la posterid



debilidad sa'adí son los que potencian y permiten el fenómeno de los jefes de guerra y el impulso morabítico. Hay un abandono de las fronteras por parte de los sultanes wattasíes. Las plazas expugnadas persisten no sólo por causa de la debilidad de wattasíes y sa'adíes, sino también porque los soberanos de estas dinastías mantienen ese statu quo, con el fin de tener esas plazas como puntos de apoyo y llamada de ayuda para sus problemas sucesorios internos. La reconquista se la dejan, junto con el hostigamiento y la presión a los periféricos. Y estos periféricos son, en buena parte, andalusíes o fuertemente influenciados por el último Andalus. Al-Mandri, es como todo el mundo sabe, un oficial del reino granadino inmigraba Tetuán, con otros compatriotas, antes de la caída de Granada. Son ellos los que repueblan y reconstruyen la ciudad. Ellos serán los campeones de la resistencia en el norte, en forma casi independiente del poder wattasí central. Al-Mandri se casa con Sayida al-Horra, hija de Mawlay Ben Rašid y de Zahra, una morisca de Vejer.

Entretanto el mundo ha cambiado. Este es un segundo punto de enfoque. El mundo verdaderamente ha cambiado ; se han producido las crisis de unos procesos socioeconómicos y culturales iniciados mucho tiempo atrás. Los otomanos han llegado a crear una gran potencia islámica, de corte moderno, expansiva hacia el Mediterráneo y hacia Europa, que controla lo que hasta entonces fuera principal curso económico del viejo mundo : la ruta comercial de la India. Los portugueses avanzan en su exploración de la costa africana y acaban por encontrar, a través suya, una nueva ruta de India ; por la que desviarán buena parte de aquel río económico, en perjuicio de los otomanos y de quienes, mal que bien, como los venecianos, son sus clientes. Otros países occidentales acabarán por sustituirles, a su vez, en esta vía. Además, junto con los castellanos y otros peninsulares, los mismos portugueses hallan el modo de alternar la ruta occidental del oro, que pasaba por Marruecos, por la propia marítima a partir de Africa negra ; y los intermediarios, que eran Marruecos y Granada, ven mermados su función y sus recursos ; su utilidad internacional. Y lo que es más importante : se descubre y se coloniza América. Caudales de riqueza y de horizonte se vierten de una vez en la Europa cristiana, y se canalizan, principalmente, a través de la Península Ibérica. Los reinos peninsulares se han transformado en imperios ; uno, el español, formado por varios reinos, con movimiento centrípeto forzado, en imperio de carácter europeo y transmarino ; otro, el portugués, de carácter transmarino. La administración wattasí, el majzen sa'adí que la sigue, son, por el contrario, parcelas de poder con movimiento centrífugo ; en donde toda posibilidad o contenido de imperio activo han desaparecido por el momento. Hay otro imperio islámico, el turco, que se reclama como defensor de la fe y que amenaza, incluso, con avasallar Marruecos. Los reinos y Estados cristianos son más fuertes que nunca ; empezando por los dos más próximos, que hacen oficio de gigantes. Se impone la modernización del majzen, del ejército, de los objetivos a cumplir en política exterior e interior. Pesa el fenómeno de las cofradías y de los morabitos, de los jefes islámicos de guerra que, sin embargo,



han sido los únicos en oponerse a la penetración exterior, especialmente portuguesa. Y, además, como elemento extraño y cargado de muchas connotaciones, sobreviene la presencia morisca ; el arriscamiento y la rabia -con la morriña- de quienes han sido obligados a abandonar sus tierras por causa de fe.

En el testamento de Isabel de Castilla se dice : «e ruego e mando a la Princesa, mi hija y al Príncipe, su marido, que sean muy obedientes a los mandamientos de la Santa Madre la Iglesia, e protectores e defensores della, como son obligados, e que no cesen de la conquista de Africa o de puñar por la fe contra los infieles...». La fe de un lado y la fe de otro : en principio, parece haberse agravado el enfrentamiento dicotómico de las ideologías religiosas. La pugna recomendada por la reina intenta llevarla a cabo el cardenal Cisneros, que, de 1505 a 1510 más o menos, hace ocupar Mars al-Kibir (Mazalquivir), El Peñón de Vélez, Orán, Bujía, La Goleta, Túnez y Trípoli. La toma de Melilla, anterior a éstas, entra en la misma tónica de inercia consecuente a la conquista del Reino de Granada. Parecía evidente, según esta óptica histórica, que «la mejor manera de asegurar la conquista granadina (...) era la de continuar la acción militar más allá del Estrecho» ; y que ésta era la «tesis geopolítica (...) del salto a la otra orilla»<sup>(1)</sup>. Hay quien ha dicho, y es tesis muy corrida entre historiadores y africanistas españoles de los siglos XIX y XX, que «tan magnífica posibilidad de extensión en Africa no sabría ser aprovechada. Realmente, y por causas fatales, España se desviaba de su verdadera ruta. De una parte, el descubrimiento y conquista de América, desviando hacia el Nuevo Continente las actividades españolas (...), la satisfacción de las ansias de ideales (...), y de otro, la política europea que inauguraban los Austrias, extranjeros en España, no dedicando a sus asuntos una atención primordial»<sup>(2)</sup>. Concluyen estos mismos pensando que los Austrias se desinteresarán de Africa, «aceptando las acontecimientos como una fatalidad»<sup>(3)</sup> ; practicando una política defensiva y, finalmente, abandonista.

¿Pero es cierto todo esto ? . Pensar lo que hubiese podido producirse si España no se hubiera vertido en América, y sí dedicado al Mediterráneo sur, es pura política-ficción e historia fantástica. En la que, de todas maneras, habría que contar con el muro en movimiento del imperio otomano y de los intereses de las restantes potencias europeas. Lo cierto es que la gente traba alianzas frente al turco ; a la potencia turca hay que oponerle otra potencia de cara, que en principio va a ser la española. Los turcos son el elemento nuevo puesto en uno de los platillos del equilibrio que hasta entonces ha sido bajomedieval. Ahora se trata de reestructurar el equilibrio, a base de una dialéctica de dos contrarios

---

(1) MENENDEZ PIDAL, R.- Historia de España, vol. XVII, p. 709.

(2) HERNANDEZ DE HERRERA, C., Y GARCIA FIGUERAS, T. *Acción de España en Marruecos*, Madrid, 1929, p. 4.

(3) *Ibíd.*

a gran escala ; y esta va a ser un tanto la norma que perdurará hasta nuestros días.

En Marruecos, los waṭṭasíes dejan paso a los saʿadíes a partir de 1554 ; si bien es cierto que, ya en 1511, y luego, en 1523, los saʿadíes se han manifestado como grandes jefes religiosos de guerra, en el Sus, en lucha contra los portugueses, y se han apoderado de Marrakech fundando reino aparte. La nueva dinastía es de origen **sarīf**, es decir árabe descendiente del Profeta ; y viene apoyada por su prestigio religioso inherente, y por el movimiento de las cofradías místicas que, en el mundo islámico, y en Marruecos en particular, cobra durante estos siglos una importancia radical ; sobre todo como movilización espiritual y humana en contra del dinamismo europeo al que, ahora sí, tiende a confundirse con la agresividad cristiana. A la llegada de los saʿadíes terminan las dinastías bereberes, que habían gobernado a partir de los almorávides, luego almohades, benimerines y waṭṭasíes. Pero ya desde sus comienzos, y mientras van conquistando Marruecos, los saʿadíes, y a su cabeza Muḥammad al-Šayj al-Mahdī, entran en conflicto con los turcos en Argelia que apoyan las pretensiones de los últimos waṭṭasíes, como pretexto para sojuzgar Marruecos y con él la frontera sur de Europa. Muḥammad al-Šayj al-Mahdī establece una alianza con el imperio español, en contra de los turcos y a través del gobernador de Orán. Los resultados militares no son excesivamente buenos, y el mismo Muḥammad al-Šayj al Mahdī es asesinado por un oficial turco que había fingido pasarse a su bando. El sucesor de Muḥammad al-Šayj es su hijo Mawlāy Abd allāh al-Gālib bi-llāh, que, ante la presión turca, más dispuesta que nunca a invadir Marruecos, afianza su alianza con el imperio español -en este caso con Felipe II- le entrega Vélez, frente a la costa rifeña, y opera de consuno con las fuerzas españolas para reducir la actividad de los corsarios de Río Martíl, apoyados por el casi independiente gobernante de Xauen. Pero prácticamente no mueve un dedo para ayudar a los moriscos granadinos, sublevados en la Guerra de las Alpujarras contra Felipe II. Parece posible incluso que : al margen de su alianza con el soberano de la casa de Austria, el rey saʿadí cuente con que, al fin de su sublevación, los moriscos sean deportados hacia Marruecos para constituir unidades militares modernas y repoblar la costa norte. Los turcos, sin embargo, sí intentan ayudar a los moriscos granadinos a partir de Argelia, entanto que, en el Oranesado, son las fuerzas españolas las que por los mismos años operan de cara a los turcos apoyando a sus aliados kabilas, enemigos de aquellos.

Sin embargo, tres hermanos de Mawlay ʿAbd Allāh se han pasado a los turcos. Uno de ellos muere, y los dos restantes, Mawlay ʿAbd al-Malik y Mawlāy Abū-l-ʿAbbās Aḥmad, se refugian cerca de la Sublime Puerta. Es la propia mecánica de los últimos majzen, tanto waṭṭasí como saʿadí, con sus conspiraciones palatinas y su falta de cohesión y exceso de egoismos ambiciosos, a que, unida a los estímulos venidos de afuera -de la Europa cristiana o del Turco- crea la disgregación interna, contenida a base de presión fiscal, de tropa y de las alianzas antes dichas. Cuando muere Mawlāy ʿAbd Allāh y le sucede



su hijo Sidi Muḥammad al-Mutawakkil al-Maslūj, aquellos dos príncipes, tíos suyos -que habían participado activamente en los ejércitos turcos e incluso uno de ellos, ʿAbd al-Malik, en la recuperación de la famosa plaza de la Goleta a los españoles- penetran en Marruecos con una columna turca y ʿAbd al-Malik entra en Fez tras de la defección de las tropas moriscas, o renegadas, que se pasan a su bando. Sidi Muḥammad al-Mutawakkil termina por huir a España, y de España a Portugal en busca de apoyo. Y aquí es donde un factor político renovado, no tan sorprendente e improvisado como ha podido parecer en principio, entra en liza : los deseos de un rey portugués, y en buena parte de Portugal mismo, por cobrar un protagonismo europeo en el dilatado conflicto mediterráneo, norteafricano, económico e ideológico, que está en juego. Tanto más cuanto que el imperio español, aunque no da síntomas de debilidad, tampoco los da de dinamismo ; y que Francia e Inglaterra ya intervienen en el juego, prefigurando su papel de potencias que será su futuro.

De modo que, en 1578, se produce la batalla de Wādī al-Majāzin, o de los Tres Reyes, en la que los portugueses -con algunos efectivos españoles- son totalmente derrotados ; y mueren don Sebastián de Portugal, Sidi Muḥammad al-Mutawakkil y el propio ʿAbd al-Malik. Es Mawlāy Abū-l-ʿAbbās Aḥmad, desde entonces llamado Al-Mansūr, el que aprovecha del triunfo para reforzar su política y la del majzen saʿadí. Su reinado será el más largo e importante de esta dinastía.- La Corona Española, lo mismo que la francesa y el Turco, felicitan al nuevo soberano por la resonada victoria.

Las consecuencias son para Portugal y España, principalmente. De todos es sabido que se crea un problema sucesorio importante, en el que, tras de algún tiempo y algún conflicto, termina por ganar Felipe II ; a cuya Corona se incorporan Portugal y su imperio. A raíz de la batalla de Wādī al-Majāzin, Ceuta, hasta entonces totalmente portuguesa, se excusa de no asistir a su rey en la empresa marroquí. A partir de la batalla, tanto esta ciudad como las restantes plazas portuguesas de la costa acogen con alivio el ofrecimiento de apoyo que les brinda Felipe II. La ciudad de Ceuta empieza su andadura hispanoportuguesa, durante la cual apenas habrá episodios de verdadera importancia, salvo lo meramente local, hasta 1640 en que, rota la unión de las Coronas ibéricas, la ciudad opta por la adscripción al trono de Felipe IV.

En cuanto a Melilla, siempre en el vaivén del juego político de entonces, incluso entre aliados frente a amenazas comunes mayores, la plaza sirve por un momento de refugio a un pretendiente contrario a Abū-l-ʿAbbās Aḥmad. Se trata de Al-Nāṣir, príncipe saʿadí también, que era hermano de Sidi Muḥammad al-Mutawakkil, encarcelado por éste y libertado por ʿAbd al-Malik. Este príncipe terminó por refugiarse en España, de donde pasó a Melilla y desde aquí a Marruecos, logrando alzar una sublevación que fue por un tiempo victoriosa hasta ser derrotado y morir.

Un tercer punto de enfoque a no olvidar, en estos períodos de los que estoy hablando, son los moriscos. Ya he aludido a ellos varias veces ; son la última

contribución andalusí unida a una cierta aportación hispana, moderna y postrenacentista. Los moriscos son el último refugio esperanzado de Al-Andalus, cuya influencia y cuya actividad en el reino sa'adí completa la que ya habían ejercido los andalusíes en general a lo largo de los períodos anteriores ; y los granadinos en el período inmediatamente precedente. Pero son unos andalusíes sin base de retaguardia ; su labor, que está llena de fermentos útiles, también lo está de rupturas con la tierra de origen y la tierra de asilo. La periferia del reino sa'adí, al ser lugar preferente de asiento para las comunidades de moriscos-renegados, y al estar sometida al inevitable trasvase osmótico de las plazas hispanoportuguesas, experimenta una cierta hispanización. Evidente en el caso de los hornacheros y los andaluces de Rabat, con su república morisca ; tal vez menos evidente, por estar arropada en las emigraciones granadinas anteriores, en el caso de Tetuán, de chauen, de otras ciudades. Con estos últimos moriscos, que han venido a Marruecos tras de la Geurra de las Alpujarras, a la expulsión de Hornachos y con los edictos generales de expulsión del siglo XVII, la hispanización que ellos traen consigo es la postrera forma del andalusismo. Pero la postrera, sin posibilidades de renovación, como había ido ocurriendo ola tras ola de las influencias nadalusíes. En la batalla de Wādī al-Majāzin interviene del modo más eficaz, del lado de 'Abd al-Malik. Son tropas modernas, parte de las cuales, como es conocido, serán las que protagonicen la expedición subsahariana hacia el reino negro de los soberanos Askia ; en un intento no fructífero de resucitar el viejo camino medieval del oro occidental. Pero los moriscos de entonces son también gentes inquietas ; siempre atentas a la posibilidad de conspiraciones internas y externas, éstas últimas son el propósito de retornar a España, por la fuerza de las armas (con el concurso inglés, por ejemplo), o por la vía de los favores y las alianzas (con la Administración de Felipe IV, por ejemplo). Finalmente, al no conseguir lo uno ni lo otro, lógicamente su empeño y presencia activas se irán agotando.

A la muerte de Abū-l-'Abbās Aḥmad al-Mansūr, los sa'adíes se dividen en luchas internas del mismo modo, y aún más, que lo habían hecho los meriníes y los waṭṭasíes. El apoyo turco y el español a los distintos pretendientes, las luchas entre andalusíes y otros grupos constitutivos del reino, la anarquía y hasta el bandidismo, cuando no la virtual independencia de muchas ciudades y zonas, precipitan la destrucción de su majzen. Serán los jefes de guerra religiosos, grandes **Muṣāhidīn** en buena parte influidos de un modo u otro por moriscos y andaluces, como Al-'Ayaṣī o Muḥammad al-Ḥaṣṣī, los que sostengan la lucha contra el exterior o traten de recomponer parte del interior. Pero las que acabarán por imponerse habrán de ser los alawitas, o filaliyín, árabes de origen **sarīf**, descendientes del Profeta, que, como Mawlāy al-Šarīf, Mawlāy Muḥammad y Mawlāy Rašīd, especialmente éste último, conquistan y pacifican Marruecos e inauguran una dinastía nueva. El sucesor de Mawlāy Rašīd, su hermano Mawlāy Ismā'īl es el reconstructor de un reino renaciente -por lo menos hasta donde sus posibilidades de acción le permitieron alcanzar- y modernizante provisto de una activa política exterior. En lo militar y en lo



que respecta a Ceuta, Mawlay Ismā'il la hizo asedir, sin llegar a expugnarla. Pero su labor principal estuvo vertida al contenido interno del país. Tras de su muerte, la Historia posterior, la de sus sucesores a finales del siglo XVII, y la del XVIII, pertenece ya a un capítulo que no me corresponde tratar aquí, cuya exploración histórica está siendo, y ha sido, hecha del modo objetivo que cumple a la época en que vivimos y a la veracidad del juicio en que nos movemos.



## La cuestión de Ceuta en la problemática del estrecho durante el siglo XX

José U. MARTINEZ CARRERAS

Universidad Complutense. Madrid

La historia de la relaciones entre España y Marruecos durante el siglo XX, en cuyo marco se encuadra la cuestión de Ceuta, así como la de Melilla, ha pasado por muy diversas y controvertidas fases motivado tanto por los sucesivos planteamientos y momentos históricos, entre los que destaca la época de la acción colonial, como por las nuevas perspectivas políticas y económicas producidas desde mediados de este siglo, en especial desde la independencia del reino marroquí. En este sentido se pueden distinguir claramente dos grandes períodos :

- a) el primero, desde comienzos del siglo, con los inicios de la acción colonial en 1902 y el desarrollo de esta, hasta el final del Protectorado en 1956 ; y
- b) el segundo, desde la independencia marroquí en 1956 hasta nuestros días, con el establecimiento de unas nuevas relaciones entre dos Estados independientes y soberanos.

En relación con el primer periodo, y como señala J. Ma. JOVER, a comienzos del siglo XX Marruecos pasa a un primer plano de las relaciones internacionales y va a ser objeto de atención preferente tanto por las potencias colonialistas europeas como para la acción exterior de España. Este hecho se debe a la acción conjunta de una serie de factores como son : completar el reparto de Africa realizado tras la Conferencia de Berlín (1884-85) con el reparto de Africa del Norte, donde ya están presentes Francia en Argelia, Tunes y el Sahara, y Gran Bretaña en Egipto y el Nilo, además del deseo de Alemania de participar en los asuntos de la región ; y el despliegue de los diversos intereses europeos en Marruecos : económicos y financieros, así como estratégicos y políticos.

España actúa movida también por varias razones : un tradicional y algo retórico africanismo, su presencia histórica en Ceuta y Melilla, la pérdida de las últimas colonias ultramarinas que lleva a una reorientación de los intereses coloniales españoles hacia Africa, y el intento de salir del aislamiento internacional precedente. También G. DE REPARAZ, A. MOUSSET, J. Ma.

CAMPOAMOR, V. MORALES, entre otros, han tratado sobre la problemática de las relaciones hispano-marroquíes durante este período.

De esta forma, la acción española sobre Marruecos a lo largo de esta época se puede estructurar en tres fases :

a) La primera, entre 1902 y 1912 es la fase diplomática, con negociaciones y acuerdos internacionales, que establecen el marco político-diplomático de la acción española ;

b) La segunda, de 1909 a 1927, es la fase militar con las sucesivas campañas, la guerra y la ocupación del Rif por parte de España ; y

c) La tercera, desde 1927 hasta 1956, es la fase de establecimiento del Protectorado y la colonización, en sus diferentes momentos correspondientes a los sucesivos avatares de la política interna española ; monarquía, república y franquismo.

A partir de 1956, con la independencia de Marruecos se inicia el segundo gran período antes indicado que llega hasta nuestros días y durante el que se establecen unas nuevas relaciones propias de dos Estados independientes, y que ha analizado recientemente F. MORAN.

Un aspecto central de tales relaciones, que también han pasado por diversos momentos como consecuencia de los cambios registrados en la política interior de cada nación - España : del franquismo a la nueva monarquía ; Marruecos : de Mohamed V a Hassan II - ha sido el de las sucesivas reivindicaciones marroquíes - que pueden servir de antecedentes históricos a las de Ceuta y Melilla -, hasta ahora atendidas por España, y que son :

a) En 1958, cesión del Protectorado sur, la región de Tarfaya ;

b) En 1969, cesión de Ifni ; y

c) En 1975, acuerdos de Madrid y cesión de la administración del Sahara Occidental.

Es en este amplio marco histórico en el que hay que plantear la cuestión de Ceuta.

### **La actitud de España**

El interés histórico de España, y de Portugal, por el norte de Africa se remonta al siglo XV, aunque pronto quedó relegado a un segundo plano ante el incentivo de los grandes viajes ultramarinos, hacia las Indias asiáticas y América. La realización de los viajes portugueses a través de las costas atlántica e indica de Africa hacia las Indias, y de los españoles por el Atlántico hacia América, utilizando las islas Canarias como escala de paso hacia Ultramar y no hacia Africa, durante los siglos del XV al XVIII, motivó que el norte de Africa, a pesar de encontrarse tan próximo a Europa, quedara algo olvidado en los planes de expansión colonial tanto de portugueses como de españoles.



No obstante, la atención hacia esa región del norte de África se mantuvo presente, como se ha indicado, desde el siglo XV, a pesar de ese despalazamiento, en función de unos determinados intereses y necesidades de los países ibéricos : la estabilidad de las rutas comerciales mediterráneas, la seguridad de las poblaciones costeras, la defensa contra los piratas berberiscos, y más adelante, la oposición a la expansión otomana por el Mediterráneo fue lo que llevó, entre otros factores, a Portugal y España a ir conquistando los puertos del norte de África, aunque sin penetrar en el interior.

Así, entre los que ahora nos interesan, en agosto de 1415 el príncipe D. Enrique el Navegante de Portugal ocupó Ceuta, bajo el reinado de D. Juan I, provocándose una guerra en 1437 entre los portugueses y el reino de Fez, pronto superada por un acuerdo de paz. Y en 1497 se produjo la conquista de Melilla, debida a la iniciativa particular, pero respaldada por Castilla bajo el reinado de los Reyes Católicos. La política norteafricana de España tenía una doble motivación : comercial y político-estratégica. Y pronto fueron incorporados otros enclaves norteafricanos a la soberanía española como, entre ellos, el Peñón de Vellez de la Gomera en 1508.

Esta situación se mantuvo sin grandes cambios hasta mediados del siglo XVII. Durante el XVI la cuestión de las plazas norteafricanas fue vinculada por los soberanos españoles con el problema de los moriscos, así como con la rivalidad hispano-turca del momento. En 1640 al separarse las coronas de España y Portugal - unidas desde 1581 - Ceuta quedó vinculada a España, siendo cedida en el reparto a la soberanía de Felipe IV. Por el tratado hispano-portugués de febrero de 1668, que consagró la separación, se ratificó la cesión en su artículo 2, y en mayo de ese año la ciudad de Ceuta quedó incorporada al reino español. De esta forma, y desde entonces, los dos principales puertos norteafricanos de esa región del Maghreb : Ceuta y Melilla, habían quedado definitivamente bajo la soberanía de España.

A lo largo del siglo XVIII la cuestión fue replanteada. EN sus comieonzos, el sultán marroquí Mulay Ismail puso un sitio de varios años de Ceuta<sup>(\*)</sup> Más adelante, siendo rey de España Carlos III desde 1759, se impuso decididamente en Madrid la idea de conseguir la paz con Marruecos y superar las diferencias seculares que habían enfrentado a ambos países, coincidiendo en este intento con el sultán marroquí Mohamed ben Abdalá. Se inician entonces conversaciones, en las que participa Diego Osorio, gobernador de Ceuta, con intercambios de misiones diplomáticas y el establecimiento de negociaciones que llevan a la preparación del primer tratado de paz y comercio entre España y Marruecos en mayo de 1767, sin concesiones sobre Ceuta y Melilla. Con Floridablanca en el gobierno desde 1776 se reanudan las negociaciones que llevan a la formulación del Tratado de 1782, y después al de Mequinez en 1799, ya en el reinado de Carlos IV, con ampliación de terreno adicional en Ceuta y Melilla.

A mediados del siglo XIX, cuando se plantea el reparto de África, España

empieza a renovar su interés por ese continente : desde fines del siglo XVIII ha adquirido en virtud de unos tratados firmados con Portugal derechos de soberanía en Guinea Ecuatorial, y se interesa igualmente por el Sahara Occidental y el norte de Africa. Sobre esta región, las Cortes del Reino, en mayo de 1863, conceden el régimen de puertos francos, lo que fue un estímulo para su desarrollo, a Ceuta, Melilla y las islas Chafarinas ocupadas en 1848. Pocos años después, en 1860, estalla la llamada guerra de Marruecos, concluida por la paz de Tetuán.

A finales de este mismo siglo, como se ha indicado, la pérdida de las últimas colonias ultramarinas, hace que España renueve su vocación africanista orientada hacia las regiones antes señaladas con una nueva actitud colonialista, y en especial hacia la cuestión de Marruecos en cuyo norte contaba con los enclaves de Ceuta y Melilla como bases de acción y puntos de expansión hacia el interior marroquí, en especial desde el establecimiento del Protectorado en 1912. Este hecho colonial alteró el carácter de las relaciones hispano-marroquíes existentes hasta entonces, y más durante las fases de la conquista y la colonización posterior, situación que se ha mantenido hasta 1956.

Desde la independencia, en esta última fecha, y ante las reiteradas reivindicaciones marroquíes en favor de completar su unidad territorial nacional, las actitudes de la política exterior española han variado, según los momentos y las orientaciones seguidas en cada ocasión, habiendo sido sintetizadas por D. DEL PINO :

1. la ignorancia total de la reivindicación ;
2. la aceptación de que la reivindicación existe, pero que conviene soslayarla y menospreciarla hasta que no sea planteada formalmente ; y
3. el convencimiento de que, independientemente de la existencia de esa reclamación, los títulos históricos y jurídicos sobre ellas permiten contemplar cualquier planteamiento formal reivindicativo con optimismo.

#### **Las reivindicaciones de Marruecos**

Como también ha señalado D. DEL PINO en su reciente libro sobre **Ceuta y Melilla : la última guerra con Marruecos**, «la historia de las plazas de soberanía entre España y Marruecos perfectamente válidos, la presencia española en ellas no fue ni pacífica ni incuestionada». Si durante la época colonial Marruecos hubo de plegarse a la predominante «protección» española, desde la proclamación de su independencia en 1956 el reino marroquí ha ido planteando, siempre sobre la base de una inmutable constante histórica, y según las ocasiones y los momentos de cada coyuntura, una serie de reivindicaciones territoriales a España.

Así en junio de 1956, pocos meses después de la independencia, Allal el Fassi, del partido Istiqlal, reivindica el Gran Maghreb, que incluye todos los territorios reclamados. A fines de 1957, en declaraciones de los ministros marroquíes se

habla de las «fronteras naturales» del reino. Pronto la corona marroquí asume las reivindicaciones nacionalistas, que se convierten en objetivo del gobierno y seguidamente también en política oficial del Estado. Sucesivamente, algunas de estas reivindicaciones son conseguidas por Marruecos con cesiones territoriales por parte de España, como ya se ha indicado : en 1958 Tarfaya, en 1969 Ifni, Y en 1975 Sahara Occidental.

Pero queda pendiente y aun se mantiene la reivindicación de Ceuta, junto con la de Melilla y las islas norteafricanas, que en conjunto representan una superficie de unos 33 km<sup>2</sup>. Este conjunto reivindicado por Marruecos comprende : Ceuta - 19 km<sup>2</sup>, Melilla - 12 km<sup>2</sup> -, y las islas Chafarinas, Peñones de Alhucemas y de Vélez de la Gomera, y la isla el Perejil.

La presentación de la reivindicación marroquí ha sido dividida por D. DEL PINO en tres periodos :

1. Desde la independencia de Marruecos en 1956 hasta la cesión del Sahara Occidental en 1975 ;
2. Desde noviembre de 1975 hasta el acceso al gobierno español del Partido Socialista en octubre de 1982 ; y
3. Desde esta última fecha hasta nuestros días, con el gobierno socialista y cuando este prepara el estatuto de autonomía de Ceuta y Melilla.

Durante la primera fase, en 1961 Ceuta junto con los otros territorios norteafricanos volvieron a ser reclamados a España por Marruecos, que llevó el caso ante la Asamblea General de la O.N.U., no siendo inscrita la demanda marroquí por el Comité de los 24 hasta 1975. La argumentación de Marruecos se basa en el hecho de que con motivo de la independencia en 1956, al igual que en 1958 cuando le fue entregada Tarfaya, su país había emitido reservas sobre las partes de su territorio que aun se encontraban bajo dominación extranjera, entre ellas Ceuta. Más aún, Marruecos entendía que por la declaración conjunta hispano-marroquí de abril de 1956, sobre la independencia y unidad de Marruecos, reconocidos por España, ésta admitía por ello que seguía ocupando unas plazas que aún no había devuelto.

A partir de entonces el problema de las dos ciudades norteafricanas está siempre presente y reaparecerá en cada momento de confrontación o de negociación latente y como elemento de presión permanente. A pesar de haber presentado Marruecos en 1961 ante la O.N.U. el conjunto de su contencioso territorial con España, la década de los años sesenta no fue de confrontación hispano-marroquí, por la necesidad de tener que atender otros problemas, y sólo en 1969 fue cedido Ifni.

Desde 1975 se inicia una segunda fase en la historia de la reivindicación marroquí, en la que influyen fundamentalmente dos hechos, ocurridos ambos en noviembre de ese año : por un lado, la cesión por España de la administración del Sahara Occidental en virtud de los acuerdos de Madrid firmados con Marruecos y Mauritania, y por otro, la muerte de Franco con el final del



franquismo y la proclamación de Juan Carlos I como nuevo rey de España inaugurando así el restablecimiento de la monarquía.

Con motivo de la declaración española sobre Gibraltar, Hassan II definió la actual doctrina marroquí consistente en asociar la evolución de la descolonización de Gibraltar con la de Ceuta y Melilla, y estableciendo a partir de 1976 una analogía entre ambos casos, que en su opinión deberían evolucionar paralelamente. Esta doctrina quedó formulada así por Hassan II : «Si los ingleses restituyen Gibraltar a España, esta última deberá restituírnos Ceuta y Melilla. Mientras antes obtengan los españoles Gibraltar, antes, inmediata y automáticamente, obtendremos Ceuta y Melilla... Ninguna potencia podrá permitir que España posea las dos llaves del mismo Estrecho» (D. DEL PINO).

En 1982, con el triunfo del Partido Socialista en las elecciones generales españolas y la formación de un gobierno socialista, se inicia la última fase de esta cuestión que llega hasta nuestros días. Desde entonces el tema de Ceuta y Melilla no ha desaparecido en la tematica global de las relaciones hispano-marroquíes, aunque si ha atravesado por distintos momentos de actualidad, según la determinada coyuntura política, bien en un primer plano de la misma, o bien relegada de forma discreta a un segundo plano cuando la ocasión, según los marroquíes, así lo aconsejaba. Entre las últimas iniciativas se encuentra la propuesta formulada recientemente por el rey marroquí de organizar un «grupo de reflexión» hispano-marroquí para tratar el tema y buscar una solución. En todo caso, y como sintetiza también D. DEL PINO, la reivindicación marroquí defiende los siguientes puntos básicos :

1. la necesidad de obtener de España que admita la existencia del problema ;
2. que España considere que a largo plazo y como solución última no cabe otra alternativa que la cesión de la soberanía a Marruecos ; y
3. que existe un paralelismo entre la reivindicación española de Gibraltar y la marroquí de Ceuta y Melilla.

### **El equilibrio Ceuta-Gibraltar en el Estrecho**

Desde el punto de vista histórico, y de la forma más objetiva posible, parece que es difícil sostener, en la perspectiva política actual, que no hay relación en la situación entre Ceuta y Gibraltar dentro de la problemática internacional del Estrecho. La asociación entre las dos reivindicaciones, española sobre Gibraltar y marroquí sobre Ceuta y Melilla, parece que viene impuesta por la realidad geopolítica.

En este sentido, parece correcto el planteamiento marroquí de que cualquier evolución del problema hispano-británico sobre Gibraltar, debe llevar aparejada una evolución similar y paralela del contencioso hispano-marroquí, aunque en una reciente crónica desde Rabat de EL PAIS (13 de Julio de 1988) se dice que «no es seguro que Marruecos mantenga siempre la tesis de que la suerte de Ceuta y Melilla estará vinculada a lo que ocurra en Gibraltar».



Pero como escribe D. DEL PINO, por razones estratégicas y militares la evolución de los dos contenciosos tendrá que estar quizás algún día relacionada y supeditada a la elaboración de un proyecto político-militar global para el Estrecho, el Atlántico y el Mediterráneo.

El estudio y el análisis de la cuestión puede ser tarea de los historiadores y de los periodistas ; el planteamiento y la solución en la actualidad es labor de los políticos y los estadistas. Pero a partir de los datos existentes se pueden adelantar una serie de posibles soluciones, entre las que necesariamente una será la que se adopte con el tiempo : a) la situación actual : Gibraltar británico y Ceuta español ; b) la realización de ambas reivindicaciones : Gibraltar español y Ceuta marroquí ; y c) la realización de una sola reivindicación : Gibraltar británico y Ceuta marroquí, o Gibraltar y Ceuta españoles.

Pero parece obvio que en la cuestión en la actualidad, y en la solución que se de en el futuro influyen una serie de factores de diverso carácter : por un lado, de índole nacional por parte de los dos principales países interesados en el asunto : la situación y evolución tanto de España como de Marruecos en relación con las medidas que tomen sobre el tema y en sus repercusiones internas ; y por otro, de carácter internacional en distintos planos : el equilibrio del Estrecho, la integración del Maghreb, y la seguridad en esa parte del Atlántico y del Mediterráneo en lo que pueda afectar al marco de la OTAN.

La consideración actual de estas cuestiones pendientes, tanto sobre Ceuta como sobre Gibraltar, se puede plantear a partir de la aplicación a ambos casos de lo que podemos considerar como tres argumentos básicos y que constituyen unas razones válidas para el análisis de su realidad y la búsqueda de soluciones, sin olvidar que son reivindicaciones paralelas, que afectan ambas en conjunto al equilibrio del Estrecho, y que por tanto se encuentran relacionadas entre sí.

Estos tres argumentos básicos se pueden aplicar por igual a Ceuta y a Gibraltar, y aquí lo que se hace es sólo plantearlos sin intentar extraer unas conclusiones que no puede ser nuestro objetivo en este momento. Se pueden intentar aplicar los tres argumentos de manera conjunta combinada, o aplicar alguno de ellos con preferencia sobre los otros. Tales razones son :

1. **El argumento geográfico** : es incuestionable que desde este punto de vista Gibraltar es ibérica y europea, y Ceuta maghrebí y africana.

2. **El argumento histórico** : este argumento se puede dividir en dos tiempos dentro del conjunto del proceso histórico :

a) En un primer momento, Ceuta y Gibraltar formaban parte de unas entidades históricas que podemos llamar naturales o tradicionales.

b) En un segundo momento, y a partir de una determinada fecha en cada caso, por conquista militar o política - lo que es un incuestionable hecho configurador de la historia - Ceuta y Gibraltar pasan a pertenecer a otras nuevas entidades históricas en las que se mantienen hasta nuestros días.

La cuestión es cual de los dos momentos tiene más peso específico dentro del proceso histórico de cara a la actualidad.

3. **El argumento político** : consiste en la aplicación del principio de autodeterminación de los pueblos. Pero este argumento también tiene su réplica : al aplicarse la autodeterminación en la actualidad se haría sobre las poblaciones existentes actualmente, y siempre podría alegarse que las poblaciones naturales originales fueron desplazadas y expulsadas en su momento por los conquistadores ; el recurso a tales poblaciones originales sería muy dificultoso.

Tales argumentos serían las tres normas reguladoras a aplicar tanto a Ceuta como a Gibraltar por igual, como ya se ha indicado. Y no es correcto alegar que son válidos para un caso y no para el otro, o que incluyen modificaciones o matizaciones en alguno de los dos, pues, como también se ha señalado, ambos son semejantes y paralelos, y se encuentran en todo relacionados.

### **Las posturas actuales de los partidos políticos españoles**

El tema de Ceuta - junto con Melilla - en primer lugar, y sólo en segundo y no reconocido plenamente en su relación con Gibraltar, está siendo planteado y tratado de diversa manera por los principales partidos políticos españoles en la actualidad. Hay que tener en cuenta que cualquier tratamiento de este tipo debe hacerse en el marco de la Constitución española, y que han de ser considerados una serie de factores políticos, militares y económicos.

En primer lugar, por parte de Alianza Popular, Miguel Herrero y Rodríguez de Miñón en la publicación **Política española de paz y seguridad** (Madrid, C.de E.C., 1987), considera que el mantenimiento del *statu quo* en Ceuta y Melilla no es un interés nacional, pues «la reconocida precariedad de esta situación la hace lógica e historicamente interina». Propone distinguir y distribuir entre España, Gran Bretaña y Marruecos la soberanía territorial y personal en los tres enclaves (entre España y Gran Bretaña en Gibraltar ; entre Marruecos y España en Ceuta y Melilla) ; garantizar el autogobierno de las tres poblaciones ; asegurar la presencia militar británica en la zona ; integrar los tres territorios en la Unión Aduanera de la C.E.E. ; y ratificar, por parte de España y Marruecos, el nuevo derecho del mar, y el régimen de paso en tránsito, previsto en 1982 para Gibraltar (EL PAIS).

Por su parte, el Partido Comunista se ha mostrado recientemente en favor de promover «la desaparición de los vestigios coloniales como Ceuta, Melilla y Gibraltar». En este sentido, la superación de los problemas del Estrecho y del norte de África exigen una solución conjunta para la situación del Sahara, la reclamación marroquí sobre Ceuta y Melilla, y la reivindicación española sobre Gibraltar. En relación con las ciudades norteafricanas aboga claramente este Partido por negociar con Marruecos la retrocesión de Ceuta y Melilla, que se haría efectiva al final de un período de transición de 20 a 25 años. En este

periodo de tiempo, España pondría en marcha una serie de medidas transitorias acordadas con Marruecos, destinadas a salvaguardar los intereses legítimos de los ciudadanos españoles.

En esta dirección, el P.C.E. defiende la integración territorial de Ceuta y Melilla y de los Peñones en Marruecos, a través de unas negociaciones que establezcan el citado período de transición, adoptando España medidas transitorias como : concesión sin restricciones de la nacionalidad española o los integrantes de la comunidad musulmana que acrediten arraigo en ambas plazas ; disminución del cantonamiento de tropas ; acuerdo con Marruecos para la eliminación efectiva del contrabando, y garantías para los intereses españoles y europeos en la zona (EL PAIS, 12-X-1987 y 22-II-1988).

Por último, el Partido Socialista, en el gobierno desde 1982, ha mantenido ultimamente una posición poco clarificadora, basculando entre negar el problema con Marruecos o considerarlo exclusivamente como una cuestión de orden público. Más recientemente, y según algunas versiones (EL PAIS, 20-VII-1988 ; EL INDEPENDIENTE, 12-VIII-1988), existen contradicciones respecto a Ceuta y Melilla contenidas en el **Programa 2000**, ya que si por un lado se mantiene su españolidad a ultranza, por otro se apunta la posibilidad de una solución negociada. En la propuesta recogida en el apartado **paz y seguridad** se habla del «mantenimiento del **estatus** de estas dos ciudades, contrarrestando las propuestas diplomáticas que cuestionen dicho **estatus** y disponiendo de un dispositivo militar que disuada los intentos de alterarlo por la fuerza y lo defienda, llegado el caso». Unas páginas antes se incluye una propuesta diferente, al afirmar que el actual **estatut** de Ceuta y Melilla «es difícilmente sostenible a largo plazo, y es necesario empezar desde ahora preparar la solución más apropiada». La primera de las posturas mencionadas - la de españolidad - coincide con la posición oficial del PSOE.

En fecha más reciente (EL PAIS, 26-VII-1988 y 30-VII-1988) el gobierno ha presentado a los otros partidos políticos los anteproyectos de autonomía de Ceuta y Melilla, según los cuales ambos ciudades forman parte indisoluble de España. Ceuta accederá a su autogobierno » como parte integrante de la nación española y dentro de su indisoluble unidad». El artículo primero de ambos anteproyectos contiene la afirmación de españolidad. El Estado garantiza además la «suficiencia financiera» de ambas autonomías, y para ello, los estatutos prevén un sistema equiparable al de otras comunidades, por un plazo de cinco años, que será revisable sólo en casos restringidos.

En este sentido opina EL PAIS que la Constitución española admite la posibilidad de que Ceuta y Melilla se constituyan en comunidades autónomas si así lo deciden por mayoría absoluta sus respectivos ayuntamientos y si las Cortes generales autorizan la propuesta mediante ley orgánica. Los ayuntamientos ceutí y melillense reclamaron oficialmente la autonomía en 1981, pero tanto el gobierno de U.C.D. de la época como los posteriores gobiernos socialistas han mostrado sumo tacto a la hora de dar luz verde a proyectos



que pudieran bloquear en el futuro una salida razonable al contencioso que España y Marruecos mantienen sobre estas plazas. Nada impide que estas dos ciudades se organicen, como los otros territorios del Estado, de acuerdo a la estructura autonómica reconocida por la Constitución.

Los estatutos deberían tender a organizar la actividad política, administrativa y municipal de las dos ciudades de acuerdo con las pautas vigentes en el resto del Estado y reforzar los lazos económicos, sociales y culturales con España. Al mismo tiempo pueden servir para prever eventuales salidas negociadas a las previsibles y repetidas crisis que se planteen en este punto con Marruecos.

Como la historia ha demostrado en casos parecidos, sería, ingenuo pretender dominar el futuro de ciudades o territorios sometidos a conflictos de soberanía con decisiones de tipo legal. En el supuesto de Ceuta y Melilla, su futuro mejor sólo puede ser resultado de una política inteligente, y a largo plazo, de amistad y cooperación con Marruecos, de una visión menos localista del problema y de una aceptación de su dimensión internacional (EL PAIS, 12-X-1987 y 30-VII-1988).

Por último, estos anteproyectos de estatutos de autonomía para Ceuta y Melilla excluyen las islas y peñones de soberanía española en el norte de África ; tal exclusión afecta a las islas Chafarinas, los peñones de Alhucemas y de Vélez de la Gomera y la isla del Perejil (EL PAIS, I-VIII-1988).

## **Bibliografía**

- Jerónimo BECKER : «España y Marruecos : sus relaciones diplomáticas durante el siglo XIX». Madrid, 1903.
- José Ma. CAMPOAMOR : «la actitud de España ante la cuestión de Marruecos (1900-1904)». Madrid, C.S.I.C., 1951.
- «Estrategia del Mediterráneo Occidental y del Magreb». Madrid, I. de C.I., 1983.
- Manuel FERNANDEZ RODRIGUEZ : «España y Marruecos en los primeros años de la Restauración (1875-1894)». Madrid, C.S.I.C., 1985.
- J. GARCIA COSSIO : «Ceuta. Historia, presente y futuro». Ayto. de Ceuta, 1975.
- M. GONZALEZ HONTORIA : «El protectorado francés en Marruecos y sus enseñanzas para la acción española». Madrid, R. de E., 1915.
- Manuel MARTIN : «El colonialismo español en Marruecos (1860-1956)». Paris, Ruedo Ibérico, 1973.
- Victor MORLES LEZCANO : «España y el Norte de Africa. El Protectorado de Marruecos (1912-1956)». Madrid, U.N.E.D., 1984.
- Fernando MORAN : «Una política exterior para España». Barcelona, Planeta, 1980.



- Alberto MOUSSET : «La política exterior de España, 1873-1918». Madrid, Bibl. Nueva, 1918.
- Domingo del PINO : «La última guerra con Marruecos : Ceuta y Melilla». Barcelona, Argos Vergara, 1983.
- Gonzalo de REPARAZ : «Política de España en Africa». Madrid, Calpe, 1924.
- Vincente RODRIGUEZ CASADO : «Política marroquí de Carlos III». Madrid, C.S.I.C., 1946.
- J.F. SALAFRANCA ORTEGA : «Melilla y Ceuta en la encrucijada de Gibraltar». Málaga, 1983.
- Julio SALOM COSTA : «España y la cuestión de Marruecos en 1881», en **Hispania**, T. XXIV, 1964.
- Gloria SOLE ROMEO : «La Conferencia de Algeciras de 1906 : una solución europea al conflicto marroquí y a la crisis internacional de 1905», en **Revista de la Universidad Complutense**, n° 116, 1979.
- D. S. WOOLMAN : «Abd el-Krim y la guerra del Rif». Barcelona, Oikos-Tau, 1971.



# Algunas puntualizaciones en torno Al Kitāb Al-Šifā, del qāḍī 'Iyāḍ

Concepcion CASTILLO

Granada

La abundancia de trabajos sobre la vida y obra del qāḍī 'Iyāḍ nos exime ahora de hacer un estudio pormenorizado de este polifacético ceutí del s. XI. Baste recordar los estudios de Ben Cherifa<sup>(1)</sup>, Warākhī<sup>(2)</sup>, Talbī<sup>(3)</sup> y Hermosilla<sup>(4)</sup>, entre otros, para hacernos una idea de la importancia que ha tenido este autor y de la popularidad con que gozaron - y gozan en la actualidad - algunas de sus obras como el famoso **Kitāb al-šifā'**.

Mi aportación a este **Encuentro** va a consistir en :

1.- Un breve estudio introductorio al **Kitāb al-šifā'** en el que se expondrá, además, una síntesis de las opiniones emitidas sobre el valor de esta obra en la historiografía medieval y contemporánea.

Y 2.- Destacar algunos aspectos de carácter escatológico, en especial, aquellos que tienen una puntual relación con la figura del Profeta y su actuación en el día de la Resurrección, basándonos, para ello, en un breve apartado del **Kitāb al-šifā'** - cuya traducción pondremos a modo de apéndice - y que compararemos con el **Kitāb šaḡarat al-yaqīn**, que es un tratado de escatología del oriental Abu l-Hasan al-Aṣ'arī del s. XII.

## 1.1.- El **Kitāb al-šifā'** : Razones que lo justifican.

Es una obra en la que se relata la vida y milagros del profeta Mahoma así como lo que Este puede o no hacer, sus derechos, leyendas que han sido puestas en boca de El, etc. Su autor, el qāḍī 'Iyāḍ (1083-1149), trata desde el punto de vista teológico la leyenda del pueblo<sup>(5)</sup>. Por esta razón goza de gran éxito y desempeña un papel importante en la piedad popular.

Este tipo de literatura acerca de la figura de Mahoma se distingue por el matiz

---

(1) Ibn 'Iyāḍ, *al-ta'rīf bi-l-Qāḍi*, ed. Muḥammad b Šarīfa, Rabat, 1974.

(2) *Al-Qāḍi 'Iyāḍ*, Mufasssīr, Rabat, 1984.

(3) *Biographies Aghlabides extraites des Madārik du Cadi 'Iyāḍ*, Tuni s, 1968.

(4) *Los maestros del Qāḍi 'Iyāḍ*, La Gunya : ed., estudio y notas, Barcelona, 1978 (Tesis doctoral inédita). Desde aquí le agradezco sinceramente que me haya dejado consultarla.

(5) Cf. Pareja, *La religiosidad musulmana*, Madrid, 1975, p. 188.

apologético en honor del Profeta y por la manera de realzarlo humanamente comparándolo incluso con los profetas anteriores.

Para hacernos una idea del amor que sentía el qāḍī 'Iyād por el Profeta recogemos una anécdota - en forma de sueño - relatada por su hijo Muḥammad<sup>(6)</sup> : «Me informó el šayj, lector y recitador del Corán, Abū 'Abd Allāh al-Aškar - Dios lo perdone - lo siguiente : Cuando vi al Profeta - Dios lo bendiga y salve - en sueños y le recité el Corán, lo veía con la forma, aspecto e indumentaria de tu padre. Se lo comenté a él y se alegró. Fue entonces cuando compuso su libro titulado : *al-šifā' fī ta'rīf ḥuqūq al-Mustafā*».

Del mismo modo, a esta obra se le conoce también, según la *Tuḥfa* de Fray Anselmo de Turmeda con el nombre de *Kitāb Ḥuṣṣyat al-Islām*<sup>(7)</sup>.

## 1.2.- Posibles antecedentes de este tipo de obras.

Parece ser que esta obra fue la primera en su género según nos lo indica Ibn Farhūn ya que refiriéndose a ella dice que sus semejantes «tampoco negaron su prioridad»<sup>(8)</sup>, es decir, que la consideraron la primera.

Sin embargo, rastreando en este tipo de obras, su origen lo podemos remontar al s. IX en el que ya se le considera a Mahoma como un ser superior a todos los hombres y con grandes cualidades<sup>(9)</sup>. En esta época, en la que ya aparecen compilaciones de dicha temática, destaca la figura de al-Yāḥiẓ (m. 867) como uno de los pioneros, en esta materia, con su obra *Kitāb al-bayān wa-l-tabayīn*. Por su contenido : discursos, sermones, referidos al Enviado, esta obra es de un valor inestimable para el estudio del ascetismo y para el conocimiento de la temática de los predicadores populares<sup>(10)</sup>. Siguieron a éstos otros estudios, corregidos y aumentados, hasta llegar a una obra del qāḍī 'Iyād titulada *Kitāb ijtišār šaraf al-Muṣṭafā*<sup>(11)</sup> que es un resumen del *Kitāb šaraf al-Muṣṭafā* de Nisabūri<sup>(12)</sup> y que tal vez sea esta última la obra en la que se basó para escribir el *Kitāb al-šifā'*.

Lo que sí podemos afirmar es que sirvió de fuente para otras posteriores.

---

(6) Cf. *Ta'rīf*, pp. 13-14.

(7) Cf. Epalza, *La tuḥfa, autobiografía y polémica islámica contra el cristianismo de 'Abdallāh al-Tarṣūman* (Fray Anselmo Turmeda) en *ATTI DELLA ACCADEMIA NAZIONALE DEL LINCEI*, Anno CCCLXVIII, 1971, v. XV, p. 486.

(8) Ibn Farhūn, *al-Dibāy' al-mudḥab li-ma'rifat a'yān al-madḥab*, El Cairo, 1932.

(9) Sobre Mahoma pueden verse Gaudefroy-Demombynes, *Mahoma*, trad. española de J. López Pérez, Mexico, 1960 ; Washington Irvins, *Mahoma*, trad. esp. P. Martínez Montavez ; J. Vernet, *Mahoma*, Madrid, 1987, entre otras.

(10) Cf. Pareja, *La religiosidad*, p. 187.

(11) Ibn Jayr, *Fahrasa*, ed. Codera y Ribera, reed. Bagdad, 1963, p. 289.

(12) Cf. Ḥayyī Jalīfā, *Kašf al-zunūn 'an asāmi al-kutub wa-l-funūn*, ed. Estambul, 1941. Reprod. en Teherán, 1967, II, 1045.



### 1.3.- Descripción del *Kitāb al-sīfā*'

Ḥāyī Jalīfā<sup>(13)</sup> hace una descripción detallada de este libro y de sus comentarios. Según él consta de cuatro partes bien diferenciadas en las que se tratan los siguientes temas :

Primera parte : De la exaltación de la más noble grandeza, de palabra y obra, del Profeta, el Elegido.

Segunda parte : De lo que es obligatorio creer a los hombres respecto a los derechos del Profeta.

Tercera parte : De lo que es obligatorio al Profeta y lo que es imposible o posible en sus derechos.

Y cuarta parte : De las diversas sentencias que pueden recaer en aquel que lo alaba o lo insulta.

Las dos primeras partes comprenden a su vez cuatro capítulos cada una y las restantes solamente dos. Todos estos capítulos se subdividen en apartados de número variable, oscilando entre los cinco y los treinta.

Esta obra ha sido objeto de numerosos comentarios siendo uno de ellos el de Muḥammad al-Samānī (m. 872 h). Se titula *Mizyāl al-jafā*' 'an *alfāz al-sīfā*'<sup>(14)</sup> y lo hemos utilizado en nuestro trabajo por no tener otro mejor a nuestro alcance porque la edición es bastante defectuosa. Está vocalizado, pero contiene errores que dificultan la traducción. Aunque comprende también cuatro partes, la última está dividida en tres capítulos a diferencia de lo que hemos dicho más arriba que constaba solamente de dos. Los apartados también difieren - aunque poco - en su número.

Como todos los de su género, el *Kitāb al-sīfā*' está escrito de una manera muy peculiar. Recoge datos que se presentan en la mayoría de los casos empezando por «nos contó», «oí», «por referencia de», etc. Después sigue una enumeración más o menos larga de personas que cuentan ese mismo relato a través de las generaciones hasta llegar a un discípulo o contemporáneo del Profeta. Estos relatos no son siempre verídicos, dependen de la autenticidad de las personas que formen esa cadena de transmisores. Por eso, en muchos casos es difícil identificar a los personajes que transmiten la anécdota o el relato, sobre todo cuando son transmitidos por la partícula 'an que indica procedencia y no autenticidad. De todas las maneras, el valor de estos textos no es precisamente el literario<sup>(15)</sup>.

### 1.4.- Valoración de esta obra

De todos es conocido la fama de que gozó esta obra no sólo en la Edad Media

(13) Ḥāyī Jalīfā, *Kaṣf* 1052 ss. Otras ediciones pueden verse en Sarkīs, *Mu'ṣam al-maṭbū'āt al-'arabiyya wa-l-mu'arraba*, El Cairo, 1928.

(14) Ed. Bayrūt, 2 v.

(15) Cf. J. Vernet, *Literatura árabe*, Barcelona, s.a. p. 104.

sino en nuestros días. Para justificar su consideración y su utilidad veamos lo que dicen acerca de ella algunos autores tanto antiguos como modernos.

Testimonio de valor parcial, por tratarse de una anécdota recogida por su hijo Muhammad<sup>(16)</sup>, es el relato que le contó uno de sus compañeros en el que nos muestra el valor que tuvo para él esta obra : «Vi en sueños a tu padre en un gran palacio, sentado en un trono de patas doradas. Me hizo una pregunta y yo le dije : Oh señor, mencionaste en tu libro titulado *al-šifā'* tal o cual cosa ? Entonces me preguntó si tenía el libro y le contesté : Sí. A continuación 'Iyāḍ me dijo : Pon tu mano sobre él pues por este libro Dios me servirá de ayuda».

Ibn Farhūn lo elogia diciendo que «sus semejantes reconocieron su habilidad para componerlo y no tuvo competencia por parte de nadie. Más bien se interesaron por su contenido y sacaron mucho provecho. La gente lo transmite y sus ejemplares corrieron por oriente y occidente»<sup>(17)</sup>.

Para Ibn Sa'īd al-Magribī es la obra más importante del qāḍī 'Iyāḍ pues lo llama el «*sāhib al-šifā'*»<sup>(18)</sup>.

Ḥāyī Jalīfa dice que es «muy útil y de gran interés. No se compuso ninguna obra semejante a ella»<sup>(19)</sup>.

Autores modernos como Tor Andrae afirma que «el *šifā'* en Túnez es importante. Durante las noches de ramadān se hace la lectura de esta obra en competencia con la del *Ṣaḥīḥ* de Bujārī. Se le estudia en los medios letrados. Finalmente, los medios populares y, sobre todo, las mujeres le atribuyen particularidades virtuosas sobrenaturales»<sup>(20)</sup>.

Pons y Boigues lo alaba también diciendo que «es un libro muy estimado entre los musulmanes y considerado como la principal obra de A. Iyadh : contiene la historia de la vida y costumbres de Mahoma»<sup>(21)</sup>.

A juicio de Pareja, el *šifā'* es tan sacro para los musulmanes que se tiene por libre de desgracia la casa en que se halla, inmune de naufragio la nave que lo conduce, fuera de peligro el enfermo que lo lee»<sup>(22)</sup>.

En opinión de Epalza «la *Tuḥfa* cita esta obra con elogio y ha sido una fuente para toda la literatura panegirista del Profeta en el norte de Africa y también en oriente»<sup>(23)</sup>.

(16) Cf. *ta'rīf*, 13-14.

(17) *Dibaḡ*, p. 170.

(18) Cf. Ibn Sa'īd al-Magribī, *El libro de la banderas de los campeones*, ed. y trad. E. García Gómez, Madrid, 1942, P. 237 de la traducción.

(19) Cf. *Kašf*, II, 1053.

(20) Cf. *Textes arabes de Takrouna*, I, 255.

(21) Cf. Pons y Boigues, *Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y geógrafos árabe-españoles*, Madrid, 1898, p. 219, n° 174.

(22) Cf. *La religiosidad*, p. 187 ss.

(23) Cf. *La Tuḥfa*, p. 70.

Terminamos este apartado de la valoración del **Kitāb al-šifā'** con unos versos compuestos por un literato en los que alaba también esta obra de la siguiente manera :

«Oh 'Iyāḍ, el paraíso del Edén fue remplazado

por el **šifā'** que compusiste.

En él reuniste auténticas tradiciones del Profeta,

pues es la curación (**Šifā'**) de quien tiene el corazón enfermo»<sup>(24)</sup>.

2.- Con respecto a la segunda parte de nuestro trabajo, vamos a destacar tres aspectos escatológicos contenidos en el texto del **Kitāb al-šifā'** que hemos traducido, junto a otros tantos que se hallan también en el **Kitāb šaḡarat al-yaqīn**, referidos a Mahoma en el día de la Resurrección.

### 2.1.- Mahoma será el primero en salir de la tumba.

En el **Kitāb al-šifā'** se recoge una tradición atribuida a Mahoma que dice : «Cuando sean resucitados (de sus tumbas) yo seré el primero en salir (...) Vestiré una túnica del Paraíso»<sup>(25)</sup>.

Sin embargo, el **Kitāb šaḡarat al-yaqīn** es más explícito a este respecto y relata detalladamente cómo ocurre su resurrección a la llamada expresa de los ángeles : Gabriel, Miguel, Isrāfīl y Ezrael. Dios les dirá : «Id a la tumba de mi querido Mahoma - Dios lo bendiga y salve - . E irán, pero la tierra se habrá convertido/ya en un terreno desierto y no podrán reconocer su tumba. Aparecerá, entonces, su luz como una columna que sube desde su sepulcro hasta la bóveda del cielo. Gabriel dirá : Llama, oh Isrāfīl, pues tú tienes a las criaturas en tus manos. Pero rogará : Oh Gabriel, llama tú, pues tú fuiste su amigo en este mundo. Contestará : me da vergüenza. Isrāfīl pedirá : Llama tú, oh Miguel. Entonces dirá : La paz sea contigo, oh Mahoma. Pero nadie le responderá. Luego se dirigirá al ángel de la muerte : Llama tú. Y exclamará : oh alma excelente, vuelve a tu magnífico cuerpo. Pero tampoco le responderá nadie. A continuación lo hará Isrāfīl : Oh alma excelente, levántate para decidir el juicio, rendir cuentas y hacer la exposición al Misericordioso. Entonces se abrirá la tumba y aparecerá sentado en ella. Sacudirá la tierra de su cabeza y de su barba. Gabriel le dará las dos túnicas y **al-Burāq**»<sup>(26)</sup>.

### 2.2.- Mahoma enarbolará la bandera de la alabanza

Según las tradiciones recogidas en el **Kitāb al-šifā'** el Profeta enarbolará la bandera de la alabanza y todos estarán debajo de ella. Sin embargo, en una sola tradición de este texto se dice que llevará la de la generosidad. Así pues, Mahoma dijo : «Enarbolaré la bandera de la alabanza, sin presunción (por

(24) Cf. Ḥaḡyī Jalīfa, **Kaśf** II, 1055.

(25) Cf. **apéndice**, 207.

(26) Cf. Abu l-Ḥasan al-Aś'arī, **Kitāb šaḡarat al-yaqīn**. Tratado de escatología musulmana. Estudio, edición, traducción, notas por Concepción Castillo Castillo, Madrid, 1988, fol. 62 r. ss.

mi parte) y entonces no habrá más profeta que Adán y todos, excepto él, estarán debajo de mi bandera»<sup>(27)</sup>.

En el *Kitāb šaʿyarat al-yaqīn* se dice que el Profeta enarbolará la bandera de la alabanza aunque no todos estarán debajo de su bandera porque habrá otras personas que ondearán también otras enseñas que representan la virtud en la que destacaron en este mundo y serán seguidas por los mortales que se distinguieron en las mismas. De este modo, se dice en una tradición que «será enarbolarada la bandera de la credulidad (*liwā' al-ṣidq*) de Abū Bakr y cada hombre crédulo estará debajo de su bandera ; la bandera de la justicia (*liwā' al-adl*) de 'Umar / y cada justo estará debajo de su bandera ; la bandera de la generosidad (*liwā' al-sajāwa*) de 'Utmān b 'Affān y cada generoso estará debajo de su bandera ; la bandera de los mártires (*liwā' al-ṣuhadā'*) de 'Alī b Abī Tālib y cada mártir estará debajo de su bandera ; la bandera del derecho musulmán (*liwā' al-fiqh*) de Ma'ād b Yabal y cada jurisconsulto estará debajo de su bandera ; la bandera de la vida ascética (*liwā' al-zuhd*) de Abū Darr al-Gifārī y cada asceta estará debajo de su bandera ; la bandera de la pobreza (*liwā' al-faqr*) de Abū Dardā' y cada pobre estará debajo de su bandera ; la bandera de los lectores coránicos (*liwā' al-muqri'in*) de Ubayy b Ka'b y cada lector estará debajo de su bandera ; la bandera de los almuédanos (*liwā' al-adān*) de Bilāl b Ḥamāma y cada almuédano estará debajo de su bandera ; y la bandera de los asesinados injustamente (*liwā' al-maqtūl*) de Ḥusayn b/ 'Alī y cada asesinado injustamente estará debajo de su bandera»<sup>(28)</sup>.

En esta obra también se recoge una tradición en la que el Profeta describe detalladamente la bandera de la alabanza de la siguiente manera : «Su longitud es la distancia que se recorre en mil años y está escrito en ella : «Sólo hay un Dios y Mahoma es Su Enviado». Su anchura es igual a la distancia que hay entre el cielo y la tierra. El mástil es de rubí y el puño de plata blanca y esmeralda verde. Tiene tres penachos de luz : Uno en Oriente, otro en occidente y otro en medio de este mundo. En ella hay tres renglones escritos. En el renglón primero : «En el nombre de Dios, Clemente y Misericordioso». En el segundo : «Alabado sea Dios, Señor de los Mundos». Y en el tercero : «Sólo hay un Dios y Mahoma es Su Enviado». Cada renglón tiene una distancia de mil años y en torno a él hay noventa mil legiones. Cada legión tiene setenta mil filas de ángeles y en cada fila quinientos mil ángeles que alaban a Dios - ensalzado sea - y lo adoran»<sup>(29)</sup>.

Para resaltar la omnipotencia de Mahoma se recoge en una tradición que cuando la bandera de la alabanza sea enarbolarada el día de la Resurrección, los infieles estarán libres del fuego<sup>(30)</sup>.

(27) Cf. *Apéndice*, p. 207.

(28) Cf. *op. cit.*, fol. 79 v. ss.

(29) Cf. *op. cit.*, fol. 79 r. ss.

(30) Cf. *op. cit.*, fol. 79 v.



### 2.3.- Descripción del Estanque (ḥawḍ) de Mahoma.

En el *Kitāb al-sīfā'* se relata una tradición que se remonta hasta el Profeta en la que se hace una descripción minuciosa del **Estanque** destacando sobre todo su longitud, sus aguas, su perfume, etc. Para describirnos mejor su longitud lo ejemplifica señalando la distancia que existe entre ciudades de este mundo y así se pueda comprender mejor. Dirá el Profeta : «Mi estanque (ḥawḍ) tiene un recorrido de un mes. Sus ángulos son iguales, su agua es más blanca que la plata, su perfume es mejor que el almizcle y sus chorros son como las estrellas del cielo. Quien beba en él no tendrá nunca sed. (...) Su longitud es lo que hay entre Umān y Ayla<sup>(31)</sup>. Por él brotan dos canales del paraíso (...) : Uno de ellos es de oro y el otro de plata»<sup>(32)</sup>.

El **Estanque** de Mahoma no se describe en el *Kitāb ṣaḥārat al-yaqīn* ni se le compara con nada de este mundo, solamente se cita de pasada como por ejemplo cuando se dice que en él estará Mahoma dando de beber a la gente en vasijas y a los sabios con la palma de sus manos<sup>(33)</sup>.

### 3.- Conclusión

La conclusión que se impone al final es que el *Kitāb al-sīfā'* es una obra claramente apologética del Profeta, como dijimos al principio, en la que se le ensalza, pero en el *Kitāb ṣaḥārat al-yaqīn*, aunque es una obra de temática distinta, también se ve ensalzada la figura de Mahoma incluso relatando párrafos con más detalle - no olvidemos que es un tratado de escatología - que en la obra anterior. Esto nos indica que el qāḍī 'Iyāḍ y al-Aṣ'arī, autores de dichas obras, son dos admiradores de Mahoma y que Este ha sido, es y será para los musulmanes el eje en torno al cual gira no sólo toda la producción de obras dedicadas específicamente a El como el *K. al-sīfā'* sino también cualquier tipo de obras religiosas.

### 4.- Apéndice

ACERCA DEL FAVOR DEL PROFETA - DIOS LO BENDIGA Y SALVE  
- EN EL DIA DE LA RESURRECCION RESPECTO AL PODER  
CARISMATICO.

Nos contó el qāḍī Abū 'Alī que Abū Faḍl y Abū l-Ḥusayn dijeron : Nos refirió Abū Ya'lā que contaron al-Sin'ī, Ibn Maḥbūb, al-Tirmidī, al-Ḥusayn b Yazīd al-Kūfī, 'Abd al-Salām b Ḥarb por referencia de Layt, tomándolo de Rabi' ibn Anas y a su vez de Anas - Dios esté satisfecho de él - que dijo : El

(31) Uman es una cora árabe en la orilla del mar del Yemen y la India. Está en el Iqlm primero. Cf. Ya'qūt, *mu'ṣam*, v. 4, p. 150.

Ayla es una ciudad a orillas del mar de al-Qulzum (cerca de Siria).

Se dice que es la última del Ḥiḏāz y la primera de Siria. Es una ciudad pequeña. Otros dicen que está entre al-Fuṣṭat y la Meca, a orillas del mar al-Qulzum. Cf. Ya'qūt, *mu'ṣam*, I, 292.

(32) Cf. *Apéndice*, p. 208.

(33) Cf. *op. cit.* fol. 82r. A los sabios les da de beber así porque en este mundo se dedicaron a la ciencia y las gentes al comercio.

Enviado de Dios - Dios lo bendiga y salve-dijo : **Cuando sean resucitados (de sus tumbas) yo seré el primero de todos en salir.** Seré su predicador cuando vengan y su misionero cuando estén desesperados. **Enarbolaré la bandera de la alabanza** y seré el más excelente de los hijos de Adán ante mi Señor, sin presunción (por mi parte).

En la narración de Ibn Zuhri por referencia de al-Rabī' b Anas en torno a la expresión de este relato : «**Cuando sean resucitados (de sus tumbas) yo seré el primero de todos en salir.** Seré su guía cuando vengan, su predicador cuando callen, su intercesor cuando sean encarcelados y su misionero cuando estén afligidos. **Enarbolaré la bandera de la generosidad** y seré el más generoso de los hijos de Adán ante mi Señor, sin presunción (por mi parte). Me rodearán mil servidores como si fueran perlas creadas». Y referente a Abū Hurayra - Dios esté satisfecho de él - (El Profeta dijo) : **Vestiré una túnica del paraíso** y a continuación me pondré a la derecha del Trono, pues ninguna criatura permanecerá en este lugar excepto yo.

Abū Sa'īd al-Judrī refiere que el Enviado de Dios - Dios lo bendiga y salve - dijo : El día de la Resurrección seré el Señor de los hijos de Adán. **Enarbolaré la bandera de la alabanza, sin presunción (por mi parte), y entonces no habrá más profeta que Adán y todos, excepto él, estarán debajo de mi bandera.** Yo soy aquel por el que se resquebrajará la tierra, sin presunción (por mi parte).

Por referencia de Abū Hurayra (el Profeta) - Dios lo bendiga y lo salve - (dijo) : El día de la Resurrección seré el señor de los hijos de Adán, el primero cuya tumba se resquebrajará, el primero que abogará y el primer abogado eficaz. Referente a Ibn 'Abbās - Dios esté satisfecho de ellos dos - : **El día de la Resurrección seré el portador de la bandera de la alabanza, sin presunción (por mi parte).** Seré el primero que abogará y el primer abogado eficaz, sin presunción (por mi parte). Seré el primero que moverá la aldaba del paraíso y será abierto para mí. Entraré y entrarán conmigo los pobres creyentes, sin presunción (por mi parte). Seré el más generoso de los primeros y de los últimos, sin presunción (por mi parte). Y por referencia de Anas : Seré el primero de la gente que intercederá en el paraíso y al que le seguirá más gente.

Y por referencia de Anas - Dios esté satisfecho de él - el Profeta - Dios lo bendiga y salve - dijo : Seré el señor de la gente el día de la Resurrección y ¿sabeis para quien es esto ? . Dios reunirá a los primeros y a los últimos... y mencionó el relato de la intercesión. Y con respecto a Abū Hurayra - Dios esté satisfecho de él - (el Profeta) dijo : El día de la Resurrección, espero ser el mayor profeta en remuneración.

Y en otro relato : ¿Acaso no preferís que el día de la Resurrección estén con vosotros Abraham y Jesús ? . A continuación dijo : Ellos estarán en mi comunidad el día de la Resurrección. Por lo que se refiere a Abraham, dirá : Tú esres mi apóstol y mi descendencia ; por consiguiente colócame en tu comunidad. Y en cuanto a Jesús, los profetas son hermanos de los banū Allat,

sus madres son distintas pero Jesús es mi hermano. Entre nosotros no hay profeta y yo soy más digno para la gente que él.

Sus palabras : Seré el señor de la gente el día de la Resurrección, quieren decir : su señor en este mundo y en el día de la Resurrección. Sin embargo, señala Mahoma la separación en él del poderío y de la intercesión sin otro intercesor, puesto que la gente se refugia en él porque ya no encuentran a nadie excepto a él. El Señor es aquel en quien la gente se refugia en sus necesidades. Es, por tanto, (Mahoma) un único señor entre los hombres con el que no rivalizaba nadie en eso ni lo reivindicaba, como dijo Dios - ensalzado sea - : **?A quién pertenecerá el señorío aquel día ? A Dios, el Único, el Victorioso** (Cor., 40, 16). Y el reino es para El - ensalzado sea - en este mundo y en el otro. Sin embargo, en el otro, la petición de los demandantes se acabó en este mundo y así toda la gente se refugia en Mahoma, en la intercesión. Por consiguiente, será su señor en la otra vida sin una petición.

Por referencia de Anas - Dios esté satisfecho de él - el Enviado de Dios - Dios lo bendiga y salve - dijo : El día de la Resurrección iré a la puerta del paraíso y pediré que se abra. Entonces el guardián dirá : ?Quién eres tú ? Contestaré : Soy Mahoma. Añadirá : Se me ordenó que no abriera a nadie antes que a ti.

'Abd Allah b 'Amr refiere que el Enviado de Dios - Dios lo bendiga y salve - dijo : **Mi estanque (Ḥawḍ) tiene un recorrido de un mes. Sus ángulos son iguales, su agua es más blanca que la plata, su perfume es mejor que el almizcle y sus chorros son como las estrellas del cielo. Quien beba en él no tendrá nunca sed.** Abū Darr está de acuerdo con él y añade : **Su longitud es lo que hay entre Umān y Ayla. Por él brotan dos canales del paraíso.** Según Tawbān, lo mismo, pero añade : **Uno de ellos es de oro y el otro de plata.** En el relato de Ḥārīta b Wahb (su longitud es) como entre Medina y San'a. Y dijo (también) Ayla y Ṣa'nā. Según 'Umar como entre Kūfa y la Piedra Negra.

Cuentan también el relato del **Estanque** : Anas y Yābir b Samura, Ibn 'Umar, Uqba b 'Amr, Ḥārīta b Wabḥ al-Jaza'i, al-Mustawrid, Abu Barza al-Aslanī, Hudayfa b al-Yaman, Abū Umama, Zayd b Arqam, Ibn Ma'sud, 'Abd Allāh b Zayd, Sahl b Sa'ad, Suwayd b Yabala, Abū Bakr, 'Umar b al-Jaṭṭāb, Ibn Burayda, Abū Sa'id al-Judrī, 'Abd Allāh al-Sunabihi, Abū Hurayra, al-Barrā', Yundub, 'A'īsa, Asma bint abī Bakr, Abū Bakra, Jawla bint Qays, etc. Dios esté satisfecho de todos ellos.